المؤلفات الكاملة

مي زياده

جمع وتحقيق
سلمى الحفار الكزبري

المجلد الثاني



مؤسسة نوفل

مي زياده

الأعمال الكاملة

المجلدُ الثاني

كلمات وإشارات ج١

كلمات واشارات ج٢

ظلمات وأشعة

الصحائف

سوانح فتاة

ابتسامات ودموع

رجوع الموجة

مي زياده

الأعمال الكاملة

تقديم

سلمى الحفّار الكزبري

المجلّدُ الثاني

مؤسسة نوفل
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٩٨٢

بيروت - شارع المعماري - بناية نوفل - ص.ب. ٢١٦١-١١
تلفون: ٣٥٤٨٩٨ - ٣٥٤٣٩٤ - تلكس: نوشتن: ٢٢٢١٠ لبنان

کلماتُ واشاراتُ

١

حفلة "الكوخ الأخضر"

لا أَجرُؤ على رفع كأسي لأنَّ مَن رفع كأسهُ في مثل هذا الموقف وَجَب عليه تأدية الثمن كلاماً بليغاً. وأنَّى لي البلاغة، أنا التي يتعثَّر لساني في اللفظ العربيّ البسيط؟ وكيف أجيء بالكلمة المُحكَمة أنا التي لا أعرف شيئاً، وقد فاجأتني عنايتكم بقولٍ جميل منظومٍ ومنثور، وبثناءٍ قد يستحقه عالمٌ قضى عشرات الأعوام في البحْث والتنقيبِ والإنتاج، ولكنهُ يدهش فتاةً ما زالت عاكفةً على كتب التلمذة الأُولى، تستظهر من الدروس ما يستظهره طَلَبَة المدارس الابتدائية تقريباً، وتهيء فروضاً اعتاد التلاميذ تهيئتها خِلال العطلة الصيفية، لم يُبنَ هذا الكوخ لهذه الفروض وتِلك الدروس فحسب وإنما أردتُ أنْ يكون لي أيضاً خَلْوة أحلمُ بها وألعب وألْهو. ولكنكم تجمهرتم قربهُ ودشَّنتموه كما تدشَّن الصُّروح الكبيرة، ورفعتم فوقهُ علمَاً يخفق بين الغصون، وأثرتم حوله في هدوءِ الغِياض تصفيقاً وإنشاداً.

فلمن فعلتم ذلك؟ ولماذا أنتم فاعلون؟

لو علمتُ أنَّ الاحتفاء بي وحدي مجردة لحَبَسَ الخجلُ كلمة الشكر على شفتيَّ ولاختلجت يدي وهي تحمل الكأس. ولكني أعلم أنَّ الغاية من هذا التكريم أبعد من أن تُحصر في فتاة، وأعظم من أنْ تُوجَّه إلى فرد. وإنما الغاية منهُ تشجيع الفتاة الشرقية عموماً التي تقولون لها في شخصي

أُلقيت في الحفلة التي أُقيمت في منتصف شهر آب (أغسطس) سنة ١٩١١ في ضهور الشوير بلبنان.

إنَّ في الشرق روحاً جديدة تطلب نهضتها ، وإنَّ عيونكم ترقبها وقلوبكم ترعاها منتظرةً ما ينمُّ عن رغبتها في النهوض أو عن مجرَّد مَيْلها إليه ، لتمدّوها بالقوَّة والتنشيط الممكن .

دفعتكم هذه الروح الجديدة إلى تحيُّن الفرص فاتخذتموني واسطة ، أيها السادة أعضاء لجنة الاحتفال . اتخذتموني واسطة ، وأردتم أنْ يكون هذا الكوخ حَجراً معنويّاً في صرح النهضة النسائية ، ورمزتم بهذا العلَم إلى رايةِ تحرير العقول من الخرافات والأوهام ، وما كانت أصوات الهتاف إلاّ أصوات نفوس تحثُّ المرأة والفتاة العصرية على السَّير إلى الأمام . « إلى الأمام ! » هذا ما أردتم أنْ تقولوا .

وأنا التي اتخذتموني واسطة لإظهار هذه الرغبات الحية والعواطف النبيلة أراني الساعة ممتلئة بكرامة وأهمية لم أشْعر بها من قبل . تلك نتيجة المسؤولية دواماً . وغداً عندما أعبرُ عتبة هذا الكوخ الصغير الذي جعلته حفاوتكم عظيما ، سأنظر إليه بعينين جديدتين فيتخذ انفرادي فيه معنى أسمى وأجلّ من أحلام الفتاة وأهوائها وألعابها . لأنكم نبهتموني إلى أنه على فتاة هذا الجيل أنْ تهدم حدودَ شخصيتها الفردية الضئيلة لترى المجموع ممثّلاً في ذاتها : فتنتفع لتنفعه ، وتسير لتسيّره ، وترتقي لترقّيه .

كلّكم تقريباً ، أيها السادة أعضاء لجنة الاحتفال ، من أبناء سوريا الذين انطلقوا إلى ما وراء البحار باحثين عن ميدان واسع يمرّنون فيه قوى نشاطهم وذكائهم الفطريّ . وها قد ألقيتم ، خلال إقامتكم القصيرة في بلادكم ، شرارة الحياة في دائرة الحركة النسائية . ستعودون أنتم إلى ديار استوطنتموها ولكن الشرارة هنا لن تخمد .

وبالشخصية الجديدة التي ألبستموني أرفعُ الجبهة عالياً وأرفع الكأس بيد ثابتةٍ ، والفخر فيَّ يتغلب على التأثر والخجل ، وأشرب نخبكم جميعاً .

شاكرةً اللجنة التي نظَّمت هذا الاحتفال ، والأمير قبلان أبي اللمع الذي تصدَّره ، والخطباء الذين جمّلوه ببيانهم ، والسادة والسيدات الذين زانوه بحضورهم . ولما كان من أهم دواعي سروري أن أرى مصر وسوريا متحاذيتين في هذا الاجتماع ، وأنْ أسمع الخطيب المصري يتلو الخطيب السوري مشتركين في الهتاف لمصر وسوريا على هذه القمة البعيدة ، فإني أشرب أيضاً نخب القطرين الشقيقين في هذه الجرعة الواحدة : لتحي مصر وسوريا ! ولتحْيوا جميعاً !

حفلة بكفيا

لساني قاصرٌ لا يهتدي إلى الكلمات المعبِّرة عما يهزني من عوامل التأثر والشكر لأهل هذه البلدة الجميلة الذين خصوني بالتفات رقيق فأقاموا في هذا العيد العظيم هذه الحفلة الأنيقة التي جعلت العيد عندي عيدين . ويا ليت لي بعض ما عند حضرات الخطباء والشعراء من الفصاحة والبراعة ، إذن لقابلت درر أقوالهم بالمثل ، ولما وجدتني متلعثمة في هذا الموقف .

لو كان عندي أزهار ، أيها السادة والسيدات ، لقدمت إلى كلّ واحد وواحدة منكم زهرة تنطق بنضرتها عن شعوري . لكنَّ الأزهار عندي قليلة جُمعت في هذه الطاقة الواحدة ، وأنتم كثيرون . وزهرات الحدائق تعيش يوماً وتموت في غده ، أما زهرات العواطف فتبقى على نضرتها دواماً . فاقبلوا إذاً أزهار شكري القلبيّ وأسمى عواطف امتناني . ودوموا سعداء يمرُّ بكم هذا الموسم عاماً بعد عام وأنتم أبداً صاعدون في معارج العزّ والفلاح .

°

أيها السادة والسيِّدات ،

أجل ، شرقنا جميل ولكن الروح الشرقية التي تحييه أجمل منه .

القيت في الحفلة التي أقيمت مساء ١٥ آب (أغسطس) (يوم عيد العذراء) سنة ١٩١٢ في بكفيا بلبنان .

ومياه الشرق عذبة ، وأعذب منها العواطف الغزيرة المتدفقة في صدر الشرقيّ . وكلٍ ما في الشرق من جبال وأودية ، من مروج وسهول ، من أنهار وأشجار بهيٍّ بهج ، وأبهى من كل ذلك وأبهج ، تلك المكارم الكامنة في ثنايا الروح الشرقية . والتاريخ الشرقي تاريخ مجد وفخر ، ولكنَّ هناك شيئاً أعظم منه وهو الذكاء الشرقي الذي أوجد التاريخ .

هلاَّ ذكرتم يوم كانت بلادنا نبراس الأُمم وقائدة الشعوب ؟ هلاّ ذكرتم يوم كانت بلادنا مهد العلوم والصنائع والفنون ؟

على شواطئنا هذه ، على شواطىء فينيقيا القديمة ، ترعرع الفكر البشريّ وأطلَّ الرقيُّ من بين غيوم الجهل والخمول . كان البحر قبل الفينيقيين عصيّاً فعالجته همتهم القعساء فأطاع ، وسيَّروا فيه سفنهم طولاً وعرضاً حاملين إلى بلاد قامت على شواطئه ثمرة أتعابهم الفكرية واليدوية ومبادىء المعارف الاجتماعية .

انحنى الفينيقيون على الأرض فشقُّوا أديمها مستخرجين من أحشائها الثروة والغلال ، وتصرَّفوا بالمياه الضائعة في جوفها فاستخدموها لتعزيز الزراعة . لمسوا الصخر فلبَّى صاغراً ، وحدَّقوا في العناصر فانقادت لهم ، وما زالوا يكدّون ويستنبطون حتى وضعوا للمستقبل قاعدة ارتقاء متينة .

نعم ، هنا ابتسم الرقي ابتسامته الأُولى ، وهنا خطا التقدم خطوته الأُولى ، ومن هنا نقلت مبادىء العلوم والفنون والصناعة والتجارة إلى اليونان ، إلى الرومان ، إلى العالم .

قبل فينيقيا لم يكن يعرف أهل الحبشة قيمة ما عندهم من عاج ومواد ثمينة أُخرى ، فسارت إليهم قوافل الفينيقيين فانتبهوا وتيقَّظوا .

قبل فينيقيا لم يعرف أهل الجزر البريطانية معنى التجارة ، وظلُّوا جاهلين وجود معادن بها يقوم غناهم حتى ذهب إليهم قدموس التاجر

الفينيقيّ على ظهر سفينته السوداء ، فألفتهم إلى ما لديهم وعلَّمهم أساليب التجارة .

قبل فينيقيا كان الفكر البشريُّ محدوداً مقيَّداً عاجزاً عن إبراز نفسه إلى عالم الوجود لصعوبة الكتابة الهيروغليفية . فلخَّص الفينيقيون تلك الرسوم الهيروغليفية العديدة في الحروف الأبجدية ، جاعلين لكل مقطع صوتي حرفاً . ومن الحروف تتألف الكلمات ، ومن الكلمات تتركب الجمل ، وبين الجملة والجملة على صفحات الأوراق تتجلى الأرواح ، وتخفق القلوب ، وتسيل الدموع ، ويسطع الفكر الإنسانيُّ بأنواره الباهرة .

كذلك حملت فينيقيا إلى اليونان مبادىء الفنون المختلفة ، وعلَّمت الأمم أساليب الاستعمار . فهل نحن ذاكرون أنه علينا أنْ نستخرج من مستقبلنا تاريخاً لا يخجل حياله التاريخ القديم ؟

●

لقد قال عنَّا أهل الغرب ما قالوا فدعهم يَفْترون ! إنَّ لكل أمة خطةً سنَّتها أقدار الحياة ، وكل ما في الكون متموِّج إلى الأبد : فالأرض متموِّجة وأمواجها الجبال والسهول ،

والمياه والبحار متموّجة وأمواجها دوائر ودُوَّام ومدٌّ وجزر ،

والاثير يتموج ناقلاً في تِيه الفلك الأصوات والأنوار والحرَّ والبرد ،

وفي المادة تتموج العناصر الكيماوية تموُّجاً عجيباً ،

والنفس الإنسانية متموجة بعواطفها وأفكارها ورغائبها وميولها .

وكذا أحوال الشعوب تصعد وتنحدر ، وترتقي وتنحطّ ، وتتقدم وتتقهقر . فما من أُمة بلغت شأواً من الحضارة بعيداً إلاّ عادت تتراجع أو تتوقف عن المسير زمناً فيه تسبقها الأُمم الأُخرى . غير أنَّ هذه المْوجات العُمرانية الواسعة لا تراها وتثبتها الا العصور البعيدة .

توقّف الشرق زمناً فقال الغرب : « هوذا الشرق في سُبات عميق يشبه الموت » . لكنْ لم يلبث أن نفض الشرقُ عنه أكفان الهوان ونهض نهضة أدهشت من كان يحسبنا في غفوة لا تعقبها يقظة . فبلغت اليابانُ اليوم مبلغ أرقى الأمم في علومها وصناعاتها ونظاماتها ، وفي تأهّبها لدفع الطوارىء فملكت ناصِيـَةَ القوتين الهائلتين : الأدبية العلمية والوحشية الحربية . وها هي الصين المائجة بسكّانها كالنمل تنهض بثورتها الحاضرة ، بعد جمود طويل ، نهضة يُرجى منها كل خير . هذا في الشرق الأقصى ، أما في الشرق الأدنى فكلُّنـا يذكر الثورة العثمانية وإنْ لم تأتنا بكل ما توقّعناه من حسن النتائج . والخلاصة : إنَّ المطلع على تاريخنا منذ نصف قرن ، يعلم أن الفرق بين ما كنا عليه وصرنا اليه كبير .

●

الثورة العثمانية ! تلك الحركة العظيمة غير الدموية التي أذهلت الغرب ، لم نستفد منها كثيراً لأن الأُمة لم تشترك فيها اشتراكاً محسوساً ، بل كانت حركة عسكرية قُصِر التبديل فيها على هيئة الحكومة ، لكنها لم تغير من أخلاقنا شيئاً . يجب أن تكون الثورة فردية داخلية قبل أنْ تصير قومية عمومية : ثورة في الأفكار ، ثورة في المبادىء ، ثورة في الاحتياجات ، ثورة في المطالب ، ثورة في كيفية المعيشة . يجب أنْ نغيّر طبائعنا قبل أنْ نغيّر حكّامنا ، يجب أنْ يعكِف كلٌّ على إصلاح نفسه قبل أن يتصدى لإصلاح الجمهور ، يجب خصوصاً أنْ نفهم معنى التضامن ، وأنْ نتكاتف ليس لغايات شخصيّة بل للخير العام ، والمصلحة العامة التي تشمل العدوَّ والصديق والبعيد والقريب ، بل تشمل أبناء الوطن على الإطلاق . والتضامن من ارتقاء الجمهور بمثابة الاعتماد على النفس من ارتقاء الفرد . وما أقدر الذكاء والتضامن إذا هما مشيا جنباً إلى جنب !

●

والآن وقد فرغتُ من الكلام فأعزُّ ما أتمنى هو أن أرى أبناء الوطن مُتَّحدي الكلمة ، موحدي الغاية ، مترابطين بالتضامن والتعاون ليعيدوا للشرق عزّه الغابر ومجده القديم .

وتحيتي الأخيرة إلى لبنان . لبنان ! يجب أنْ أنحني لهذه الكلمة العذبة المحبوبة .

لبنان ! هي كلمة واحدة ، هي لفظة صغيرة ، ولكن كل الحب وكل الرجاء فيها لأنّها اسم الوطن الغالي .

لبنان ! الأمواج الزرقاء الطريه تلثم قدمه ، والثلوج البيضاء الطاهرة تكلّل جبهتهُ ، في صدره قبور الجدود والأحباب ، والتربة منه تعطف على بقاياهم عطف الأم على رضيعها . وعلى أكتافه يتنقّل أبناؤه الأحياء أقوياء بالهمة والنشاط والأمل . ومن هؤلاء ينتظر شبيبةً ذكية مفكرة عاملة ، ومنهم ينتظر مستقبلاً سعيداً وحياةً ومجداً .

فليحي لبنان ، وليحي الشرق !

تكريم خليل مطران الشاعر البعلبكي

١

في مدينة بعلبك ١١٢ قبل الميلاد

جلس الأمير على عرشه الذهبي المحاط بالمسارج المشتعلة والمباخر المتقدة ، فجلس القوّاد والكهّان عن يمينه وشماله ، ووقف الجنود والعبيد أمامه وقوف الأنصاب أمام وجه الشمس .

وبعد هنيهة وقد انتهى المرتلون من إنشادهم ، وتوارت أنفاسهم بين طيّات أثواب الليل ، وقف كبير الوزراء أمام الأمير ، وقال بصوت تهدجه ضآلة الشيخوخة :

« أيها الأمير العظيم ، قد جاء المدينة بالأمس حكيم من حكماء الهند ذو أطوار غريبة ومذاهب جديدة لم نسمع قط بمثلها . فهو يدعو الناس إلى الاعتقاد بتقمص الأرواح من جسد إلى جسد ، وانتقال النفوس من

(١) أرسل هذه المقالة كاتبها إجابة لطلب سليم سركيس ، الذي دعا شعراء العالم العربي وكتّابه إلى الاشتراك بتكريم خليل مطران ، بإرسال نفثات أقلامهم لتتلى في الحفلة التي ستقام له لمناسبة الإنعام عليه بالوسام المجيدي الثالث . وقد تُليت هذه المقالة مع التعليق عليها في تلك الحفلة الفخمة التي أقيمت في سراي الجامعة المصرية مساء ٢٤ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٣ .

جيل إلى جيل حتى تبلغ الكمال ، وتصير إلى مصفّ الآلهة . وقد جاء الليلة طالباً الدخول عليك ليبسط تعاليمه أمامك » .

فهز الأمير رأسه ، وقال مبتسماً :

« من بلاد الهند تأتي الغرائب والعجائب فادخلوه لنسمع حجّته » .

ولم تمر دقيقة حتى دخل القاعة كهل أسمر اللون ، مهيب المنظر ، ذو عينين كبيرُتين وملامحُ مُنْفرجة ، تتكلم بلا نطق عن أسرار عميقة وأميال غريبة . وبعد ان انحنى مستأذناً ، رفع رأسه وتلمّعت عيناه وطفق يتكلم عن بدعته ، مظهراً كيف تنتقل الأرواح من هيكل إلى هيكل مرتقبة بعوامل الوسط الذي تختاره ، متدرّجة بتأثيرات للأُمور التي تختبرها متمايلة مع الأمجاد التي ترفعها وتقويها ، نامية مع الحب الذي يسعدها ويشقيها ... ثم تطَرّق إلى كيفية انتقال النفوس من مكان إلى مكان ، باحثة عما تحتاج إليه من الكماليات ، مكفّرة في حاضرها عن ذنوب اقترفتها في ماضيها ، مستغلّةً في بلد ما زرعتهُ في بلد آخر .

ولما طال الكلام وقد بدت على ملامح الأمير سيماء الملل والضجر ، اقترب كبير الأمراء من الحكيم وهمس في أذنه قائلاً « كفى الآن فدع البحث إلى فرصة ثانية » .

فتراجع الحكيم إلى الوراء وجلس بين الكهان مطبقاً أجفانه كأن عينيه قد تعبتا من التحديق في خفايا الوجود وأسراره .

وبعد سكينة شبيهة بغيبوبة الأنبياء ، تلفّت الأمير إلى اليمين وإلى اليسار ، ثم سأل قائلاً « أين شاعرنا فقد مرّ زمن ولم نرهُ ... ماذا حلَّ به وكان يحضر مجلسنا كل ليلة ؟ » .

فقال أحد الكهان « قد رأيته منذ أُسبوع جالساً في رُواق هيكل عشتروت وهو ينظر بعينين جامدتين كئيبتين نحو الشفق البعيد كأنه أضاع بين الغيوم

قصيدة من قصائده » .

وقال أحد القواد « قد رأيته بالأمس واقفاً بين أشجار السَّرْوِ والصفصاف، فحييته ولم يرد التحية بل ظلَّ غارقاً في بحر أفكاره وأحلامه » .

وقال رئيس الخصيان « قد رأيته اليوم في حديقة القصر ، فدنوت منه فوجدته أصفر اللون شاحب الوجه ، تُراود الدموع أجفانه وتتلاعب الغصَّات بأنفاسه » .

فقال الأمير بصوت تلاحقهُ اللهفة « إذهبوا وابحثوا عنه وعودوا به مسرعين فقد أشغل بالنَـا أمره » .

خرج العبيد والجنود يبحثون عن الشاعر ، وظل الأمير وأعوانه صامتين حائرين مترقبين كأن نفوسهم قد شعرت بوجود شبحٍ غير منظور منتصب في وسط تلك القاعة .

وبعد هنيهة عاد رئيس الخصيان وارتمى على قدمي الأمير كطائر رماهُ الصيَّاد بسهْم ، فصرخ به الأمير قائلاً « ما الخبر . ماذا جرى ؟ » .

فرفع الزنجي رأْسه وقال مرتعشاً : « قد وجدنا الشاعر ميتاً في حديقة القصر » .

فانتصب الأمير وقد علت سحْنته سيماء الحزن والكمد ، ثم خرج إلى الحديقة يتقدمه حاملوا المسارج ويتبعه القواد والكهان . ولما بلغوا أطراف الحديقة حيث أشجار اللوز والرمان ، جلت لهم أشعةُ السُّرج الصفراء جثة هامدة مرتمية على الأعشاب كغصن ورد ذابل .

فقال أحد الأعوان « أنظروا كيف عانق قيثارته كأنها صبية حسناء أحبها وأحبته فتعاهدا على أنْ يموتا معاً » .

وقال أحد القواد « لم يزل يحدِّق في أعماق الفضاء كعادته كأنه يرى بين الكواكب خيال إله غير معروف » .

وقال رئيس الكهان مخاطباً الأمير « غداً نقبره في ظِلال هيكل عشتروت المقدسة . فيسير سكان المدينة وراء نعشه ، وينشد الفتيان قصائده ، وتَنثر العذارى الأزهار على ضريحه . لقد كان شاعراً عظيماً فليكن احتفالنا بدفنه عظيماً » .

فهزَّ الأمير رأسه دون أنْ يحوّل عينيه عن وجه الشاعر المتشح بنقاب الموت ، ثم قال ببطءٍ « لا . لا ، لقد أهملناه إذ كان حيّاً يملأُ جوانب البلاد من أشباح نفسه ، ويعطر الفضاء بأنفاسه ، فاذا ما أكرمناه ميتاً تسخر بنا الآلهة وتضحك منا عرائس المروج والأودية .. ادفنوه ههنا حيث فاضت روحه ، وابقوا قيثارته بين ذراعيه ، وإنْ كان بينكم من يريد أنْ يكرِّمه فليذهب إلى بيته ويخبر أبناءه بأنَّ الأمير قد أهمل شاعره فمات كئيباً وحيداً منفرداً » .

ثم التفت حوله وزاد قائلاً « أين الفيلسوف الهندي ؟ » .

فتقدّم الفيلسوف وقال « ها أنذا أيها الأمير العظيم » .

فقال الأمير « قلْ ـ قل أيها الحكيم ـ هل ترجعني الآلهة أميراً إلى هذا العالم وتعيدُهُ شاعراً . هل تلبس روحي جسد ابن مليك عظيم ، وتتجسم روحه في جسد شاعر كبير؟ هل توقفه النواميس ثانية أمام وجه الأبدية لينْظُم الحياة شعراً ، وتعيدني لأنعم عليه وأُفرح قلبه بالمواهب والعطايا ؟ » .

فأجاب الفيلسوف قائلاً « كل ما تشتاقه الأرواح تبلغه الأرواح . فالناموس الذي يعيد بهجة الربيع بعد انقضاء الشتاء سيعيدك أميراً عظيماً ويعيده شاعراً كبيراً » .

فانفرجت ملامح الأمير وانتعشت نفسه ، ثم مشى نحو قصره مفكّراً في أقوال الحكيم الهندي محدِّثاً ذاته بقوله « كل ما تشتاقه الأرواح تبلغه الأرواح » .

٢

« في مصر ـ القاهرة سنة ١٩١٢ للميلاد »

طلع القمر وألقى وشاحه الفضي على المدينة ، وأمير البلاد جالس في شرفة قصره ، ينظر إلى الفضاء الصافي مفكراً في مآتي الأجيال التي مرت متتابعة على ضفاف النيل ، مستوضحاً أعمال الملوك والفاتحين الذين وقفوا أمام هيبة أبي الهول ، مستعرضاً مواكب الشعوب والأمم التي سيّرها الدهر من جوانب الأهرام إلى قصر عابدين .

ولما اتسعت دائرة أفكاره وانبسطت مسارح أحلامه ، التفت نحو نديمه الجالس بقربه وقال « في نفسنا الليلة مَيْل إلى الشعر فأنشدنا شيئاً منه » .

فحنى النديم رأسه وأخذ ينشد قصيدة لشاعر جاهلي ،

فقاطعه الأمير قائلاً « أنشدنا شعراً أحدث عهداً » .

فانحنى النديم ثانية وابتدأ يردّد أبياتاً لأحد الشعراء المخضرمين .

فقاطعه الأمير أيضاً وقال « أحدث عهداً ، أحدث عهداً » .

فانحنى النديم للمرة الثالثة وأخذ يترنم بمقاطيع موشح أندلسي .

فقال الأمير « أنشدنا قصيدة لشاعر معاصر » .

فرفع النديم يده إلى جبهته كأنهُ يريد أنْ يستحضر إلى حافظته كل ما نظمه شعراء العصر ، ثم برقت عيناه وتهلّل وجهه ، وطفق يرتّل أبياتاً خيالية ذات رنة سحرية ومعانٍ رقيقة مبتكرة ، وكنايات لطيفة نادرة تجاور النفس فتملأها شعاعاً ، وتحيط بالقلب فتذيبه انعطافاً .

فحدّق الأمير في نديمه ، وقد استهوته نغمة الأبيات ومعانيها ، وشعر بوجود أيدٍ خفية تجذبه من ذلك المكان إلى مكان قصيّ . ثم سأل قائلاً لمن هذه الأبيات ؟ » .

فأجاب النديم « للشاعر البعلبكي » .

ـ الشاعر البعلبكي !

الشاعر البعلبكي .. كلمتان غريبتان تموَّجتا في مسامع الأمير وولَّدتا في داخل روحه النبيلة أشباح أميال ملتبسة بوضوحها ، قوية بدقتها .

الشاعر البعلبكي .. إسم قديم جديد أعاد إلى نفس الأمير رسوم أيام منسيّة ، وأيقظ في أعماق صدره خيالات تذكارات هاجعة ، ورسم أمام عينيه بخطوط شبيهة بثنايا الضباب صورةَ فتى ميت يعانق قيثارة وقد وقف حوله القواد والكهان والوزراء !

وامحت هذه الرؤيا أمام عيني الأمير مثلما تتوارى الأحلام بمجيء الصباح ، فوقف ومشى جامعاً ذراعيه على صدره مردّداً آية النبي العربي : « وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون » .

ثم التفت نحو نديمه قائلاً « يسرّنا وجود الشاعر البعلبكي في بلادنا وسوف نقربه ونكرمه » .

وزاد بعد دقيقة بصوت منخفض « إنما الشاعر طائر غريب المزايا يفلت من مسارحه العلوية ويجيء هذا العالم مغرّداً فإنْ لم تكرمه يفتح جناحيه ويعود طائراً إلى موطنه » .

وانقضى الليل ، فخلع الفضاء أثوابه المرصعة بالنجوم ، ولبس قميصه المنسوجة من أشعة الصباح ، ونفس أمير البلاد تتمايل بين عجائب الوجود وغرائبه ، وخفايا الحياة وأسرارها .

نيويورك **جبران خليل جبران**

التعليق على الشاعر البعلبكي

١

قدّم سليم سركيس هذا التعليق الذي نشره في مجموعة ما أرسل إليه لتكريم خليل مطران بما يلي :

« لما جاءتني مقالة جبران خليل جبران نزيل نيويورك ، سألت الآنسة مي أنْ تتلوها في الاحتفال فأجابت طلبي وبعد أنْ فرغت من تِلاوة المقالة عادت فذيّلتها بكلمات صاغها قلمها وأبدعها خاطرها ، ولم يكن التعليق الذي ألقته حضرتها قد جاءني عند تقديم الخطبة الأولى للطبع فبادرت إلى نشر كلمات الآنسة مي في هذا المكان » قالت :

*

هنا انتهيت من تِلاوة ما كتبه الشاعر اللبناني نزيل نيويورك . إنّ الأمير فعل الآن ما ندم الأمير القديم على إهماله . فجاء إحسانه إلى الشاعر البعلبكي مصداقاً لقول الحكيم الهندي : « كل ما تشتاقه الأرواح تبلغه الأرواح » .

وصدَى الكلمات الأخيرة التي تموَّجت في مسامعكم ، أيها السادة ، ما زال يرنّ على أبواب فؤادي مثيراً فيه ميلاً إلى الكلام ، منبّهاً في أعماقه شبه قوة اكتفت بالاصغاء حيناً وهي تحاول الانقلاب إلى همس ، إلى نغْمة ، إلى صوت إنسيّ ينقل إلى عالم السمع سرائر التأْثيرات النفسية .

في هذا الاجتماع البهيّ لم نسمع إلا أصوات الرجال مادحة ، مقرِّظة ،

معجبة ، شاكرة ، مفتخرة . وصوتي الصـــوت الوحيد الغريب بين تلك الأصوات القوية الجميلة إنمـا ارتفع ليقوم مقام صوت رجل غائب . والآن أُريد أنْ أتكلم بنفسي وبصوت جنسي .

أُريد أنْ أضمّ إلى صوت الفِكر العظيم الذي ترتجّ لدوِيّه دقائق الفضاء ، صوت القلب الخفيّ المرتجف الذي ترتعش لمروره ذرات الكيان ، وتطرب لصداه خفايا الأرواح .

لقد أهمل الأمير القديم شاعره فمات وحيداً كئيباً ، لكن الأمير عطف على الشاعر البعلبكي فأحيا بعطفه هذا آمالنا بتقدم الآداب وارتقاء الأفكار والعواطف . النبوغ قوة سامية يهبها الله من يشاء من أفراد الأُمة ؛ النبوغ شعلة إلهية تضيء ظلمات الفوضى التي نجد آثارها في كل زمان

ومكان لتضارب الآراء واختلاف المذاهب الفِكرية . غير أنَّ تلك القوة السامية تذبل وتجف وتموت إنْ لم يرطبها إعجاب الجمهور . الشعلة الإلهية التي تحاول ملاشاة ما يحيط بها من الظلمات الغدافية[1] تنطفىء إنْ لم تلق نسيم استحسان تتغذى من عنصره السري وتنمو بجوهره الناري . وإنْ وجد في تلك الشعلة قوة ذاتية تغذيها وتنميها إلى حين فهي لا تلبث حتى تحرق نفسها بنفسها مطفئة لهيبها بدموعها ، مبيدة حياتها بيأسها ، وكانت الشعوب بذلك خاسرة .

فاذا كان بينكم ، أيها السادة ، من يريد إكرام النبوغ الذي نحيّيه اليوم وتربية عاطفة الشكر في صدور الرجال فليذهب إلى بيته ويعلِّم أبناءه ترتيل القصيدة الخليلية ، ويضع بين شفتيّ صغاره رنات تلك الأسجاع الموسيقية .

٥

(١) الشديدة السواد .

والآن لديَّ باقتان : إحداهما صغيرة أنيقة ، جمعتُ زهراتها الزرقاء النحيفة على ضفاف نهر الإخلاص الجاري في سهول الإعظام والإجلال كما يجري النيل الفائض بدموع إيزيس في رياض أوزيريس . تلك الزهرات النضرة هي إشارات حبنا لسماء مصر العزيزة .

°

والباقة الثانية أهديها إليك أيها الشاعر العذب . زهراتها ـ أُنظر إليها تعرفها ـ ليست إلاّ نثرات من روحك الجميلة . نثرات من روحك وبها أعني حميتك وأحلامك ، دموعك وتنهداتك ، يأسك وآمالك .

كم من ليلة غادرتُ العالم الحسيّ لأطير معك إلى تلك العوالم البعيدة القريبة المملوءة أنواراً وطرباً ! كم من ليلة قضيتُها منحنيةً على كلومك الشِّعرية أراقبُ دماء أحزانكَ السائلة أنغاماً وألحاناً ! كم من مرة مِلْتُ أستنشق رائحة دموعك وأُحلل ألوان أشجانك ، ولأشجانك ألوان بديعة ساحرة كألوان الشروق والغروب ، ولدموعك أريج عَطِرٍ مسكر كأرواح الزنبق والفل والياسمين !

هذه باقتي . خذْها . إنما هي بعض ما تركته أنغام شاعر كبير في نفس فتاة شجيَّة .

وكلمتي الأخيرة أُوَجِّهها إليكم ، أيها المصريون الكرام . نحن ضيوف عندكم ، نزلاء في بلادكم ، لكن كرمكم وإخلاصكم ذكَّرانا بأنَّ للمواطن أوطاناً اذا تجاورت الأحبَّة . فعرفنا كنوز نفوسكم ، واقتبسنا بعض عاداتكم ، وتعشَّقنا موسيقى لهجتكم وأحببنا مصر لأننا أحببناكم .

هذه يدي أضمها إلى الأيدي السورية التي تمتد اليوم لمصافحتكم . ومياه سوريا ، وغاباتها ، وقممها الشمَّاء تحييكم الآن بصوتي ـ بصوت الفتاة المرتجفة الواقفة أمامكم ـ مرددة : دوموا والكرم رضيع

قلوبكم ، والعظمة ربيبة نفوسكم !

دوموا مصريين ، يا أبناء النيل العظيم !

المرأة والتمدن

كلمة شكر أُقدمها إلى سعادة رئيس هذا النادي سكاكيني باشا .. وحضرات أعضائه الكرام . إني أشكر لهم حسن ظنهم بي . وألبي الدعوة التي شرفوني بها بغاية السرور . حسن أنْ يقف المرء في وسط قومه ، ولو مرة في العمر ، مناجياً من نفوسهم ذلك الجزء الأكثر حسّاً بما يتراكم على قلبه من الأفكار الجميلة المضنية ، ساكباً أمامهم بعض ما يجول في نفسه من الأماني العزيزات والرغبات الحارات .

ناد شرقي يزينه حضورٌ شرقيون . إنَّ نفسي الشرقية لتهتز طرباً لهذا الموقف ، وسأتكلم بصراحة وثقة كأني الطفلة الأولى من عائلة كبيرة ذات لطف وتسامح ـ طفلة تتكلم بلا خوف ولا وجل مستسلمة لرعاية من هم حولها ، مستبشرة بدلائل الانتباه البادية في أنظارهم وابتسامة التشجيع المرتسمة على شفاههم . ولا محل للعجب إذا تجاسرت على الكلام في ليلة تسمعكم صوت الدكتور نمر . إنَّ الساقية الصغيرة لا تفقد معناها قرب النهر الكبير ، بل إنَّ جمال تدفقه يكسب ضعفها قوة ، وتعطيها جيرته مجداً وفخراً .

ألقيت في حفلة أقامها النادي الشرقي في القاهرة ليلة الثالث والعشرين من نيسان (ابريل) سنة ١٩١٤ امام جمهور غفير من أعضاء النادي والسيدات زوجاتهم وبناتهم .

الموضوع

أيها السادة والسيدات ،

نحن في فصل الربيع والحياة تنبض بقوة في كل جزء من أجزاء الكون . ونيسان رسول الجمال ونبي النُّور ، يسلم أنفاسه الأخيرة تاركاً جماله وأنواره في ذمة أيار ؛ ملك الورود . اذاً لست بحاجة للبحث عن موضوع أحدثكم به ، فان الفصل المار بنا يوحي إليَّ موضوعاً جميلاً . الأزهار ، تلك المخلوقات العجيبة التي لا تراها نفس حساسة إلاّ وتشعر بأنها إزاء سر غامض قد التف بألوان الحدائق والرياض ، وستر معانيه بعطورها .. على أنَّ الوقت ليل ، ورداء الظلام يحجب عن النواظر وضوح الأشياء . والأزهار التي تفتح في النهار وريقاتها كأعلام نصر منشورة ، تنكمش لملامسة الليل ، لأنَّ رطوبة الليل تُذبلها . لكني سأبدلها بزهرة أوفر منها جمالاً ، وأتم شكلاً ، وأدعى الى التفكير ، وأحرى باهتمام ذوي القلوب الغيورة الرحيمة . تلك الزهرة التي تضم في كيانها آيات الحسن الكبرى ، وأسرار الحنان الذي لا يدرك ولا ينقضي . تلك الزهرة التي يعذّبها ظمأ الحرية ، وتتجاذبها العواصف ، وتتقاذفها صرعات الزمان منذ أجيال طوال ، فلا ينقصف غصنها ولا يلتوي . تلك الزهرة النارية التي تناول الدهور آمال المستقبل ، وتنقلُ من ذرية إلى ذرية قبس الحياة العظيم.

لقد عرفتم تلك الزهرة العجيبة ، هي المرأة !

تقهقر نصف الانسانية

أيها السادة والسيدات .

لقد طافت المدنية أنحاء العالم ، وتلألأت أنوارها في القارات الثلاث تباعاً : في الشرق حيث جعلت أحاديث الأقدمين الفردوس الأرضي ،

اتقدت شرارتها الأولى فكانت المدنية كالشمس بازغة من بلادنا . وبعد أنْ نقلت خطوتيها الأوليتين المجيدتين في آسيا وافريقيا ، تناولتها يد أوروبا ورفعتها في جو الجهل المظلم ، وهزتها كقبس سحري قائلة : « أنيري العالم ! » فاستنار العالم وغمرنا ضياء العلم الساطع . وكأني بالمدنية ذكرت أنها أكثرت من الحسنات إلى العالم القديم ، فذهبت تسعى إلى ما وراء البحار البعيدة ، في ذلك العالم الجديد الذي لا تقاليد تقف عثرة في طريق نجاحه ، ولا هو موثق بسلاسل عادات قديمة تجعل الحياة على عاتق الأحياء عبئاً ثقيلاً . في ذلك العالم البكر ، الذي قال فيه أحد كبار المفكرين : « إن كولمبس اكتشفه بينما كان لوثر يحاول هدم العالم القديم » .

أجل . لقد طافت المدنية أنحاء العالم ، ولكن ما حالنا بها ؟ لقد ظهرت معجزاتها في اكتشافات البشر وعلومهم وفنونهم وأساليبهم وكيفية معيشتهم ، إلاّ ان الشقاء ما زال شقاء ، ما زلنا نشاهد حولنا الحرب والفقر والمرض والقتل والانحطاط النفسي ، والعاهات الأخلاقية على تعدد أنواعها . وما برحت الشعوب تشكو حكوماتها ، والأوطان تشقى بابنائها ، والعائلات تتعذب بأفرادها ، والأفراد تتوجع بميولها وتشقى بغرائزها المتناسخة عن وراثات بعيدة وقريبة . كلا ! إن المدنية لم تأت بتمام واجبها بعد ، ولم تصلح من الأحوال إلاّ البعض اليسير أو المتوسط . وأنتم أيها السادة والسيدات ، تعلمون سبب ذلك النقص وتعرفون موضع الضعف من مدنية القرون المنصرمة . ذلك الضعف الشائن والنقص الهائل ليس إلاّ تقهقر نصف الإنسانية ، هو جهل المرأة .

قال هيجو : ليس الرجل وحده الإنسان ، ولا هو المرأة وحدها ، بل هما الإنسان ، والإنسان هما . كل جنس دون أخيه نصف فقط ، ولا يصير عدداً كاملاً إلاّ إذا أُضيف إليه النصف الآخر . لا صحة للمرء

إلا بسلامة دماغه وقلبه ، ولا سعادة للرجل إلاّ بسعادة المرأة .

تاريخ المرأة استشهاد طويل

كيف كان يراها المتقدمون ومنهم أفلاطون ؟

سعادة المرأة !

سل عنها الدهور المتدحرجة في هاوية الزمان ، لو كان للدهور لسان لأنبأتك بما يدمي الفؤاد . المرأة ! لقد جعلتها الهمجية حيواناً بيتيّاً ، وحسبها الجهل متاعاً ممتلكاً للرجل يستعمله كيفما شاء ، ويهجره اذا أراد ، ويحطمه إذا خطر له في تحطيمه خاطر . كانت بعد ذلك عبدة شقيّة وأسيرة ذليلة . ثم ارتقت مع مرور الأجيال إلى درجة طفلة قاصرة ، إلى لعبة يلهو بها السيد في ساعات الفراغ ، إلى تمثال بهرجة تتراكم عليه الأثواب الحريرية والجواهر الثمينة . ومن منا يدري بما كانت تستره الأثواب الحريرية والجواهر الثمينة من قروح القلب الدامية التي لم يضمدها بشر ؟

تاريخ المرأة استشهاد طويل أليم ، ومن أغرب الغرائب أنها لم تجد في القدم صديقاً ولا نصيراً . كانت عامة الشعب تكرهها وتحتقرها وليس ذلك بكثير على قوم جاهلين ، تحجرت منهم القلوب وصمت الأفهام ، فهُم لا يدركون شيئاً مما يتجاوز دائرتهم الصغيرة ، لكني أرى الأمر عجيباً ، بل فظيعاً ، من رجال نحسبهم نوابغ زمانهم وقادة أفكار العالم . لم يذكر شعراء اللاتين من المرأة إلاّ جمال جسدها وليس في قصائدهم ما يدل على تلمس آثار النفس وراء ظواهر الجسد ، وجميعهم متفق على تسميتها : الشيطان الجميل أو ينبوع المسرات السامة . وشعراء اليونان : أسخيلوس وأوربيدس وغيرهما ، يسمونها ـ ببساطة كلية ـ : « بلية العالم » . أما الفلاسفة فأكتفي بأنْ أذكر هنا كبيرهم أفلاطون ، أفلاطون الإلهي ، الذي يعتبره تاريخ الفكر أُمة بأسرها ، أفلاطون ذا الأحلام الغامضة والمبادىء

السامية الذي لم يترك موضوع إصلاح سياسي أو أدبي إلا عالجه رغبة في إسعاد العالم ـ أفلاطون لم يفكر قط في تحسين حالة المرأة ولم يهتم في درس أخلاقها واستكشاف درجتها العقلية والاستعدادية .

ماذا أقول ! إنَّ أفلاطون هذا قضى حياته آسفاً لأنه ابن المرأة وكان يصرّح بازدرائه بأمه ، ويعتقد أنّ من كان جباناً من الرجال في هذا العالم فعند ولادته مرةً أخرى تُتقمص روحه في جسد حيوان أو في جسد امرأة ... وما علم أفلاطون أنّ امرأة ستعلّم الفلسفة الأفلاطونية الجديدة في « مدرسة الاسكندرية » وأنّ تلك المرأة لا يمنعها شبابها الغض وجمالها الرائع أنْ تكون أعلم علماء عصرها . تلك هي الفتاة هيباثيا ابنة ثيونوس الرياضي الشهير ، التي قُتلت رجماً في شوارع الاسكندرية في أوائل القرن الرابع ، فذهبت شهيدة علمها وإخلاصها ورغبتها في إشهار التعاليم الأفلاطونية الجديدة .

أول من رفع شأن المرأة

صاحب الشريعة المسيحية وصاحب الشريعة الاسلامية .

أيها السادة والسيدات ،

أول من عطف على المرأة وأسمعها كلمات الاشفاق والغفران هو يسوع الناصري . وهو أول من سوَّى بينها وبين الرجل إذْ جعل لهما خطة واحدة تفضي إلى ثواب واحد ، وإلاّ فللضَّالين عقاب واحد . على أنّ النصرانية حرمتها من وظائف الكهنوت وما برحت طائفة من اللاهوتيين تراها قارورة الخطايا والآثام .

ثم جاء نبي الإسلام فرفع شأنها أي رفعة في بلاد العرب ، إذْ حرَّم وأْد الفتيات ، وسوَّاها بالرجل في جميع الحقوق والواجبات . إلاّ في الشهادة والميراث ـ فإن امرأتين تساويان رجلاً ـ وفي ما عدا ذلك فهي

والرجل سواء في جميع الحقوق المدنية ، ويقول العارفون إن لها الحقوق السياسية أيضاً . وللمسلمات أنْ يكن فقيهات وكانت أول فقيهة منهن عائشة ، زوجة صاحب الشريعة الإسلامية الذي قال لقومه : « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » .

وعليَّ أنْ أذكر هنا اسميْ بترارکا ودانتي ، وهما أول من تلمَّس نفس المرأة من طغمة الشعراء والمفكرين . لقد جعلا لقصائدهما عرائس تتجلى فيهن ملكات الجمال الأدبي ، وهما اللذان ترنّما للمرة الأُولى بالمرأة ذات النفس السامية والذكاء الوقّاد ، ومقومة عثرات الجنس القوي . من منا لا يعرف لورا وبياتريتشي ؟ إنَّ هذين الاسمين لا يفترقان عن اسميْ بترارکا ودانتي ، وسيكونان أبداً المثل الأعلى الذي تود كل امرأة أنْ تكون صورة لهُ . هل المثل الجميل الذي مرّ في مخيلة دانتي فصوَّره في شعره الساحر قد اخترق ظلمات القرون الوسطى كبرق ساطع . ثم جاء كبير شعراء العالم الحديث شكسبير ، فجعل أبطال أكثر رواياته من النساء ذوات النفوس الكبيرة ، تتلامس في قلوبهن بلطف يشبه تموُّج النور في الهواء ، أقوى وأعذب شعائر المحبة بأسمى وأوجع عواطف التضحية ؛ وكذلك كانت النساء في روايات كورنايل ، وكلكم ذاكر بلا ريب بولين وكاميل وشيمان ... ألا تذكرون ؟

لم يكن جميع مفكري تلك القرون من رأي شكسبير وكورنايل ، بل كان معظمهم مبغضاً للمرأة ، ساخراً بها إنْ لم يكن طاعناً فيها . وقد لخص بوسويه أسقف مورو أفكار معاصريه وأوردها في جملة واحدة إذْ قال بجديته الجبروتية المشهورة :

« خلقت المرأة من ضلع زائد في جنب الرجل ، فلهذا السبب هي عقيمة لا ذكاء في عقلها ولا إدراك في نفسها » . رحمة الله عليك يا بوسويه ! إنك لم تكن نبياً أما كون المرأة مخلوقة من ضلع الرجل فهذا أمر لا رأي

لي فيه ، غير أني أفضل أنْ تكون مخلوقة من عصير قلبه وعواطفه بدلاً من أن تكون ـ كوتليتا ـ مصورة . وأما كون الضلع زائدة فهذه مسألة فيها نظر ، وعلى كل حال فلست متوليةً إثبات هذه المسألة التشريحية ... أو اللاتشريحية .

لذلك كانت المدنية عرجاء

أيها السادة ، لننس هذه الأقوال العتيقة ولننظر إلى أحوال الحاضر . إنّ النهضة النسائية تمتد يومياً في أقاصي المسكونة . إنها لنهضة عجيبة تبشر بخير عظيم وتنبىء بأنّ مدنية الأمس العرجاء التي لم تتكىء إلاّ على جنس من الجنسين ، هي غير مدنية الغد الممتعة بتحقيق الأماني . ليست مدنية الغد مدنية الرجل وحده ، بل هي مدنية الإنسانية ، لأنّ المرأة آخذة بالصعود إلى مركزها الحقيقي بقرب الرجل . إنّ موجة النور ، نور الارتقاء النسائي ، تزداد ارتفاعاً واتساعاً مع الأيام . في فرنسا وانجلترا وأميركا وألمانيا وإيطاليا تجاهد المرأة جهاد الأبطال في سبيل ترقية جنسها وترقية النوع البشري معها . ولقد نالت جميع حقوقها في أسوج ونروج وفنلندا وزيلندا الجديدة ، وفي بعض الولايات المتحدة ، فهي الآن والرجل سواء : أدبيّاً ومدنيّاً وسياسيّاً أيضاً . وفي كل من هذه البلاد كان تأثيرها نافعاً جميلاً ، وحيث تقلدت الوظائف العمومية قد قلّت الجرائم ، وخفت وطأة السكر ، وظهر تحسن محسوس يكاد يكون ملموساً في مستوى أخلاق الأمة وفي حالتها الصحية جميعاً .

هذه هي المرأة الجديدة ومستودع آمال المستقبل .

ما تفعله اليوم المرأة

التي قالوا إنها لا تصلح إلاّ للخدمة

كم قالوا فيها إنها لا تصلح إلا للخدمة البيتية والزينة الجسدية وها هي مصلحة كبيرة ومفكرة عاملة . وكم قالوا إنها حيوان جميل وشيطان لطيف وها هي ملك كرٰيم يحاول إفهام الرجل أن في الحياة عنصراً سامياً هو كل الحياة . وكم قالوا إنها كاذبة خبيثة وان الصدق والإخلاص بعيدان عنها بُعد الشمال عن الجنوب ، وها هي آخذة في تهذيب نفسها وملاشاة العاهات التي شوهتها في أزمنة العبودية . وكم قالوا إنها مترددة حائرة ذليلة لا تقوى على توليد فكرة ولا تحتمل المسؤولية ، وها هي عزيزة النفس شديدة الحرص على الاستقلال ، منحنية بحرقة على معاني الحياة العميقة . وكم قال فولتر إنّ فكرها سريع العطب وإنه يتحطم تحطيماً إذا حاول استفهام ناموس علمي. غريب أنْ يقول فولتر هذا القول ، هو الذي استعان بامرأة على فهم كتابات نيوتن ، وهي صديقته مدام دي شاتليه ومعربة كتاب نيوتن في ناموس الجاذبية . ثم اذكروا مدموازل لابلاس ، وماري كوالسكي ، ومدام كوري ، وعشرات من النساء المشتغلات في العلوم الطبيعية والعلوم المجردة ، والمئات المشتغلات بالفنون والصنائع والحِرف المختلفة . في فرنسا خمسة ملايين من النساء يشتغلن حاملات في قلوبهن المسؤولية العائلية والهموم الكثيرة . يخترقن سبل الحياة المحفوفة بالكوارث والأوجاع ، داميات القلب ، ولكن شريفات النفس شريفات المقاصد . ومثل ذلك في إنجلترا وفي الولايات المتحدة حيث عدد المعلمات فقط يكاد يبلغ الأربع مئة ألف . ويقول الإحصائيون إنَّ في مصر نحو مليون ونصف من السيدات المتعاطيات الأشغال العمومية .

قالوا ان العلم يذهب بملكاتها

وكم قالوا إنّ المعارف لم تخلق للمرأة وإنّ العلم يذهب بجمالها وتواضعها ولطفها ، وإنه يجعلها متكبرة جافة محتقرة العائلة هازئة بالرجل ، وها نحن نراها إذا تعلمت زادت جمالاً وحناناً أكيداً واحتراماً للعائلة وإجلالاً للرجل . إنها الآن تفهم معاني الحياة وتريد بكل قواها ترقية نفسها وإعلاء مداركها وتربية شخصيتها واستخدام ملكاتها في بث الخير والسعادة حولها وعلى كل ما يحيط بها . المرأة الراقية وحدها تعرف أنّ لها فخراً رئيسياً واحداً وهو ان تكون أمّاً بكل معنى الكلمة وبجميع المعاني التي تحملها هذه الكلمة . وهي وحدها تعرف أنها كانت إلى اليوم والدة الجسد فقط ، وتحاول أنْ تصبح أمّ الروح أيضاً ، أم العواطف وأم الأفكار وأم الميول ، والمهذبة الكبرى والصديقة العظمى .

قالوا لا عقل لها

وكم قالوا إنها لا عقل لها ، وإن حياتها سلسلة أهواء متتابعة ، وتقلبات صبيانية تافهة ، وها إننا نراها بعيدة النظر ثابتة المقاصد ، مغرقة منفعتها الشخصية في بحر المنفعة العامة . أنظروا إلى روسيا حيث النساء تتألم تألم الرجال وأكثر ، روسيا حيث الثورة الفكرية تهيء حتماً الثورة السياسية ، كم من فتاة حسناء قد ضحت خطيبها ومستقبلها وهناءها حبّاً بمصلحة وطنها ، واشتركت في جمعيات تظن أنّ في تأييدها خيراً للبلاد .

أنصار المرأة ومن هم

المتهكمون على المرأة كثيرون في هذا العصر الفوضوي ، ولكن أنصارها أكثر وهم من ذوي النفوس الكبيرة والرؤوس المفكرة . بل هم أسمى وأشرف رجال زماننا . إنهم يحترمون جهادها ، ويعترفون بحقوقها ، ويقرون بما تأتيه من الإصلاحات الباهرة ، ويعجبون بإقدامها وثباتها

ويرون في نهضتها أيدياً جديدة عاملة لخير الانسانية وتخفيف الويلات عنها . أليس فيكتور هيجو هو القائل إن تحرير المرأة أكثر المشاكل الاجتماعية وبعض المدنية ، وإنه ينتظر منها وحدها إلغاء الحرب في العالم ؟

شرارة الحياة في مصر

صوت المرأة من أعماق الدهور

وهو القائل أيضاً إن القرن العشرين هو عصر المرأة . ولقد صدق في نبوته ! في كل مكان تفتح المرأة عينها لنور الحياة حتى في أطراف الشرق الأقصى ، في الصين واليابان ، وفي تركيا . وها إني أرى شرارة الحياة تشتعل في مصر أيضاً ، حيث الرجال يساعدوننا بأقلامهم وبألسنتهم وبمثلهم ، وجل ما يتمنون هو أنْ تستحق النساء عنايتهم واهتمامهم بأمرهن . أجل في مصر تتكسر القيود الدهرية التي طالما عذبت فكر المرأة ونحن اليوم عند عتبة مستقبل باهر . في مصر تشتعل شرار الحياة والا فماذا يعني وقوفي بينكم أيها السادة ، وماذا يعني سكوتكم الجميل المملوء إصغاء تامّاً وتشجيعاً قويّاً وتفكيراً عميقاً ؟ أتكلم الآن بحرقة كأني صوت المرأة الصامت منذ أجيال ، وتستمعون إليَّ بإشفاق كأنكم نفس الرجل المشتتة منذ ابتداء الدهور . النفس الكبيرة المبعثرة تستجمع قواها للإصغاء ، والصوت الخافت الذي لم يتعود إلاّ همس الطاعة وتمتمة التمرد المبهم ، يرتفع الآن آتياً من بعيد من عمق أعماق الدهور السوداء ، من أقصى أقاصي الخليقة العجيبة ، آتياً من القبور ، من البحار ، من عناصر الحياة جميعاً صارخاً : أيها الرجل ! لقد أذللتني فكنت ذليلاً . حررني لتكن حرّاً ، حررني لتحرر الإنسانية !

في طنطا

أيها السادة والسيدات ،

لم أكن أعرف من طنطا إلا اسمها ومحطتها يوم شرفتني الجمعية بدعوتها ، فشعرت بشيء يشبه العاطفة التي تعتري المرء عند إقباله على المجهول . ولكن ما لبثت أنْ عرفت عن هذه المدينة أشياء كبيرة في معناها : علمت أنْ أهل طنطا قوم تؤلّف بين قلوبهم أُخوة شرقية كريمة ، ويوحد كلمتهم حبُّ الخير والرغبة في نفع الغريب والقريب على السواء . عرفت أنّ النساء فيها مثال جميل للمرأة الشرقية الجديدة ، وأنهن يسابقن الرجال في إغاثة الملهوف والأخذ بيد البائس . عرفت أنّ هذا الاجتماع ملتقى عدد عديد من خيرة القوم يلتفُّ حول مدير ممتاز جامع لصفات الجندي الباسل والحاكم الحازم .

أما قاموس الأخبار الذي جمعت منه معلوماتي هذه فهو ذاك الذي يعرف وكل الناس تعرفه ، هو الحركة الأدبية الدائمة : الاستاذ سليم سركيس .

جئتكم بالتحية فاقبلوها وحيّوا معي الهمّة النسائية التي جمعتنا هنا لتطلعنا على ملخص أعمالها الجليلة . حسن أنْ تكون المرأة عالمة ، وأحسن منه أنْ تكون فاضلة . جميل أنْ تكون المرأة مفكرة ، وأجمل منه أنْ تكون شفيقة رحيمة . فحيوا المرأة التي لا تكتفي بالأمومة الجسدية ، بل تريد

القيت في الحفلة السنوية التي أقامتها في طنطا جمعية الاتحاد والاحسان السورية للسيدات مساء ١٤ حزيران (يونيو) سنة ١٩١٤ .

أنْ تكون فوق ذلك أمّاً للشريد الحزين الذي لا أُمّ له . حيوا ينبوع الحنان والجود المتدفق على الأغراس التي طالما أوجعها ظمأ الفاقة وقد أوجدتها الطبيعة في تربة جافة ، وجردتها من عطاياها فجاءت المرأة تحنو عليها . حيّوا تلك الأيدي النحيفة التي تحسن إلى الروح والجسد معاً . أيدٍ قوية على ضعفها تعمل لخير الإنسانية بجد ونشاط كأنها أيدي رجال . حيوا معنى الإحسان السامي الذي يرفع النفس من مستوى الأنانية الضيّق ويجعلها مشرفة على آفاق الإنسانية الواسعة حيث تنمو وتنبسط بالإشفاق والحنان .

هللوا للمحسنين ، إنهم جبابرة العصور ورافعوا الإنسانية من هوة الذل والشقاء . لهم نصبت الإنسانية أجمل التماثيل ، وعند أقدامهم سكبت حار الدموع ، ولقد كافأتهم بأن جعلت أسماءهم مقرونة أبداً بما لديها من المعاني الخالدات : الإحسان والشكر ، والفخر العظيم .

أيها السادة والسيدات ،

أمّا الآن وقد تعارفنا فلنا أنْ نتحادث قليلاً فتعالوا معي إلى وطن الأوطان ومهد العالم ، إلى الفردوس الأرضي ، ولا تخافوا مشقّة السَّفر فهو سفر خيالي . أتذكرون الشجرة الشهيرة ؟ هناك تجتمع الآن أفكارنا حول تلك الشجرة المسماة شجرة معرفة الخير والشر .

موضوع مشترك بين الجميع لا يجهله كبير ولا صغير ، ولكني أعترف بكونه خطراً لأنه يكشف عن حزازات قديمة في الصدور ، وينبه الرجال والنساء إلى الدفاع كلٌ عن أبناء جنسه ، فالرجل يقول : هي ! والمرأة تقول : هو !

لا تغضبي يا سيدتي حواء ، وهوّن عليك ، يا سيدي آدم ! إن تفاحتكما ضرورية للعالم وما كان أشقى ذراريكما لولاها . إنها رمز المعرفة ، وهل في وسعنا أنْ نتصور الإنسان جاهلاً والكون مجهولاً إلى الأبد ؟ لولا المعرفة ما كان علم ولا كان أمل ، ولا كانت فكرة الاستقلال ورغبة

الارتقاء ؛ وإنْ لم تكن هذه فماذا يبقي الله من الحياة المعنوية ٠؟

في اعتقاد الاقدمين أنّ المعرفة تصيِّر الإنسان كإله يعرف الخير والشر . وكانوا يخافون كل عالم ويرمونه بالسحر لأنه سرق شيئاً من خصائص الآلهة : فيا له من اعتقاد عظيم تضمن أمل الارتقاء ! كانت المعارف صعبة المنال على طلابها لأنها لم تكن عمومية كما هي في عصرنا ، بل محصورة في أشخاص لهم أتباع وتلاميذ قد وقفوا حياتهم على حب العلم والحكمة . فإذا ما رغب امرؤ في العلم هجر بلاده وثروته وذهب الى أحد الفلاسفة واندمج في عِداد تلاميذه جاعلاً غرضه الوحيد استماع أقوال معلمه والسير بموجبها . وبعد هذه التضحيات أتظنون أنه كان يطمئن على أحواله ؟ اذكروا ما فعلته كسانثيبا زوجة سقراط ، تسمعوا الجواب على هذا السؤال !

مدرسة سقراط

كانت مدرسة سقراط من أشهر مدارس الماضي ؛ وكانت كسانثيبا زوجته ثرثارة ، ضيقة النفس ، سطحية المدارك ، ترى العلم جنوناً وتحسب زوجها معتُوهاً . ففي أحد الأيام إذْ كان سقراط يخطب في تلاميذه أخذت زوجته تضحك منه ، ولما لم يكترث لذلك انقلب ضحكها غضباً وطردت الأستاذ والتلاميذ جميعاً ساكبة على رؤوسهم الماء البارد . فتذمر التلاميذ وسألوا الأستاذ أنْ يكفيهم شرّ زوجته ، فأجاب سقراط المسكين : « دعوها تفعل ، إنَّ شراستها علمتني الصبر والحكمة ».

طوبى لك يا سقراط ! ولكن لو كان جميع النساء كمن ذكرنا لما كان جميع الرجال فلاسفة بل مجانين .

●

أجل كان الأقدمون يخافون العلم والعلماء واثقين بأنّ السعادة في الجهل المطبق والخمول النفسي . وعلى رغم ذلك فقد كان في وسط تلك

الجماهير النائمة الهازئة المعاكسة أفراد بلغوا أعلى درجات السموّ الفكري . ذلك لأنّ الإنسان لم يخلق إلا ليعلم . علم أولئك الأفراد فعملوا وأورثونا ثمين الآثار في جميع دوائر المعرفة الإنسانية ، ووضعوا الأسس الأولى لعلومنا الحديثة . نعم إنَّ تلك الأسس هدمت مراراً لبطلانها واكتشاف ما هو خير منها ، ولكنه لا يسعنا إلاّ إجلال المنقوض منها والباقي لأنه نتيجة علم كثير وعمل متواصل .

أيها السادة والسيدات ،

لنا على الماضي امتيازات كثيرة . نعم إننا لا نستطيع أكل المعارف في نصف تفاحة كما فعل آباؤنا الأولون . ولكنا نمتاز على الأقدمين بأمور جوهرية كثيرة . إننا نعرف الآن قيمة العلم ، وإن المعرفة صلة الإنسان بالأشياء والسلك الكهربائي الجامع بين ذكاء الفرد وبين المعنى الحيوي المبعثر في أجزاء الوجود ؛ وإنّ على هذا السلك العجيب تفيض معاني الإنسانية العظمى ألا وهي الإعجاب والحبّ والعمل . نعلم الآن أنّ الجاهل سجين نفسه ، أسير أنانيته ، مستقل بإدراكه المحدود ، مكتف بدعواه ، لا يستقبل جديداً إلا بالطرد ، ولا يذكر حديثاً إلاّ بالتهكم وسوء الظن . ولئن تألمنا من احتكاكنا المحتم به فإنا نشفق عليه لضيق الدائرة الحيوية التي رضي بها ، كأنّ كل ما لدينا من الجمال والصلاح والثروة المعنوية لم يخلق له ، بل هو كائن لسواه !

إنما امتياز عصرنا الأعظم هو فكرة التقدم ، والاندفاع في سبيل الارتقاء . وتوفّر المعارف وسهولة نيلها لمن طمح إليها ، بعد أنْ كانت محصورة في أفراد معدودين . لستُ من القائلين إن عصرنا هو العصر الذهبي الذي يحقق الآمال ، غير أنه عصر عظيم وابن عصور عظيمة بتفكيرها وجهادها ؛ عصر مملوء خيراً لطالب الخير ، وفيه من أسباب الراحة وسهولة المعيشة ما يجعل اللذات المادية والمسرات المعنوية ، واقتباس العلم متوفراً لدى

الفقير توفره لدى الغني . لقد اتسعت العلوم وتعددت فروعها ، فاتسعت بذلك سطوة الإنسان على الطبيعة ، وتعددت سبل العمل أمامه .

الفلسفة تنبش أعمال العقول ، والشِّعر يلمس أسرار النفوس ، والموسيقى توقع همس الوجدان ، والتصوير ينسج العواطف نسجاً ويرسم أدق خطوطها ، فاليوم تحقيق أمنية الحكيم القائل : أيها الإنسان اعرف نفسك ! لقد ارتقت الأخلاق ، ولطفت الشعائر ، ودقت الملاحظة ، وأفسحت فكرة الحرية المجال ، فتيسر لكلٍّ أنْ يهذب شخصيتهُ كما يريد بعد أنْ كان مكرهاً على سبكها في قالب جيرانه ومعارفه . كان وأْد النساء حلالاً ، وقتل الأبناء جائزاً ، وفن الاستعطاء مقدّساً . أمَّا الآن فسلطة الأب والزوج محدودة ، والنفوس عزيزة عاملة تنال ما تنال بالكدّ والسهر .

بالأمس كان الناس اثنين : سيّداً مستبدّاً ، وعبداً ذليلاً يباعُ ويشرى كالأنعام على غير علم منه . أمّا اليوم فمبدأ العدل يُضعف قيود العبودية ، وصوت الحرية ينادي بالإخاء والمساواة . لقد اتسعت دوائر التجارة وارتقت الصنائع ، وتبودلت منافع الاقتصاد ، فحلَّ السلام والأمان ـ مبدئياً ! ـ إذْ لا غزو يفاخر به ولا اغتصاب يسامح عليه . والسياسة تحاول تسكين الخواطر والإقلال من الحروب ما استطاعت . فما أبعد أيام نيرون وماركس اوريليس والإسكندر والحروب الصليبية . حتى أيامك يا نابوليون ، حتى أيامك القريبة بعيدةٌ عن هذا العصر الذي يمنع الإنسان إيلام الحيوان ويعلمه الإشفاق عليه .

يدعي الماديّون أنّ العلوم وحدها سبب التقدم وعنوان الحضارة ، فتى كانت الكيمياء والهندسة أساس المدنية ، ولماذا لا نعتبر الصين أعظم بلاد العالم على الإطلاق لأنها مكتشفة البوصلة ومخترعة آلة الطباعة والبارود ؟

ليس في استطاعة العلم إلا تحسين أحوالنا المادية ، انه يعلم الإنسان استخدام الطبيعة ، وينمي ذكاءه نمّواً شديداً ، ولكن لا سطوة لهُ على

الأخلاق . وأنتم تعلمون أنّ العلم نصف الارتقاء ، والأخلاق النصف الآخر ، وأنّ شرف المرء قائم بحسن أخلاقه وسمو مداركه أكثر منه بتعدد علومه وكثرة أطماعه .

أيها السادة والسيدات ،

معنى المدنية عظيم مطلق ، آت من أقاصي الأجيال متنقلاً بين أشور وبابل وفينيقيا والصين والهند ومصر وأثينا وروما . إنه مجموعة العناصر العلمية والأخلاقية والحسية والعملية . كذا يجب أنْ يكون الإنسان فيجمع في شخصه معاني الإنسانية بأسرها . ليست الإنسانية عالمة أو طبيبة أو محامية أو تاجرة فقط . بل هي فاضلة معذبة ، مجاهدة فرحة ، حزينة فيلسوفة ، أديبة شاعرة ، باحثة فنية . هي قيثارة ذات ألوف الأوتار توقع عليها أصابع الحياة الألحان الرائعة من تشبيب وتأوه وتهليل ونوح وهتاف .

لذلك نرى دواماً في النوابغ ذوي الشخصيات الغنية مزيجاً من عناصر الإنسانية جميعاً . نرى الفيلسوف شاعراً أحياناً ، وقد نجد عند الفني والشاعر من الحكمة وإصابة الرأي ، ما لا نجده عند الحكماء أنفسهم ؛ ذلك لأن الشِّعر والعِلم والفلسفة والأدب والعمل ليست أموراً منفردة في ذاتها ، بل هي تتلامس وتتجاذب لأنها أساليب مختلفة تعبر بها النفس عن أحوالها المتتابعة . عناصر عظيمة كلها كامن في عقولنا ، مترجرج بين ثنايا مشاعرنا ، متدفّق في أحلامنا وآمالنا ، مكوّن ثروتنا الحيوية التي تفيض ساكبة حولنا نوراً وسناءً .

قال لايبنتز : إنّ النفس مرآة يجب أنْ تنعكس على مياهها الصافية صوَر الإنسانية الراقية ومعانيها لتكون صورة مصغرة لها في الجمال والغاية . لقد عرفنا جمال الإنسانية فما هي غايتها ؟ هي أنْ ترمي إلى مثلٍ أعلى يلمع هنالك في أقاصي الأيام والأماني ، مثلٍ أعلى ترى كل عسير في سبيله هيناً ، وينهارُ في طريقها إليه كلُّ حاجز . غاية الإنسانية المثل الأعلى الذي يعطي

الحياة معنى لذيذاً ، ويكسبها رونقاً جديداً ، ويضرم في النفس ناراً تحرق الفاسد من ميولها ، ويؤهلها لأنْ تكون هيكل الأفكار السامية والمقاصد الشريفة .

إذن فالحياة الإنسانية خطوات ثلاث : خطوة من الجهل إلى المعرفة . وخطوة من المعرفة إلى الارتقاء . وخطوة إلى ذاك اللامع هنالك في أقاصي الأيام والآمال ، إلى المثل الأعلى الذي نجهله ويحيينا جميعاً .

والآن يأبى صوتي السكوت قبل أنْ يرتفع بتحية مشتركة لشطري الوطن الغالي : مصر وسوريا .

مصر . سوريا .

وطن واحد ما زالت العلاقات المتبادلة تزيدُه كل يوم توحيداً . السوري في مصر بين أهله وأصحابه ، والمصري في سوريا بين ذويه وأحبابه . أنات مياه النيل صدى آهات النسيم في غابات سوريا ، والطبيعة التي تزمجر هناك بين المرتفعات والمنحدرات ترتاح هنا منبسطة على صفحات المروج الفيحاء .

مصر وسوريا ، همستان مختلفتان من لغة جميلة .

مصر وسوريا كلاهما محسن وكلاهما محسوب ، لكن تبادل الإحسان والمحسوبية يؤيد صداقتهما ، ويزيد في اتفاقهما ، ويجعل قلبيهما خافقين على وفق نغمة واحدة .

مصر وسوريا ، فوق صروحهما يخفق علم واحد يفاخر الآفاق .

مصر وسوريا ، صفحتان مجيدتان من تاريخ مجيد . بل شطران جميلان عزيزان من وطن جميل عزيز .

هذه تحيتي يا مصر : أنثرها في فضائك بملء صوتي . وقلبي يردد : لتحي مصر ولتحي سوريا !

العجائب الثلاث

كان بسكال يقول : إن كلمة « أنا » غير مستحسنة ؛ ولكن إذا سمحتم لي أنْ أبدأ بالكلام عن شخصي ، قلت : إن في نفسي ابتهاجاً .

قد تتساءلون لماذا ، فانظروا إلى اجتماعنا هذا تروا فيه الفرد الإنساني مكملاً وناموس الانصاف نافذاً .

لم يمر وقتٌ طويل على يوم كان الرجل الشرقي منكراً على المرأة ما كان يسميه « شر الدرس » ؛ يوم كانت المرأة عبدة تخفي جهلها وذلها تحت الأثواب الحريرية ، وتنسى قيودها الدهرية لاهية بالأساور والجواهر . ثم حرّرها الرجل قليلاً قليلاً ، وصار يدعوها إلى الاجتماعات العالمية ، والسهرات الراقصة ، حاسبها زينة من الزينات المكملات لتلك الحفلات اللامعات . ولكن اليوم انظروا ! انظروا كيف علَت مكانة المرأة لديكم ! صرتم تدعونها إلى حفلاتكم الأدبية وتعطونها فيها مكاناً رحيباً . بل صرتم جاعلين للفتاة الشرقية صوتاً ــ صوتاً صغيراً ، ولكنهُ صوت على كل حال ــ بين أصوات الشعراء والخطباء ، منشطيها إلى ذلك بقوة ، ومرغميها على تناسي ما هي عليهِ من الضعف والقصور .

هذا للمرأة السافرة . أما أختنا المحجوبة فهي كذلك مستشعرة بنسمة الحياة الجديدة . من خلال نقابها الشعري اللطيف ، تفتح عينيها كبيرتين

القيت في الحفلة التي أقيمت في فندق كونتننتال مساء الجمعة ٢٨ نيسان (ابريل) ١٩١٦ احتفاءً بمرور ٢٥ سنة على انشاء مطبعة المعارف .

على آفاق النور ، وفي نفسها تتولّد ميول مندفعة نحو وجهة الارتقاء ، ورغباتٌ تائقات إلى مظاهر الكمال .

الرجل موجدُ الحركة النسائية عندنا ، والرجل منشطها ، والرجل مؤيدها . كثيرون من الأفراد يدعون إليها ، والرؤساء يعطفون عليها .

ولقد جاءتنا صحف الأسبوع بتعريب حديث للسلطان في تعليم الفتاة ، مع أحد مكاتبي صحف الفرنجة . إنّ هذا الحديث يزيد في قوة تأثيره العملُ المؤيِّد ، لأنكم تعلمون أنّ أول فتاة تشتغل بالأدب في السلطنة المصرية هي البرنسس قدرية هانم ابنة حسين الأول ، فتاة لا يصرفها الجاه العالمي والثروة المادية عن ثروة الفكر وجاه التفكير .

اننا نحب الزينة واللهو والجواهر ، والسهرات الراقصات ، ولكننا نحبها الحب الذي تستحقه فقط ، وفي نفوسنا ميول أشرف منه وأعظم . عرفتم فينا ذلك ، وذكرتم أنّ الاستعباد قد ينقلب ثورة ، ففوضى ، وأنّ ما من غضب أشد خطراً من غضب الضعيف إذا استشعر يوماً بقوته الكامنة . ذكرتم أنّ الطاعة الاجبارية ، طاعة الآلة البكماء ، لا قيمة لها وأنّ الطاعة الاختيارية تنم عن ثقة وصفاء نية وتُنتج خيراً . ذكرتم أنّ الخوف لا يقطن إلا في نفوس متصاغرة قد استنامت إلى الامتهان ، ولا يولّد إلا مودةً مكذوبةً ورياءً ، وأنَّ الشعور بالحرية وحده يكوّن عاطفتَي الاعتبار والاحترام ، وهما اسٌّ لكل ودادٍ شريفٍ مستديم .

ذكرتم أنّ لا قيود للنفس العالية إلا قيود الأخلاق الطيبة ، ولا جدران إلا جدران الحرية ، تلك الحدود التي لا تهدم لأن المرء يضعها لنفسه اختياراً ، اختياراً مشتركاً بين اللائق والواجب ... ذكرتم كل ذلك ، وكان قد نسيه رجل العصور الماضية ، فقمتم تنادون بتعليم الفتاة وتحرير المرأة .

أيها السادة ! لقد كنتم محسنين ، وكنتم خصوصاً منصفين .

هذه حقوق للمرأة ، حقوق ابتدائية ، وإنْ كانت جوهرية ؛ ولكن، يُرضي المرأة أنْ تتناول هذه الحقوق كنعمة من يد الرجل لأنّ التمتع بفضل القوي الكريم عزٌ ودلال .

أيها السادة والسيدات ،

لئن كان الانسان أُعجوبة الخليقة ، كما يقولون ، وكان فكر الإنسان أعجب ما في الإنسان ، فإنّ هذا الفكر قد أبدع عجائب ثلاثـاً جعلت للحياة معنى ورونقاً جديدين ، وتلك العجائب الإنسانية هي : الكلمة والحرف والمطبعة .

من يستطيع أنْ يتصور الحياة خالية من الكلام ؟ نعم ، السكوت جميل ، وله أسرار هي حيناً مرعبة كظلمات اللجج وآناً لامعة كمقَل الكواكب في الدجى . ولكنه كلامٌ في ذاتهِ ، كلام تهمس به النفس بلا صوت ولا حركة ؛ وما السكوت القهريُّ إلا بكمٌ أو نوع من البكم .

يجهل التاريخ أيَّ الشعوب تكلّم أولاً وكيف تكلم . على أنّ سادتنا الفلاسفة جعلوا هذه المسألة موضوع مناقشات شتى بدأت في القرن الخامس قبـل المسيح مع « ديموقريطس » الذي كان يضحك دواماً من الجنون الإنساني ، و « هيراقليتس » الذي كان يبكي حزناً على هذا الجنون ؛ ولم تنتهِ مع رينان الذي كان يكتفي بالابتسام المبهم قائلاً : « لكل مسألة وجْهان » . وفي خلال القرون الطويلة التي مرَّت بين ديموقريطس ورينان ، قال الفلاسفة أقوالاً جمة هي كأقوال هذه الطائفة ـ طائفة أنصاف الآلهة ـ عادةً ، كثير منها جميل ومفهوم ، والكثير الآخر جميل و ... كأنه مفهوم ؛ خلاصتها تقســم إلى قسمين : ففريق يقول إنّ الكلمة نتيجة ذكاء الإنسان إذْ شعر باحتياج إلى التعبير عما يجول في نفسه ، فجرَّب الحركات أولاً ، وآهات الألم ، وعلامات الارتياح ، ولما أنْ شعر بنقص هذا التعبير عمد إلى إبداع الكلمة واستعمل الصوت في إبرازها . والفريق الآخر يقول بل الكلمة

استعداد غريزي في الإنسان ، هي عمل الطبيعة بالذات ، وما تعبّر الكلمات إلاّ عن جوهر المعاني والأشياء . وقد زادت المدرسة اللاهوتية على هذا في القرن الثامن عشر، ان الكلمة أعظم من أنْ تحسب استعداداً غريزياً لأنها وحي إلهي ..

وسواء كانت الكلمة ابنة الطبيعة أم نتيجة الذكاء ، فهي على كلٍّ مرآة الفكر وملخصتهُ ومهذبته . عندما تأخذ خطوط التصور بالارتسام على صفحة الذهن فتتتالى الصور ، وتتوارد المعاني متزاحمة بلا ترتيب ، تكون حالة الفكر آنئذٍ حالة غليان أو طوفان . ولكن إذا أردنا اطلاع الغير على ما هو جارٍ في خاطرنا انتخبنا من الصور ما كان أوضح بروزاً ومن المعاني ما كان أقرب مجانسه إلى شعورنا ، فجعلناها كلاماً ، جعلناها وجوداً يلمَس بحاسة السمع ، تنطلق ذريراته إلى فكر محادثنا ، قاهرة تلك الهوَّة المحفورة بين البشر ، هوة السكوت والتباعد التي تجعل الإنسان غريباً عن الإنسان ، فتؤلّف صلة قرابة بين الروحين ، صفة التفاهم ، ويصبح الغريبان متعارفين .

تكلم الإنسان فأراد تدوين تذكاراته ، فاستخدم ما عنده من قوى الملاحظة والتقليد في حالتهما الأوَّلية الخشنة ، وأنشأ يرسم كل ما يقع تحت حسه ، ومن هنا تولدت الهيروغليفيات القديمة الخمس .

مَن ، يا ترى ، كان مستخلصاً من تلك الحروف الصورية الأبجدية الأولى التي تناقلتها أكثر اللغات المعروفة لدينا ؟ هذا موضوع مناقشة ودية بين المصريين والسوريين . على أنّ الشائع أنّ الفينيقيين كانوا فاعلين . فحملها كبير تجارهم « قدموس » إلى بلاد الإغريق في القرن السادس عشر قبل المسيح ، ثم نسخها الرومان عن الإغريق ، وتناولتها اللغات المتفرعات من لغتهم ، كالإيطالية ، والأسبانية ، والبورتوغية ، والفرنساوية ، والإنجليزية ، والألمانية كذلك . لأنّ الألمان يكتبون لغتهم على نوعين ،

الكتابة الألمانية القوطية الأصل ، والكتابة التي يسمونها لاتينية (Die Lateinishe Schrift) .

ومن أبجدية « قدموس » جاءت أبجديات اللغات السامية من عبرية وكلدانية وسريانية ، وأبجدية تلك اللغة العزيزة التي لم تفقها الإغريقية واللاتينية جمالاً وانتشاراً . اللغة التي سُمِعت نبراتها تحت الأعلام الخافقات في أفريقيا حتى خط الاستواء ، وفي آسيا الجنوبية حتى جاوه ، وفي روسيا إلى ما وراء غاسا !

لغة عنترة والمتنبي ولغة الموشحات الأندلسية ! اللغة التي همسنا بكلماتها الأولى في المهد أطفالاً ، ولسوف تكون منها كلمة وداعنا الأخير . في صدرها تذكاراتنا وفي صدرها آمالنا ، اللغة العربية !

تكلم الإنسان وكتب ، فأراد تخليد معلوماته وكانت المطبعة آلة التخليد . وكما أنّ الشرق كان موجد الأبجدية كذلك كان الشرق سابقاً إلى إستعمال الحروف المطبعية .

استعمل الصينيون الاكسلوغرافيا (أي الطباعة على حروف الخشب) قبيل القرن السادس ، وانتقل هذا الفن إلى أوروبا في القرن الثاني عشر ، وظلوا يستعملونه هناك على علاته تقريباً إلى القرن الخامس عشر ذلك القرن الذي رأى الحروف المعدنية المتحركة وآلة الطباعة الأولى . ولكي ينصف التاريخ بين الرجلين اللذين أحسنا إلى العالم فقد قسم الفخر بينهما ، وقال إنّ « كوستر » الهولندي كان موجد الحروف المطبعية المتحركة وإن «جوتمبرج» كان مخترع آلة الطباعة ومنيل الحرف دقته الفنية الابتدائية .

هذه هي العجائب الثلاث التي تعرفون أيها السادة والسيدات ، ولا سبيل إلى تخليد العجيبتين الأولين إلاّ بواسطة العجيبة الثالثة . كذلك تقهر الآلة المعنى ، وتنتقم المادة من الروح ! إن الفُنون جميعاً من رسمٍ ونقشٍ وحرفٍ وهندسة في حاجة إلى المطبعة ، لأنها تخلد بدائعها وتعمل على ترويجها .

تحتاج إليها الموسيقى ، ولا أعني الموسيقى العربية لأنها كلها ألحان (mélodies) متراوحة بين السيكاه والنهاوند والحجازكار ... الخ . ألحان كالنفس الشرقية ، عميقة حزينة ، ولكنها بسيطة تتناولها الأذن الموسيقية بسهولة كلية ، وبعد تمرين قليل أو كثير ، توقعها بإتقان على العود أو على أي آلة شرقية أخرى . ولكني أعني الموسيقى الغربية ، وأهمّ قسم فيها ما يسمونهُ (Harmonie) . وثروة هذه الموسيقى وقيمتها في السوناتا ، والكانتاتا ، والأوبرا ، والسمفونيا وأمثالها مما لا يمكن نسخه بسرعة ووفرة ، وجعل اقتنائه ميسوراً للجميع إلاّ بواسطة المطبعة .

لكنَّ المطبعة ضرورية خصوصاً لتخليد الكتاب . الكتاب ! سنيّ المواهب ، مفجّر ينابيع النُّهى ! الكتاب ! ذلك الصديق الأمين ، تلك الثروة التي لا تفنى ، تلك القسوة الصامتة ، المهيبة ، المهذبة ، التي لا تعرف جدالاً ، ما أعذب عبوس الكتاب في نفس محبٍّ الكتاب ! وما أخلصه جوهراً وأكرمُه أستاذاً ، الكتاب الذي يرفعنا فوق صغائر الحياة ، ويعلّمنا كيف نُنمي فينا أشرف القوى الإنسانية ، الإخلاص والذكاء والإرادة ؛ ويقودنا قليلاً قليلاً إلى أعلى ذرى الإدراك والعرفان ، إلى أولمبس العظمة الشمَّاء حيث أيوب ، وأسخيلوس ، وشيشرون ، ودانتي ، وسرفانتس ، والمعري ، وشكسبير ، وكنت ، وهيجو ، يسكبون في فكرنا أفكارهم ، وتصير نفسنا كبيرة بلمس أرواحهم فتتسع وتتسع ، ثم تتسع حتى تحضن الفضاء !

اليوم عيد مطبعة المعارف الفضي ولسوف تمرّ بها أعياد شتى من الذهب ، والزبرجد ، والياقوت ، والماس ، إنْ شاء الله ! تُظهِرُ في خلالها لمحبّي الحياة العقلية من تلك الكتب النفسية التي لديها سرّ انتخابها وسرّ إتقانها . تلك الكتب التي على الحرب ، وعلى الوجع وعلى الفاقة ، وعلى الظلم المحتم في الحياة ، وعلى الدماء والعبرات ، وعلى الشقاء ، وعلى اليأس ، وعلى كل بقعة سوداء تعكر سماء الإنسانية ، تضع شعاع نور باهرٍ منبعث من كوكب الفكر الخالد !

سوريا الجائعة

أيها السادة والسيدات ،

إذا التقى غريبان في أرض بعيدة ـ ولو كانت تلك الأرض وطناً ثانياً كمصر العزيزة ـ فما هو يا ترى الموضوع الذي تتناوله أحاديثهما بداهةً ؟ إنَّ ذلك الموضوع ينحصر في لفظة واحدة ، وهي التي تحوم الآن على لسان كلٍّ منا : الوطن ، الوطن القديم .

أذاكرون أنتم حركات السفن في مرافئ سوريا ، وجمال الثغور المنثورة على شفة البحر كالشامات البيضاء ؟ أذاكرون أنتم أرواح الفل والنعناع والورد والصعتر والليمون والياسمين ، آتية تودع النازحين ، حاملةً طي أنفاسها صدى تغريد الشحارير والبلابل ؟ أذاكرون أنتم لبنان القائم على الشط كهيكل منصوب بين الأرض والسماء وكأن أنواره في الظلام شموع أوقدتها يدُ الآمال على مذبح الحياة ؟

كلنا نذكر هاتيك الربوع بخشوع وتحنان لأنَّ لكلٍّ منا مكاناً هناك محبوباً بما ترك فيه من أجزاء نفسه ، وما أبقاه له من تذكار . تذكار أيام

هيئت هذه الخطبة إجابة لطلب ميشيل لطف الله رئيس نادي الاتحاد السوري لتلقى في حفلة كان النادي ينوي إقامتها في شهر ايار او حزيران سنة ١٩١٦ لإغاثة سوريا الجائعة . ثم طرأ ما حال دون الإلقاء .

المدرسة والتلمذة ، أو تذكار شهور اللهو والاصطياف ؛ ساعات تأمل لدى جلال البحر وعظمة الجبال ؛ ساعات انخطاف أمام تقلب الألوان وتعاقب النُّور والظلام تحت سرادق الأفق ؛ أوقات أنسٍ وطرب قرب الينابيع والأنهار ، ونغمات عود ، وشدْو أصوات في قلب الغابات تحت الغصون النديّة . هذا بعض ذلك التذكار الذي يمتزج بذرّات القلب ، وينيلنا رغداً وتعزية إلى آخر العمر .

لكلّ سوريّ منّا معارف هناك ، وأصدقاء ، وذوو قُربى . أما الذي ليس لهُ من عزيز بين الأحياء ، والذي ليس سوريّاً بمولده ونسبه فهو سوريٌّ برابطة أمتن من هذه جميعاً لأن روابط الموت أقوى من روابط الحياة : هو سوري بقبور موتاه ؟

الآباء والجدود، تلك هي روابطنا التي لا تنفك ! الآباءُ والجدود، تلك الجفون التي أُسلبتْ على نورها وما فتئَتْ ترى الكائنات بعيوننا ! تلك الأشباح التي كانت أجساماً ، ثم قضت ومضت لتلبث حيّةً بنا وفينا ! أولئك الراحلون الذين ضمّت أرضنا رفاتهم إلى صدرها العطوف ، وأنبتت عند جوانب مضاجعهم أعشاباً لدنة ترتعش في ظلّ السنديانة الكبيرة ، والصفصاف النائح في مدافن سوريا ...

●

ولكن كيف أذكر أعشاباً نبتت على قبور الموتى ، وأنسى أن مساكن الأحياء قد خلت من أبسط الأقوات وأرخصها ثمناً ؟ كيف أنسى أنّ أرض سوريا قد أمسكت خيراتها ، ففقدت الحدائق أشجارها ، وتجردت الغصون الباقيات في الغابة من أوراقها ، وشغلت مكان جماعات الطير الصادح في جوّها كتائب الجراد المبيد ؟ كيف أنسى أنّ البحر قد سُدَّ في وجه سوريا ، وأنّ ضرورة الحال قطعت بينها وبين أبنائها الغائبين ؟ بل كيف أنسى أنّ الثريَّ هناك أمسى فقيراً ، والفقير معدماً ، والمعدَم جائعاً ، والجائع معانياً

نزعاً أليماً يتركه جثة في قبضة الموت الأغبر ؟

كلاّ ! لا أنسى أن الشيخ الذي أنالتهُ المصائب والتجاريب حقوقاً على احترام الدهر لهُ ، قد مشى الدهرُ على شيخوخته وحقوقه ، وأماتهُ ميتة هي من أوجع الميتات وأقلها كرامة : الميتة الغبراء .

كلاّ ! لا أنسى أنّ فضائل الصبر والتضحية التي امتازت بها بعض الأُمهات لا تقوم مقام الغذاء . فتقضي الأم يائسة ويستسلم الطفل للبكاء وهو لا يدري أبكاؤه تخوُّفٌ لمنيةٍ أقبلت عليه ، أم رثاءٌ للقلب الوحيد الذي أحبه وقد حرمتهُ منه ميتة هي من أوجع الميتات ومن أقلها كرامة : الميتة الغبراء .

كلاّ ! لا يمكنني أنْ أنسى أنّ شباننا الممتلئين حياة وذكاءً ونشاطاً ، شباننا أمل الغدِ وضمانة المستقبل ، يموتون هم أيضاً بلا مقاتلةٍ ولا مناضلة ولا جهاد ، يموتون لأن الحياة تتملص منهم قليلاً قليلاً حتى تتركهم جثثاً هامدات بميتة هي من أوجع الميتات وأقلها كرامة : الميتة الغبراء .

آه ! ترى ماذا كنتم تقولون ، أيها الموتى ، لو كنتم قائلين ! لعلكم تقولون « تجود الطبيعة على الطير بما يغذيه ، وعلى الشجرة بما يقوي عناصرها ، وعلى الأفعى بتراب تسفُّهُ ، ولكنها ضنّت علينا فمتنا جائعين . ولو اكتفت بنا ضحية لسعدنا ، ولكننا سابقون للاحقين . إخواننا يتوافدون علينا في عالم الظلام جماعة بعد أُخرى ولا نحن ندري ولا هم يدرون ما هذا الذي نذهب فداءً له . أليس من مغيث ، أليس من معين ؟ » .

بسلام ، أيها الموتى ، ناموا بسلام وكونوا للأحياء فدًى . لقد سمع المحسنون أنينكم والمحسنون كثير . إنّ السوريين النازحين يحبون أُمهم الصغيرة سوريا القائمة وراء الأزرق البعيد ويعرفون واجبهم في مثل هذا الموقف . وهم لما يوحيه إليهم الحبُّ ويفرضه عليهم الواجب لفاعلون .

●

أيها السادة والسيدات ،

لئن كانت الأنانية الخيط الذي ننسج بهِ أعمالنا اليومية ، فهناك أحوال خصوصية تمر بنا وتُرغمنا على التحليق فوق الحياة العادية ، فوق دائرة الأنانية الضيقة وما يشغلها من اهتمام ركيك واعتناءٍ سخيف . إذْ ذاك نرتفع فوق نفوسنا ونُشرف على آفاق الإنسانية الواسعة .

بين الناس أفراداً كانوا أم جماعات ، فروق جمَّة تلازم تغاير الطبائع وتفاوت الملكات والمواهب . ليست طبقة المحتاجين بطغمة ملائكة ؛ وكثيرون من طالبي الإحسان لا يستحقون المساعدة لأنهم إنما يعيشون للكسل والخمول والتبذير إتكالاً على كرم الآخرين الذي لا يعتبرونه كرماً بل ضعفاً وبلاهة ، لهم أنْ يستغلّوها تارة بالبكاء ، وطوراً بالتهديد . فالإعراض عن هؤلاء وتركهم للعوز يربيهم فرض واجب يوازيه أهمية واجبُ البذل عند الحاجة الصميمة التي لا تكلف فيها ولا احتيال ، ولا هي تُستعمل واسطة لتحقيق الأطماع وإرضاء الشهوات بلا عناء .

أمة بأكملها تموت جوعاً هي الأمة التي خرجنا منها وما زلنا ندعى باسمها . أمةٌ بأكملها تحتاج إلى القوت وقد تعذَّر عليها العمل لأنها حُرِمت وسائله ، فهل ننتظر منعاها جامدين أم نسعى جهدنا إلى الإغاثة التي تفرضها علينا ، لا أريد أن أقول الوطنية فحسبُ ، بل تفرضها علينا أيضاً تلك الوطنية الكبرى التي ترفع المرء فوق نفسه ، والأقوام فوق أنانيتها ، لتربطها برابطة الإنسانية النبيلة السامية .

للأديان أئمتها وكهنتها ، وللسياسة زعماؤها ومؤيدوها ، وللحروب قوّادها وجيوشها ، وللعلوم مكتشفوها وموجِدوها ، ولكلّ مذهب فلسفيّ أو اجتماعيّ أو فنيّ أو فكريّ محبّذوه ومروّجوه ، ولكلّ جنسيةٍ عصبيتها وكبرياؤها ؛ ولكن هناك جنسية واحدة ، بل مذهباً واحداً ، بل ديناً واحداً ، بل جامعة واحدة لا أئمة لها ولا معابد ، لأن كل فردٍ نبيل كاهنها ، وكل

قلب معبدها ، وكل عاطفة بخورها ، وكل فكرٍ قائدها .

هي الجنسية التي تشمل الجميع بالمواساة والرعاية عندما تتحارب الجنسيات بالمطامع والأهوْال .

هو المذهب الذي يضمد الجراح هامساً بكلمات العطف والسلوى حين تتنافس المذاهب في التخريب والطغيان .

هو الدين القائل بالصلح والسلام يوم تتقاتل الأديان للتفوُّق والغلبة .

هي الجامعة التي يهتف بها حتى الظالمون والجناة ليستميلوا إليهم الانتباه والعطف العام : جامعة الإنسانية العظيمة .

فإليكن ، أيتها السيدات ، أسوق الكلام أولاً . فكم استخدمتن ابتسامتكن في أسواق الخير وأعمال الرحمة تشترين بها قوتاً للجائع وكساءً للبائس . وها قد جاء يوم من أخطر الأيام ، فيه تحتمت عليكن المعونة والمباراة في الاستجداء .

إلى السوريين في جميع أقطار الشرق والغرب ، وإلى كل محسنٍ من أيّ جنسٍ ودين ومذهب ، تسير أنّةُ سوريا .

إليكم أيها السادة ، وكلكم قادرون . كونوا الشجرة الكبيرة ذات الغصون الخضراء التي تُظلُّ الشقيَّ ساعة استعارِ الهاجرة ! كونوا الينبوع الصافي ذا الأنشودة الفضية الذي يروي المسافر في الواحة الخصبة بعد قحط الصحاري وجدب القفار !

كونوا سوريين بقبور الآباء الأقدمين ، وكونوا إنسانيين برابطة الإنسانية الواحدة ! بل كونوا الآن تلك العاطفة التي تدبُّ في الجنان إشفاقاً ، وتتكوَّن في الضمير واجباً ، وتبرز في العمل تدبيراً ، وتنقلب بالتنفيذ فائدة فتكون نتيجتها حياةً !

كونوا أولئك جميعاً ولا تفتحوا بالإبطاء قبوراً جديدة !

١

حفلة "ثمرة الاتحاد"

أيها السادة والسيدات ،

اجتماعنا في هذا المساء ، وفي هذا المكان ، بسمة من البسمات القليلات بين عبرات الإنسانية الكثيرات . جئنا نقول لليتيمة الفقيرة « لستِ وحيدة في العالم بل كلنا أهلكِ وذووكِ » .

كم من صورة وجيعة ترسم هذه الكلمة البسيطة « اليتيمة الفقيرة » ! من كان يتيم الوالدين كان يتيم النفس . كلُّ ما أوجدتهُ الطبيعة في قلب الآباء من عنايةٍ وحنان لا يعرفهُ اليتيم . فما أشقاه ، لا سيما فقيراً يذوق مع مرارة الوحدة في الحياة مرارة ذلٍّ يرافق الفاقة ، ومرارة الجهاد وثقل المسؤولية المضنية .

وما أحرج موقف الفتاة اليتيمة ! إنّ الرجل مجاهد مناضل طبيعة ووراثة . لا يرتد أمام المسؤولية ويبتهج بوحدة الرأي والاستقلال في العمل .

أما المرأة ـ المرأة الشرقية خصوصاً ـ فميالة بطبيعتها ووراثتها إلى الإنزواء والخضوع والاستكانة فهي تتوجع بعامل الأحوال المتلاعبة بها إذا ما طلبت مكانة أوفق لذكائها ونزعاتها . فماذا تقول فيها إذا هي أُرغمت على المجاهدة طلباً للرزق ، وسدّاً للعوز ، وبحثاً عن مكان لها في نُور الشمس وسط

ألقيت هذه الكلمة في الحفلة التي أقامتها جمعية « ثمرة الاتحاد » القبطيه ، لمدرسة اليتيمات في دار الجمعية بمقصورة الشوام بشبرا ، ليلة ١٦ تموز (يوليو) سنة ١٩١٦ .

تزاحم هذا المجتمع المتدافع المخيف ؟

كم من عبرة تذبل عينيها ، وكم من ألم يفطّر قلبها ! وكم تذوق في وحدتها من طعوم اليأس والهوان ، وكم تنادي الموت وتستعطفه أنْ يهرب بها إلى حيث لا تعاني ظلم الحياة وظلم الأحياء !

والمجتمع لا يعرف من ذلك شيئاً ، ولو عرف تفاصيل تلك الحياة الصغيرة الشقية لما همَّهُ أمرها لأنه مسوق بهمومه ومطامعه وله من دموعه وحسراته ما يجعله في شاغل عن دموع الآخرين .

لذلك كان المعتنون بهؤلاء الصغيرات ، العاطفون على اليتيمات عطف الآباء خليقين بكل تنشيط وكل ثناء . غير أنّ القلوب الكريمة التي تدفعها الرحمة وحُبّ الخير إلى القيام بهذه الأعمال المشكورة لا تنتظر من الخارج تنشيطاً لأنه يأتيها من أعماقها الطيبة . ولا هي تحتاج إلى الثناء لأنه ينبعث من تلك العاطفة الكبيرة التي لا إسم لها ، والتي تغمر الفؤاد بعد إتمام الواجب نحو المحتاجين من إخوانه .

أما الإحسان إلى الجميع على السواء بصرف النظر عن فروق الأجناس والأديان فهو أعلى درجات الإحسان . لأنّ الإنسان إنْ كان غريباً عن أخيه بحواجز لم يكوّنها وقد لا يريدها ـ فهو قريب إليه بإرث البشرية الأكبر : الألم والبكاء .

قالوا إنّ الأشياء العظيمة تنحدر دواماً من الأعالي ، وما ذلك إلا تملق للقائمين على رأس الهيئة الاجتماعية . ولكن أشياء كثيرة تتعالى آتية من العمق . وهل من محيط أدنى مستوًى وأعمق قراراً من البحر ؟ والبحر مستودع اللآلىء والعجائب ، والبحر مرضع الينابيع والأنهار ، والبحر ينبوع أفيح تمتصُّ منه الشمس ما تعقدهُ في الجوّ غيوماً لتهطلهُ على الأرض بركة وخيراً .

أنت يا ابنة الفاقة واليتم والألم ، أنتِ البحر الإنساني لأنك الأكثرية ولأنك من المجتمع : المرتبة الدنيا . ومن أعماقك المجهولة يستخرج عطف المحسنين ذكاءً وقاداً ، ونبوغاً عجيباً .

كفكفي عبراتك ، أيتها اليتيمة ! لئن ضاعت دموع كثيرة تسكبينها في الظلام تحت لواحظ الكواكب الصامتة ، وبدَّد الهواءُ جزافاً زفرات تنبعث من أقاصي النفس كأجزاء منها ، فأنتِ سعدتِ بالاهتداء إلى القلوب الشفيقة ، ووجدت عند الغرباء عطفاً قد يفوق عطف الأقربين .

في ظل الجود والحنان انمي شاكرة ، يا ابنة الألم ! ثم اخرجي إلى عالم العمل والإفادة ، قوية جادَّة . والعين الأبدية التي ترى كل شيء من وراء النجوم ، تحصي الحسنات ولا تنسى لكريم ما يحمله إلى القلوب المصدوعة من المعونة والسلوى .

البَعثُ العتيد

يقول الفرنسيون إنّ أسبانيا لم تبعث إليهم إلا بملكات صالحات . أما نحن أيها السادة ، فقد عرفنا أسبانيا وقد أعجبنا بها . عرفناها بمن أعطتهم من بنيها إلى العالم الروماني من فلاسفة وشعراء وفقهاء وخطباء واباطرة . عرفناها بآدابها وفنونها وبلغتها الموسيقية العذبة . وعرفناها بمساعدتها لذاك المقدام الباسل الذي ركب من البحر جواداً حروناً وما عاد من الشواطىء المجهولة إلاّ وقد اكتشف للعالم القديم عالماً جديداً ، كريستوف كولومب .

عرفناها بتاريخها الطويل الكثير الحماسة ، الكثير الجهاد . عرفناها بما طوي عليهِ الروح الأسباني من الفروسية وطِيب العنصر ، من علوّ الهمة ودماثة الخلق ، من توقد الفكر ودقة الفهم . وأعجبنا بما فطر عليه الأسباني من التضحية في سبيل الوطن ، والحب الشديد للحرية والاستقلال .

إلا أن لأسبانيا حسنة خصيصة علينا نحن طلبة الجامعة المصرية لأنها أعطتنا أستاذاً من أمثل بنيها ، وهي حسنة لا تقابل إلا بجميل الثناء . فلنحيِّ إذاً أسبانيا الكريمة الجميلة في شخص أستاذنا الأسباني ، ولنحيها في شخص

كتبت هذه الخطبة بالعربية ثم لخصت بالفرنساوية وتليت بهذه اللغة في الحفلة التكريمية التي أقامها طلبة الفلسفة للكونت دي جلارزا المستشرق الأسباني يومئذ ، أستاذ الفلسفة في الجامعة المصرية ، عند انتهائه من تدريس تاريخ المذاهب الفلسفية عند اليونان والرومان. وقد أقيمت الحفلة في حديقة فندق شبرد . مساء ١٣ نيسان (ابريل) سنة ١٩١٧ .

ممثليها الفاضلين دون كريستوبال[1] فالين ومسيو دي كاريرس !

●

١

أيها السادة ،

كان الظلام مخيماً على الأفكار . كان اسم فرجيليوس ضائعاً بين أسماء المشعوذين ، واسم فيدياس وبراكسيتيلس نسياً منسياً يوم صاح دانتي صيحةً ما لبث أنْ اتبعها بترازكا وبوكاتشيو بصيحات متعددات . روح النبوغ التي ظلت تنتقل صامتة في نفوس الأفراد خلال القرون الوسطى ، هبطت على شعراء إيطاليا مطلقة ألسنتهم ، فكان شعرهم عويلاً وتهليلاً ، يأساً ورجاءً ، خاتمة لعهد مضى وفاتحة لعهد جديد .

يومئذٍ ، بين جمهوريات مستعبدات وولايات ثائرات ، كانت روما مضعضعة الأركان لا تضع تاجها على رأس ملك من ملوك الغرب حتى تهدد أسوارها جيوش ملك آخر . لكن صوت الارتقاء لا يخفت مهما علت حوله أصوات معاكسات . إيطاليا التي كانت تمزقها الأحقاد والأطماع تمزيقاً ، ودماءُ صفوة بنيها تُراق على شفار السيوف ، بينا حصونها تندك تحت لعلعة النيران دكّاً ، إيطاليا الخالدة ، لم يبق لها لدى أنين قيثارة الشاعر إلاّ نفسٌ طروبة طامحة إلى بلوغ الأقدار الخطيرة .

موجة حياة جديدة تولّدت في أرض المدنية اللاتينية ، وما كان حتى استفاضت على أوروبا بأسرها . لم تلمس في بادىء الأمر إلا الطبقة العليا ، ولكن ما لبث أنْ أدخلها اختراع الطباعة إلى نفس العامة . فتغلغلت مع الكتاب بين طبقات الشعوب جميعاً .

ثورة مباركة استعر لظاها في جميع فروع الفكر الإنساني . فصارت الفنون تحتذي بدائع المدنيتين الإغريقية واللاتينية مضيفة إلى جمال الأصل

(١) دون كريستوبال فالين ومسيو دي كاريرس هما سفير دولة اسبانيا ومعتمدها السياسي ، وقنصلها في العاصمة يومئذ . وكانا حاضرين في الاحتفال .

جمالاً كمن في الأرواح . تحت طيات الألم ، مدة ألف وخمسمائة من الأعوام أخذت شجرة الآداب تزهر أطيب الأزهار . انقلب علم التنجيم إلى علم الفلك ، فانهدَّت قبة السماء الوهمية وسُمع حفيف الأفلاك في أبراج اللانهاية . قامت العلوم على تعددها تتسع باكتشافها وتتقوى بتجاربها ، طاردة ما عثرت عليه من خرافات وأوهام وشعوذة . رُفع أفلاطون ، المجهول قبل ذلك إلى عرشهِ السامي باسطاً على النفوس جمال فلسفته الشعرية . وذلك العهد المجيد ، عهد إحياء الفنون والعلوم والآداب ، دعي عهد الانبعاث .

أيها السادة ،

تاريخ القرون الوسطى الذي انتهى في أوروبا بابتداء القرن الخامس عشر ، يكاد يمتد عندنا إلى أواخر القرن التاسع عشر . إلاّ افراداً فكروا في وحدتهم منعزلين عن محيط بينهم وبينه أبعد الغربات وامرّها ، غربة الروح . فتركوا لنا في كتاباتهم آثار نبوغهم . آثاراً اذا ما استجوبناها الآن عجبنا من تغلبهم على كل حائل في سبيل العلم وأخذَنا الإشفاق عليهم لأنهم كانوا يستحقون السعادة ولم يسعدوا .

واذا استثنينا فئة سَمَت منها المطالب فشغفت بفكرة الارتقاء ، أليست هذه السنوات الأولى من القرن العشرين أشبه شيء بعهد القرون الوسطى نظراً إلى حالة العامة ؟.. الشعب هنا مستودع ظلام وجهل ترتع في ربوعه الخرافات والشقاء . ولا أظن أنّ ما ينقصنا هو اختراع الطباعة لنُدخل أشعة الفكر مع الكتاب إلى تلك النفوس النائمة . ولكن ننتظر التعليم الإجباري ، ننتظر عمل المدارس الابتدائية منها والعليا ، ننتظر الوقت أبا العجائب ، ننتظر زيادة غيرة في الرؤوس المفكرة ، وزيادة تحفز في الهمم النهّاضة ، لنسير في طريق فَوْز ميمون إلى عهد جديد يخرجنا من ليل القرون الوسطى إلى نهار البعث العتيد .

اشتهر أحد الرومان بكلمة رددها سنوات طويلة وهي : « فلنهدم قرطاجنة ! » . وفي نفس الفئة الراقية عندنا أمنية ثابتة وهي : « فلنهدم الجهل ! » وإنما تهدم المدائن بقنابل المدافع ؛ وأما الجهل فظلام ، والظلام لا يهدم إلاّ بتغلب النور .

النُّور ! النور ! نريد النور دواماً وفي كل مكان ! نريد ارتفاع النفوس إلى أوجٍ تفهم عندهُ جمال الرجاء ، جمال الإشفاق ، جمال الواجب وجمال الخير ! نريد أن يفهم الرجل كرامة المرأة ، وأنْ تفهم المرأة كرامة الإنسانية ! نريد أنْ نعرف ذلّ العبودية كي ندرك عزّ الحرية ! نريد أن نكسر قيود الإرغام كي نقيد ذواتنا اختياراً بواجبات سامية . نحن نعلم أنّ قيود الحرية أوفر من قيود الظلم عدداً ، وأدقّ نوعاً ، وأوجع وطأة ولكنَّ في قيود الظلم إذلالاً يسحق الشخصية هابطاً بالإنسان إلى تحت درجة الإنسان ، وفي قيود الحرية عزة تعلو بالمرء إلى قمة العظمة فتصيره إنساناً كاملاً ، يقوى على النظر مليّاً في وجه الإنسانية المجاهدة قائلاً : « أنا ابنك وقد صيرني جهادي أهلاً لهذه النبوة المقدسة ! ».

●

أيها الأستاذ الكريم ،

نحن جزء من الفئة التي ذكرنا . ولقد صدق فينا مثَل أهل « اليوجا » الهندية القائل : « اذا استعد التلميذ جاء الأستاذ » . ساعة تقف نفوسنا حائرة عند أبواب المستقبل تتجاذبها عوامل الشك والرجاء فتدفعها حيناً وتحجمها حيناً ـ في هذه الساعة الخطيرة من حياتنا الأدبية نراك عاملاً يداً بيد مع أساتذة جامعتنا الأفاضل ، ومع نفوس غيورة أخرى تعمل لنهضتنا بالسكوت وبالقلم وباللسان ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .

أنت الغريب عنا جغرافيّاً نراك من أكثر الناس اهتماماً باتجاهنا المعنوي . وهل يمكن أنْ يكون المحسن غريباً ؟ .

نراك ساعياً إلى إنهاض المدارك منا بحلم العالم الذي قد سبق وطوى طريقاً يقودنا الآن فيها ، وجال في أحنائها ومطاويها فوقف على ما يملأها من مجيد الصعاب . وهناك في قاعة الدرس الصغيرة حيث يدخل شفق المساء على عجل ، وتُسرج المصابيح سريعاً ، كم استحضرتْ اشارتك الواسعة نوابغ الأجيال بتوقد عطاردي ، وبرصانة مفكر قد اعتاد تسنم الذرى العقلية . فسردْت مذاهب المتقدمين باسطاً أقوالهم ، مفنداً آراءهم ، شارحاً ما لامس منها الإعجاز ، ملخصاً نقد الناقدين فآتياً بالنقد عليها جميعاً . ذلك بسلاسة وإيجاز تكسوهما بلاغة عبقرية قد تكون انتهت إلى الأسبان كإرثٍ شيشروني .

وبينا بيانك يزيح حجباً ضُربن بين المعاني والافهام إذا بالنفوس منا تثب مطلاّت على آفاق جديدة . فيلحقنا عطش العلم ، وتأخذنا رغبة السؤال . وروحك الكبيرة العالية منهل نُور وحكمة ، كلما استقينا منها معرفة وضياءً زادت تدفقاً وتدفقت سخية ، وديعة ، صافية ، يتألق في تموجها حب العلم وحب الكمال .

اليوم عيد شكرنا . ولئن ذكرنا باغتباط وامتنان ساعات تفيض بها علينا سنيّ هباتك فاننا نذكر بتهيُّب ساعات أخرى كثيرات لا نسمعك فيها ، ولكن نعرفك في غيابك عاملاً لخيرنا . تلك ساعات العزلة إذْ يختلي الأستاذ بنفسه مهملاً ضوضاء العالم . ساعات سكوت وتأمُّل تجعل الفيلسوف عميقاً كالبحر لا تقلقه العواصف ولا تدركه الدلاء .

نراك منحنيّاً على كتب كثيرة تتصاعدُ من صفحاتها صور الحياة وخيالات اللانهاية . تقابل بين لغات قديمة ولغات حديثة ، وتقارن بين أسلوب وأسلوب ، وتعبير وتعبير ، لتنقل إلى لغة العرب حكمة شقيقتيها في المجد والقدم ، ومناظرتيها في الفصاحة والغنى : الإغريقية واللاتينية . لكنهما على شهرتهما لم تنتشرا انتشارها . ارتفعتا حيناً إلى أوج الحياة والعظمة

ولم يكن ان هبطتْ كل منهما مع مدنيتها . أما أُختهما الثالثة ، لغة مكة والحجاز والعراق ، فلها الغلبة ولها البقاء ولا يزيدها كرُّ الدهور إلاّ فتوةً وجمالاً لأن لغة القرآن لغة خالدة .

إننا ننحني باحترام لدى ذكر تلك الساعات النفيسة ، ونستزيدك منها لأننا في حاجة إلى أثرها في نفسك وفي حاجة إلى نتائجها الجليلة . ولئن استشعرنا بما تجده من العناء الكثير قرب الارتياح الجزيل في عملك المجيد ، فإننا نعلم كذلك أنّ مَن كان مثلك ما ألهمته الحوائل إلاّ همة ونشاطاً ، وما زادته المسؤولية إلاّ توهجاً وإخلاصاً . واللغة التي أحببتها وأنزلتها من علمك الواسع منزل الكرامة حتى تملكت أعنة الكلام فيها سوف تجازيك جميلاً ، سوف تحفظ تعاليمك بين كنوزها الغاليات ، سوف تفتح كتابها الذهبي لك وتضم اسمك إلى أسماء أبنائها الخالدين !

عاش الكونت دي جلارزا !

عاشت الجامعة المصرية !

عاشت النهضة الحديثة !

وداع الأستاذين

أيها السادة ،

في أعالي الفلك صورة سماوية تدعى « الشلياق » أجمل نجومها نجمٌ من القدر الأول اسمه « النسر الواقع » وهو درة فريدة تبهر الأبصار زرقتها اللامعة . رصده علماء الفلك فوجدوه محجة الكواكب . وجدوا أنّ جميع الكواكب المنظورة تندفع نحوه في الفضاء وهو لبعده الشاسع لا ينتهي إليه نظامنا الشمسي إلاّ بعد ملايين الدهور . وقالوا إنّ حياة ذلك النجم قد تكون انقضت ، وإنّ نوره قد يكون خبا منذ عصور ، ولكنّ ما قام بيننا وبينه من مسافة هائلة يمكّننا من مشاهدة ذلك النُّور أحقاباً طوالاً .

أيها السادة ،

النجم الذي لا تعرف منه الأنظار والمراصد إلاّ شعاعاً مجهول الأمس والغد ، نجد في الإنسان قوة تمزق عن كيفية تكوينه حجباً كثيرة . وما هي إلاّ تلك القوة التي تقدحها الرغبة فتنطلق باحثة بين ما يُرى من العوالم وما لا يُرى مستقرئة همس الضياء ، قائسة تموج الأثير ، متلمسة ضمير الورى .

ألقيت في الحفلة التي أقامها في فندق شبرد في آخر يناير سنة ١٩١٨ طلبة كلية الآداب العربية في الجامعة المصرية لتكريم الاستاذين الشيخ محمد الخضري مفتش أول اللغة العربية في وزارة المعارف الذي كان يدرّس في الجامعة تاريخ الأمم الإسلامية ، والشيخ محمد المهدي وكيل مدرسة القضاء الشرعي الذي كان يدرّس تاريخ الآداب العربية .

هي مفرقة الشعوب وجامعتها التي كانت حيناً بعد حين ضلالاً وهدى ، وظلاماً ونوراً ، ووهماً وحقيقة . هي مرشدة الأمم كيف ترفع الأمم رأسها لنيل حقوقها ، ومعلمة الأفراد كيف ترقى الأفراد مطالبها لنيل بعيد الغايات. هي مدونة الأسفار ، ومبتكرة الفنون ، ومستجوبة العلوم ، وغالبة الآفاق على شموسها ، والبحار على خفاياها ، والنفوس على أسرارها . هي التي شادت دهراً بعد دهر نينوى وبابل وصور وأورشليم وأثينا وروما والإسكندرية . هي التي تعلو بالمدنيات وتهبط بالشعوب لأنها أقوى من الشعوب والمدنيات ، وهي أبداً حاضرة متنقلة فعالة كالنور لا تُلمس ولا تنضب ، ولعل سرها سر النور وعنصرها عنصره . ألا وهي الفكر الإنساني .

لئن كان الفكر في الكهولة مهيباً برصانته وقدرته فهو في الشبيبة شيّق بتردده وحميته لأنه قوة في طور التكوُّن . فما أحْوجه في ذلك الطور إلى يد حكيمة تثقفه وتقوده وتغذيه بتلك المبادىء التي توسع الحياة وتكسبها علوّاً كبيراً . لذلك كان التعليم صرح المدنية ، وكانت المدارس مصابيحها ، وكان الأستاذ فيها كاهن النور ورسول العرفان . وما التعليم سوى تصويب الفكر نحو غاية مُثلى ، يجمع في سيره إليها من الخبرة والمعرفة ما يؤهله لإدراكها وتقديرها ؛ ولا الارتقاء سوى مجموع تلك الخبرات والمعارف الطيبة نافذة ناموساً في الجهاد اليومي والأعمال العادية .

لا يحتاج الارتقاء إلى جيوش وجحافل تدخله بين الأقوام . ولكن انشر كتاباً مستحبّاً إلى أمة ترَ الدماء تُهرق لحفظ كرامته لأنه أتاها بما لا تأتيه الحروب . بلاد الإغريق صغيرة بمساحتها ولكنها كبيرة باشراق نورها على بني الإنسان . روما مدينة ليس إلاّ ، ولكن هذه المدينة تملأ العالم . اذا ذكر الإنجيل انحنت الرؤوس إجلالاً وتجمهرت النفوس حبّاً حول السيد المسيح : أستاذ الرحمة والغفران . وكفى التلفظ باسم القرآن لتهتز القلوب طرباً عَلى وَفق الآيات والاسجاع مرتلة مع السور اسم النبي العربي .

أيها الأستاذان الجليلان ،

سنوات مررن وأنتما تثقفان من شبيبة وطنكما الفكر والخلق . وتفيضان عليها ما حواهُ صدركما الرحب من بلاغة الكتاب العزيز وعلوم لغته الشريفة . بحث الأستاذ الشيخ المهدي في آداب العرب ، ففتح أمامنا تلك الكنوز الثمينة ، وأعلمنا أنّ العربي ذو استعداد أدبي وعلمي كبير . فوجدنا سائق الأظعان نظاماً إن لم نجده شاعراً ، ووجدنا الراعي عالماً بالهيئة السماوية ودورة الكواكب ، وخلنا المستعطي العافي فيلسوفاً حكيماً ، وسمعنا قائد الجيش خطيباً . وإذ رأينا فتاة العرب تبكي إذا بدموعها درر ترصع الأوزان ، فهبطنا إلى نفسنا فإذا هي قيثارة تئن شجناً كلما نقرت على أوتارها يدُ الفنّ ويدُ الألم .

واستخرج الأستاذ الشيخ الخضري تاريخ الأمم الإسلامية من مخابئه ، فسيَّر أمامنا مواكب دول الفتوح منطلقة لاجتياح ما استطاعت من القارات الثلاث ، تحمل إليها مدنيتها مشيدة فيها معاهد التأديب ، مقيمة بنايات العلم ، رافعة بيوت الصناعة ، ضاربة للعدل رواقه ، وممددة للأمن أطنابه . يوم كانت همتها القعساء تستثير شجاعة الشجعان مندفعة نحو قصيّ الربوع كالسيل الجارف ، إن اعترضها في اندفاعها حصون نشرت عليها أعلامها ، أعلام الفخر . أوْ قام في سبيلها عواصم طوّقتها حصاراً مرددة أهازيج النصر . ونفوسنا لدى مشاهد العظمة العربية إنما تنقلب قواها تحفزاً وحماساً شديداً .

أيها الاستاذان الكريمان ،

لكما عندنا كلمتان : كلمة شكر وكلمة أسف . أما كلمة الشكر فنحتفظ بها في سويداوات القلوب لا تُمحى حروفها ولا يحفل معناها ، بل تظل نامية لنودعها حية صدر أجيال مقبلة . وأما كلمة الأسف فلا نفوه بها . لأنه وإنْ خسرتكما جامعتنا المصرية ، فأنتما على الدوام ربحُ شبيبة

تستظلُّ بحماكما مُستوثقة بعهود لا تُخان .وحياتكما الثمينة التي وقفتماها على خدمة العلم مستودع فضل عميم سوف نغترف منه طويلاً إنْ شاء الله .

ولكننا نقول كلمة ثالثة هي هذه : القيا نظرةً على الماضي تريا سهلاً يموج فيه نضار حصاد أوجدتهُ أياديكما . وانظرا أيضاً إلى المستقبل تُبصرا مروجاً فسيحة تنتظر منكما بذور العرفان لتنمو لمصر حصاداً عسجدياً !

عاش الأُستاذان الجليلان !

الإخاء

أيها السادة والسيدات ،

يعزّ عليَّ أنْ يصمت الصغار لأتكلم أنا . لكني أسألكم أنْ لا تصغوا إلى صوتي فهو ضعيف لا تهتز له موجات الهواء إلا قليلاً . بل اصغوا إلى ذلك الصوت الهامس لكل نفسٍ في وحدتها حتى إذا اجتمع الأفراد جمهوراً ارتفع ذلك الصوت واختلطت معانيه بمعاني أصوات تحيط به ، فأصبحت الأصوات الكثيرة صوتاً واحداً شاملاً يهز القوم هزّاً مهما اختلفوا جنساً وعقيدة ومصلحة وميولاً . يسمي علماءُ النفس هذا التأثير الواحد الذي يخضع له الجمهور « نفس الجماعات » أما سادتنا الأطباء الذين وجدوا العدوى في كل زمان ومكان فقد دعوهُ « عدوى عصبية » .

الكلمة مخيفة قليلاً غير أنها عدوى مستحبة تتحد القلوب تحت تأثيرها ، فيطرب الجميع لطرب واحد ، ويتوجعون لحزن واحد فيسعون لمصلحة شريفة واحدة . في هذه العدوى شاهد على أنّ بين الغريب والغريب صلة قرابة شديدة ، وما تلك الصلة إلاّ مظهرٌ من مظاهر الإخاء الكمين .

إنّ كلمة الإخاء التي ينادي بها دعاة الإنسانية في عصرنا ، ليست ابنة اليوم فحسبُ ، بل هي ابنة جميع العصور . وقد برزت إلى الوجود منذ شعر الإنسان بأنّ بينه وبين الآخرين اشتراكاً في فكرة أو عاطفة أو منفعة ،

ألقيت في حفلة جمعية القديس جاورجيوس السورية الارثوذكسية في ٣ آذار (مارس) سنة ١٩١٨ .

وبأنهم يشبهونه رغبات واحتياجات وميولاً. يجب أنْ يتألم المرء ليدرك عذوبة الحنان ، يجب أن يحتاج إلى الآخرين ليعلم كم يحتاج غيره إليه ، يجب أنْ يرى حقوقه مهضومة يُزدرى بها ليفهم أنّ حقوق الغير مقدسة يجب احترامها ، يجب أنْ يرى نفسه وحيداً ، ملتاعاً ، دامي الجراح ليعرف نفسه أولاً ثم يعرف غيره ، فيستخرج من هذا التعارف العميق معنى التعاون والتعاضد . كذلك ارتقى معنى الإخاء بارتقاء الإنسان .

في جمعيات سرية وعلنية ، في جمعيات علمية وفلسفية ودينية وروحانية استُعملت كلمة الإخاء بين الإنسان والإنسان قروناً طوالاً ، حتى جاءت الثورة الفرنساوية تهدم أسوار العبودية بهدم جدران الباستيل ، وتعلن حقوق الإنسان مستخلصة من بين الأخربة والدماء والجماجم ، كلمات ثلاثاً هنَّ شعار العالم الراقي : حريةٌ ، مساواة ، إخاءٌ .

حرية ، مساواة : كلمتان جميلتان يخفق لهما قلبُ كل محب للانسانية لكن ـ لا بدَّ لكل شيء من « لكن » ـ هل كان تحقيقهما في استطاعة البشر ؟ ما أضيق معنى الحرية اذا ذكرنا أنّ مجموعة الكائنات تكوّن وحدة العالم ، وأنّ على كلٍّ منها أنْ يصل إلى درجة معينة من النمو مشتركاً مع بقية الكائنات في إكمال النظام الشامل . وفي وسط هذا النظام القاهر نرى الإنسان وحدهُ متصرفاً في أفعالِهِ بشرط أنْ يخضع للقوانين المحيطة به والنافذة فيه . هو حرٌّ بشرط أنْ تنتهي حريتهُ حيث تبتدىء حرية جاره ، وبشرط أنْ يعلم أنه حيثما وجَّه أنظاره وأفكاره وجد نظاماً معيناً ؛ وأنّ حريتهُ ، كلَّ حريتهِ ، قائمة في اختيار السير مع ذلك النظام أو ضده ، واستعماله للخير أو الشر ، للربح أو الخسران . فما أكثرها شروطاً تقيد هذه الحرية التي تندكُّ لأجلها العروش وتتطاحن الأمم للحصول عليها !!

أما المساواة فحلمٌ جميل ليس غير . لأن الطبيعة في نشوئها التدريجي لا تعرف إلا الاختلاف والتفاوت .. أين المساواة بين النشيط من البشر

والكسول ، بين صحيح البنية والعليل ورائة ، بين الذكي وغير الذكي ، بين الصالح والشرير ؟ كلا ، ليست المساواة بالأمر الميسور بل هي معاكسة لنظام حيوي إذا غولب كان غالباً قاهراً .

كلمة واحدة ، تجمع بين حروفها الحرية والمساواة ، وجميع المعاني السامية والعواطف الشريفة . كلمة واحدة تدلّ على أنّ البشر إذا اختلفوا في بشريتهم اختلافاً مبيناً فهم واحد في الجوهر ، واحد في البداية والنهاية . كلمة واحدة هي بلْسم القروح الاجتماعية ودواء العلل الإنسانية ، وتلك الكلمة هي الإخاء . لو أدرك البشر أخوّتهم لما رأينا الشعوب مشتبكات بحروب هائلة صرعت فيها زهرة الشبيبة ، وما زالت الدماء جارية في القارات الأربع وما يظللها من سماء ويتخللها من ماء . لو أدرك البشر أخوّتهم لما وجدنا في التاريخ بقعاً سوداء تقف عندها نفوسنا حيارى . لو أدرك البشر أخوتهم لما رأينا المطامع تدفع الأمم القوية إلى استعباد الأمم الضعيفة ، لو أدرك البشر أخوّتهم لما سمعنا في اجتماعاتنا كلمات جارحات يجازف بها كلٌّ في حق أخيه ، وهي من أركان أحاديث صالوناتنا الجميلة . ولكن لننزلنَّ قليلاً إلى ما هو تحت السياسة والتاريخ والصالونات لننزلنَّ إلى مهبط الشعب حيث الشقاء مخيم ، واليأس مستديم .

ما أوجع منظر اليد الممتدة للاستعطاء ! إنه يدل على احتياج الجسم إلى القوت ، ويدل خصوصاً على جوع النفس وفقدانها لتلك الأفكار التي تعلي المرء في عين نفسه ، ولتلك العواطف التي تجعله شاعراً بانه جزءٌ مهمٌّ من هذا العالم البديع . عواطف نبيلة ، وأفكارٌ عظيمةٌ ، لكنها تذبل تحت ضغط الحاجة المتتابع ، وتتلاشى مع استمرار الفاقة والذلّ والانكسار . إلى أين تذهبون أيها السائرون في مركباتكم الفاخرة ؟ إلى أين تسيرون أيها الضاحكون ؟ تتكلمون عن جمال الحياة وعظمة الكون ، وتذكرون بسمات الربيع وإخلاص الاصدقاء . أما تلك النفوس الشقية فلا تدري

مِن ذلك شيئاً ، ما الإنسان في شرعها إلا عدوٌّ لدود ، وما الحياة إلاّ سرير الغموم ومستودع البلايا . أنتم السعداءُ تستسلمون لعذوبة الحب وطهر الولاء ، وهم البؤساءُ يطوون على الحقد أحناء صدورهم ، ويكظمون حقداً تذكو جمرتهُ مع الأيام . وفي هذه الطبقة الجائعة الذليلة الدائمة الانفعال تكوّنت بذور ثوراتٍ هائلة نمت فاتسعت فزلزلت الممالك زلزالا .

غير أنّ فئةً من هذه الطبقة لا تعرف تمرّداً ولا تكظم حقداً ، وهي أوجع فئة ، لأنها تتألم صامتة ، ولا ترجو راحة وسلاماً إلاّ من الموت .

وإذا ظننتم أني أتكلم كشاعر يهيم في أودية الخيال ، فهاكم حقائق ملموسة : منذ أشهر قليلة انتحر شابٌّ في الثامنة والعشرين من سنيهِ . كان له أمٌّ جائعة ، وكانت أبواب الرزق مقفلةً في وجهه ، فألقى بنفسه في النيل تخلصاً من الحياة . بعد ذلك بأسابيع قليلة ، مات شيخ في الثمانين من عمره كان يستعطي على مقربة من جسر بولاق ، وقد أسفر التحقيق بعد موته عن أنه لم يتناول قوتاً منذ خمسة أيام .

في أواخر الصيف الماضي وجد بوليس الإسكندرية أربعة أيتام بلا مأوى ، سار بهم إلى المعاهد الخيرية ، لكنَّ معاهد البر حدَّدت عدد مَن تقبلهم في هذه الاعوام بحكم الظروف الاقتصادية . فعاد البوليس بالأطفال إلى القسم حيث جلسوا يبكون ، ولمّا سئلوا عمّا يحزنهم أجابوا انهم لم يأكلوا منذ ماتت أمهم أي منذ ثلاثة أيام .

إني أتذرَّع بصوت هؤلاء البائسين ودموعهم لأصرخ أن مثل هذه الفواجع يجب أن لا تكون ، ولأقول إنّ الاجتماع بأسره مسؤول أمام ضميره عن إهماله وقسوته . وإنه ما دام في وسطه شهيد واحد من هؤلاء الشهداء ، فهو قاتل جانٍ . فالاجتماع جسم واحد ، سواء شاء الأفراد أمْ لم يشاؤوا . والبشر على اختلاف طبقاتهم أسرة كبيرة واحدة . تلك سلسلة قيدتنا بها يد الله ، فمن حاول كسر حلقةٍ من تلك السلسلة جرحَ نفسهُ ، وكان

لغيره مؤذياً . ليس من عار أنْ يكون المرء عليلاً في أسرته ، أو ضعيفاً بين إخوانه ، بل هناك امتياز يجعلُ الضعيف ، أو الحقير ، أو الجائع محبوباً أكثر من غيره ، لأنه يحرك العطف والحنان في القلوب المتحجرة ، وينبه السعيد من إخوانه إلى واجبه نحو المحروم من نعم الحياة .

من المفكرين من يقول بإمكان حذف الفقر وملاشاة الألم . لكن ذلك مستحيل ، وسيظل الفقر موجوداً ما دام أحد الناس أوسع ثروة من غيره ، فكأن الآخرين فقراء بالنسبة إلية . ثم إنَّ الفقر النسبيّ ممرّ لازم إلى الغني ، وهو منبه للذكاء ، مهيج للرغائب ، تحتدم فيه نار قوى عديدة ، طالما أطفأت جذوتها عيشة الرغد والهناء . أما الألم فناموس قهَّار ، وهو المهذّب الأكبر الذي يعلمنا دروس الحياة كلمة فكلمة . هو النار المطهرة للنفس من كل غشٍّ وفساد ، حتى تتركها جوهرة لامعة . هو دافع بالمرء إلى داخل نفسه حيث يجد قوّته واقتداره ، ويتعلم الرحمة والإشفاق . لأنَّ الذي لم يرَ دموعه هاطلة على أرض صماء ، ولم يشعر بأنَّ دماء قلبه تسيل نقطة بعد أخرى ، ولم يبصر حجاب اليأس مسدولاً بينه وبين البشر ، ذاك الذي لم يتوجع باحتياجه إلى التعزية كيف يمكنه أنْ يشفق ويرحم ؟ كيف يدخل إلى قلوب الغير ويلمس موضع اللوعة منها ؟ نعم الفقر والألم ضروريان للحياة . ولكني أقول بإمكان استئصال الفاقة . فالفاقة برص اجتماعي ، وكما تلاشى البرص من جسم الإنسان ، يجب أنْ تتلاشى الفاقة من جسم المجتمع . ولا يتم ذلك إلاّ إذا ترابطت منا الأقلية القادرة العاملة ؛ لا يتم ذلك حتى يذكر الأقوياء أنهم إخوة للضعفاء ، فينحنون على نفوس محزونة تضج بالأسى ضجيجاً ، ويرفعونها إلى مستوى يتعاضد فيه الجميع ويتساندون . لا يتم ذلك حتى يصير ناموس تنازع البقاء السائد في عالم الحيوان ناموس التعاون على حب الحياة السائد في عالم الإنسان .

ما هو النهر أيها السادة والسيدات ؟ وهل يكون نهراً اذا هو انبثق

من مصدره ، وانصب في البحر دفعة واحدة ؟ انما يتفجر ينبوع النهر في أعالي الجبال ، فيهرول مقهقهاً على الصخور ، حتى اذا ما حشر وسط الشواجن الخضراء ملأ الوادي ألحاناً وأنغاماً . يجري في الصحارى والقفار فتنقلب القفار والصحارى مروجاً خصيبة وجنات زاهرة . يسير في البادية والحضر على السواء فيروي سكان المدينة وأهل القرية بلا تفريق بين الشريف والحقير . يرضع الأشجار بتغلغله في صدر الأرض الملتهب ، ويغذي الأثمار والنبات ناظماً لآلىء في ثغور الورود . وكلما وزع من مياههِ زادت مياههُ اتساعاً وتدفقاً ، فيتابع السير بعقيقه الفخم واسع العظمة رحب الجلال . حتى اذا ما جلب النفع على الكائنات ، وملأ الديار خيراً وثروة وجمالاً ، رأى البحر منبسطاً لاحتضانه ، فشهق الشهيق الأخير ، وانصبّ في صدر البحر مهللاً مكبراً . كذلك عاطفة الأُخوَّة لا تكون أخوَّة حقيقية إلاّ إذا خرجت من حيز الشعور إلى حيز العمل . تتفجر عذوبتها على ذرى الاجتماع ، وتجري نهراً كريماً بين طبقات المجتمع ، فتلقي بين المتناظرين سلاماً ، وبين المتدينين تساهلاً ، وتنقش محامد الناس على النحاس ؛ أما العيوب فتخطّها على صفحة الماء . تساعد المحتاج ما استطاعت بلا تفريق بين المحمدي والعيسوي والموسوي والدهري . ترفع المسكين من بؤس الفاقة ، وتنشر على الجاهل أشعة العلم والعرفان ، وتفتح أبواب الرجاء لعيون أظلمتها أحزان الليالي . فكم من درةٍ في أعماق البحر لم تسرّ بها النواظر لأن يد الغوَّاص لم تصل إليها ! وكم من زهرة نوَّرت في القفر ، فتبدد عطرها جزافاً في الهواء ! إنما الإخاء يزيح بيده الشفيقة الشوك عن الزهرة المتروكة ، ويرفع لها جدراناً تقيها ريح السموم الفتاك . هو العين المحبة التي ينفذ نظرها إلى أعماق النفس فترى أوجاعها . وهو الهمة العاملة لخير الجميع بثقة وسرور ، لأنه القلب الرحيم الخافق مع قلب الإنسانية الواجف .

الإخاء ! لو كان لي ألف لسان لما عييتُ من ترديد هذه الكلمة التي

تغذت بها الضمائر الحرة ، وانفتحت لها قلوب المخلصين . هي أبدع كلمة وجدت في معاجم اللغات ، وأعذب لفظة تحركت بها شفاه البشر . هو اللّين والرفق والسماح ، كما أنه الحِلم والحكمة والسلام . لو كان لي ألف لسان لظللت أنادي بها « الإخاء ! الإخاء ! » حتى تجبر القلوب الكسيرة ، حتى تجف الدموع في العيون الباكية . حتى يصير الذليل عزيزاً ، حتى يختلط رنين الأجراس بنغمات المؤذنين ، فتصعد نحو الآفاق أصوات الحب الأخويّ الدائم .

أحيّيكَ يا معهداً أحسنت عائدة على البائسين ، فضممتهم إليك ليشعر اليتيم بأنّ له والدين إذا قضى الوالدان . وعنيت بصغارٍ وصغيرات هانوا على مصائب الدهر ففتحت أمامهم سبل الرجاء ، وعلمتهم نشيد العصر ، وهو نشيد الحياة القائل :

كنْ ابن مَـنْ شئتَ واكتَسِبْ أَدَبـا
يُغْنِيكَ مَحْمُودهُ عَـنْ النَّسَـبِ
إنَّ الْفَتَـى مَـنْ يَـقُـولُ هــا أنـاذَا
لَيْسَ ٱلْفَتَى مَـنْ يَـقُـولُ كــانَ أبي

أحييكم أيها المحسنون أغنياء كنتم تعطون البائس من ثروتكم والضعيف من قوتكم ، أمْ علماء تفتحون عيني الجاهل على آفاق الضياء ، وتذكّرون الإنسان أنّ بينا جسده مقيد بقيود المادة ، فإن روحه تقطن دائرة النور الأطهر . وإذا صدق اوغست كونت بقوله : إن الإخاء يجب أنْ يكون ديناً اجتماعيّاً عامّاً ، وإنّ الإنسانية يجب أنْ تكرس أعياداً لأعاظم رجالها وكبار محسنيها ، فأنتم أولئك الأعاظم والمحسنون ، وبدلاً من أنْ تتلاشى تحيّتي على أجنحة الهواء ، وددت أنْ أخطها خالدة بأحرف النُّور على جبهة السماء !

أيها السادة والسيدات ،

لقد شاد قدماءُ المصريين أهراماً تناطح الجوزاء عظمتها ، وتحير العقول أشكالها الهندسية ، ورموزها السرية . ونحن أبناء هذا العصر ، نريد رفع هرم جديد يكون أعمّ منفعة وأوسع فائدة . ذاك منارة الصحراء ومدفن الفراعنة ، وهذا منارة البؤساء ومدفن الذلّ والشقاء . ذاك يتركب من أحجار ضخمة ، وصخور منحوتة ، وهذا يتألف من مدارس للبائس واليتيم ، وملاجىء للعجزة ، وجمعيات برّ تساعد الأرامل والمحتاجين وتمهّد سبيل العمل للعاملين . ذاك يلجم فيه بين الحجر والحجر طين الأرض ، وهذا يربط معاهدة تبادل الرغائب الشريفة ، ويسير أعماله اهتمام الأخوّة العالية . ذاك رُفع بعرق البؤساء ودم العبيد ، وهذا يرفع بعطايا المحسنين وكرم ذوي الأريحية . ذاك لم تفهم أسراره إلاّ الأقلية النادرة ، وهذا تتهذب في مدارسه الأكثرية البائسة فتسمو في سلّم الإنسانية ، ويرتقي بارتقائها الاجتماع بأسره .

فيا رُسُل جمعيات البرّ في هذا الاجتماع الجليل ! ساعة تعودون إلى إخوانكم وإخواننا من مسلمين ومسيحيين ، قولوا لهم : إنكم رأيتم هيكلاً جديداً من هياكل الإحسان ، ومعهداً ينضمّ إلى معاهدكم السامية .

قولوا : إن الرجال يعملون فيه بسخاء وغيرة وهمة تتزايد مع الأيام ، وإن السيدات يسابقنهم بما عندهنّ من عطف وذكاء وحنان ، لأنّ أشرف موقف يظهر فيه حب المرأة هو موقف البر والإحسان . وإذا امتدت لكم من هذا المعهد الحديث يد ، فلا تسألوا هل هي مصرية أو سورية أو أجنبية ، بل صافحوها تعلموا أنها يدكم بعينها لأنها يد الإخاء الإنساني العظيم !

فضل الآداب

يرجع أثر الصناعة والتجارة في تكوين العلائق الاجتماعية إلى عهد أبعد كثيراً من يوم وطأ الفينيقيون الشاطىء الإغريقي للمرة الاولى ، وربما انتهى بنا إلى فجر تاريخ العمران . ولولا تلك العلائق ما اختلطت الأقوام ، ولا تمازجت الأجناس ، ولا تكوّنت المدنية ، ولظلت الجماعات في وحدتها الاثنغرافية ، وانقطاعها الحيويّ ، بعيدة بعضها عن بعض . ولو كان ذلك لفنيت العشائر وانقرض النوعُ في زمنٍ قصير .

وجدت الصناعة والتجارة فزاد تبادلها في ثروة الجمهور ، وجلب الرخاء فتعدَّدت مُثُلُ الانتاج ، وتوفَّرت للأفراد سهولة المعيشة . ولئن أثَّر ذلك التبادل في الظواهر الحسية ، وأتى بتغيُّر محتم في عادات البلاد ومشارب أهلها مرهفاً عندهم تطلُّب الكماليات ، فانه لم يفلح يوماً في التقريب بين الشعوب وحذف ما بينها من نفور وخصام ، وتوحيد الرأي والكلمة منها . فهو إنْ لم ينبه فوراً الحسد والطمع وحبّ المنافسة ، وإنْ لم يوقدْ حروباً ويُقمْ معارك هي من الهول والفظاعة ما شهده العالم في أيامنا ، فهو يترك الناس إلى وقت في خلوّ غافلين عن المزاحمة والمقاومة ، راكنين إلى التمتع والتلذّذ ، لأنه قاصر على عالم المحسوس السطحيّ ـ ذلك العالم أسير التغير والتبدّل وعبد الاختلاف والتعدّد على الدوام ـ .

ترجمة الخطبة الإنجليزية التي تليت في حفلة أقامها في فندق شبرد طلبة قسم الآداب الإنكليزية في الجامعة المصرية لتكريم أستاذهم في أواخر نيسان (أبريل) سنة ١٩١٨ .

إنما الشعوب كالأفراد لا يتفاهمون إلا بالتآلف الفكري ، ولا يتوحدون بغير التمازج الروحي . متاعُ المصانع ونتاج المعامل يحفظ أبداً طابع الشعب الذي ابتكرهُ أو عالجه . ولكنّ أهل الفكر والعبقرية لا يُسبَكون في قالب ولا يحملون طابعاً ، بل يخصون الإنسانية بأسرها ، ويخدمون الجميع بلا حصر ولا استثناء . يتكلمون ويعملون ويكتبون ، وسواء هم أفصحوا عن نظراتهم ومشاعرهم باليونانية واللاتينية أو العربية والهندية ، فإنما هم يترجمون عن حاجات بشرية ، ورغبات إنسانية تجمهرت في نفوسهم الكبيرة الحساسة .

ما غرض الأدب والبيان سوى التعبير عن الفكر والعاطفة كلاماً وكتابةً ، ونقل صور ذهنية خفية إلى عالم الاطلاع والاستعراض . يفضي كل شعب بسرائر ضميره على أسلوب خاص ، ويطلق شِعراً ونثراً ما كمن فيهِ من كآبة وحنين إلى مثلٍ أعلى هو قدوته وقبلته . حتى إذا ما أودع الكتاب ما يسميه آداباً وفلسفة وعلماً ، وبعث بتلك الكتب إلى البلاد القصية ، فأنما هو ينفّذ رسالة حُبٍّ وتنبيه وتفاهم إلى إخوته وأخواته بالحياة والإنسانية والقدَر ؛ بل كأنما هو يريهم من نفوسهم وجهاً جديداً وشكلاً طريفاً . ليست الكتب لمؤلفيها ، ولا الآداب لموجديها بل هي إرث من يطلبها وملك من انتفع بها . وليس الفرد في ذاته أهلاً للإعجاب ، إنما هي الإنسانية عجيبة بما تَلازب فيها من مدهش القوى والممكنات ؛ الإنسانية وحدها عظيمةٌ بما تأتيه من الأعمال الباهرات .

أما النوابغ فأفراد اختارتهم الحياة لإدراك وسط يعيشون فيه والوصول إلى أقصى رغائبه وألبس نزعاته ، فهم بذلك أقرب من سواهم إلى أغوار الروح الإنسانية ، وأسرع فهماً لحركاتها وخصائصها ، وأبرع حذقاً في التعبير عنها . وتقوم كل أهميتهم باتصالهم المتين بالفكر الشامل الدائم الإبداع ، وكأن قلب الإنسانية العظيم ينبض الوقت بعد الوقت في قلوبهم الصغيرة ، فيظلُّ صدى نبضاته متردداً في صرير أقلامهم . لذلك كانوا

مازجين دماءهم بدماء الأنام ، خالطين أنفاسهم بأنفاس بني الإنسان أجمعين، شاعرين مع مراتب الخليقة بأسرها بالحاجة والتعاون ، والتوحد والتغاير ، والحزن ، والبكاء ، والسمو والحقارة ، بل شاعرين باقتدار الكون وعجزه المتتابع في كيانهم . ولذلك كانوا أنفع من الجنود وأحسن عائدة .

السيف قاهر معاقب ، أما الفكر فمثقف ملطف . السيف يغزو الممالك داحراً كتائب وجحافل ، ويشهر الحروب واضعاً بين الإنسان والإنسان جدران حقدٍ كثيفة ؛ أما الفكر فلسيفهِ خفة الهواء ، ولطف النسيم ، وهول الصواعق . وبذلك السيف الذي يدعى القلم يُشهر الفكر حربه المجيدة حرب الفرد على الجمهور ، حرب الروح على المادة ، حرب الحكمة على الزهو ، حرب الحصافة على الغرور ، حرب العدل على الطغيان ، حرب الكرامة على التطفل ، حرب الحقّ والواجب على التهجم والخمول ، بل حرب العمل والصلاح السائرة بالإنسان نحو صروح الارتقاء والضياء .

بالقلم الذي هو أداة البيان ، وبالقلم وحده ، يبرز كل شعب آدابه أي عصير روحه ، وهو عصير جزء من روح الإنسانية . ينتبه لنفسه باتصاله بقلب الإنسانية وفكرها ، فيلفتنا إلى أنفسنا وما كمن فيها من قوة إذ يصلنا بفكر الإنسانية وقلبها . لأن كلّ نفس فردية قيثارةٌ ذات أوتار تجاوب كلّ قرار ، وتهتز لتعزف متعاونة مع جوق النفوس المهيب . فان كان ثمة مشاهد بهاءٍ خفيت علينا ، أو أناشيد طرب لم تطرق سمعنا ، أو لجج إحساس لم نذهب في غورها ، ما فتحنا إدراكنا للتأثيرات الآتية من الغرباء ، أفراداً كانوا أم جماعات ، إلاّ اتسع الأُفق أمامنا ، فأقبلنا على اكتناه معاني الحياة ، ودنونا من خفايا السناء ومكنونات القوى . وليس أقدر في التقريب بين الشعوب من الإلمام بألسنتها ، فنصير كأننا هي أيضاً بعد أنْ كنا نحن فحسبُ . وبهذا الازدواج أو التضاعف تزدوج أو تتضاعف منا الخبرة والفطانة والإدراك ؛ وإلا فقل إننا نتسع فهماً ، ونكبر روحاً ، ونسمو

مطالب ، لأننا أصبحنا جماعة في واحد . ألم يقل الشاعر العربي : إن كل لسان بالحقيقة إنسان ؟

نعم ، إذا عرف امرؤٌ لغة شعب تلاشى في نظره ما يحيط بذلك الشعب من غرابة وإبهام ، وكلما تقدم في تفهم الآخرين إنجلى له تشابه النفوس للنفوس ، وعثر على ما بين الناس من نسب الحاجات والنزعات والآلام والمسرّات . إذْ ذاك يعلم أنّ الإنسانية واحدة في كل زمان ومكان . ورغم الفروق والحواجز والعادات والاصطلاحات ، ورغم اختلاف اللغة وتقاتل المطامع لا تلبث أنْ تظهر له بالتدريج أخوّة الإنسان للإنسان .

●

لئن كان لكل لغة آداب ، فميزة اللغة الإنجليزية أنّ لها آداباً أربعا : الإنجليزية والإسكتلندية والإيرلندية والأمريكية . ولئن كتبت جميعاً بالإنجليزية فإن لكلٍّ روحها الخاص ومزاياها الخاصة .

وعندما نحن ، أبناء الشرق ، نستعمل هذه اللغة ذات الفواصل الوعرة ، والمواقف الحادة ، فكأننا نتبيَّن في لمحة جهود الإرادة القومية التي حلّت مع الزمن في مقاطعها ورناتها . ما أتمّ تلك الألفاظ قوة وأنفذها عزماً ! إن كل ما فيها من صوت ونبرة وتركيب وعرقلة وقدرة مكتسبة من استعمالها المتواصل ، يسطو علينا فيجعلنا إلى حين مماثلين لجامعي شتاتها ، ويتناول روحنا الشرقية فيوحّدها وقتاً مع الروح الغريبة المضمرة فيه .

لقد كان يسرّنا ويفيدنا جميعاً أنْ نستمع لدروس الآداب الإنجليزية في هدوء قاعة الدرس بالجامعة المصرية بعيداً عن دويّ المدافع وجلبة أخبار الحرب ، بعيداً عن حركات الاجتماع وضوضاء العالم ، بينا تقبل ليالي الشتاء باسطة علينا رواق شفقها المثقل بالأحلام والتأملات .

لذلك لا يمنعنا الآن تمتعنا بجمال الربيع من انتظار الخريف القادم حيث تعود ، يا سيدي ، إلى إلقاء محاضراتك القيّمة . سوف تكثر الحركة

في الشارع كالمعتاد ، فيواصل المنجد جارنا العزيز دقّ المسامير العديدة في المقاعد الخشبية ، وتُتابع السيارات والمركبات مرورها بلا انقطاع ، وتظل أصوات المدينة على ما هي هامسة متعالية هاتفة . ولكن سوف لا نعير ذلك التفاتاً ولا نهبه اهتماماً . بل نتفرَّغ لسبر غور الروح الإنجليزي الجامع بين الاشكال والوضوح ، والامتياز والبساطة ، والحرية والخضوع ، والأنفة واللين ـ ذلك الروح الجذَّاب بماديته وروحانيته وقربه ومناعته ـ سوف ننسى العالم الخارجيّ سعداء بأنْ نعيش ساعة في عالم المعنى العالي ، مستنشقين نسيماً عذباً تثيره ذكرى نوابغ الماضي ، غائصين فكراً وروحاً وانتباهاً في أوقيانوس وحيٍ وجمالٍ ورفعة تتكوَّنُ أمواجه الفخمة مما تعرضه لدينا من أسماء أولئك الأماجدَ ، وأفكارهم العظيمة ، ومصنفاتهم الخالدة .

الدمـــوع

مصر العزيزة التي سبقت الأقطار العربية نحو قمة الارتقاء ، مصركم أيها المصريون ، ومصرنا نحن السوريين ، قد بلغت في ارتقائها مرتبة رفيعة . وعلى ذلك شاهدان : الشاهد الأول هو أنه في وسط هتاف الوطنية الشامل ارتفع هتاف الإنسانية السامي . ارتفع صوت لا ليتكلم عن ماضي الأمة ومستقبلها ، ولا ليعظّم نوابغها وأبطالها ، بل ليذكّرها بأحقر أبنائها العراة الجائعين . صوت الرحمة والإشفاق انضم إلى صوت الحماسة والفخر ، فرجّعت صداه جميع القلوب ، وكان الشاهد الأول على وقوف مصر في مرتبة رفيعة . والشاهد الثاني : انا الشاهد الثاني ، ليس أنا بصفتي الشخصية ، ولا أنا وفاء سوريا المصرية فحسبُ ، بلْ أنا الفتاة الشرقية يشركهـا الرجـل في جليل أعمالـه ويفسح لها مجال القـول والعمل في الاصلاحات القومية . أنا تلك التي خفَت صوتُها دهوراً لأنَّ الرجل كان كما كان . أما اليوم وقد كبر الرجل وتعالى ، فقد أوقفني في مكاني جاعلاً صوتي يتصاعد حرّاً ويسطو قاهراً فعَّالاً ، لا لأنهُ صوت فتاة بل لأنه صوت الفرد الإنساني المكمّل ، وصوت عضو في المجتمع المصري الراقي .

ألقيت في الاجتماع الذي عقد في الأوبرا مساء ١٦ أيار (مايو) سنة ١٩١٩ ، لإنشاء « ملجأ الحرية » ، إجابة لطلب الدكتور عبد العزيز نظمي الذي دعا إلى إنشاء ذلك الملجأ إبان الحركة الوطنية .

كنت لابسةً أثواب الحداد فاستبدلتُها لأقف أمامكم . إنما يُلبس السواد حزناً على الموتى . ولكن الأمة التي تنبض فيها حياة جديدة تدفعها إلى تقدير كرامة المرأة ، الأمَّة التي ضمَّت إليها جميع عناصر النزلاء حتى جعلتهم شاعرين بأنهم أجزاء حية منها ، الأمة التي تذكر البؤساء في غليان حماستها الوطنية ، وتنحني على التعساء في أحرج مواقفها التاريخية ، تلك الأمة لا يجوز لفتياتها لبس السواد ، بل خليق بهنَّ أنْ يتشحن بالبياض النقي ، لون الصفاء والسعادة والهناء .

في هذا الاجتماع الفخم ، تسمعون من شعرائنا السحر الحلال ، ومن خطبائنا بليغ الأقوال ، أما أنا فاسمحوا أنْ أحدثكم في موضوع هو كل ضعف المرأة وكل قوَّتها معاً ، ألا وهو الدموع !..

أيها السادة والسيدات ،

إن للشعراء الذين في كل واد يهيمون لمحات وحيٍ فيها يصدقون . هم الذين شبهوا الدموع باللآلىء فما أتمَّ هذا التشبيه مجازاً وحقيقةً ! كيف تتكون اللؤلؤة ؟ هناك في البحار الحارة يعيش حيوان الصدف اللؤلؤي ، حتى اذا اصطدم بصخر أو بمادة أخرى صلبة تشقق منهُ الجسم ، واستقرَّت في تلك الجراح ذريرات الرمل ، فتكوَّنت عليها أثمن درر العالم . فما اللؤلؤة إذاً إلاّ ابنة الألم الطويل ، وثمرة لوعة مستعصية ، وداء دفين . وكيف تتكون الدمعة ؟ ما أشبه حكايتها بحكاية اللؤلؤة ! إنه لا بد لكل أحد من الحصول على مجموع معلومات يتكفل بايصالها إليه اثنان : الأحوال ، والبشر . وأهم تلك المعلومات وأبقاها في النفس لا يأتي إلاّ عن طريق العذاب والألم ، كما أنَّ أعمق الكلوم قد تأتينا من أحب الأيدي إلينا . وحينما ينجرح القلب تحت ضغط التأثير الشديد إذْ ذاك تتكون لآلىء الدموع في جراحه ، إذْ ذاك تنهمر العبرات واحدة بعد أخرى ، كأنما هي دقات ناقوس صامت حركتهُ يد الحزن ، فسالت دقَّاتهُ درراً ذائبات .

إن للدموع أثراً ليس يمحى . قد ينسى المرء ساعات الأنس ، ولكنه لا ينسى ساعات البكاء لأنها تلقّنه أعظم دروس الحياة وهي أهم مراحل ارتقائه . وقد يكون جاهلاً كل لغة وكل معنى ، غير أنه يفهم لغة البكاء ومعناها لأن جمرة الحسرة واحدة في جميع الصدور ، وما كان البكاء إلاّ إرثاً مشتركاً بين بني الإنسان . على أنّ ما نسميه دموعاً ليس إلا جزءاً من السائل الدمعي العظيم الأهمية لحفظ الصحة . إنّ هذا السائل خفيٌّ تنشره حركة الأجفان على مرآة العين ، فيصقل منها الأعصاب ويحفظ المآقي من النشف والجفاف ، فإذا هطلت منه كمية كبيرة ، مرضت العين ، وضعف البصر وصار معرضاً للذبول والانطفاء . ومن جهة أخرى إذا انقطع السائل الدمعي حيناً أو أفرز كمية قليلة ، فقدت العين تألقها البهي ولحقها التهاب وتقرُّح . كذلك تهبط كمية دمعية معينة إلى مركز حاسة الشم حيث تمتزج بالهواء الداخل إلى الرئتين فتنيله من الرطوبة المقدار اللازم .

إني أستميح عفو السادة الأطباء لتهجمي على موضوع ليس لي . ولكني أرى أنّ الدموع الكثيرة في عيون البؤساء عنوان الفناء . أما الدموع القليلة في عيون السعداء فضرورية لجسم الاجتماع ضرورتها لجسم الإنسان . أهل الفاقة من الأمة عينها الرمداء ، وأهل اليسر عينها النجلاء . فإن لم يبكِ السعداء يوماً أظلمت منهم البصيرة ، وتحجَّر الفؤاد ، وجهلوا معاني الكآبة وحقيقة الإخاء . وإنْ لم ترطِّب دموع العطف هواءً يستنشقه المجتمع فسد الهواء وامتلأ بفحيح الأفاعي وبذور الشقاء . وإن لم تداوِ الأمة منها العين الرمداء انحل التضامن واختل التوازن وامتدت القروح قليلاً قليلاً إلى العين النجلاء .

قال الدكتور ويلسن في خطبة ألقاها في إيطاليا : « إنّ قلب العالم يخفق اليوم ليس في الخنادق وميادين القتال فحسبُ ، بل هو خافق في معمل العامل ، وكوخ الفلاح ، وحقل الزارع » .

صدق الرئيس المحترم ، ولكنه تكلم كفيلسوف فقط . إنّ قلب

العالم خافق ، أوجع خفقاته في صدر العامل الذي لا عمل له ، والزارع الذي لا حقل له ، وفي صدر اليتيم الذي له جسم يعذبهُ وليس له من يهتم به ويحنو عليه . إنّ قلب العالم خافق ، أوجع خفقاته وأشدها هولاً وخطراً في صدور غلمان الأزقة ، ونزلاء الأرصفة من شيوخ ونساء وفتيات وأطفال يتسولون ويتأوهون ، ونحن نعرض عنهم لأنهم ليس فيهم ما يتطلبه ذوقنا المتعجرف من أناقة وكياسة ! أنا ما رأيت عمارة تزخرفها يد الباني إلا خنقتني الغصات إشفاقاً على من لا مسكن لهم . ولا وقع نظري على الأثواب النفيسة والجواهر المتألقة إلا إلتاع قلبي على أيتامٍ ليس عندهم ما يلبسون . ولا دخلت مقاصف سهراتنا وأفراحنا ، أوْ شهدت أفواج الوافدين على (سولت ، وجروبي) ومجال الملاهي والسمر الكثيرة ، إلا ضاقت مني النفس كمداً على فتيات مصريات طالما رأيتهنّ باحثات بين ما تلقيه المنازل الكبرى عن فتيت يصلح للغذاء . عن فتيت يصلح للغذاء ؟ أيقال هذا في مصر ، ويجري مثل هذا في مصر أمّ الجود والخيرات ؟ أواه ! إنك لتهتزين الآن يا شهامة الرجال ! إنك لتحزنين أيتها الأريحية المصرية ، وتقومين محتجة على قولي . إنّ هذا القول الأليم أثبته حزينة أنا أيضاً ، وباسم السخاء المصري أحتج صارخة : إنّ هذه الفواجع لا تجوز ولا ينبغي أن تكون في مصر ! ـ حتى أنت يا عيون الظلام ، أيتها الكواكب المحدّثة بعظمة الوجود وخلود الضياء ، يا طالما رصدتك وقد خلتك في قلب الشقي حروفاً وفي عيني البائس دموعاً ! ـ

هاك الشوارع الوطنية والأحياء الأوروبية جبْها طولاً وعرضاً ، في كل مكان تلقَ الأعضاء المشوهة والعيون المظلمة وذل اليد المستعطية ، وفي كل مكان ترتفع العين المصرية دامعة ! سلوا الأطباء من ينشر جراثيم الأمراض ، وسلوا المصلحين من يقلق الأمن والنظام ، وسلوا المفكرين عن ذاك الشيء الذي يسمونهُ « سرطان الاجتماع » ، وسلوا رجال القضاء عن أكثرية المجرمين . بل سلوا تلك اليد المجهولة التي تنشر الراية السوداء

على السجون ، وسلوا الجلاد أيُّ الأعناق تمر بين يديه لتحضنها حبال المشانق... المشانق ! كلمة رهيبة ! ميتة ذليلة يشتريها الجاني بما هو جانٍ . يجرُّه القنوط والجهل والحاجة والعادة إلى ارتكاب الجريمة ، فيلقاه عدل المجتمع بالعقاب الشديد . ولكن هذا المجتمع الذي يقتل الجاني بأنانيته وإهماله قبل أنْ يقتله بعدله ، هذا المجتمع الذي يعدم نفس الجاني مرات كثيرات قبل أنْ يعدم جسده مرة واحدة ، ترى لماذا لا يسأله ولا يطالبه أحد ؟ ألأنه قوي قادر غني ؟ ألا لله در الشاعر القائل :

والعَدْلُ في الأَرْضِ يُبْكِي الجنَّ لو سَمِعُوا
به وَيَسْتَضْحِكُ الأمْواتَ لَوْ نَظَرُوا
فَالسِّجْنُ وَالْمَوْتُ لِلْجَانِينَ إنْ صَغرُوا
والْمَجْدُ والْفَخْرُ والإثْراءُ إنْ كَبُروا
فسَارِقُ الزَّهْرِ مَذْمُومٌ ومُحْتَقَرٌ
وَسارِقُ الْحَقْلِ لَهوَ البَاسِلُ الْخَطِرُ
وَقَاتِلُ الْجِسْمِ مَقْتُولٌ بِفِعْلَتِهِ
وَقَاتِلُ الرُّوحِ لا تَدْرِي بِهِ الْبَشَرُ(١)

ألا يا أيها المطربونا بنشيد الحرية العظيم ، هلاَّ ذكرتم أنَّ للحرية جناحين ؟ في قدم الأمة أغلال السقام وقيود الهوان فكيف بلا تكسير هذه الأثقال تطيرون ؟ ألا قفوا أمام المجرم خاشعين ! إنه كان في حاجة إلى العطف والمؤاساة ، لكنَّ المجتمع احتقرهُ ونبذهُ ، فاندفع يتدهور في هاوية الشرور . مَن منّا يدري كم ألهبت الحسرة فؤاده ، وكم أدمت العبرات مقلتيه ؟ ألا احنوا الجباه أمام قوى حصرت فيه ولم تهتم به يد الرعاية لتبرز إلى الوجود خيراً . احنوا الجباه أمام فتيات الشارع البائسات ! إن فيهنَّ شعوراً لطيفاً تنهشه كل لحظة أنياب الفاقة ، وفي عيونهنَّ أشعة الذكاء

(١) من كتاب « المواكب » لجبران خليل جبران .

والحنان يحجبها المسكنة وظلام الدموع ، وبين شفاههنَّ كلمات المحبة منسيات لأنهن لا يستعملن إلا كلمات الاسترحام والاستعطاء ؛ إنهن بحر البشرية العميق الوجيع ! احنوا الجباه لذكر من ندعوهم الرعاع والغوغاء ! إن عندهم قلوب رجال ونفوساً أبيّة لو كنتم لها مهذبين . إن اليد منهم لم تخلق للتدمير والنهب والبطالة ، وأنتم لمطالبون بجعلها يداً أمينة نشيطة عاملة لخير البلاد ، يداً تحمل بكفاءة وكرامة القلم العربي ، والسيف الشرقي ، والعَلم المصريّ المفدَّى ! (تصفيق حاد متتابع) .

إني أقبل هذا التصفيق الحماسي أيها السادة ، أقبله بفخر ، وأقدمه إلى الدكتور نظمي بك والقائمين بهذا المشروع الخطير . أقدمه إلى الأيدي الرحيمة التي ستنقلب تحت لمسها دموع التعساء بسمات ، وإلى المحسنين الذين ستقف عطاياهم في وجه الفاقة سداً منيعاً . لقد تصافحت مصر وسوريا قبل اليوم في مواقف أدبية كثيرة ، ولكنهما لم تقفا جنباً الى جنب في أشرف من هذا الموقف ، موقف الدعوة إلى البر والإخاء . وتصفيقكم هذا أثمن ما عندي في هذه الدقيقة فأقدّمه تذكار ولاء وإعجاب وإجلال من سوريا المصرية إلى مصر الكبيرة البذولة الأريحية !

أيها السادة والسيدات ،

إنما النيل مدين بفضله لسحر الدموع . ضاع الإله اوزيريس يوماً فالتاعت الإلهة إيزيس لفراقه ، وجلست على شفة النهر تبكيه . إذْ ذاك اضطربت أعماقك ، أيها النيل العظيم ، فاندفعت متدفقاً جاعلاً من ربوعك التربة تِبراً ، تاركاً سهولك التاريخية في ربيع دائم ! كل عام يهيجك ذكر دموع آلهة الأسرار والأشجان فينتظم منك الفيضان وفيّاً . وستظل على العهد أميناً ما بقي أبو الهول محدقاً في الفضاء ، وبقيت المجرة منبسطة في عقيق السماء !

من منا لم يبك ولو مرة كربَة الوادي ؟ أيٌّ بشر لم يضف إلى بحر

العبرات الإنسانية دمعة واحدة تعلّمه نبل الإحسان وعذوبة الإخاء؟ ألا إنّ كلّنا عليل سقيم ، وفي قلبه حروق الزفرات والأحزان . فانهضي الساعة يا ذكرى الدموع أمامنا جميعاً ! إنجلي يا دموع الأفراح ودموع الأتراح ، دموع العزّ ودموع الذلّ ، دموع الفراق ودموع التلاق ، دموع اليأس ودموع الرجاء ! أنتِ التي تثيرها فينا نوائب الأيام وإيلام الغرباء ، وأنت التي تضعها في عيوننا أسماء الأحباب . دموع الماضي الذي لا ينقضي ودموع الحاضر القوي بتأثيره . كـلّكِ ، كلك أيتها الدموع التي لا إسم لكِ في لغات البشر ، لأنك نثرات الأرواح الغاليات ، وأجزاء من العمر متطايرات ! إنجلي لتنبّهي كل ما جُمع في الروح المصري من مجد الفراعنة وعظمة الإسلام ، إنجلي أمامنا متوهجات لاذعات كالنار ، ليحوّلك الألم رأفة وكرماً ! إذْ ذاك تذكر اليد المصرية أن النيل قد طبع عليها رسم سخائه ، فتتناولك الهمم الشماء وتبلور كلا منك حجراً متيناً يقوم به « ملجأ الحرية » !

تأبين باحثة البادية

سيداتي ،

لما اجتمعتُ بباحثة البادية للمرة الأولى في ١٩١٤ ، بعد تصفح مجموعة « النسائيات » لم أستشعر بأنه قدر عليَّ أنْ أقف لتأبينها عمَّا قريب . يومذاك لم أشعر إلاَّ بجاذب تخطَّى بي من دور الإعجاب بقلمها إلى دور الميْل إلى شخصها ، لأنها كانت من الذين خصتهم الطبيعةُ بقوةٍ مغناطيسية تجذُبُ الغريب فيفطنُ لنفسهِ وقد وجد فيها مكاناً خالياً ينتظره منذ زمن طويل . وليس موجد تلك القوة ما يسميه البشر جمالاً وذكاءً أو لطفاً وظرفاً ، بل إن مستودعها جسمٌ أجوف قائمٌ في الجانب الأيسر من الصدر ؛ ذلك الجسم الذي ما ذكرهُ حتى أكثر الناس طيشاً وزهواً إلاَّ وطأطأ الرأس كمن ينتبهُ لمعنىً عميقٍ من أقدس معاني الحياة .

إنَّ عصرنا عصر الاختراع والآلات . فبالآلات هبط الإنسانُ إلى أعماق الماء ، وجعل لهُ أجنحةً تسابقُ طير السماء ؛ وبها استعبد عناصر الأرضِ ، وكشف أسرار الكهرباء . من البواخر العظيمة التي تحذفُ الأبعاد وتلاشي البحار إلى الساعةِ الذهبية الصغيرة التي تقيسُ بها الزمان ، في كلٍّ من أحوالنا نرى الآلات ممثلةً دوراً مهمّاً . لكنَّ هذا الجسم الأجوف القائم في صدر الإنسان ، هذا القلب البشريّ العجيب ، ما زال أتمَّ

أُلقيت في الحفلة التي أقامتها السيدات المصريات برئاسة حرم شعراوي باشا في فناء سراي الجامعة المصرية لمناسبة مرور عام على وفاة الفقيدة يوم ٣١ تشرين الأول (اكتوبر) سنة١٩١٩.

الآلاتِ وأقواها ؛ بل هو أقدر من أعظم القواطر الحديدية على الإطلاق ، اذا جعلنا المقابلة على نسبةِ الحجم الصحيحة . آلاتُ الفولاذ والحديد ، تلك الصناديد المعدنية التي تُزحزح الجبال ، وتُدمّر المدائن والحصون ، تملُّ العمل وتطلب الراحة ، وهذا الجبّار الصغير المخلوق من دم ولحم لا يعتريه إعياءٌ ولا سكون لأنَّ في وقوف حركتهِ انتهاءَ الحياة الجسمية ، وفي سكونهِ وراحتهِ شفاء العواطف البشرية .

وما كانت قوتهُ الوحيدة في تأدية وظيفته واستطراد النبض ليل نهار على حساب ٧٢ مرة في الدقيقة ، ومئة ألف مرة في اليوم ، وأربعين مليون مرة في السنة ، بل كانت قوتهُ الكبرى في ذلك المعنى الملتبس الشامل الذي أطلقهُ عليه الثيوصوفيون والشعراء إذْ جعلوهُ هيكل العواطِف والرغبات ومنهلَ الحبِّ والإشفاق والمكارم . ليقُلْ العلماءُ ما شاءُوا من أنّ العواطف تتولد في الدماغ . أما نحنُ صغار الخلائق ، فحسبنا شعوراً بأن في رياض القلب تُغرّدُ أصواتُ الطرب ، وترفرفُ أجنحةُ الهناء ، ساعة نكون من السعداء . وإنّ القلب منا يمسي صحراء محرقة ، تجولُ فيها لواعج الأحزان ، ويتعالى في تيهها نحيبُ الوداع والحسرات ، عندما نكون من التعساء . حسبنا علماً أنّ هذا القلب يُسير العالم وإنّ من كان كبير القلب فهو في الحقيقة قائد العالم .

لقد تصلّب قلبُ الرجل قليلاً ـ أو كثيراً ـ في حرب الاقتصاد التي ما فتىء يشهرها في ميادين الحياة ، فلحق ببعض عواطفه جفافٌ وتوتُّر هما من مقتضيات المنافسة والجهاد . على أنّ القلب ما زال مملكة المرأة ، وفي هذه المملكة الضيقة الرحبة تجتمعُ القوة والدّقة والكآبة والصفاء ، ويختلط التأمّـلُ بالأحلام والقنوط بالرجاء . عندما لا يتكلمُ من الرجل غير صوت الطمع والتهديد والمفاخرة تسمعنَ في صوت المرأة أنيناً كأنما هو بقية زفرة أو تتمة بكاء . وحينما يعتزّ الرجل بإدراك ذروة السؤدد ،

ونيل بعيد الغايات ، ترينَ المرأة منحنيةً على نفسها كمن ينحني على جرح بليغ ، ترينها منحنية على قلبها لأنَّ شيئاً يظلُّ نائحاً فيهِ . وسواء في ذلك تلك العائشة في وسط الأُبَّهة والتبجيل والإعظام ، وتلك الحقيرة التي تتقاذفها عواصف الحاجة واليأس والهوان .

كان هذا القلب القدير يتلظّى مضطرماً في صدر باحثة البادية ، على مقربةٍ من ذكائها الفطري ، ولم تكن ألفاظها إلاّ شرار وميضهِ . به اختبرت البيئة المصرية في كثير من مظاهرها ودرست المرأة المصرية في جميع أطوارها . ولما أنْ هالها ما شهدت من ذلٍّ وتعاسةٍ ، غمست قلمها في مدادٍ هو سيَّال قلبها الناري ، وكتبت فصولاً خالدات . إنَّ محاسن التنميق والإنشاء تُعجبُ وترضي إلى حين ، لكن بالسرعان ما تُدرَج تلك المحاسن في أكفان النسيان ، لأنَّ الطبيعة البشرية لا تحتمل الإعجاب المتواصل . أما الكلام المنطلق من القلب كقطع متَّقدةٍ ، فيدخل القلوب مباشرة بلا وسيط ويمتزج بها لأنه يعبّر عنها ، يمتزج بها حتى يصير جزءاً منها يأبى التفرق والانفصال.

وكما أصابت في لمس مواضع النقص وتشخيص العلل القومية ، كذلك رأت ببصيرتها النقية ، أصوب طرق الإصلاح اعتدالاً ، وأقربها اتفاقاً مع سير الارتقاء الطبيعي ، وقارئ « النسائيات » يقف على خطتها الإصلاحية الرشيدة حيث لا يكون الرجل جائراً مستبدّاً ، ولا المرأة ساخطةً متمردة ، بل يتصافى الإثنان فتصير هي له أخلص الأصدقاء وأوفى المساعدين ، ويصبحُ هو لها أخلص الأصدقاء وألين المرشدين . فيسيرانِ في سبل الحياة ، وقد جعلهما التفاهم متغلبين على المصاعب ، متعاونين على تبادل المنفعة والسعادة .

وذلك أقصى ما ترمي إليه العائلة الاجتماعية في كلّ زمان ومكان .

كانت الباحثة زوجاً لعبد الستار الباسل واستميحكن بالوقوف قليلاً عند هذا الإسم . أذكرن أنها كانت تكتب في سنة ١٩٠٧ و١٩٠٨ و١٩٠٩ ،

وتصوّرن حال ذلك الوسط منذ اثنتي عشرة سنة ، يوم كان القوم يرمون قاسم أمين بالكفر والإلحاد لأنه جنى هذا الاسم الفظيع الذي يدّعي المناداة بإصلاح المرأة !

إن إعجاب الناس بامرىء لا يسلمُ من لازم متعدٍّ هو انتقادهم له . فإذا كان الجمهور شديداً على الرجل يحسب نقضه بعض بالي العادات عدواناً لبني الإنسان ، فما قولكنَّ في ظهور امرأةٍ ذات رأي شخصيٍّ وذاتيةٍ حرةٍ في ذلك الوسط الرجعي ؟

يجب أنْ يكون الوسط راقياً جدّاً ليقدِّر الفرد الراقي وإلاّ أهمله ، وعُـدَّ نبوغه جنوناً ، ورأى في توجعه من التقهقر والانحطاط وقاحة وشروداً .

غير أنَّ الباحثة كانت على حكمة مكنتها من استخراج الخير من الشر . فبدلاً من أنْ يغضبها تعنُّت الناقدين ، تجلت لها الحقيقة كما تتجلى أحياناً في لحظات الألم ، ففهمت أنَّ الطريقة المثلى لتهذيب الرجل وإعلاء مداركه ، هي تهذيب المرأة وإعلاء مداركها ، وأنَّ الواسطة الفريدة لجعل الشعب المصري حرّاً نبيلاً عظيماً ، هي تحرير الأم من قيود الغباوة والخمول ، وإفهامها جلال النبل القومي والعظمة الوطنية .

ولقد وجدت في قرينها منشطاً كبيراً .

إنهُ كان في وسعه أنْ يحطم قلمها بإشارة صغيرة ، وبكلمة واحدة كان يستطيع إسكات ذلك الصوت الفعَّال . بيد أنَّ عبد الستار الباسل عربيٌّ صميم ، ولهُ من وراثته الكريمة ما يذكّرهُ بما كانت عليه نوابغ النساء العربيات من حرية وأنفة ، ففاخر بأنْ تعيش في ظلّهِ من تماثلهن عزّة وبياناً .

فليسرْ إليه الآن شكر المرأة المصرية مقروناً بآي الثناء !

أمّا أنتِ ، يا أمّ الباحثة ، فلكِ أنقى ما في القلوب من احترام وإجلال ! وساعة تذهبين لزيارة حفني ناصف الراقد هناك في مدينة الذين رحلوا ، قولي لهُ : إنّ اسمه مجيد مرتين : مجيد بعلمه وفضله ، ومجيدٌ لأنه والد امرأة مجيدة .

هذا كلُّ ما أردتُ أنْ أقول ، يا سيدتي .

وحول القلب الفتيّ الذي كان يذوبُ إشفاقاً على المرأة الضعيفة المعذَّبة ، ويلتهب غِيرة على مصر والمصريين ، حول الصوت الصامت الذي طالما ارتفع خطيباً ، والقلم الجامد الذي طالما تحرك كاتباً ، اجتمعنا اليوم ، المسلمة منا والقبطية والسورية ، لنحيّي أختنا الخالدة ولنمزج ذكرها بذكر الأيام المملوءة حماسة وأحزاناً .

نعم ، المرأة المصرية التي أنبرت بالأمس تهتف في الجماهير هتاف الوطنية والفخار ، قد عقدت اليوم في هذه الجامعة الأهلية المباركة ، اجتماعاً معزّياً في كآبته ، سامياً في معناهُ ، وحيداً من نوعه في تاريخ النهضة الحديثة لبنات هذا الوادي العظيم !

فليحمل الهواءُ حديث اجتماعنا إلى مَن لم تحضرهُ من أخواتنا في القاهرة ، وفي الأرياف ، وفي الثغور ؛ ولينقله إلى نساء سوريا والعراق ، وسائر الأقطار العربية ، والأقطار الغربية ، التي ينشدُ نفرٌ من نزلائها أبياتاً نظمت بلغة القرآن ! ولتردد النساءُ اسم المرأة المصرية الكبيرة « باحثة البادية » فيكون هذا الإسم عنوان نهضتنا النسائية الجديدة وعربون تضامن الشرقيات على رغم تباعد الديار واتساع البحار !

الشجرة

هناك في قلب الصحراء يستظلُّ أهل البادية بالشجرة اليتيمة . فيتذوقون بعد القحط والضنى خضرة الخمائل ، وهناء المروج . ثم يودعونها وقد أوجد الشكر عبادتها في قلوبهم ، فيعلقون على أغصانها ما في العنق من قلادة ، وما في المعصم من سوارٍ .

●

بعد أنْ لبث الفكر العربيُّ حارس جنات العلم والأدب قروناً طوالاً ، عاد فتجدَّب مخصابُ الأرضين نحو ثلاثة قرون . إذْ ذاك جئت ، يا صاحب اليوبيل ، فكتب في الصحراء اليد الغارسة والشجرة المغروسة جميعاً . فنم اليوم ، أيها البستاني الكبير ، وراء طيات وشاح الخلود ، بينا يتبارى أبناء سوريا حول ذكرك منشدِين ، كما يجثو أبناء البادية أمام الشجرة الظليلة شاكرين . نم اليوم عظيماً جليلاً ، يا بستاني حبَّات الفضل والعرفان ، بينا هم يعلّقون على فروع مجدك الباذخ قلائد الثناء وعقود الشكران !

أُرسلت هذه الكلمة إلى لجنة الاحتفال باليوبيل المئوي لبطرس البستاني ، وكانت اللجنة المذكورة قد وزعت أوراق الدعوة على كتاب العالم العربي ليشتركوا عن بعدٍ بذلك الاحتفال الذي أقيم في الجامعة الأمريكية ببيروت في آخر شهر كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩١٩ .

ظِلّ الإله الثاني

أيها السادة والسيدات ،

ليست هذه زيارتي الأولى لمدينتكم العامرة ، لأني تشرّفت وجئتها قبل الحرب بشهر لمثل هذا الاجتماع . وإنْ لم يكن اليوم بينكم من يذكر الفتاة التي كانت يومذاك طفلة في عالم الفكر ، فانها هي ما زالت تذكر بارتياح ما لاقته من أنس البشاشة ، وحسن الضيافة . وبعد أعوام ذاق فيها البشر ما ذاقوا من طعوم الأوجاع ، أراني سعيدة بالعودة ، وأشكر لرئيس هذه الجمعية الهمّام ، وحضرات أعضائها الأفاضل ، دعوتهم ، وأتوسع في الشكر قليلاً لأصل إلى الاستاذ سركيس الذي انضم إليهم في هذه الدعوة التي مكنتني من المجيء لأجدد تذكاراتي عندكم وأحيّيكم مرة أخرى .

على أنّ في تحيّتي الواحدة عناصر شتى : فيها السرور بمرأى الرجل والمرأة متسابقين في إتيان المعروف . وفيها الثناء على نخوة القائمين بأمر هذه الجمعية أمحسنين كانوا أم عاملين . وفيها الاغتباط بمشهد المصري والسوري متقاربين متآخيين في هذا النادي . ولكن فيها خصوصاً عنصراً فتياً يتسرب بارزاً في نبرات الخطيب وسطور الكاتب : هذا العنصر هو عنصر الأمل ، عنصر الحياة ، المتولد من اليقظة المصرية الحديثة .

ألقيت في حفلة جمعية الاتحاد والإحسان السورية ـ للرجال والسيدات ـ بمدينة طنطا في ٢٩ شباط (فبراير) سنة ١٩٢٠ .

خطوات واسعات خطّت مصر في هذا العالم ، لا سيما في شأن المرأة . خطوات ترقبها بشغف وفخرٍ نفوسنا المرتوية من مياه النيل المقدس ، المستنشقة هواءً ما فتئت تبعث به آلهة الأهرام إلى أحفادها مصريّي القرن العشرين . وبهذا الأمل الذي يرى غد مصر عظيماً خالداً كأمسها ـ بهذا الأمل السعيد ـ أرفع صوتي هاتفة : لتحيَ مصر الحديثة !

أيها السادة والسيدات ،

على مقربة من الحياة السياسية والاجتماعية حياة أهمّ لأنهما بها يتكيفان، وهي الصفحة التي تنتقش عليها جميع أعمال العمران . إلاّ أنها تتناول الناس فرداً فرداً دون أنْ تشمل الأقوام دفعة واحدة ، وبلحظة واحدة ، كما تفعل الحماسة الوطنية والحميات القومية .

تلك هي الحياة الاقتصادية ، وقوامها المال الذي يجعل الحقائق الخيالية حقائق محسوسة ، ويملأ البسيطة ببهجة المدنية ومنافعها ، وقد دعاه السيد المسيح الإله الثاني . وكما أن لله عز وعلا ضدّاً نسميه روح الظلام ، أو الشيطان ، كذلك للإله الأرضي ، الإله الثاني ، ظل يتهادى بين القصور والأكواخ على السواء ، ويهدد جميع الناس وهم أبداً منه هاربون ، ذاك هو شبح الحاجة ، شبح الفاقة .

إنه لشبح هائل نرى خيال قبضته السوداء في صفحات التاريخ وإليه ترجع أسباب الاضطرابات ، والقلاقل ، وكل ثورة شبّت في بلد فتركت صروحه أنقاضاً . وليست الفواجع العامة الكبرى بأشد هولاً من الفواجع الفردية الصغرى . فقد عذّب هذا الشبح أكثر أرباب الفكر والعلم والفنون، وطالما أدمى أجنحة النبوغ بمخالبه ، وأوثقها بكتائفه ، وجعل صاحبها يعيش ضيق اليد ، مضعضع الشأن ، ويقضي جوعاً وغمّاً . وإنْ لم يهبط الفقر بالجميع إلى هذه الدركة المدلهمة ، فإن الخوف منه يظل مستبدّاً بالناس استبداداً ، ويحتل حياتهم احتلالاً لا جلاء له يرجى . فذلك الوجه العابس

هو وجه من يحاول التوفيق بين دخله وبين مقامه الاجتماعي ، أو راحة من يحب ؛ وتلك الجبهة المنحنية المقطبة ، هي جبهة الشاب الذي يكدُّ منذ أعوام ليخطو إلى الأمام ، ولكن المال حاجته ، ليرسم على باب الدهر إشارة الظفر ؛ وتلك العيون التي تطوف فيها خيالات القلق والهواجس ، إنما هي عيون من عرف عز ثروته الفكرية والشعورية من جهة ، وعوزه الذليل إلى الدرهم من جهة أخرى ؛ وكم من عمل ممقوت وأمر مستهجن ، بل كم من مكر وخيانة ودهاء ، قد يأتيها المرء مرغماً وما كان الداعي إليها غير الحاجة أو تلافي الوقوع بين مخالب الفاقة .

فإذا كانت هذه حال المتوسط والغني أحياناً ، فماذا نقول في أولئك الذين لا يطالبون إلاّ بنصيبهم مما تنبتهُ الأرض من غذاء ، وتدرّه من شراب ؟ ماذا نقول في أولئك الذين أثقلتهم الحياة بحاجات الأحياء وبخلت عليهم بما يقوم بتلك الحاجات ويسد منها الفراغ ! ماذا نقول في عبيد الشقاء *الذين لا يعلمون لماذا* يحيون ولأيّ غاية يتألمون .

ما أطيب الألم ، أيها السادة والسيدات ، إذا كان ذا نتيجة مخصبة! ما أحبّ يد الشدّة ، سواء أكانت يد حال أو يد إنسان ، التي تلطمنا لترشدنا وترقينا ! إنما في الجهاد والألم قيمة الحياة ، والدموع الراسبة في أعماق القلب تذيب منّا الغرور والكبرياء وتأتينا بالخبرة العجيبة التي تدنينا من جوهر الأشياء ، وتخرج منا الحكماء والأنبياء . فللحياة فضل علينا في كل جهاد تحرجنا إليه ، وفي كل حرمان تشعرنا به ، ما دامت العقبات والصعاب واسطة لاتساع المدارك وإنماء الملكات . فما تجيء الكوارث وتروح إلاّ ونحن كذلك البحري الذي كافح الزوابع ، أو كذلك الجندي الذي خاض معامع المنايا ، فخرج منها قوياً ظافراً .

بيد أنّ إزاء الألم النافع والجهاد المثمر نوعاً آخر من الألم يقتل الذكاء ، ويقطع أوصال الأمل ، ويضع بين شفتي الحيّ طعم الأكفان والقبور .

ذاك هو الألم العقيم الذي لا نتيجة له كألم المعدمين العاجزين الذين لا يعولهم أحد ولا يحبهم في الدنيا مخلوق . حتى اذا تجمَّد ألمهم يأساً ، وتحجَّر حقداً ، والتهب كرهاً انفجر بين الأمم حمماً وبراكين تدعى الاشتراكية المتطرفة ، والبلشفية ، والفوضوية ، والعدمية . فيهبُّ دعاتها منادين بالإخاء وما كانوا متآخين بغير التمرد والجهل القتال ، والرغبة في سحق من هو فوقهم طمعاً في ماله وجاهه . فيقلبون الحكومات ، ويقلقلون الأمان ، ويلغون الأنظمة ، ويسلبون الممتلكات ، وينصفون طائفة ليظلموا طوائف . كل ذلك باسم المساواة .

وما هي النتيجة يا ترى ؟

يوم تندكُّ عروش الأفراد وتقوم على أنقاضها أبنية الأمم . يوم يتغلَّب العامل على صاحب رأس المال فيحرجه إلى ما يشاء وما فيه يرغب ، يوم تتمزَّق أنظمة الأمس لتسنَّ أنظمة الغد ، إذن هل تتحوَّلُ أنظمة الطبيعة ؟ كلا ! إثنان في الكون لا بدَّ منهما لحفظ موازنة الكون وإنْ تغيرت منهما الأسماء والأجناس : كبير وصغير ، تابع ومتبوع ، سائد ومسود ، ظالم ومظلوم ، مفترسٌ وفريسة . هذا هو نظام الطبيعة العنيد ! ومن بين هؤلاء المتمردين الثائرين ستتكوَّن نواة تسود شيئاً فشيئاً ، فيمتد تحتها الذل والتعاسة من جديد ، ويثور قومٌ آخرون ، وتعود الفاجعة التاريخية مرة أخرى ! يقولون إنَّ الطبيعة أمٌّ ، فيا لها من أم عتية ، تسعد ولداً لتشقي أولاداً ، جاعلةً حضنها الرحب ساحةً لأشد المعارك وأفظع الحروب !

لقد مرّت ملايين الأعوام ، وألوف الدهور ، والطبيعة صماء لا تلين لصراخ الضعفاء وزفير المتوجعين ، ونبضات قلبها الكبير لا تضرب إلاّ على وفق نبضات القلوب المنتصرة ، وكأن أصواتها الكثيرة تهتف للصاعد سلم الغلبة ، وتشجعهُ فيدوس على أعناق المندحرين متخذاً من جماجمهم مراقي يصل بها إلى القمة المنشودة . هذا هو ناموس تنازع البقاء الأصلح :

للقوي البقاء وللضعيف الفناء . ناموس جائرٌ إلاّ أنه قاهر وأحكامه ثابتة لا تتغير . ولكن ، ألا سُكبت عليك البركات يا قلوباً سمت بكرمها ، فأدركت أنّ فوق نظام الظلم نظام الرحمة ! وأسبغت عليك النعم ، يا أيدي الشفقة والإحسان ، لأنك تكوّنين الحلقة الإنسانية الذهبية المتعالية على جور الطبيعة طموحاً إلى عظمة الألوهية !

عرفتم ذلك ، أيها القائمون بأمر هذه الجمعية المباركة ، فقمتم تساعدون بقوة المال ، وتسعدون بعطف المحبة . إن لرجال طنطا إسماً عاطراً غير أننا نفاخر باهتمامهم بالخير ، وإغاثة الملهوف أكثر من مفاخرتنا بما لديهم من ذكاء ووجاهة . وأنتن ، يا سيداتي نساء طنطا ، مشهورات عندنا بالجمال . غير أنّ عذوبة الحنو في المرأة أجمل من جمال الوجه وأبقى . وقيامها بالواجب نحو الآخرين أشرف من المطالبة بحقوقها . وحقكنّ أنْ تفعلنَ الأمرين معاً . طالبْن بالمعقول من تلك الحقوق فلا يبخل عليكن بها ، لأن للرجل العريق في السيادة جميع صفات السيد من كرم شامل ، وعقل راجح ، وصدر رحب ، وعدل تام ؛ ونجاح متوقف على مهارة الطلب ، وعلى كيفية التصرف في الحرية المعطاة لها قليلاً قليلاً .

ولكن المطالبة بالحقوق ، وإنْ حلالاً ، فهي دون أعمال البِرّ قيمة ومقاماً . تلك أنانية وهذه غيرية . تلك أخذ وهذه عطاء . والمعطي فوق الآخذ دواماً . تلك خصام وكفاح وهذه أجلى وأجمل مظهر للمفاداة الأخوية . ولئن كان تنازع البقاء واسطة لارتقاء الحيوان . كما قال هكسلي ، فان المفاداة والتعاون أحد سبل الارتقاء للإنسان . هاكم النيل مادّاً يداً من أياديه البيضاء في مدينتكم ليروي الأراضي العطشى ، فبديهيّ أنْ تتمثلوا به باسطين يد الكرم الأخوي في مجاهل التعاسة . وفي وسط ما يملأ العالم اليوم من دماء ودمار وخوف وضغائن . في وسط الصراع القائم بين الشعوب والشعوب ، وبين الأمم والحكومات ، وبين الدرجات

الاجتماعية على اختلافها ، في وسط هذه الزلازل المتكاثرة مهددة صرح المدنية بالخراب . تظلُّ جمعيتكم هذه نوراً من الأنوار الطاهرة ، المتألقة في سماء الحب الإنساني ، مُنسية ما يحيط بها من ظلمات الفاقة والأحقاد والشقاء !

كلمات واشارات

٢

المقـــدّمة

عرف محبو الأدب مي زيادة منذ أن برزت في مصر كاتبة مقال ، وخطيبةً ، وباحثة ، وكاتبة سيرة ، في الثلث الأول من القرن العشرين ، وظلت مؤلفاتها المنشورة منهلاً ثرّاً للقراء والباحثين حتى يومنا هذا ، لما فيها من أفكار جديدة ، وبيان ناصع ، وأسلوب جزل ، وروح سامية . وأنه ليسعدني كثيراً أن أضيف إلى أعمالها المطبوعة كتاباً جديداً يضمّ مجموعة خطبها ومحاضراتها ومقالاتها التي نشرت في مختلف الصحف العربية والمجلات ما بين عام ١٩٢٢ وعام ١٩٤٠ . ويسعدني أكثر أن أنفذ بهذا العمل « وصية »[1] ميّ التي دونتها بخطها في خريف عام ١٩٣٥ وحالفني الحظ بالعثور عليها مع العديد من الوثائق ، فأجمع آثارها الأدبية المبعثرة وامنحها العنوان الذي رغبت هي باطلاقه عليها إذ جاء في وصيّتها ما يلي :

(... تابع إرادتي

أكتب اليوم الخميس ٣ اكتوبر فقد تفقدت أوراقي المطبوعة ووجدت الكثير منها قد سُرق ، وتُركت لي عدة صحائف كانت ملتصقة بأعداد الصحف الحاوية للخطب والمقالات ، ولا معنى لهذه الصحائف منفصلةً عن صحفها . وكنت قد راجعت هذه الصحف منذ شهور قلائل لأني كنت أُعدّ ما فيها لطبع الجزء الثاني من كتابي « كلمات وإشارات ») .

لقد عكفت منذ بضع سنوات على جمع الوثائق والمنشورات المتصلة بحياة هذه الأديبة الكبيرة ووجدت أن واجب الوفاء لها يدعوني إلى تنفيذ ارادتها ، كما أن واجبي حيال تأريخ الأدب العربي الحديث يفرض علي جمع هذه النصوص الأدبية وتحقيقها وتقديمها للقراء والباحثين . وسوف يلحظ القارئ لدى مطالعة الخطب

(١) سوف أنشر هذه الوصية بكاملها ، مع صورة عنها في الكتاب الذي أعدّه عن حياة مي وآثارها والذي سيصدر في نهاية هذا العام بإذن الله وبعنوان : « مي زيادة ومأساة النبوغ » .

والمقالات المدرجة في هذا الكتاب ، ابتداءاً بخطابيّ ميّ اللذين ألقتهما في دمشق ثم في بيروت عام ١٩٢٢ ابان حفلات التكريم التي أقامتها لها الأندية الأدبية والثقافية فيهما ، وانتهاءً بالمحاضرة التي ألقتها في بهو الجامعة الاميركية في القاهرة عام ١٩٣٩ ، وبمقالتها الرائعة « تحية الربيع » التي كتبتها من وحي أحداث الحرب العالمية الثانية في ربيع عام ١٩٤٠ ، أن أدب ميّ حافظ حتى نهاية حياتها على طابعه المميّز وإنه كان يسير في درب الصعود والشمول والإجادة .

ونحن اليوم عندما نقرأ لمي محاضرات هذا الكتاب الثلاث[1] : « دروس من الصحراء » و« رسالة الأديب إلى المجتمع العربي » و« حاجتنا إلى ثقافة اجتماعية » نشعر أننا نقرأ لكاتبة عظيمة ، ومفكرة رائدة تدعو إلى اليقظة وتخاطب الجماهير بأهم الموضوعات المتصلة بحياتها وطموحاتها حاضراً ومستقبلاً . وعندما نقرأ خطابها : « الحركتان الصالحتان » الذي ختمته قائلة : « أريد أن أحيا رغم الجراح والآلام لأكون في حياة وطني الناهض حياة » ، وخطابها الذي ألقته أمام لجنةالاحتفال بعيد المقتطف الخمسيني في القاهرة عام ١٩٢٥ ، وخطبها الثلاث : « كيف أريد الرجل أن يكون » و« الغرائز السيكولوجية الثلاث » و« الانسان كائن روحيّ » تمتلىء اعجاباً بنبوغ ميّ ، وثقافتها المتينة ، وتقديسها لرسالة المرأة والرجل في الأسرة والمجتمع والعالم . وعندما نطالع مقالاتها الوجدانية التي كتبتها بشغاف قلبها الكبير وسويدائه ، واستلهمتها من حبها الكبير لجبران خليل جبران واختارت لها العناوين التالية : « نشيد إلى ينابيع روما » و« أتعرف الشوق والحنين » و« هوذا الربيع » نجد أنفسنا أمام لوحات شعرية يهتز لها القلب ، وتسمو بها الروح ! وعندما نمعن النظر فيما كتبته في رثاء أعلام عصرها كالدكتور يعقوب صروف ، والزعيم سعد زغلول ، والكاتب والصحفي الكبير داود بركات فإننا ننتشي بنفحات أدبية وقومية دبّجتها يراعة كاتبة موهوبة ، وأملتها مشاعر انسانة نبيلة .

ويتضمن هذا الكتاب إحدى قصائد مي الفرنسية مترجمة إلى العربية « نشيد إلى الشرق بقلم الاستاذ « جورج نيقولاوس » ، ومقالات لميّ عالجت فيها موضوعات مختلفة مثل : « نداء إلى جبل الدروز » ، و« الجزء الأول من المقتطف بعد صروف »

---

(١) أشارت المصادر التي راجعتها والرسائل المخطوطة التي في حوزتي إلى أن مي ألقت محاضرة أخرى في الجامعة الاميركية بالقاهرة في ١٥ كانون الأول عام ١٩٣٥ بعنوان «عش في خطر » غير أنني لم أوفق بالعثور على نصّها .

و« حياتنا الجديدة » و« كلمات في الصداقة » تجلو لنا شخصية ميّ الأدبية الرائدة ، ومثاليتها إلى جانب إدراكها العميق للنفس الانسانية . وأما دراستاها « الفن والأدب في حضارة مصر اليوم » و« امبر جالوا ، من آثار هوجو » فإنهما تدلان على مقدرتها في البحث والتحليل والعرض والنقد ، كما أن مقالتها «مساجلة الرمال » التي نشرتها في مجلة الرسالة يوم عيد رأس السنة الهجرية لعام ١٣٥٤ دليل آخر على شمول ثقافتها وعمق مداركها إذ أرسلت فيه تحية صادقة لفتى الصحراء ، النبي العربي صاحب الرسالة الاسلامية ، وأعربت عن إعجابها الكبير به .

وأخيراً نجد لمي قصتين « الشمعة تحترق » و« السر الموزّع » وهما محاولتان في كتابة القصة القصيرة التي لم تكن يومئذٍ مطروقة في الأدب العربي بما يتلاءم مع فنها وقواعدها .

والآن وقد أضحى هذا الكتاب بين يدي القراء فإني أعقد عليه أملين : الأول أن يكون بمثابة ضوء جديد على رسالة ميّ الأدبية التي نذرت لها حياتها حبّاً بالعلم والوطن والأدب ، وحرصاً على نهضة لغةٍ ومجتمع ، وأمةٍ عربية كانت تفاخر بالانتماء إليها ، والثاني أن أكون قد أسديتُ بجمعه ونشره خدمةً للطلاب والباحثين تسّهل مهماتهم الدراسية ، وقدمتُ للقراء صفحات من أدب مي تلذّ مطالعتها .

سلمى الحفار الكزبري

الاحتفال بالنبوغ

(ذهبت الكاتبة النابغة الآنسة ماري زياده (مي) مع والديها الكريمين لقضاء فصل الصيف في ربوع لبنان فرحَّبت بهم جرائد سورية ولبنان اعظم ترحيب . وكان كثيرون قد دعوها لزيارة وطنها الأول فاحتفلوا بها حيث حلّت ولا سيما في سوق الغرب وعيناب وزحلة وبعلبك ودمشق وبيروت وكان ارباب الاقلام يقابلونها فيها بالخطب والقصائد مثبتين بذلك ان في الشرق نهضة فكرية بعيدة المدى ومقامًا للأَدَب رفيعًا في النفوس . وقد بلغنا أن أحد الادباء عُني بجمع كل ما قيل في تلك الحفلات لينشرهُ في كتاب واحد . ولقد كانت الآنسة مي تجيب المحتفلين بها بما يعهد فيها من بلاغة العبارة وسعة التخيل وحسن التعليل . وقد وقفنا الآن على خطبتين من خطبها الواحدة ألقتها في حفلة دمشق والثانية في حفلة الجامعة الاميركية في بيروت فنشرناهما هنا مع الشكر الجزيل لها وللذين اكرموها)[1]

الأولى كلمتها في حفلة دمشق (١٠/١٠/١٩٢٢)

حلمت فِي هذه المدينة احلام الطفولة الأولى . ولما كنتُ هناك في وادي النيل أغمض عينيَّ لاستعيد ذكرى فردوس طفولتي كنتُ أُدركُ انَّ من عرف دمشق صغيراً حفظ كيانُهُ من جمالها اثراً ليس يمحى . ثم علَّلْتُ النفس بالعودة هذه السنة لاسمع هدير انهارها ، مُستأنسةً بلطف اهلها ، مراجعةً تاريخها الطويل في الشوارع والحجارة والابنية ، مستوحيةً في الأَخربة والآثار روح العظمة الأمويَّة ومجد صلاح الدين .

(١) المقتطف ـ ج ٦١ ـ عدد ديسمبر ١٩٢٢ ص . ٤٤٣ـ٤٥٠ .

وها اناذا في دمشق ، ايها السادة والسيدات ، فإذا بالمياه قد اضافت إلى حكايتها الدهرية حديثًا سريًّا طريفًا . ها انا ذا في دمشق وكأنَّ الأشجار تخبرني عما شهدتهُ السبلُ من تفجُّعٍ وعمَّا اظلَّتهُ الغصون من رجاء .

ها اناذا في دمشق وكأني أُبصر في الاخربة والآثار روح العز القديم تتململُ فترى اعجوبة التجدُّد في الشعب الواحد المقيم في المكان الواحد . ها اناذا في المدينة الارامية الكبرى ، عاصمة الملوك والخلفاء والفاتحين ، حاضرة هذه البلاد التاريخية وآية الجمال في الصحراء ولكنني اشعر بأني ، خصوصاً في دمشق الجديدة ، في الفيحاء، والفتاة التي تستجمعُ قواها بعد الجراح والالآم ، وتتحفز للنهوض والصعود نحو قمّة الارتقاء . ولئن تعاون الكرم منكم وحبّ تشجيع العلم في جعل هذا المساء لي عيداً ، فقد اريتموني فيهِ رموزاً طالما تقتُ الى حقيقتها .

ففي اتحاد الاندية أرى رمزاً لاتحاد الامة . وفي ارتفاع صوت المرأة قرب صوت الرجل أرى دليلاً على تنبُّهِ الكرامة فيها واستعداد الرجل لمساعدتها والاعتراف بحقوقها . وفي اتفاق المحمدي والعيسوي على الترحيب بأُختٍ سوريّة آتية من بعيد ، أرى عنواناً لمحو فروق المذاهب ومتانة الوحدة القومية

هذا مظهر من وطنيتكم السامية ، وانما هو الذي يوحي اليّ ان اخاطبكم بما يجول الساعة في نفوسكم : لكم عائلة فرقُّوها بترقية المرأة وإصلاح الرجل . لكم صناعة وتجارة وزراعة فحسنوها ما استطعتم ولا تيأسوا امام الفشل المهذّب . لكم ماض عظيمٌ فكونوا له اهلاً بتهيئة مستقبل عظيم . لكم فنٌّ شرقي ، وروح شرقي ، ولغة شرقية فحسنوها وروجوها ــ لا تعصباً ولا تعنُّتاً ــ بل ليكون لكم اثر نفيس في متحف الثروة الانسانية . لكم دين وعقيدة فاطلقوا الحرية فيهما بين الخالق والمخلوق ، ودعوا

المؤذنين والنواقيس ترفعُ نحو الخالق انشودة الخلود ، بينما انمّ ترددون انشودة الحياة قائلين : الله اكبر ونحن ابناءُ قومية واحدة .

بهذه الكليمات اودعكم ، ايها السادة والسيدات ، شاكرة لأهل دمشق ما لاقيتهُ عندهم من لطف الضيافة ، شاكرةً للاندية الكريمة هذا الاجتماع الفخم الذي ضمَّني وجمهوراً كبيراً من اخواننا واخواتنا . شاكرة للخطباء والشعراء ما جادت به قرائحهم الوقادة في تجميل ذكري . شاكرة للصحافيين والادباء كل كلمة طيبة كتبوها عني او وجهوها اليَّ . وكنت اودُّ ان اتشرف ووالديَّ بتأدية الواجب لجميع الذين تفضلوا وزارونا من سادة وسيدات ، ولكن الوقت قصير يحول دون قضاء هذا الواجب المستحب . فارجو قبول شكري الحار ، واسفي ، واعتذاري لأن سفرنا قريب جداً .

اودعكم مرة اخرى ايها السادة والسيدات . بالامس كنت اذا ذكرت دمشق تصورتها طاقة خضراء وسط الصحراء يتخللها هدير الانهار . اما الغد فاذا ذكرت فيهِ دمشق تصورتها تلك الطاقة الخضراء يتخللها هدير الانهار وقد تجلّى فوقها قلب دمشق الفتاة الذي خلتهُ الليلة يتأجّج ناراً ويتألق نوراً فلتحيَ دمشق الفتاة ! !

مي

الثانية كلمتها في جامعة بيروت وموضوعها
كولمبوس وفتح اميركا

هوذا الرجل الذي يريد تحقيق مالم يسبقهُ اليهِ احد . للناس جميعاً أطماع ومآرب : فهذا يسعى الى الثروة ، وذاك يشوق الى الحبّ ، وذلك يرغب في السؤدد والتفوق . القائد يبغي فتح المدينة ظافراً ، والملك يسرُّهُ التفاف الرعايا حول اريكتهِ ، والعالم يتفرَّغ لمعالجة الذرّات والعناصر ، والمكتشف يودُّ استجلاء سر من أسرار الطبيعة . أمّا هذا الرجل فقد حلّق فوق كلّ غازٍ وكل عظيم ، لانهُ انما يريد ان يوجد عالماً جديداً .

هو فقيرٌ فارغ اليد ، يُنظَر اليهِ بالريبة والتحذُّر لأنهُ غريب في قومهِ وعشيرته . هو شاذ مجنون لا يشبه الآخرين . ما ذُكر الأَّ ارتسمت على الشفاه ابتسامة التأفف والاستخفاف فرجمهُ السافلون باقذار سفالتهم ، ولوَّث اسمهُ الخاملون باوحال خمولهم .

اما انت ذو الفكر النبيل والنظر الثاقب ، فتقدَّم تجد ان هذا الرجل ليس لهُ من بعض المعدمين الوقاحة والتطاول ، ولا من الآخرين المذلَّة والمسكنة . في ذلك الوجه تدركُ إدراكاً مبهماً معنى العظمة والعبقرية . وعلى تلك الجبهة ترى وسْمَ المجد وقد حاذتهُ علامة الحزن العميق الذي يرافق المجد في الغالب، وفي تينك العينين تبصر تعاقب التثبُّتِ والاستقصاء بنظرة تتغلغل فيك وقد توحَّد عندها غورُ الهاوية وشروقُ الوحي والرؤيا . ثم ينسى هذا الرجل ما يحيط بهِ من الناس والاشياء ناظراً إلى عمود النور السائر أمامهُ في الفضاء نحو ابعادٍ قصية ، نحو شواطئ مجهولة ، نحو خراب سيصير بهمَّتِه عمراناً مجيداً .

هذا الرجل هو كولمبس ، الذي قام يحقق ما لم تتخيلهُ كبار العقول على أربعين قرناً . هذا الذي لا بيت لهُ لم تعُدْ تسعهُ القارات الثلاث . والبلاد والرياض والمروج التي فنيت فيها ملايين الآجال دهراً بعد دهر ، وتكيَّفت في رحابها الحضارات والاديان والانظمة شكلاً بعد شكل ــ قد ضاقت بهذا الذي لا حسب له ولا نسب . فاستعمل فضلةً من ذكائهِ للتقرُّب الى ارباب بلاد اخرى ، فعطفت عليهِ إيزابلا الاسبانية ملكة قشتالة ، وحبتهُ بسفن ثلاث كاملة التجارة ، جاهزة المعدات ، فمضى نحو ذلك المجهول المنشود .

° ° °

نشر كولمبس شراعهُ على البحار ، بيد انهُ ما خطا الخطوة الاولى وراء عمود النور إلا وتكشفت لهُ الاخطار والمصاعب. قبلهُ وصل الصينيون الى الحد الاقصى حيث تكاد تتقابل البراكين الاسيوية وبراكين اميركا الجنوبية .

فوقفوا هناك ثم انقلبوا راجعين . قبلهُ كاد النروجيون ينتهون الى الجهة الشرقية من اميركا الشمالية ، فوقفوا هناك ثم انقلبوا راجعين . قبلهُ وصل العرب الى سويداء الصحارى المائية ، فاحجموا امام بحر الظلمات ثم انقلبوا راجعين . أما هو الفرد الواحد فتابع المسير عنيداً . انعقدت لهُ الايام على صفحة الماء اسابيع ، وتكونت الاسابيع شهوراً دون ان تقع عيناهُ على أنس الشواطئ . فتابع المسير عنيداً . الامواه الكئيبة تحدقُ من كلّ جانب ، والوحشة الفيحاء توسع الآفاق حواليهِ . وبحارة السفن يشكون ويتمرّدون ، ونفاد الزاد يهدّد بالموت جوعاً ويشير بالعودة . ولكن عزيمة الصنديد لم تتزعزع وظلت بصيرتهُ ترى ما كلّت دونهُ الابصار . وفي وسط الغمّ واليأس بسمتْ يوماً ارضُ الميعاد وراء بكر الشواطئ وتراءى العالم الجديد للعالم القديم الآيس المترقب .

° ° °

ايها السادة والسيدات

ان حكاية اكتشاف اميركا على يد ذلك الجنويّ الباسل ، وما جرّاليهِ ذلك الاكتشاف من تطوُّر الحضارة والعمران ، لهي حكاية الجهاد الفردي في الحياة وهي ارهف شاحذ لعزائم بني الانسان . يخيل الى من راقب سير المدنيّة ان تاريخ البشر وقف بغتةً ينتظر وقوع ذلك الحادث العظيم الذي ربط بين شاسع الامصار باسباب المواصلات السريعة فتوثقت العلاقات بين الشعوب ، وحصحصت صورُ مستحدثة للفكر والتفاهم والامل ، وجدّت النفوس في التحرُّر من الاستئثار الدهري . فانتصب الانسان حيال الخالق والخليقة نبيلاً يودُّ ان يدرك ، يودُّ ان يحبّ ، يود ان يتفانى لينتعش ويحيا.

هناك ثروة موفورة لتموين الصناعة والتجارة . هناك المعادن المختلفة والحجارة الكريمة وفصائل النبات وانواع الحيوان مما جُمع في فُلك نوح ومما لم يتخيلهُ نوح ولا بنوهُ .

هناك عالم جديد بثروته المعدنية والنباتية والحيوانية ، جديد بموقعه وجماله وجباله وبحيراته وشلالاته ، جديد باختلاط الشعوب المتجنسة بجنسيته النابضة بحياته وروحه ، جديد بحضارة تنشأ شيئاً فشيئاً هي مجموعة الحضارات السابقة وأبدع ما أتقنته يدُ البشر

تلك هي من اميركا المدنية المحسوسة . اما مدنيتها المعنوية فنفسٌ حار ، وفكرٌ مبدع ، ونبوغ عجيب ، وعطف رحيب . هناك مقدرة خاصة في جمع المال وتكثيره تضاهيها مقدرة بذله والتخلي عنهُ في سبيل المشروعات العامة . كأن امتزاج الشعوب المتعاونة على تكوين الروح الاميركية العامة قد ايقظ في صدر اميركا حبَّ الانسانية باسرها . حبًّا تناهى عندها وتسامى فادركت اكثر من سواها معنى اخاء الانسان للانسان . لذلك ما نزلت بالعالم كارثة الاَّ كانت اميركا اسبق المساعدين . ولا ظهرت في العالم فكرة جميلة او مبدأ سامٍ الاَّ كانت اميركا اسرع المروجين واخلص المؤيدين . ولا دعا داعي الاريحية والتعاون الاَّ كانت اميركا اقرب البلدان الى وضع الاشياء في اماكنها فكانت اعقل المنظمين والمسعفين .

وهي فوق ذلك بلاد الحرية . عرفتها كذلك الشعوب فأهدت اليها فرنسا الكريمة المتحمسة تمثالاً من صنع برتولدي سنة ١٨٨٦ رفعتهُ الولايات المتحدة في مرفأ نيويورك جاعلة منارتها في يده قبساً ينير العالم . ولكني لست ادري أهي اميركا التي نصبت في مدخلها تمثال الحرية ، ام هي الحرية التي اتخذت مرفأ نيويورك لها منبراً ، واقامت عليه من تمثالها خطيباً ينادي بالعلم والنهوض والاستقلال والاعتماد على النفس ، رافعاً يمينهُ وراء بحار الشمال والمياه المتجلدة والأبعاد الشاسعة ، يهزُّ من قبسه الانوار على الامم باعثاً اليها برسالة الحمية والرقي والرجاء .

لنا نحن السوريين اخوان اعزاء يعيشون في ظلّ ذلك التمثال الرائع . بيد ان اشعة الحرية تنير البعيد كما القريب ، وما هذه الجامعة الاَّ شعاع من

ذلك القبس المحيي .

المعاهد الاميركية العلمية غير قليلة في الشرق . الاّ ان لمعهد بيروت أولوية الذكر لان لهُ في نهضتنا الفكرية الحديثة منذ نصف قرن اثراً مباشراً بمن انجب من الزعماء الذين تثقفت منهم الاخلاق وتكيفت المدارك بتأثير ابناء اميركا الصالحين .

أأحصي لكم اسماء اولئك الاميركان الافاضل الذين تخرَّجت عليهم طوائف رجالنا العاملين ؟ ما حاجتي الى ذلك وهم احياء بينكم بمآثرهم العلمية وحسناتهم التهذيبية ، احياء بينكم بالّذين استلموا هذه الجامعة بعدهم فكانوا خير خلف لخير سلف ، ولكن اذكروا اولئك العاملين الخالدين ! من هنا ايها السادة الطلبة . من هذه الساحات حيث تلعبون وتتسامرون وتتنزهون أطلَّ بعض كبار رجالنا على العالم – من وراء الاشجار السندسية وحرج الصنوبر الصغير خلال افق البحر المنبسط امامكم بزرقته الرائقة ، أقبلوا على معترك الحياة . في هذا الجوّ ارتسمت لهم خطوط الآمال والاماني ، وعلى هذه المقاعد جلسوا قبل ان يصلوا الى مكانتهم العالية بين قومهم ، وفي هذه القاعات قاعات الدراسة ارتفعت اصواتهم التي وصلت بعدئذ الى اقصى حدود الشرق وتعدَّتها الى ربوع الغرب . خلال الكتب التي تدرسون ، والعلوم التي تقتبسون ، والكواكب التي ترصدون ، رأوا عظمة الكون وعجائب الخليقة فأحبُّوا تلك البلاد التي صادقتهم ، وهذه الامّة الشرقية التي هي امَّتهم ، واحبُّوا الاله المهيمن على الجميع بالنعم والعطايا . من هنا خرج صرُّوف ونمر فاصدرا مقتطفهما الذي ابرز مآثر الشرق ونقل لنا فلسفة الغرب وعلومهُ وابتكاراته . من هنا خرج زيدان فتهيَّأ هلالهُ وسلسلة كتبه في تاريخ الاسلام . هنا تيقَّظت عبقرية الشميّل وهبَّت مع عبقرية الافغاني والشيخ محمد عبده عاصفةً على خمود الشرق وجموده .

أذكر هذه الاسماء الاربعة مفاخرة بصداقة ثلاثة من اصحابها وهم

الشميّل وصرّوف ونمر . واكتفي بذكر هؤلاء مع علمي ان هناك عشرات سواهم حقيقون بالذكر لانهم باقون بالاثر . لا سيما الاساتذة السوريين من خريجي هذه الجامعة المحتفظين بلغتنا وروحنا الشرقية وديعة ينقلونها من جيل الى جيل . اني أنحني امام فضلهم جميعاً بانحنائي أمام استاذنا العالم الجليل جبر افندي ضومط الذي اعلم انهم لا يرضون بسواهُ ممثلاً لهم في مثل هذا الموقف .

وتألّق القبس يوماً في مرفأ الحرية فأرسل شعاعاً ابعد مرمى وأطول مدىً فقررت هذه الجامعة ما سبقت به جميع المدارس العليا في هذه الربوع ففتحت صفوفها للفتاة مسويةً بينها وبين الرجل ، تربيها منذ الصغر على الشعور بالكرامة كما تعوّد الفتى على احترامها والنظر اليها كمثيلته وشريكته.

وليس ذلك بكثير على امة بلغت نساؤها من الرقّي ما لم تصل اليه نساء شعب آخر في هذا العصر ـ كما علت المرأة المصرية قديماً الى مرتبة لم تدانها فيها امرأة في عصرها . ليس ذلك بكثير على امة وضعت المرأة في مجالس النواب ودوائر الحكومة مطلقةً لها الحرية في السعي والجهاد ، حتى غدت نهضة المرأة من أمتن الدعائم التي قامت عليها عظمة الامة الامريكية

فلئن كنت اول فتاة عُقد لها مثل هذا الاجتماع في هذه الجامعة وكنتُ اول فتاة وقفت لمثل هذا الاجتماع على هذا المنبر الجليل ، فكلمتي الاولى هي إسداء الشكر باسم الفتاة الشرقية لاجل هذه التسوية الجميلة . راجية ان يكون عدد الطالبات المستفيدات منها متزايداً عاماً بعد عام .

ثم احيّي من هذه الجامعة هيئة الرئاسة والادارة وجمهور الاساتذة الملقنين شبيبتنا حروف النور ، النافخين فيها روح الاستقلال والاستقامة . احيّي الهمّة التي بُذلت دواماً لاحياء اللغة العربية حتى علم الناس انَّ من تخرج في هذا الصرح العلميّ اتقن هذه اللغة واحسن التعبير بها كما فاز بالاستقلال

الفكري والاتكال على النفس

° ° °

وانتِ يا شبيبة بلادي التي لن تكذبي كرامة الاجيال الدراسية التي سبقتك هنا ، انتِ الرجاء الناضر ، والبلسم الملطف جراح الماضي ، والغد البهيّ المتكون في قلب اليوم ، ـ سواء أكنت مسلمةً ، ام درزية أم يهودية أم مسيحيةً توحَّدي متدرِّبةً على الحرية الفكرية وتعزيز الروابط القومية . توحَّدي متدربة على التفاهم مع جميع الشعوب والاجناس لتتبادلي وإياهم نتائج الجهود ، لتعطيهم وتأخذي منهم . انت تعلمين ان لا مكان اليوم للخامل المتواني وان العالم والاوطان تطلب العامل الحاذق المخلص . شبيبة بلادي ، زهرة الامل الغالي ، فاَهتزّي شاعرةً بغبطة الشباب وغبطة الجمال ، وغبطة الذكاء وغبطة القوة . ألا فاهتزي مغتبطة لان قومك يساير خطواتك مترقباً نجاحك . ألا استوحي كتب العلم ودروس الجهابذة ، ألا استوحي احوال البشر وفيوض العبقرية ، الا استوحي الفرح والترح ، الفخر والمذلة ، والصداقة والعداوة ، واستوحي كذلك صوتي الضعيف لتكوني ما عليكِ ان تكوني ، لتكوني انتِ انتِ ! فتبلغي اقصى مرتبة من الرفعة والتقدم .

على جباهكم ، يا شبان بلادي ، ارى الآن انعكاس حضاراتنا القديمة ، وفي تيقظكم ارى تنبه شعوبنا الشرقية البائدة ، وفي نور عيونكم ارى ذكاء النوابغ وتوقُّد الامجاد ، وهيبة الرجولة البادية في ملامحكم كثيرة الوعود للمستقبل . فاخرجوا من هنا عائدين الى العمل اليوميّ الدقيق ، اخرجوا من هنا سائرين في طريق العلى ! وهنيئاً للاوطان بمن نجح منكم فحقق الاماني ! هنيئاً لنا بمن تفوّق بينكم انهُ لرجل فينا عظيم ! انهُ عندنا لكولمبس جديد !

مي

(المقتطف ـ ومما يحسن ذكرهُ في هذا المقام ان في الجامعة الاميركية داراً فسيحة تسمَّى وست هول West Hall تبرع بالانفاق على بنائها والد الرئيس الحالي يعقد في منتداها اجتماع كل يوم جمعة ويُدعى اليهِ كل كاتب وشاعر او ذي ميزة فكرية يمر في مدينة بيروت ليلقي فيهِ خطبة في موضوع يختاره افادةً للطلبة . ولما كانت الآنسة مي عازمة على العودة الى مصر مع والديها قبل يوم الجمعة عقد هذا الاجتماع لها يوم الثلاثاء ودعي اليهِ جمهور كبير من الطلبة القدماء وغيرهم من الفضلاء وهي اول فتاة دُعيت لمثل ذلك وللوقوف على ذلك المنبر . وقد كُتب الينا ان الحضور من الشرقيين سُرّوا بان اولى المدشنات لهُ كانت فتاة سورية) .

الحركتان الصالحتان (١)

نحن في عصر تلخصت فيهِ نتائج الماضي وتهيأت عندهُ مقدمات المستقبل . نحن في عصر تجمعت فيهِ جهود ستة آلاف سنة . وتلاطمت في جوّهِ انفعالات المراتب واطماع الامم . عصران اثنان لهما بعصرنا شبه وهما : عصر انهيار الدولة الرومانية في مطلع القرون الوسطى ، وعصر النهضة والتجدُّد في ختام هاتيك القرون .

على انهما صورتان مصغرتان للمأساة الخطيرة الممثلة على مسرح هذه الايام ، والتي لم تكن الحرب الكبرى الاَّ فصلاً من فصولها المشتبكة .

اليوم نرى النفس العامة كنفوس الافراد ، قلقةً مضطربة لا تستقرّ ولا تتجلد ، بل تشرّح اوجاعها ، وتضخِّم عللها فتصرخ تارةً وتتهدَّد اخرى طالبةً الشفاء والتآسي . اليوم يخرج بنوالانسان على قرارات الاحقاب ممزقين ما رثَّ من النظم ، سابكين نظماً اخرى في قوالب عصرية ،موجدين نظماً جديدة تتفق مع الحاجات والمطالب . وفي وسط هذا الاصطخاب ، وذاك التنازع ، وذياك التمزُّق حيث يختلط العزّ بالهوان والاخلاص بالتبجح ـ نتبين حركتين صالحتين ، حرَّف المغالون منهما ايضاً المعنى والمرمى ، ولكنهما في حدودهما الطبيعية نبيلتان ، مشروعتان ، جوهريتان لان احداهما قوام العائلة والاخرى قوام العمران .

---

(١) (المقتطف) هي الخطبة البليغة التي القتها الآنسة مي في الاحتفال الذي اقامته عصبة الأدب البيروتية إكراماً لها في ٢٢/١٠/١٩٢٢ . عدد يناير ج (٦٢) ١٩٢٣ .

وها اناذا في دمشق ، ايها السادة والسيدات ، فإذا بالمياه قد اضافت إلى حكايتها الدهرية حديثًا سريًّا طريفًا . ها انا ذا في دمشق وكأنَّ الأشجار تخبرني عما شهدته السبلُ من تفجُّعٍ وعمَّا اظلَّتهُ الغصون من رجاء .

ها اناذا في دمشق وكأني أُبصر في الاخربة والآثار روح العز القديم تتململُ فترى اعجوبة التجدُّد في الشعب الواحد المقيم في المكان الواحد . ها اناذا في المدينة الارامية الكبرى ، عاصمة الملوك والخلفاء والفاتحين ، حاضرة هذه البلاد التاريخية وآية الجمال في الصحراء ولكنني اشعر بأني ، خصوصاً في دمشق الجديدة ، في الفيحاء ،والفتاة التي تستجمعُ قواها بعد الجراح والالآم ، وتتحفز للنهوض والصعود نحو قمّة الارتقاء . ولئن تعاون الكرم منكم وحبّ تشجيع العلم في جعل هذا المساء لي عيداً ، فقد اريتموني فيهِ رموزاً طالما تقتُ الى حقيقتها .

ففي اتحاد الاندية أرى رمزاً لاتحاد الامة . وفي ارتفاع صوت المرأة قرب صوت الرجل أرى دليلاً على تنبُّهِ الكرامة فيها واستعداد الرجل لمساعدتها والاعتراف بحقوقها . وفي اتفاق المحمدي والعيسوي على الترحيب بأختٍ سوريّة آتية من بعيد ، أرى عنواناً لمحو فروق المذاهب ومتانة الوحدة القومية

هذا مظهر من وطنيتكم السامية ، وانما هو الذي يوحي اليّ ان اخاطبكم بما يجول الساعة في نفوسكم : لكم عائلة فرقُوها بترقية المرأة وإصلاح الرجل . لكم صناعة وتجارة وزراعة فحسنوها ما استطعتم ولا تيأسوا امام الفشل المهذّب . لكم ماض عظيمٌ فكونوا له اهلاً بتهيئة مستقبل عظيم . لكم فنٌّ شرقي ، وروح شرقي ، ولغة شرقية فحسنوها وروجوها — لا تعصباً ولا تعنُّتاً — بل ليكون لكم اثر نفيس في متحف الثروة الانسانية . لكم دين وعقيدة فاطلقوا الحرية فيهما بين الخالق والمخلوق ، ودعوا

المؤذنين والنواقيس ترفعُ نحو الخالق انشودة الخلود ، بينما انتم ترددون انشودة الحياة قائلين : الله اكبر ونحن ابناءُ قومية واحدة .

بهذه الكليمات اودعكم ، ايها السادة والسيدات ، شاكرة لأهل دمشق ما لاقيتهُ عندهم من لطف الضيافة ، شاكرةً للاندية الكريمة هذا الاجتماع الفخم الذي ضمَّني وجمهوراً كبيراً من اخواننا واخواتنا . شاكرة للخطباء والشعراء ما جادت به قرائحهم الوقادة في تجميل ذكري . شاكرة للصحافيين والادباء كل كلمة طيبة كتبوها عني او وجهوها اليَّ . وكنت اودُّ ان اتشرف ووالديَّ بتأدية الواجب لجميع الذين تفضلوا وزارونا من سادة وسيدات ، ولكن الوقت قصير يحول دون قضاء هذا الواجب المستحب . فارجو قبول شكري الحار ، واسفي ، واعتذاري لأن سفرنا قريب جداً .

اودعكم مرة اخرى ايها السادة والسيدات . بالامس كنت اذا ذكرت دمشق تصورتها طاقة خضراء وسط الصحراء يتخللها هدير الانهار . اما الغد فاذا ذكرت فيهِ دمشق تصورتها تلك الطاقة الخضراء يتخللها هدير الانهار وقد تجلَّى فوقها قلب دمشق الفتاة الذي خلتهُ الليلة يتأجَّج ناراً ويتألق نوراً فلتحيَ دمشق الفتاة ! !

مي

الثانية كلمتها في جامعة بيروت وموضوعها
كولمبوس وفتح اميركا

هوذا الرجل الذي يريد تحقيق مالم يسبقهُ اليهِ احد . للناس جميعاً أطماع ومآرب : فهذا يسعى الى الثروة ، وذاك يشوق الى الحبّ ، وذلك يرغب في السؤدد والتفوق . القائد يبغي فتح المدينة ظافراً ، والملك يسرهُ التفاف الرعايا حول اريكتهِ ، والعالم يتفرَّغ لمعالجة الذرَّات والعناصر ، والمكتشف يودُّ استجلاء سر من أسرار الطبيعة . أمَّا هذا الرجل فقد حلَّق فوق كلّ غازٍ وكل عظيم ، لانهُ انما يريد ان يوجد عالماً جديداً .

هو فقيرٌ فارغ اليد ، يُنظَر اليهِ بالريبة والتحذُّر لأنهُ غريب في قومهِ وعشيرته . هو شاذ مجنون لا يشبه الآخرين . ما ذُكر الاَّ ارتسمت على الشفاه ابتسامة التأفف والاستخفاف فرجمهُ السافلون باقذار سفالتهم ، ولوَّث اسمهُ الخاملون باوحال خمولهم .

اما انت ذو الفكر النبيل والنظر الثاقب ، فتقدَّم تجد ان هذا الرجل ليس لهُ من بعض المعدمين الوقاحة والتطاول ، ولا من الآخرين المذلَّة والمسكنة . في ذلك الوجه تدركُ إدراكاً مبهماً معنى العظمة والعبقرية . وعلى تلك الجبهة ترى وسْمَ المجد وقد حاذتهُ علامة الحزن العميق الذي يرافق المجد في الغالب، وفي تينك العينين تبصر تعاقب التثبُّتِ والاستقصاء بنظرة تتغلغل فيك وقد توحَّد عندها غورُ الهاوية وشروقُ الوحي والرؤيا . ثم ينسى هذا الرجل ما يحيط بهِ من الناس والاشياء ناظراً إلى عمود النور السائر أمامهُ في الفضاء نحو ابعادٍ قصية ، نحو شواطئَ مجهولة ، نحو خراب سيصير بهمَّتهِ عمراناً مجيداً .

هذا الرجل هو كولمبس ، الذي قام يحقق ما لم تتخيلهُ كبار العقول على أربعين قرناً . هذا الذي لا بيت لهُ لم تعُدْ تسعهُ القارات الثلاث . والبلاد والرياض والمروج التي فنيت فيها ملايين الآجال دهراً بعد دهر ، وتكيَّفت في رحابها الحضارات والاديان والانظمة شكلاً بعد شكل — قد ضاقت بهذا الذي لا حسب له ولا نسب . فاستعمل فضلةً من ذكائهِ للتقرُّب الى ارباب بلاد اخرى ، فعطفت عليهِ إيزابلا الاسبانية ملكة قشتالة ، وحبتهُ بسفن ثلاث كاملة التجارة ، جاهزة المعدات ، فمضى نحو ذلك المجهول المنشود .

° ° °

نشر كولمبس شراعهُ على البحار ، بيد انهُ ما خطا الخطوة الاولى وراء عمود النور إلا وتكشفت لهُ الاخطار والمصاعب. قبلهُ وصل الصينيون الى الحد الاقصى حيث تكاد تتقابل البراكين الاسيوية وبراكين اميركا الجنوبية .

فوقفوا هناك ثم انقلبوا راجعين . قبلهُ كاد النروجيون ينتهون الى الجهة الشرقية من اميركا الشمالية ، فوقفوا هناك ثم انقلبوا راجعين . قبلهُ وصل العرب الى سويداء الصحارى المائية ، فاحجموا امام بحر الظلمات ثم انقلبوا راجعين . أما هو الفرد الواحد فتابع المسير عنيداً . انعقدت لهُ الايام على صفحة الماء اسابيع ، وتكونت الاسابيع شهوراً دون ان تقع عيناهُ على أنس الشواطئ . فتابع المسير عنيداً . الامواه الكثيبة تحدقُ من كلّ جانب ، والوحشة الفيحاء توسع الآفاق حواليه . وبحارة السفن يشكون ويتمرّدون ، ونفاد الزاد يهدّد بالموت جوعاً ويشير بالعودة . ولكن عزيمة الصنديد لم تتزعزع وظلت بصيرتهُ ترى ما كلّت دونهُ الابصار . وفي وسط الغمّ واليأس بسمتْ يوماً ارضُ الميعاد وراء بكر الشواطئ وتراءى العالم الجديد للعالم القديم الآيس المترقب .

° ° °

ايها السادة والسيدات

ان حكاية اكتشاف اميركا على يد ذلك الجنويّ الباسل ، وما جرّاليهِ ذلك الاكتشاف من تطوُّر الحضارة والعمران ، لهي حكاية الجهاد الفردي في الحياة وهي ارهف شاحذ لعزائم بني الانسان . يخيل الى من راقب سير المدنيّة ان تاريخ البشر وقف بغتةً ينتظر وقوع ذلك الحادث العظيم الذي ربط بين شاسع الامصار باسباب المواصلات السريعة فتوثقت العلاقات بين الشعوب ، وحصحصت صورُ مستحدثة للفكر والتفاهم والامل ، وجدّت النفوس في التحرُّر من الاستئثار الدهري . فانتصب الانسان حيال الخالق والخليقة نبيلاً يودُّ ان يدرك ، يودُّ ان يحبّ ، يود ان يتفانى لينتعش ويحيا.

هناك ثروة موفورة لتموين الصناعة والتجارة . هناك المعادن المختلفة والحجارة الكريمة وفصائل النبات وانواع الحيوان مما جُمع في فُلك نوح ومما لم يتخيلهُ نوح ولا بنوهُ .

هناك عالم جديد بثروته المعدنية والنباتية والحيوانية ، جديد بموقعه وجماله وجباله وبحيراته وشلالاته ، جديد باختلاط الشعوب المتجنسة بجنسيته النابضة بحياته وروحه ، جديد بحضارة تنشأ شيئاً فشيئاً هي مجموعة الحضارات السابقة وأبدع ما أتقنتهُ يدُ البشر

تلك هي من اميركا المدنية المحسوسة . اما مدنيتها المعنوية فَنَفسٌ حار ، وفكرٌ مبدع ، ونبوغ عجيب ، وعطف رحيب . هناك مقدرة خاصة في جمع المال وتكثيره تضاهيها مقدرة بذله والتخلي عنهُ في سبيل المشروعات العامة . كأن امتزاج الشعوب المتعاونة على تكوين الروح الاميركية العامة قد ايقظ في صدر اميركا حبَّ الانسانية باسرها . حبًّا تناهى عندها وتسامى فادركت اكثر من سواها معنى اخاء الانسان للانسان . لذلك ما نزلت بالعالم كارثة الاَّ كانت اميركا اسبق المساعدين . ولا ظهرت في العالم فكرة جميلة او مبدأ سامٍ الاَّ كانت اميركا اسرع المروجين واخلص المؤيدين . ولا دعا داعي الاريحية والتعاون الاَّ كانت اميركا اقرب البلدان الى وضع الاشياء في اماكنها فكانت اعقل المنظمين والمسعفين .

وهي فوق ذلك بلاد الحرية . عرفتها كذلك الشعوب فأهدت اليها فرنسا الكريمة المتحمسة تمثالاً من صنع برتولدي سنة ١٨٨٦ رفعتهُ الولايات المتحدة في مرفأ نيويورك جاعلة منارتها في يده قبساً ينير العالم . ولكني لست ادري أهي اميركا التي نصبت في مدخلها تمثال الحرية ، ام هي الحرية التي اتخذت مرفأ نيويورك لها منبراً ، واقامت عليه من تمثالها خطيباً ينادي بالعلم والنهوض والاستقلال والاعتماد على النفس ، رافعاً يمينهُ وراء بحار الشمال والمياه المتجلدة والأبعاد الشاسعة ، يهزُ من قبسه الانوار على الامم باعثاً اليها برسالة الحمية والرقي والرجاء .

لنا نحن السوريين اخوان اعزاء يعيشون في ظلّ ذلك التمثال الرائع . بيد ان اشعة الحرية تنير البعيد كما القريب ، وما هذه الجامعة الاَّ شعاع من

ذلك القبس المحيي .

المعاهد الاميركية العلمية غير قليلة في الشرق . الاّ ان لمعهد بيروت أولوية الذكر لان لهُ في نهضتنا الفكرية الحديثة منذ نصف قرن اثراً مباشراً بمن انجب من الزعماء الذين تثقفت منهم الاخلاق وتكيفت المدارك بتأثير ابناء اميركا الصالحين .

أأحصي لكم اسماء اولئك الاميركان الافاضل الذين تخرَّجت عليهم طوائف رجالنا العاملين ؟ ما حاجتي الى ذلك وهم احياء بينكم بمآثرهم العلمية وحسناتهم التهذيبية ، احياء بينكم بالّذين استلموا هذه الجامعة بعدهم فكانوا خير خلف لخير سلف ، ولكن اذكروا اولئك العاملين الخالدين ! من هنا ايها السادة الطلبة . من هذه الساحات حيث تلعبون وتتسامرون وتتنزهون أطلَّ بعض كبار رجالنا على العالم – من وراء الاشجار السندسية وحرج الصنوبر الصغير خلال افق البحر المنبسط امامكم بزرقته الرائقة ، أقبلوا على معترك الحياة . في هذا الجوّ ارتسمت لهم خطوط الآمال والاماني ، وعلى هذه المقاعد جلسوا قبل ان يصلوا الى مكانتهم العالية بين قومهم ، وفي هذه القاعات قاعات الدراسة ارتفعت اصواتهم التي وصلت بعدئذٍ الى اقصى حدود الشرق وتعدَّتها الى ربوع الغرب . خلال الكتب التي تدرسون ، والعلوم التي تقتبسون ، والكواكب التي ترصدون ، رأوا عظمة الكون وعجائب الخليقة فأحبُّوا تلك البلاد التي صادقتهم ، وهذه الامّة الشرقية التي هي امَّتهم ، واحبُّوا الاله المهيمن على الجميع بالنعم والعطايا . من هنا خرج صرُّوف ونمر فاصدرا مقتطفهما الذي ابرز مآثر الشرق ونقل لنا فلسفة الغرب وعلومهُ وابتكاراته . من هنا خرج زيدان فتهيَّأ هلالهُ وسلسلة كتبه في تاريخ الاسلام . هنا تيقَّظت عبقرية الشميّل وهبَّت مع عبقرية الافغاني والشيخ محمد عبده عاصفةً على خمود الشرق وجموده .

أذكر هذه الاسماء الاربعة مفاخرة بصداقة ثلاثة من اصحابها وهم

الشميّل وصرّوف ونمر . واكتفي بذكر هؤلاء مع علمي ان هناك عشرات سواهم حقيقون بالذكر لانهم باقون بالاثر . لا سيما الاساتذة السوريين من خريجي هذه الجامعة المحتفظين بلغتنا وروحنا الشرقية وديعة ينقلونها من جيل الى جيل . اني أنحني امام فضلهم جميعاً بانحنائي أمام استاذنا العالم الجليل جبر افندي ضومط الذي اعلم انهم لا يرضون بسواهُ ممثلاً لهم في مثل هذا الموقف .

وتألّق القبس يوماً في مرفأ الحرية فأرسل شعاعاً ابعد مرمى وأطول مدىً فقررت هذه الجامعة ما سبقت به جميع المدارس العليا في هذه الربوع ففتحت صفوفها للفتاة مسويةً بينها وبين الرجل ، تربيها منذ الصغر على الشعور بالكرامة كما تعوّد الفتى على احترامها والنظر اليها كمثيلته وشريكته.

وليس ذلك بكثير على امةٍ بلغت نساؤها من الرقّي ما لم تصل اليهِ نساء شعب آخر في هذا العصر ــ كما علت المرأة المصرية قديماً الى مرتبةٍ لم تدانها فيها امرأة في عصرها . ليس ذلك بكثير على امةٍ وضعت المرأة في مجالس النواب ودوائر الحكومة مطلقةً لها الحرية في السعي والجهاد ، حتى غدت نهضة المرأة من أمتن الدعائم التي قامت عليها عظمة الامة الامريكية

فلئن كنت اول فتاة عُقد لها مثل هذا الاجتماع في هذه الجامعة وكنتُ اول فتاة وقفت لمثل هذا الاجتماع على هذا المنبر الجليل ، فكلمتي الاولى هي إسداءُ الشكر باسم الفتاة الشرقية لاجل هذه التسوية الجميلة . راجية ان يكون عدد الطالبات المستفيدات منها متزايداً عاماً بعد عام .

ثم احيّي من هذه الجامعة هيئة الرئاسة والادارة وجمهور الاساتذة الملقنين شبيبتنا حروف النور ، النافخين فيها روح الاستقلال والاستقامة . احيّي الهمّة التي بُذلت دواماً لاحياء اللغة العربية حتى علم الناس انَّ من تخرج في هذا الصرح العلميّ اتقن هذه اللغة واحسن التعبير بها كما فاز بالاستقلال

الفكري والاتكال على النفس

° ° °

وانتِ يا شبيبة بلادي التي لن تكذبي كرامة الاجيال الدراسية التي سبقتك هنا ، انتِ الرجاء الناضر ، والبلسم الملطف جراح الماضي ، والغد البهيّ المتكون في قلب اليوم ، ـ سواء أكنت مسلمةً ، ام درزية أم يهودية أم مسيحيةً توحّدي متدرّبةً على الحرية الفكرية وتعزيز الروابط القومية . توحّدي متدربة على التفاهم مع جميع الشعوب والاجناس لتتبادلي وإياهم نتائج الجهود ، لتعطيهم وتأخذي منهم . انت تعلمين ان لا مكان اليوم للخامل المتواني وان العالم والاوطان تطلب العامل الحاذق المخلص . شبيبة بلادي ، زهرة الامل الغالي ، فاهتزّي شاعرةً بغبطة الشباب وغبطة الجمال ، وغبطة الذكاء وغبطة القوة . ألا فاهتزي مغتبطة لان قومك يساير خطواتك مترقباً نجاحك . ألا استوحي كتب العلم ودروس الجهابذة ، ألا استوحي احوال البشر وفيوض العبقرية ، الا استوحي الفرح والترح ، الفخر والمذلة ، والصداقة والعداوة ، واستوحي كذلك صوتي الضعيف لتكوني ما عليكِ ان تكوني ، لتكوني انتِ انتِ ! فتبلغي اقصى مرتبة من الرفعة والتقدم .

على جباهكم ، يا شبان بلادي ، ارى الآن انعكاس حضاراتنا القديمة ، وفي تيقظكم ارى تنبه شعوبنا الشرقية البائدة ، وفي نور عيونكم ارى ذكاء النوابغ وتوقُّد الامجاد ، وهيبة الرجولة البادية في ملامحكم كثيرة الوعود للمستقبل . فاخرجوا من هنا عائدين الى العمل اليوميّ الدقيق ، اخرجوا من هنا سائرين في طريق العلى ! وهنيئاً للاوطان بمن نجح منكم فحقق الاماني ! هنيئاً لنا بمن تفوّق بينكم انهُ لرجل فينا عظيم ! انهُ عندنا لكولمبس جديد !

مي

(المقتطف ـ ومما يحسن ذكرهُ في هذا المقام ان في الجامعة الاميركية داراً فسيحة تسمَّى وست هول West Hall تبرع بالانفاق على بنائها والد الرئيس الحالي يعقد في منتداها اجتماع كل يوم جمعة ويُدعى اليهِ كل كاتب اوشاعر او ذي ميزة فكرية يمر في مدينة بيروت ليلقي فيهِ خطبة في موضوع يختاره افادةً للطلبة . ولما كانت الآنسة مي عازمة على العودة الى مصر مع والديها قبل يوم الجمعة عقد هذا الاجتماع لها يوم الثلاثاء ودعي اليهِ جمهور كبير من الطلبة القدماء وغيرهم من الفضلاء وهي اول فتاة دُعيت لمثل ذلك وللوقوف على ذلك المنبر . وقد كُتب الينا ان الحضور من الشرقيين سُرّوا بان اولى المدشنات لهُ كانت فتاة سورية) .

الحركتان الصالحتان[1]

نحن في عصر تلخصت فيهِ نتائج الماضي وتهيأت عندهُ مقدمات المستقبل . نحن في عصر تجمعت فيهِ جهود ستة آلاف سنة . وتلاطمت في جوّهِ انفعالات المراتب واطماع الامم . عصران اثنان لهما بعصرنا شبه وهما : عصر انهيار الدولة الرومانية في مطلع القرون الوسطى ، وعصر النهضة والتجدُّد في ختام هاتيك القرون .

على انهما صورتان مصغرتان للمأساة الخطيرة الممثلة على مسرح هذه الايام ، والتي لم تكن الحرب الكبرى الأّ فصلاً من فصولها المشتبكة .

اليوم نرى النفس العامة كنفوس الافراد ، قلقةً مضطربة لا تستقرّ ولا تتجلد ، بل تشرّح اوجاعها ، وتضخِّم عللها فتصرخ تارةً وتتهدَّد اخرى طالبةً الشفاء والتآسي . اليوم يخرج بنوالانسان على قرارات الاحقاب ممزقين ما رثّ من النظم ، سابكين نظماً اخرى في قوالب عصرية ،موجدين نظماً جديدة تتفق مع الحاجات والمطالب . وفي وسط هذا الاصطخاب ، وذاك التنازع ، وذياك التمزُّق حيث يختلط العزّ بالهوان والاخلاص بالتبجح – نتبين حركتين صالحتين ، حرَّف المغالون منهما ايضاً المعنى والمرمى ، ولكنهما في حدودهما الطبيعية نبيلتان ، مشروعتان ، جوهريتان لان احداهما قوام العائلة والاخرى قوام العمران .

---

(١) (المقتطف) هي الخطبة البليغة التي القتها الآنسة مي في الاحتفال الذي اقامته عصبة الأدب البيروتية إكراماً لها في ١٩٢٢/١٠/٢٢ . عدد يناير ج (٦٢) ١٩٢٣ .

وبلادنا التي تلقّت من الالوهية كلمة الحب الاولى فبزغ الوحيُ فيها شمساً توزعت اشعتها على العالم ، بلادنا التي حفظ ابناؤها من اثر ذلك الوحي بداهة تدرك كلَّ مظهر وتكتنهُ كل معنى – أقول بافتخار اني رأيتُ هاتين الحركتين في بلادنا في احوال شتى خلال هذا الصيف . ولكنني ما رأيتهما اتمَّ واوضح منهما اليوم في بيروت قريحة سوريا الجوَّادة وهمتها النهّاضة الجامعة بين قوة الامواج الملاينة وقوة الجبل المنيعة .

اما احدى الحركتين فهي تحرير المرأة الذي هو قوام النهضة العائلية تعلمون ، ايها السادة والسيدات ، ان من مسراتنا الكبرى الحصول على موافقة امثالنا والفوز باستحسانهم ورضاهم . على اننا نخجل كثيراً عند ما نسمع منهم كلمات الثناء والاطراء . ولكن احكموا علي بما شئتم ، فذلك لا يثنيني عن المصارحة باني في هذه الجلسة قد انعتقت من قيود الشخصية الفردية . فكبرتُ ونموتُ وتضاعفتُ متعددةً متكاثرة حتى صرتُ النوع النسائي كله في امس الشرق ويومه . عندئذ لم اعد ارى الفرد الواحد في الخطيب منكم والشاعر ولم يعدِ الكلام موجّهاً الى شخص معين . بل خيّل اليَّ ان حجاب الدهور قد أُزيح عن رجال الشرق في الماضي والحاضر ، وتصورتهم يتوحدون والمتكلم ، مستغفرين عما جنوا ضد المرأة وضد نفوسهم وضد الوطن سهواً وجهلاً . والرجل الذي عهدناهُ سيداً ظالماً جائراً مستهتراً – كما يقول الوشاة – انقلب ذلك الصديق الجادّ المثقف . ويدهُ التي اعتادت اشارة الضغط والسحق والاستخفاف – كما يقول الوشاة – انقلبت فجأةً يداً كريمة ترسم تلك الاشارة الانيقة العطوفة المثيرة الحماسة : اشارة ضفر اكليل العز لرأس الفتاة الشرقية . ولئن رأيت في تلك الاشارة تكفيراً عن الماضي فقد رأيتُ فيها كذلك وعداً بمتابعة تعضيد المرأة في سبل النور والعرفان .

بدت تلك الصورة وتلك الاشارة فارتعشت نفسي وتسامى معنى تأثري

وتحوّل الخجل عندي كرامة وقبولاً . فرفعت عينيَّ أحدق في الخطيب والشاعر ، وكأن المرأة المظلومة منذ ابتداء الدهور كانت تقول لهُ بسكوتي : «ايها الرجل ،لقد احسنت !احسنت لانك كفّرت ،احسنت لانك انصفت ! »

ايها السادة الرجال ،لقد سمعتم هنا اخواتي الاديبات السوريات فعلمتم أن بيانهن العذب وعواطفهن الرقيقة ، وافكارهن النيرة تحفظ مكانتها قرب بيانكم الالمعي الجارف وافكاركم القديرة المستأثرة . ألا فليكن لكم من رقيهن ميثاق وقدوة جميلة ! اذكروا هذا عندما تعودون الى منازلكم وانظروا الى المرأة العائشة في محيطكم وتحت نفوذكم ، انظروا الى الام ، الى الزوجة ، الى الاخت ، الى الابنة نظرةً جديدةً ـنظرة من انتبه لواجب طالما اهملهُ . ولا تقصروا التشجيع عليَّ انا ابنتكم المارة بينكم مروراً سريعاً بل ظلوا عاملين على تحرير المرأة التحرير المنشود حتى تسمعوا من نفوسكم تلك الشهادة البديعة : « ايها الرجل لقد أحسنت ! أحسنت لانك كفّرت ، احسنت لانك انصفت ! »

اذا كانت الحركة الاولى هي تحرير المرأة فالحركة الاخرى هي تحرير الوطنية .

الوطنية ! يا للكلمة الساحرة المنبهة كل فكر ، الملهبة كل قلب ، الشاحذة كل عزيمة ! لقد كانت دواماً عظيمة حتى في معناها الضيق يوم كانت تحسب البلاد كل العالم ، واهل البلاد الشعب المصطفى الاوحد . ولقد كانت في معناها الواسع عاطفةً رحيبة امتازت بها النفوس الحرة في كل زمان ومكان . غير انها شاعت وصارت لكل امة ناهضة منذ قرن بعد ان هدم بنو الفرنسيس جدران البستيل ناشرين على حدود الوطنيات أعلام الثورة الفكرية ، وجاعلين الاقطار تتجاوب اصداؤها بتلك الآيات الثلاث المعلنة حقوق الانسان ،

وهي ـ من ذا لا يعرفها ؟ ـ : حريةٌ ، مساواة ، إخاء .

ونحن الجيل الجديد في الشرق ، المدرك علاقة الشعوب بالشعوب واشتباك المنافع بالمنافع ، نحن الجيل الجديد المستنير ، المتلظي ، المغتبط ، بالعيشة في هذا العصر المتفرد بصعابه وممكناته ـ نحن اتسعت منّا الوطنية وتكيفت فاذا بها مع ذلك الحب العنيد القديم ، قد فتحت صدرها لتشعّ الانوار الجديدة .

وطنيتنا الحديثة طبيعية ، لان الروح اذا هي تاقت الى ملأ أعلى لا يحدُّهُ زمان او مكان فالجسد يحب الحدود ، ويشوق الى الجدران ويتعلق بالامكنة والازمنة بتذكاراته وجهوده واحزانه . وطنيتنا الحديثة عائلية لانها تريد ان تمكن المرأة من انماء مداركها وتأدية وظيفتها ليس بمقاتلة الرجل ومكافحته بل بتعضيده ومساعدته . وطنيتنا الحديثة عملية نشيطة تنكر التواكل والاستسلام مقدّرةً الاتكال على النفس واتقان العمل كائناً ما كان .

وطنيتنا الحديثة عصرية لانها تساير حركة التقدم في العالم ، ومع محافظتها على المحامد العظامية تحتضن كل جديد مفيد منعشةً عندها المسابقة والابتكار .
وطنيتنا الحديثة اخوية ودودة لان مساوىء التحزُّب والانقسام نخرت عظامنا ففهمنا اخيراً ان عبادة الفرد لباريه لا تحولُ دون التفاهم مع جاره . وطنيتنا الحديثة رصينة مقتصدة لا تطلب من ابنائها التضحية على غير هدىً بل تريد التوفيق ما امكن بين مصالح الافراد ومصالح الجمهور ، لان البلاد لا تكون سعيدة بشقاء ابنائها . وطنيتنا الحديثة مقدسة لانها ارث الجدود والموتى ، حارّةٌ لانها عجنت بدماء الشهداء واختمرت بانفاسهم الاخيرة ، متينة لانها تماسكت اجزاؤها بآلام الاحياء ونبضات قلوبهم . وطنيتنا الحديثة روحانية لانها شرقية تعلم ان الفرد الواحد يلمس الانسانية من جميع اطرافها وان

من خاطب قومهُ بذلك الاخلاص المنبثق من اغوار روحهِ فقد خاطب سكان البسيطة باسرها . الاّ انها تعلم كذلك ان من نصب نفسهُ لخدمة الناس جميعاً اوشك ان لا يخدم احداً . لذلك نحن نعزّز القومية التي تجعل المرء قوة فاعلة في جانب من الجوانب ، نعززُ القومية عالمين ان من ادّى واجبهُ في محيطهِ كان مؤدياً ما عليهِ نحو الانسانية من واجب عام .

فان انا شكرت لعصبة الادب غيرتها على الادب واحتفاءها بي ، فأني اشكر كذلك جميع الذين ساعدوها على جعل هذا الاجتماع مظهراً فخماً من مظاهر الرقي الفكري والقومي في بيروت . اني سعيدة بان ارى في هذا النادي اخواني واخواتي من مختلف المذاهب والطوائف ، سعيدة باستماع هذه الخطب الجميلة والقصائد العصماء من ذوي الفضل العميم على الادب العربي والنهضة الحديثة ، سعيدة بان اكون الليلة موضوع عطفكم العذب المنوّع ، الذي يكاد لسعتهِ يتعداني شاملاً اهل الفكر والادب من اللبنانيين والسوريين الغائبين .

ان عطفكم هذا يحيط بي مؤثراً كالطرب مشوقاً كالامل ، مؤاسياً كالذكرى ، قوياً كالشباب ولكنهُ ايضاً آمرٌ كالواجب صارمٌ كالمسؤولية .

سأعود الى موطني المصري العزيز وهذه الساعة حيّة فيّ . حتى اذا اهتاجني اسم لبنان فذكرت جمال السحب فيهِ عند الغروب ، وجلال الجبال في زرقة الشفق ، وروعة البحر تحت الظلام – حتى اذا اهتاجني ذلك الحنين الوجيع اليهِ رأيتني بينكم مرةً اخرى وامامي السبيل التي عليَّ ان اسلكها – اذن ساهتف بما يهتف بهِ كل واحد منا ساعة اليقظة والتحمس للعمل قائلة : وطني يحتاج اليَّ احتياجهُ الى كل فردٍ من ابنائهِ وبناتهِ . وطني يحتاج اليّ وعيون اخواني ترعاني . اريد ان ابعث حبي لابناء وطني لهيباً . اريد ان

اسكب نفسي في نفوس ابناء وطني كوثراً . اريد ان انسى صغائر الحياة وظلم الحياة وقيود الحياة لارتفع فوق ذاتي فاضاهي ابناء وطني رفعةً وجمالاً . اريد ان اتعب فاتقن عملي واسير وابناء وطني في سبيل التقدم خطوةً . اريد ان احيا ــ اريد ان احيا رغم الجراح والآلام لاكون في حياة وطني الناهض حياة .

« مي »

دروس من الصحراء

ألقت هذه المحاضرة في الجامعة الأميركية ببيروت في ٣٠ مايو ١٩٢٥ ـ بدعوة من جمعية : « تهذيب الشبيبة » .

المورد الصافي ج (١٠)عدد حزيران ١٩٢٥ ص : ٣٣٦ ـ ٣٤٢ .

حمل الدكتور فياض قيثارتهُ وأنشد فاثار في الاوتار زوبعة انغام والحان وحرّك في النفوس كوامن النزعات والاشجان . وما اتى على نشيده الا وقد حطم القيثارة وقطع الاوتار فلم يترك لاحد بعده ان يرسل زفرةً او ينغم لحناً .

الاّ انه بانشاده قد شدَّ من نفوسنا الاوتار وهيأها للاصطفاق عَلَى وقع كل شدوٍ وكل تطريب . وكانت اولى نتائج سحره المعجزة التي شهدنا : لقد ابصر الاعمى وثاب متشائم المعرَّة الى الخالق والى الخلائق . وهو الذي ألفناه يهجو الحياة ، ويحلُّ مشكلتها بامنية اليأس والعفاء ، ويمقت بني الانسان فيقول في نفسٍ واحد :

فـأفٍ لعصريهم نهارٍ وحنـدسٍ وجنسي رجالٍ منهم ونساء

فاذا بهِ يتوب توبةً علنية خالصة على يد كليم الله في هذه الحفلة ، كاهن بيت المقدس الخوري المقدسيّ .

وكان عليَّ ان احتفظ بالنسب أنا كذلك . فان لم يكن ثمت توبة أعلنها ، او كلمات كتسبيح الموسيقى ارسلها ، فصمتٌ عبقريٌ مبين .

غير اني خطوت من القارة السوداء الى القارة السمراء لأتكلم . واراني هنا للمرة الثانية بعد الحرب التي عمدتنا معمودية الالم والقلق والادراك فيفيض الحنين في جوانحي وتتسابق التحياتُ الى شفتيَّ :

فسلاماً ايتها الجامعة الكبيرة التي ضممتنا لتشعرينا مرةً اخرى بانك كنت ولا تزالين حصناً متيناً من حصون اللغة العربية ، وانكِ كنتِ ولا تزالين تزهرين من شبيبتنا ربيعاً بعد ربيع وتنشئين من رجالنا جيلاً بعد جيل ! سلاماً ايتها الجمعية الناهضة رئيساً واعضاء وعاملين ! انكِ لقائلة بان الشرق يدري متى واين تصبح الاريحية واجباً ، وتقولين للنابغين ان النور لا يخبو ان المعطي والآخذ يتساويان في افق العلم والانسانية ! سلاماً ايها الليل المنسدل على الشط الفينيقي القديم ، على الجبال وعلى السهول ، على مدائن سوريا وعلى قرى لبنان ، على الاضطراب وعلى تشعُّب الشؤون ، على الابرياء المظلومين وعلى المجرمين في السجون ، على أجداث الموتى وعلى قبور الشهداء الخالدين ! سلاماً ايها الجمهور الذي تحسب نفسك هنا مصغياً مترقباً وما انت الاَّ الخطيب البليغ لانك تحمل الينا نحن الباحثين عن وطننا المتناثر بلاغاً من نداء الاوطان ، وتستنطقنا بلغة الاوطان ، وترسل الينا نفحةً من روح الوطنية وشرارة !

ايها السادة والسيدات

الآن أُمسك كلمات الحنين لأنظر قليلاً في معنى الاسم الذي تعرف به هذه الجمعية « تهذيب الشبيبة » دون ان اتقيد بغايتها . بل لأتساءل « لماذا تهذَّب الشبيبة ؟ »

اذا كانت الطبيعة صالحةً وكان كلُّ ما خلقهُ الله حسناً فهذه الناشئة بعض برايا الباري ، وغرائزها من مواهب الطبيعة التي تغنَّى بحمدها روسووانصاره ومعنى التهذيب هو التزيين والتنقية والتطهير ، فكيف يُنقَّى الخالص وكيف يُطَّهر مالم يصبهُ تلوُّث ولا تشويه ؟

نعم نحن من برايا الباري والطبيعة صالحة . ولكنَّ الباري اخضع البرايا لناموس التطوُّر . وصلاح الطبيعة في الفرد هو الصلاح في شلاَّل الماء وفي النهر الفائض لا بدَّ ان يتناوله نظام الري والتوزيع ليكون أمناً لا خطراً ، وحياةً لا موتاً .

واخطأ روسو يوم قال بصلاح كل ما تصنعهُ الطبيعة وبفساد كل ما يصنعهُ الانسان ، لانه وقف عند اول حكم من احكام الحياة ولم يأبه لما يلازمه من قوانين التطوُّر والصقل والتهذيب الشائعة في جميع اجزاء الكون.

التهذيب في معناه باللغات الغربية education من اللاتينية ex ducere ، اي الاخراج من طورٍ الى طور آخر . هو في الواقع انتقال وتحسين وتهيئة الفرد لتبادل المصالح والمنافع مع اخوانه .حيث المجتمع والحضارة هناك الانظمة والروابط . وهناك وجوب تنشئة الفرد على غايات محيطهِ واساليبهِ وحاجاتهِ مع احتفاظ الفرد بحريتهِ وجميع مواهبهِ الشخصية .

وما كان اسهل « تهذيب » الناشئة بالامس لاننا لم يكن لنا من مصالح ومنافع نتبادلها مختارين ولم يكن لنا من مثل اعلى نشرئبُّ اليه .لفتةً الى حياتنا منذ خمسين عاماً ! نجد هناك شخص عبد الحميد ، وانما عبد الحميد يمثل جميع العتاة والمهووسين الذين يجهلون ان الحكومة من الشعب وللشعب وليس الشعب بآلةٍ للحكومة . وكانت حكومة عبد الحميد أليق ما تكون بمولاها ، يتناوبها الظلم والحق والرشوة والاستبداد . وما فتىء الفَردُ حيواناً

اجتماعياً كما يقول فنيلون ، وحيواناً سياسياً ، كما يقول أرسطو . فهولذلك متفاعل حتماً وما يحيط بهِ او يسوسهُ من جماعة وما يقيدهُ من نظام وقانون فيعامل من هو دونهُ بمثل ما يعاملهُ من هو فوقهُ . كما يكون الحاكم والقاضي كذلك رب البيت في عائلته والمعلم في مدرستهِ . كان الملك يضغط على الحاكم ، والحاكم يضغط على المحكوم ، والمحكوم يضغط على ابنائهِ وتلاميذهِ . فما هم جميعاً الأ آلات إذلال وإخضاع وإرهاب بعضهم لبعض ، ليس في الشرق فحسب بل في جميع الامم خلال عصور الارهاق . فكانت غاية التهذيب كغاية الحكم والسياسة تكييف عبيد يمتثلون خانعين بلا تذمر ولا شكوى . والعبيد من الحكام والآباء والمعلمين كانوا يفلحون في سبك النفوس الصغيرة في قالب العبودية والظلام الذي ضوّلت فيهِ شخصياتهم . صمٌّ بكمٌ لا يعقلون يسبكون في قالبهم صماً بكماً لا يعقلون !

ألا فلتشرفي ذكراً ، ايتها المدارس الغربية لانكِ حملتِ الينا بشير الحياة وغصن الرجاء ، فتعلمنا عن طريقك معاني الحرية والمسؤولية والكرامة !

ان اغراض الحياة ، ايها السادة والسيدات ، ابعد من مطامع الحاكمين ، وحقوق الامم ابقى من افتئات المعتدين . جاءنا الشعاع عن طريق الغرب وكان لدينا شعاع آخر يحتجب ولكن لا يغيب في اشخاص افرادنا الممتازين ، من اولئك الشرقيين الذين عرفوا امراضنا فحاولوا ان يعالجوها ويحطموا منا الاغلال . من اي المدن هم ؟ انهم ليكتظون امامنا في فضاء هذا النادي مقبلين من بيروت نفسها ، من لبنان ، من دمشق ، من طرابلس وحمص وحماه ، من مصر ، من العراق ، ، من جزيرة العرب ، من الاناضول ، من كردستان وافغانستان ، من الاستانة ، من مختلف الطوائف والاديان ومن جميع انحاء ما كان يدعى بالامس مملكة بني عثمان .

وما اسمهم ؟ وما حاجتهم الى النعوت والالقاب ؟ كلمة واحدة تطبع عَلَى ذكرهم علامة لا تمحي . اسمهم الاحرار ! احرار العرب ، احرار

الشرق ، احرار الانسانية ! الغرب حمل الينا الشعاع وهؤلاء حملوا امامنا المشاعل . الغرب علمنا النظرية ، وهم جعلوها بمثلهم عملية تطبيقية فارسلوا في دمائنا قطرة متوهجةً فوَّارةً هي قطرة الحرية !

تهذيبنا بالامس أضعف رجولة الرجال وجعل المثل الاعلى من المرأة ان يكون لها فم يأكل ـ أجلّكم الله يا سادتي ـ دون فمٍ يتكلم . اما اليوم فقد انكسر القالب القديم في السياسة والنظام والحكم فانكسر بالتبع في المجتمع والمدرسة والعائلة . ففي اي قالب تهذيبي نسبك الان ، وعلى اي الاغراض القومية تنشأ شبيبتنا ؟ ما هي صورة الحكومة لترتسم على مثالها صورة المدرسة ؟

اطمئنوا بالاً ، يا سادتي المشفقون ، لن اتكلم في السياسة لاني غبية لا افهمها في تعقدها البارع وتلوّيها الحاذق ، ولاني لا انسى مطلقاً اني هنا يجب ان اكون تلك التي لها فمٌ . . . الى آخرهِ !

° ° °

اجتزت قنال السويس مساء امس الاول . وهناك عند عتبة الصحراء امام القطار المزمع على الرحيل كنتُ اتحدث عن يقظة الشرق مع عالمٍ اجنبي مسافر . فاصغى اليَّ طويلاً وهو متردد بين التصديق والارتياب . ثم قال «كلٌّ هذا حسن . ولكني انا ادرّسُ علم الاقتصاد السياسي منذ اعوام . وقد راجعت تواريخ الامم القديمة والحديثة الكبيرة منها والصغيرة فوجدتُ لتيقظها ورقيها وكرامتها مقياساً واحداً لا شذوذ عنهُ . هو قوة الانتاج في جميع فروع النشاط الحسيّ والمعنويّ . من الميسور ان نعلم ما تستهلكون انتم الشرقيون في يقظتكم هذه ، ولكن ايّ الاغراض من الحياة تطلبون ؟ وهل تنشئون شبيبتكم على معرفة هذه الاغراض والعمل لها ؟ ما هي الاعمال التي يزاولها شبانكم ؟ واذا صح ان يقظتكم هذه بدأت بعد الحرب فحدّثيني عما فعلتم منذ الهدنة . لا اسأل عن الشركات العظيمة ، والمشروعات الناضجة والاعمال المالية العائدة بالارباح الباهظة ، ولكن

حدّثيني عن تجاربكم ، عما حاولتم القيام بهِ في حياتكم الصناعية والزراعية والمالية . انكم تستهلكون وتستهلكون ، فماذا انتم منتجون ؟ ايها الشرقيون المتيقظون .

واقبلنا على المفاوز واقتحم القطار مملكة الرمال طول ساعات الليل . وفي تلك الصحراء المترامية بين قارتي آسيا وافريقيا بشكل حيوان يتحفز للانقضاض على البحر تواريخ وحوادث تشترك فيها اديان ثلاثة وحضارات مختلفة وشعوب شتى . ومن جهات كثيرة من هذه الصحراء اقبلت عليَّ مواكب الماضي متعاقبة بلا ترتيب ولا استطراد تاريخي ، مملوءة بالعبر والدروس والحكم .

من هنا ، بعد مجاعة بلاد كنعان ، مرَّ يعقوب وذريتهُ الى مصر يحتمون بحمى يوسف الذي كان بالامس قد نبذه اخوته . من هنا مرّ قمبيز العاتي ونبوكد نصر ذو الصفحة التاريخية المدلهمة . من هنا مرَّ سيزوستريس المصري بعد فتح اورشليم وهيرودس الذي تولى الملك بكلمة واحدة من انطونيوس . هنا في العريش قضى بودوان الاول ملك اورشليم نحبه ، وهنا كذلك دوّنت المعاهدة القاضية بعودة كليبر وجنوده الى فرنسا بعد معارك الاهرام . هناك في غزَّة انهار شمشون الجبار بالانفعال الذي يصرع الرجال عند اقدام النساء . من هنا مرَّ الاسكندر قاصداً الى حيث يشيد على شفة البحر الابيض مدينة هي اعظم انتصاراته واخلد جميع فتوحه : الاسكندرية . من هنا مرَّ الطفل العذب الوديع هارباً مع ابويه الفقيرين ، هو الذي سيكون في الغد اعظم رسول للرحمة والمساواة والاخاء ، ويعلمنا كيف تثور النفس الكبيرة وهي ممتثلة ، وكيف يموت العظيم لاجل مبدأ عظيم . ومن هنا ، او من هناك ، مرَّ بعد ستة قرون الفتى البدويّ الاسمر متوجهاً الى دمشق ، هو الذي عما قليل سيقترن اسمه باسم كتاب ينال في ستين عاماً انتشاراً لم ينلهُ كتاب سواه ، وسيكون عنواناً لحضارة تصل بين ماضي الانسانية وحاضرها . وهنا يمرُّ

الآن هذا القطارمحدثاً بمقدرة الانسان الذي غلب العناصر وأخضعها وسطا على اسرار الطبيعة ونبش دفائنها وعرف ان يستخرج الخير من الشر والثروة من الفقر. هذه المزجيات التي جعلتها الحرب والاطماع آلة للربح ووسيلة لقهر الشعوب ها هي تقرّب المسافة بين البلدان وتوحي الى الفرد الضعيف ان الارض جمعاء ملكه وان جميع البشر اخوانه.

هذا بعض ما خطر لي في وحدة الليل بالصحراء. ولكن كلمات الرجل الغريب لبثت ترنُ في نفسي كدقات ناقوس ملازم. ومن غرائب الاتفاق اني حضرت من حيفا في سيارة واحدة مع ثلاثة من فضلاء المتخرجين من الجامعة ومن اعضاء تهذيب الشبيبة فعالجوا في احاديثهم كثيراً من المشاكل التي يثيرها سؤال الرجل الغريب. وبعد ان لموا بحالة البلاد، وذكروا منها العيوب والاعذار، كنتُ انا جمهورهم الصامت اكرر على نفسي تلك الاسئلة التي سمعتها في الليل «ما هو غرضكم من اليقظة والتعليم والتهذيب؟ طالما انتم عالة على الغرب في كل ما تستهلكون؟ نعرف ما انتم تستهلكون، فماذا انتم منتجون؟»

ايها السادة والسيدات

يتكوَّن تاريخ الامم والافراد من عوامل ثلاثة ثابتة في خطوطها الكبرى متطورة في التفاصيل والاجزاء.

اول تلك العوامل العامل الطبيعي اي موارد البلاد الطبيعية من تربة ونبات وحيوان ومعادن ومياه وموقع جغرافي يعيِّن العلاقات التجارية. والعامل الثاني هو العامل القهري او الجبري الذي يكتسح مشيئة الشعوب والافراد كالحروب مثلاً والطوارىء والزلازل والاوبئة.

والعامل الثالث وهو اهمّ العوامل لانه مكوّن حيوية الامم، هوالعامل الفعلي اوالعملي، اي نشاط الامة ومجهودها، وابتكارها، وانتظام الشعور والادراك فيها، وحكمتها في الاستفادة من مرافقها وممكناتها وفي

معالجة ما يجب ان يعالج وعلى الوجه الذي يجب ان يعالج به.

وجميعنا نعلم ان مصادر بلادنا ومواردها ليست دون ماتملكه كثير من البلاد الاخرى. ونعلم ان العامل القهري يتخذ عندنا شتى الصور والاشكال. ولكن اترانا نهتم بالعامل الثالث العامل الاختياري الفعال، كل الاهتمام؟ اتجهد مدارسنا ان تنميه كل النمو في نفوس شبابنا وفتياتنا؟

اذكروا بعض بلاد ايطاليا، اذكروا مصائب اليابان واذكروا كيف تنهض تلك الامم دفعة بعد دفعة ترمم بعمل الاعوام والاجيال ما افنتهُ الطبيعة في لحظة واحدة. فهل لنا نحن مثل هذا النشاط ومثل هذا الاحتمال؟ ايذكر كلٌ من شبابنا ان الارض تناديه لتحييه وتحيا، وان الصناعة والزراعة تطلب ذكاءه ومجهوده لتنمو وترقى؟ أيسأل شباننا انفسهم: تستهلكون انتاج الغرب ايها الشرقيون، فماذا انتم منتجون؟

ولكن الانتاج وحده على خطورته لا يكفي ولا بد من تنظيمه والربط بين اقسامه بتلك العاطفة التي توحي الامل والصبر والحماسة والثبات، لا بد من عاطفة الوطنية. لا بد ان تقود اعمالنا غاية الوحدة القومية.

في اثينا بلاد الرياضة البدنية والجمال الجسدي كانوا يقيمون حفلات سنوية يجري فيها المتسابقون وبايديهم شموع متقدة. فالفائز من سبق والمشعل في يمينه متقد كشارة الانتصار. وليتسنى لهم ذلك كانوا يجدون في مراحل متعددة من ميدان السباق مواقد تتلظى فيها النيران وينطلق منها اللهيب فيشعلون منها شموعهم المنطفئة ويستأنفون السباق وقد تجددت منهم الحماسة والنخوة، وحدا بهم رغم العناء والتعب طلبُ المجد والانتصار.

الا فليكن هذا شأننا في مجهودنا الجديد لحياتنا الجديدة! ولتكن الحماسة الوطنية وفكرة الوحدة القومية مراكز نور وحرارة نجدد عندها ما تراخى من عزائمنا لنمضي بعدئذ متسابقين الى حيث تحقق الشعوب آمالها وتقوم بما فرض عليها في موكب الامم الحية الناهضة!

نداء إلى الدّروز(1)
إلى الزعيم سُلطان باشا الأطرش
ودروز الجبل عموماً

إخواني ،

أنست لدى مروري بدمشق منذ ثلاثة أعوام بلقاء كبير من كبرائكم فدعاني إلى زيارة جبلكم حيث أكون بين أهل وإخوان . ولما كانت الفرصة ممتنعة عليّ رغم رغبتي في انتهازها أجبت أن تلك الدعوة في تقديري تستمر موجهة إليّ وذلك حتى يتيسر لي أن ألبيها فاقصد إلى حماكم وأرغد بما هو مأثور عنكم من الفضل والكرم .

وها أنا ذي اليوم مقبلة عليكم ، إن لم يكن بالجسم فبالفكر والروح . أسير إليكم مشوقة بالشعور معكم آسية على كل قطرة تراق من دمائكم متفجعة لكل ما ينزل بدياركم من الرزايا . وأول ما ينطلق به لساني هوالتمني أن تكفوا عن القتال . ألا حبذا التهاون والتفاهم في هدوء وأمان ! ألا ادخروا قواكم فنحن بها ضانون ! احقنوا دماءكم فهي غالية علينا لأنها تيار الأريحية والحياة .

وبعد فإني أخاطبكم قوية برعايتكم للضيف فتحققون له كل رغبة . بل قوية بما هو أعظم من ذلك . قوية بما في طلبي من الشرف والواجب وبما فيكم من نخوة ورجولة .

إلى البطل سلطان باشا الأطرش وأعوانه الشجعان أوجه كلامي : الا

---

(١) نقلاً عن « المقطم » عدد ١١١٤٥ تاريخ ١٩٢٥/١٠/٢٨ .

اذكروا تقاليد توارثتموها وعادات درجتم عليها في صيانة الاعراض.كونوا انتم ايها البسلاء كما كنتم دائماً حماة النساء والبنات ولا توقعوا العادية بجيرانكم واخوانكم ولاتجوروا على الأبرياء !

ولئن أنا استنجدتكم وأنتم في تجالد وتطاعن تحدق بكم المخاطر والنيران فاذكروا ما أنا الساعة ذاكرة من ان همم الرجال إنما تمتحن في الشدائد وان اصدق ما توزن به اقدارهم إنماهو ما يبدو منهم عند البلايا والمحن.

أطلب منكم الجري على عاداتكم القومية من صون النساء في وسطكم الشرقيات والغربيات منهن على السواء. أطلب مسالمة لجميع المقيمين في جواركم والذين قد تنزلون بينهم بداعي اجراءتكم الحربية. وأطلب نشر هذه الروح الشريفة بين جميع رجالكم ورجال القبائل والعشائر والجماعات الموالية لكم.

اخواني !

اشكركم على ما يهزني من فخروأنا أخاطبكم بهذه السطور. أشكركم على شمم فيكم يمدني بالشجاعة لأخاطبكم، وبالفخر لأثق أنكم ملبّون انتم الذين لا تخيفكم المدافع والشظايا إنما تمتثلون لفتاة تخاطبكم باسم الشرف والعدل.

لقد نظمت جمعية الأمم في الغرب دائرة من دوائرها لحماية النساء والبنات. فاثبتوا أنتم أنكم تغارون على المرأة في دياركم أياًكانت الجنسية منها والعقيدة ! اثبتوا للعالم أنكم بحق أبناء هذا الشرق شرق الرسل والانبياء والابطال. اثبتوا أنكم «رجال السويداء» وأنكم أهل نخوة كما انتم اخوان شجاعة ! واعتزوا بتحقيق مطلبي لأن هم الرجال الذين يمتثلون للصوت الضعيف يوم يذكرهم بالشرف والحق والواجب.

وأنتم الرجال الرجال.

«مي»

المقتطف
ونداء لجنة الاحتفاء بيوبيله الذهبي

المقتطف اقدم مجلة عربية تصدر في العالم العربي الآن ، مضى عليها نصف قرن في ميدان العمل وهي راسخة العزم في خدمة العلم ، تنقل الى أبناء اللغة العربية في مشارق الارض ومغاربها اسمى ما جاد به الفكر الانساني من علم وفن وفلسفة . وقد صدر منها حتى الان ٦٧ مجلداً في نحو. . . . ٥ صفحة ، دُوّنت فيها المكتشفات والمستنبطات وآراء النوابغ وسيرهم ، في كل عصر من عصور التاريخ ، باسلوب عملي دقيق ، على ما يقتضيه هذا العمل من الجهد في وضع المصطلحات العلمية العربية ، والشجاعة الادبية في نشر الآراء الجديدة والاحاطة بفروع المعارف على تعددها وتشعب مسالك البحث فيها .

هذا اول عمل من نوعه في الشرق ، قليل النظير في الغرب ، قدّرهُ ابناء العربية فقاموا يحتفون بيوبيل المقتطف الذهبي . وقد عقد الاجتماع التمهيدي في منزل حضرة الياس افندي زيادة صاحب جريدة المحروسة .

فدعت كريمته الكاتبة النابغة الآنسة المبدعة مي لفيفاً من صفوة اهل المثالية والفضل للبحث في تكريم مجلة المقتطف بمناسبة بلوغها اليوبيل الذهبي في اول السنة المقبلة والمناقشة في جعل هذا التكريم مظاهرة ادبية كبيرة في الشرق باشتراك الامم الشرقية فيه . فلبىَّ دعوتها عددٌ كبيرمن رجال العلم والسياسة والادارة فالقت الآنسة ميّ فيهم الخطبة الاتية .

حضرة صاحب المعالي[1]

مجلة المورد الصافي ج (١١) عدد كانون الأول ١٩٢٥ . ص. ٩٠-٩٣ .

ايها السادة

بالاصالة عن نفسي وبالنيابة عن والدي اتشرف ان ارحب بكم في هذا المنزل الصغير ، في هذه الغرفة الضيقة بمساحتها ولكنها الساعة ارحب واعظم ماتكون بحضوركم فيها . فكم من اجتماع زاهر عقد في هذه الغرفة ، وكم من مناقشة بين اهل العبقرية من الشرقيين ومن الغربيين حركت في هذا الجو المحدود رواكد وكوامن مما حجبته الحياة عن الابصار والبصائر. وكم ذكرت هنا اسماء كتابنا ومفكرينا ، وكم محصت هنا آثارهم في الادب والعلم والاجتماع . فانتم الان اذن في جوكم المألوف ، وهو رحيب زاخر بالتيارات الفكرية التي تتعارض فيه وتتلاقى .

اعلم ان بعضكم ترك الان عمله ، وان بعضكم ضحى بنزهته في سبيل هذا الاجتماع . فاحيي فيكم الهمة الناهضة والعاطفة المستعدة دواماً لتحية الفضل وتقدير الفاضل ولا عجب فانتم من لباب اهل الفضل وانتم

---

(١) مشيرة إلى محمد توفيق رفعت باشا وزير المعارف العمومية المصرية سابقاً

بمواهبكم العالية وجهودكم الادبية انما تمثلون الحلقة الثمينة التي تصل بين الماضي والمستقبل .

ولما كان من عادة المجالس النيابية ان يتولى الكلام فيها بدياً اقل الاعضاء شأناً فهذا ما اقوم به انا في هذا الاجتماع ـ حيث ينوب كل منكم عن جماعة من اهل العلم والادب ـ ريثما يتولى الكلام ذوو الشأن الخطير.
وللمطالبات بحق الانتخاب ان يرين في هذا ـ اذا شئن ـ بعض الفؤول الصالحة المنبئة بفوزهن في القريب العاجل .

انما نجتمع ايها السادة ، للتداول فيما يحسن عمله للاحتفاء باليوبيل الذهبي لمجلة المقتطف ، الذي يقع في شهر يناير سنة ١٩٢٦ . فقد مرت خمسون عاماً وهذه المجلة تصدر بلا انقطاع ناشرة ما طوي من مآثر الشرق وعلوم الشرق ناقلة ما حسن من مآثر الغرب وعلوم الغرب ، مماشية حركة التطور في العالم ومنوهة بما تباهي به نهضة بني الانسان . انها ما فتئت تالدة بتعزيز النفيس المفيد من القديم ، طريفة بتعزيز النفيس المفيد من الجديد ، بسيطة صادقة بلغتها السهلة المباشرة متفرغة لتلك الابحاث الجليلة في جو علمي هادىء بعيداً عن العواطف والانفعالات ليتسنى لها ان تعمم خدمتها وتبقى في ذلك الافق الانساني النبيل حيث يتلاقى الجميع ويتفاهمون .

وكان لهذا الوسط المصري اثر فعال في نشأتها لان النبتة الصالحة لا تنمو وتزهر الا في التربة الندية الخصيبة . لقد تأثرتْ بالمحيط المصري نصف قرن كما نتأثر به نحن ابناء اليوم . فاخذت من مصر واعطت ، وامتزج اسم المقتطف باسم مصر كما امتزجت يقظة نفوسنا الفردية بيقظة مصر الناهضة ومضى المقتطف يحمل رسالته الى أقطار الشرق العربي ، الى الشرق الاقصى الى العالم الجديد في اقطاره الشمالية والمتوسطة والجنوبية حيث ضرب المهاجرون من الشرق خيامهم ناقلين مع رجائهم ويأسهم وافراحهم واحزانهم مفردات هذه اللغة المحبوبة .

لذلك كان حقاً لاولئك الاخوان البعيدين ان نذكرهم في مثل هذا الموقف الحرج فنبكر في تأليف اللجنة لنوصل اليهم خبر اجتماعنا وندعوهم الى الاشتراك معنا في هذا اليوبيل الذي هو الاول من نوعه في تاريخ المجلات العربية. واما الاحتفاء باليوبيل فتقرره طبعاً على ما تستحسنه اللجنة التي ستؤلف لهذا الغرض فيكون لها في ذلك الرأي الاعلى.

يتهمون المرأة بانها تحب ان تكون لها الكلمة الاخيرة دواماً. فدفاعاً عن بنات جنسي قلت انا الكلمة الاولى، بل لثغت اللثغة الاولى، ولتكن الكلمة المحكمة الحصيفة النهائية لحضرتكم، ايها السادة الرجال.

بيد اني قبل الختام اكرر لكم الشكر على تشريفكم. اشكركم جميعاً. ولكن لا شك عندي في ان السوريين سواء منهم الحاضر والغائب، انما هم ينضمون في اسداء الشكر الحار الى حضرة صاحب المعالي رفعت باشا الذي حملته عواطفه النبيلة الرقيقة على تشريف هذا الاجتماع والى سائر المصريين الكرام الحاضرين. شكراً ايها السادة المصريين! دوموا كما انتم سباقين الى كل مكرمة! دوموا انتم منارة تستضيء بها اقطار الشرق وطليعته في جادة الرقي تفتح السبيل فيتبعها ابناء الشرق اجمعون!

وقد قوبلت هذه الخطبة بالتصفيق والاعجاب الشديدين وبعد ان تكلم عددٌ من رجال العلم والفضل بهذا الشأن تألفت لجنة تنفيذية يرأسها حضرة صاحب المعالي محمد توفيق رفعت باشا.

(المورد) لا شكَّ أنهُ سيكون لنداء لجنة الاحتفاء بيوبيل المقتطف شيخ المجلات العربية احسن وقع في نفوس نصراء الفضل. فإن هذه المجلة جاهدت بأمانة خمسين سنة في تنوير الأذهان ولا تزال مستمرة في جهادها فاكرامها بهذا اليوبيل الذهبي يعد إكراماً لمشروع من أكبر وسائل العلم والتهذيب في بلادنا الشرقية فاطال الله بقاءها في خدمتها النافعة.

نشيد إلى ينابيع روما

الهلال : ج (٣٤) عدد اول يناير (كانون الأول) ١٩٢٦ ص ٣٤٣ ـ ٣٤٦



تفيضين من كل صوب ، يا ينابيع المدينة الخالدة ، وتهزجين من كل ناحية ، وتنادين بالنابه والخامل على السواء ، ولك مساجلة مع المحروب والمحبور ، وصوتك يأبى إلا المضي في اصطحاب محكم مع جوق الاجيال التي تمر وتنقضي ومع البيان الناطق في آثار التاريخ وأطلال الحدثان !

على مقربة من المعابد والبيع والمحاريب وفي المساحات والميادين والحدائق ، عند أبواب المتاحف وتحت أروقة القصور ، في جانب مدافن العامة والدهماء

كما لدى ضرائح الآلهة والقياصرة والابطال ومضاجع البابوات والقديسين ، والشهـداء ، على ضفتي نهر « التيبر » الاشهب كما في غياض الهضاب السبع المحدقة بـواديـه ، في جوار انقاض الماضي وعلى مشهد من الاعمدة والرتائج والافاريز وأقواس النصر التي يزعم شاعرها أنها ما زالت منتصبة في انتظار مواكب ظفر جديدة ـ ؛ أنت ، يا نوافر روما ، حاضرة في كل مكان ، متفجرة منبجسة في كل مكان ، شادية في كل اين وآن !

للاشادة بصنيعك وتمجيد حسنك وتفخيم قدرتك عمدت يد الفن الى مقالع الرخام الملون ومناجم المرمر الشفاف . ودرست عبقريات العصور خصائص الجمال والحب والحزن والحماسة والبطولة والطغيان ، واحكام القدر ومظاهر الطبيعة واحتجاب الروح الشاملة . فصاغت لها جميعاً نفيس الشخوص والدمى والهراكلة والكواسر والضواري والانصاب ، واقامتها عند فوهاتك وعلى حفافيك تمثل للاجيال اختلاج الكائنات ونزعات الارواح.

أنت بعثت في تلك التماثيل نسمة الحياة إذ لامسها تيارك العذب . وها هي على الدوام تتلقى فيض أمواهك من احشاء الارض لترسلها في الهواء شكولا من الجمال وانغاماً من الطرب . وأنىّ توجهنا جابهناك ، يا ينابيع الفن والالحان ، فاذا أنت في الجو البديع أعمدة من النور الراقص أو حزم من البلور المصحون ، لهب وشهب من الرغو المتضامن أو بروق ونبال من الكوثر المتناثر ، شراع وألوية من السناء أو شجيرات وأدغال من الضياء .

وما تجول أطيافك جولتها في الفضاء حتى تنقض مهرولة في الاجران ، والاحواض . ومن هناك تنتظم شلالا دافقاً في الخبائب لتعود من حيث أتت فتتقمّص في صور جمال جديد !

° ° °

كم ذا طلب عطشي الارتواء من المثول لديك ، يا عيون روما ، وكم ذا سألت خريرك ان ينسيني نفسي الجريحة !

كم ذا تمليت أوضاع تماثيلك وملامحها ، وأنا أحسبها سعيدة بامتصاص روحها من روحك وارتباط نصيبها بنصيبك في خدمة الفن وتمجيد العبقرية !

ولكني أراها تمتثل حزينة وتؤدي وظيفتها المحتومة وهي ساهية غائبة . شأن من يقف من أهل المقامات أبياً كريماً في موقف العز والفخار على أن في جنانه نقرة فاجعة وصدعة قارحة .

أترى يشجيهن ذكرى الجبال البعيدة حيث كانت هذه التماثيل هاجعات في كتلة الهيولى قبل ان ينقشهن ازميل الحفار ؟ أتراهن يتلهفن على الحرية الماضية ولذاذة الغفلة ؟ أتراهن يشكين هذه الوتيرة الواحدة في نسيج الليالي والايام ، وان طرزها تقلب الحوادث بوشي الدم والخراب واللهيب ؟

أم هن مللن عبء الجمال وأبهظتهن مسؤولية العبقرية ؟ أم تراهن وقد شهدن جميع مواكب التاريخ في الانتصار والاندحار ، تعبن ، تعبن ، تعبن من هذه الحياة وما لا تفتأ تطويه وتنشره من تنوع الاضداد ؟ أم تراهن وهن منتصبات أو منحنيات ، مشرئبات أو ملتفتات ، انما هن ذاهلات عن الوقائع لا يعنين الا بنجوى القلوب القاصدة الى هنا تطلب الراحة والسلوان عند الماء الشادي ؟ أتراهن يصغين الى نجوى هذه القلوب فيحزنهن العطف ويأتين بهذه الاشارات ذات الهيبة والبلاغة التي يخلدها الرخام في قلب عاصمة العالم ؟

° ° °

تأملتك في الصباح والاصيل وعند انتصاف الليل ، يا ينابيع روما ، وسمعتك قرب الصروح الشامخة وبين الاخربة الدارسة تسوقين في نفس لا ينقطع معاني الضحك والبكاء ، والعبث والتفجع ، والتهليل والنحيب ، والمجون والحكمة ، ففهمت منك ان نسيج الزمان كنسيج المياه متماسك متناثر ، وان ركبه يمر ويبقى ، وان كل بداية تتلوها نهاية وكل نهاية تعقبها بداية ، وفهمت انك أنت من أصدق الصور للازمنة المتدافعة في المسافة ،

أبداً في ابتداء وانقضاء ، أبداً في انقضاء وابتداء .

يا لفخامة الأسماء التي تمر في جوك بهدير المدافع ولعلعة الصواعق ! إن ذاكرتي لتسردها اسماً اسماً وترى لكل ذي اسم ما التصق به من الخصائص . أترى رأت مدينة أخرى مثلما رأت روما من فعال الآلهة والابطال والطغاة المستبدين ؟ في المياه الصافية المغرية المحضرة الارواح كمرايا السحّار ، أرى المواكب تتهادى الفارس منها والراجل ، السيد والعبد ، القائد والاسير ، الفيلسوف والخطيب ، الامبراطور والشارع ، الظالم العاتي، والشهيد القديس. روما ، روما ! انك العظيمة حقاً !

انك العظيمة حقاً . لان العظمة الصادقة كالحب الصادق تذهل المرء عن نفسه ، وفي الوقت ذاته تلفته الى نفسه وتجعله أتم معرفة بها فتنمو أمامه وتنجلي ظهوراً .

وأنا الساعة أنظر في مياهك على وقع شدو النوافر فانفصل عن نفسي وأنسى اسمي ورسمي . انظر في مياهك فيفارقني الكرب الذي لا يفارق ، ويجفوني الالم الملازم العنيد ، فلا أذكر بعد إلا اني مقيمة فيك ، وان ينابيعك حولي مترنمة ، وان آثارك على مقربة مني قائمة ، واني في قرارة هذا الحوض الجميل أرقب مواكب تاريخك المتتابعة .

نسيت نفسي ، يا للرغد ويا للهناء ! لكني أعود فاذكرها ويشتد عطشي الملهب العميق . فأتلقى بيدي من مائك ، يا ينابيع روما ، وأشرب شربة لها في فمي طعم الترياق والكوثر .

لحظة ليس غير ! لقد رجعت إلى حالي فما ارتويت بقطرة الا كانت لهيباً في الأوام الذي لا يرتوي ، وما فزت بفهم جديد الا كانت الخاطرة المستحدثة وقوداً لعذاب فكري وطمعه إلى توسيع حدوده ، وما نعمت بنفحة عطف إلا كانت زكـوة لعاطفة الحنان التي لا تشبع فيَّ ولا تكتفي ! لحظة هنـاء ليس غير ! فعادت نفسي الجبارة أشد شكيمة وامنع جبروتاً

فاذا بها وروما سواء . فيها مثل روما خلود وجمال ومجد وتاريخ وأقواس نصر ومتاحف آثار ونضارة واطلال . فيها نهرأشهب يجري فخماً بين التلول الشجراء . وفيها مثلك أيتها الينابيع الشادية في ظل اشارات الشخوص . وفي قرارتها حجرة بداهة وشعور وإدراك هي عاصمة العالم !

مي

كيفَ أريدُ الرجُلَ أنْ يكون (1)

جمعية الشبان المسيحية في القاهرة من اصلح الاندية التي يختلف اليها الشبان المصريون اذ يجتمع لهم فيها ما يروض اجسامهم ويرقي عقولهم ونفوسهم . فمن مختلف الالعاب الرياضية خارج النادي وداخلهُ الى الرحلات العلمية التاريخية الى المكتبة التي تحوي طائفة من خيرة الكتب والمجلات الى الخطب والمحاضرات العلمية والاجتماعية التي يلقيها في منتداها افاضل الغربيين والشرقيين امور اقل ما يقال فيها انها اركان لتكوين الرجولة الحقة والخلق المتين . وقد دعيت النابغة الآنسة (مي) الى القاء خطبة اجتماعية فيها مساء يوم الجمعة في ٢ يناير سنة ١٩٢٦ فاختارت « كيف اريد الرجل ان يكون » موضوعاً لخطبتها . وقد حضر هذه الخطبة النفيسة جمع غفير من السيدات والادباء والصحافيين والطلبة حتى غصّ المنتدى بالحضور واستغرق القاؤُها نحو ثلثي الساعة . وقوطعت مراراً كثيرة بالتصفيق الحادّ وهذا نصها]

أيها السادة والسيدات

لئن انا أثنيتُ على هذه الجمعية النبيلة التي تسعى للتفاهم والاخاء بين مختلف الشعوب ، وتحسن إلى الشبَّان فتُقدّم لهم الاصدقاء والوسط والمنزل أينما حلوا ــ فاني كذلك اشكرها لدرجها اسماء النساء في سجلّ خطبائها ولأنها مكنتني الليلة من مناجاتكم والاتصال بأفكاركم ومساجلة عواطفكم .

نحن ابناء الجيل الحائرين وراثة الماضي ، ومشاكل الحاضر ، ومهاجمة

(1) عن المقتطف ج (٦٨) عدد فبراير ١٩٢٦ ــ ص : ١٧٧ــ١٨٣ .

المستقبل. نحن نحمل في نفوسنا نفحة العطور، وطهارة اللهيب، وحرارة الشباب وغموم الشيوخ. فما أحرانا بالاجتماع وتبادل الآراء لنسمو إلى ما فوق هذا الافق المفعم بالارتباك والضوضاء إلى حيث نستمد وحياً وقوةً ونشاطاً!

عندما دُعيت إلى محادثتكم في هذا المساء قيل لي ان وقفتي هذه بمثابة التدشين لهذا المنبر من الجانب النسويّ. وان هذه القاعة الجميلة التي تعالت فيها اصوات كثيرين من فضلاء الشرق والغرب لم ينطلق بعد بين جدرانها بلاغٌ من امرأة أوفتاة. كذلك فهمت ان اللجنة تفضل مني اليوم الموضوع الاجتماعي على أيّ موضوعٍ سواهُ. فكأنَّ جميع المؤثرات تعاونت على تشجيعي لأرسل هذه الصيحة التي هي في صيغتها المبهمة دون شرح ولا تعليق إنما هي عنوان لعهد جديد. صيحة عظيمة هي خطبة في ذاتها لانها تقدُّم وإعلان واستحثاث ومصافحة واستفهام وجواب «كيف اريد الرجل ان يكون».

هوذا الرجل في ضلالهِ وغوايتهِ (ليس انتم)... في ملاهيه وملذاته، في خصوماته وجهلهِ. ها هوذا على موائد الميسروالشراب والمخدّرات، وها هوذا في تلك السبل المظلمة المتلوِّية التي يعرفها هو ونجهل نحن كيفية وجودها... هوذا الرجل الذليل الاحمق (ليس انتم) السخيف الجاحد الخائن الذي هوحشرة مضخَّمة تبهظ البشرية وتمتصُّ دماءها. هوذا من ناحية أخرى الرجل، ذو الشمم والاباء والعزَّة والاخلاص، ربُّ الحكمة، وربّ القوّة، ورب الابداع وبطل الجهاد الذي يثير الاعجاب والرجاء ويشرّف بني الانسان!

انظر الى هاتين الصورتين فتتولّد فيَّ اطياف التمنيّ وبينهما اقف انا وانتم وكل باحث واودُّ ان استجلي الصورة امامكم وامام نفسي فأعلم كيف اريد الرجل ان يكون.

لعلّ هذا البيان الموجز يرضي الذين منكم ينعتون موضوعي بالجريء المتطرف ، اولئك المتشائمين من تحرير المرأة المتأففين من إطلاق العنان لفكرها وقلمها . وربما كان بينكم من يقول : لقد رضينا بالموضوعات التهذيبية والاخلاقية والادبية والوطنية . وسكتنا عن تلك الموضوعات المزعومة بالسياسة وماهي الاّ مماحكات ومشاحنات يصيح فيها الجميع ولا يفهم احد شيئاً . وأصغينا متفكّهين الى الكلام عن المساواة الجنسية ، وعن الجلوس في مقاعد النيابة ، وتقلد الوظائف والنطق بالاحكام . وشجعنا ما هو فوق ذلك جميعاً ، اي الموضوعات العمرانية والعلمية والنظرية والفلسفية أفما بقي للمرأة الاّ ان تجيء فتصوّر الرجل وتحدّد شخصيتهُ وتنبئهُ بما عليهِ ان يكون ؟ أليس هنا مجال الاستشهاد بالمثل القائل :

«قلنا لصاحبنا البيت بيتك ، قال طيب اتفضل سعادتك اطلع منهُ » ؟

وجوابي ، ايها السادة ، ان هذه الكلمة كانت خلاصة حياة المرأة سواءٌ اكانت عالمة بأنها تقولها ام كانت جاهلة . انَّ كلَّ امرأة قالت لكلِّ رجل كيف تريد ان يكون . قالت ذلك في حديث فرديّ جليّ اوفي الفاظٍ مبهمة غامضة ، اوفي اعمالٍ وامثالٍ وإغراءٍ وايحاء . قالت لهُ ذلك قريبةً وغريبة ، محبوبة وممقوتة ، محترمةً ومحتقرة ، مخلصة ومخادعة ، راقيةً ومتقهقرة . تمرُّ المرأة بالرجل فتلقي اليهِ بالنظرة التي تمتحن نسيج مواهبهِ وخصائصهِ فتقول لهُ « كن ! » فيكون . هي التي اثارت حرب طرواده وهي التي كانَ لها يدٌ في النهضة بعد القرون الوسطى بالهام دانتي وبترارِكا وتهيئة نفوس الاقوام . هي التي دفعت بلوثير الى اثارة الحرب الدينية . هي التي أفهمت هملت كيف تكون الامومة والزوجية خائنة غادرة فسلحت يدهُ بسيف الانتقام . هي الأُم التي ملأت قلب ميرابو يأساً ، وهي الحبيبة التي رفعتهُ بعدئذٍ وخلقت منهُ رجلاً جديداً . وجميع هؤلاء الرجال الذين يسوسون الشعوبَ ويديرون شؤون العالم ، وجميع اولئك الرجال الذين يقومون بالاعمال الوضيعة ،

والمجرمون في الليمانات والسجون ، والثوّاروالفوضويون والمتآمرون كلهم ، كلهم ، فتّش وراء أعمالهم عن المرأة تجد امرها نافذاً وتأثيرها فعالاً .

بل قد يكفي ان تعرف ايّ رجل لتعلم ابن ايّ امٍّ هو. لستُ اعني امّ الجسد فحسبُ فتلك قد يتفلت من تأثيرها إذا كان ذا شخصية حيوية فعّالة ، ولكن عنيتُ امهُ بالمعنى . إذ في كلّ امرأة تعطف على الرجل شيء من الامومة . ويكفي ان ترى سلوك رجل لتعلم ايّ نوع من النساء خالط وإلى ايّ التأثرات هو استسلم .

كلُّ ذلك كان إلى اليوم خفياً محصوراً في دائرة معينّة . وقد آن الوقت لتقول المرأة كلمتها صريحةً عالية . فالرجل ينتقدنا ويمتدحنا ، يهجونا ويدلّلنا ويبدي رأيهُ في زينتنا وفي ثقافتنا وفي تربيتنا وفي شعرنا المجزوز ، ما فتيء يصوّر لنا شخصيتنا منذ ابتداء العالم . يفعل ذلك شاعراً وناثراً ، مشطراً ومخمساً ، عالماً قانونياً وعالماً اخلاقياً ، رجلاً عادياً وسوبرماناًعليّا . فلماذا لا يكون لنا نحن كذلك رأينا الصريح في اخلاقهِ وأساليبهِ وسلوكهِ وهندامه ؟ لماذا لا نبدي لهُ ملحوظاتنا فيما يتعلّق بكلماته ونظراته ، وبالدبوس الذي يضَجُّ في ربطة عنقهِ ، وبالمنديل الذي تشرئبُّ زواياهُ الحادّة الاربع من الجيب الصغير الانيق أو غير الانيق ؟ إنّ رجل اليوم صنيعة المرأة في الاجيال الماضية ، ورجل الغد سيكون خلاصة جميع هذه الاجيال مصقولاً بتأثير الحاضر. ولئن كان أثر كثيرات من النساء المسكينات الجاهلات مهدّماً لشخصيات الرجل ، غاضّاً من كرامتهم ، فهذا لا ينفي أن الجيل بأسرهِ توّاق إلى صوت المرأة يحدوشادياً ، ويستحثُّ متحمساً ، ويسوق في السبيل الموصلة إلى معارج الارتقاء .

° ° °

ايها السادة والسيدات ،

منذ اربعة وعشرين قرناً طاف فيلسوف يوناني احياء اثينا يبحث عن رجُلٍ ليس على نور الشمس المشرقة ولكن على نور مصباح يحملهُ بيدهِ . ذلك كان ديوجينوس اشهر اهل مذهبِ الذين بلغ احتقارهم للنوع الانساني واللياقة الاجتماعية انهم نعتوا نفوسهم بالكلبيين نسبة الى الكلاب . والمصباح يدلُّ على انَّ في ذهن الفيلسوف صورةً للرجل الامثل لا يستطيع ان يعثرعليها بين صنوف البشر المعروضة امامهُ . واذكروا ان هذا السخر بالطبيعة الانسانية واشهار افلاسها حدث في القرن الرابع قبل المسيح ، اي في العصرالذي ازدهرت فيهِ حضارة اليونان فبلغت اوجها في فنون السياسة والتشريع والحرب والآداب والفنون والفلسفة .

على ان اليونان كانوا أبداً متصعبين في تعريف الرجل الامثل . فانكم تذكرون ان بين الاسماء العظيمة التي كانت ومازالت اقوالها وآراؤها توحي الى العالم ، لم يجودوا بنعت الحكيم الأَعلى سبعة من رجالهم لانجد بينهم اسم سقراط ولا اسم فيثاغورس ، ولكننا نجد صولون المتشرّع وواضع قواعد الدستور الدمقراطي الذي تفرَّع منهُ بعدئذٍ شتى النظم الدمقراطية المعروفة . وعليهِ يكون جميعُ المتحدّثين اليوم بالدمقراطية والدستور ، مدينين لذلك الحكيم القديم ، ووجب عليهم ان يهتفوا الوقت بعد الوقت لارهاف قرائحهم وتشديد عزائمهم : فليحيَ صولون !

امَّا انا فابلغ صورة اعرفها للرجال واقدارهم ومراتبهم اجدها في اللغة العربية . وهي صورة خالدة لانها لا تقتصرعلى الرجل في جيل دون جيل ، بل يتطوَّر معناها مع تطوُّر الجماعات فيتسع او يضيق ويظلُّ دواماً محكماً صادقاً بليغاً .

فقد قالت العرب انَّ الرجال ثلاثة : رجل هوكلُّ الرجل ، ورجل هو

نصف الرجل ، ورجل هو لا رجل . واردفوا هذا التلخيص البديع بهذا البيان البديع : فالرجل الرجل هوالذي يعلم ويعلم انهُ يعلم ، والرجل نصف الرجل هوالذي لا يعلم ويعلم انهُ لا يعلم ، والرجل لا رجل هوالذي لا يعلم ولا يعلم انهُ لا يعلم .

لست أَدري هل هذا ما قالتهُ العرب بالحرف ، ولكني مستعدَّة ان انتحل هذا القول وان أَزيد عليهِ بأَن العلم هنا ليس بمعنى العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها . بل هويجمع في تقديري بين المعرفة المطلوبة في وسَط الرجل وبين مقدرة هذا الرجل على تطبيق معرفتهِ على حاجات وسطهِ واستثمار تلك المعرفة بأَكرم الاساليب وأَلبق المساعي لخيرهِ وخير محيطهِ جميعاً .

ومع التسليم بأَن هذه الصنوف الثلاثة وما يتخللها من مختلف الشخصيات ضرورية لتشكيل النوع الانساني وليكون هناك مجال للتحسن والتقدم والتطوُّر ، فانَّ كل إعجابي وعطفي يتجه نحوالرجل الذي هوكلُّ الرجل ، الذي يعلم ويعلمُ بسيطاً سعيداً انهُ يعلم يحقق علمهُ في عملهِ . الرجل الذي تمتزج فيهِ مواهب العقل ومواهب الشعورومواهب التنفيذ . ليس هوبالرجل الذي يبحث عنهُ ذلك الكليّ الساحر ، ولا هوسوبرمان نيتشه ، ولا هوبالمعصوم من الزلل ، فالكمال مستحيل في الطبيعة البشرية . ولكنهُ الرجل الكامل كمالاً نسبياً في ذاتهِ ، الذي تكفّر محاسنهُ عن مساوئهِ لانك اذا احصيتَ لهُ نقصاً وجدت لهُ فضلاً يقابلهُ . الرجل الذي يكون فعلهُ حلاً للمشاكل لا عقدة فيها ، نوراً في الظلام لا ظلاماً في النور ، تعزية في الالم لا ألماً في التعزية ، نشاطاً في اليأس لا يأساً في النشاط . الرجل الشهم الكريم الجميل جمال الرجولة المهيب . الرجل المرىء الحصيف ، وفي نفسهِ ذلك الحنان الواسع الذي ليس من خصائص الضعفاء كما يزعمون ، بل هومن أنفس مواهب الاقوياء . الرجل الذي يمرُّ في زمانهِ وقومهِ فينتفع بجميع الممكنات المقدَّمة لهُ ، ولكنهُ يترك على ذلك الزمان وذلك القوم طابعهُ المبين !

كلٌّ موهبة من مواهب الرجل الرجل يستغرق بسطها وشرحها ليس محاضرات ومؤلفات ضخمة فحسبُ ، بل حياة ذلك الرجل في مختلف اطوارها . لانهُ لا يفتأُ يصقلها وينميها ، وكلٌّ منها ممتدٌّ وتتسع حتى تمتزج بالمواهب الاخرى . على اني لا بدَّ ان اذكر أنَّ فكرة الرجولة في نفسي كفكرة الانوثة ، بل كفكرة الانسانية ، قائمة على محور أخلاقيّ لا استطيع تعريفهُ . ولكنه ككل سحرٍ وكل عظمةٍ وكل فنٍ ، نهتدي اليهِ بالبداهة إن خانتنا الشروح ، ونعلم انهُ المصدر الذي تستوحيهِ الانسانية المخلصة في سنّ أنظمتها وقوانينها . وانَّ ذلك المحور ، ذلك الأساس الاخلاقي هو كالحقيقة في تطوُّرٍ متتابع . ليس في الجوهر ولكن في الاعراض . فيظلّ متعدّداً ، متنوّعاً ، متلوناً في كلّ عصر وكلّ جيل وفي كلّ امة !

إنَّ فكرة الخير والشر التي هي الفارق الاوَّل في الجوهر الاخلاقي ليست بالفكرة الجلية . إنها مستحيلة على كثيرين وهي على الجميع عسيرة . فكم من مرَّةٍ في حياتنا لا يكون رأينا في الاخلاق خيراً من رأي ذلك الآكل لحوم البشر . وبيان ذلك انَّ احد المبشرين أقام اعواماً بين اولئك القوم يتعهَّدهم بعطفهِ ويحاول توسيع إدراكهم ما استطاع . واذ مضى يوماً لزيارة احدهم وسألهُ عن زوجتهِ ، أجاب الرجل انها غير موجودة . فقال المبشر : مفهوم انها غير موجودة ولكن اين هي إذ لا بدّ لي ان أراها . فقال الزوج الامين : لقد تعشيتها البارحة ــ وكيف تعشيتها ؟ ــ فقال الزوج : كنتُ على شيءٍ من التعب ، لا ميل لي الى الصيد ، فشويتها واكلتها . فقال المبشر مشمئزاً حانقاً : ولكن هذا شيءٌ رديءٌ ! هذا شيءٌ ممقوت ! فأجاب الزوج المنصف : كلا ! لم ألاحظ شيئاً من ذلك . بل بالعكس كان اللحم في غاية اللذَّة !

هذا هو ايها السادة والسيدات ، رأي الرجل الذي هو لا رجل ، وهو ليس بالنادر بين بني الانسان . ومن اسخف مظالم الحياة ان تضع العلاقات

بين مثل هذا العقل وبين الطبائع الحارَّة النقية الجميلة ،بل وان تجعل لهُ عليها الامروحق السيطرة

° ° °

وهنا يعترضنا مشكل كبير ، لا بدَّ انهُ يجول الآن في خواطركم ـ ذلك اننا كثيراً ما نرى ان النجاح وما يحالفهُ من ثروةٍ وجاهٍ وهناءٍ واحترام واكرام ليس دواماً من نصيب أهل الأخلاق والضمائر . فاذا قُدّر النجاح والظفر للكذب والمراوغة والاحتيال وقلب الحقائق بينا قُدّر الفاقة والشقاء وربما السخرية والاحتقار ايضاً ـ للفضل ، فكيف لا ينزعُ الفاضل الى تغيير خطتهِ ؟ وهل حالتهُ هذه تشجع المقتحمين سبل الحياة فيختارون الصدق والاستقامة ام هم يتجهون الى حيث تكون جهودهم مزهرة مثمرة فتكون الواسطة مبرَّرة بالنتيجة ؟

اكرر ان هذا مشكل خطير . لاننا ان نحن احتقرنا اولئك المتطفلين الخاملين الذين لا يأتون عملاً بل يترفَّهون على حساب العاملين فاننا نعترف بحق المجاهد والموهوب على ان يُكافأ بمواهبهِ وجهودهِ . والنجاح مرهف للعزائم العظيمة ، منشط للطبائع الصادقة الحارّة بل اقول اننا لا نتصور الرجل الاَّ في هالة من النجاح والظفر ، لاننا قلنا انهُ يطبق معرفتهُ وخبرتهُ وبراعتهُ على الاحوال المحيطة بهِ فيستثمرها خير استثمار . فحلُّ هذا المشكل إذن هو من بعض مواهب الرجل الرجل . ومع الاعتراف بان للحظٍّ يداً قويةً في تكييف الاحوال ، وانَّ الدهر امواجٌ والحياة اطوار ، فاننا نقرّر للنجاح ابواباً كثيرة وصوراً عديدة . والرجل الرجل هوالبارع القوي الذي يتشدَّد في الاندحار ويخلق من الشجاعة والكرامة والتدبير مظاهر جديدة ، بينا أنصاف الرجال وارباعهم يباهون بنجاحهم الحائل الضئيل . إن النجاح المالي والاجتماعي زينة المسرح واثاث التمثيل ، ولكن النجاح الاخلاقي والادبي ثروة الانسانية الخالدة تطمح اليها بكلّ قواها وراء الظواهر الخلابة

التي يطلبها جميع الافراد وجميع الشعوب . وقوة الرجل الرجل تستمدُّ من قوة تلك الفكرة الابدية العظيمة ولها منها حصن حصين .

ايها السادة والسيدات ،

منذ ثلاثة اعوام وقفت مثل هذا الموقف تقريباً في الجامعة الامريكية ببيروت وذلك في منتدى « وست هول » حيث تشرَّفتُ بان اكون على منبره أول فتاة تكلمت في الاجتماع الذي يضمُّ الاساتذة والطلبة كلَّ اسبوع . يومئذ حدَّثتُ شبابنا هناك عن كولمبس مكتشف أميركا وناديتُ ان يكون كلٌّ منهم كولمبساً في بابه مع مراعاة مواهبه وممكناته . إذ ليس لاحد ان يتخطَّى حدود شخصيته ولكنَّ لكلٍ ان يهتدي اليها ويتبين معالمها .

واليوم القي بمثل ذلك الصوت لاقول ان ذلك الذي يكتشف نفسهُ وسط المجتمع الصاخب ، ويتغلب على آلام اليأس والانفراد ليهدي الى العالم ثمرة معرفته واختياره فذلك هو الرجل الرجل .

ولكن لستم وحدكم ، ايها العاملون ! فكم من مرَّة حيال ثمرة الرقي والانتاج نقول لنفوسنا : هذا العمل يشبه وجهاً ينجلي الآن في نفسي وكان من قبل غامضاً . وهذا الصوت شبيهٌ بصرخة كانت تفطّر وجداني وظلَّت الى اليوم بكماء . وهذه الشجاعة العظيمة إنما هي التحقيق الذي يطلبهُ قلق شبيبتي المعذَّبة الحائرة !

اننا اليوم في حاجة إلى الشخصيات الكبيرة لتنهض بنا وتلقي علينا من حكمتها وأنوارها . لم اصوّر لكم صورة كاملة وذلك عمل لا يفيد اذ للنفوس اقاليم وامزجة وممكنات هي سرٌّ بين الفرد ونفسه . ولكن حسبي ان اكون قد ذكَّرتكم بذلك ليكون فلاحي عظيماً . حسبي ان اكون قد بثثتُ فيكم الرغبة في البحث عن مواهب الرجل الذي هوكل الرجل ، واثرتُ بينكم ، ايها الرجال والشبان ، موضوعاً تراجعونهُ في اجتماعاتكم ومنتدياتكم لأكون

قد قمت بأجمل قسط من دوري النسوي . فعلى المرأة ان توحي وتستحث وعلى الرجل ان يبحث ويحقق . ورائدي في كلّ ذلك رأي الحكيم الصيني القائل : لئن حملتُ فرداً واحداً على البحث في موضوع يرفع نفسهُ ، ويرهف اخلاقهُ ويتعدَّى فيهِ حدود شخصيته المألوفة ، فذلك خيرلي الف مرَّة من ان اخضع ملايين الشخصيات لرأي واحدٍ ومذهب فرد . لان اخضاع الالوف عبودية . اما كسرقيود الفرديَّة فثروة وعظمة وحريّة !

ميّ

الغرائز السيكولوجية الثلاث[1]

المقتطف : ج (٦٨) ـ عدد ابريل ١٩٢٦ .

ايها السادة والسيدات ،

اقف لاوَّل مرةٍ على هذا المنبر متسائلةً اين أنا ، فاذا بالاجوبة تتواردُ في خاطري . أنا في نادٍ شرقيّ سوريّ جمع نخبةً من أبناء قومي . أنا في نادٍ يُحيي السهرات العائلية والاجتماعات المأنوسة ، وينظم الرحلات التاريخية والزيارات المشوّقة والاسفار التي تروض العقل والجسد جميعاً . أنا في نادٍ ان هو اهتم بحفلات السمر والطرب والانشراح لانها من خصائص الشباب ومن اسباب الهناء ، فهو كذلك لا يغفلُ أنبل وجوهِ الحياة فيعقدُ في قاعتهِ هذه الوقت بعد الوقت اجتماعات جليلة غرضها البحث والمذاكرة في سبيلِ النهوض الفكريّ والاجتماعيّ .

أقف على هذا المنبر وانظر اليكم .فأرى في مقدَّمتكم آباءنا الروحيين، وحضورهم هنا دليل على ائتلاف الانس والفضل اللذين هما في اتمّ وجوههما حليفان لا ينفصلان . وارى بينكم وجوهاً تذكّرني باني منذ شهور قلائل سرتُ في قافلة جمعت كثيرين من حضراتكم نساءً ورجالاً . فجلسنا معاً الى مائدة واحدة ، وتقاسمنا بفعل اهتزاز الامواج الافراح والاتراح على ظهر الباخرة « جيانيكولو » التي كان الاب ابو حديد نقطة التشريفات المركزية فيها وكان مونسينور بيرو شاعرها الغرّيد وبلبلها الصدّاح . واشتركنا في غفرانات

---

(١) خطبة للنابغة الآنسة ميّ زيادة القيت في النادي الكاثوليكي للشبيبة السورية مساء الخميس ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٦ .

العام المقدَّس ومشاهدة آثار روما وكاتدرائياتها ومتاحفها الخالدة . تذكارات هنيئة بريئة تزيد عذوبة ونفاسة كلما طوى عليها الدهر يوماً من نسيج ردائه . فأنَّى وجَّهتُ نظري وفكري في موقفي هذا تلقَّاني ما يقول لي بأني هنا لستُ بالغريبة. واذ أهمُّ باسداء الشكر إلى رئيس هذا النادي وأعضائه الكرام على دعوتهم اجد كلمات الشكر وقد انقلبت بين شفتيَّ تحيَّةً حارَّة ممَّن تلقى نفسها في دارٍ هي دارها ، وبين قوم هم اهلوها .

يخيَّل ، ايها السادة والسيدات ، ان اندية القاهرة أجمعت في هذه الآونة على وجوب تدشين منابرها من الجانب النسوي . كانما هذا الجيل المتيقظ أصبح ، في لهوه وقلقه ، معطاشاً إلى أحاديث غير هذه التي حيكت كالاسطوانات منذ أجيالٍ ودهورٍ . كأنما هو أصبح توّاقاً إلى صوتٍ جديدٍ ينادي من على الاندية ومنابر الطروس مشيراً الى نقطةٍ من الحياة منسيَّة . فما وقفتُ على منبر في هذه الايام الأ وشعرتُ بالتفاف ارواح الجمهور حول روحي تمدُّني بالقوَّة والشجاعة ، وتوحي اليَّ الكلمة المجنَّحة المطلوبة . فترتفع نفسي بفعل هذا الوحي الى افقٍ عالٍ حيث تتعرَّف بذاتها قبل ان ترسل الوحي الفاظاً الى مسامع الحاضرين .

ومع تقديري لهمتكم وعطفكم ، ايها الرجال ، فان اهتمامي بعطف النساء عظيم . أنتم اوقفتموني هنا . ولكن نظرةً الى النساء تروا ان كلاً منهنَّ ترقبني لترى هل انا أحسنُ القول كما كانت هي تحسنهُ مكاني ؟ وهل أنا افوز في التعبير عن آرائهنَّ وافكارهنَّ خلال موضوعي ليجوز لي ان امثلهنَّ الليلة امامكم ؟

فباسمكنَّ يا سيداتي اقف هنا مدشنةً هذا المنبر للآتي سيرقينهُ من بنات هذا الجيل وممهدةً السبيل لبنات الاجيال التالية ان صحَّ ان اوَّل خطوة هي اعسر خطوة. واعلن اني على اهبةٍ لكسر زجاجة الشمبانيا ليستكمل التدشين جميع شروطهِ ـ على طريقة سادتنا الرجال ـ فلا يقبل بعدئذٍ طعناً ولا نقضاً

امّا زجاجة الشمبانيا فهي هنا رمزية . اي انها الخطاب الذي يظهرانهُ سيجمع بين ما فرّقتهُ الطبيعة. فمن المعلوم ان الذي يكسر زجاجة الشمبانيا يتغافل عن فتحها ، وان الذي يفتحها لا يفكرُ في كسرها . امّا انا فسأفتحها اولاً وبعدئذ اكسرها ، فاكون محققةً مبدأ التناقض والجمع بين الضدين الذي يحبُّ الرجال ان ينسبوهُ الى النساء .

وفتح الزجاجة هو عبارة عن شرح عنوان الخطاب . لأنَّ حضرة السكرتيرالهمام اتحفني بمناقشة تليفونية ترمي الى تغيير العنوان . « فالغرائز» وصلت اليه الغرائب ، والسيكولوجية اقترح ان تكون بسيكولوجية ، أمّا كلمة الثلاث فسكت عنها منةً وكرماً . فالغرائز جمع غريزة ، يقابلها بالفرنسية كلمة « Instinct » من اللاتينية « Instinctus » سامحوني على هذه الكلمة الآتية رأساً من القاموس ـ ومعناها ما غرزت عليه طبيعة الانسان ممّا قد تتكيَّف مظاهرهُ وتتنوَّع وتتطوَّر ولكنهُ في صميمه اصلٌ راسخ لا يتلاشى. اما الثلاث فجمع ١ و ٢ و٣ من الغرائزالاساسية التي أريد ان ألمع اليها . اما السيكولوجية فهي طبعاً مشتقة من كلمة Psychologie بالعربية علم النفس وبالانجليزية Psychology فاستعملت لفظها في العربية على الطريقة الانجليزية لاني لوجعلتها « بسيكولوجية » لانبرى لي استاذنا زكي باشا بحق وألقى عليَّ درساً بأن الساكنين بالعربية لا يتجاوران . وان لامني سعادتهُ ولمتموني حضراتكم لاستعمال السيكولوجية بدلاً من « النفسية » أجبتُ ان السيكولوجيا في أوروبا ، بعد ان كانت فرعاً من الفلسفة النظرية وما وراء الطبيعة ، أصبحت منذ نصف قرن تقريباً ، لاسيما في الاعوام الاخيرة ، علماً مفصلاً منظّما قائماً بذاته ترجع اليهِ جميع العلوم الاجتماعية والجنائية والتاريخية والعمرانية . فدرَس جوستاف لوبون سيكولوجيات الشعوب والجماعات والمهن ، ودرس علماء الاجتماع من الفرنسيين والانجليز والالمان والنمسويين والروس والطليان سيكولوجيات الامم والمراتب ، ودرس

الاطباءُ الحاذقون سيكولوجية المرضى والامراض ، ودرس رجال الشرع والقضاء سيكولوجيات الجرائم والمجرمين ، حتى التاجر عمد الى سيكولوجية زبائنه يعالجها بالاعلان والترغيب ويسيطر عليها من اقرب جهاتها منالاً . وما ذلك إلَّا لادراك هؤلاءِ ان العلاقة متينة بين الجسد وبين ما نسميهِ النفس ، ذلك الجوهر الغامض الكامن في الجسد والذي هو مصدر الاحساس فيهِ والحياة. كذلك لاحظ جميع هؤلاء ان الجماعات الخاضعة لاحوال واحدة ، المواجهة في الحياة تجاريب متماثلة ، تتكيف شيئاً فشيئاً في صورةٍ واحدة وتتربّى فيها ملكات واحدة كوَّنت مع الوقت « سيكولوجية » تلك الجماعة وأبرزت طابعها الخاص . ومن هنا عرفنا نفسية الجاني ، ونفسية العالم ، ونفسية الطبيب ونفسية المحامي ، إلى آخرهِ . ومن ثم اطلعنا على ما اكتشفهُ علماءُ الاجتماع ورسموهُ من سيكولوجيات الشعوب وما تشترك فيهِ فيما بينها اوتتفرَّدُ بهِ من الغرائز . ومن الغرائز المشتركة بين الجميع ، هذه الغرائز الثلاث التي هي موضوعنا وقد وصلنا اليهِ اخيراً من اطول السبل بعد ان ادَّيتُ شبه امتحان أرجو ان اكون قد نجحتُ فيهِ ، وهوفتح زجاجة الشمبانيا التي جاءَ وقتُ كسرها.

* * *

أيها السادة والسيدات

الغرائز الثلاث التي يشترك فيها الجميع مع بعض الاختلاف المحتوم بين الجماعة والافراد وفقاً لمزاجِ كلٍّ منها ، هي اوَّلاً غريزة « الأَنا » اوالفردية ، والغريزة الوجدانية ، والغريزة الاجتماعية . وهذه الغرائز الثلاث هي محور الوجود البشري والاجتماعي وهي في تماسكها وتسلسها السبيل المنطقيّ الوحيد للنموّ والتطوُّر والحياة .

عندما نقول « انا » ندركُ إجمالاً ما تعنيه هذه الكلمة من تعريف الشخصية الواحدة وتعيين حقوقها الشرعية على الوسائل الضمينة بالوجود والصحة والهناء والحرية . وهذه الوسائل هي في بادىء الامر من نوع الحاجة ،

ايّ انها عند الطفل ، وعند الجماعات غير المتحضرة ، وعند الافراد العاديين ، حسيَّة كثيفة تكاد تقصرعلى مواد الغذاء والكساء والمسكن والوقاية والدفاع عن الروح ،وحب الانتقام والرغبة في السيطرة الفظَّة الخشنة دون دقةٍ ولا تنوُّع ولا صقلٍ .

ثم تتولَّد في الفرديّة صفات ونقائص وميول ورغبات وفروق بين المعاني والاشياء والاعمال والمدركات فيتوغَّل الفرد في عالم الفهم والشعور، ويرقى صعوداً الى حيث يجابهُ معاني الحرّية والعدل ، ويتمتع بالعبقرية فيخضع قُوى الطبيعة ويسيطر على العناصر ، وتتناوبهُ الانفعالات والمسرات والآلام والتجاريب فتميتُ كلَّ يوم منهُ قديماً وتخلق فيه جديداً . ولسنا محتاجين الى من يعلّمنا حب انفسنا فذلك اعرق شعورٍ فينا وهوشرعيّ عادل مقدَّس . اقول انهُ مقدَّس ولا استدرك ، اذ ايُّ شيءٍ احقُّ بالاعزاز والتقديس من هذه الحياة التي تلقيناها من جود الباري ؟ وايُّ عدلٍ اعدل من الاحتفاظ بها وصيانتها وانمائها واحترامها وحبها وإسعادها ؟

وهذه الفرديّة الصحيحة الحرَّة انما هي نسيج المجتمع ولا يكون المجتمع قوياً عظيماً الاَّ عندما تكون فرديَّاتهُ قوية عظيمة ، مالئةً كلّ مكانها الطبيعيّ . قلتُ كلَّ مكانها ، فحسبُ ! وربما علَّق كثيرون منكم على قولي بأن ما يشكو منهُ المجتمع الآن ليس تضاؤُل الشخصية وانكماش الفردية بل نقيض ذلك ، اذ كلُّ فردٍ لا يرضى ان يكون اقلّ من امة ، وكلّ امةٍ لا ترضى ان تكون اقلّ من الانسانية . وانا اجيب ان هذه هي الدمغة الدالة على ضعف الفردية . والاَّ فليجبني السادة الاطباءُ : عندما يتضخَّم القلب ــ او ايُّ عضوٍ من الاعضاء الاخرى ــ ويطغي على الاعضاء المجاورة فيحتلُّ مكانها ، اهذا من الصحة ام من المرض ؟ ان معارفي الطبية قليلة ولكني اعلم ان التورُّم علامة المرض وتضاؤُل الحيوية . وتضخم الفرديَّات هو هذا مانمقتهُ ونسميه غروراً وحمقاً وطغياناً وافتئاتاً . هي وضع النفس في مكان ليس لها ، وانتحال المرء ما ليس

فيهِ ، وادعاء ما لم يخلقْ لاجلهِ . هي تجاوز حدود الفردية واغتصاب حقوق الآخرين التي يجب ان تكون حدوداً لحقوقنا والقوة التي يجب ان تتهيّب حيالها قوّتنا . وعندما نذكرُ التضحية والتفادي انما نعني في الغالب هذا الغرور ، هذا التضخُّم الذي لا بدَّ من بعضهِ عند كلّ منّا . اما التنازل عن الحق الطبيعيّ الصميم فلا يكون الاَّ طارئاً استثنائياً . اما التنازل عنهُ بتتابع واطّراد فذلك مستحيل لان الفرد انما بذلك يجحدُ عطايا الباري فينكر نفسهُ ، وينكر علّة وجودهِ ، ويسرف في تبذير قوته الحيوية فما هو الاَّ المنتحر . ولو انكر كلٌّ نفسهُ في سبيل الآخرين لكان شأن الجماعات شأن من يبني البيت ابتداءً من السقف ويجعل العرض يقتل الجوهر . التطوُّر في الطبيعة يبدأ من ادنى الكائنات الى اعلاها . والتطوُّر في الانسانية يبدأ بالفرد ، فالاسرة ، فالجماعة ، فالمهنة فالامة ، فالجنس ، واخيراً الانسانية . وارقى ما ترمي اليهِ دساتير الامم وقوانينها هو الحرص على راحة الافراد واستقلالهم لانهُ السبيل الوحيد لسلامة المجتمع وتقدُّمهِ وهنائهِ .

وحسبنا لاعلاء شأن الفردية ان نذكر تلك الشخصيات العظيمة التي ساقت العمران دهراً بعد دهر الى رقيهِ العلمي والاجتماعي والفكريّ والروحي . الغريزة الفردية اوجدت المكتشف والمخترع والمصلح والعبقريّ والقديس والرسول ، وكلا من هؤُلاء الذين ينيلوننا اجنحة ننهض بها من خمول الحياة المألوفة والعادة اليومية ، فنمضي نحو غايات المستقبل ورحبات الرجاء . بل حسبنا ان نذكر السيد المسيح الذي تجرَّد من كلّ رابطةٍ بشرية ليظلّ فردية نورانية تسير في طريقها الى المجد ، الى الصليب ، الى الموت . وليس من ظرف تثبتُ فيهِ اهمية الفردية المطلقة كالموت . ففي الموت يترك الفرد الجميعَ والجميع يتركونهُ . وكما يموت المرءُ وحدهُ فكذلك يحيا وحدهُ صميم حياتهِ في الآلام والمسرات في النعمة كما في النقمة !

ومع نموِّ الغريزة تنمو غريزة اخرى تلازمها ، هي الغريزة الوجدانية

العجيبة التي ترجع اليها ـ خصوصاً ـ اسباب الشقاء والهناء. الغريزة التي تكيف الطبائع وتعجن الشخصيات حتى انك لا تستطيع ان تتصوَّر المجد والجمال والعظمة والسعادة الاَّ بها ومعها. بل لا تستطيع ان تفرق بينها وبين النبوغ واعظم مواهب الانسان. فما تخيَّلت التفوق في امرىءٍ الا وتوسمت لهُ شعوراً اقوى منهُ عند الآخرين ومن نسيج اثمن وانفس من نسيج عواطفهم. «الا المس قلبك في صدرك»، يقول الفرد ده موسه في قصيدةٍ من اجمل قصائدهِ ـ «فهناك محراب العبقرية !».

ما هوسرُّ العواطف يا ترى وما هي غايتها ؟ مثلاً: لماذا يتعلَّق الفرد بأمهِ فيراها فريدة بين الناس اجمعين ؟ لماذا تظلُّ شخصيتها مقدّسةً في نظرهِ، ايًّا كانت منها الشوائب والعيوب، ويظلّ ذكرها، حتى بعد مماتها، يشجِّعهُ ويعزّيهُ ويحبب اليهِ الحياة ويعلِّمهُ الرأفة بالناس والإغضاء عن مساوئهم ؟

ألأنها حملتهُ في جسدها كما يقولون وغذَّتهُ بدمها قبل ان تغذيهُ من لبنها ؟ كلاَّ ! ليس للمرأة من فضلٍ في ذلك ولا هي فيهِ مخَّيرة اومتفرّدة. بل تشاركها في ذلك حشرات الارض، ومنها من تضحي بحياتها في سبيل ذريتها وليس من يشكرها على ما تفعل.

ألأنها أرضعتهُ وسهرت على راحتهِ ومرَّضتهُ وهوضعيف قاصر؟ إن من المراضع والمربيات من يقمن بهذا مأجورات وهنَّ أتقن لعملهن من كثيرمن الامهات.

أَلأَنها تهيئُ لهُ وسائل العيشة وأسباب الراحة ؟ إنَّ صاحب أيَّ فندق يقوم بذلك نحو أيِّ غريب مقابل دريهمات معدودة متفق عليها.

إذن تحبُّ الأمّ لأنها تعمل وتقتصد وتجاهد وتدّخر لتنيل ولدها هذا المال الذي يزيل من سبيله جميع الصعاب ويفتح امامهُ جميع الابواب ؟ ولكن قد ينالُ المرءُ احياناً ألوفاً من الجنيهات عن طريق أوراق اليانصيب فلا

يتعلَّق بمدير المصرف وموظفيه، وقد يظفر بالمال وراثةً من قريب مجهول ممقوت فيزيد مقتهُ لهُ بالاستيلاء على ثروته. فضلاً عن ان الابوين غير مخَّيرين في تنشئة ذريتهما ، بل هما مرغمان على القيام بنفقتها على قدرطاقتهما بحكم الحياة وحكم الاحوال وحكم القانون .

والابن البار يحبُّ امهُ الصالحة وهي عاجزة مريضة فقيرة منبوذة من المجتمع فيسعى جهدهُ ليقدم لها ثمرة عملهِ وينير حياتها بابتسامة التعلل والرجاء.

اذن ما هو سبب التعلُّق الذي يدهشنا ؟ سببهُ أيها السادة والسيدات ، ان الأُمّ الصالحة هي الرمز الأَعلى والاصدق والابقى للحبّ ، وما قيمة اعمالها ومساعيها الاَّ بما تفيضهُ عليها من تلك الروح المحَّبة المحيية . أَلا فلتزلزل الارض زلزالها ، ولتتفجر البراكين ، وليفتك الجوع والوباء ، ولتنقضَّ الصواعق ، وليكشّر المجتمع عن انيابهِ فيحكم على الجاني بميتة العار! ان الولد ليعلم دواماً وسط النوائب واليأس ان هناك قلباً يحبُّهُ ويشعر معهُ ويلتمس لهُ الأَعذار ، ويُظَلّل عارهُ وأَلمهُ واندحارهُ بجناح العطف والمحبَّة والغفران ، وذلك هو قلب امّه . من اجل ذلك فقط نحبُّ الأُمَّ ونقدّسها ونجعلها مبدأ الحبِ على الارض وفي السماء !

ولذلك نشفق على اليتيم الذي ليس لهُ مثل هذا الكنز الذي لا يثمن . واوجع من اليتم عن طريق الموت اليتم الذي تحكم بهِ الحياة . أي عندما تكون الأُمُّ والدةً ليس الاَّ ، لا تشعر بعواطف الحنان ، ولا تدرك ما هو مجد الامومة ! يقولون « الدنيا امّ » وفي ذلك عين الصواب . فان الذي علَّمتهُ امهُ بعطفها وحصافتها الثقة يكون في الحياة عريقاً اصيلاً . وأَمَّا اليتيم لنقص الامومة عند والدتهِ فيرى الدنيا حَيَّةً رقطاء تتقلب حواليهِ لتغدرهُ وترديهُ !

ومن حبّ الامّ تتطوَّر العواطف فتشمل الاب والاخوة والاخوات والاقارب والمعارف ، حتى اذا شبّ الفرد واتضحت ميولهُ لم يرضَ بالذين يسايرونهُ بحكم الرابطة الدموية والقرابة ، بل اختار اصدقاءهُ وعشراءهُ

واحبابهُ من الذين يشاطرونهُ ذوقهُ وميولهُ وافكارهُ ، او من الذين يتوسمّ لديهم ما يرفعهُ ويصقلهُ ويجعل عندهُ للحياة قيمة غير قيمتها المألوفة . ومن ذا الذي يستطيع ان يعيش بلا حبٍ وحنان ؟ وايُّ شخصية تعظم وتعلو ان لم يكن لها عين الحبّ ترقبها ، وبسمة الحبّ تغذيها ، وتلك العناية الرقيقة ، وذلك الوحي الفيّاض الذي لا يصدر الاّ عن القلب الدافق بالحبّ والحنان ؟

ومن الغريب ان ما نسمّيه اخلاقاً طيبة وشيماً كريمة ، وحكمة واستقامةً وصدقاً ووفاءً وعزّةً وإباءً وذوقاً وفصاحة ، كلّ ذلك ليس بناتج عن العقل والذكاء ، بل كلّ اولئك اشعة شمس افقها القلب الكبير الحساس .

وهنا كذلك الصحة يهدّدها المرض لان كلمة الحبّ في بعض دوائر المجتمع لا تعني في الغالب الاّ العواطف الشاذّة المعربدة والفوضى في السلوك التي لا يعرف بعض الناس غيرها ولا يتصوّرون ان النورغير الاوحال . فيكون اسم الحبّ والعاطفة في شرعهم مرادفاً لمعنى التقهقر الاخلاقي . ولكنّ اوّل شرطٍ عندي لتقدُّم الشخصية وارتفاع النفس هوسمُوُّ معنى الحبّ في تلك النفس وتقديس جلال العاطفة !

وتتشعّع القلوب بالحب وتنمو الشخصيات فتحتاج الى الخروج من ذواتها كالبذرة تشقّ نفسها وتشقُّ الارض لتبرز حياة على العالمين . عندئذ تبدوالغريزة الثالثة ، الغريزة الاجتماعية التي تبتدىء بعد الغريزة الثانية قليلاً . وتظلُّ في نموّ واتساع وانتظام طول الحياة ، باساليب تتوافق والمجتمع الذي تعيش فيهِ وتخضع لانظمتهِ .

تذكرون تلك الكلمة القديمة التي قالها ارسطو ليعرّف ابناء عصرهِ ووطنهِ ، قال الانسان حيوان سياسي . ومرّت القرون فاذا بفنلون يُعرّف اهل فرنسا في عصر لويس الرابع عشرفقال : الانسان حيوان اجتماعي . وكلاهما صادق في تعريفهِ لانّ الانسان حيوانٌ سياسيٌّ واجتماعيٌّ في آنٍ واحد .

من ذا يستطيع ان يعيش بلا اصدقاء ومعارف وايُّ الاعمال يمكن ان

تقوم وتنجح بدون اشتراك في المصالح وتبادل في الاخذ والعطاء ؟ ان كلَّ بأس السجين في وحدته ، والسجن الانفراديّ الذي استبدلت به ايطاليا الحكم بالاعدام على كبار المجرمين وسفاكي الدماء ، يفوق جميع صنوف الموت قساوةً وعذاباً . ايها الغرباء ! كم من مرةٍ انالتني اصواتكم التعزية ، وكم من مرة استقيت الشجاعة وحبَّ الحياة من ابتساماتكم ونبرات اصواتكم ! وكم من مرَّةٍ باركتكم لذلك وانتم لا تعلمون !

ان اول دوائر المجتمع للطفل هي عائلتهُ وعائلة امهِ وابيهِ ، فالمدرسة ، فاهل مهنتهِ ، فأهل مرتبتهِ وذوي العلاقات بمصالحهِ الاجتماعية ، والمالية والوطنية والقومية ، الى آخر ما هنالك . فهذا المجتمع الذي ينشر لنا منذ نعومة اظفارنا جمالهُ ودمامتهُ ، ويقيم في سبيلنا العراقيل كما يمهد لنا السبيل ، ويقسرنا على المثابرة والعمل والجهاد وحفظ النظام ، وينيلنا وسائل التعزية واللهو والسمر والانشراح ، هذا المجتمع هو كالمادة ، كالهيولى ، في الظاهر اصل كل شيء واليهِ مرجع كل شيء . لا تعزية ولا حياة لمن يعيش وحدهُ . ان الغريزة الفردية تقوّي المرء وتسلحهُ ولكن الغريزة الاجتماعية تصقلهُ وتنعّم زواياهُ الحادَّة . والذي يستطيع ان يرضي ويجذب الناس اليهِ ، فذاك بلا ريب سعيد وموهوب . بين هؤلاء الغرباء لكلّ منّا اخ خير من كل اخ ، وصديق وحبيب يبادل وسائل الحياة ومنافع الوجود . ولكن لا ننسين ان المرتبة الاجتماعية لا تكفي لتبرير المخالطة وتوليد المحبَّة والميل ، وكلما ارتقى المرء بأفكارهِ وعواطفهِ زاد تصعباً في اختيار اصدقائهِ وخلصائهِ . لذلك قالوا ان اصدقاء المرء أدلُّ الدلائل على اخلاقهِ وميولهِ ، حتى اننا لنجد في كلّ لغةٍ من لغات العالم مثلاً يقابل هذا المثل العربيّ الجميل : « إنَّ الطيور على اشكالها تقع » .

وناديكم هذا ، يا اهل النادي ، من تلك الدوائر الاجتماعية الصالحة المفيدة التي هي كالحياة نفسها جامعةٌ بين الفضل واللطف ، بينَ الجد والسمر . واسمحوا لي في الختام ان أتمنى ان ارى على مقربةٍ منهُ نادياً آخر مثلهُ للسيدات

فتتمُّ من حيث الاندية المساواة للرجال والنساء .

° ° °

أيها السادة والسيدات

ترون ان الموضوع كاد ينتهي ، وانهُ كان عليَّ ان اغادر هذا المنبر شاكرة لكم دلائل عطفكم وانتباهكم وحسن إصغائكم . ولكن حضرة مرشد هذا النادي الاب الجليل ثيوفانوس شار ، قال لي عندما شرفنا بزيارتهِ لنتذاكر في شأن هذه المحاضرة والموضوع الذي يحبّ حضرتهُ ان اكلمكم فيه ، وبعد الثناء عليكم جميعاً والشهادة بأنكم راقون ناهضون ، قال لي : أيًا كان الموضوع الذي تتخذينهُ ارجو ان تفتحي منهُ ساقيةً صغيرةً فتقولي . . . فتقولي كذا وكذا ! أريد ان أُعرب عن احترامي وطاعتي للاب الجليل ، ولكني لا أُريد ان اغضبكم . فهل توافقون حضراتكم على ساقية أبينا ؟ اخطركم بأن الموضوع موضوع انتقاد ، فهل تقبلونهُ سلفاً ؟ وهكذا بعد ان فتحنا زجاجة الشمبانيا في العنوان ، وكسرنا الزجاجة في المحاضرة عن الغرائز الثلاث ، ها نحن نفتح ساقية أبينا شار .

لقد شاءت الطبيعة ان يكون لكل فصيلة من الكائنات ، وكل جماعة من الناس طابع خاص لا يقيّد حريتها بل بالعكس يوسعها ويطلقها في أرحب حدودها الممكنة على ان تستبقي لها شبه وجهٍ وشبه هيئة . ففي الولايات المتحدة مثلاً ، عشرة ملايين من الاصل الالماني اعتنقوا نهائياً الجنسية الامريكيّة واندمجوا الى الابد في الامة الامريكية بحكم ظروفهم ومصالحهم ، وهم رغماً عن ذلك ما زالوا يتعلّمون اللغة الالمانية مع لغة البلاد الامريكية وهم الذين بنفوذهم اخّروا الحكومة الاميركية مدّة ثلاثة اعوام عن خوض الحرب إلى جانب الحلفاء. كذلك اذكروا الالزاس ـ لورين فان الوحدة الفرنسية عند اهلها ظلّت عنيدة متعصبّةً لأصلها ولغتها الفرنسية مدة نصف قرن ، رغم السيطرة الالمانية ورغم ما كانت عليهِ من رخاءٍ ماليّ . بل اذكروا ما تراشق بهِ في الأسبوع الماضي من الخطب

السنيور موسوليني الطلياني والهرّ اشترسمان الالماني بشأن الاقليات ذات الاصل الالماني التي سلختها ايطاليا من النمسا. ايطاليا ـ ككل دولة غالبة ـ تريدُ ان تصبغ تلك الاقليات بصبغتها. وتلك الاقليات، ككلّ جماعة قوية الحيوية ـ تريد ان تحتفظ بقوميتها الاصلية ولغتها ومشاربها وعاداتها.

ان الجماعات الصغيرة التي يسميها القانون السياسي «اقليات» مهما خضعت للتطوُّر العام واقتبلت جميع وسائل الرقي العمرانيّ، فانها تحتفظ بالحنين القديم الى لغتها واصلها، تلتفت الوقت بعد الوقت الى ماضيها السحيق، الى الارض التي احبَّها الآباء والجدود، وجدود الجدود، الى الازياء التي ارتداها السلف القديم، الى الكلمات التي اعربوا بها جيلاً بعد جيل، عن آلامهم وافراحهم وأملهم ويأسهم. وفي ذلك جوهر نسيجها الذي يزيد مع الوقت قوة وجمالاً بانضمام العناصر الجديدة المنخوبة اليه. وتعلمون يا سادتي، اننا ضعفاء جداً من هذا الجانب مع اننا نسكن مصر حاضرة الشرق الادنى اليوم، وعاصمة النزعة الشرقية الصميمة ونعيش على مقربة من اخواننا المصريين المتمسكين بقوميتهم، الذين يعطوننا كل يوم من شرقيتهم العريقة مثالاً جميلاً.

نحن في ذكائنا، من اسرع الشعوب اقتباساً ومن اكثرهم إتقاناً للتقليد. ولكننا مع الاسف من أقلهم حرصاً على ذخيرة الماضي وعلى ما يجب ان نحتفظ به لتكوين شخصيتنا الجديدة. نحن من أقل الشعوب غيرةً على ثروتنا النبيلة ومن أقلهم اهتماماً بلغتنا العربية الجميلة. لنا على ذلك أعذار اعرفها وافهمها، ولكني أجاهر بأنها لا تكفي.

نصغي إلى احاديث جماعاتنا رجالاً ونساءً فاذا بهم يتكلمون لغات الاجانب كأبنائها، ولكنهم يسيئون لفظ العربية ويفاخرون بأنهم يجهلونها. نذكر رجالنا فاذا بهم يدعون ادمون وفرنند وهنري ويجب ان نفتش على

نورالمصباح لنجد من يدعى سليماً وحبيباً ونجيباً وخليلاً . والبنات اسمهن هورتانس وروز وبلانش ونونا ونينا الى آخره ، وليس من تُدعى ليلى ونجلا وسلمى واسمى وميًّا وهند . بيننا المتفرنس والمتنكلز والمتطلين والمتأمرك والمتألمن ، الى غير ذلك ، وليس بيننا المتعرّبِ والمتشرِق .

فهذا هو ما اريد ان أُلفتكم اليهِ لتكون ساقية ابينا ثيوفانس الدلتا التي يصبُّ فيها نهر الخطاب ـ ان جاز هذا التشبيه ـ في بحر الانسانية : كونوا شرقيين قبل كلّ شيء !

تعلَّموا ما شئتم من اللغات ، ولكن عزّزوا لغتكم اولاً ! تعلموا فنون الشعوب وعلومهم واطلعوا على اكتشافاتهم ومعارفهم ولكن اذكروا ما سبق اليهِ قومكم من المعارف والفنون والعلوم ! انشدوا اناشيد الغرب وارسموا رسومهُ ، واعزفوا على آلاتهِ ولكن لا تنسوا الناي والعود وأبا الزلوف والعتابا والميجانا ! استشهدوا بمفكّري الغرب وبشعرائهِ وكتابهِ وحكمائهِ وترنموا بشعر هوغو وموسيه ولكن لا تتجاهلوا مثلاً ديوان خليل مطران .

يوم يقول الغربي أنا ابن الغرب ، قولوا : وانا ابن الشمس ، لغتي اللغة العربية ، وقوميّي القومية الشرقية . وان كان في هذه القومية إبهام وتفكك واضطراب ، فاني افاخر بطرح صوتٍ واحدٍ في سبيل تعزيزها وتوطيدها ، افاخر بأن اكون حلقةً في سبيل حبكها ، افاخر بأن اكون لساناً يردّد الفاظاً من مفرادات لغتي فيوسعها إنعاشاً وحياة .

قولوا : اني جيل جديد وأريد قومية جديدة حرّة نبيلة ، رغم الآلام والمعاكسات والمصاعب !

اقتبسوا ما شئتم من خيرات العمران ولكن اسبكوها جميعاً في قالب الشخصية الشرقية فتكونوا عاملين على إيجادها فتنتسبوا إليها في اقطار الشرق والغرب فتباهوا ولا تخجلوا .

انموا غرائزكم الثلاث غرائزالفردية والوجدان والاجتماع ولكن على ان تتطوَّرجميعاً في وحدةٍ شرقية مهذَّبةٍ كريمةٍ لا تظلّ عالةً على الشعوب تعيش من فضلات ما تقتبسهُ عنها ، بل تجاهد لتقوم بذاتها وتقف على قدميها دون ان تجهل الآخرين ، بل تعطيهم كما تأْخذ منهم وتتعاون وايَّاهم على تكوين جوقةٍ انسانية بديعةٍ في مسرح العمران العظيم !

«مي »

أتعرف الشوق والحنين؟

الهلال : ج (٣٤) عدد أول مارس ١٩٢٦ ـ ص : ٥٦٨ ـ ٥٦٩ .

انقضى من الشتاء أكثره ، وتململت الارض لتستيقظ ،
واتضحت خطوط الافق كأنما هو تلقّى من روح الخليقة هيئة ونظرة واشارة،
وسرت فيه اللواعج فاذا بقبته حافلة بحضور نفس عظيمة تهتز وتنبض
وتشرئب الى ناحية معينة باسطة ذراعيها في لهفة واستعطاف .

* * *

الفأس بيد الفلاح شقت قلب الارض فتحركت فيها رواكد الحياة وفاحت رائحة البذور التي زرعت هنا موسما بعد موسم وانتجت غلة تلو غلة ، وتقلبت فيها كوامن الالم الابكم والكد المحتوم .

وانتشر أريج الازهار على سياج الأسوار وعبق شذا النبات والريحان في الحدائق وذاعت رائحة النيل الذي يجرف الاوحال المحسنة والتراب النفّاح من أعالي السودان .

واشتعل لهيب الشمس فتضوعت رائحة النضج في الغصون .

واختلط عرف النمو الجديد وطفولة الحياة بعرف الجذوع الراسخة وشيخوخة الاصول . وهتف النسيم العابر ينثر عطور الربوع القصية والازهار المجهولة .

كل ما على الارض يحدث عن عاطفة مركبة لا توصف ولا تحد

وجميع العطور والمشاهد والاصوات تولد الشوق والحنين .

* * *

هاك السور يقطع المسافة ويعلن حكمة القيود والحدود .

والافنان تعرش عليه ناسجة من وريقاتها المتلازمة سدولا متحركة في السكون

وبين البساتين المنسقة والرياض الغناء واسراب النخيل تنتصب الصروح والقصور ، وعلى جدرانها العارية ترقص أطياف الظل والنور .

وشريط النيل الازرق منوع الاشكال في توزيعه الري والنعمة ، فهو هنا يطوّق جزيرة ، وهناك يدفق شلالا ، ويجري من بعد نهراً تائقاً الى البحر .

وتتلألأ وراءه الضفة الاخرى بارزة المنازل بين طاقات النضارة ، وتحمل في أقصاها كتلة المدينة العظيمة تعلو فوقها قامات المآذن ، ويخفرها جميعاً حصن صلاح الدين .

وتساندت وراءها الآكام الجرداء في ألوان باهتة من الصخر والرمل والتراب المتجمد .

وامتزجت في الجوكل أصباغ السماء وأذواب الياقوت والفضة والزمرد ، مدرجة في مهاد من النور القتي ، كأنما نحن في الساعة الاولى اذ خرجت البرية مجلوّة من يد الباري .

كلّ ما هنا رؤى متجسدة متبلورة ترى ولا تدرك

أَخَبَرتَ الحنين الذي يحدثه مشهد ما يتحرك ويتغير كما يحدثه ما يبقى على جموده المملوء معنى وتصميماً !

* * *

أَعَرفْتَ الشوق وقد ثار وفار .

واطلق من وجدانك شخصاً مجهولاً منك يطمح في وجع وتفطّر الى البعيد السحيق .

أَعَرفْتَه تنبهه المحسوسات ، وتزكيه المدركات ، وتوءججه الذكريات

أَعَرفْتَه يرعى في كيانك فأنت روح تلوب ، وصوت يلهج ، ويد تلتمس ، وجوانح تضطرم ، وجنان يتسعر ، وضلوع تتفجر ؟

* * *

ان أنت عرفت مرة الشوق والحنين ، وشعرت بالانكماش الاليم يملأ صدرك غماً وكرباً .

وان أنت كنت مرة ضحية الكلاّبة التي تعض على القلب بنابها القاسي ، وفريسة المطارق التي تطرق فيه بلا رحمة فتدغدغه وترضضه دون أن تقوى على تحطيمه وملاشاته .

اذن فاعلم انك في تلك الساعة متمتع باستعداد الخالق القادر ، تضطرم في فوءادك الشرارة التي سرقها الانسان القديم من نادي الارباب الاقدمين

لأن هذا العالم انما هو ابن الصبابة والجوى ،

وما برأ الباري هذه الاكوان إلا عندما شاء عطفه أن يعرف الشوق والحنين .

ميّ

مَاتَ صَرُّوف

كلمة الآنسة « مي » التي تليت في المدفن

المقتطف : ج (٧١) ـ عدد اغسطس ١٩٢٧ ـ ص : ١٨٩ ـ ١٩١ .

مات صروف ، يا آل صروف ! فجعنا وإياكم فيهِ ففقدناهُ من حظيرة بني الانسان. فهل رأيتم خطباً تجمعت فيهِ خسارات اكثر من هذه الخسارات ؟

مات صروف يا زوجة صروف ! فهل في جماله وكماله من قرين احوز لما يليق بك من جمالٍ وكمال ؟

مات صروف ، يا ابناء صروف واخوانهُ واقاربهُ واصدقاءهُ وتلاميذهُ ! فقولوا هل من أَب وأخ وقريب وصديق واستاذ أحق من هذا بالاكبار والاجلال ؟

مات صروف ، يا ابناء الجيل القديم ! فتعالوا وأَشهدوا الجيل الجديد على التفوق فيكم ، واعلنوا باجرإِ بيان وافصح لسان ان في مثل صروف أعلى مثل يحتذى في الكفاءة والجد والتسامح والاستقامة !

مات صروف يا سوريا ! فهل بين احرارك الذين شردهم الظلم والضغط والاضطراب والشقاء من هو اطهر جناناً ، واعف لساناً ، واسمى امتيازاً ، واحصف فكراً ، واصدق نظراً وحكماً ؟

مات فتاك ، يا لبنان ! فتعال بقممك وغاباتك وارزك وهدير انهارك وقف حيال هذا النعش مسائلاً بأصواتك المختلفة « أليس بين افذاذ الامم مكان هذا الذي انجبت » ؟

مات صروف ، يا مصر ! مات هذا الذي حلّ منك في وطن هنيء كريم بعد وطن على المتنورين ضنين . فقولي هل بين الذين رحبت بهم وحبوتهم بنعمتك الحسية والادبية من هو اسخى من عقله وروحه وقلبه منحاً ؟ وهل بين العاملين لليقظة والتقدم من كان اجود واخلص في العلم والنور والتحرير الفكري عطاءً ؟

مات صروف ، أيها العالم العربي ! فهيا بمختلف مللك ونحلك واحزابك وقل هل في وسعك ان تقدم للغرب من هو أكمل تمثيلاً لجملة مواهبك وسجاياك .

مات صروفنا ، أيها الغرب ! مات الذي كان ينشر كنوز قومه وينقل إلى قومهِ خير ما تكتشف مدنية الغرب وتبدع . فكان بذلك من انبل الصلات بين الشرق والغرب ومن احكم الساعين الى محو الفروق الثانوية والتوحيد بين بني الانسان .

مات صروفنا ، يا علماء العالم . انتم الذين تعرفونهُ وانتم الذين تجهلونهُ . اعلموا انهُ اضطجع لينام نومة الابد . نصارحكم نحن الذين ننعيهِ اليكم ، ان رحيله يحدث ثلمة في صفوفكم . انهُ فذٌّ بين افذاذكم في علمهِ واستقامته واخلاصهِ وهمتهِ التي لا تعرف الوهن والكلال . انهُ فذٌّ في الخلق القويم العالي الذي يجب ان يتصف بهِ امثالكم . خلق نذكرهُ اجمالاً فيقرهُ كل من عرف صروفاً . واذا ما عمدنا الى التفصيل رأينا امامنا ثلاثة ارباع القرن تامة كريمة في اعوامها وشهورها واياما وساعاتها جميعاً .

مات صروف ، أيتها الحقيقة ! مات الذي كان من أنزه وادق من يستقرئك ويجري خلفك ويبحث عنك وراء مظاهر الخير والشر ، والاصابة والخطأ ، والفضل والنقص ، والحركة والجمود ، والدمامة والجمال ! فان تيسر أن تقفي لحظة في سيرك الخطير المتتابع فامثلي أمام هذا النعش ، نعش صروف الكبير وقولي قولك الصادق :

« هذا هو ولدي ! وهو من صميم ابنائي » .

° ° °

مات صروف في الشهر الذي ولد فيهِ وقبل عيد ميلادهِ بعشرة ايام . فهو يحمل في نعشهِ سر الولادة وسر الموت ، ومعجزة الوجود والفناء في الصور والأشكال ليتم للجوهر الخلود .

مات البارحة والبدر سادر في الفضاء يلقي على الظلام غلالة الضياء . فكان ذلك رمز الخدمات التي أداها إلى اللغة والعلم والشرق والانسانية . وها هو ينزل لحده والشمس جانحة الى المغيب وهذا دليل على ان الخادم النبيل أدى كل واجبهِ ، ودليل على ان الزارع الجليل نثر لقومهِ جميع الحبوب التي جمعتها الحياة في قبضة يدهِ !

° ° °

لا تبطئوا في ايداع جثمانه اللحد ، أيها المشيعون والمودعون ! فالارض المصرية التي عاش عليها عزيزاً كريماً ستحضنهُ برفق ولين ، لانهُ من اخلق الناس بعطف تربتها السخية ، ومن خير من أخذ منها وأعطاها .

لا تتريثوا في انزال جثمانه اللحد بعد ان عادت روحه الى باريها . . أجل . ان الشرارة المنبثقة من الشعلة الدائمة رجعت الى اصلها . ونثرة النور المتطايرة من الشعاع الخالد غادرت هيكلها الانساني منقلبة الى مصدرها الازلي السرمدي .

— فلا تبطئوا في ارجاع المادة الى مربضها لئلا يتململ الفيلسوف فيلقي عليكم من هذا المنبر درساً في ان النظام الابدي لا بد ان يستهلك حقوقهُ ويتمّ اعماله وغاياتهِ !

ولكن قبل ان تفعلوا زودوهُ بالخيال ، بغصن من الارز وسعف من النخل ، وبشتيت من الاصوات والعطور والذرات والصور والإشكال ،

وبذخيرة من لوعة القلوب ومضض الاحزان ودموع الفراق. اجعلوا من كل ذلك للفيلسوف زاداً يتخذهُ موضوعاً لمتابعة أبحاثه! زودوهُ بصور النجوم، ودقائق الكيمياء، ومشاكل الرياضيات، ودوران الفلك، وتلبد المجرة، وتقلبات الاقدار ليحللها جميعاً ويبسط لنا معانيها في رسالة وحيٍ ينفذها الينا بوسائل لا يعرفها الاّ الموتى المحبون. علنا نصير ابعد فهماً، واوسع ادراكاً، وارحب صدراً، واوعب لمعاني الحياة والموت.

أيها الصديق! ايها الاستاذ! أيها الكاتب والخطيب! ايها العلامة الحكيم! يا رجلاً فاضلاً الفضل كلهُ! أيها العظيم بوداعتك وبساطتك عظمتك بعملك وامتيازك! انت بجمودك وسكوتك تقولُ «وداعاً أيها الاحياء!» ونحن نقول بتفجعنا ودموعنا قولنا باعجابنا وشكرنا «الى اللقاء في حضن الله!».

الجزء الأول من المقتطف
بعد الدكتور صرّوف

المقتطف : ج (٧١) – **عدد نوفمبر ١٩٢٧ . ص ٢٦٠ – ٢٦٢ .**

صدر الجزء السابق من « المقتطف » بعد وفاة الدكتور صرُّوف بنحو ثلاثة اسابيع . صدر مخططاً بالسواد حداداً عليهِ . وأُفردَت صفحات من ذلك الجزء لتلخيص ترجمة حياتهِ وتأبينهِ والتحدُّث عنهُ . على ان بقية الصحائف كانت مستمدة من وجوده ، طافحةً بنفثات قلمهِ ، ناشرةً آثار جدّهِ وإجتهاده .

وهذا الجزء هو الاوَّل بعدهُ ، الاول من مرحلةٍ جديدة ستجيء خالية من نفثات قلمهِ وثمرات بحثهِ وعلمهِ ... كالخيال مرَّت تلك الشخصية الكبيرة العاملة في هدوءٍ ورزانة ، المنعكسة في مرآة هذه الفصول وهذه المجلدات خمسين عاماً متوالية بلا توانٍ ولا انقطاع .

ان صورة الخيال في المرآة صورة قديمة مألوفة . ولكنها كبعض الاستعارات الفريدة التي اهتدى اليها الاقدمون ، كلٌّ من ناحيته ، في اكثر اللغات – بليغة صحيحة لا يستعاض عنها بغيرها لتمثيل الحياة الفردية الزائلة . وكلما جرت على يراعةٍ بشرية أو خطرت في فكر بشريّ برزت كأنها بنت ساعتها وباكورة مبدعها .

ذلك لانَّ من الاسماء والمسميات والاستعارات ماهو بعيد الغور بمعناهُ

وبمدخره يقتضي استفهامهُ واكتناهه كلما ورد لنا ، حتى ولو تكرَّر ذلك التوارد كلَّ يوم مرات وعرفنا تلك الكلمات والتشبيهات منذ أقصى عهد الطفولة.

وفي مقدمة تلك الاوضاع فكرة الموت وما يكنى بها عنهُ . الموت الجمّ الالغاز ، الغزير الاسرار . . . الذي نزعمُ انهُ خيالٌ في مرآة الحياة في حين ان الآجال خيالات في مرآتهِ ...

° ° °

تكاثر التساؤل بعد وفاة الدكتور صروف عن معتقده الدينيّ عموماً ، وبوجه أخص عن رأيهِ في العالم الآخر . ووجَّه بعضهم طائفة من الاسئلة إليَّ ، وهم مرتابون في ان يكون لديهِ رأيٌ من هذا النوع . بل كانوا يميلون الى ان هذا العالم الرياضي النشوئي كان يقصر همهُ تحت ما يقعُ تحت الحسّ ، ولا يذهبُ بيقينهِ الى عالم الغيب ، هذا إن لم يكن من جاحديهِ على الاطلاق.

وجواباً على هذا أقول ان عالمنا العظيم كان يعتقد بوجود عالم آخر وكان شديد التشوُّق إلى ولوجهِ من باب الموت . وقد ابدى هذا التشوق مرات عديدة امام محادثيهِ وأقرانهِ في العلم والادراك ، وبسطهُ في بعض رسائلهِ الخصوصية ، كما ألمع اليهِ بلهجاتٍ مختلفة خلال أبحاثهِ في « المقتطف »

وهاك شيئاً من ذلك في احد خطاباتهِ الخصوصية :

« ولا ادري لماذا لا نقنع انفسنا ان الدار الدنيا مرحلة من مراحل الابدية ، اننا نجهل ماضينا تمام الجهل ولا نعرف مستقبلنا معرفة يقينية . ولكننا نود ان تبقى عقولنا وان ندرك بها ما نعجز عن ادراكه هنا من غوامض هذا الكون . انا اتوق الى ذلك وامني به نفسي كل يوم وكلما وجدت في بحثي مشكلاً يتعذر عليَّ حله .

« مرضت مرة بالتيفوئيد وقطع الرجاء مني ولما علمت ذلك فرج عني وتجردت عن الدنيا بعد ان ودعت زوجتي الوداع الاخير ورتبت امر معيشتها ومعيشة

اولادي . وصرت اتوقع الانتقال ساعة بعد ساعة وانا اتوق اليهِ . ولم يخطر ببالي الا انني سأتمكن من معرفة ما وراء الغيب ومن حل ما اشكل عليَّ في هذه الدنيا . ولو عاش الناس كلهم في هذه الدنيا منتظرين الاخرى لانتفى اكثر ما فيها من الشرور والآلام وانكسرت شوكة الموت » .

هذا رأيه في الموت من اغمض نواحيهِ . اما هذا « المقتطف » الذي كان شغلهُ الشاغل مدة نصف قرن ، فكثيراً ما كان يفكّر في ما سيصيرُ اليهِ بعدهُ كما يتساءل احياناً عن حكم الاجيال التالية فيهِ .

وهذه جملة في هذا الباب وردت في رسالة خصوصية :

« لا ادري ما يكون حكم الاجيال المقبلة على العمل الذي قمت بهِ . أينظرون اليهِ بالعين التي تنظرين اليه بها فيغتفرون زلاته أو لا يرونها ويشيدون بحسناته او يطرحونه في زوايا النسيان . ان عاشت العربية فالراجح عندي انه يقوم اناس منصفون يغتفرون العيوب ويقولون انني فعلت ما ينتظرمني كله أو أكثره .

* *

واجب نشرهذين الرأيين من أدائهِ في الجزء الاول بعده . ومرجوّ ان يتاح لي ان اقدّم بعدئذ صورة حية صادقة ، بلا غلوّ ولا انتقاص من الدكتورصرّوف ولاحاجة في تصويرها الى غيرما خطتهُ يدهُ في ابحاثه ورسائلهِ .

لنقدّر عمل صروف يجب ان ننقلب عائدين الى الوقت الذي انشأ ينشر فيهِ العلوم الرياضية والطبيعية والتاريخية منذ خمسين عاماً ، يوم كانت العلوم في مجموعها بيننا كلاميَّة بيانية لا بحث فيها ولا تحقيق ولا تمحيص . ولنقدر عملهُ يجب ان نذكر انهُ كان يكتب أبداً بانشاء الايجاز والإحكام ، دون التغاضي عن لفظةٍ واحدة الا في تحتمها لاتمام الموضوع أو لجلاء المعنى . وذلك يوم كان الانشاء كله استعارات ومغالاة وإعجاز في البيان والبديع

فكانت هذه البذور الحيَّة النفيسة التي نتلقاها اليوم من يدهِ ومن مجموعة « المقتطف » في عهدهِ. ونحن ننظر الى مستقبلها بعين الثقة والرجاء لانَّ صاحبها هو الذي اختار من يكون أميناً عليها ، عاملاً على استغلالها وإنمائها والتصرف فيها والسير بها في طريق فتحهُ مجدها القديم ، واوسعت فيهِ احكام التطوُّر والحياة المتعاقبة المتجددة.

* * *

هذه كليمات تحتم إرسالها في هذا الجزء من « المقتطف » بعد الدكتور صروف وقد حاولتُ ان أحبِّرها بصفاء ذهن وتغلب على العاطفة ، إذ لا يجدر التحدث عن هذه الشخصية العلمية إلاَّ بهدوءٍ وتبصر.

ولكني في الختام لا يسعني إلاَّ ان اذكر انَّ بين الجزء السالف وهذا الجزء انفتح هناك في مصر القديمة قبرٌ أودعناهُ عزيزاً. ولا يسعني إلاَّ ان اقرر انَّ هذا شهر نوفمبر ، شهر الموتى ، شهر الذكرى للراحلين.

لا يسعني إلاَّ ان اذكر ان بيت الدكتور صرُّوف خلا منهُ ، وان تلك السيدة النابهة ، قرينتهُ المتسربلة بالوقار والكمال ، وان ابناءهُ واخوانهُ واصحابهُ ما أداروا الطرف إلى مكانه الفارغ إلاَّ ليبحثوا عنهُ وهم قانعون في حزنهم – انهُ ليس فيهِ.

لا يسعني إلاَّ ان اذكر انهُ كان الصديق العاقل الوديع الطيب العطوف ، في هذه الحياة التي كثر عندها اسم الصداقة وندر معناها الصميم.

أذكر انهُ لن يأتِ بعد إلينا بالجسد فلم يبق لنا الاَّ محاولة المضيّ اليهِ بالاذكار.

اذكر اننا لن نرى بعد وجههُ الصالح الباسم ، ولن نرغد بعد بوجوده المحسوس ومظاهر عطفهِ فننقلب هؤلاء الناس الضعفاء الذين تخنقهم العبرات . .

« مي »

هيج جبار الوادي(1)

إلى أم الشعب الحزينة الباسلة ، إلى السيدة صفية سعد زغلول ، اقدم هذه الكلمة باحترام .

« ميّ »

في « كلمات » قاسم أمين التي جمعها ونشرها أصحابه بعد وفاته كلمة شائعة بين الكاتبين وهي أنه « في ١١ فبراير ١٩٠٨ يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل هي المرة الثانية التي رأيت فيها قلب مصر يخفق . وكانت المرة الأولى يوم دنشواي » .

هذه الكلمة تلخص فيها تاريخ وجيز حصيف . ولو شئنا اليوم أن ندون كلمة من نوعها دون علو ولا استسلام عصبي للحزن الشامل لقلنا أن سعداً سيطر على قلب مصر ثمانية أعوام متوالية . فكان مولى ذلك القلب يثير فيه ما شاء من انفعال وحماسة ويبعث فيه ما أراد من رضى واستسلام .

ثمانية أعوام هي صفحة تاريخية وهاجة وقصيدة حماسية رائعة ، وعلواء جليلة باقية في عمر أمة كان سعد شاعرها وبطلها ومنشدها وموقّعها فطرب لها المصري وغير المصري على السواء ، وتأثر بها الموالي والمعادي فقال كل قولته وعزز كل فكرته . ضرب سعد على وتر حساس جوهري هو وتر الوطنية والقومية والحرية والاستقلال فتحركت معه عديد الأوتار وتنبهت في الأمة الاستعدادات والمواهب والمطالب .

---

(١) افتتاحية « الأهرام » عدد يوم السبت في ١٩٢٧/٨/٢٧ .

ثمانية أعوام كنا نتصفح خير مثيلاتها في تواريخ الأمم السابقة واللاحقة فنغبط أهلها عليها ونتساءل هل لشرقنا أو لقطر من أقطاره أن يعرفها في أدواره الحديثة ، فإذا بسعد يخلقها في مصر خلقا وإذا بصوته العجيب يشيع في أجوائها فيوجد الروعة رهيباً ، ويبعث الحمية عاصفاً ، ويطبع القلوب على اليقين متصلباً ، ويطلق على الشيوخ والشبان حياة واحدة دافقة من كل صوب في تنوعها . إن عمد ذلك الصوت الأخاذ إلى التريث والترفق تمددت منه اصداء تلتصق بقلوب النساء فتثير فيها مع حب الأوطان ظمأ التحنان وتهتاجها لاستماع كلمات الولع والهيام .

ثمانية أعوام هي اعوام اليقظة . حقاً إن سعدا شاعر اليقظة ، وبطل اليقظة ، وخطيب اليقظة ، وزعيم اليقظة وفي اليقظة جميع عوامل الحياة وآمالها وشعائرها وأسرارها .

أهو الذي حبا مصر بهذا الفيض الحيوي ، أم هي التي أمدته به فقوي بقوتها ونطق بلسانها وسطا بسلطانها ؟

أهو الشاعر يأتي للسامعين بالوحي العجب فيستهويهم أم هو الجمهور ينفث في الشاعر بما يصبو إليه ويتطلبه ليذوق النشوة ويحلّق مع مبدعها ؟ .

لا ريب أن الأمرين مترابطان متفاعلان . فللجمهور ارادة صامتة ، وأماني راكدة ، وحياة تريد أن تنجلي وتتوزع في سبل الخير والنفع والجمال . على أنه في حاجة إلى شخص فرد يدرك مقاصده ويلمس ممكناته فيحسن تكيفها وينشرها أمامه جلية واضحة . ولذلك الفرد بعدئذ أن يظل مستوحياً تلك الآمال ، مستنداً على تلك الارادة التي هي ميدان تصرفه ، وممرح اقتداره . وحذق سعد كل ذلك واعتلى منصة الزعامة فإذا بالفلاح الصغير وقد أصبح معبود الأمة وقائدها ، وإذا بمنزل الرجل المصري الواحد وقد انقلب « بيت الأمة » بأسرها .

وسرعان ما تناول العوامل المحيطة به فاستغلها خير استغلال

وأرسلها إلى قومه مشاعاً ممتزجاً في حياتهم اليومية .فالعلم المصري الذي غرس مصطفى كامل حبه في أبناء جيله صار في عهد سعد شعاراً نابضاً اشركته الأمة في أحزانها وأفراحها ، وكان للعلم المصري دور خطير مثله في هذه الأعوام .

والقومية المصرية التي كان أحمد لطفي السيد (الذي نتمنى له العمر الطويل والهناء الكثير) أول كاتب مصري دعا إليها وقال بتجردها من الصبغة العثمانية على أن تجمع بين العنصرين المصريين المسلم والقبطي ، تلك القومية كانت يد سعد عاملة على توثيقها كما كان صوته خطيبها القدير .

وتحرر المرأة الذي نادى به قاسم أمين فأثار تلك الزوبعة الهوجاء ، حققه سعد في إشارة واحدة ، وأيده لسانه في خطب كثيرة ، كما قدم منه مثالاً مهيناً في شخص المرأة الواحدة التي تعيش في ظله ، في شخص حرمه المصون السيدة صفية زغلول .

° ° °

لم يكن هذا الرجل يوم مصرعه بأعظم منه في أي يوم من أيام هذه الأعوام المتلظية . إن قصيدة « اليقظة المصرية » متماسكة متكافئة في جميع مقاطعها ، كل مقطع وفقاً لطبيعته وأحواله ، فكانت الخاتمة منها خليقة بالمطلع ، ومثله زاخرة بالآمال والأحزان والهتاف والعبرات .

ولقد أحسن مجلس الوزراء ، بل هو قام بالواجب في ما قرره بالأمس لتخليد ذكرى الفقيد تخليداً « حكومياً » (إن صح الوصف) على الوجوه التي ارتآها . فتمثال سعد يجب أن يكون قائماً في ميدان عظيم في كل من القاهرة والاسكندرية ولا بد أن يقوم كذلك في مسقط رأسه . ويجب أن يعالج المرضى في مستشفى سعد ، وأن تسمى المدارس والملاجئ باسمه والبيت الذي ولد فيه « بيت الأمة » يجب أن يكون في عداد الممتلكات العمومية والآثار الغالية ، وان يجمع فيه كل ما تداولته يد سعد في حياته على

على أن تبقى كل أداة في موضعها ، وأن لا يتغير شيء في مكتبه وغرفته عما كان يوم وفاته .

هذا بعض ما يصنعه المحبون للراحل المحبوب اذ على يد سعد ظهر من قلب مصر ما هو أنفس من التقدير والاحترام والإكرام ظهر الحب والتعلق والعبادة . ان مصر « تحب » زعيمها كما قالت « الأهرام » في افتتاحية الأمس ، وسعد هو الرجل المحبوب . ولا يوقظ هذا الحب الحار الطويل العنيد في قلب كبير الا من كان ذا قلب كبير يملك أن يحب حباً طويلاً حاراً عنيداً .

إن سعدا هو فتى مصر المحب المحبوب في حياته وفي مماته .

غدا يتناول أساطين القلم والتاريخ عمل سعد السياسي والدولي بالتمحيص والتحليل بعد أن شغلوا بهذا الموضوع أخذا وردا ثمانية أعوام تترى . أما أنا التي كان لي منها حظ ابناء جيلي ، حظ اليقظة ، أنا التي لم أكتب عن سعد زغلول جملة واحدة في حياته ، أود اليوم أن أذكر له ثلاثة أفضال لا غنى عنها في يقظة شعب يفتح عينيه لنور الحياة ، فقدّر لها أن تتم بهذه السرعة على يد سعد العظيم .

أني كنت من أول المتأثرين بحمية هذه الأعوام . ففيها نشأت ادرك معنى الكلمات الحيوية وأفهم مصاعب الشرق ومصائبه . فيها شعرت باحتياج إلى وطن وتألمت لعاطفة الغربة الوجيعة وإن كنت لا أخشى التكرار فأذكر اليوم لسعد زغلول هذه الأيدي الثلاث فلان في كل منها حرية أعظم من الحرية السياسية وأفعل . ولأن ما في مصر في البلدان العربية الأخرى من ارتباك وسوء تفاهم ومعالجة هذه المشاكل هنا بارادة الزعيم الأعظم جعلتها أقل عسراً في غيره من الأقطار .

الأمر الأول هو الجمع بين عناصر القطر بلا تفريق في العقيدة والطائفة ومزجها في قومية مصرية واحدة . فسعد المسلم المصري الصميم كان ارحب

ادراكاً وأشمل تقديراً لمعنى القومية بمعناها العصري الذي هي صائرة حتماً إلى إنمائه مع الزمن ، وجمع الأمة كتلة واحدة في يقين واحد وأغراض متشابهة للجميع .

الأمر الثاني هو تحريك الطبقات وفتح السبيل لمن كانت السبيل مغلقة في وجوههم وتمهيد الطريق لبروز الشخصيات التي لولاه لظلّت مجهولة في المرتبة التي ولدت فيها . ففعله من هذا الجانب فعل نابليون على ما بينهما من بون شاسع الذي حرك قوى الفرنسيس وقلب نظام المراتب فخلق الشخصيات الجديدة ويسّر الظهور لغير الظاهرين المعروفين .

والأمر الثالث هو تحرير المرأة . فبإسم سعد اجترأت المرأة المصرية على رفع صوتها ، وتحت لوائه سارت مواكب النساء في الشوارع وهتفت بحياة الوطن والحرية والاستقلال . وفي ظل سطوته تلقى الجمهور اسم المرأة وهتافها وتعود أن يستمع لمطالبتها في تهيب واحترام ، ولولا ذلك لكان زارياً واجماً وهل من عامل أقدر على تقدير المرأة من أن الزعيم العائد من المنفى تلك العودة الفخمة المنصورة ـ يستهل خطابه في فندق سميراميس شكراً على احتفاء عظماء قومه به فيقول « سادتي وأرجو أن أبدأ خطابي في محفل قريب بقولي « سيداتي وسادتي » لأن للمرأة المصرية قسطاً من الفخر في جهاد الأمة » فيقابل هذا الكلام بالتصفيق الحاد المتواصل .

وهل من عامل أقدر على السفور من أن يدخل الزعيم سرادق السيدات بعد عودته من المنفى فيأبى البقاء فيه إلا إذا أسفرت السيدات المجتمعات لإستقباله . وسابقت يده لسانه في ما أراد فمد يده ضاحكاً يرفع الحجاب عن وجه أقرب السيدات إليه . فكان ضحك ، وكان تصفيق ، وكان تهليل وأسفرت الحاضرات بعد ذلك التحجب فكان ذلك اليوم عنوان تحرير المرأة . وفهمنا منه قول قاسم أمين في تقديم كتابه « المرأة الجديدة » إلى صديقه سعد زغلول .

« منك وجدت قلباً يحب وعقلاً يفتكر وإرادة تعمل. أنت الذي مثّلت إلي المودة في أكمل أشكالها فأدركت أن الحياة ليست كلها شقاء وأن فيها ساعات حلوة لمن يعرف قيمتها » .

وكانت حرم سعد أولى من تجمع حولها قلب الجمهور فألف تقدير المرأة في هذه الأعوام فخرجت فيه غير مرة خطيبة ، واعلنت عليه البيانات موقعةً باسمها ، وكان يوم سفرها للاجتماع بزوجها المنفي لا يقل حماسة عن أي يوم من أعظم ايام الانتصار لمصر في ايامها المشهودة ، وسفرت في صورتها فرأينا مثالاً من السفور الكريم والجلال الذي لا يلجأ إلى تظاهر أو تنطع أو دعوى .

° ° °

اليوم يوم النفي ، يا زوجة سعد ، اليوم يوم الوحشة . اليوم يوم الإغتراب الطويل . هجع الجبار العذب القاسي ، هجع جبار الوادي . وبقيت أنت قيمّة على اللهيب الذي اذكاه ، وتلقيت أنت من ذكره ذلك المغناطيس الذي كان وسيظل مستولياً على القلوب ، فعالاً في النفوس . كل هذه الأعوام كانت فجراً وسيعقبها نهار وهاج محتوم . فكوني أنت المرأة التي نعهد تضم إلى قدرتها الشخصية قدرة القدير الهاجع . وارفعي في هذه الأمة صوتك لتذكريها أنها سائرة إلى الحياة رغم الخطوب الجسام والخسارات الفوادح .

الشعب يتيم يبكي أباه ، ولا يخفّف الجوى إلا صوت الأم الحنون . فاستبسلي يا أم الشعب الباسلة ، وهمهمي في مصابك بكلمات حلوة رقيقة . كلمة العزاء يجب أن تأتي من المرأة وأنت اليوم تلك المرأة لأنك أنت أنت ، لأنك زوجة الفلاح العظيم والمصري الصميم ، لأنك سيدة بيت الأمة لأنك في قلب مصر الجريح القلب المتفطر الدامي .

ألقي في النفوس بسحر الجبار الهاجع وارسلي على الجماهير روعة

صوته وقولي لأبنائك أن سعدا واحد منهم ليس غير فعليهم أن ينشطوا ليكون كل منهم في الطليعة ! قولي كلمة المؤآساة ، أنت التي تتهافت القلوب لمؤآساتك ، أنت التي فقدت فيه الأب والأخ والزوج والولد جميعاً ! تكلمي من صميم تفجعك لتشحذي الهمم وتشددي عزائم الرجال وتقوي قلوب النساء ! قولي بوجوب العمل وقولي باتحاد العناصر ، وتآلف الأحزاب ! قولي إن الوقت خطير يحتاج إلى الشخصيات القوية والحب والإقدام والجهاد ، وقولي ان الوادي يجب أن ينجب ألف ألف سعد على كر العصور ، وأخيراً قولي هذه الكلمة العظيمة التي ستجيء منك أوقع ما تكون :

« ليس كل مجد الأمم قائماً بعظمائها الأحياء ولا بد لها مع جهاد هؤلاء من قبور عظمائها الهاجعين لتستمد من جوانبها النور والعزم والشجاعة » .

« ميّ »

حياتنا الجديدة
يجب أن تكون مليئة بالثقافة والنشاط

المقتطف : ج (٨١) ـ عدد يناير ١٩٣٢ ص : ١١ ـ ١٢ .
مهداة إلى المجمع المصري للثقافة العلمية بمناسبة انعقاد مؤتمره الثالث .

تتوارد الأسماء عديدة في خاطري عندما أتوق إلى التفكير في مُثُلٍ عُليا للحياة المليئة النبيلة . ولكني اذكر بوجه خاص يعقوب بوهمه (Bœhme) الفيلسوف الألماني الروحاني الذي عاش في القرن السادس عشر . كانت المهنة التي يتعيش منها وضيعة حقيرة ، إلَّا انه مع ذلك عكف على الدراسة والتفكير فحصل منهما على أكبر قسط يفوز به عالم ، وكانت حياته النفسية زاخرة واسعة فياضة بتلك العوامل التي تخلق من الفرد العاديّ شخصاً متفوقاً هو في الواقع من ابهى الأنوار الانسانية .

إن قابلية اصطناع الثقافة والانتفاع بها في تكوين أفرادٍ ممتازين لا تحصر في حرفةٍ ولا في مرتبة .هي ارث انساني عام .نجدها باديةً بين العبيد في شخص ابكتتس العبد الروماني الذي صار بعدئذ من أعظم فلاسفة الرواق ،كما نجدها في زميله الرواقي ، ماركس اوريليوس انطونيوس ، القيصر العظيم سيد روما في القرن الثاني قبل الميلاد ، الذي خاض المعارك ورفع من شأن بلاده وحارب ضد البرابرة المهاجمين امبراطوريته فانتصر . على أن نشوة النصر

وأبهة الملك لم تحل دون ثقافته الفكرية ونموه النفسي . فكان هو أيضاً في طليعة فلاسفة الرواق . و « أفكاره » التي سجلها لبني جيله وللآتين بعده تعدُّ انفس صفحة خطها صاحب عرش وتاج .

قد يكون المرء من أوسع الناس ثروة ونفوذاً ومن ارغدهم عيشاً ومن اوفرهم خلاًّناً وهو مع ذلك يعبر الحياة شبحاً ويقضي شبحاً . أما اذا كان ذا ثقافة نيرة وحياة نفسية واسعة فلكل من كلماته مغزًى ، وفي كلٍّ من أعماله مثل ، ينثر النور حوله في حياته حتى إذا قضى تجمّع نوره لتتسع بهِ وراثة النور بين ظلمات بني الانسان .

ومن أظهر الفروق بين الأجيال الغابرة وجيلنا الحاضر أن الثقافة والعلم حتى الطب كانوا في الماضي محصورين في فئة خاصة من الكبراء والكهان ، لذلك كانوا يحسبونه « سحراً » . ولم يكن ليقتبس العلم من الصغار وبني الشعب غير الذين كانت مواهبهم اظهر من أن تتوارى وأقدر من أن تُغَل . أما اليوم فالعلم ميسور للجميع ، وانتشار الثقافة وسهولة التحصيل من أهم مميزات عصرنا .

وللثقافة العصرية ميزة أخرى لمن يريد اصطناعها واستغلالها . فهي ليست نظرية صرفة تسجن صاحبها في « برج من العاج » ، ولا هي عملية صرفة تهبط بصاحبها إلى دركة العمل الآليّ والإنتاج في غير انتباه . بل هي تتناول النظريات لتوسع بها الفكر وتصقل الملكات وتغني النفس ، ثم تطبق تلك النظريات على الواقع وتحققها في الأعمال اليومية كبيرة وصغيرة فتثبت أن أجمل صيغ الحياة وأجلّها وأنفعها هي التي يمتزجُ فيها نبلُ المثلِ الأعلى وجدوى العمل المحكم .

لا رقي للمجموع إلّا بواسطة رقي الأفراد . ولا رقيّ للأفراد إلّا إذا تجمعت فيهم شتى العناصر الصالحة التي تنشدها الانسانية من رشاد وتفكير وعمل ونشاط وصلاح وإقدام . العمل بدون ثقافة حركة بغير بصيرة ،

والثقافة بدون عمل بصيرة مشلولة . فلا بدّ من امتزاج هذه بذاك لتصبح النفس مليئة بالحبّ ـ ذلك الحبّ الذي يرهف الذكاء ، ويولّد الحماسة ، ويذكي النشيط ويقوي ثقة الفرد بنفسِهِ ويفرض عليهِ العمل الرشيد في سبيل الخير لجماعتِهِ .

كثيراً ما نسمع ونقرأ كلمات المباهاة بالماضي . ولكن علينا أن نذكر إن ليس للأجيال الحاضرة في ذياك الماضي يداً . ولا نفع لذكرى الماضي إلاَّ إذا كانت حافزة لاستئنافِهِ في الحاضر لاعداد المستقبل ، لأن الشعوب لا تعيش على ماضيها ، بل الماضي يحيا في نفسه وإن هو كان لهُ صوت فليفرض على الحاضر أن يكون حقيقاً بِهِ . وقد استيقظت هذه البلاد باكراً منذ فجر التاريخ فخلقت حضارة اقتبس عنها الغرب ما اقتبس فأنماه إلى حدٍّ بعيد . وبالشرارة التي نستردُّها اليوم من الغرب علينا أن نحيي شعلة العبقرية السحيقة لنفهم أوعب معاني الحياة وأجمل وجوه الحياة ولنهتدي إلى أحكم وأصلح ما في الحياة من أسباب ووسائل .

° ° °

هذه خطرات هي في الواقع تمنيات لنا جميعاً في مطلع العام الجديد . وهي كذلك تحية لمجمع الثقافة العلمية بمناسبة انعقاد مؤتمره الثالث . إن أعضاء هذا المجمع الكريم رجال جمعوا في حياتهم بين نبل النظرية وإحكام العمل ، كلٌّ في بابه الخاص وبمواهبه الخاصة . وبمؤتمرهم السنوي إنما هم يخرجون من دائرتهم المحدودة ليذيعوا الفائدة في الجمهور . فتحية حارة لأغراضهم النبيلة ومثلهم العالي ! تحية حارة لهذه النواة الحيوية التي يخلقها مجمعهم مؤدياً فيها أجمل مثالٍ من امتزاج النظرية والعمل !

«ميّ»

الفن والأدب

١

في حضارة مصر اليوم[1]

توطئة

المقتطف : ج (٨٣) **يوليو** : ١٩٣٣ ص : ٨ ـ ١٤ .

ختم المرحوم الأستاذ كليمان هيار المستشرق الفرنسي ، كتابه في تاريخ « الأدب العربي » (١٩١٢) بقائمة للصحف والمجلات التي صدرت خلال القرن التاسع عشر ـ ونقول عرضاً أن تلك القائمة لا تخلو من الخطأ في نسبة بعض الصحف إلى غير أصحابها وفي التاريخ الذي عينتهُ لصدور صحف غيرها . ثم عقب على كتابه الهام بكلمة مجملة نقد فيها الأدب العربي كما كان قبل ثلاثين عاماً وأشار إلى بعض ما ينتظر منهُ في المستقبل . فقال فيما قال :

« عرضنا في الصفحات السابقة صورة لآداب شغل ازدهارها ونضجها وانحطاطها ثلاثة عشر قرناً ، منذ مطلع القرون الوسطى إلى يومنا هذا . ثم أنسنا في الجذع القديم تجدداً بفعل الأفكار الحديثة وبفضل انتشارها ، ووجدنا أن طائفة من فروعه حملت أزهاراً ـ فضلاً عن ذلك الغصن العارض الذي تطعم به ، أعني الصحافة الدورية . فأي مستقبل يتهيأ لهذه الثقافة

(١) كتاب « حضارة مصر اليوم » عني بنشره قسم الخدمة العامة بجامعة القاهرة الامبركية والتزمت طبعه المطبعة المصرية بمصر .

المتجددة ؟ أنجيءُ محض تقليد للعصور المدرسية (كلاسيك) ؟ أم اللغة ، وقد أرغمت على التحوُّل والتطوُّر لتترجم عن أفكار طريفة ، ستغنم من فنّيّ التعبيرات ما يحرّك رواكد المستودع القديم باعثاً فيه نسمة الحياة ؟ .

« يخيل لأول وهلة أن أوساطاً للنشاط الأدبي كالقاهرة وبيروت ، لهي جديرة بإخراج أدباء يتابعون الحركة التي بدأت على يد أسلافهم في القرن التاسع عشر ... وبأي الأدوار تقوم اللغة ؟ أتتحوّل وتنمو فتصبح اوفر وضوحاً وأقرب الى جماهير أنصاف المتعلمين المتخرجين من المدارس الابتدائية ؟ .

« الجواب لمن بحث هذا الموضوع لا يستطيع أن يكون إلاّ نفياً ، لأننا لا نلمح في قطر من الأقطار ما يشبه تلك الحركة التي تناولت اللغة التركية إبان الثلاثين عاماً الماضية فجردتها من بيانها العتيق . ما فتئت اللغة العربية غارقة في الاستعارات القديمة وهي لا تستعمل بالتبع سوى جمهرة من التعبيرات التي لا يتأتى فهمها إلاّ لأهل الثقافة ... مما يحول دون اتصالها بالعامة لتحدثها في ما يهمها من الشؤون . إن مقالة سياسية « تحترم نفسها » (كذا) لا يمكن أن تكتب بغير النثر المسجع . وبلاغتها التافهة العقيمة ، ومرادفاتها الرامية إلى محاكاة مقامات الحريري إنما هي للقارئ المثقف أفكوهة ليس إلاّ ...

« أما ما نود أن تأخذ بِهِ اللغة العربية في المستقبل فهو جلاء التعبير وبساطة الأسلوب . فإذا جاء يوم يحقق هذه الأمنية استطعنا التنبؤ بعهد زاهر للآداب العربية . اهـ » .

١ ـ اللغة في دور التطور

نقلت هذه الفقرات لأنها تقرير لما كان واقعاً في ذلك الوقت . ولم ينفرد كاتبها بالنقد بل ساهمهُ فيهِ المستعربون من زملائِه الأجانب وكان الألباء من

أدبائنا انفسهم أبعد إمعاناً في تبيان العيوب . وقد تعمدت نقلها لأنها تعيّن حقبة من الزمن نذكرها فلا نخجل . ففي ما يوازي الوقت الذي شهد فيهِ الأستاذ هيار للغة التركية بالتقدم ، أي في ثلاثين عاماً لا غير ، تفلتت العربية من كثير من الحشو واللغو والتلمظ والغلوّ البديعي والابهام الذي كان يشينها في دور الجمود . وهذا تقدم يذكر في نظر الباحث المنصف ، نظراً للوراثة اللغوية الباهظة التي ترهق أدباء هذه اللغة . في ثلاثين عاماً تطورت عندنا اقلام ، ونضجت أقلام ، ونشأت أقلام فكانهما جميعاً أن تعمل كل بوسائلها وفي بابها لتخلق أدباً جديداً . والاعتزام اول مراتب النجاح . بيد أن النجاح في نواحٍ هامة من البيان جاز مرتبة الاعتزام الى دور الانتاج والتحقيق .

ولما كان هذا البحث قاصراً على مصر قلت ان المقابلة ولو السطحية بين طائفة من المقالات نشرت إحداها قبل ثلاثين عاماً وتنشر الأخرى في هذه الأيام ـ تلك المقابلة كافية ليتضح أن أول ما يسترعي الانتباه في النشاط الفكري الجديد هو أسلوب الكتابة . لقد تحررت اللغة في كثير من الكتابات الحديثة ، مما كانت تخفي به افتقارها الى الفكر الحي والعاطفة الحية . والسجع الذي كان أفكوهة للقارئ المثقف ، بات كبواقي الأطلال المنزوية التي يجب أن تجدّ في البحث عنها لتهتدي إليها ...

أول بواعث التطوُّر :

الثقافة الحديثة كانت أول بواعث هذا التطوُّر . فهي التي نبهت الأدباء إلى حالة العالم اليوم ، وعلى ضوئها رأوا ماضيهم المنوّع العظمة ولمحوا مستقبلهم كيف يمكن أن يكون . وهي التي لفتتهم إلى ممكناتهم وأفهمتهم أن لا وسيلة لإستغلال تلك الممكنات بغير النشاط والعمل . وهي التي قالت لهم ان الذي يكتفي بما هو فيه قد يكون مومياء نفيسة توحي إلى العلماء الرغبة في البحث والاستقصاء ، ولكنهُ لا يستطيع أن يزعم أنه العقل المولد والكائن

الحي . وبالجملة كانت الثقافة الحديثة المقتبسة عن الغرب أول أدوات التعديل والاصلاح في يد المستيقظين . وإذا استيقظ امرؤ من سباته ظهر في صوته وفي تعبيره ما ينمُّ على يقظته من الفكر المنتظم والقول المنسجم والبيان المباشر مع إعراض عن اللغو والتفكك والغموض القمين بالذين يتكلمون في نومهم ... ان كلمة الحياة تختلف عن كلمة الموت .

اللغة والصحافة :

تجرد واندثار من الناحية الواحدة ، في حين اللغة من الناحية الأخرى تزيد كل يوم رشاقة ومرونة وتوسعاً بما تضمه إليها من الكلمات والأسماء والتعبيرات المتطابقة وحاجاتها . والصحافة التي كان الأستاذ هيار يتوسم فيها خيراً ـ قامت بنصيب وافر في إحداث هذا الانقلاب . فقد تعددت الصحف وتعددت صفحاتها ، وتنوعت أبوابها وأغراضها فحفلت أعمدتها بالمباحث والموضوعات والآراء ، وانتظم تلقيها المتتابع لأخبار العالم وحوادثه العمرانية والسياسية والعلمية والفنية وغيرها سواء أبواسطة التلغرافات العمومية والخصوصية أم برسائل مراسليها من الخارج ، أم بما ترى نقله عن صحف الشعوب الأخرى من المفيد والمفكه معاً . فاضطرت الى اقتباس المفردات الجديدة أو تعريبها أو ابتكارها في كل عدد من أعدادها تقريباً . وكان لها بطبيعتها أن تذيع وتكرر ما تبتكر وتعرّب وتقتبس وتصوغ فجاءت الفائدة مزدوجة : إذ ان المستحدث من الألفاظ والتعبيرات صار في متناول القارئ كل يوم ، إن هو أخطأه يوماً أو أسبوعاً أو عاماً تغلّب عليه حتماً في النهاية فاحتل مكانة من تفكير القارئ ومن تعبيره . وتيسّر كذلك لأهل الثقافة وعلماء اللغة مناقشة تلك الألفاظ والتعبيرات واستبدالها بخير منها في معناها ، إذا استطاعوا . والمجلات الشهرية التي كانت قد مهدت لذلك ساعدت هي والكتب الجديدة في تحقيق هذه الغاية . إلاّ أن القارئ هنا شأنه في سائر البلدان ، لا يتفرغ للكتاب والمجلة الشهرية إلاّ إذا كان من

الاختصاصيين أو من هواة الثقافة ، في حين أن جميع الأيدي تتداول الصحيفة الأسبوعية وبخاصة الجريدة اليومية .

وإلى الصحيفة اليومية يعود فضل تركيز اللغة في مستوى من البيان يرضي الخاصة ـ الخاصة غير المتحذلقة ـ ويرفع إدراك العامة إلى أفق أوسع وأرقى . حتى أَلِفَ أحاديث الصحف ليس خريجو المدارس الابتدائية فحسب ، بل ألفها حتى الجمهور الذي « يفك الحرف » فيفهم منها شيئاً وتغيب عنه أشياء . ويذهب طبعاً في اللحن والتكسير على هواه ، إلاَّ أنهُ على كل حال يحذق أهم ما تبغي الصحيفة إيصاله إليه من الأنباء والموحيات .

أثر الحركة القومية في اللغة :

وليس لمؤرخ منصف أن يغضي عن أثر الحركة القومية في تقريب اللغة إلى افهام العامة وفي إنالة الأسلوب الجديد بساطة وحياة . فالحركة القومية التي تلت الحرب الكبرى هزَّت في مصر جميع النفوس ، وحفزت جميع القوى ، وجعلت الأميّ كالمتعلم يتطلع إلى مماشاة الحوادث في سيرها ليكون دوماً على أهبة للاشتراك مع بني وطنه في إعلان العاطفة الوطنية وتأييد المطالب القومية . والكتَّاب كالزعماء الراغبين في جمع القلوب حولهم ، كانوا يشعرون بوجوب التمشي على منهج لا يستعصي على أحد فيسبكون أقل ما يمكن من الأفكار الجوهرية في أقل ما يمكن من الألفاظ البسيطة والصيغ المؤثرة لتستقر في الضمير العام بلا عناء فيتخذها الصغير والكبير أنشودة للحماسة والاخلاص . ومن ثمَّ ، أي منذ الحركة القومية ، نشأت تلك العادة التي ما زالت شائعة في هذه الأيام ، وهي اجتماع نوبيّو الدار الواحدة في حلقة حول بواب الدار وأصحابه والمختلفين إليه ، فيتولى أحدهم قراءة الجريدة والآخرون يصغون في اهتمام وانتباه . ولا ينفضُّ جمعهم إلّا بعد تبادل الآراء في ما يسمعون ويقراون .

وقامت المعارضة السياسية والخلافات الحزبية بدور فعال في تطوُّر اللغـة لأن الأدباء والكتَّاب الذين اشتركوا بطبيعة الحال في النضال السياسي اتخذوا صحف احزابهم منبراً لدعايتهم ، وكل يبغي التفوق على مناهضيهِ في المناظرة اليومية التي لا تهادن ولا ترحم . ومضوْا يلتمسون أساليب حية سريعة ملتهبة ، سخرت فيها البديهة الحاضرة وسعة الاطلاع وتنوع الحيلة وبراعة التعبير لإصابة المرمى ، فتمخض كل ذلك عن بيان ليس هو ابن قرون وأجيال ، بل هو وليد يومِهِ ومستوحى ساعتِهِ . وتلك المشاحنات الأليمة ـ على عديد مساوئها ـ كانت دافعة إلى تجنب الرواكد القديمة والاستقاء من الينابيع الحية . وفي ذلك دليل آخر على أنهُ في الإمكان دائماً استخراج الخير من الشر بوجه من الوجوه .

من الجدل السياسي إلى البحث الأدبي :

قد يقال ان مثل هذه المشاحنات لا تمتُّ إلى الأدب بصلة . صحيح . ولكن الاستعارات الجامدة والمهلهلات القديمة كانت في حاجة إلى هذه العاصفة الجبارة التي اكتسحت عجاجتها في اعوام قلائل ما قد كان يقتضي لجرفِهِ عمل جيل أو جيلين .

وبعد ، فمن ذا الذي ينكر أن النفس الفردية أو النفس القومية إذا هي استفزَّت من ناحية واحدة فلا تلبث عوامل اليقظة أن تتمشى إلى سائر أنحائها ؟

اولئك الكتاب الذين شغلوا بالنضال السياسي في بادئ الأمر ، انتبهوا فوراً إلى أن موضوعهم الرئيسي يرتبط بشتيت الموضوعات ، حتى السلبية في الظاهر ، ارتباطاً وثيقاً . وبنفس الروح الحية التي كانت تملي مقالات المناقشة الحزبية أخذوا يعالجون الموضوعات الأدبية والاجتماعية والفنية والفكرية مما يعلي المدارك ، ويفتق قوى الملاحظة ، ويصقل الفكر ويثقف

الشخصية القومية من مختلف نواحيها . وتبدَّى لهم وللجمهور الذكي أن الكتابات التي كانت تعد بالأمس « خيالية » و « شعرية » إنما هي في الواقع دلائل على يقظة نفسية بعيدة لا بدّ من الوصول إليها . في حين أن ماكان يحسب « بلاغة » و « فصاحة » صار لا يحسن إلاّ للعرض في متحف الآثار ...

وافتقار مصر إلى شركات الطبع والنشر بحيث أن الكاتب عندما يشرع في تأليف كتاب عليه أن يفكر أيضاً في كيفية طبعه على نفقته الخاصة ثم في توزيع نسخه على المكاتب ـ هذه العقبة أيضاً كان لها أثرها في تنويع موضوعات الصحافة ، لأن الأديب والكاتب وجد في الصحيفة أضمن وسيلة لإذاعة فكره وترويجه دون خسارة مالية ودون عناء عقيم . وعليه فإن وجهاً من أهم وجوه تطوُّر اللغة وتطوُر الأفكار بمصر تجده مدوّناً في الصحيفة اليومية والمجلة الشهرية خلال الأعوام الأخيرة . وأجزم بأنه في هذه وتلك أظهر منه في المؤلفات الحديثة ـ وإن كان لهذه شأنها الخطير وكان بعضها مجموعاً من مقالات ذات موضوعات متناسقة نشرت في الصحف .

صحيح ، ولكن ..

تقرير تطوُّر اللغة هو تقرير للواقع ، ولكنه لا يعني أن كل من حمل قلماً يكتب بالأسلوب الذي وصفت ، بل يعني أن خطوة حاسمة تمت في هذا الباب وأن الوقت ضمين بإصلاح العيوب الباقية . ان أنصار القديم كثيرون جداً وهم على درجات : بعضهم يسيرون في حركة التجديد بحذر ، وغيرهم يجارونها في اعتدال ، ويرى آخرون في هذا التجديد الانحطاط كله ولكانوا يندبون حظ اللغة العربية ويصنفون لها المراثي شعراً ونثراً لولا أنهم ، لحسن الحظ ، موجودون يجددون بلاغتها القديمة ببلاغتهم ويحرصون على اللهيب الدهري منكرين كل وقود حديث لتغذيته ! وأسلوب المجددين ليس كله من طراز واحد ، ومنهم من لا يفوز بالتخلص من الاستعارة القديمة وإن ابتكر هو استعارته فهي رجع لاصداء غير جديدة . إنما يتسم المجددون

بالسرعة والرشاقة والحماسة والفكر الملئ وإحكام التعبير إجمالاً . ويحرص أنصار القديم على هندسة الانشاء ومتانته ، وينسقون توازن الجمل وإيقاعها ويدققون في معان وأغراض إضافية لا يتسع لها صبر المجددين ولا وقتهم . والمعارك القلمية التي تنشب الوقت بعد الوقت بين هؤلاء وأولئك تأتي بالترتيب بعد المعارك الحزبية في الشدة والعنف . ومن الغرور أن نزعم أن الأسلوب الجديد بلغ منتهى الكمال أو أنه خلص من شوائب الجدة نفسها ـ ولكن نزعة الكتَّاب حرية بالإعجاب .

وعلام لا نقول أن كلاً من الفريقين على حق في الوجود وعلى حق أيضاً في وجهة نظره ؟ فأنصار القديم ـ كأشباههم في كل أمة وكل زمن ـ يخفرون تراث الماضي واثقين من أن الأدب المستحدث لن يأتي بخير منهُ ولا بما يدانيه . وموقفهم لا يخلو من الفائدة للمجددين لأنهُ يحملهم على تمحيص نزعتهم وتهذيبها ، وقد يفيد في إرهاف تلك النزعة وفي تعجلها ايضاً . وبخاصة لأنه لا يندر أن يستوحي المحافظون الأفكار الحديثة التي يقاومونها . أما أنصار الجديد فهم الذين يضيفون إلى السجل القديم فصولاً جديدة بلهجة جديدة ، وهم الذين يستأنفون تاريخ اللغة التي عبرت من قبل عدة أطوار خلال القرون الغابرة ، وفقاً لما كانت تتأثر بهِ من ثقافة وتتصل بهِ من حضارة . أترى أدب الأندلسيين هو هو أدب الأمويين بعينهِ ؟ أوَ لم يختلف أدب هؤلاء نفسهم حقبة بعد حقبة في صفحة تاريخهم ؟

وإلى جانب أنصار القديم وأنصار الجديد طائفة من الكتَّاب والصحافيين والادباء جمعت بين محاسن العهدين وهي في الغالب تفوز بتحبيذ هؤلاء واولئك ـ الاّ عندما يهاجمها فريق من ناحية اللغة وفريق آخر من ناحية الفكر...

٢ ـ الأدب الحديث :

ليست هي الألفاظ ولا هو الأسلوب ما يؤبه لهُ في مسألة اللغة الأدبية . للاسلوب قيمة في نفسهِ من حيث هو صيغة فنية ، وما الألفاظ إلاّ تفاصيل في تلك الصيغة . ولكن الشأن الأعظم في العقلية والنفسية التي تترجم عنها الألفاظ ويصورها الأسلوب . والعقلية والنفسية في مصر الحديثة آخذتان في التغير ، وما الأدب الجديد الاّ اعراب عنهما . فهو بجوهره قد شذّ عن تعريف ابن خلدون القائل أن « المقصود منهُ (الأدب) عند أهل اللسان ثمرته وهي الإجادة في فنيّ المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم ... » . الإجادة على أساليب العرب ومناحيهم ؟ هذا ما لا يريده الأدب الحديث لأن مثل هذه الإجادة تخلق الأديب الراوي والأديب المقلد ، لا الأديب المنتج المبدع . وليس هذا الاباء ليعني الطعن في اساليب العرب ومناحيهم ، بل بالعكس ترى أن ادباء اليوم يعنون كل العناية بدراسة تاريخ الأدب وبتحليل شخصيات قدماء الأدباء والشعراء وبحث التأثيرات التي أحاطت بهم في بيئتهم فأوحت إليهم . وقد صدرت كتب عدة في هذا الباب ، وعولجت شخصيات الشعراء والناثرين وما زالت تعالج في المحاضرات العامة وفي مقالات الصحف اليومية وفصول المجلات الشهرية ، بدراية وحذق لم نعهدهما من قبل .

ولكن الأدباء يفهمون تلك الآثار على حقيقتها . يرونها حسنة في ذاتها لتوافقها والوقت الذي كتبت فيهِ ، لتصويرها العصر الذي اوحاها ، لكونها قطعة حية من الفكر الذي املاها والشخصية التي رسمت ذاتها فيها . أما إذا قام اليوم فرد يكتب بتلك اللهجة وينتحل تلك العقلية فهو بذلك معلن عجزه عن مجاراة السلف في استعداده للحياة التي هو ابنها ، وفي تلقي التأثيرات الخاصة المحيطة بهِ لتكوين شخصيته وفقاً لعصره .

وقيمة هؤلاء الأدباء الجدد في كونهم حقًّا ابناء العصر الذي ولدوا فيهِ . وأي عصر مدهش هو ، يصطدم فيهِ حولهم الماضي الذي ما زال حيًّا

في بيئتهم بالحاضر القائم والمستقبل المهاجم . في كل بلد من بلدان العالم إجفال من هذه المفاجئات العلمية والاجتماعية والفكرية العاملة على تكييف الأقوام تكييفاً لا يعلم أحد مداهُ ، مع أن تلك البلدان كان التطور فيها متتابعاً متسقاً جيلاً بعد جيل . أما في مصر فقد بلغ الإجفال أشده لاستيقاظ الجيل الجديد وقد باغتت فكره ثقافة مليئة زاخرة مكتسحة . فهو يدرك كل ما يخسره إن لم يأخذ بأسبابها ، ولكنهُ لا يستطيع بالسرعة التي يبتغيها لأنهُ من الناحية الواحدة عليهِ أن يكافح جميع العقبات الداخلية والخارجية القائمة في سبيله ، وهو من الناحية الأخرى لا يريد أن يفقد شخصيتهُ في انتحال الحضارة الغربية بحذافيرها ، بل يريد منها ما يوافق طبيعته وموقفه بين الشعوب ، ويريد أن « يمصر » ما يقتبسه قدر المستطاع . فلئن وجد الجيل الجديد في يقظته شيئاً كثيراً من بهجة الحياة فهو يجد كذلك أن نصيبه من الحيرة والاضطراب والقلق والمسؤولية أكبر . يشعر بالأجنحة تصطفق على كتفيه ولكنه يشعر بالقيود مثقلة يديه وقدميه . ومن مجموع هذه الادراكات والاحساسات تتكوَّن شخصيته الأدبية الجديدة . وهي فوق ذلك شخصية ذات عزم وشجاعة وإقدام ، غير راضية عما هي فيه ، ساخطة من نتاجها الأدبي تشكو أبداً جمود الحركة الفكرية وترجعها إلى شتى الأسباب . وهذه الشكوى أدل ما تكون على ما يصطخب في النفوس من عديد الرغبات والنزعات .

وقد أقلع الأدب عن الموضوعات الكلامية وخاض ميدان الحياة القومية يكتشفها ويحللها وينقدها مشيراً إلى وسائل التجديد والإصلاح في الثقافة والتعليم والاجتماع والاقتصاد وتحرير المرأة وتحرير الرجل أيضاً . الأديب يشعر مع قومه ويتكلم عنهم ، يستوحيهم ويملي عليهم ، يأخذ منهم ويعطيهم ، يتلقى منهم صامتاً الفيض والخصب ويمدهم في كتاباته بالخصب والفيض . ينظر في حاجتهم وألمهم وفرحهم وعيبهم وأملهم فيستلهم حبة قلبه ومجموعة مطالعاته واختباراته ليدلهم على وسائل النهوض . إنه لأدب شائق

متحمس حارغيور. وعندي أن بينا هذا المجهود يكون شخصية الأديب ويمكنه من استغلال قدرته وإنمائها فهوكذلك يقود القارئ إلى استكشاف نفسه ويبعث فيه الشوق إلى استغلال قدرته الشخصية، ويعينه على تكوين شخصيته الخاصة. وهكذا بفضل الأدب الجديد تتنوع الشخصيات في المجموع، بدلاً من أن تكون كلها على غرار واحد شأنها في الأمم التي هي في حالة البداوة والفطرة. ويخيل إليَّ أن هذه الخدمة هي من أهم ما يقوم بهِ الأدب الحديث.

« ميّ »

الفن والأدب

٢

في حضارة مصر اليوم

المقتطف : **ج (٨٣) ـ عدد يوليو ١٩٣٣ ص ١٦٤ ـ ١٦٩** .

٢ ـ نظرة عجلى في أقسام الأدب :

الأدب الحديث في جوهره أصح الآن في مصر منه في كثير من البلدان الأخرى حيث شغلوا بمشاحنات لا طائل تحتها حول ما يسمونه المذاهب الأدبية . فلا رومنتيكية عندنا ، ولا رمزية ، ولا مستقبلية ، ولا غيرها . الخصومات تدور حول الجديد والقديم مما سبق ذكره ، وإن نشطت الخصومات في التطرف تناولت موضوعاً طارئاً أسموه الأدب المستور والأدب المكشوف . وفي ما عدا ذلك فالنزعة العامة واحدة رغم التفاصيل الثانوية القليلة .

الشعر والنثر :

الأدب النثري يسبق الأدب الشعري بمراحل . ألصعوبة التجديد في الشعر العربي ؟ لست أدري ولكني أدري أن كثيراً جدًّا من القصائد التي نتعتها كسلاً أو مجاملة بالعصماء قدكان يمكن أن تنظم في أي عصر من العصور الغابرة ، وما زالت قصائد « المدح » شائعة عندنا . وإذا استثنينا فئة صغيرة

من الشعراء المطبوعين الذين يستوحون موضوعات جديدة ويطلقونها في نفس جديد ولو في صيغة قديمة في الغالب ـ فيمكننا أن نقول بأننا لا نلمح في الشعر الحد الحاسم الجلي الذي نراه في النثر ولئن انضجت الحركة القومية عدة مواهب شعرية فإنها لم تخلق شاعراً واحداً تفرد بجبروته الفني فأرسل الصيحة التي تغزو القلوب وتفتح النفوس فتحاً مبيناً .

فنحن في هذا والشعوب الأخرى سواء ، لأننا لا نعرف شاعراً واحداً جباراً خلقته الحرب في أية لغة من اللغات ، بل القحط الشعري يبدو في كل مكان . وقد يكون هذا راجعاً إلى روح العصر الذي نعيش فيه . وقد يكون النثر الفني صيغة أوفق لاختباراتنا الشعرية في هذه الأيام .

وانما هناك ملاحظة لها أهميتها الاجتماعية ، وهي أن الشعراء يخاطبون المرأة في قصائدهم بضمير المؤنث ، وقدكانوا من قبل يستعملون في مخاطبتها الضمير المذكر وقد أقلع كبار الشعراء عن الأساليب المألوفة في المدح والمفاخرة ، ولكن قصائد الرثاء تجري أنهاراً كلما غمّض امرؤ عينيه ليمضي إلى باريه . ولماكان الموت على رقاب العباد ... !

أما النثر فهو الذي يبدو فيه الخصب والتنوع والثروة والحياة ، وخلاله ترتسم الشخصيات الأدبية ، وهو الرسالة الادبية العالية التي تبدع ابداعاً في هذا التطور الحاضر . لا أظن أن اللغة العربية في أي عصر من العصور السالفة عرفت مثل هذا التنوع الذي نشهده اليوم . فالموضوعات الأدبية والسياسية والاجتماعية والقانونية والعلمية والتهذيبية والفنية والتاريخية شيء مألوف يقع تحت أنظارنا كل يوم ، ومنها ما يضاهي أحسن ما يكتب في صحف الغرب دقة وإحكاماً في رشاقة ولباقة . والمقالة تفوز بالجائزة ـ لو كان هناك مسابقة ـ بين سائر أقسام الأدب . ويجاري فن المقالة فن الخطابة والمحاضرة فهو اليوم في مصر أرقى ما يكون ، بل قد يبدو لك تدرجه عاماً بعد عام من حسن إلى أحسن . ومن دواعي السرور أن المرأة أيضاً تعتلي

المنبر وتخطب في الجماهير الغفيرة فلا تكون أقل تأثيراً من أمهر الخطباء وأشهرهم ، حتى في موضوعات عصبية ، والمسلمة والمسيحية في هذا سواء . وهناك الكتب المترجمة والمؤلفات العديدة في كل فن وخبر ، تبحث في الاجتماع والتاريخ والأدب والفلسفة والأخلاق والعلوم الفنية .وغيرها وصف جميل للرحلات والأسفار ووصف لعادات الشعوب وخصائصها ووسائل تقدمها . وغيرها ذكريات شجية وترجمات عن حالات نفسية . وغيرها يبتكر أدباً للأطفال يستوحيه المؤلفون من قصص الشرق القديمة وأحاديث رحاليه ، أو يقتبسونه عن آداب الغرب ...والرواية كذلك تحصحص هنا وهناك ، ولكن فن الرواية يتطلب وقتاً آخر للنضج . لأن الرواية تخلق عالماً تاماً مستقلاً في ذاته له خصائصه وسيكولوجيته ووجوه نزعاته وفكرته الخاصة ووجوده المتصل بمحيطه المنفصل عنهُ في آنٍ واحد ، فهو يتطلب من العزلة والسكون ما لا قبل لأدبائنا بهِ في هذا الوقت لانهماكهم في عدة موضوعات في آن واحد ، وعندما ننظر إلى كثرة ما ينهب وقتهم من المشاغل نعجب كيف استطاعوا أن يؤلفوا هذه الروايات على قلتها ونعجب من وفرة ما ينتجون .

أما القصة الصغيرة فقد تقدمت بالعدد أختها الكبيرة . وقد قصر بعض الكتاب نشاطهم عليها فنجحوا خصوصاً في القصة الوصفية ، وستليها حتماً القصة السيكولوجية .

ولا مندوحة عن أن يجاهد الأدباء في وضع الرواية العصرية لوصف هذه العادات وتسجيل هذه التقاليد في مجتمع هو سائر بطبيعة الحال نحو العادات الأوروبية . فالحجاب يتناثر منهُ كل يوم ، ووجوده وحي كبير للأديب المستعد لتلقي هذا النوع من الوحي . وهذا الفن الروائي لو هو وجد بمصر يصبح فريداً في بابهِ بين صنوف الروايات العصرية بسبب هذا الحجاب نفسه وبسبب جميع الحوادث السيكولوجية التي تخلقها في النفس صعوبة اللقاء

بين المحبين ـ ما دام الحب هو « الحبكة » التي لا تقوم لرواية قائمة بدونها ، مع ما يستفزه من خفايا الطوية ويعلنه من غامض الأسرار.

كذلك تفتقر إلى النقد وإن كان ما يكتب في النقد غير قليل . ولكن أكثره إما يرمي إلى المجاملة والثناء وإما يبغي الطعن والتحقير . ويندر جداً البحث النقدي النزيه الدال على تمام استيعاب الناقد لموضوعه وعلى اكتمال نضج شخصيته من نواحٍ شتى . والغريب أن نفس الكتّاب الذين يجيدون في نقد كاتب غربي وتحليل شخصيته يكونون أقل إجادة وبخاصة أقل إصابة عندما يبحثون شخصية أدبية مصرية حديثة . وعندي أن الناقد البارع روائي على نوع ما ، وان الرواية والنقد إن هما تحاذيا اليوم في تخلفهما فسيكونان كذلك متحاذيين في تقدمهمـــا لأن الكثير من خصائص الناقد السيكولوجية هي نفس خصائص مؤلف الرواية .

الأدب الشعبي أو أدب العامة :

في مصر أدب يجب أن لا يهمل . هو أدب العامة الذي ندر من عني به من الأدباء ، مع أنه قادر على إخراج جنى خصيب طلي لو اهتم كل كاتب بحكايات مديريته واقليمه فدوّن ما يتناشده الشعب الساذج في حفلات الأعراس والمآتم ، وما ترويه الرواة عن أبطال القرون الغابرة . غير أن فرعاً من ذلـك الأدب في ازدهـار ، أعني الـزجـل ، الشعر العامي الجميل الذي يفصح عن الروح المصرية برشاقة وطلاوة وباللهجة المصرية لهجة التخاطب العادي والمحادثة اليومية وقد تألفت حديثاً « رابطة الزجالين » قرب عدة جماعات أخرى أدبية وثقافية ـ أخذ الله بيدهم جميعاً !

إن لكل اقليم بيانه الأدبيّ المروي الذي يترجم عن الروح القديم في أساطير وأناشيد باللغات العامية ، وحكايات تضمنت اعتقادات سرية مقبلة عن أعماق الدهور ، وذكريات حب وحنان وتضحية وتفجع ، ونفثات

شعرية ذات سحر مستغرب حضان . ألحان الشعب وأساطيره وحكاياته تعبر عن خلقه القيم وصبره وإحتماله وتحدث عن عبقريته الفطرية وعن آماله وأحلامه . ومن الخسارة الفادحة أن تهمل تلك الآثار وتلك الألحان لأنها صائرة شيئاً فشيئاً إلى النسيان والفناء .

٤ ـ الفن :

الأدب النثري أرقى الفنون جميعاً وأنضجها وإن كان بعض الفنون أوسع رواجاً في الجمهور وأقرب إلى تذوق العامة . وهاك ترتيب الفنون بموجب رقيها وتقدمها .

١ـ التمثيل . ٢ ـ النحت والرسم والتصوير. ٣ ـ الموسيقى .

التمثيل :

هذا أظهر الفنون في مصر تقدماً . وقد برزت فيه شخصيات موهوبة عرفت أن تكسب الأدوار التي تمثلها روعة وتنوعاً واستطاعت أن تبعث فيها نفحة حيوية غنية

والتمثيل يرتبط بالأدب وبالتأليف المسرحي وبالحركة الفكرية والاجتماعية وبتطور اللغة . فنطق الممثلين والممثلات فصيح بالاجمال ، وأوضاعهم المسرحية في تقدم محسوس . وقد ترجمت إلى العربية روايات من غرر الأدب المسرحي في العالم فجاء بعضها متطابقاً والأصل الذي نقلت عنه ، و « مصّر » غيرها تمصيراً ليتفق وذوق الجمهور ، ومسخ غيرها مسخاً . وقد عني جماعة من المؤلفين بوضع روايات باللغة العربية فنجح بعضها نجاحاً عظيماً ، وكان للمرحوم شوقي بك الفضل في استيحاء موضوعات قديمة من تاريخ مصر وتاريخ العرب وصوغها في روايات مسرحية شعرية ونثرية . ويمكن القول ان التأليف المسرحي الآن في حالة التكـون والنقاد المسرحيون أبرع في ملاحظاتهم وانتقاداتهم من نقاد الكتب الحديثة .

وقام في الأعوام الأخيرة التمثيل السينمائي يسابق التمثيل المسرحي وهم الممثلون في المسرح الذين يسابقون أنفسهم على الشاشة الفضية : فما أشق هذه الجهود وما أكبر هذا الاقدام ! وهم يعنون في إدخال آثار مصر الفرعونية أو آثار الاسلام بمصر وغيرها ـ في كل رواية سينمائية تقريباً مع عرض بعض العادات والتقاليد خلال تلك المناظر المتعاقبة . ولكن الى الآن لم نر رواية واحدة مستكملة النضج السيكولوجي والفني ، بيد أنه يمكن البت في أن التمثيل السينمي المصري لن يقف عند هذا الحد .

النحت والرسم والتصوير :

باستثناء فرائد فنية وموسيقية سبقت التقدم المسرحي من حيث كمال الصنعة ونضج الفكرة ـ يمكن ترتيب المنتوجات في هذه الفنون الثلاثة بعد الفن المسرحي وقبل الفن الموسيقي . في المعارض السنوية الرسمية كما في المعارض الجزئية العديدة تستطيع أن تهتدي إلى شخصيات فنية هي على ثقة من وحيها ومن مقدرتها في اتقان الصنعة معاً ، فترى أنها تتقدم عاماً بعد عام في إحكام الصلة بين وحيها وبين افصاحها عنه .

وعدد المشتغلين بهذه الفنون كل سنة في تزايد. وليس التقدم ليبدو في الكمية وحدها بل في الكيفية أيضاً . يشهد بذلك الذين زاروا معرضاً أقيم من هذا النوع قبل ١٤ عاماً ، فهم يزورون معارض اليوم فيسبحون الله ولا يبطرون ! ولئن كان الفن إلى الآن يستوحي الصناعة الأوروبية والفكرة الأوروبية فالفنانون يميلون إلى إخراج موضوعات مصرية . وعلام لا تنطلق يوماً الوراثة القديمة الكامنة في فناني هذه البلاد فيبتكرون فنًّا حديثاً هو غير فن الغرب ؟

الموسيقى :

الموسيقى الوترية أرقى من الموسيقى الصوتية . فمن العازفين من يعزف بفطرته الموسيقية وبسليقته الطروبة . ومنهم من يتبع الأساليب الحديثة التي روجها نادي الموسيقى الشرقي من ضبط الألحان بالنوتة وتوقيعها على أصول الثقافة الموسيقية في الغرب ، وهو تجديد لم يعهد من قبل في تعليم الموسيقى العربية .

يتسنى لك أن تسمع من بعض « التخوت » أو جوقات الموسيقى الوترية أو من الأفراد العازفين على مختلف الآلات ـ عزفاً هو في منتهى الجودة والاتقان . لولا أن مجموعة الألحان تستمر غالباً على وتيرة واحدة وليس من الميسور أن تميز الفرق بين القطعة وأختها .فكلهنّ يتشابهن فيما بينهنّ ، مما يثير الملل عند الملم بالموسيقى الغربية الذي ألف فيها التنوع والتفنن والتلوين إلى مدى لا يحد .

أما اقرب الفنون إلى الجمهور الكبير من مختلف المراتب فهو الموسيقى الصوتية ، والناس على اجتماعات الطرب والانشاد أشد إقبالاً منهم على أية حفلة فنية أخرى ، ويرون في الحفلات والسهرات نقصاً وجفافاً إن لم يشجها الغناء ويلقي في جوها عاطفة الشجن الشرقي التي لا توصف . إنما ترتكن الموسيقى الغنائية في مصر على صوت المغني أكثر من ارتكانها على فن الغناء . وهنا أصوات جميلة حنونة مؤثرة ، إلاّ أن أحسن ما تنشده في نظري هو الأدوار القديمة بألحانها القديمة بما فيها المواويل والقصائد الغزلية . وأكثر ما يسمونه « تجديداً » في الغناء خير له أن لا يكون . لأن بعضه مقتبس عن الموسيقى الغربية التي لا تعتبر من الفن في شيء بل هي من النوع التافه (musiquette) ، والبعض الآخر تطويل وتباطؤ وإعادة وتكرار . ما زالوا يمدون في الآهات وقتاً طويلاً جدًّا ويعيدون « يا ليلي يا عيني » في تبسط وتراخ يستحيل معه الصبر لأعصاب تنظمت للطرب المحكم . بيد أن الجمهور

يحب ذلك التطويل المخدر للأعصاب ويستلذه ، والمنشدون يماشون ذوق الجمهور ولكنهم لا يثقفون فيه العاطفة الفنية ولا مقدرة لهم على ازدجار تلك العاطفة وانهاضها من تثاقلها الدهري . وعلى ذلك ما زال العاشق في الأغاني يسهر الليل مناجياً النجوم بموضوع حسرته وجواه ، وما زال قلبُه يذوب وروحه تكتوي بنار الغرام والمحبوب ـ ما أقساه ! ـ لا يرحم المتيم المسكين ! والعذول ـ لحاه الله ! ـ ما زال واقفاً بالمرصاد يريد الإيقاع بالعاشقين!

والمغنون يحملون نفوسهم فوق طاقتها لأن كلاً منهم يأبى الاّ أن يكون منشداً وملحناً في آن واحد ، وهو أمر لا يتفق مع قانون تقسيم العمل ولا مع الموهبة الفنية . فالإنشاد شيءٌ والتلحين شيءٌ آخر . وقد يكون الملحن صاحب صوت غير حسن وغير قابل للتوقيع المطرب . ولم يشذ عن هذه القاعدة من كبار الموسيقيين في الغرب الاّ النفر اليسير .

ولكن ما لا ينكر هو الجهود العظيمة التي يبذلها أهل الفن . وإن لم يبد إلى الآن شيء يصح أن يسمى تجديداً بمعنى التقدم في نظر الناقد الخبير فذلك راجع إلى صعوبة هذا التجديد في موسيقى لا قائمة لها إلاّ بالنغم فقط ولا تقبل طبيعتها التطرق إلى فن اصطحاب الأنغام الذي قطعت فيهِ موسيقى الغرب شأواً بعيداً . مهما ضاعفت الآلات في الأركسترة أو ضاعفت الأصوات في النشيد فأنت لا تكون إلاّ مقوياً النغم الواحد ومفخمه . وهذا مشكل كبير لا حلّ لهُ إلاّ بتنويع النغم تنويعاً بارعاً ينزع عنهُ ما يرافقهُ عادةً من التراخي والملل ، على أن يبقى لهُ النكهة الساحرة ذات العوارض الخفية الدقيقة التي تحتفظ للموسيقى الشرقية بطبيعتها الخاصة . ثم يجب الإكثار من الأناشيد الحماسية في موضوعات مشوقة تستولي على قلب الجمهور وتعلمهُ التجاوز عن الموضوعات الغرامية الكثيرة إلى ما لا صلة له بالعشق والغرام والدلال والنوح .

الخلاصة :

الخلاصة أن الحركة الأدبية والفنية في مصر شيء ذو وجود محسوس ، في بعض نواحيه تقدم وفي بعض نواحيه تأخر ، ونواحيه الأخرى بين بين . غير أن النشاط لا يمكن إنكاره .

الصورة التي رسمتها هنا مطابقة للواقع في تقديري . وأنا لم أعتبر في الأدب والفن إلاّ كونهما تعبيراً عن الروح الجديدة الناجمة عن اليقظة القومية ، هذا التعبير الفني والأدبي الذي هو من أدل الدلائل على ثقافة قوم وحضارتهم وعلى مبلغ ما اكتمل من تكوُّن مجتمعهم . والفن والأدب يدلان على أن المجتمع الجديد هو فعلاً في حالة التكون . وهذه الحركة سائرة إلى الأمام بلا ريب بفضل انتشار التعليم وتنوع الشخصيات والاحتكاك المتتابع بالحضارة الغربية والاشتراك اقتصاديًّا وفنيًّا وأدبيًّا وسياسيًّا وعلميًّا في جميع المشاكل الطارئة على العالم .

عندما نقول « قديم » يفهم من هذه الكلمة عهد الفراعنة ثم عهد الاسلام ، وعندما نقول جديد يفهم الحضارة الغربية بوجه عام . ولكن الموضوع في نظري أبعد مدى وأكثر ارتباكـاً إذ ليس من بلد كمصر هبطته جميع الشعوب وضربت فيه جميع الحضارات وانتشرت فيه جميع الثقافات واختلطت دماؤه بجميع الدماء . فمن العناصر الفرعونية إلى العناصر المكدونية إلى اللاتينية فالإغريقية ، فالعربية بتنوعها العديد ، فالتركية وما كان ينضم تحت لوائها من العناصر العثمانية الكثيرة ، إلى عناصر أوروبا الجديدة كلها تقريباً ، إلى غير ذلك مما يحصى ولا يحصى ـ جميع هذه العناصر تتمخض الآن وتصهر في الشخصية المصرية الكبرى . والمصريون الذين زاوجوا خلال تاريخهم الطويل شتى الشعوب ، ما زالوا اليوم يزاوجون الشعوب الغربية ، وهذا الأمر ـ على ما يستوجبه من الانتقاد في بعض الوجوه ـ يصب الدماء الشتيتة في دم هذا البلد القديم . فهنا العالم كله في حالة « التمصر » وقـد عرف

دائماً لمصر السحر في تحويل ما يقبل عليها إلى جزء منها دون أن تفقد فيهِ شخصيتها الصميمة . وفي هذه الثروة الزاخرة من الوجهة الأدبية والحسية معاً ما يمكن من تكوين شخصية رحيبة الجوانب ، متعددة النواحي ، غنية نبيلة لا نبالغ في القول انها تستطيع أن تنتج نوعاً خاصًا من الثقافة تقف حيال الثقافة العالمية فلا تتضاءل .

وترجمان هذه الثقافة المرجوة هو اللغة العربية . ويخطئ الذي يتطلب التجديد في هذه اللغة إن هو أراد منها أن تصبح نسخة من أي اللغات الغربية . إن هذه اللغة تمثل عقلية خاصة في وسعها أن تحاذي العقليات الغربية وتتفاهم وإياها وتأخذ منها وتعطيها ، ولكنها ليست هي ولا يمكن أن تكون لأنها ـ وفي هذا أهميتها ـ مظهر آخر من الحضارة العمرانية وناحية أخرى من النفسية الإنسانية .

« مي »

خطاب الآنسة مي في حفلة تأبين داود بركات

المحروسة ٢٧ نوفمبر ١٩٣٣

أسدي الشكر إلى نقابة الصحافة المصرية التي شاءت أن يتسرب اليوم صوت المرأة إلى ما بين هذه الجدران ، فأنالتني الشرف والحزن أن أكون ناطقة بالكلمة النسوية .

فباسم الحركة النسوية التي أيدتها يراعة داود بركات وروّجت دعوتها ، وباسم جريدة « المحروسة » التي باشر فيها حياته الصحافية ، وباسمي أنا شخصياً أنحني إجلالاً للرجل الذي اجتمعنا اليوم لا لنؤبنه ، فنحن في هذه الإجتماعات نحاول أن نرتفع كثيراً فوق الرثاء أو النحيب ، بل اجتمعنا في ظلّ ذكراه لنقيس ، ولو من بعض النواحي ، الخطوة التي طويناها في سبيل الحياة ونحن مع ذلك نجيل الطرف باحثين عنه في هذا الاجتماع فلا نرى غير مظاهر الحداد عليه ، ولا نظفر إلا بروحه مهيمنة علينا .

أيها السادة والسيدات ،

إذا ذكرنا الجبل الأشم ذكرنا بداهة البقعة التي يشرف عليها . وإذا ذكرنا الشخصية الكبيرة ذكرنا حتماً حقبة الزمن التي تفاعلت وإياها . ولو نحن قلبنا صفحات التاريخ قديماً وحديثاً ما وجدنا حقبة أكثر ارتباكاً ، وأمنع حيوية ، وأوفر أهمية ، من نصف القرن الذي انقضى على الشرق الأدنى عموماً . ولكني الآن أتكلم عن مصر خصوصاً .

تلك حقبة اليقظة بعد هجعة ثلاثة قرون أو تزيد اذ تفتح البلاد عينيها فترى شمسها ساطعة متلألئة ولكنها تدرك ، في نفس الوقت ، ان ظلام السبات الروحي ما زال دامساً لم ينقشع عنها . تبصر الطير سابحةً في الفضاء تغرّد أغرودة الصباح والهناء ولكنها تشعر ، في نفس الوقت ، بالقيود تُحكم وثاقها ، وبالأغلال تثقل حركاتها . تشعر بحميّا الحياة سارية في دمها تستثيرها إلى النهوض والمسير ، ولكنها تدرك ، في نفس الوقت ، افتقارها إلى رأي تلتف حواليه . لكأن معولاً يرفش تربة الأفكار ويدغدغها ويقلبها جاعلاً على وجهها الحكمة والجنون ، التهور والتروي ، الاستهتار والكياسة ، الخطأ والصواب ، والنية السيئة والنية الحسنة ، الظلم والإنصاف ، الاستبسال والتضحية والمفاداة ، والافتراء والدسيسة وسوء التأويل . حقبة غنية بجميع الأضداد شأنها ، بل شأن التاريخ عند جميع الشعوب ذات الحيوية التي لا تقهر .

رأى داود بركات ثورتين سياسيتين سريعتين . ورأى معهما ثورة طويلة متتابعة صاخبة صامتة متفككة مترابطة هي الثورة الفكرية والأدبية والاجتماعية التي ما زلنا نخوض عجاجها ، ونكتوي بنارها ، وهي ستزيد كل يوم تفشياً ونشوباً . ثورة لا بنادق فيها ، ولا حراب ولا مقذوفات ، يرعاها اليوم جلالة الملك وتنشِّطها الحكومات من جميع الأحزاب لأن فيها الرجاء للتغلب على خمول الدهور ، وبها السير إلى الإصلاح ، إلى التحسين ، إلى التقدم ، إلى الحياة .

هذه هي الحقبة التي عاش فيها داود بركات . عاش لا كفرد من الأفراد يساهم مرغماً أو مختاراً في هذه الحركة العامة إلى الأمام ولكنه عاش ومهمته في الأهرام أن ينظم هذه الحركة على نوع ما ، ملخصاً ما جاء به الأمس ، مهيئاً ما سيجيء به الغد قدر المستطاع . ومن أهم وجوه هذه الثورة الوجه المتعلق بحركة المرأة وتعليمها وتهذيبها لاعدادها لتكوين الأسرة ، وتكوين

الأمة بالتبع .

أوَ اذكركم بصاحب الإسم الذي لا ينسى ذلك الرائد السابق قاسم أمين ، الذي أرسل صيحته منذ خمس وثلاثين سنة بين شفق القرن الراحل وفجر الفجر المنبثق ؟

والواقع أن دعوة قاسم لم تفهم على وجهها الصحيح . ما فتئنا نسيئ تأويلها إلى اليوم ، ونعلّلها على غير ما أراد . هو أراد تحرير المرأة بالمعنى الجميل العادل المفيد من معاني التحرير ، ولأجل ذلك إذا هو جار على الرجل الأناني الذي ينيخ بكلكله على المرأة فقد كان أشد وطأةً على المرأة نفسها يندد بشرورها وضلالها ، واصفاً الجحيم التي هي تضرم نارها إذا هي جهلت معنى كرامتها ، وأهمية الواجبات التي عليها أن تقوم بها . بل قال إن الحرية معناها الفوضى . بل قال إن الحرية ذات قيود عسيرة دقيقة تختارها المرأة عندما تشعر بأنها كائن إنساني لا يكتسب حقوقه إلا بالقيام بواجباته .

أيها السادة والسيدات ،

من الميسور درس كاتب في كتاب أو في كتب نشرها فنحيط هناك بفكرته ، ونسجل له قسطه من الفضل . ولكن كيف ندرس كاتباً كتب كل يوم طيلة خمسة وثلاثين عاماً ، وكل عام يتألف من ٣٦٥ يوماً . وكيف نستخرج من ذلك العدد الباهظ الفصول التي عالجت تعليم المرأة وتثقيفها وإعدادها لمهمتها الخطيرة ؟

لئن أيّد الأستاذ بركات دعوة قاسم ومضى يستثمرها بقلمه أعواماً طوالاً فذلك ما نعلمه دون أن نطلع على ما كتب فيه . أما في هذه الأعوام الأخيرة فكلنا شاهد بتأييده للحرية النسوية وبارهافها وبإنالتها الشيء الكثير من القبول والإنتشار . كلنا شاهد بأن غرضه من تحرير المرأة هو جعلها زوجةً صالحة ، وأمًا صالحة ، وسيدة بيت صالحة . وكأني به يقول : إن الذي يظن أن الغريزة وحدها تكفي لإيجاد مثل هذا الزوج وتلك

الأم فهو على ضلال ، وإن الذي يظن أن الجدران وحدها كافية لصيانة المرأة فهو على ضلال . وكأني به يقول : إن أمة كريمة تطالب بالحرية والاستقلال حاشاها أن تشيد صرحها على استعباد النساء ، وعلى ظلام الجهل ، وعلى البيوت وقد انقلبت سجوناً .

هذه الثورة الفكرية الشاملة ليس في مصر فحسب ، بل في جميع أنحاء العالم قد بدلت كل شيء ففخمت أهمية الكلمة ، وتناولت بالتغيير حتى معنى الخلود الأدبي . بالأمس كان الخلود نصيب الكاتب الكبير أو الشاعر العظيم أو المصلح الفذ ، وكان خلوده محصوراً في كتاب أو كتب أو أعمال تتداولها الأجيال الآتية فتردد اسمه ، وتلهج بذكره . أما اليوم فالثورة الفكرية والتقدم الآلي وانتشار الثقافة كلها حولت قسماً كبيراً من الأدب الفعال إلى صحف يومية ، ونشرات دورية ، وانقلب الأثر الأدبي حدثاً اجتماعياً محسوساً ملموساً ، كل يوم يثير الرأي العام ، وكل يوم يستحث التقدم العام .

ولقد تطورت الصحافة ، والكلمة التي يكتبها اليوم الصحافي تلقي شرارة في نفوس القارئين ، وتقدم غذاء للجماهير فينمون بها ويتجددون ويحيون . والصحافي العظيم هو الذي أدمج في حركة الفكر وفي حركة المجتمع عنصراً لا يفنى فترك القوم عند رحيله خيرًا مما كانوا عند مجيئه .

ها هي ذي المروج الفسيحة تموج بالسنابل العسجدية التي غدًا تملأ الأهراء قمحاً ، وتفيض على العالمين خيراً . فكيف نتبين السنابل التي قامت بزرعها يد داود بركات طيلة خمس وثلاثين سنة ؟

حسبه خلوداً أننا لا نستطيع أن نبيّن سنابله . وحسبه خلوداً أننا أعجز من أن نحصي البذور التي نثرها في هذه المروج الفسيحة .

وليرقد في أمان وسلام ، فإنه لم يطلب الراحة إلا بعد أن زرع جميع الحبوب التي تناولتها يده من يد الأقدار !

قصة رأس العام

الشمعة تحترق

بقلم الآنسة مي

الهلال : ج (٣٠) ـ **عدد يناير** : ١٩٣٤ . ص ٢٥٧ ـ ٢٦٢ .

وضعتْ الأُخت يولندا فنجان اللبن الحليب على الطاولة الصغيرة القائمة إلى جانب السرير من ناحية الرأس ، وَحَنَتْ على الرجل النائم تقول بصوتٍ خافت :

ـ صباح الخير ، يا قبطان .

فتح الرجلُ عينيه بشيءٍ من الدهشة لأَنَّهُ لم يشعرْ بدخول أحدٍ عليه . وتململ يحاول الجلوس وهو يبتسم قائلاً :

ـ صباح الخير ، يا أختاه

ـ أما زلت نائماً ونحن في الساعة العاشرة ؟

حرَّكَ يدهُ اليسرى مشيراً إلى الصحيفة التي كان يطالعها :

ـ لستُ نائماً . وإنما تعبتُ من القراءة ومن ضوضاء التلغرافات والأَخبار المنشورة في الجريدة ، فأغمضتُ عينيَّ طلباً للراحة .

ثم استدرك بصوتٍ كصوتِ الأَطفال إذ يحملهم الاستياءُ على العصيان :

ـ أو بالحري ما زلتُ نائماً لأَن ملكي الحارس لم يوقظني في هذا الصباح

أيضاً . كان لي ملك حارس يعنى بي فأهملني الآن ونسيني ، ويقظتي ورقادي عنده سيان .

ـ ملكنا الحارس لا يفارقنا ، يا قبطان . هو دائماً معنا . ولكن علينا نحن أن نبحث عنه بعين الروح لنراه .

ـ أنا ، يا أختاه ، لا أرى إلاَّ بعين الجسد .

ـ ليست هي عين الجسد التي نعاين بها وجه الله ، يا قبطان .

ـ أما أنا فحسبي من عين الجسد أنها تبصر بعض ملائكة الله على الأرض ، يا أختاه . أسبلت الراهبةُ جفنيها على عينيها الدعجاوين ، وكانت أهدابها من الطول والكثافة بحيث ألقت ظلاً على أعالي خديها . وقالت بصوتها الرؤوف :

ـ أتيتكَ بالحليب الذي اعتدتَ شربه كلَّ صباح في مثل هذه الساعة . فهلاَّ شربت ؟

ـ أجل . أشرب

قال هذا ومدَّ يدهُ اليسرى تعاون يدَها على حمل الفنجان في توازن . غير أنه لم يشرب . بل ظلَّ ينظر إلى وجهها صامتاً يتذوَّق في سرِّهِ على مهل ما يحسهُ من السرور . ثم سأل :

ـ علامَ لم تأتي لايقاظي من النوم في هذا الصباح ، ولا أمس ، ولا أمس الأَول ، ولا الأَمس الذي سبقه ؟ علامَ جاءتني راهبة غيرك ، وحملت لي أخرى طعام الإفطار ؟

أجابت تشرح في بساطةٍ ومن غير ما تودُّد :

ـ لا أَزورُ في الساعة المبكرة إلا المرضى . والمرضى عندنا كثير في هذه الأَيام . والأطباء صارمون في أوامرهم ، فلا بدَّ لي من تنفيذها شخصياً ، أو الرقابة الدقيقة على تنفيذها لأَتمكن من تقديم تقريري عن حالة المرضى

جميعاً عند وصول الأطباء في الصباح . أما وأنت في دور النقاهة من الحمى التي أصابتك على أثر الجرح فأيٌ أحدٍ يستطيع أن يقوم لديك بالخدمة البسيطة .

ـ إذًا ليت جرحي لم يندمل !

ولمس مكان الجرح من ذراعه اليمنى وقال :

ـ أأفتحهُ لتعاودني الحمَّى فأستحق العناية من جديد ؟

ابتسمتْ بذلك التحفُّظ الذي هو دستور حياة الراهبات وقالت :

ـ الحمد لله على سلامتك . ثم لدي في هذا الأسبوع مشاغل أخرى ـ وبخاصة اليوم ـ فنحن نقوم بتنسيق الكنيسة وبالباسها حلل الزينة لتكون جميلة يوم غد عيد رأس السنة . وسيغادر المستشفى اليوم أكثر الناقهين فينصرفون إلى منازلهم ليقضوا الأعياد بين ذويهم . أما العمل في الكنيسة فيظل متتابعاً حتى اليوم السادس من يناير . وهو يوم عيد الغطاس . فهذا الأسبوع موسم الأعياد كما تعلم .

ـ أنا أبقى هنا الموسم كلّه لأن عائلتي بعيدة ولا اصدقاء لي في القاهرة . اتقبلونني يا أختاه ؟

ـ حسناً تصنع بالبقاء هنا اياماً أخرى ، يا قبطان ، لأن المعيشة في المستشفى اتمّ تنظيماً وتوقيتاً ووقايةً منها في الخارج حيث قد تعرِّض صحتك للانتكاس . وانت بعد لن تشعر بالضجر ، لأننا نعدُّ لمرضانا حفلات صغيرة لطيفة يلهون فيها ويسرُّون بغير ما غلوٍّ ولا إرهاق . أوَلا تشرب الحليب ؟

ـ أشربهُ ، أشربهُ .

وإذ همَّ بتعديل جلوسِهِ لم يتمالك من التأوُّه وإرسال صيحةٍ مفاجئة فأقصت الفنجان عنه قليلاً وسألت :

ـ أي شيء ؟ أتتألم ؟

ـ ألماً لا يذكر ، كلّما حركت ذراعي اليمنى بدون انتباه ، ساعة انسى انها جريح ، فلا احملها على الاستعداد للحركة بشيء من المداورة .

ـ هذا يزول مع الوقت . وهل نمت نوماً حسناً ؟

ـ حسناً جداً . أنام كالطفل ، واستيقظ كالطفل ، وكالطفل اعيش نهاري أنظر إلى الحياة بعينين جديدتين . حسنٌ أن يمرض الجنديُّ أحياناً ليشعر بعطف الناس عليه ، بدلاً من أن يروا فيه دواماً القسوة والجفاء والتأهُّب للمهاجمة والإيلام فيقابلوه بالمثل . أليس كذلك ؟

ـ لكل منا واجبه يؤديه في أمانة تحت رقابة العناية الآلهية ، أيّاً كانت النتيجة . أوَلا تشرب يا قبطان ؟ وبعدئذٍ تذهب إلى الحديقة لرياضتك الصباحية فيتيسر للخدم أن ينظفوا غرفتك ويصلحوا سريرك . أنظر إلى هذا النهار ما أجمله ! لن تجد في غير مصر شمساً كهذه مشرقة في مثل هذا الفصل . لكأننا في قلب الربيع ؛ اشرب وأسرع في النهوض .

استوى جالساً في سريره ومدَّ يدهُ اليمنى يعاون يدها على إدناء الفنجان من شفتيه . وكانت يدُها تتحركُ في بطءٍ رفقاً بيده المريضة . وعندما لمس الفنجان شفتيه لم يشرب هذه المرة ايضاً . ظلَّ ناظراً إلى وجهها المنحني عليه . ظل متأمّلاً في جفنيها المسبلين على حدقتين تخفيان أسرارهما . ظل ينظر صامتاً ويتأمل صامتاً . ثم زحزح يده وأدار بها في تريُّث على معصم الراهبة ، وأصبعاً بعد أصبع لمست اصابعه يدَها كأنما هو يجرِّب عليها قوَّته . ولما شعر بأن القوة لا تنقصُه ضغط بحرارةٍ على اليد التي لم تتحرَّك خوفاً من دلق الحليب ورفقاً بيده المريضة .

رعشةٌ طفيفة دبَّت في اهدابها المسبلة . ولكن وجهها ظل ساكناً مطمئنَّ الملامح كأن شيئًا لم يحدث . وبصوتٍ هادىءٍ على عادته قالت :

ـ اشرب ، يا سيدي .

ـ ما أعذب العذوبة في وجهك ، يا أختاه ! أأنت اكتسبتها بممارسة الصبر في حياتك الرهبانية ، حياة الحرمان والزهد والتقشف والإنخطاف الروحي ؟ أم هي نجمت عن تجلّدك في حضور العمليات الجراحية وتعوّدك العطف على المرضى ومواساتهم ومخاطبتهم رجالاً ونساءً كباراً وصغاراً بمثل ما يخاطب به الرضيع المحتاج إلى العناية والمحبة ؟ أم هذه العذوبة منحة من الله لك ؟

ـ ليس لدى الإنسان شيء إلا وهو من منح الله ، يا قبطان . اشرب وسارع إلى حيث تبهجك أشعة الشمس . سأسأل الأطباء أن يوافوك إلى هناك . لقد باشروا التطواف اليومي بالمرضى في الساعة العاشرة ، ولا يطول حتى يجيء دورك فيوافوك إلى الحديقة .

* * *

خرجت بخطوات لا وقع لها كأنما هي تحتذي خفًّا من القطن . وما سارت في البهو قليلاً حتى ابصرت الجندي « مراسلة » الضابط يقبل عليها متجهاً إلى الغرفة التي غادرتها .

ـ صباح الخير يا أختاه . هل لي أن أدخل على قبطاني ؟

ـ ماذا أنت حامل بيدك ؟ إن القبطان على أحسن حال . بيد أن تشديد الأطباء في وجوب احتفاظه بهدوء الأعصاب لم يتغير . وعلى ذلك خير ألا تقدم له هذه الرسائل التي قد تحمل اخباراً مزعجة .

ـ خطابان لا غير يا أختاه . أما هذا [وعرض ظرفاً كبيراً أصفر] فمخاطبة رسمية من مركز القيادة . والمخاطبات الرسمية التي توجه إلى ضابط جريح عليل لا تكون عادةً مزعجة . هذا إن لم يكن فيها ما يبهج . وأما هذا الخطاب [وعرض ظرفاً ازرق طبع عليه اسم فندق بالاسكندرية]

فواردٌ إليه ممن يُسر بتلقي اخبارهم . [قال هذا وحرك « المراسلة » جانباً من وجهه حركة ذات مغزى] .

ـ إذهب إليه إذن قبل أن يغادر غرفته إلى الحديقة .

استأنفت طريقها متمهلة . وظهرت الكآبة على وجهها إذ هي ترنو إلى اليد التي لمستها يدهُ منذ حين مناجية نفسها : لماذا لمسني بهذه الكيفية ؟ ليس هو اللمس الذي الفته من المرضى عندما يتوجعون ويشكون طالبين تخفيف الوجع متوقعين كلمات الرجاء . ولا هو لمسني من قبل هكذا . لمسه اليوم كان فيه أمر وكان فيه ابتهال أيضاً . أهذا لمس الرجل الذي تحذّرنا من شرّه أمنا الكنيسة المقدسة الرومانية الرسولية الكاثوليكية ؟ أكذلك يلمسُ الرجالُ النساء في حياة المجتمع ؟ يا إلٓهي اغفرْ لي لأني لم أبْد استياءً ولم أشعر باستياء ! اعف عن الغبطة الرحيبة التي غمرت قلبي ! انها لغبطةٌ أثيمة ... يا له من شاب فتان ! يا لنظرهِ الطويل العميق ولشفتيه المليئتين حينما تسارعان إلى الشرب كأنهما تغرقان في اللبن كلمات تحومُ عليهما ! شيءٌ منه يلتصق بيدي . يدهُ القتْ في يدي شرارةً . يا يسوع الطفل ، طهِّر يدي من الوصمة العالقة بها واقصِ عني هذه التجربة ! ...

° ° °

مرَّت الساعة الحادية عشرة والأخت يولندا رئيسة الممرضات تقوم بعديد واجباتها من محادثة الأطباء وتلقّي أوامرهم ، إلى زيارة المرضى والاستماع إلى شكاياتهم ، إلى تقديم الدواء لبعضهم ، إلى رقابة الخدم في تنظيف الغرف المتغيب أصحابها في الحديقة أوعلى الشرفات . وعندما وصلت إلى غرفة القبطان وجدت الخدم فيها فأمرت بتبديل ملاآت السرير وأخذت تنزعها بيدها عن الفراش . عندئذٍ عثرت على الرسالتين تحت الوسادة . فأدركت أن القبطان فضهما وقرأهما قبل الخروج فتركهما تحت الوسادة مفتوحتين . حملتهما لتلقي بهما على الطاولة دون تعمُّد قراءتهما . ولكن

نظرها استقر عليهما عرضاً . وإذ تلت الكلمات الأولى في الرسالة الزرقاء نسيت أنها راهبة وأنها امرأة مهذبةٌ لا يجوز لها الاطلاع على الرسائل الشخصية ولو وجدتها مفتوحة . وجرى نظرها على السطور يلتهمها فقرأت ما يلي :

« عزيزي موريس »

« كنت دواماً تقول عن خطيبتك هذه انها صاحبة سياسة بارعة . وأنا الآن أوافقك على رأيك فيّ وأصارحك بأني أستحقُّه . ذلك لأني أفلحت في اقناع اميلي ابنة خالتي بزيارة مصر خلال عطلة الموسم مع زوجها بدلاً من الذهاب إلى « الريفيرا » على عادتهما . ولا يهمني من أمر عطلتهما إلاَّ التمكن من مرافقتهما في السفر لأصل إليك فأراك ولو يوماً واحداً قبل عودتك إلى المعسكر .

« أتستطيع أن تتخيل مبلغ قلقي وعذابي كل هذه المدة منذ أن علمتُ أنك جريح عليل ؟ أحدِّثك الآن عما قاسيت لأني اعلم انك شفيت . أُعلم ذلك بفضل قنصلنا في القاهرة الذي تلقينا منه قبل سفرنا ما ينبىء بقرب خروجك من المستشفى .

« وصلنا الاسكندرية في هذا الصباح بالباخرة « ماريت باشا » ، وغداً عندما تتلقى أنت هذه الرسالة نكون نحن على أهبة السفر بقطار الظهر إلى القاهرة . فنصلها حوالي الساعة الرابعة ، على ما يقولون لنا ، ونذهب تواً إلى القنصلاتو لنسأل عن مكان إقامتك . فليتنا نلتقي بك بدار القنصلاتو في تلك الساعة لتتم سعادتنا !

« ولكن حسبي سعادةً أني سأراك غداً في صحة تامَّة ، فأقضي معك آخر يوم من السنة الراحلة وأول يوم من السنة الجديدة ! حسبي سعادة أن سيتيسر لي أن أخدمك وأدلِّلك وأجعلك تشعر بشيءٍ من حبي لك !

« ألمس عن بعدٍ ذراعك الجريح في شوقٍ ولهفة ، وإلى غد !

ميمي »

٭ ٭ ٭

الكنيسة هادئة في أواخر الليل ، ونور المصابيح ناعسٌ كعينين أضناهما السهر . وعلى الهيكل شمعة تذوب ولم يبق منها إلا القليل . شمعة وضعتها الراهبة الممرِّضة على نية الضابط الذي مضى يجتمع بخطيبته ، فاشترك لهيبُ الشمعة مع الراهبة في الابتهال إلى الله أن يشمل القبطان وخطيبته بعنايته وأن يجعل حياتهما هنيئةً سعيدة .

لم تشأ الراهبة أن تلبي طلب القبطان الذي ألحَّ في استدعائها ليشاهدها ويودعها ويشكرها قبل مغادرة المستشفى . كيف تودِّعه وتسمع منه كلمات الشكر ؟ بل كيف تجرؤ على مجرَّد النظر إليه ؟ لا ! هي تشتغل في الدير حيث هولا يستطيع الوصول إليها ...

وها هي ذي قد قضت الليل كلَّهُ في الكنيسة جاثيةً على ركبتيها تخفي وجهها باليد التي حرقها لمسهُ ، وتصلّي قائلة : لقد وهبتك حياتي دفعةً واحدةً ، يا إلهي ، فيدي لك وليست لمخلوق . وأقلعتُ عن سبل العالم لأسير في سبيلك . وتركت ملذات الدنيا وأفراحها لأطلب الآلام والأوجاع التي تدنيني من طهرك . قدَّمت حياتي شمعة تحترق عند قدميك احتراق هذه الشمعة الصغيرة على الهيكل . فما هذه العاصفة التي عصفت بي ؟ افتغفر لي ضعفي ، ايها الإله الرحيم ؟ أتصفح عني لأني وجدتُ في لمس الرجل الأثيم حلاوةً لم أجد مثلها ، يا يسوع الطفل ، في حبك وعبادتك ؟

« ميّ »

نشيد إلى الشرق

المقتطف : ج (٨٥) ـ نوفمبر ١٩٣٤ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠ .

نقله جورج نيقولاوس

الآنسة « ميّ » اشهر من أن تعرّف . فكتاباتها منتشرة في كل صقع . واسمها ملئ الأفواه والأسماع . ولكن لا نظن أن كثيراً من قراء العربية يعرفون أن هذه النابغة شاعرة فرنسية وكاتبة بلغةِ ابناء السين لا يشق لها غبار . ولذلك ارتأينا أن ننقل لها هذه القطعة وهي من الشعر المنثور ليجتلي القراء محاسن كتابتها الفرنسية ، كما اجتلوا محاسن كتابتها العربية .

أيها الشرق !

يا شرقي الفسيح الجموح الليّن العريكة !

يا شرق العظمة واللطف والشهامة والحماسة والشهوة العاصفة في شدةٍ كسموم الصحراء ! .

إن تصوراتي تتمثّلك كأنك ضمنَ إطار . وها هو فكري تتبيّن له نقائصك وشدائدك ، واحتياجاتك وتضاربُ نزعاتك . أنت فقير بنظمك وترتيبك ومنهاجك ، أنت أعزل قد جردك قضاء الزمن . غير أن معائبك كان فعلها في تجريدك أكثر من فعل قضاء الدهر وقدره . إن العلومَ تَنقصُكَ ، ومواردك العديدة المبعثرة متملّصة منك . وانت مُقسَّمٌ لا مجموع لك .

أعرف هذا كلّه . ولكن ثقتي بمستقبَلك راسخةٌ لا تتزعزع ، مثل ثقتي

التامة بالحياة .

فما هي اذن هذه القوة التي تربطني بك ؟ لماذا يحبَّب إليَّ من كلامك تلك النبرات الشجية المتناسقة ، التي تبعث في القلوب الحنينَ إلى الوطن ، وتلك اللهجات الحلقية السريعة ، وتلك الصيحات الداوية بخيلاء الجنس ، التي تنشر اتقادَ مناطقك الحارة ؟

ما هي تلك المجانسات العديدة الفالتة غير الممسوكة ، التي تربطني بشعوبك المتراكمة في بلدانك الكبيرة ، وفي ظلِّ طلولك المجيدة وآثارك الخالدة ، كما تربطني بأعرابك الرُحَّل الذين يتفيأون الخيامَ في صحاريك القاحلة المجدبة ، وبالقبائل المبعثرة على ضفاف انهارك أو المتجمعة حول ينابيعك ، وبالقوافل التي تحدُّ أنجادك وأغوارك وبجميع تلك الفصائل المنتشرة في جبالك ووِدْيانِكَ ؟

بأيِّ سرٍّ غريب أفضت إليَّ هذه اللغة العربية في غابر الأزمان ، حتى أني عندما أسمع لهجة من لهجاتها أشعر وكأني وجدت تفسيراً لما لا يفسرُ في نفسي ؟

لماذا كلما وقعتْ عيني على فردٍ من أفرادك استشعر عرفاناً للجميل يختلج في داخلي ، وتحناناً لا يستشعرهُ المرءُ إلاَّ في لقاء قد قطع منهُ الرجاء بعد فراقٍ طويل الأمَدَ ؟

كلُّ غريزةٍ فيك ملحّة بعيدة الأغوار ، تتملّكني وتسخّرني لك ، أيها الشرق ، أنا الذرّة الطفيفة بين مليارات المليارات من ذرّاتك ! ورغماً عن صِغَري ، لقد أودعت فيَّ صحاريك ومروجك ، وقُنَنَكَ البعيدة المنال ، وأغوارَ أوديتكَ ، وسيئاتك وحسناتك ، وزعازع مُناخِكَ المَهُول ، ونشيد مزاميرك النائح ، ولياليك المخملية العميقة ، ووطيسَ شمسك المحرق ، وقلوبَ بنيك المقدامة الشديدة الحمية ، وقواك الابتكارية المتلازمة التي لا يَنْضبُ لها معين !

أترى هذه السماء ، التي هي سماؤك ، تنبسطُ في لونها السَمَنْجُوني الزاهي المَوَشَّى بالذهب والفضة والأُرْجُوان ، وقد تمازجت هذه الألوان وتداخل بعضُها ببعض ؟

إنها السماءُ التي أوْحتْ بأعظم الرسالات إلى الإنسانية ، وأظَلَّتْ تفتُّح الحياة وسيول الوحي والنبؤآت . لأنك عُيِّنْتَ ، ايها الشرق ، لتكون الوطن الأول للعبقريات الأُولى وللأبطال والملْهمين !

لقد كنتَ في حاجةٍ إلى الراحة ثلاثة قرون اكتسبتها بعد كل تلك القرون المليئة كَدّاً ومجداً ، وكان مشروعاً أن مدّ مدنياتك المحسن العظيم يرتدُّ لزمن ما بجزْرٍ محتوم ، تحت ضغط سنّة التعاقب الظالمة التي لا تهادن ولا ترحم .

ولكن ها تلك السنّة نفسها ، التي تتحكم بمد البحر وجزره الجديدين وتضبطهما تقرع ساعة اليقظة والسير إلى الأمام . فنهوضاً اذن ، رغم قيودك ورزاياك ، وانكسار عزمك وخمود همتك !

نهوضاً !

حولك يناضلُ الأقوياءُ ويفوزون ممجدين نفوسهم في تأليهِ الغَلَبة ! فهلّا سمعتهم مع ذلك يئنُّون في الظلام : « إلى متى ننتظر الفجر الذي سيسطع ؟ »

مساكين أنتم ايها الأشداء والأقوياء الضعفاء ! ايها العلماء العُظام ، الذين يجهلون الأبجدية !

أيمكن أن يتلألأ الفجر دون أن يَغْمر النورُ المشرقَ ؟

أنت برج الضياء ، أيها الشرق ! أنت مُوزّع أشعة الحياة !

فنهوضاً اذن ، وإلى العمل لتثقف نفسك ! وعندئذٍ يبزغ في أُفُقِك مشعلُ الأضواء واللهب !

كلماتٌ في الصداقة

مجلة الرسالة : العدد ٨٤ ١١ فبراير ١٩٣٥ ص ٢٠١ ـ ٢٠٣ .

مهداة إلى الأستاذ أحمد حسن الزيات . وإلى الدكتور طه حسين . وإلى أصحابهما جميعاً .

قد تبدو هذه الكلمات غريرةً للذين لا يرون في الصداقة إلا وسيلة نفعيَّة تعودُ على كلٍّ من المرتبطين بها بفائدةٍ محسوسة : كالظهور بمظهر العظمة ، أو التمكن من دحر منافس ، أو التعاون على الأساءة إلى شخص أو أشخاص ، أو جنْي ثمرةٍ ملموسة وتحقيق غرضٍ ماليّ أو اجتماعيّ .

ونخطئ إن نحن نسبنا إلى أهل هذا العصر وحدهم الصداقة المغرضة ، لأن تلك كانت شيمة الكثيرين في جميع العصور وعند جميع الأقوام . قد تكون في هذا العصر أكثر شيوعاً . وإنما نحن أشدّ شعوراً بها لأننا نعيش في وسطها ، ويجبهنا وجهُها الخادع أنى توّجهنا .

فإذا أنت طلبتَ من الصداقة شيئاً غير تلك الفوائد المتداولة ، إذا طلبتَ العاطفة ، والفائدة الأدبية المجرَّدة ، وتلك اللذة البريئة التي تجدها في محادثةِ الصديق بالكلام أو بالسكوت ، وشعرتَ باحتياج ملحٍّ إلى ذلك كاحتياج الدم إلى النور وإلى الهواء ـ إذا أنت طلبتَ هذا من الصداقة وعند الصديق ، فما أنتَ في نظر تلك الفصيلة من الناس إلاَّ من أهل الشذوذ والغباوة ... على الأقل !

وعلى رغم كل ذلك فموضوع الصداقة من الموضوعات التي نُقبلُ عليها في اهتمامٍ ولهفة. لو جاز لي أن أشير إلى خلقٍ خاص فيَّ، قلتُ إني أشعر بشيء غير قليل من الأسف كلما انتهى إليَّ أن صديقين كريمين تجافيا بعد التصافي. وقد يكون أسفي ناجماً عن نوع خاصّ من الأثرة لا أدركهُ تمام الادراك. قد يكون ذلك أنّ انفصام عرى الصداقة بين الآخرين كأنما ينالُ من إيماني بالصداقة ويزعزع من رجائي فيها.

° ° °

أُولى ذكرياتي في هذا الموضوع ترجع إلى قصة فرنسية، هي «أبرص بلدة آووستا» بقلم كزافييه دي ميستر، وأظنني قرأتها لأول مرة وأنا في سنّ العاشرة تقريباً. فيها وَصف ذلك الجندي الكاتِب اجتماعَهُ برجلٍ ابتُلي بداء البرص المروّع، فنبذه الناس من مجالسهم، وحايدوا الدنوَّ من الدار التي عاش فيها وحده حبيساً طوال الأعوام.

تُطوّح السبيلُ بالكاتب الغريب إلى تلك البلدة وتسوقهُ إلى الدار المخيفة، ويلجُ باب الحديقة فيُبصر الرجل الموبوء وهو لا يدري بحالته. وعندما يحذّرهُ الأبرصُ ويفضي إليه بمحنتهِ لا يلوذ الكاتبُ بالفرار، وإنما يقتربُ منه ويجلس إليه مستفسراً عن معيشتهِ وأحواله، وعمّا يحسّهُ في الابتعاد عن أولئك البشر الذين هو منهم، فيعترف الأبرصُ بأن آلامه الأدبية تفوق أوجاعه الجسدية، يعترفُ بعذابهِ في حزنٍ هادئ يشبه الامتثالَ والرضى، يعترفُ بحاجتِهِ إلى الشعور بأن قلباً يعطفُ عليه ويحنُّ إليه، بأن يداً تصافح يدهُ، بأن صدراً يتلقاهُ ويحتضنهُ، حتى أنه لشدة حاجته تلك يحتضنُ أحياناً جذوع الشجر ويضمُّها إليه ما استطاع، كأنها كائناتٌ إنسانية. يعترف بشوقه إلى سماع صوتٍ بشري، إلى تبادل السلام والحديث مع من يفكّر تفكيرهُ ويحسّ إحساسه، إلى جميع تلك الأمور التي عرف قيمتها لأنهُ حُرِمَ منها، والتي يتمتّعُ بها الجميعُ جاهلين أنها منحةٌ ومتعةٌ لأنها عاديةٌ بينهم.

ويقولُ فيما يقول وكأنّه يلخّص جميع صنوف عذابه في هذه الكلمة :

ـ لم يكن لي يوماً صديق .

والكاتب الذي عرف كيف يُصغي إلى شكايتِهِ في هدوءٍ ورباطة جأش ، تهتاج تلك الكلمة شجونهُ وتحزُّ الشفقةُ في قلبه فلا يتمالك من الهتاف :

ـ يا لك من تَعِس !

تلك الكلمة من الأبرص ، وردّ الجندي الكاتب عليها ، استقرتْ في موضع عميق من روحي عند قراءة القصة ، بل القصة كلها تجمعت عندي في تلك الكلمة وفي التعقيب عليها ، وقد يكون لها الأثر الكبير في تكوين إيماني العنيد بأن لا بدَّ من وجود الصداقة ـ مع اعتقادي بأن نفاسة الصداقة نفسها تحتم فيها الندرة .

* * *

لسنا في حاجةٍ إلى دهور نعيشُها لندرك كم في هذه الحياة البشرية من خبثٍ ومراوغةٍ ونفاق . اختباراتٌ قليلة تكفي لتدلنا على أنّ بعض المُثُل العليا تخذلنا وتصرعنا بلا رحمة ، ثم تنقلب مسوخاً ساخرةً مزرية ، لا تلبثُ أن تكشر عن أنيابها ، مهدِّدة متوعدةً ـ وهي التي تجلببت في نفوسنا من قبل جلباب القدسيّةِ والعبادة !

اختباراتٌ قليلة في أحوال معيّنة ، وأحوال مفاجئة ، تكفي لتظهر لنا أن من الناس من يتاجر بكلِ عاطفةٍ صالحة لتنفيذ أغراض غير صالحة ، ومن يستغلُّ كلَّ استعدادٍ كريم لنتيجةٍ غير كريمة ، ومن لا يكتفي بالظلم والإجحاف ، بل لا يتورّع عن إيذاء الذين أخلصوا النية في معاملتِه ، ولم ينلهُ منهم إلاَّ الخير . وكم مِن مذيعٍ أنباء الصداقة لا لسببٍ آخر سوى التوغُّل في الايذاء باسم الصداقة ، في أساليب سلبية أو إيجابية لا يعلم إلاَّ هو كم هي خبيثة وكم هي فعّالة .

وكيف تعامل أولئك الناس عندما تكشف عمّا يُضمرون ؟ أتحاسنهم ؟ إنهم يحسبون المحاسنة ضعفاً ومداراة ، فيمعنون في الأذى. أتخاشنهم ؟ إنهم يزعمون المخاشنة جحوداً ومكابرةً فيمعنون في الأذى . ولعلّ الشاعر العربيّ كان في حالةٍ كتلك عند ما أرسل هذه الزفرة المنغومة التي هي من أبلغ ما أعرفُ في معناها :

عذيري من الإنسان ، ما إن جفوتـهُ
صفا لي ، ولا إن صرتُ طوعَ يَـدَيهِ
وإني لمشتاقٌ إلى ظـلّ صاحـب
يـروقُ ويصفو إن كـدرتُ عليـهِ

يأس هذا الشاعر يدلُّ على حاجتهِ الصميمة إلى صداقة نقية غير مغرضة . فنحن مهما تنكّر لنا معنى الصداقة الصافي ، ومهما غدر بنا الغادرون فعلمونا الحذر ـ فاننا لا نستطيعُ إنكار احتياجنا العميق إلى الصديق ، لأنّ لدينا مُرغمين كميةً من المودة والوفاء والتسامح والغفران والتضحية لا بدّ من *تصريفها وإنفاقها لتزيد بالعطاء غنًى . وعند من نصرفها وعلى من ننفقها* إلا على الأشخاص الذين نراهم قمينين بأنبل ما عندنا من فكرٍ ، وأصدق ما لدينا من عاطفة ؟

• • •

أيها الذين ربطت الحياةُ بينهم بروابط المودة والإخاء والتآلف الفكريّ والنبل الخلقيّ ، حافظوا على صداقتكم تلك و قدروها قدرها ! فالصداقة معينٌ على الآلام ومثارٌ للمسرات ، وهي نور الحياة وخمرتها ، وكم تكنُّ من خير ثقافيٍّ وعلميّ للنابهين !

لا تخافوا أن تكونوا من أهل الشذوذ والسذاجة في نظر المغرضين ! ألا بئست نفساً فقدت كل سذاجة ، وسارت على وتيرةٍ واحدة ، لا تعيش

إلَّا للغرَض وبالغرض ! وما أفقرها وإن كانت ثرية وما ألصقها بالثرى وإن كانت عليّة ! وحسبكم أنتم أنكم بإيمانكم بالصداقة توجدون الصداقة ، وبممارستكم أساليب الصداقة إنما تكوِّنون خميرة الصفاء والصلاح والوفاء !

« ميّ »

السرّ الموزّع

الرسالة : العدد ٨٧ ـ ٤ مارس ١٩٣٥ ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨ .

وسط الهرج الذي يحدثُ عادةً عند انفضاض مجلسٍ من المجالس تناثر الزائرون في الردهة يهمُّون بالانصراف مودّعين أهل الدار وشاكرين لهم حفاوتهم ، متبادلين مع هؤلاء وأولئك التحية والمصافحة ، متواعدين فيما بينهم على الاجتماع في فرصةٍ قريبة .

أما ذلك الفتى فمضى يتسلل خلسةً ، هرباً من كلّ شخصٍ خطر وللتملص منهم جميعاً : « والشخص الخطر » في تلك الحال هو أيّ شخص قد يشتبك معهُ في حديث ويصحبهُ إلى الخارج . إنه يحتاج إلى الوحدة لا يعكر عليه صفاءها أحد ، لأنه في تلك الحالة النفسية التي تبدو فيها الحياةُ طريفةً وتبدو فيها الخليقةُ وكأنها خرجت الساعة من يدِ الباري غضةً جديدةً .

خرج إلى الرصيف وجال نظرهُ يبحثُ بين الناس والسيارات فاستقرت عيناه على خمس فتيات من اللائي حضرن الاجتماع ، وقد أحطن بسيارة كبيرة أخذن يتوارين في داخلها الواحدة بعد الأخرى ، فكانت الأخيرة في التواري صاحبةُ الثوب ذي الزرقة « الكهربائية » . فجهد الفتى ليرى منها جميع حركاتها فرأى فيما رأى أنها التفتت إلى الوراء ، شأن من يبحث عن شيءٍ أو شخص . وسرعان ما لمحتْ رأسهُ والتقت عيناها بعينيه عن بعد . فأدركت أن نظره يتبعها ويرقبها ، وأدرك هو أنها تأخرت والتفتت لتبحث

عنه . فما أن تلاقى نظرهما وفاجأهما ذلك الادراك حتى أعرض كلٌّ منهما على عجل كأنما هو يخجل بانكشاف أمره . وعندما تحركت السيارة مندفعةً إلى الأمام أرسل الفتى نظره يشيعها في حرية واطمئنان .

ـ هأنذا ! أتنتظرني أم تبحث عني ؟

لقد وقع ما كان يخشاه ، ولحق به زميل لم يكن ليتحاشى مصاحبته أو ينفر من حديثه عادة . ولكن الآن ...

ـ هيا بنا إلى جروبي !

فتلكأ الشاب قليلاً وقال : ـ إني على موعد .

ـ أيّ موعد ؟ ألم نتفق عندما جئنا هذه الدار على موافاة أصحابنا عند جروبي بعد الخروج من هنا ؟

ـ آه ... نسيت !

ـ أنسيت الموعد أم نسيت اتفاقنا ؟

ـ نسيت الموعد ...

ـ نسيت الموعد فلم تذكره إلاّ على الرصيف ... إذاً أوصلك بسيارتي إلى المكان الذي تقصد إليه ، ثم أسبقك إلى جروبي حيث توافينا بعدئذ .

رأى الفتى أن لا مفرّ من المقدور . ولو نجح في التفلت من صاحبه هذا فليس مضموناً أن يتفلت من غيره في مكان آخر . فتراخت عزيمته واستسلم :

الواقع أن الموعد اختياري يمكن تأجيله . هيا إلى جروبي .

أما الفتيات الخمس فقد سارت بهن السيارة إلى ناحية الجزيرة وهن يتحدثن جميعاً في آن واحد وليس بينهن من تصغي . وعلامَ الإصغاء ؟ المهم هو الكلام . وقد سُرّت الفتيات بتلاقيهن في هذا الاجتماع ، وسررن باتفاق

والدتهن بعده على الذهاب معاً لتأدية فروض التعزية في بعض البيوت ، فاتفقن فيما بينهن على ركوب سيارة إحداهن التي تعهدت بأن « توزع » صاحباتها على بيوتهن مجاناً لوجه الله الكريم وبدون « أكْسِيدان » . وثمَّ فرصة مواتية لتبادل الآراء وإبداء الملاحظات على حفلة الاستقبال وعلى الذين حضروها ، إذا تيسر شيء من ذلك عند ما يأبين جميعاً احتمال فريضة السكوت ... بيد أنهن سكتن فجأة عندما أنشأت إحداهن تنتقد هندام السيدات وتبرجهن وذوقهن وجمالهن . هذا حديث لذيذ حقاً ، يوافقن عليه ويؤيدنه وإن كن في قلوبهن مقتنعات بعكس ما يقال . وإذ توغل النقد فأمسى لاذعاً ، طربن طرباً ورنت ضحكاتهن بريئة ، في نظرهن على الأقلّ ونادت إحداهن صاحبة الثوب الأزرق قائلة : ألا تشاركيننا في الضحك ؟ ألا تسمعين ؟

ـ أنا اتخذتُ لي محلاً مختاراً قرب « الشوفير » ولذلك أصبحتُ مسؤولةً عن سلامتكنّ ، وعلى أن أظلَّ هادئةً لئلا يحدث لنا « أكسيدان » .

ـ بعد الشرّ ! إذا تحتم « الأكسيدان » فليكنْ بعد وصولي إلى البيت سالمة . وها قد وصلنا والحمد لله ! فتستطيعين الآن أن تستبدلي بمكانك مكاني داخل السيارة .

وبعد وقوف السيارة ونزول الفتاة التي كانت تتكلم ، حدثت مناقشةٌ لاقناع جارة السوّاق بتغيير مكانها . فأبت مؤكدة أنها هنا على ما يرام ، وأنها تريد حراستهنّ إلى النهاية . واستأنفت السيارةُ السير والفتيات يضحكن من جارة السوّاق لأنها « كونسرفاتريس » وينصحن لها بأن تلبس العمامة للاندماج في هيئة كبار العلماء في الأزهر .

كانت صاحبة الثوب الأزرق تسمع لغوهنّ ولا تعي معناه . إنها بعيدة عنهنَّ وعن العالم بما فيه ومَن فيه ، بعيدة عن النيل الذي يجري تحتها ، عن سحر الجزيرة المنتشر حواليها ، عن جمال الغروب وقد تمازج فيه انهزام

النور واقتحام الظلام . لقد حدث في ذلك الاجتماع شيء مدهش قلب الدنيا رأساً على عقب . وهو بعدُ شيء بسيط يكاد يكون عادياً ، وكأنها كانت تنتظره على غير معرفةٍ منها .

اتفق أنَّ فتى كان على مقربةٍ منها في ذلك الصالون ، فصنع لها مثل ما صنع لغيرها ، ومثل ما يصنع كلّ رجل له ولو بعض الإلمام بآداب الاجتماع . كانت فتاةُ الدار تبذلُ جهدها مع معاونيها ومعاوناتها لإرضاء الضيوف وقد تعبت كثيراً في القيام بمهمتها . فسارع ذلك الفتى إلى مساعدتها فجرّ أمام صاحبة الثوب الأزرق طاولة صغيرة وضع عليها قدح الشاي وجال يقدّم ما يصحب الشاي من قطع الحلوى الصغيرة الجافة . فتناولت صاحبةُ الثوب الأزرق قطعةً ورفعت ببصرها إليه في ابتسام ، وقالت : « مرسي » . وكان عليها أن تردّ بنظرها في الحال إلى جارتها التي كانت تتحدث حديثاً طويلاً . ولكنها لم تردّ نظرها ولم تخفضهُ . لأن نظرهُ سار رسولاً إلى أعماق عينيها ، إلى أعماق جوانحها ، إلى أعماق كيانها ، فاهتدى هناك إلى شيءٍ كان يطلبه ، ولم تدر هي ماهيته . وكان وجههُ جادًّا ونظرهُ جادًّا ، شأن الرجل عندما ينبه إلى أمرٍ هامٍ .

فجمدت الابتسامة على شفتيها ، وكأنَّ السرّ الذي وجده فيها يسأل السرّ الذي بعث به نظره : « ماذا ؟ » . فخيل إليها أن سرّه يجيب : « أردت أن أنبهك فقط ... لأنكِ نبهتني وأنتِ لا تعلمين » .

لحظة لا غير ، لحظة لم ينتبه إليها أحـدٌ من المحيطين بها ، ولكنها كانت طويلةً مليئةً كالدهور . وتكررت تلك اللحظة عندما التفتت في الشارع فلمحتهُ يشيعها ، وشعرت بالسرّ مقبلاً من نظره البعيد ، يتوغل في كيانها من جديد . وفي هذا المساء الجميل المتهادي في رفقٍ على هذه الشواطيء الفتانة ، هي لا تعي شيئاً ولا ترى أحداً . الوجود كلهُ تلخص في ذلك النظر

وفي السرّ الذي يحتويه . على صفحة الماء المائجة نظرٌ مليء بالسرّ . في الفضاء حولها نظرٌ مليءٌ بالسرّ . في الغصون المتشابكة نظرٌ مليءٌ بالسرّ . في الأبعاد المترامية ، في ألوان الشفق ، في هبوب النسيم ، وبخاصة في صميم كيانها نظرٌ مليءٌ بالسرّ يهمس : أردتُ أن أنبهك ...

ـ أله مثل هذا النظر مع سائر النساء ؟

هرولت السيارةُ في شارع الجيزة ولوت متحولةً إلى ناحية الروضة لتعود إلى المدينة من شارع القصر العيني . وطول الطريق على صفحة الماء ، في امتداد السبل ، في رؤوس الأشجار ، في المركبات والسيارات ، في أشباح السابلة ، في واجهات المخازن ، في مصابيح الشوارع ، في كل مكان لم يكن هناك إلاّ ذلك النظر الواحد وسرّه المكنون .

ـ أهذه طريقتُه في النظر إلى النساء ؟

ووقفت السيارة فنزلت صاحبة الثوب الأزرق مودّعة صويحباتها ، وكأنها تتكلم وتتحرك مرغمةً . ودخلت مخدعها ، فإذا بالنظر ينتظرها هناك ، مع أنها لم تتخيل وجوده عندما غادرت هذا المكان قبل ثلاث ساعات .

دنت من مرآتها تتعرف فيها هيئتها فرسمت لها المرآةُ وجههُ لا وجهها ، وأقبل النظر يتسرّب إلى كيانها مع سرّه . فتأملتهُ ملياً وسألت :

ـ ألك مثل هذه النظرة مع غيري ؟

فلم تسمع لا من النظر ولا من نفسها الجواب

أطالت التحديق في المرآة ، وقالت تخاطبهُ : ـ أين أنت الآن ؟كيف تجري حياتك ؟ كيف تجري حياتك كلّ يوم ؟ ماذا أنت صانع بنظرك في هذه الدقيقة ؟

في تلك الدقيقة كان الفتى بين أصحابه عند جروبي ، وقد رفع كأس

الوسكي إلى شفتيه ناظراً بعينين ناعستين إلى الغادة الجالسة قربهُ في ثوب عاجيّ ، وقائلاً ببطء :

ـ أشربُ « سرَّك » .

« ميّ »

مساجلة الرمال

أفواج عديدة من الرمل تتململ شيئاً فشيئاً . فوجاً بعد فوج وتتحدث في أواخر الغلس .

الرسالة : العدد ٨٤ ـ ١١ فبراير ١٩٣٥ ميلادية ـ الموافق ١٢ محرم هجرية ـ ص: ٥٦٣ ـ ٥٦٤ .

ـ الظلام يولّي هارباً ، وعمود الفجر يكاد ينشقّ . عما قليل تشرق الشمس فلا يلبث قرصها أن ينقلب أتوناً يُصلينا نار السعير .

ـ سيان لدينا الليل والنهار . كل يوم ننتظر من الظلام عذوبةً تحت أنوار الكواكب الواهية . ولكن حرارة الشمس تظلُّ مستودعة في كياننا فنلبث في إتقادٍ واضطرامٍ يوماً بعد يوم ، وليلةً بعد ليلة .

ـ إنما جعلتنا الأقدار متحاذيات متلاصقات لنفرش هذه الأرض ونكوّن منها الصداة المحترقة . يتهموننا بأن لمسنا يشوي اليد والقدم شيًّا ، ولكن أَلَسْنَا نعاني في كياننا المقدور علينا من عذاب السعير ؟ ودِدتُ لو أنَّ لي دمعاً أذرفهُ من فرط السآمة والحنق والألم !

ـ طالما شهدنا الخلائق تهبط علينا وقد أضناها التعب والوصب ، فنفق الحيوان على صدرنا ، ومات الانسان بين يدينا ، ووجد كل منهما عندنا ملجأً طبيعيًّا يتلقاهما ويضمهما إليه . ونحن الجائعات الظامئات المتعبات على الدوام ، ليس لنا من يرثي لحالنا ويسعفنا . نحن التائقات إلى

التفلت من حالتنا الراهنة ، ليس لنا أن نمضي في علوٍّ ما ونهبط في مستقرٍّ غير هذا . واتعبي من هذا الوجود القاحل في ديمومة السكوت والجمود !

ـ أوَلا تتحركين وتنتقلين عند ما تطؤك سنابك الخيل وأخفاف البعير وأقدام الإنسان ، لدى مرور هاتيك القوافل التي ما فتئت تطوينا منذ أن كان الدهرُ وليداً ؟ .

ـ ليست هذه هي الحركة التي ننشد . إن شوقاً عميقاً فينا يتلهَّف على حركة من نوع آخر .

ـ كم من حركةٍ مفاجئةٍ خبرتُ عندما عصفت بي السموم في النهار أو الحَرور في الليل ! زعازع وأنواء انتزعتني في عنفٍ من مقرّي إلى مقر آخرٍ ، فما كنتُ منتقلةً إلّا من الرمضاء إلى الرمضاء حيث السعيرُ دائمٌ والأوار مقيم !

ـ وأنا تلقَّفتني العواصف غير مرة . فحطت بي يوماً عند ساحل البحر فامتزجتُ بالماء ورسبتُ في القعر . وأغفلني هناك زمناً الدهرُ الوسنان . ثم قذفت بي الأمواج على الشاطئ ، فتناولتني الزوبعة الهوجاء ، وردَّتني إلى مستقري في هذه البطحاء !

ـ وأنا كم حدت بي الريح إلى حيث الينابيع تتفجَّر والمياه تجري ! إلى حيث الأرض كريمة والأشجار ظليلة ، وقد نوَّرت الأزهار هنا وهناك وهنالك على صفحة الروض ، وتشابكت الرياحين بمثيلاتها من شذيِّ النباتات فعبق الهواء بأريج العطور ! ...

ـ لا تذكرنَ الماء والعطر والظلال لرمالٍ شقية قضى عليها بالمحـل والاضطرام والصدى ، لا ترهفن فينا أشواقاً تأبى التحقيق !

ـ أتوق إلى الذوبان في سائلٍ ما ، ولو كان ذياك السائل القاني الذي رأيناه أحياناً على جسد الإنسان والحيوان ! ولكننا غير قابلات للجرح الذي يغسل قحلنا بنجيع الدماء ، ولن نكون يوماً قمينات بابتسامة الحياة وعذوبة الحنان .

قضي علينا بأن نكون دواماً في حكم الموتى ، وقد حُرمنا نِعَماً يجنيها غيرنا في جنَّةِ الأرضِ .

ـ أنكون في حكم الموتى ونحن نشتاق ونتعذَّب ؟ ألا ليت كلّ قافلة عابرةٍ تسير بي إلى حيث ينيخ الركبُ ! حيث الخيمة المضيافة والناس يضرمون النار ويأكلون ، وينهلون الماء ويرتوون ! واحنيني إلى هناء المضارب ! واحنيني إلى كيانٍ قابل للريّ والارتواء !

ـ لو كان لي أن أرجو الوصول يوماً إلى تلك الحالة الراغدة لأعانني الرجاء على الاحتمال ، وكان لي منه العزاء والسلوى ! ولكننا في هذه البطاح الصَّماء البكماء ، إنما وُجدنا لنقطع كلّ صلةٍ بين الحياة والحياة !

ـ ويك ! ماذا تقولين ، نحن قاحلات جائعات ظامئات مشتاقات ، ولكننا وُجِدنا لنكون صِلةً بين الحياة ولباب الحياة ! .

ـ أوَلا ترين الفجر يتلألأ في الأفق سنياً ؟ غبار دقيق من النور يتناثر حولي ، كأنه سحيق من الذهب والبلور . هذا يوم عيد .

ـ لولا هذا اليوم وما ميّزهُ بين الأيام ، ما كانت تلك القوافل العديدة ، قوافل الحجاج التي نراها منذ قرون وقرون ذاهبةً آئبةً .

ـ لقد شهدتُ القوافل ذاهبةً آئبةً منذ أن خرجتُ على الصحراء رملاً ، وتعرَّفتُ قوافل العرب الرحَّل وقوافل الغزاة والمحاربين والشعراء والعاشقين . وكم من حداءٍ سمعتُ ! .

ـ تلك القوافل تعددت ألوفاً وألوف الألوف منذ أربعة عشر قرناً ، وتبدَّل الغرض من ترحالها منذ أن انبثق من سويداء قلب الصحراء جحفلُ النصر العظيم . فصارت القوافل قوافل الذكرى والعبادة والسلام ، تقبلُ علينا في عجاجة وردِيَّة من قصيّ الأبعاد حيث يخيَّل أن الآفاق تتحرَّك ،

وتغادرنا في عجاجةٍ وردية لتتوارى وراء الآفاق التي تحنو على وديعتها الفريدة الغالية .

ـ أعرف تلك الوديعة ، فقد ساقتني إليها الريح مرةً ! هناك مثوى ذاك الذي عرف كيف يلقي في أرواح الشعوب روحاً حيَّةً خالدة .

ـ فتى الصحراء ! فتى الصحراء الذي اصطفاه ربُّهُ ليحمل الكتاب . فهجر دياره ، وسلاحه كتاب فغزا به العالمين !

ـ الفاتح الذي لا يشبهه فاتح ! إنه لم يغزُ البلدان والأمصار وكفى ، بل غزا القلوب بسرٍّه ، وفتح النفوس بسحره ، يوم خروجه من الديار هو بدء تاريخ الهجرة . وها الناس على توالي القرون ، وقد هاموا بجاذبيته النورانيَّة ، يهجرون ديارهم وخيراتهم ويقتحمون المفاوز والأخطار ليحجوا إلى البقعة الصغيرة العظيمة التي تجمَّع عندها معنى الديار والأوطان ، وتركزت فيها ثقة اليقين وانبعث منها نور الإيمان ! .

ـ سيد الغزاة والفاتحين ! إنه فتانا ، فتى الرمضاء وفتى الرمال ! إنه جاء بمعجزة المعجزات فأخرج الخصب الخصيب من ديار القحط والجدب !

ـ فتى الصحراء العجيب ، ذو العينين الدعجاوين حيث أودعت السماء نطفة الضياء ! إن ذكراه لممتزجة بذكرانا !

ـ نحن الرمال لم يكن وجودنا عبثاً كما زعمنا في أجلنا المديد الأليم ! نحن الجامدات ، كنا مبعث الحركة والحياة ! نحن القاحلات ، كنا وما زلنا سبيل الهجرة الخصيبة .

أشرقت الشمس ـ شمس اليوم الأول من العام الهجريّ . من الرمضاء تتصاعد أشباح أثيرية تدور رشيقةً في نور النهار الجديد . وقد أصبحت أفواج الرمال القريبة والبعيدة كلّها جوقة واحدة تنشد :

نحن الرمال القاحلـة ،
«لا خصب يوازي خصبنا !
« نحن الرمال الجامدة »
« هل من حياةٍ كحياتنا ؟ »

« ميّ »

هوذا الربيع[1]

الربيع ، الربيع ، هوذا الربيع !
في قمر الأسمار ، في انبلاج الأسحار ،
في مرج الأطيار ، في عبير الأزهار ،
في النهار الدوّار ، في الأَصيل البديع !
الربيع الجديد ، هوذا الربيع !

أنا القلب السعيد ، وهوذا الربيع !
في سويدائي يحتجبُ الوجهُ المحبوب دواماً
وراقه أن يستهلَّ مشرفاً على البَرِيَّة ، فانقلبت قُبة الفلك
محراباً تلألأ فيه طيفٌ من بهائه ، وفي مدى الأبعاد شاعت
بهجةٌ تعكس شيئاً من حلاوة ابتسامته ، وفيض سنائه . وانبرى
الربيع يزجي آيات التسبيح والتّهليل بأشكاله وألوانه ، لأنه
اقتنص لمحةً من ذلك الوجه ، فتنضّحت مجاليه برونقِه ،
وازدهرت بروائه .

(١) عن مجلة « الرسالة » العدد : ٩٨ ـ تاريخ ١٩٣٥/٥/٢٠ ـ ص : ٨٠١ ـ ٨٠٣ ـ وكانت مجلة « الهلال » قد نشرت هذه المقالة الوجدانية عام ١٩٢٣ ـ ج (٣١) ـ عدد « مايو » بصيغة مختلفة .

وتجمّدت الأزمان في لحظة ، فهي أبديةٌ ، آبدةٌ ، تخلِّدُ حبوري ،
والوجود كُـلُّـهُ هالةٌ تحيط بالوجهِ الفريد المعاني ،
وخوالجي حيال الوجهِ وهالتِهِ نبضٌ للوجود وترتيل :
« أنت مرتع هيامي ، أيها الربيع !
يا ربيعي النشوان ، أيهذا الربيع ! » .

أنا الحدائق والرياض ، وهوذا الربيع !
أرواح الأحباب والخلاّن متجمهرةٌ في رحابي
معارض الوشي والزركشة نضيدة ، ومتاحف اللمعانِ
والإشراق عديدة ،
الأشجار تكللها تيجان الظلال والأنوار ، وفيالق الغصونِ
خاشعةٌ كأنها في حضرةٍ ربانية ،
والمرئيات كلها على ارتقاب وانتظار ، تتوقع نبأً خطيراً قد
يكون إفصاحاً عن بعض ضمير الأكوان .
أَقُضِيَ الأمرُ فَفُزْتِ ، يا اخواتي الكائنات ، بما كنت تتوقعين ؟
سيّالٌ من ذوب النصر والابتهاج يدفق علينا ، وكأن كل ما ترامى في الأمكنة من مراجع الألحان يتلخص في حضني نشيداً :
« شتيت الأجزاء وحدة واحدة ، أيها الربيع !
على طور حسنك نتجلى معاً ، أيهذا الربيع ! »

أنا الينبوع الصافي ، وهوذا الربيع !
ظليلةٌ تحنو الشجرةُ عليَّ ، وأنا في فيئها الحنون جاثم .
بلوريّة الجلباب ، بلوريّة الرنين تتلاحقُ مياهي ، وقد
أودعها الربيعُ لاعجَ الشوقِ ووصبَ الحياة :
وفي مترنّح أسجوعتها نداءٌ واغراء ، ونعومة واستعطاف ،

ووعدٌ ووفاء ، وثقة ونوال .
مياهي تفضض الحصى وترطب الأعشاب والأدغال في جريها الحثيث الى حيث لا تدري . هي تتوقُ إلى رشيد السخاء كيلا تحسب ولا تدّخر .

وتتوالى الساعات فلا يتفيأ شجرتي شريد الهجير ، ومرآتي المتثنيّة لا ترسم وجه المرتوي الشكور !
ليس من عابر غير ذاك الذي أخذ مني ما أخذ ليقذفني بالأحجار ، ويترك منه تذكاراً ، اللعنة والأقذار !
اليأس خالط صفائي ، والكآبة حلّت في مياهي !
وبتُّ أحلمُ بالذين طوحت بهم السبلُ فهاموا في القفر عطاشا ، بينا مدرار أجاجي يناديهم وينطق باسمهم جزافاً ولا مستني مؤاسيةً في الظلام الأفنانُ ، فاستحالت مياهي عبراتٍ ، وغدا نشيدي شهيقاً وانتحاباً :
« الربيع الحزين ، هوذا الربيع !
ربيع الجحود والهجران ، كيف احتمل الربيع ؟ »

أنا الصحراء القحطاء وهوذا الربيع !
الصحراء الواجمة الكتوم ، كذلك كنتُ وكذلك أكون !
أللحياة صورٌ وأشكال وسنن ؟
أفي الحياة ولادة وموت ؟
أفي الحياة تبديل وتحويل ؟
أفي الحياة نموٌّ ونشوء وازدهار ؟
مَهْ عن الصحراء ، أيهذا اللغو السقيم !
أنا مملكة العيّ والبكم والصمم والعمى !

أنا منطقة السآمة الآيسه ، والغليل القتال
مائي سراب ، وظلي تراب ، وشبلي أتاويه ، وملامسي لوافح
وسموم ، ومعالمي مجاهل المفاوز ، وأفجاج الأهوال .
إني في ربوتي ومحلي حجةٌ رهيبةٌ على أجحاف الأقدار ،
الأقدار التي تعاقب بلا ذنبٍ ، وتغرّم بلا سبب وتبتاع
خصب المروج بعقمي المقيم .
أنا في قحطي المفروض وسكوتي المستمر أسير الوحدة والانزواء .
أنا في رحاب الأرض حبيسة .
أنا تزدردني الرمال على الدوام فأنّى لي أن أعول :
« ليس لي الربيع ! ليس لي الربيع !
ربيع الرمال والسعير ، ما حاجتي إلى الربيع ؟ »

هوذا الربيع ، هوذا الربيع :
مغرياً في الفضاء ، فتاناً في الحدائق
بهيجاً في الألوان ، رشيقاً في الشقائق
طروباً في قلب الجذلان !
هوذا الربيع ، هوذا الربيع !
كئيباً في قلب المظلوم ، جريحاً في قلب المحروم ،
شاملاً بعطفٍ نصفه قسوة ،
حاضناً برفقٍ نصفه عنف
موحياً أملاً نصفه يأس ، مذكياً خصباً نصفه قحل .
حافزاً شباباً نصفه هرم ، مجدداً حياة نصفها رَدىً ،
الربيع ، الربيع ، لمن يكون الربيع ؟
الربيع الجديد هوذا الربيع !
الربيع العابر ، هوذا الربيع !

أمبير جلوا
رمز الشبيبة المعذّبة

الرسالة : ج (١) السنة الثالثة ـ العدد ٩٩ تاريخ ١٩٣٥/٥/١٧ .
ص ٨٤٩ ـ ٨٥٢ .

بمناسبة انقضاء خمسين عاماً على وفاة فيكتور هوجو ، سيكون النظر في كتاباته والتحدُّث عنها من خير الوسائل للإحتفاء بذكراه ، بل هو أحسنها على الإطلاق ، لأن الشاعر يعيش بآثاره لا بما يقول الناس عنهُ ، ولا بما يصنعون « لتخليد » اسمه .

ومن آثار هوجو ما هو خصيص بعصره ، ومنها ما لن يستوعبه إلّا المستقبل ، ومنها ما هو لكلّ زمنٍ وكلّ مكان ، ومنها ما يخيَّل أنه وُضع لأيامنا هذه . ومع أن حكاية أمبير جَلْوَا من أقل كتابات هوجو ذيوعاً ، فهي أكثر ما تكون انطباقاً على حالة طائفةٍ من الشبان في هذا العصر ، حتى في هذه البلاد ـ مع اختلاف نوع الحافز لانفعال الغرام .

فَمَنْ يكون أمبير جَلْوَا ؟

هو فتىً سويسري ، ووالده يعلّم الخطّ في مدارس جنيف ، استغواه اسم باريس ، فراح يجري وراءَ السراب الذي أغرى الكثيرين بأن تلك المدينة العظيمة هي عاصمةُ المغامرة بالمواهب والمضاربة بالحظوظ ، وأنَّ كلَّ لبيبٍ باسلٍ يجدُ فيها المستقبل الذي يستحقّهُ وخلاصةَ ما يصبو إليه من نجاح

وثروةٍ وشهرةٍ ومجد . « فمن دخلها بلا حذاء ، خرج منها في مركبة » .

وقد دخلها أمبير جَلْوَا في اكتوبر ١٨٢٧ ، ومات فيها بؤساً ويأساً في اكتوبر ١٨٢٨ .

عامٌ واحدٌ لا غير ، لتحيا فيه جميع الآمال ، ولتخيب فيه جميع الآمال . ويصف هوجو بطله شاباً مديدَ القامة ، محنيَّ الظهر قليلاً ، برَّاقَ العينين ، فاحم الشعر ، ورديّ الوجنتين ، يرتدي رادنجوتاً أبيض ، وعلى رأسه قبعةٌ قديمة . في الجملة الأولى يتلعثم إذ هو يذكرُ اسمهُ واسم المدينة التي كان فيها طفلاً ، ثم اسم المدينة التي يُريدُ أن يكون فيها رجلاً . هو في الحادية والعشرين من عمره ، وثقته بنفسهِ أقلّ من ثقافة فكره ومن خصب جنانه . هو يسعل قليلاً ؛ وبحركةٍ مرتبكةٍ يحاول ارجاع قدميه إلى الوراء تحت الكرسي ، ربما ليخفي حذاءهُ الرث ذا الخروق ، أو هو يحاول تدفئة قدميه بعض الشيء بعد تسرُّب ماء المطر إليهما من هاتيك الخروق . وبعد الكلمات الأولى يتركّز صوتهُ ، ويتكلّم بطلاقة ، وتكاد تقتصر أحاديثهُ على شعراء انجلترا . كذلك عرفهُ الرجال الثلاثة أو الأربعة من كبار الكتاب والأدباء الذين رحَّبوا به وشجعوه وساعدوه قدر المستطاع ، مقدرين فكرهُ المشبوب وثقافتهُ وتأدُّبهُ وحسن بيانه .

انتابتهُ في الشهور الأولى حمّى باريس ، فأراد أن يرى كلَّ شيء ويسمع كلَّ شيء . لم يُعنَ بأهل السياسة والتسوُّس ، ولا بالمتحذلقين الذين لا همّ لهم غير « قتل الوقت » والظهور ، ولا بجماهير المتقاطرين لزيارة المكاتب والمتاحف ، بل كان همّه روح باريس الحيّة ، ورسالة باريس الفكرية ، واتجاهات باريس في تطوُّرها الفنيّ . وحيثُ الجدلُ الأدبيّ واحتكاكُ الآراء فهو موجود ، يساهم في الحديث والمناقشة ، ويطرحُ أفكاره العديدة لمن يبغي النقد والتمحيص .

كذلك كان في الشهور الأولى . أما في الشهور الأخيرة فاستسلم لليأس ،

وقد ملَّ كلَّ شيء ، وزهد في كلّ شيء . أترى مَثَلهُ الأعلى كان أكبر من باريس أم أصغر ؟

ليس من يعلم . إلاَّ أنهُ بات يوماً وقد أعرض عن الحياة ، وكأنَّه قد صمم على الموت بدون انتحار . وكان عارفو مواهبه يمكنونه من مزاولة بعض الأعمال الكتابية التي يسعى إليها ويعيش عليها الألوف ، كتحضير الموادّ اللازمة لتأليف المعاجم ، وجمع المعلومات المقتضاة لتدوين سِيَر العظماء ـ العمود الواحد منها بعشرين فرنكا ! فاشتغل قليلاً ثم أحجم . والعلة البطيئة التي لازمتهُ منذ الطفولة أخذت تتفاقم وتشتدّ بسرعة . وقد تلاشت آماله ، واختفت من حواليه رؤى المجدِ المرجوّ وامتهن حتى ما تركه من منثورٍ ومنظومٍ ، لعجز شعرِه ونثرِه عن تقديم شيء ولو صورة باهتة من نفسيَّته المتفجِّعة . وعندما قضى نحبه في الثانية والعشرين كان موقناً بأن شيئاً من آثاره لن يبقى :

أما فيكتور هوجو فيرى أنه كان مخطئاً ، إذ بقيت منه رسالةٌ متقطعة كتبها في عدة شهور إلى أحد أصحابه السويسريين ، ولا يقتصد هوجو في إعجابه بتلك الرسالة التي يعتبرها « اعترافاً سرياً من نفس قليلاً ما تشبهُ غيرها ، على حين أنها صورة لجميع النفوس . وهذه هي ميزة تلك الرسالة : فهي الاستثناء الشاذ ، وهي الشيء الشائع المألوف » .

* * *

ونشر هوجو الرسالة بنصها المكتمل ، فلم يحذف منها إلا الأسماء مراعاة لأصحابها . وإلى القارىء فقرات جوهرية من تلك الرسالة التي لا يتسع المجال لنشرها كلها . ففي هذه الفقرات ترتسم من أمبير جلوا صورته النفسية ، مع خيال الغرام الواحد الذي عاش عليه إلى النهاية :

« اليوم ١١ ديسمبر ، ونحن في الساعة الثالثة . لقد مشيت ، وقرأت . السماء جميلة ، وأنا أتألم في تفطر . وصلت باريس في ٢٧ اكتوبر ، فأنا

هنا أذبل وتذهب قواي بلا رجاء . عرفت ساعات وأياماً بتمامها لامس فيها يأسي الجنون . متعباً ، في انقباض حسيّ وأدبيّ ، متشنج النفس في هذه الأحياء المليئة بالوحل والدخان ، كنتُ بلا توقف أهيم مجهولاً ، وحيداً وسط جمهورٍ عظيم من الناس يجهل بعضهم بعضاً هم أيضاً » .

« أتكأتُ ذات مساء على جدار جسر نهر « السين » ؛ ألوف الأنوار تترامى على بعيد المدى ، والنهر يجري ، وكنتُ من الكلال بحيث لم أستطع مواصلة السير . وهناك ، وقد نظر إليَّ بعض السابلة كأني مجنون ، اشتدت عليَّ وطأة العذاب فلم أقو على البكاء . أنت في جنيف كنت أحياناً تمازحني هازئاً بشدة تأثراتي . وأنا هنا ألتهمها وحيداً ، تلك التأثرات التي تنكل بي ، ولا تفتأ تهتاجني بلا مهادنة . كل شيء يتعاون على تمزيق نفسي : الاحساس الرحيب المتوالي الذي يُشعرني بفناء زهونا وأفراحنا وأتراحنا وأفكارنا ، وتزَعزع موقفي ، ورهبة الفاقة ، ومرضي العصبي ، وخمول اسمي ، وبطلان مساعيّ ، وعزلتي حيال عدم اكتراث الآخرين وأثرتهم ، ووحدة قلبي ، وحاجتي إلى السماء والحقول والجبال والأفكار الفلسفية أيضاً ، وفوق هذا ـ أجل ، واهاً ! فوق كل هذا ، الحنين الموجع إلى بلاد الجدود . يتفق لي في بعض الأوقات أن أحلم يقظانَ بكل ما أحببت ، فأمضي متنزهاً في بلادي أُطيل التذكُّر بما قاسيتُ من الآلام في جنيف ، وبنادر المسرات التي ذقتها هناك . وملامح من أصدقائي وأهلي ، وطيفٌ من مكان قدَّستْهُ الذكرى ، أو شجرة ، أو صخرة ، أو زاوية شارع ، تتخايل لي ، فتنبهني إلى الواقع صيحات سقاء باريسي . واهاً ! كم أتألم عندئذ ! وكثيراً ما أعود إلى حجرتي المنفردة عن الجسد والروح ، فأجلس لأحلم أحلاماً مريرة مدلهمة في بحران وهذيان » ... « ألا ما أتعس الذي يأسف على ما قد يسارع إلى لعنهِ عندما يجدهُ ! ليس لي حتى أن أستمتع بألمي ، لأن روح التحليل قائمة عندي على الدوام تشوِّه كلَّ شيء » .

« ..... سآمة نفس ذبلت في سن الحادية والعشرين ، الشكوك القاحلة ، الأسف المبهم على سعادة تراءت لي في إبهام أيضاً كمجد الغروب على ذرى جبالنا ، أوجاع حسية ، وأوجاع ايدياليستية ، الاقتناع بأن الشقاء متأصل في النفس ، اليقين بأن الثروة على ما فيها من كثير خير لن تجعل السعادة تامة : هذا ما يفطِّر نفسي البائسة . واهاً ! يا صديقي الوحيد ، ما أتعس أولئك الذين ولدوا تعساء ! » .

« ومع ذلك ، يخيل إليَّ أحياناً أن موسيقى تعزف في الهواء لمسمعي ، وأن ألحاناً شجيةً غريبةً عن أنواء البشر تدوي من فلكٍ إلى فلك لتنتهي إليَّ . ويخيَّل إليَّ أن ممكنات آلام جليلة هادئة تحط على أفق فكري ، كأنهارِ قصيِّ الديار في أفق الخيال . غير أن كل شيءٍ يضمحل بقسوة الرجوع إلى الحياة المحسوسة ، كلّ شيءٍ ! كم مرةٍ قلت مع روسو : « يا مدينة الوحل والدخان ! كم تعذَّب هنا صاحب تلك النفس الحنون ! وحيداً ، شريداً ، منكلاً مثلي ـ ولكن أقلّ شقاء بستين عاماً من عصر جادّ خطير الحوادث ـ كان في باريس ينتحب ، وأنا أنتحب . وسيأتي غيرنا ينتحبون . يا للفناء ! يا للفناء ! .

« ... إلى الآن لا أربح شيئاً ، مع أن لي أصدقاء مخلصين يجهدون ليجدوا لي عملاً ......

« يا صديقي . أعود إلى رسالتي بعد أن بدأتها ، ثم استأنفتها . نحن في ٣١ مارس والساعة الثامنة مساءً . أكاد أجنّ من فرط الألم ، ويأسي يفوق الاحتمال . تألمتُ اليوم ألماً يكاد لا يستطيع أن يتخيله بشر . ثم داهمتني الحمى في هذا المساء ، وما الحمى المحسوسة سوى فضلة الحمّى النفسية » ... « اسمع » ... « قد اكتشفت شيئاً فيّ فعلمت أني لستُ شقياً بسبب هذا الأمر أو ذاك ، ولكنّ فيَّ عذاباً مقيماً يتخذُ أشكالاً عدَّة ... أنتَ تعلم أني في جنيف كنتُ أتخيل أني لو نفذتُ إلى باريس كنت سعيداً . وأنا ، يا صديقي ، هنا أعاشرُ أكبر الأدباء .... وأشعر أحياناً بنشوة الظفر في الأندية والسهرات

والاجتماعات ... وما كلّ ذلك ؟ ... إن في أعماق حياتي سرطاناً آكلاً ... منذ شهرين تجمعتْ قوى عذابي على نقطةٍ واحدة ، أخافُ أن أذكرها لك لفرط شذوذها » ... « ذاك المصدر المركزيّ لآلامي هو أني لم أولد انجليزياً . أتوسل إليك ألا تضحك ، فعذابي مبرح . العاشقون حقاً مهووسون لاعتكافهم على فكرة واحدة تستغرق جميع تأثراتهم . وأنا بعد أن كانت نفسي زمناً طويلاً فريسة جلبةٍ منوَّعة ، أنا الآن مهووس أيضاً .

« هاك منشأ غرامي بانجلترا : أنت تعلم أني أحب أن أعيش مع الموتى متعرفاً حياتهم السالفة فأقطنها معهم واسايرهم في أحوال معيشتهم ، وأن أخلق بيني وبينهم تعاطفاً يبسرهُ وهمُ الزمن ، فلا يستطيع بعدُ أن يزعزعه وجودُ الأفراد . وأجد في انجلترا خمسين شاعراً على الأقل ، زخرت حياتهم بالمغامرات ، وعمرت كتبهم بالفكر وبالخيال . أما في فرنسا فلا أجد ثلاثة . وفيما عدا ذلك ، قد كنتُ أحب من وطني الانجليزي حتى مزاعمهُ اللاغية . ففي مزاعم انجلترا كثير من الشاعرية وكثير من الخيال . وبدلاً من أدبٍ واحد ، فللأنجليز آداب أربعة : الأمريكي والانجليزي والاسكوتلاندي والايرلندي ، تُكتبُ جميعاً بلغةٍ واحدة ولكلّ منها خصائص تميزها . فأية ثروة أدبية ! ...

« *يوجد الآن ثلاثون شاعراً بين الأحياء ، كل منهم مستقلٌّ* بشخصيته لا ينتحلُ طريقةَ غيره ، وكل منهم خصيب . يا للثروة ! ويا لمغامرات ساڤيج المسكين ، وشليٍّ ! وأيّ عملاق هو بايرون ! كم من كنز عند هؤلاء للنفس التي تحبُّ الفرار من العالم لتلتقي بأصدقائها في مخدعها ! وكم ذا يعنَى الانجليز بكتّابهم ! إنهم يطبعون مؤلفاتهم في جميع الأحجام ، وأي ذوق في طباعتهم ، وكم من الخيال في نقوشهم ! وأنظر إلى الأمة نفسها . فذوو السحنة الخسيسة في انجلترا نادرون ندرة ذوي الهيئة الممتازة في فرنسا ! كل ما في تلك الأمة شاذّ . هناك تسود الحماسة في ألف شكل . هناك إلى

جانب الآراء الوضعية الأكثر صرامة ، تجد الترهات الأكثر نضارة . هذا بلد يحوي المذاهب الوضعية والنظريات الأيديالستية : فرنسا وألمانيا معاً . هو وحده له من القوة ما يكفي ليفهم كل شيء ، ومن العظمة ما يكفي كيلا ينبذ شيئاً . وأية ذاتية ! إنك لتميز الانجليزي بين ألف شخص . أما الفرنسي فيشبه الجميع . ووفرة الشيع الدينية في انجلترا تثبتُ على الأقل خلوص النية في نفوس تحتاج إلى الرجاء ولم تجفِّفْها الماديات . وشذوذ شبان الانجليز وتهوّرهم ينم على نفوس يتنازعها القلق » ...

« أتألم لشعوري بأني في غير مكاني وسط شعب طائش ثرثار ، ملحد ، ماحلٍ ، ذي زهوٍ وبرودة ، في حين أن الدنيا تحوي شعباً متديناً أو متطرفاً في التشكُّك ، ولكنه على الأقل لا يعيش في غير اكتراث ، شعباً تجد فيه الأصدقاء الخلصاء ، والنفوس المتفززة ، وحيث الطيش نفسه ذو نكهة غريبة شاذة وليس له هذه اللهجة الماجنة الفاترة التي نجدها في فرنسا .

« في المطعم الذي أتناول فيه طعامي يوجد إنجليز وفرنسيون . ويا للفرق جميع الفرنسيين تقريباً مشاغبون صخابون عاديون ، وجميع الانجليز نبلاء محتشمون . وختاماً ، يا صديقي ، أظن أن صديقاً يستطيع التحدُّث إلى صديقهِ عن غرامهِ ، لأن انفعال الحب يلاقي صدىً في جميع النفوس وليس فيه ما يستدعي الامتهان . على أن ألمي العارم من الشدة بحيث لا أستطيع التبيان ، ولأنه جد شخصيّ خاص فقد يبدو سخيفاً مزرياً للذين لم يشعروا بمثلِهِ . ومع كل ذلك ، فهذا الجنون يشعرني بآلامٍ مروّعةٍ لا تطاق . وكل شيء يرهفها : مشهد شخص انجليزي ، أو كتاب انجليزي ، حتى السخرية الموجهة إلى الانجليز تلتهمني التهاماً ... وهوسي هذا يجعلني أمجّ حتى الطمع في المجد . أودُّ أن أكون شهيراً في انجلترا ، وعليَّ لذلك أن أكتب بالأنجليزية ... لو كنت انجليزياً ، بمزاجي هذا المريض ، لما تألمت دون ألمي الحاضر ، ولكن معنى الألم قد كان يتغير . يخيل إليَّ أني لو ولدتُ انجليزياً لاستطعت

احتمال جميع آلامي . ولو ولدت لورداً انجليزياً من أهل اليسار ، بنفسي ومزاجي كما هما ، لكانت جميع ميولي وجميع أطماعي راضية قانعة ، وعندما أقارن بين هذا الحظ وحظي الراهن أجنّ ...

« استأنفتُ دراسة الانجليزية منذ شهرين بنشاط وحماسة حتى صرت أقرأ الشعر بسهولة . أفكر في الذهاب إلى انجلترا والكتابة بالانجليزية بعد أعوام . صاحبي ج . ل . يسلفني شعراء البحيرات الانجليز . إنهم يفتنونني . وقد استبدلت بالكتاب الذي أرسلتهُ أنتَ إليَّ مجموعة مؤلفات بايرون في مجلّدٍ واحد ، وتلو ت فيه قصيدة صغيرة ، « الحلم » ، فكان لها عندي وقع الصاعقة » ... « تقول السيدة الإنجليزية التي تعطيني دروساً إني بعد الإقامة بانجلترا عامين اثنين سأجيد كتابة الانجليزية ، لأني منذ الساعة أكتبها كما يكتبها قليلون من الفرنسيين . والواقع أني أنفق نصف نهاري في دراسةالإنجليزية .

« إن هوسي شديد دائماً ، فيا للضنى ؟ وأنّى وجهتُ نظري وجدتُ التباريح . ومسائل العيش عندي ما زالت موضوع عذاب . أشتغل الآن في كتابة ترجمة حياة ، ولكني في حاجة إلى النقود ، بل أنا في ارتباكٍ عظيم من جراء ذلك » انتهى .

° ° °

وقد علق هوجو على هذه الرسالة في تبسط ، وبانشائه وبتوسُّعه في اقتناص المعاني والاستشهادات ، مما يتعذَّر نقله إلى العربية . إلا أني ألخِّص من تعقيبه قوله : « عندما نذكر أن الرجل الذي كتب هذا ، مات عليه ، تأملات من كلّ صنفٍ تتفجر من كل سطرٍ في هذه الرسالة الطويلة . أية رواية ، أي تاريخ ، أية سيرة هي هذه الرسالة ! » ... « ليست هذه سيكولوجية تدرسُ على السمع أو على الجثة ، ولكنها تُدرس في الأعصاب والأنسجة والعروق ، في اللحم الحيّ ينزُّ دماً ، في اللحم الذي يعول . أنت ترى الجرح وتسمع الصيحة .

« كتابة خطاب كهذا في تفطُّر وإهمال وجمال ، دون بؤس كبؤس أمبير جلوا ، كتابة خطاب كهذا بمجرَّد مجهود الابداع الأدبي تقتضي العبقرية . أمبير جلوَا متألماً يوازي بايرون . شيئان يجعلان الانسان شاعراً : العبقرية أو الغرام ، وهذا الرجل الذي كان نثره باهتاً وشعره فاتراً أصبح في خطابهِ كاتباً يستدعي الإعجاب . عند ما ينسى أن يطمع في أن يكون شاعراً وناثراً ، ينقلب شاعراً عظيماً وناثراً عظيماً . وسيبقى هذا الخطاب ، فقد اشتمل على خليط قد يكون أدهش من كلّ ما أنتجهُ الى الآن دماغ بشريّ في بابه ، وبتأثير تضاعف الألم الحسيّ والألم الأدبيّ . والذين عرفوا جالوا يرون تشريحاً رهيباً ، تشريح نفس ، في هذا الخطاب المتوتر ، المضطرب الطويل ، حيث الألم يرشح قطرةً قطرةً مدى أسابيع وشهور ، حيث الرجل الذي يجرى دمهُ ينظرُ إلى دمهِ جارياً ، حيث الرجلُ الذي يصيح يصغي الى صوته صائحاً ، وحيث في كلّ كلمة دمعة » .

« لا حوادث في هذه الحياة ، ولكن فيها أفكاراً . اروِ الأفكار تسرد حياة الرجل . بيد أن حادثاً عظيماً يهيمن على هذه الحكاية المكدرة ؛ وهو أن مفكراً مات من فرط البؤس ! هذا ما فعلته باريس ، مدينة الذكاء ، بفتىً ذكيّ . . . »

« . . . أمبير جلْوا ليس فقط أمبير جلْوا ، بل هو في نظرنا يرمز الى طائفة معدودة من شباب اليوم الكريم . في داخل هذا الشباب عبقرية غير مفهومة تلتهمه ، وفي الخارج مجتمع ساءت أوضاعه ، يخنق الشباب والعبقرية . فلا منفذ للعبقرية المحاصرة في الدماغ ، ولا منفذ للانسان المحاصر في المجتمع »

« الذين يفكرون ويتولون الحكم لا يهتمون في أيامنا قدر الضرورة بحظ هذه الشبيبة الزاخرة بعديد الغرائز ، المتهافتة بحرارة ذكية ، وبصبر واحتمال على جميع اتجاهات الفنّ . جمهور هذه العقول الفتية المختمرة في

الظل ، يحتاج الى الأبواب المفتوحة ، والى الهواء والنور والعمل والمسافة والأفق . ما أكثر ما يمكن عمله بهذا الجيش من الفطن ! كم من قناة يمكن حفرها ، وكم من سبيل يمكن تمهيدها في العلم ، وكم من مقاطعة يمكن غزوها ، وكم من عالم يمكن اكتشافه في الفن ! ولكن ، لا ! جميع المهن مغلقة أو مزدحمة . وهذا النشاط المنوَّع الذى يستطيع أن يكون نافعاً مجدياً ، يُترك متراكماً ، مزدحماً ، مختنقاً في ضيِّق الأزقة . قد كان هذا الشباب يكون جيشاً ، فاذا به غمارة . إن تنظيم المجتمع سيءٌ حيال المقبلين ، مع أن لكلّ ذى فكرٍ حقاً عند المستقبل . أليس محزناً حال هؤلاء المتأملين من ذوي العقول ، المستقر نظرهم على الشاطىء المنير حيث كثير من الأمور الساطعة من مجدٍ وقدرةٍ وشهرةٍ وثروةٍ ؟ . . . »

* * *

هذا بعض تعقيب هو جو ، وهو في عطفه شفيقٌ نبيل . ولهجتهُ في كل هذا التعقيب تحملني على الاعتقاد بأنه عرف أمبير جلوا وأحبّه في حياته . ومن يدري ؟ قد يكون الخطاب موجهاً إليه لا الى غيره ، وكون أمبير جلوا يرمز إلى الشبيبة المعذَّبة صحيح من الناحية الواحدة .

رسالة الأديب إلى المجتمع العربي

ميّ زيادة

سلاماً ، يا وست هول ، يا موطن الفكر والرأي والحياة المنظمة في كرامة وحرية ! كم من مرة جلست ، بالخيال ، بين جدرانك أتبادل والجمع الحاشد قوة الحيوية ، وآخذ قسطي مما يعج في فضائك من فائدة علمية واجتماعية ! كم من مرة عدت بالذكرى اليك اصغي بخشوع الى رسالات الفضل والعلم والتهذيب يتلوها هنا العلماء والمفكرون والمصلحون !

سلاماً ، ايتها « العروة الوثقى » ، الساهرة على وظيفتك في تنوير الافهام ، الحريصة على غايتك في احكام الرابطة العلمية والادبية بين اقطار الشرق العربي ! كم من صيحة ارسلها اقطابك واتباعك وانصارك من على هذا المنبر المضياف ، فمضت كالطير تسبح في القريب والبعيد من الاجواء ، حاملة رسالة العلم الصادق ، والبحث الرصين ، والخير العميم ، فكونت في اوساط قصيَّة مواطن للفكر والرأي والحياة المنظمة في كرامة وحرية !

ولئن انا شكرت لك تشريفي بدعوتك واقتراح الموضوع ، فاني كذلك شاكرة لانك أفسحت لي مكاناً كريماً بين كرام ضيوفك ، عاملة بيدك القوية الوفية على إحكام الرابطة بيني وبين بني قومي .
واشكر لكم ، ايها السادة والسيدات ، تفضلكم بالحضور . ان اسم « العروة الوثقى » يلهم الفرد انه ينقلب امة عندما يخاطب الامة .

وما أجمله موعداً ، موعدنا الليلة ! فنحن في مطلع الربيع ، اذ باشرت

الارض اخراج زينتها وعرض مباهجها ، ونشرت السماء كواكبها وشموسها واقمارها وضاءة في رحيب الافلاك ، وسرت الحياة نامية في فتي الغصون ، واهتزت الارواح مترنحة لاستيعاب جديد النفحات .كذلك الشعوب العربية استيقظت من شتاء حالك الظلام ، طويل الامد ، وانبرت تستقبل الفصل الجديد من حياتها ، متعهدة براعم الامل والمجد في نهضتها ، ساعية الى ازدهار ثقافتها ازدهاراً عامراً بهيجاً .

الربيع يزف الى الارض رسالته ، و« وست هول » اليوم ، كما في الامس ، وفي الغد ، يؤدي الى المجتمع رسالته ، و« العروة الوثقى » تواصل العالم العربي برسالتها ، فماذا ترى تكون رسالة الاديب الى الحياة العربية ؟

ايها السادة والسيدات ،

اذا نحن تنحينا في بحثنا عن الرسالة المثلى ، رسالة الأنبياء ، وجدنا ان الرسالة في معناها الضيق هي الصفحة التي يكتب فيها الكلام المرسل . بيد ان معنى الرسالة ارحب من ذلك واشمل . اذ لكل فرد ، وكل كائن ، وكل شيء رسالته في معرض الوجود : فالشمس تؤدي رسالتها نوراً وحرارة ، والزهرة تؤدي رسالتها عطراً ووسامة ، والجبال والوهاد تؤدي رسالتها تبياناً لطبقات الارض وتنوع الخليقة ، والسهول والمروج تؤدي رسالتها خصباً وغذاء ، والسبل تؤدي رسالة الحركة والانتقال ، والانتقال يؤدي رسالة الاخذ والعطاء والتعاون المتبادل بين الاحياء .

ولكل جمهرة من الناس في كل بقعة من بقاع الارض شؤون عدة اذا ما عولجت واستثمرت ونظمت وحَسُنَ التصرف فيها ، اصبحت تلك الجمهرة شعباً فأمة ، وصارت تلك البقعة بلداً فدولة . وفي كل بلد صناعة ، وتجارة ، وعمارة ، وميكانيكا ، وادارة ، وقوانين . ولكل امة عادات وتقاليد

وتاريخ وتربية وحكمة وثقافة وآداب وفنون . الشؤون المحسوسة ، على تعددها وعلى ما بينها من فروق ، متشابهة واحدة في كل قطر . واخص خصائص الوحدة والتشابه نجده في التقدم العلمي والميكانيكي ، وفي الحضارة الآلية السائدة في كل مكان .

ترى ما هو الفرق بين مخاطب بالتلفون ومخاطب بالتلفون ؟ بين مستمع الى اذاعة راديو ومستمع الى اذاعة راديو؟ بين راكب دراجة او سيارة او طيارة ، وراكب دراجة او سيارة او طيارة ؟ ليس من فرق بينهما من حيث الخدمة التي تؤديها الآلة . اجل ، ثمت فرق في الغرض الذي تستخدم له الآلة وهذا ليس موضوع البحث . انما الفرق كل الفرق في الشخصية التي تستعمل الآلة . والشخصية لا تتكوّن إلا من العوامل الأدبية : التاريخ ، الاختبار ، الذكرى اللغة ، الفن ، الادب .

الادب اذن من اهم المقومات للشخصية . وربما كان الأصح ان اقول انه حجر الزاوية في تكوين الذاتية الفردية والذاتية القومية بالتبع . والفرق بين الشخصية والذاتية فيما اظن هو ان الشخصية تتكون مما يحيط بنا ويتقلب علينا من شؤون واحوال ، في حين ان الذاتية هي ما نظل عليه دائماً في صميمنا في جميع الشؤون وفي جميع الاحوال . فما ابعدنا بهذا التعريف عن التعريف الشائع ان الادب هو المستظرف من الشعر والنثر ، وانه صناعة لفظية حذقت حيلة النكتة والتورية واستسيغت منها البلاغة والحلاوة في وصف مجالس الانس ، وتصوير جمال النساء ، وشرح لواعج الحب والغرام كل هذا من الادب بلا ريب ، وله اهميته ، وهو ذو اغراء . ولكنه وجه فقط من الوجوه العديدة في الادب . ولئن اقتصر كل من العلوم والمعارف على نفسه دون غيره تقريباً ، فميزة الادب في انه يحتضن الكثير من المعارف والعلوم ، وله ان يتغذى بها جميعاً ليعالجها على طريقته الخاصة ، فلا يكون بعد الا ادباً .

ولكم كانت المنتجات الادبية والصور الخيالية سابقة للبحث العلمي ومعينته على الخروج من حيز القياس والافتراض الى حيز التطبيق العلمي والاختراع ! أليس ان شاعرية الشعراء طارت الى اجواز الفضاء قروناً طوالاً قبل اختراع الطيارات ؟ وفيالق العشاق (والعشاق شعراء وادباء دواماً) الم تناج ارواح الاحباب رغم شاسع الابعاد قبل ان يصبح الراديو اداة من ادوات المنزل ؟ من ذا الذي لم يقرأ ولو كتاباً واحداً من كتب الاديب الفرنسي جول فرن الذي وصف الانطلاق من الارض الى القمر وصفاً علمياً قبل ان يقوم علماء الستراتوسفير برحلاتهم الجوية ، وحدث عن سلك اعماق البحار في سفن ذات اجهزة ميكانيكية دقيقة قبل ان تحتوي اساطيل الدول على غواصات ترقب ما يجري في قلب اليم وعلى صفحة الماء ؟ من ذا الذي لا يذكر الكاتب الانكليزي المعاصر ، ولز ، ومؤلفاته ذات الصبغة العلمية المتنبئة بمستقبل حياة ميكانيكية صرفة تترتب عليها حياة اجتماعية متوافقة ؟ لست من اشياع ولز ، ولكني اشير الى نظرياته شاهداً على رحابة الميدان للادب.

واذا نحن عدنا الى الكتب الدينية الثلاثة : التوراة ، والانجيل ، والقرآن ، وجدناها متفقة على جعل الفردوس الارضي في شرقنا الادنى . فكان لنا ان نقول ان مجد الآداب كمجد النبوات وكمجد الحضارات اشرق من بلادنا ، وكانت اللغات السامية اول اداة للافصاح عنه .

التوراة مليئة باللهجة الادبية : والتوراة كتبت اولا باللغة العبرية . والانجيل مليء باللهجة الادبية : والسيد المسيح تكلم بالآرامية والسريانية والعبرية ، قبل ان يكتب الانجيل باليونانية واللاتينية لينقل بعدئذ الى مختلف اللغات . والقرآن مليء باللهجة الادبية : والقرآن هو الكتاب العربي المبين والمستودع الخالد لهذه اللغة التي لا تموت مهما توالت عليها القرون ، وتناهبتها تصاريف الحدثان .

ترون من كل هذا اننا معشر الشرقيين عريقون في الادب وان اديانا

عمدت الى اللهجة الادبية لتكون اسرع اتصالاً بالنفوس وابرع استيلاء على المشاعر. ولئن اجمع نفر من علماء اللغات في الغرب على ان اللغات السامية حماسية، غنائية، بيانية، خطابية، اكثر منها اختصاصية علمية ميكانيكية، فنحن نعتز بذلك لان اللغة الادبية هي لغة النفس، لغة الجوهر، لغة البقاء. واللغة المحتوية على الجوهر لا تضيق دون العرض والطارئ والاضافي. وليس لنا الا ان نتابع الجهود التي باشرناها افراداً وجماعات علمية ـ ناهجين نهج اسلافنا الذين نسخوا وترجموا ونحتوا واشتقوا وعربوا ـ لنجعل اداة اللغة كافية وافية في تأدية كل مستحدث من المعاني والمسميات والاختراعات العصرية. ولنا من اتساع اللغة ومرونتها ما يمكننا من صوغ المفردات وسبك القوالب على طريقة ترضي من الناحية الواحدة مولانا سيبويه، وترضي الواقع والذوق من الناحية الاخرى. فلا يكون اسم الراديو مثلاً: الطمطمان، ولا يكون التلفون: ارزيزاً.

ومعلوم ان الادب كاللغة، حليف التقهقر والتطور في الشعوب التي تعالجه. وآدابنا في تاريخها الطويل اصدق شاهد على صحة هذه النظرية، لانها ازدهرت ثم لازمها الجمود وفقاً لارتفاع الدول العربية وهبوطها. وصدق تلك النظرية اظهر ما يكون في عصرنا الحاضر.

نظرة الى البلدان العربية، فماذا نرى؟ بعد هجعة ثلاثة قرون او تزيد استيقظت الشعوب العربية، وحركات اليقظة لا تكون منتظمة في بادىء الامر، وارادة المستيقظ لا تكون مستقرة ثابتة، وبصيرته تظل وقتاً ما غائمة غير صافية ولا نافذة. المستيقظ يلبث حيناً حائراً بين خيالات الليل وحقائق النهار ولكن كم في خيالات الليل من حقيقة، وكم في حقائق النهار من خيال! شعوبنا على همتها وتحفزها ما زالت قلقة مضطربة، وادبنا على وفرة جهوده وغزارة مادته ما فتىء مضعضعاً، غير واثق من نفسه، غير مستقر. فما هي حاجتنا اليوم من الناحية الادبية؟

اذا كان الادب صورة للشخصية العامة من خلال الشخصية الفردية الخاصة بحسناتها وسيئاتها، بحوافزها ومعلوماتها، بنورها وظلامها، بتقاليدها وأوهامها، بخوالجها وممكناتها، بيأسها ورجائها - اذا صح ذلك، وهو صحيح - فنحن نحتاج اليوم الى صوت الاديب والى رسالة الاديب.

المعترضون يقولون: ولكن الاقطار العربية متعددة، ولكل قطر حياته الخاصة ولهجته الخاصة. افيكون اذن لكل قطر ادبه الخاص؟

كيف لا؟ وهل غير ذلك في الامكان؟ أو ليس هذا هو شأن سائر الآداب؟ أوتكون الثروة الادبية واسعة في اللغة الواحدة إلا بتعدد الآداب المحلية وتنوعها؟ أوليس لكل من اميركا، مثلاً، وانكلترا واسكوتلاندا وايرلندا ادب خاص، مجموعها يكوّن آداب اللغة الانكليزية عموما؟ وفي كل من هاتيك الاقطار الغربية لهجة محلية هي غير اللغة الانكليزية، والشعب يتخاطب بلهجته وباللغة الانكليزية ويكتب بهذه اللغة وبتلك اللهجة على السواء. فعلام نحن نشكو مما يراه الاخرون شيئاً جد عادي؟ ومن المشاكل والمصالح والالام والامال ماهو مشترك بين جميع البلاد العربية. فرب زفرة حزن او صيحة استبسال وجدت صداها متردداً في ملايين القلوب العربية! ورب رسالة ادبية انطلقت من قطر واحد، فاجتاحت عديد الاقطار العربية المتناثرة من شواطيء الاطلانطيقي الى خليج العجم

اجل، نحن في حاجة الى اقلام تخاطبنا باللغة العربية ببيان جميل يصور شخصية الاديب، ويشرح حالة الامم، وينشر امامنا صحيفة الازمنة الثلاثة الماضي والحاضر والمستقبل. فالماضي ينبثق انبثاق الينبوع فيخصب النفوس. وكما يكتنه الاديب ذخائر الماضي فكذلك هو يطلع على شؤون الحاضر، متصلاً بكبار الحوادث التي تهز قومه في النقمة وفي النعمة، في السخط وفي الرضى. واذ يرى الحوادث داخلة في دور الغليان، والشعوب فوارة صاخبة كالحمم في فوهة البركان، واذ يشهد الظلم والعذاب والمرض والنفاق فيبحث عن

الانصاف والصحة والصدق والانشراح ـ عندئذ تتم في داخله عملية عجيبة ، ولا العمليات الكيميائية . يخيل اليه ان موسيقى شائعة رائعة تنطلق من الازمنة والحوادث والشعوب موحية اليه سر الفن الجميل فينقل الينا منها ما ينقل ، جاعلا لكل شيء اهمية خاصة تهز منا المشاعر ، وتستثير الحماسة وتكيف الاراء . ومن معالجة الاديب للازمنة والحوادث والشعوب ينبعث لنا المزيج الفتان فيلفتنا الى ان في طبيعتنا رحابا لم نكتشفها ، وان في ارواحنا ممكنات توسع امامنا افق الحياة .

واذ يحدثنا الاديب عن النظريات والمذاهب والشخصيات نتحزب مختارين لها او عليها ، فننكر نظرية ونؤيد نظرية ، نمقت شخصية ونحب اخرى محاولين الاندماج فيها ، ندحر مذهبا وننتصر لغيره تائقين الى نشره في الملأ مع رفاق نوليهم الثقة . كذلك الاديب يجوز بنا بحر الحياة المكفهر كسفينة استغنت عن الشراع والقلوع وعن الرياح المؤاتية ، لان له من نفسه القوة التي تسوقه الى الامام . وليس من اختبار يمر به الا تأثرت به كتاباته ، فلا نفتأ نتطلع الى كل ما يحدث له متسائلين عن سر قوته في المناعة ، وعن سر قدرته في الابداع ـ ذلك السر الدفين ، ذلك الجوهر المكنون المعرض عن كل تأويل وتفسير ، السباق الى اجواء من التفكير والاحساس والتكوين لا نأبه لوجودها الا بعد ان يجول جولته فيها .

وسرعان ما يتصل الحاضر بالمستقبل في فن الاديب : جيل جديد يتخرج على اثاره وعلى مؤثراته فيشب حاملا معه الفكرة التي تنيل الحياة قيمة في تذوق الجمال الحسي والادبي ، وفي ممارسة الجمال تأملا وسعيا وجهاداً ، رافعا بيده مشعل الحب العنيد للوطن ، وللرجاء ، وللتقدم ، وللشهامة ، وللبطولة ، ولارضاء غريزة الحرية .

رسالة الاديب تعلمنا ان لكل قطر من الاقطار العربية حضارة غابرة حلت محلها الحضارة العربية ناسخة عنها وعن غيرها لتسبكها في قالبها

وتدمغها بطابعها الخاص . رسالة الاديب تعلمنا ان الغرب الحاذق عرف كيف يقتبس عن حضارتنا يوم كانت حضارته وثقافته وشيكة . ولكن ما اغزر ما استفاد وما اخصب ما انتج ، وما ابدع ما ابتكر !
وان الحضارة العربية كانت الصلة المتينة بين الغرب الجديد وحضارة اللاتين والاغارقة . وها هوذا الغرب يرد الينا دينه كشعاع من الشكر بما ينشره بيننا من ثقافة ، فعلينا ان نأخذ عنه بمثل المهارة التي اخذ بها عنا !

رسالة الاديب تعلمنا ان الحضارة الميكانيكية ادوات نستعبدها ونستخدمها لا ادوات تستخدمنا وتستعبدنا . وانه لا يكفي ان يضغط امرؤ على الزر الكهربائي فينال سحري النتائج ، وان يمتطي سيارة او طيارة فيطوي شاسع الابعاد ، وان يرقص رقصة ويصغي الى اذاعة ويتعمل التأنق والحذلقة متكلماً بخليط من لغتين او ثلاث – لا يكفي كل ذلك ليكون شخصية ممتازة ترهب هيبتها الاكوان .

رسالة الاديب تعلمنا ان الحضارة الآلية التي الفناها ولم يكن يحلم بها اجدادنا ، تجعلنا اليوم اشد احتياجاً منا في الماضي الى ثقافة ادبية تدعم الحضارة الآلية وتكون لها ركناً ركيناً . وان هذه الحضارة الآلية المنتقلة بسرعة من بلد الى بلد ومن جيل الى جيل ، ننعم بها – ونشقى ! – دون ان يكون لنا يد فيها . اما الثقافة الادبية فيجب ان يحصلها كل فرد يوماً فيوماً ، وساعة فساعة مدى الحياة .

رسالة الاديب تعلمنا ان للعالم العربي على تعدد اقطاره وحدة واحدة تشغل مكاناً فسيحاً في القارتين الاسيوية والافريقية . ويستطيع ان يقول هذا القول علماء الجغرافيا وعلماء التاريخ وغيرهم . ولكن للاديب فناً مغرياً ينيلنا الثقافة والفائدة ، بينا نحن نرتع في بحبوحة من اللذة والمتعة ، في جو ممغنط اخاذ هو في الواقع جو الحياة .

رسالة الاديب تعلمنا ان نفاخر بلغتنا العربية الممتازة على سائر اللغات

بانها وُلدت قبل لغات قديمة اندثرت منذ قرون ، وما زالت العربية تفيض حياة ، مجارية حتى احدث اللغات بالقوة والمرونة والجزالة والرشاقة . كل امة تسعى الان الى نشر لغتها بين الامم الاخرى ، باذلة في سبيل ذلك المال والاغراء والدعاية والجهود . اما نحن فانتشار لغتنا شيء واقع وميزتها هذه تربط بين الاقوام العربية برباط قوي جاعلة الفرد الواحد منا ملايين .

رسالة الاديب تعلمنا كيف نخلق حضارة ادبية ، اذ بها لا بغيرها ، تقاس مواهبنا ، ويسبر غور طبيعتنا ، وهي التي تثبت وجودنا ، وتنطق بلساننا مترجمة عن مبلغ الانسانية فينا .

رسالة الاديب تعلمنا حب العزلة والسكوت ، وترجعنا عن الفخفخة وهوس الظهور ، فنعتكف على انفسنا نعالج ممكناتها بالظفر بمحمود النتائج . فالسنبلة المتمايلة على صفحة المروج ، حاملة بشائر الحياة ، لا تولد حبتها ولا تنضج الا في احشاء الارض ، في جو الوحدة والهدوء والكتمان .

رسالة الاديب تعلمنا ان لا نخشى كارثة ، ولا نتهيب مغامرة . كل زمن خطير في التاريخ كان زمن اضطراب وكوارث ، واعظم فوائد الانسانية نجمت عن عصور العذاب والخطر . الخطر مرهف ، ولا يُعرف شأن ذي الشأن الا يوم الكريهة . والعاصفة لا تقتلع الا ضعيف الاغراس . اما الاشجار ذات الحيوية العصية ، فالاعاصير تلح عليها وتهزها هزاً عنيفاً فلا تزيدها الا قوة ومناعة .

رسالة الاديب تردنا عن عديد الشخصيات القومية التي تجذبنا من كل صوب لتركزنا في شخصيتنا القومية الابية .

رسالة الاديب تعلمنا كيف نفهم كل شيء ونستفيد من كل شيء ، باحثين عن الصواب والكمال خلال كل نقص وكل زلل ، نازعين الى الجمال الحسي والادبي حيال كل دمامة خَلقية وخُلقية ، مساجلين النفوس والعناصر ، مناجين المنظور وغير المنظور ، لنجعل من حياة متناثرة متداعية ، حياة

متناسقة متماسكة .

اي شيء لا تعلمنا رسالة الاديب ؟

انها قوة تستفز قوتنا ، وموهبة تحفز مواهبنا ، وصرامة تردنا عن الحقارة ، وبسالة تدفعنا الى البسالة ، وعذوبة تؤاسي احزاننا ، واغرودة تطرب اشجاننا ، وهي عالم مستقل متماسك يسوقنا الى تكوين عالمنا المتآلف المستقل !

نحتاج الى الاديب يأخذ منا ويعطينا ، فيرسل صوته اريباً رصيناً مسيطراً اخاذاً حضاناً !

ونحتاج الى رسالة الاديب قويمة غنية عنيدة ملهمة لتوقف قوميتنا في مكانها المشروع في معرض القوميات بميدان العمران العظيم !

الإنسان كائن روحي

الهلال : ج (٤٧) **أغسطس ١٩٣٩ ص ٩٨٣ ـ ٩٨٧** .

الـكون كله في ألوف الألوان من الصور والأشكال ملئ من الروح المتجلي في كائنات وأحداث مرئية وغير مرئية محسوسة وغير محسوسة في مختلف مراتب الوجود .

ــ هل من عجب أن نقول :

« ان الانسان كائن روحي » .

مم يتكون جسد الانسان ؟ . لقد حللوه ، فوجدوا فيه تآلـف التراب والماء مع عناصر كيمياوية أخرى ، فقام أحد العلماء يركب هذه العناصر بالمقادير الموجودة في الجسد فصور منها انساناً ذا أجهزة عظمية وعضلية وعصبية مكتمل الأجهزة الداخلية في الدماغ وفي الصدر وفي الاحشاء . ثم قال لهذا الجسد : « كن انساناً . فكر تحرك . تكلم . إسمع » ! . فلم يكن الجسد إلا تمثالا . كان صورة متقنة من صنع المخلوق ، ولكن على افتقار إلى ما لا يجود به الا الخالق العظيم .

وراءنا نحن أهل الشرق وراثة ، ولا كالوراثات ، كل أمة من الأمم يجدّ جدها ، وتأتي بخيرها ، ملقية بغنائمها الفكرية والعلمية في حضارة العمران . في كل ناحية من أنحاء الخليقة ، وفي كل شأن من الشؤون، أبحاث

ودراسات واستنتاجات هتكت أستار الماضي الى ما سبق التاريخ . وعالجت ممكنات الحاضر فيما يرى وما لا يرى . وهيأت للمستقبل كشف المخبآت وإعلان الممكنات . لم تفلت من مجهر العلم ذرة من ذرات التراب ، ولا قطرة من قطرات الماء ، ولا شعاع من الأشعة الغائرة في سحيق الأفلاك ، ولا خلية من خلايا الكيان . للعلوم العقلية والرياضية والطبيعية والميكانيكية والكهربائية والجراحية والنفسية والاجتماعية انتصارات لا تعد ولا تحصى . وما اهتدت أمة الى سر علمي أو صناعي إلاّ انبرت الأمم الأخرى تبحث طبيعته وتكتنه أغواره ، وتستزيد من ممكناته . جوق مهيب من الأمم يشترك في الكشف عن أسرار الطبيعة ، وتذليل العناصر لخدمة الانسان ، ولنا نحن معشر الشرقيين في بعض هذه الجهود ذكر مشكور ، على ان أنبياءنا اتصلوا بمصدر الكيان والابداع ، فجاءوا بمعجزة المعجزات يوم أعلنوا وحدةالالوهية ووحدة الروح .

ان المبادىء العلمية ما فتئت يهدم بعضها البعض الآخر جيلا بعد جيل . أما حقيقة الله ، وحقيقة الروح على كثرة اللاأدريين والمعطلين ، فلم يأت أحد بما ينقضها ، ويحل محلها ماهو خير منها .

ولكم قيل لنا اننا أهل الشرق رقدنا على أكاليل الغار ، فانحططنا من ذروة المجد الأسنى الى حضيض الخنوع والاستسلام ، وجرينا وراء الخزعبلات والأوهام ، ضاربين صفحاً عن قيم الحيـــاة الجلى في السعي والبسالة والاقدام . ونحن في الواقع نستحق من تلك التهم شيئاً غير يسير ، وإن كنا لا نحمل مسؤولية ما صرنا اليه إذ كنا في طور الجمود ، غير اننا مسؤولون عما نحن فيه الآن . وأعلن هنا غير آسفة ان مجموعنا ، مع الاستثناء الجميل ، فقدكثيراً من قوة الروح ، وأنه الى الاتصال بالروح أحوج ما يكون .

نعلم أننا مكونون من روح وجسد ويؤكد الذين ينعتون نفوسهم بالعمليين أن للجسد شؤونه الزمنية التي يتحتم علينا الاعتناء بها ، وان للروح شؤونها

الخيالية التي يجدر بنا الاقلاع عنها . . الحياة الروحية ـ على قولهم ـ تصلح لبحث نفر من أهل الوهم أو أهل المثل العليا . شعراء كانوا أم فلاسفة ، علماء لاهوت أم صوفيين . أولئك الذين لا يحبون الحياة المحسوسة التي يحياها الجميع . أما الانسان العادي ، فليس في نظرهم أن يعنى بتلك الحياة الروحية إلا متى انتظمت له الضروريات المحسوسة في المعيشة والاقتصاد والاجتماع . وهنا هنا منشأ الخطأ .

الانسان يتغذى ويتحرك ويفكر ويحس ويسعى . حياة المجتمع من الغريزة والشعور وحياة الدولة من العقل والمنطق . فعلام توجد الروح اذا كانت وظيفتها لاغية !

ان زمنياتنا وروحياتنا شيء واحد . ولكن عندما نحسب الزمنيات مستقلة عن الروحيات يكون حسباننا ضعفاً وخيبة وضلالا . وعندما ندرك أن زمنياتنا ترتبط بروحياتنا ارتباطاً وثيقاً فنحن عندئذ أهل القوة ، وكل القوة فينا . . . وماهي الروح ؟

سؤال خطير . . وأشد خطورة منه الجواب عليه . عنى وعنكم تعريفات الفلسفة والعلم الافتراضي والطب مع احترامي للدكتور مالك إذ لا شيء يضعضع الموضوعات اكثر من تعريفها أحياناً .

من كل العلوم والفلسفات حسبنا ايماننا القديم بالله . ومن آمن بالله أدرك أنه يحوي في كيانه نطفة من الروح الازلية السرمدية التي لا يعتورها تشويه ولا يداهمها فناء .

نجيل الطرف والفكر في العالم المحيط بنا عن قرب وعن بعد ، فنجد الروح في كل مكان وفي كل كائن ليس من شيء يخلو من الروح ، وان تفاوتت كمية الروح في الكائنات .

الروح في امتداد المسافة ، في رحبات الافلاك . في العوالم والشموس المنثورة في الفضاء . في النظام الشامل الذي يسير كل كوكب وكل سديم ضمن منطقة فلكية لا يتعداها . الروح في حركة الارض . في شروق الشمس وغروبها في ألوان الاسحار وألوان الآصال . في الجبل الصامت . في الصخر الاصم . في الشجرة المزهرة . في أغرودة الشحرور. في تدفق النهر. في ترامي البحار. في تقلب الفصول . في تسلسل التاريخ . في دورة الدهور

الكون كله في ألوف الألوف من الصور والأشكال مليْ من الروح المتجلي في كائنات وأحداث مرئية وغير مرئية ، محسوسة وغير محسوسة ، في مختلف مراتب الوجود الملموس والمعقول والروحي .

الوطن قوة روحية . ولو لم يكن كذلك ما كونت البقاع الرحيبة وطناً ، ولا اتفقت قلوب الملايين على حب واحد وغرض واحد .

الدولة قوة روحية . لان مجموع وظائفها المتعددة تتلخص في صيانة الحرية والكرامة وتمكين أهل البلاد من التدرج شيئاً فشيئاً في معارج الارتقاء . ولا يصدر الارتقاء إلا عن الاتصال بالروح .

الأسرة قوة روحية . وعندما تنقلب الأسرة زمنية ينتابها التفكك ، وتتناهبها الأطماع والأهواء ويخيم عليها الشقاء .

المدرسة قوة روحية . وما التهذيب والتثقيف والعلوم والمعارف إلا مفتاح تضعه المدرسة في يد الطالب ليفتح به الباب المؤدي الى مصادره الروحية .

وما هو الدين إن لم يكن قوة روحية . وما غاية الانسان من الصلاة سوى الارتفاع الى مصادره العليا ليكون عندها أقرب الى الاتصال بالله ؟

بيد ان الروح ابدع ما تتجلى في الفرد الواحد ، والروح في جوهرها حرة طاهرة قوية كاملة . السماء عندها صافية . ولكن الدخان واللهاث المتصاعد من حياة زمنية تتجاهل وجود الروح ، تولد بيننا وبينها كثيف

الغيوم ، وتحجب عنا شمسها المنيرة .

فهل من تبدد لتلك الغيوم ؟ وما هو الحائل دون الاتصال بالروح فينا ؟ أستميحكم الجواب على هذا السؤال بتشبيه إن لم يكن وافياً من جميع الوجوه ، فهو على كل يقرب الموضوع الينا قدر المستطاع .

هاكم آلة راديو ، ونحن نستمع الى إذاعة شائقة . ولكن أصواتاً دخيلة طارئة وطفيليات تحدث جلبة وتشويشاً وصخباً يطغي على الاذاعة الجوهرية .

عندئذ ندرك ان خللا طرأ على بعض الادوات أو الاسلاك في الآلة . فيهتدي العامل الماهر الى موضع ذلك الخلل فيصلحه ، فاذا بالاذاعة تنتشر صافية رائقة في انسجام وجلال . ماذا حدث لتتم الأعجوبة ؟ حدث ان سلك الاتصال بالمصدر كان معطلا أو ملتوياً ، فأصبح الآن مباشراً محكماً . كانت أدوات الراديو تشتغل كل منها لحسابها وعلى هواها حتى بات الراديو خليقاً بالاسم الذي اختير له حديثاً : « الطمطمان » أو « الطرطران » . فأصبحت الادوات بعد إحكام السلك خاضعة للنظام القاضي بتعاونها جميعاً على إرسال الاذاعة في أسلوب خاص واتساق خاص .

قد يدهشكم أن أذكر الروح الى جانب مركز الاذاعة ، في حين نعلم جميعاً ان الراديو محض أداة ميكانيكية ، غير ان الراديو لم تخلقه العلوم الميكانيكية وحدها . بل الروح هو الذي خلقه وسخر له العناصر والميكانيكا . ليس من مكتشف أو مخترع إلا وقد اتصل في عزلته بالقوة الروحية في كيانه ، ليس من عمل عظيم ، ليس من بطولة ، ليس من عبقرية ، ليس من مغامرة تروع العالم ، ليس من إقدام باهر أسفر عن النجاح إلا وقد نجم عن اتصال الفرد بمصدر الوحي والقوة في كيانه .

أجل في المجتمعات مغالطات كثيرة . وفي العوالم فوادح جسيمة ، تفرض نفسها أحياناً حتى على الذين لا يشتركون في تنفيذها . . أجل ، الضلال فاشٍ مع المراوغة الثعلبية والجشع والانانية وحب اللهو والعربدة

والتمويه . أجل ، القوة المادية العنيفة تلقي الذعر في العالم ، والازمات المالية والاقتصادية ، ترهق الجماعات والافراد . والعباد من جراء التناقض بين القلب والعقل لفي حيرة ووجل واضطراب . ففى مثل هذه الحال خصوصاً على كل منا أن يرجع الى مصدر القوة فيه فيصلح الاسلاك المعطلة ليتصل بروحه اتصالا مباشراً . ولو عني كل منا باحكام ذلك الاتصال لكانت الانسانية على غير ما هى فيه اليوم .

فيا أهل الشرق الناهض رجالا ونساء شيوخاً وشباناً ـ انكم لا تستطيعون تعديل نظام الكون ، غير انكم تستطيعون أن تكونوا أقوياء أحراراً ضمن ذلك النظام . ان من الحوادث والوقائع ما لا نملك تبديله دفعة واحدة . ومع ذلك فكل منا يشعر بقدرة صحيحة في داخله تمكنه من تكييف بعض الظروف وجذبها الى ناحيته لا بالرياء والنفاق والمذلة ، بل بإباء واستقامة وبسالة ليتم في الحياة رسالته . ومما يستوقف الانتباه ان الصعوبات التي تصدمنا ، والمحن التي تحل بنا ، والآلام التي ترعى في نفوسنا ، والاوجاع التي تجتاح أيامنا ولياليناـ كل ذلك مما يدفع بنا الى ولوج داخل الكيان لنتصل بالروح مصدر القوة والمناعة فينا .

فتيان « العروة الوثقى » ، فتيان سائر الجمعيات والمؤسسات ، فتيان هذا المعهد العظيم ، فتيان الشرق العربي من اقصاه الى أقصاه . ألا تشعرون بالشمس تشرق في داخلكم ، بالنور يشيع في قلوبكم ، بالحمية تهزكم وتطربكم ، إذ أنا أوصل اليكم دعوة الروح وأناديكم الى الاتصال بقوة الروح فيكـــم ؟ ليست الشخصية الكبيرة هى التي تستسلم لعوامل الضعف والكسل والتراخى . بل كل مقاومة وكل غم ، وكل حرمان يوقظ تلك الشخصية ، ويردها الى داخل نفسها تتصل بمصدر الروح فيها .

أنتم أبناء اليوم ، تعدون وراثة الغد ووسط المستقبل ، فاذا ابتغيتم تبديل ما يسخطكم من عوامل الوراثة والوسط ، فليصلح كل منكم نفسه

بالاتصال بمصدره الروحي . من ذا الذي يفهم مجموعاً بدون أفـراد ؟ ان كل معالجة للضعف تتناول الفرد أولا وآخراً .

فاذا أنتم أردتم حياة مجدية ومدرسة مفيدة ، وأسرة عامرة ، وحكومة نزيهة ووطناً عظيماً ، فاجعلوا الفرد منكم بالروح وبقوة الروح غنياً قوياً نزيهاً نبيلاً رشيداً عظيماً .

كل ممكنات الدولة والأمة والمجتمع والوطن تقوم في روح الفرد ، وخير مصلح للفرد هو الفرد نفسه . الفرد كتلة مغناطيسيةتجذب وتلهم وتؤثر وتجتاح . ثقافة فرد واحد تثقف أفراداً عديدين . نور صغير واحـد يضيء بقعة واسعة . قوة فرد واحد تبعث القوة في الف فرد ، بطولة فرد واحدتخلق الف بطل . هذا وداعي اليكم . وكل عام وأنتم على اتصال بأرواحكم ، مصدر القوة والبسالة والعظمة فيكم .

مي

حاجتنا إلى ثقافة اجتماعية

الهلال : ج (٤٨) يناير ١٩٤٠ من ص ٢٦٩ إلى ص : ٢٧٥ .

افتتح قسم الخدمة العامة بالجامعة الاميركية بالقاهرة موسم محاضراته الحالي بطائفة من الموضوعات الاجتماعية القيمة ، كان في مقدمتها هذه المحاضرة النفيسة التي ألقتها أديبة الشرق النابغة الآنسة ميّ . وقد ترأس الحفلة الأديب الكبير الدكتور أمير بقطر ، فقدم الآنسة بكلمات بليغة لجمهور عظيم من السيدات الفضليات ورجال العلم والأدب . وقد تفضلت فاختصت بنشرها « الهلال » . ونحن ننشرها شاكرين مهنئين بها جميع المعجبين .

المغزى الادبي يتلخص عادة في الجزء الاخير من الكلام وعند فصل الخطاب . أما في هذا الموقف فقد كان الديباجة المشرقة . أى شيء أدل على الثقافة الاجتماعية المكتملة من تعضيد الغريم للغريم في سبيل المصلحة العامة ؟ هذا هو الدرس الادبي الذي ألقاه علينا عدوي الحميم وغريمي القديم الدكتور أمير بقطر .

بالأمس ـ قبل خمسة أو ستة أعوام ـ خاصمني خصومات طنانة رنانة في سبيل المصلحة العامة ، وها هو ذا اليوم ، في سبيل المصلحة العامة ، يشرفني بترأس هذا الاجتماع ويستقبلني بهذه الكلمات الطيبة . إني أمحّضه الشكر خالصاً . وهذا الترحيب عندى آثر ما يكون من هذا الاديب الذي جمع أدبه بين جمال المثل الاعلى وحيوية الواقع المحسوس ، من هذا العالم العالمي

بأسلوب التفكير، بسعة المدارك، بغزارة المعارف، برحابة الاحاطة، المصرى الوطني بالغيرة والهمة، ببراعة الاجمال، بتعيين الاهداف، باحكام التحقيق، من هذا القائد الذي يسير بفيالق الناشئة المصرية الى أفق يتلاقى عنده جلال الماضي ومجد المستقبل.

أيها السادة والسيدات

صيحة الاصلاح الاجتماعي في مصر سارت والصيحة السياسية جنباً الى جنب. وكان في مصر أبراج ثقافية تقوم وسط الزعازع وتظل في نفس الوقت بعيدة عنها. وفي مقدمة تلك الابراج هذه القاعة التذكارية.

من على هذا المنبر المضياف، بين هذه الجدران الصامتة، انطلقت وما زالت تنطلق أصوات نفر من خيرة أبناء البلاد وبناتها متحدثة في جد ورصانة وحمية عما بقي على مصر، بعدنجاحها السياسي، أن تحققه في مختلف نواحي الحياة القومية. وأظن ان في هذه القاعة وبمساعي قسم الخدمة العامة تكونت أول جماعة مصرية غرضها إصلاح القرية وتحسين شؤون الفلاح، ومن هنا مضى أول فوج من فتيان مصر ينشرون دعايتهم بالقول ويحققونها بالعمل لانصاف أولئك المحسنين الصامتين، الفلاحين، الذين بعرقهم وبدمهم يغذون الحياة المصرية.

فهل من عجب، والحالة هذه، ان ألقي السلام على هذه القاعة الغنية بالتيارات الفكرية والدوافع الحيوية بعد الغياب عنها أربعة أعوام؟ ولا أشك في أنكم تشاركونني في توجيه الشكر والتهنئة الى عميد قسم الخدمة العامة الدكتور ويندل كليلاند: الشكر لما أسدى وما فتئ يسدي من خدمات سواء بالتدريس والكتابة والاشراف على قسم الخدمة العامة ومعاونة وزارة الشؤون الاجتماعية بعلمه وخبرته وسديد رأيه. والتهنئة لأن جهوده صادفت نجاحاً وكانت ذات أثر محسوس في تكوين هذه الحمى المتفشية لطلب الاصلاح والسعي إلى تحقيقه. إن ارتفاع درجة الحرارة في مثل هذا الباب لهو الصحة

بعينها . إني أتهم الدكتور كليلاند بالقاء القنابل المغنطة ووضع الألغام الديناميتية في المجتمع المصري ! بيد أن هذا الصنف من الألغام والقنابل يوافق عليه قانون الجنايات وقانون الأحكام العسكرية ، وترحب به وتنشطه الحليفة العظيمة وكل أمة أحبت مصر في ماضيها فتمنت لها مستقبلا حقيقا بذلك الماضي المجيد .

ولما كان التبادل أساس الحياة تحتم أن يكون لصاحب الفضل من هو ذو فضل عليه . وهنا نذكر السيدة المثقفة اللطيفة مسز كليلاند التي تمكن قرينها الفاضل من التفرغ لأعماله المفيدة . ونذكرها بالحمد لأنها شأنها شأن بنات مصر متطوعة لخدمة الجمهور والقيام بأعمال التمريض والاسعاف العام . وهى إلى ذلك سيدة بيت مثلى تحسن إدارة المنزل وتنشئة الأطفال وتتقن طهي صنوف الطعام بما فيها صينية البطاطس بالفرن ، هذه الصينية التي دخلت في التاريخ . شؤون يراها البعض حقيرة تافهة ، غير أن المرأة المصرية الناهضة التي جمعت بين الثقافة الفكرية والروح الاجتماعية تتقن معالجتها وتدرك أهميتها لأنها الشرط الأساسي لصحة المجتمع وراحته وهنائه .

أما وزارة الشؤون الاجتماعية فلئن تراكمت عليها التبعات والمطالب والاقتراحات وهي بعد وليدة فذلك دليل على أن وجودها كان ضرورياً . وهي بعد وزارة « سمباتيك » ونحب أن تكون صلة بين المجتمع والحكومة . ولئن كانت أفقر الوزارات فلنذكرن ان الثروة لا تقوم بالمال فقط بل بالمال وبالرجال وبالهمم ، بحسن تشخيص العلل الاجتماعية وبحسن التدبير في تقديم الأهم على المهم ، والمهم على الأضافي في تطبيق الدواء .

أيها السادة والسيدات

في البلاد كثير من المدارس والمعاهد العلمية ، فماذا تكون هذه الثقافة الاجتماعية التي نحتاج اليها ؟

ان الثقافة المدرسية والجامعية بمختلف فروعها ودرجاتها ، مهمتها إعداد الأفراد لمزاولة حرفة أو مهنة أو عمل ، وهي مهمة لا مندوحة عنها في تكوين الشخصيات الفردية. ومن ثم صنوف ثقافية شتى حكومية وقانونية وطبية وزراعية وتجارية وصناعية وميكانيكية وعسكرية وأدبية وفنية إلى آخر ما هناك. والمفروض أن كلا من هذه الثقافات تتناول أهم الموضوعات والأساليب المطلوبة في نوع العمل. وقد يكون بعد هذه ، أو إلى جانبها ، ثقافة شخصية محصنة : كأن يكون المرء طبيباً ويقرض الشعر ، ويحسن العزف على آلة موسيقية وهو تاجر ، ويعالج الأدب أو النحت أو الرسم وهو موظف ، ملبياً بذلك داعي الذوق والميل والتطلع . متلمساً التسلية والترفيه عن النفس وتقضية أوقات الفراغ في نشاط ذكي نبيل . فأين الثقافة الاجتماعية من كل أولئك ؟ أجل ، إن كل نوع من العمل لهو عامل من عوامل النشاط العام والتنظيم العام . ولكن الرابطة التي تربط بين صنوف الثقافة وصنوف النشاط ، وتنظم اتجاه الرغبات وتنعم جوانب الشخصيات ، ما هي تلك الرابطة وكيف تتكون ؟

من المهد إلى اللحد يحيط بنا المجتمع من كل جانب ، يحيط بنا بحسناته وسيئاته ، بقوانينه وعاداته ، بعدله وظلمه ، برأفته وقسوته ، بظلماته وأنواره ، بممكناته وحرماناته . لقد اختلط تصرف الكثيرين من الناس في سبيل الثروة والجاه والسلطان . وكم من بطشٍ فظيع ، كم من حيلة ثعلبية ، كم من إهمال أثيم ، كم من ظلم فاحش حتى في مظاهر اللياقات الأنيقة أحياناً ! وحجتهم هو قانون تنازع البقاء وأن الحق للقوة . ولو صح ذلك فماذا يكون الفارق بين الجماد والانسان ، بين طائفة من الجلاميد المتحاذية في بقعة واحدة من الارض وبين جماعات من الناس يعيشون في بقعة واحدة من الأرض ؟ لا ضمير للجماد ، لا ضمير للنبات ، لا ضمير للحيوان ــ وإن نحن وجدنا عند بعض طوائف الحيوان ، كالنحل والنمل مثلاً ، إلى جانب

روح التنافس وتنازع البقاء روح التضامن والتعاون ، ونظام توزيع العمل . بيد أن كل أولئك ، ومثلهم الطفل والمعتوه والهمجي ، رازحون تحت وطأة قانون التنازع وهم لضغط غرائزهم صاغرون . ولو نحن اكتفينا بما هم فيه كنا منكرين جهود الانسان للتحرر من عبودية الغريزة ، وما كنا أهلا لتلك الكلمات المقدسة المرادفة لاسم الحياة ولا معنى للحياة بدونها كلمات الحق والواجب والحرية ! والواقع أن الحرية ليس لها من قيمة أدبية في نفسها ، وكل قيمتها في أنها تمكننا من التمييز بين الحق والواجب وتمكننا من التصرف الكريم في سبيل الظفر بالحق والقيام بالواجب . كل قيمة الحرية في أنها تمكننا من التقدم في سبيل الكمال الممكن . وليس في سبل الكمال من محطة نهائية ثابتة ، بل كلما تقدمنا طلبنا المزيد من التقدم . وكلما نشط العلم ونشط الاختراع ونشط الارتقاء تولدت معها في المجتمع عيوب ملازمة لطبيعتها ، فيعمد المجتمع المستنير الى الاصلاح . وكل ما تفاخر به الحضارة الحقة ، كل ما يشرّف الانسانية المدركة ، هو التغلب على فظاعة القوانين الطبيعية بقوانين منبعثة من الروح الانسانية الذي بدونه لا يكون الفرد إنساناً ولو هو استحوذ على كنوز العالم وتفوق في جميع المعارف والفنون والكفايات !

أيها السادة والسيدات

الكون كله بشاسع مسافاته وتعدد موجوداته ، إنما يحيا بالحركة . الحركة هي الحياة . والحركة على ثلاثة أنواع : ففي عالم الجماد ليست الحركة إلا تكراراً للمظهر ، وفي عالم الكائنات الحية تكون نشوءاً ، حتى اذا ما بلغت مرتبة خاصة من التطور البيولوجي في الانسان كانت الحركة ما نسميه ضميراً أو وجداناً .

الضمير ، الوجدان في الفرد يجعله إنساناً . الضمير ، الوجدان في الجماعة يجعلها هيئة اجتماعية . الضمير ، الوجدان المشترك بين أهل البلاد الواحدة يجعل تلك البلاد وطناً . والثقافة الاجتماعية انما نواتها في هذا الادراك .

استعملت كلمة « إدراك » ، بيد أن الضمير الاجتماعي ليس محض إدراك ، ولا يكفي أن تفرضه قواعد العلم وقياسات المنطق . بل إلى جانب هذه ، هو منطلق من القلب الحي ، من الرغبة الصادقة ، من العاطفة المتوهجة . الضمير ، الوجدان الاجتماعي يشعرك بأنك لست وحدك وأنت في عزلتك ، بأنك جزء حي من وحدة حية قلبها الرحيب ينبض في قلبك الصغير ، مرضها مرضك وسلامتها سلامتك ، همها وذلها وضلالها همك وذلك وضلالك ، عزها ومجدها وعظمتها عزك وعظمتك ومجدك . المجتمع جسم واحد ، والألم ولو في ظفر القدم يكفي لاتعاب الرأس وتضعضع وظائف الدماغ واضطراب وظائف سائر الاعضاء بالتبع . الوباء ينتشر أولا في أحقر الاحياء وأقلها نظافة ، فلا يلبث حتى يكتسح القصور . ولو وجد في المجتمع جائع واحد لا يدري كيف يجد قوت يومه ، فكيف يهنأ الغني بطعامه الفاخر ، وكيف يتقلب السري على فراشه الوثير؟ نحن نعلم أن الغني السري لا يخلو من الألم إذ لا بد لكل من أن يحمل عبئاً من أعباء الحياة . وكلما تقدم الانسان بثقافته وادراكه تقدمت معه على نوع ما صنوف آلامه . ولكن شتان بين الحرمان من الضروريات الحيوية الأولية والحرمان من وسائل الرخاء الكمالي ! وتقديم المساعدة للمحتاج عملية سحرية تحول عندنا معنى الألم وتجعله نوعاً من الرضى والطمأنينة . والثقافة الاجتماعية تعلمنا كل هذا وتحملنا على تفهم هذه الكلمة البديعة من العالم الطبيعي هكسلي القائل « تنازع البقاء هو قانون التطور للحيوان ، أما الانسان فتطوره يتم بالتعاون والتعاضد والتضحية عند الحاجة » .

وصل بنا سياق الحديث الى نقطة غاية في الاهمية ، وهي أن الضمير الاجتماعي لا ينفصل عن الضمير الاخلاقي وأن الثقافة الاجتماعية والثقافة الاخلاقية متممة كل منهما للأخرى لتصبح روحاً ذات حيوية دينامية توحد الافكار والمشاعر والاهداف والمساعي . الافراد تحيا وتقضي والاجيال تظهر

وتختفي ، أما المجتمع فباق ، والفرد بحياة المجتمع خالد . والفرد الذي يسعى بنية حسنة ويحكم العمل حيث يجب أن يكون وكما يجب أن يكون ، ويساعد إخوانه في حيز مقدوره فذاك الفرد يكبر في عين نفسه ويجد في داخل وجدانه حرية أعظم ، وثروة أوسع ، ويرى العالم أمامه أرحب ويحس كرامة السيادة وعندئذ يفهم لماذا قيل « سيد القوم خادمهم »

ولقد قيل كذلك « العمل خير من العلم » ، ولكن ليكون عملنا محكماً لا بد لنا من العلم . ان جميع العلوم والفنون والآداب وجدت قبل السسيولوجيا أي علم الاجتماع الذي لا يناهز القرنين ، ولكن هذا العلم الذي هو أحدث العلوم ما كاد يظهر حتى استوعب في رحابه جميع فروع المعرفة الانسانية والنشاط الانساني ، لأن كل علم وكل نشاط صادر عن المجتمع . ولولا المجتمع والأفراد التي تكونه ما كان علم ولا كان نشاط . كذلك الثقافة الاجتماعيةتجمع بين عديد المعارف والفنون لتلخصها روحاً اجتماعياً وضميراً اجتماعياً وفائدة اجتماعية . الثقافة الأجتماعية هي علم وعمل ، إحساس وتطبيق ، رجاء وتحقيق .

نحن نعلم ان المشكلة الاجتماعية تتطلب حلولا كثيرة ، ولكننا نعلم كذلك ان التحسين مهما كان زهيداً فهو يمهد السبيل لتحسين أعظم .

وما هي الوسائل لنشر الثقافة الاجتماعية والروح الاجتماعي ! هي الوسائل التي نعرفها جميعاً : العائلة ، المدرسة ، الكتاب ، الأدب الحي المهذب الراقي ، الفن ، الموسيقى ، المعارض ، المتاحف ، المسرح ، الصالون ، الأعياد القومية ، الرحلات المدرسية ، الصحافة ، الراديو ، السينما . ما أعظم تقدم السينما في ايامنا وما أبعد تاثيرها ! انها تأخذ شيئاً فشيئاً بالموضوعات الجادة المجدية متجردة بطبيعة تقدمها من السخافات التافهة . وكم كانت الوزارة موفقة في تنظيم الاذاعات المدرسية ! قد تفوتني اذاعات المحطة مرات ، ولكن لا تفوتني اذاعة مدرسيّة واحدة لأني أجدها

مليئة حياة .

تنشيط الثقافة الاجتماعية وتعميم الروح الاجتماعي أصبح الآن فرضا على كل ذي نفوذ في أية ناحية من نواحي المجتمع فيساعد كل بما عنده . فرضاً على الاغنياء ، فرضاً على الاقوياء ، على المدرسين ، على المثقفين ، على المشرعين ، على رجال الدين ، على رجال الحكومة ، على كل من يتلفظ بكلمة الوطنية . وما الوطنية في الحياة اليومية إلا عمل منظم ، عنيد ، متتابع ، فعال ، صامت ، أما الوطنية كصيحة حرب ، كراية جهاد ، كعاطفة مكتسحة ، فلها ساعات معينة ، وعند ما تطغى الكريهة فعندئذ يدعو داعي التضحية والاستبسال .

نشر الثقافة الاجتماعية وتكوين الضمير الاجتماعي فرض على تلك الضعيفة القوية ، المرأة ، التي في ألمها وعذابها هي منشئة الطفل ، ومهذبة الرجل ، وموجدة الروح في المنزل وفي المجتمع على السواء ، هي التي تنمي الفضائل الاجتماعية من لطف ومجاملة ولباقة وصبر ورعاية ولين وتسامح ورفق وحنان . هي خالقة الفروسية في الرجال ، لاتخافوا أيها السادة الرجال من ثقافة المرأة وحريتها ! هي مثلكم حسنة النية ، طموح الى المثل الأعلى ، تسير في سبل الحياة باحثة ، ضالة ، مهتدية ، باحثة من جديد لتبلغ الهدف النبيل . ان ارتباكات الحياة لتحير أكبرالعقول ! منذ سنوات قلائل نالت المرأة شيئاً من الحرية والثقافة ، فانظروا كيف ازدهرت مواهبها وتجلت شخصيتها في هذا الزمن القصير ! اتركوها تتعرف وجودها ، وتستغل لخيرها وخيركم ممكناتها ! وثقوا انها لن تخيب آمالكم فيها ! ان أختكم في القومية والانسانية لاتخون رجالها !

نشر الثقافة الاجتماعية وتكوين الضمير الاجتماعي فرض على الشبان وهم في البلاد دم وحماسة وحيوية ، وذكاء ونشاط وعبقرية . هم الذين يبحثون عن علل الحاضر ليعالجوها ، وهم الذين يطلبون طرائف الماضي

ليحتفظوا بها ويستنطقوها ، وهم الذين يزحفون الى غزو رحبات المستقبل بعزم الشباب وأريحيته واخلاصه.

وذلك فرض على أولي الشأن الذين يديرون دفة الحكم . إن في إهمال الألوف بلا تعليم وبلا عمل لتبذير باهظ في القوى ، وغض من حيوية المجتمع . ومظاهر النشاط والتقدم في نواحي الحياة المصرية تحملنا على التفكير كم ذا تكـون النتائج باهرة لو تعلم جميع الجهال واشتغل جميع المتعطلين . إن المجتمع لا يحتفظ بقوة كيانه ميسراً لنفسه وسائل التقدم إلا بضمانة الاحتياجات الحيوية الملحة لجميع الأفراد ، بالانصاف في توزيع الحقوق والواجبات ، بتمكين كل فرد من اكتساب حقه بتأدية واجبه . وكما أن حضارة أهل المنزل لا تقاس بالواجهة المزخرفة وبجمال التنسيق في غرفة الاستقبال ، فكذلك حضارة البلاد لا تقاس بفخامة بعض الأحياء في العاصمة وفي بعض المدن ، بل تقاس خصوصاً بالحالة العامة في الاقاليم والأرياف حتى أصغر قرية وأضأل زاوية .

حسن أن تشيدوا القرى النموذجية ، وتصلحوا الأراضي البور ، وتبنوا المساكن للعمال وتعمموا نشر التعليم ، ونود أن تشمل هذه المشروعات الاصلاحية جميع أنحاء القطر . ولكننا نعلم ان كل ذلك يتطلب مالاً وفيراً ووقتاً طويلا ، وانه لذلك لا بد من تقديم الأهم على المهم فنجعل أولا ماء الشرب خالياً من الميكروبات في جميع الجهات ونضمن وسائل المعالجة والتطبيب في كل قرية ، ونقدم للاطفال الغذاء قبل أن نفرض عليهم التعليم . بل يجب تقديم قوت الأجساد بالتغذية الكافية ، وقوت العقول بالتعليم ، وقوت النشاط بالعمل ، كل هذا للجميع وفي آن واحد . وليس ذلك لينفي وجود المثل الاعلى . لأن التاريخ الاجتماعي والسياسي والفكري ليس إلا إنعكاساً للشروط الاقتصادية . وتحقيق العدالة بين الناس يقوم خصوصاً على حياة اقتصادية أوفر عدلا . وما المثل الأعلى الا زهرة جميلة جذعها راسخ

في الحياة العملية المحسوسة .

حسن أن يجدّ القانون في مطاردة الأشرار وتأديبهم ، بيد أن السجون والعقوبات لا تخنق الغريزة الجنائية ، بل قد تقويها . لا إصلاح بدون إعداد الوسط الصالح . الجريمة مغامرة وذكاء ونشاط وقدرة . وقانون التحول هو أقدر القوانين وأفعلها في الطبيعة وفي الانسان جميعاً . فلو نحن حذقنا سر التحويل بالتربية وبالوسط استخرجنا من شخصيات المجرمين شخصيات عظيمة باسلة .

عدلوا برامج الدراسة ، فبرامج الدراسة كالقوانين مثقلة بالجثث البالية ! اعتنوا بالاطفال فالاطفال هم براعم الأمل ووعود المستقبل ! حببوا اليهم طور التربية والتعليم ، مكنوهم من الاستفادة وهم يلهون ويلعبون ، وانشئوهم على حب الجمال وتذوق الجمال !

حسنوا السلالة المصرية جسداً وعقلاً ! وخير الوسائل لذلك ، بعد مراعاة قواعد الصحة والنظافة ، هى الخدمة العسكرية والألعاب الرياضية التي هي كذلك خير وسيلة لمكافحة الادمان على المسكرات . في المدن وفي الأرياف ، سوقوا الناشئة إلى ميادين الرياضة ، فتزاول الألعاب الرياضية ليس باعتبارها مهنة لكسب العيش ، بل باعتبارها لهواً مشوقاً . إن أمة تتبارى شبيبتها في ميادين الالعاب الرياضية لهي أمة يجري الدم في عروقها نشيطاً ، فلا خمول فيها ولا شلل . هي الامة التي تحسن التنفس وتألف التوازن الفكري والعقلي بالحرص على توازن الاعضاء والحركات . هي الامة التي تستنكف وسائل الانحطاط لانها تحس بكرامتها البدنية والادبية . هي الامة التي تعتمد على نفسها وتنشأ على روح الزمالة الصريحة والمباراة النبيلة . هي الامة الشجاعة ، وجيشها هو الجيش القوي المقدام . وهي بكل ذلك سائرة حتما إلى مزيد من العافية والجمال الحسي والأدبي .

أيهاالسادة والسيدات

إن العالم لفي اضطراب لم يعرف له التاريخ من قبل مثيلا . أخطار عديدة تهدد الجميع . ولكن الشخصية القوية يرهفها الخطر ، ويحفز مواهبها ، فلا تطيل التلمس والمحاولة بل تهتدي بسرعة إلى أنجع الوسائل لقضاء حاجتها ، وكلما صادفت نجاحاً زادت ثقة بنفسها ، واستسلمت لنبيل الانفعالات ، فأقبلت عليها نفحات الالهام من روح الله ، من أغوار الوراثات ، من مستودعات الاماني والاختبارات ، من مستودعات الحضارة الحقة والانسانية الحقة .

لقد أثبتت مصر وجودها مرة في المسافة والزمن فكانت مهد الحضارة . وها هي ذي الآن حيال تطور عظيم يشمل جميع النواحى . إن مصر الحديثة فتية بعمر نهضتها ، فتية بآمالها ، فتية برجالها وبنسائها ، فتية بجهودها ، فتية بشبانها ، فتية بمليكها ! ولقد أضافت الى خميرة مجدها القديم خميرة حديثة مقدسة كونتها دماء الشهداء . ففي مصر من الحيوية المتجمعة ما يكفي لتثبت وجودها مرة أخرى بحضارة جديدة وازدهار جديد .

مي

تحيّة الربيع (1)

يا للكهف الفظيع وقد طغت في أجوائه قوات الشقاء ، وسُدَّت في جوانبه منافذ الافلات والضياء ، وكأنه قد ثقلت عليه من فوق يد الله !

بعودتك ، يا ربيع الوفاء ، تعودنا الذكريات العذاب : ذكرى عهد سالف ، ذكرى صباح منصرم ، ذكرى أمل قديم ، ذكرى هناء مقيم ! ثم نفكر حيالك في الليل المقبل ، في الغمّ المدلهم ، في الموت المهاجم ، في العمر الفاني ! وأمام عيوننا الملتهبة يمرّ تكاثف الدخان واللهيب كأنما هو يذيع أحكام القدر !

أجل تستعد لك الأرض غير انها هذه المرة تتهيأ لاحتضان الصرعى والمنكوبين . والأنهار تستعد لتصطبغ أمواهها بنجيع الدماء . والأشجار تستعد لتحنو بأفنانها على الجرحى والمصابين . والأزهار تستعد لتلثم مشوّه الأعضاء ومكلوم الأجساد . وهاوية البحر تستعد لتبتلع الكماة الصناديد : والاسماك تستعد لتتذوق لحوم الذين تغذوا على لحومها طويلاً ! والأفق يستعد ليشهد هبوط النيازك البشرية بعدان ألف منذ الأزل هبوط النيازك الفلكية !

الناس في انتظار ، والطبيعة في انتظار . فماذا أنت بمنتظريك فاعل ؟

أربيع العذوبة ، أيجوز في عرفك ان تكون ربيع الحنظل ؟

---

(1) عن « الهلال » ج (48) ـ مارس 1940 ـ ص : 491 ـ 492 وقد كتبتها متأثرة بأنباء الحرب العالمية الثانية المروعة .

ربيع الأزهار والتجديد والتوليد ، أترضى لنفسك ان تكون ربيع اليتم والثكل والتشريد ؟

يا ربيع الحياة ، أتستطيع ان تكون ربيع الردى ؟

مطارق الحديد تطرق في المصانع والمعامل .

آلات وأدوات خلقتها العبقرية تقذف بأدوات وآلات للقضاء على العبقرية

الثروات الحسية والأدبية ـ الثروات التي كونتها جهود الانسان واختباراته على كر الأحقاب ـ حُشدت لتستخدم في الفتك والتدمير . أرأيت أنوارها المشؤومة ؟ كعيون الجن في أعماق المغاور ، كأحداق الغيلان تحت شائك الأدغال ، ان بصيصها لنذير بالشر والويلات لكأن الكرة الأرضية بأسرها أمست بركان « الاتنا » وكأن جميع بني الانسان باتوا أعواناً لإلَه الحديد والنار « فولكان » يصوغون بأمره وسائل الهلاك !

أذكروا اللعنة القديمة فمضوا يعملون تحت وطأتها خانعين ؟ أَلِتنفيذها هم في الدأب أمناء يتساوقون ؟

الى أين يتسابقون ؟ وهل أمامهم في آخر الأمر سوى ذياك الباب الواحد ؟

ومن تراهم يكونون ؟ لقد فقدوا أسماءهم . ما هم الا شلالات تيار يتدافع .

ماذا يقولون ؟ معمعة الحرب ، وقصف المدافع ، وتفجرّ القنابل ، ولعلعة الرصاص ، وانهيار المدائن ، وتفطر الجبال ، كل ذلك ذاهبٌ بما يقولون !

والجهود التي يبذلون ؟ القبر يزدرد الجهود التي يبذلون !

ريح صرصر تثنيهم جميعاً كلون الأماليد الشيوخ منهم والشبان ، النساء والاطفال ، المقاتِل والمقاتَل ، المنكوب والمواسي على السواء !

واهاً ! أية رهبة تنحدر مع روح الربيع من نجوم السماء ؟ أية نقمة يلمع سيفها في بهاء الفجر مسلولاً !

كذّبنا ، يا ربيع الجنون ، وأثبت لنا أننا لأنفسنا مضللون ، وأننا بمرض « الكآبة والأضطهاد » مصابون !

كذّبنا ، يا ربيع الحرب ، وأثبت لنا أنك ربيع السلم !

كذّبنا وأثبت أنك ، كما عهدناك ، في تأدية رسالة الحياة أمين !

وإن لم تكذّبنا ، أيها الربيع ،

واذا تحتّم المضي في الحرب لتصير كلمةُ الحق حقيقةً وليشتري الانسان بالدم الغالي نعمة الحرية وغبطة الحياة .

فيا ربيع الخلان والعشاق والمتيمّين .

ما أنت هذه المرة الا ربيع الجبابرة والعمالقة والابطال !

ظلماتٌ وأشعّة



مِنْ كوّة الحيَاة

... وقفت عند كوة الحياة لا أدري لماذا أقف ومن ذا أوقفني هناك . وإذ بالناس في السبيل يمرون ، فأخذت أتفحص الوجوه منهم والحركات لعلي أعثر على ما يجعلني مختلفة عنهم وهم مختلفين عني ، ولعلي أدرك ما هذا الذي يطلب مني رغم حداثتي وحيرتي وجهلي وقلة اختباري . فصرت أعجب بالناس وأغبطهم على ما لديهم وليس لي أن أفوز بمثله ، وأتعزى بمظاهر الكآبة عندهم لتكون تلك المظاهر صلة ، ولو واهية ، بيني وبينهم . على أني لم ازدد إلا شعوراً بحيرتي وعجزي ، لم أزدد إلا شعوراً بأني خيال لا ضرورة له ازاء تلك الأقوام الفرحة الضاحكة ـ مع أن هذا الخيال يطلب منه شيء كثير لا يدري ما هو . فظننت لحظة أني وصلت إلى قرارة اليأس وأني شربت كأس المرارة حتى الثمالة . ثم أوحى إليّ بأن هناك وجوداً غير ملموس يدعى السعادة ، وشعرت باحتياج محرق إلى التعرف إليها والتمتع بها . ففهمت أنه ليس أقسى على النفوس في انفرادها وسكوتها وعجزها من تلقي ذلك الوحي العنيف والشعور بذلك الاجتياح العميق ...

أنا والطفل

هناك بعيداً عن المدينة وضوضائها ، في الطريق المؤدية إلى قصر كان بالأمس للخديو اسماعيل ولم يعد له ، على شط معبود المصريين ومرضع سهول إيزيس ـ ، على شط النيل النائح في سيره على رفات العذارى المبعثر في أعماقه ـ هناك روضة غناء مفتوحة لجميع الداخلين وقد حفظ جوها أحلام زائريها المتأملين .

قصدت إلى الحديقة في صباح يوم منير . نبذت عني عادات المدنية فافترشت الثرى كما يفترش سكان البادية رمال الصحراء ، وتمددت على العشب الأخضر في فيء شجيرة عند قدمي أحد التماثيل المنصوبة هنالك .

لم أرَ حولي سوى سيدتين انجليزيتين مع احداهما ثلاثة أطفال . وإن هي إلا دقائق حتى اقترب مني أحد هؤلاء ، وهو صبي في الرابعة من سنواته . فناديته قائلة « تعال إليَّ أيها الصغير ! » .

فدنا واجفاً باسماً ، فسألته : « ألا تجلس على ركبتي ؟ » فجلس صامتاً .

ولما شعرت بثقل جسده الصغير ذكرت أخي الوحيد الميت ، ووثب قلبي إلى شفتيَّ وجالت الدموع بين أجفاني فملت إلى الطفل امتص من حلاوة وجنته ، لاهية بتلك القبلة عن كآبتي المتصاعدة من فؤادي كما يتصاعد الغيم من أطراف البحار .

ما أعذب قبلة الأطفال ، وما أطيب طعم ابتسامهم ! .

ثم سألت الطفل : « ما اسمك ؟ »

قال : « روبرت »

نظرت في وجهه فإذا به آية من آيات الجمال الإنجليزي : وجهٌ شفاف كأنما هو عصير ورد وياسمين تجمد فنُحِتَ وجهاً بشرياً . وفم كزرّ الورد لطفاً وانكماشاً . وجبهة كبيرة عالية يخفيها شعر ذهبي مسدول عليها . وعينان لهما زرقة عميقة كزرقة البحار بعيد الغروب ، وهما كبعض العيون الانجليزية في جمودهما الظاهري وحرارتهما الخفية وحلاوتهما وتلاعبهما . نظرت في جميع هذه الملامح متمعنة ، فقلت للطفل : « من أين أتيت بعينيك ، يا روبرت ، ومن أعطاك زرقتهما ؟ »

أجاب ، ولم يفهم غير كلمتي « من أعطاك » :

ـ « ماما »

قلت : « قرّت عينا أمك بك ! وأي عمل يعمل أبوك ؟ »

قال : ولثغاته اللطيفة تتدحرج على لسانه متعثرة بشفتيه :

ـ « بابا ضابط . وأنا عسكري مثل بابا »

قلت : « أنت جميل وأنا أحبك يا روبرت . هات يدك »

قال : "Yes, thank you"

يد الأطفال عجيبة حلوة كابتسامتهم . أخذت يد روبرت أقرأ فيها ما خطته يد الأقدار . يدٌ مربعة كبيرة الابهام وفيها كل من خطوط الحياة والعقل والقلب واضح جلي ، وتلُّ المريخ يرتفع في تلك الكف الصغيرة متهدداً متواعداً ...

فنظرت إليه وخاطبته همساً :

ـ « هذه اليد التي تنقل اشاراتها اليوم ما حفظته من إشارات الملائكة ،

هذه اليد التي لا تمتد إلا لمداعبة الندى ولمس الأزاهير ، هذه اليد الصغيرة الطرية سوف تصير يد جندي ، سوف تقبض على السيف والحربة وتطلق النيران من أفواه المدافع ، سوف تفتك بحياة البشر أشراراً كانوا أم أبراراً... »

قال روبرت وهو يضرب أديم الحديقة بقدميه :

ـ « أنا عسكري مثل بابا ؟ »

قلت : « نعم يا روبرت ، عندما تبلغ سن التجند تصبح جندياً . وستكون جميلاً في ثوبك العسكري ، ستكون جميلاً جداً ، لكن أقل جمالاً منك اليوم وأنت بأثواب الطفولة . سوف تبسم لك النساء لأنهن يملن إلى الجنود ، ومُذهَّبُ الاكمام والصدور يسير بهنّ إلى عالم الأحلام . وهذه اليد الصغيرة الضعيفة سوف تكون كبيرة قادرة تؤلم وتشقي وتميت ، سوف تلمس آلات التدمير والهلاك بعزم وثبات ! وعيناك الجميلتان سوف تكونان عيني جلاد يرى الدماء والدموع دون أن يلين أو يرحم ... وقلبك ، ترى كيف يكون قلبك الذي لا يدرك اليوم ولا يشعر إلا قليلاً ... ؟

« أتكون من الكثيرين الذين لا يحسبون للعواطف في الحياة حساباً ، فيلعبون ويضحكون ويتمتعون ويحزنون دون استبقاء أثر لما يختبرون ، بل تمرُّ الأفراح والأتراح على نفوسهم كما تسقط دموع الغيوم على صفحة الزجاج فلا تترك عليها سوى ما لا يلبث أن يزول ... أم تكون من أولئك الذين يشعرون بقوة وحدة ويتظاهرون بعكس ذلك كبراً وخجلاً ؟ ... هل تضربك يوماً يد امرأة فتضع في عينيك للحب دموعاً وتغمد في فؤادك من اليأس خنجراً ؟ .

« غداً ، يا روبرت ، تنمو جسداً ونفساً ، غداً تقف على أحوال البشر فتجد ذاتك وحيداً في معترك الحياة ؛ غداً تعذبك المسؤولية وتضنيك المجاهدة ، ويلذعك لهيب الفكر وتذيبك نار الهيام . غداً تذوق ظمأ الروح . **غداً تصير إنساناً ، يا لهول الكلمة ! غداً تصير إنساناً أي حيواناً والهاً معاً !...»**

صمتٌ طويلاً .

وفي ذلك الهدوء الشامل في حضن الطبيعة تصاعدت نغمة حلوة من أطراف الحديقة وانتشر تموجها على أنفاس الأزهار : وكان ذلك صوت المؤذن يردد في الظهيرة ما أنشده في الفجر وما سيعيده عند الغروب .

فسألت : « هل سمعت الصوت ، يا روبرت ؟ » .

اجاب : "yes" .

قلت : « عما قريب تعرف ما هي الميثولوجية ، وما هي النصرانية ، وما هو الاسلام . عما قريب تفهم ما هو التعصب الديني والجنسي والعلمي والعائلي والفردي . عما قريب تعلم أن الأنسجة التي تخاط منها أثواب العرس تصنع منها أكفان الشهداء . عما قريب ترى الأقوام يفتكون بالأقوام لأنهم محتشدون حول قطعة نسيج صبغت بلون غير لون نسيجهم . عما قريب ترى كل هذا ، يا روبرت ، وتشترك فيه لأنك عسكري مثل بابا ! » .

●

انفصلت عن روبرت بلا قبلة ولا تحية . أنا لم اقبله لأني وقفت متهيبة أمام رجل الغد منه . وهو لم يقبلني لأني لم أعطه كعكاً ولا حلواء ...

بين عامين

بين شطَّي الماضي والمستقبل يجري نهر الحياة ثملاً بعقيقه الفخم ، ليصب في بحر الأبديةحيث لا جديد ولا قديم ؛ وخيالات البشر تتهادى بين جماجم الموت وأغراس الحياة مخفية طي ضلوعها كثيراً من الآمال وكثيراً من الكلوم .

فإلى بحر الأبدية ، أيها العام الراحل !

وأنت أيها العام الجديد ، إلينا !

●

وطئت الأرض طفلاً جميلاً ، فنبهت في قلوب الشيوخ الحنان وكنت صلة حب بين أرواح الخلصان .

امتزجت نسيماتك بدقائق الأثير فأصبح مغرداً لامعاً ، وامتشقت حسام الصبح ضارباً أعناق جيوش الظلام فسالت منها الدماء في المشرق وملأت كتائب النور الأرض والسماء .

وداست أعقابك على هام الأيام فأفنت قديمها وغدا اليأس أملاً والنواح تهليلاً .

هي الإنسانية طفلة في هرمها كلما ذاقت عذاباً رجت حظاً ، ولئن مزقت احشاءها الضغائن والأحقاد فموجات الحب العظيم ما برحت غامرة فؤادها .

فاسمع هتافها متخللاً أصوات الصباح : رحماك ، أيها العام ، رحماك ! .

لقد كتبت اسمك يد الزمان على باب الوجود ، فساعدنا لننقش اسماءنا على باب السعادة !

كنا بالأمس نلمس الأوتار فتسيل عليها الدموع مرخية قواها ، فما تسمعنا سوى شكوى المذلة وأنين العبودية . أما اليوم فنريد أن ننعش أرواح العيدان لنوقع أسمى المبادىء على أعذب الألحان .

رحماك أيها العام الجديد ، الإنسانية تتألم فارفق بها !

●

رحماك ، أيها الطفل الحبيب !

تعال نعطك القبلات السنوية الثلاث : فعلى جبهتك قبلة الرجاء ، وعلى ابتسامتك قبلة الوداد ، وعلى يديك قبلة الالتماس والتوسل .

جبهتك مستودع الأفكار ، وابتسامتك عبير الأزهار ، ويداك رمز القوة المنتقلة أبدية من أدهار إلى أدهار .

هذه أمانينا نلقي بها عند قدميك فلا تدسها فتلاشينا بل ضمها إليك فتحيينا .

نشيد نهر الصفا

عين زحلتاقرية لطيفة يعرفها الذين اعتادوا الاصطياف في جبال لبنان ، وألطف من القرية نفسها غابات الصنوبر التي تحيط بها ، وأجمل من هذه وتلك منظر نهر الصفا المتدفق عند قدم الجبل ، وعلى بعد أمتار قليلة منه يركن نهر القاعة .

كل من النهرين يسرد حكايته الأبدية على الأشجار المصغية إليهما بحللها السندسية . ويظل النهران في اندفاع وشكوى ، وروح الوادي تئن في أثرهما إلى أن تلثم مياههما مياه البحر العظيم .

هنا سالت صور الكون الهيولية وذابت ذرّات الأثير ؛

هنا اجتمعت بلابل ارفيوس لتعيد ذكرى أوريديس ذات القلب الكسير ؛

هنا تنهدت العطور تنهداتها الغرامية ، وتحوّلت الورود إلى اشعةٍ سحرية ؛

هنا اغتسل قوس قزح ؛ فترك في الماء من ألوانه ألحاناً فضية ؛

ومن دماء الأحلام المتجمدة استخرج قوس قزح ألوانه السرمدية ؛

هنا بعث باسراره إلى الأرض مع خيوط من الأثير ذهبية ؛

هنا نامت الأشباح بين أجفان بنات المياه ، فامتزج النور بالظلام وتلاشت اليقظة بالمنام ،

هنا ناحت حمائم الشعر وغنت أطيار الانغام ؛

هنا لثمات النسيم شوقٌ وهيام .

ومداعبة الموجة للموجة تبادل نظرة وابتسام ،

وجمود الشاطىء حقدٌ على فتور الليالي ومعاكسات الأيام ،

هنا ارتعاش الأوراق على الغصون تحية همت من مقل الكواكب وسلام

وتمايل الأفنان ودلالها نجوى ملك الوحي والالهام ،

هنا ليلة أنوار وفجر ظلام والغاز ملامس والوان وأنغام .

حينما يمر الفجر على قمم الجبال يرى صورته في هذه المرآة البلورية يرى رمز الشبيبة مع ما يتبعها من الآمال النضرة كالأزهار ، والميول المتنقلة كالاطيار . ثم يأتي الغروب ساكباً في أعماقها مرارة أحزانه مع ما يرافقها من النظرات المتحولة ، والابتسامات المتغيبة ، والجباه الكئيبة ، والشفاه المتحركة بالصلوات ، الساكنة بالتأملات .

هنا عيدان الأشجان تبكي ، تبكي بقلب جريح . وفي كل لحظة يخيل أنها تسلم نفسها الأخير بشهيق فيه من اللوعة والكتمان والتجلد بقدر ما فيه من المجد والعظمة ، من البسالة وعزة النفس الأبية .

لكن المياه لا تموت ولا تحيا ، بل تعيد ذكرى الماضي وتهمس بنبوءتها في المستقبل ، وتكرر أصوات الأفراح وتردد آهات الأتراح .

هنا لغز من الغاز الحياة وليلة من ليالي الزمان . وأنا لغز أمام هذه اللغز ، وليلة ازاء هذه الليلة . أهيم وحيدة على الشاطىء الحزين ، انظر ولا أرى ، اسمع ولا أفهم ، أبحث ولا أجد ، استعلم ولا أعلم ... فؤادي يخفق مع فؤاد النهر الخفي ، ونفسي قيثارة الأحلام والالحان . لكني لغز حي تائه في ظل الغصون ، ينظر مستفسراً إلى لغز آخر فلا يجد فيه إلا صورته ، فيود تمزيقها وسحقها وإن أحبها !

●

عند احتضار النهار ذهبت إلى رأس النبع وجلست على صخرة قائمة في وسط المياة المتسلسلة من صدر الصخرة الكبيرة . جلست وأرواح الخيال تتنشق الأريج العطري المعانق شعور بنات المياه . وآلهة الألوهية الأربعة يتلاعبون بدقائق الشفق سابحين على أمواج الظلام . وحول اشباحهم تلتف أكاليل البنفسج وقلائد الياسمين ، وفي ثغورهم يلمع فتيت النجوم ، بينا أبكار الشعر تسر لأخواتها خفايا اليأس والرجاء تحت أشجار الصنوبر ، وعذارى الطرب تستخرج من عناقيد « باخوس » خمراً تسكر به الآلهة . ومن سكر الآلهة يولد الشعراء والأنبياء .

وعلى هذه الصخرة حيث أنا أحلم ثملة بما شربته مشاعري من رحيق الخيال العلوي ، كان يجلس الأمير بشير الشهابي الكبير . كثيرون بعده وقبلي جلسوا هنا وفؤاد كل منهم منقبض تهيباً وخشوعاً أمام أنفاس الطبيعة وأصوات الخلود . وما يجول بخاطري الآن كان يجول بخاطرهم لأن الأفكار تتشابه في المصدر وفي النتيجة رغم تشعبها وتفرعها ، والرغائب الكثيرة اللاصقة في أعماق النفس البشرية هي هي في كل آن ومكان .

جميعنا طرح السؤال الذي القيه الآن على المياه المتراكضة : هو سر الأسرار الغامضة الذي يرجعه صدى الهياكل المشادة في قدس أقداس البشرية : من أين وإلى أين ؟ من أين وإلى أين ؟ ؟

من أين تأتين أيتها المياه وإلى أين تذهبين ؟
من أين أتينا وإلى أين نذهب ؟ ...

المياه تتدفق أثر المياه مهللة مكبرة ، وقد رفعت أصواتها في الغناء والنحيب ، ودمدمت العناصر فيها أسرار الفيض الإلهي ، ورفرفت على جوانبها أجنحة الخلود ...

من أين وإلى أين ... ؟

ثقل دماغي بافكار لا أُدركها . وضاق مني الصدر لهموم لا أعرف ماهيتها ، فنزعت عن ساعدي ساعة وضعت في أسورة ذهبية ونظرت إليها قائلة : ــ « أيتها الساعة ! أنت رمز الوقت الجاري في نهر الزمان فيسير قاصداً بحر الأبدية . ها أنا أغطسك في هذه المياه ... عسى أن تحفظي في حياتك المعدنية أثراً لرموز معنوية » . ثم جمعت بعض الحصى الملونة الجميلة الراكدة في أعماق النهر ، قائلة : « أيتها الجواهر ! سأحملك معي إلى وادي النيل لتذكريني بالعواطف الكثيرة التي تلاطمت في فؤادي أمام نهر الصفا .. أنت ذكر الأبدية التي حييتُ فيها لحظة » .

وإذ رفعت عيني إلى الأفق رأيت مقلة الزهرة ترقب يد ملك الظلام الراسمة على رداء الليل صوَر الهيئات السماوية .

فغادرت رأس النبع مرددة : أنهر الصفا ! من وأين وإلى أين ؟

●

أنهرَ الصفا ! جئتك تعبة الروح والجسد معاً .

قرأت خلاصة الأحوال الحاضرة فدوى في مخيلتي هدير المدافع ، وتمثلت لناظري صور الحرب المخيفة . ثم قصدت الاجتماعات فملأ أذني ضجيجها التافه ، وضجرت نفسي من معانيها السطحية ومراميها الخبيثة . عجبت لبلاهة الإنسان وركاكة ميوله وفتور همته . إذ ذاك سمعت اسمك الموسيقيّ فاحببته لأن فيه جمالاً وعذوبة وسلاماً .

لقد أحرقت قدميَّ الرمال الحارة ، ومزقت يديَّ أشواك الحياة ، فجئت أستخلص من أعشابك بلسماً لجروحي . تعلق بأهدابي غبارُ المادة محاولاً إخفاء الجمال المعنوي عن عينيَّ ، فأتيت أغسل أهدابي بمياهك المقدسة .

جئت لأرطب يديَّ وعينيَّ برضابك العذب .

ثقُل فؤادي عليّ ، فأسرعت لأبعث به معك الى روح البحر العظيم

الذي يناديك من عمق أعماق زرقته البعيدة .

أنت ابن الغيوم ، والعوبة الحرارة الهوائية ، وضحكة المادة الدائمة ، وقهقهة الجو بين الهضاب والأودية . أنت قبلة الشمس للبحر . أنت أنشودة الجبل في الوادي . أنت الروح الصغيرة المسرعة إلى أحضان الروح الكبيرة .

أنت عميق كأسرار الجنان ، عذبٌ كنظرات الولهان ، وفي اسمك ألوان وألحان .

أنت تهلمم[1] بي ، أيها النهر ، فخذني معك بعيداً عن الحياة وضوضائها ، خذني معك ... لكن ، ما هي نسبتي إليك ؟

أنت مجموع سوائل لا وجدان لها ، ولا قلب يخفق بين أجزائها . وأنا ... أنا شيء آخر . أنت لغز بين البحار والآفاق ، وأنا لغز بين الحياة واللانهاية . أنا أعرف أني لا أفهمك ، وأشعر بجهل الإنسان وشقائه ، أما أنت ... ما لنا ولك ؟

سيري ، أيتها المياه ، سيري واتركيني . إسقي النباتات والأعشاب ، ضعي لآلىء في ثغور الورد ، رطبي صدر الأرض الملتهب ، ترنمي في وحدة الوادي ، أسردي حكايتك التي لا تنتهي اندبي هللي ، اصرخي اهمسي ، أنشدي انحبي ، اطربي احزني ، كل هذا ننسبه إليك . نحن ابناء النشوة والكآبة .

سيري . أيتها المياه . ودعيني أبكي . لقد تلبد جو فكري بالغيوم القاتمة . وقلبي ـ ما لك وله ! ـ منفرد حزين ...

---

(١) تهلمم : هلمم دعاه قائلاً له : هلُمّ .

الساعة المفقودة

جعلها أرباب التجارة حلية نسائية واتقن الجوهري وضعها في سوار ذهبي فكانت نصيبي في الشراء .

صورة مصغرة للكون ، كذلك كانت ساعتي : مساحتها رمز للفضاء ، دورتها مسرح اللانهاية ، حدودها حدود الامكان ، علامتها مقاطع الوقت الذي رتبه الإنسان ، ساعاتها مقياس الأعمال ، دقائقها خوف من هجوم الرزايا وترقب لوفود الآمال ، ثوانيها دقات القلب ... من الثواني يتألف الزمان ومن نبضات القلب تنسج الحياة نسجاً .

فيا لهول ثواني الزمان ! ويا لهول نبضات قلب الإنسان ! بين ثانية وثانية يلتقي العدوان في أحشاء الثرى : الماء والنار ، فتميد الأرض بمن عليها وتتفطر أساساتها فتقذف البراكين مقذوفاتها الجهنمية وسوائلها النارية ، وتزفر الطبيعة زفرتها القتالة فتلتهم صروح العمران وتفتح صدرها مرحبة فيتدحرجون إلى الهاوية التي ليس فيها من يعود على وجه البسيطة مخبراً .

بين ثانية وثانية يتلاقى الجيشان في ساحات الوغى فتدوي رعود المدافع في الفضاء ، وتختطف بروق السيوف غالي الأرواح . ولأجل كلمة غالب أو مغلوب تندك عروش وتنتصب عروش ، تدمر ممالك ويعمر سواها ، تخرب مدائن ويشاد غيرها ، تتجندل أفراد وتفنى مجاميع فترتدي الأقوام سواد الألوان وفي نفوسهم لوعة الفقدان وسواد الأحزان .

بين ثانية وثانية يموت أمل ويحيا يأس ، تبتسم شفة وتدمع عين ، يخون صديق ويخلص عدو ، بين الثانية والثانية !

وبين نبضة ونبضة هناك سر الأسرار . دماء منبعثة إلى القلب ودماء منبعثة منه ، تتهافت عليه جراثيم الموت فتخرج مطهرة حيوية . بين النبضة والنبضة تأثيرات تهتز لها أسس العمر ، وانفعالات تشخص لمرورها ذرات الكيان . اشتعال الفكر وخمود العاطفة ، ظفر البلاهة وتقهقر النبوغ ، لذعات الغرام والحسرات العظام ، قنوط ورجاء ، سعادة وشقاء ، هتاف الروح المسلمة ولهاث الروح المودعة .

●

يا ابنة أبيك ! يغدرنا الزمان ساعة الرجاء ، ويخوننا يوم الصفاء ، ويهجرنا حين اللقاء : فأنت غادرة خائنة هاجرة كالزمان ، يا ابنة الزمان !

كم من ساعٍ طيبات وقعت مرورهن على دوران عقربيك وفكري يناجيك بأحاديث هداه وضلاله ! ابتسم لك عند السرور فأتخيلك صامتة تبتسمين ، وأتنهد حيالك يوم الأسى فأحسبك تتنهدين وتحزنين ، وكأن عقربيك ذراعان يمتدان نحو العلاء مستغيثين متوسلين .

لما أفنت قلبي وحدة القلب ضغطت بك على ساعدي قائلة « أنت الصديقة التي لا تخون » . ولما مزقت سمعي أكاذيب الناس وأحاديثهم المؤذية ، خاطبتك قائلة « أنت لا تؤذين لأنك لا تتكلمين » . ولما اذابني الجهل بدعواه والغرور بسخافته ، نظرت إليك قائلة « أنت عالمة لذلك تصمتين » .

وكنت تعزيتي ،

وكنت زماني ، يا ابنة الزمان !

وعلى هذا ما كان أطول اعراضك عني وأقل اهتمامك بي ! في النهار كنت تطوقين ساعدي فيوجعه أثر سلسلتك وأجيب أنا على هذا العنف بلمسة

التلطيف. وفي المساء كنت تستريحين بجوار وسادتي فأوقع على موسيقاك الساهية ألحان أحلامي وآمالي، وفي المساء كنت أول عين أشاهدها وأول روح استجوبها.

كل ذلك وأنت لا تنتبهين.

وها قد هجرتني، فقدتك وفقدتني فسيري بحراسة الله وانسيني!

ولكن انتخبي اليد التي ستطوقينها!

فإذا وقعت في يد شرير وقصد استعمالك ليؤذي أخاً له، فانقلبي افعى لسَّاعة ولا تبرحي مفرغة فيه سمك حتى تصرعيه قتيلاً.

... لكن لا! لا، ليس الأشرار إلا ضحايا البشر وضحايا نفوسهم لو كنت تعلمين. وهم أخلق بالرحمة من الأخيار الصالحين. فلا تتحولي حية ولا تؤذي شريراً، بل غادري تلك اليد المسكينة واسقطي في طريق أب فقير صالح لتكوني نصيب فتاة لم تلبس في حياتها حلية. زيني يداً شوهت خشونة الخدمة جمالها ونامي على زند الفتاة الغريبة بدلال القبلة والتحبب! نامي هناك وأسعدي، ولو ساعة، قلباً بائساً يحسب السعادة في الغنى!

نامي هناك وانسيني، ولكن!

إن كان لديك ذاكرة تذكر، يا ساعتي الصغيرة المحبوبة، اذكري لحظة ما شهدته معي من المسرات واللهفات، أذكري واحفظي ما تعرفين.

ولكن ألست ابنة الزمان الذي ننسب إليه في ضعفنا كل شيء، وهو في قوته لا يبالي بشيء؟ ترى بأي حافظة تذكرين، وبأي ذهن تتأملين؟ إنما علاماتك مداد قد تحجر، وعقربك اصبع يشير إلى علامة يجهل منها المعنى، وأنت آلة ليس إلا، وإن كنت آلة الآلات المثلى.

أنت ابنة الزمان الناسي،

وأنت مثله لا تذكرين!

يا سيدة البحار

أسمعت ما طيرته عنك البروق وما قالته فيك الأنباء؟ لوزيتانيا! أبلغك ما بلغنا وتعرفت ما يكتبون؟

قولي!

أتمردت أرواح الكهرباء في الفضاء وثارت قوات العناصر في أعماق السماء! أم هجمت أُسد البحر على الأسلاك الممدودة تحت الماء طالبة من معارف البشر لداء خفي شافي الدواء؟

قولي! أسمعت بما اذاعته عنك الأنباء؟

لوزيتانيا، أجيبي!

أنت التي خضعت لها رقاب الأمواج أعواماً، ولثمت المياه موطىء قدمها شهوراً واياماً، أنت التي ذاب لحر أنفاسها جليد البحار القاصيات وابتسمت لقدومها شموس السواحل الدانيات، أيتها الهازئة بهيجان العواصف، وثورات اللجج، وغضب البراكين، يا صلة العمران النشيطة بين العالمين!

يقال أنك غارقة يا ذات الدلال السائر، ويذاع أنك مندحرة يا قاهرة العنصر القاهر، أصحيح ما يقولون وما هم مذيعون؟ تقعين صريعة نيران الجبار العنيد؟ تتضاءل منك القوى ازاء بطشه فيذوب منك حتى صلب الحديد؟

انت التي قطعت المسافات الشاسعات ببسالة باسمة وملأت وحشة البحار الواسعات بزفرات الإنسان واصواته، أنت الآملة بكل شيء لانك يائسة

من كل شيء ، أيتها المرأة المتنمرة ، كيف لم تجيبي على صواعق الإنسان بصواعقك المنتقمة ؟

ألا تذكرين يوم غادرت العالم الجديد تحملين للاجسام طعاماً وتنقلين للنفوس غذاء ، وتمثال الحرية يحييك بقبسه المحيي ويتمنى لك سفراً سعيداً ؟ يوم شيعتك أنظار وقلوب وقد أودعتك أموالاً وأسراراً وأرواحاً غاليات ، ألا تذكرين ؟ كيف لم تصوني وديعتك سائرة بها إلى مـرفأ الأمان سالمة ؟ كيف لم تحرصي على ما ضممت إلى قلبك ، أيتها العاشقة الصامتة ؟

لوزيتانيا ! لوزيتانيا ! لقد ذقت رعشة الموت ، يا ضحية الحياة ! وعرفت معنى الأبدية ، يا أثر الفكر الزمني !

في أحضان المياه الدامسة حيث لا شموس ولا كواكب ولا أقمار ، حيث يتموج من العناصر الأسوداد والاخضرار ؛ حيث لا كلام سوى دمدمة العواصف الهائجة على صفحة الماء ، ولا صوت غير صدى الصواعق المنبثقة من جبين الأفق لتخترق وجنة الغبراء ؛ حيث تمر أفكار البشر على الاسلاك البحرية صامتة ؛ حيث لا انين ولا نواح ولا أنشاد ؛ في أحضان المياه الغدافية[1] ، في الهاوية المرعبة هناك تندثرين ، تندثرين في كهوف نبتون السائلة وفيها متلاشية تقطنين . هناك تحتضنين وديعتك التي لم تستطيعي صيانتها في الحياة فتكونين في الردى لها من الصائنين .

هل من دمعة تصل إليك مخترقة مياه البحار ؟ هل من قبلة تهبط نحوك مداعبة ما لديك من الأسرار ؟ لكن قد كفنك السكوت الدائم والجمود المتحرك الذي لا قبلات لديه ولا دعابة ولا عبرات .

لوزيتانيا ! لوزيتانيا !

سوف ينتقم لك البشر من البشر ، سوف يقيم التاريخ لك ولاخواتك

---

(١) الشديدة الظلمة

جميل الآثار ، سوف تنظم لك الأناشيد ويعزف لذكرك طروب الآلات .

وإذا سئلت في أعماق الهاوية عن الإنسان الذي ابدعك واستخدمك قولي إنه ما زال كبير المطامع موفور الغرور ، إنه في غروره قد أحبك وبكاك . وإذا سألتك روح الهاوية مذهولة : إذاً كيف فتك بك ؟ اجيبي بما يقولونه في ربوعنا من أن الذي قضى عليك ليس التحالف الملقب بالانساني ، بل المبطاش المنعوت بالجرماني ...

بكاء الطفل

سمعت الطفل يضحك فاختلجت روحي الأثيرية في جسدي الترابي . إن صوت هذا الرضيع ليرجّع صدى أصوات الملائكة ، وضحكته البريئة المطربة لتحث المفكر على اكتناه الأسرار الأزلية الغامضة .

ثم سمعت الطفل يبكي فهلع قلبي فرقاً وشعرت بشيء كبير يذوب فيه . اواه من بكاء الأطفال ، أنه أشد إيلاماً من بكاء الرجال !

سمعت الطفل يبكي ورأيت العبرات تتحدر على وجنتيه الورديتين ، فكانت تلك اللآلىء الذائبة جمرات نار تكويني .

ظل الطفل يبكي ودلائل العجز واليأس بادية على محياه الوسيم . ظل يبكي بكاء متروك منفرد لا يحبه في الدنيا أحد . الطفل الحبيب يبكي فكيف أعيد التألق إلى عينيه ؟ كيف أسمع في ضحكته صدى أصوات الملائكة مرة أخرى ؟

●

فدنوت منه متوسلة ،

وضممته إلي بذراعي التي لم تضم يوماً أخاً أو أختاً صغيرة ، وأجلسته على ركبتي حيث لا يجلس سوى الأطفال الغرباء ، ورفعت عقارب شعره عن جبهته الطاهرة بيد ترتجف كأنما هي تلمس شيئاً مقدساً .

... ثم وضعت على تلك الجبهة شفتيَّ ساكبة في قبلة كل ما يحوم

في جناني من شفقة وانعطاف . ترى من ذا ينبه الإنعطاف والشفقة بمقدار ما يفعل الطفل الباكي ؟

صمت الطفل حائراً لأنه شعر بأن روحاً تناجي روحه . صمت هنيهة ، ثم عاد فحدق فيَّ بعينين ملؤهما الحزن والتعنيف معاً . أتعرفون كيف تحزن عيون الأطفال ؟ أتعلمون كيف تعنف أحداق الصغار ؟ حدق فيَّ سائلاً عن أعز عزيز لديه ، وقال بصوت هادىء كأصوات الحكماء : ماما ، ماما !

●

صغيرك يناديك فلماذا لا تجيبين ، يا أم الصغير ؟ لست بالعليلة لأني رأيتك منذ حين تميسين بقدك تحت قبعتك ، والجواهر تطوق العنق منك . أنت صحيحة الجسم ، فلماذا لا تسرعين ؟ ألا تحرقك دموع الطفل الذي لا ترين ؟ ألا يوجعك الشهيق الذي لا تسمعين ؟

عودي من نزهاتك الطويلة ، وزياراتك العديدة ، وأحاديثك السخيفة ، عودي واركعي أمام الصغير واستميحيه عفواً .

لقد خلقت امرأة قبل أن تكوني حسناء ، وكيفتك الطبيعة أماً قبل أن يجعلك الاجتماع زائرة .

تعالي اسجدي أمام السرير ، سرير الصغير !

اسجدي أمام هذا المهد الذي لعبت بين ستائره طفلة ، وحلمت به فتاة ، وانتظرته زوجة ، فما خجلت ان تهمليه أماً . اسجدي أمام المهد فإن المهد محجتك القصوى !

اسجدي أمام السرير ، ولا تدعي رب السرير يبكي لئلا تملأ قلبه مرارة الوحدة ، حتى إذا ما شب رجلاً تحولت المرارة كرهاً وصرامة .

اسجدي أمام السرير وناغي الصغير ! ان دموع الأطفال لأشد إيلاماً من دموع الرجال .

دمعة على المغرّد الصامت

ما أسرع ما تتمزق أثواب الورود ، وما أتعس القلوب الشديدة التأثر !

يمر النسيم العليل على الأزهار النضرة فتتشقق بوطئه جلابيبها وتنتثر وريقاتها . كذلك تكفي ملامسة الألم النفس المنفردة ليثير منها الأشجان ويستقطر من محاجرها العبرات .

من الرجال من يكتفون بالمجد والوجاهة والفخر ، ومن النساء من لا يفهمن الحياة إلا بالزينة والغنى وارتفاع القدر .

أما أنا فلا هذه العطايا تغرني ولا تلك المواهب تستهويني . شيء واحد تام الجمال في تقديري وهو ما يشترك في تركيبه قسم كبير من الفكر وقسم أكبر من القلب . شيء واحد ينبه إعجابي وهو ما كان مترفعاً عن الصغائر والدنايا ـ هو زهرة نادرة المثال ، شمس الذكاء والمعرفة تحييها ، ومياه العواطف العذبة ترويها .

ما أتعس القلب الحساس وما ألينه لاستحكام الجراح في ثنياته !

●

طائر صغير نسجت أشعة الشمس ذهب جناحيه وانحنى الليل عليه فترك من سواده قبلة في عينيه . ثم سقطت عليه يد البشر فضيقت دائرة فضائه وسجنته في قفص كان عشه في حياته ونعشه في مماته .

طائر صغير أحببته شهوراً طوالاً . غرد لكآبتي فأطربها ، ناجى وحشتي فآنسها ، غنى لقلبي فأرقصه ، ونادم وحدتي فملأها ألحاناً .

امتزج ذكره بحياتي فحل عندي محل صديق لا تصلني به اللغة ولا يقربه مني التفاهم الروحي ، بل يعززه إليّ حضوره الدائم وإن لم يبال هو بحضوري ، وصوته الرخيم وإن لم يغرد إلا لأن التغريد من طبعه ، وسروره الذي لا يعرف الكآبة ، واصطباره على ضيق الفضاء وقناعته بما قدر له من النور والهواء .

لما ابكتني الآلام أريته منديلي مبللاً بالدموع فأعرض عني . إنما تستدر الدموع ظلمة الأحزان كما يستدر الندى ظلام الليل ، وروح الأطيار شعاع مغرد فكيف يتفهم النور الظلام ؟

ثم أشرت بيدي إلى الأثير البعيد لعلي أرى من طائري زفرة تنبئني عن لوعة في قلبه . ولكنه أخذ يتنقل على قضبان قفصه غير مبال بي ، كمن يقول : « النور لا ينظر إلى الشمس والقلب لا يحدق في الروح لأن كليهما واحد . أنا لا أنظر إلى الأثير لأن فيَّ نقطة منه . إني فيه وان بعدت عنه . كالشاعر الذي يظل محلقاً في سماء الخيال والمعاني وأن وثق الناس من أنه يجالسهم مصغياً إلى أحاديثهم » .

وإذا أتيته بالأزهار نازعة عنها وريقاتها فارشة بها مهبط القفص لعلي أرضيه ، شرع يدوسها استخفافاً متابعاً تغريده . كأنه فيلسوف لا يكترث للصغائر وان جملت منها المظاهر ، ولا يهتم إلا بما ينبه قوى البحث والتفكير في جنانه .

في الصباح كنت أفتح عيني فيستقبل استيقاظي بالغناء وتسيل موسيقى أنغامه على قلبي فتذيبه وتسكره معاً .

وفي النهار كنت أجلس للدرس والتحبير فتشمئز نفسي أحياناً من عبوس

الكتب ، ويثقل يراعي في يدي كأنه صولجان تنازل عن ملكه ، فيأخذ كناري في الزقزقة والتغريد ، وتأتي جماعة طير من الخارج فتتوحد التغاريد عند نافذتي كما تمتزج الألحان في قلب الأمواج . إذ ذاك تبتسم الأفكار على صفحات الكتب أمام ناظري ، ويتمايل قلمي تمايل الصفصاف قرب الغدير وتنجلي الغيوم عن صفحات نفسي وتطرب روحي .

وفي المساء كان الكنار يصمت إجلالاً لقداسة الظلام فيخفي رأسه بين جناحيه ، ويجمد جمود المفكر . ساعتئذ تأتي بنات خيالي محلولة الشعر وورد الابتسام منور على شفتيها ومصباح الشعر متقد في يمينها . فتعقد حلقة وتدور راقصة حول أحلامي ومنشدة أناشيدها بألحان سرية كأعماق اللجج ـ أناشيد عجيبة لم يسمعها إلا خيال روحي المتهادي بين أولئك العذارى الراقصات . ولم أفهمها إلا بحاسة سادسة تنبثق في قلب الشاعر في ساعات الوحدة والكآبة . بينا ملوك الجوزاء تطل من أعالي علاها ناظرة إلي من نافذتي المفتوحة على آفاق الليل ، والكنار يرقبني بعينيه المخفيتين تحت جناحيه الذهبيين .

●

والآن أنظر إلى القفص !

لقد صمت الطائر المغني ، وجمد الشعاع المحيي ، فلا ترى في القفص إلا قليلاً من الشمس المائتة !

مات الصغير الغريد ، مات صغير حشاشتي !

مات عند بزوغ الفجر وقبل انقضاء الربيع ، ولا يبقى في خاطري إلا أثر من ذلك اللحن المتواضع البديع . شعاع ذهبي أطل حيناً واختفى في كبد الآفاق ، ابتسامة لطف أشرقت ، وما لبثت أن توارت في أخفية الظلام .

نور فكر ضاء ثم اضمحل في لجج العدم ، وردة أثير تنفست فعطرت واسكرت . ثم ذبلت .

نغمة حب تموجت ساعة ، ثم تلاشت في هاوية السكينة ،

صديق صغير غرد فأطربني ، وسكن في جواري فآنسني ، ولما مزق قلبي العالم بشره وصغائره غنى طائري فأنساني قبح القباحة وجعلني أفكر في كل حسن بهي .

هذه قيثارتي فقدت أحد اوتارها فناحت بلابل أنغامها ،

فما أتعس القلوب الشديدة التأثر ! وما أمر الجرح الصغير الذي يفتح جراحات كبيرات !

●

سر الوجود وسر الفناء من يستطيع اكتناههما ؟

في كل ذرة من ذرات الكون ظمأ لارتواء خمرة الحياة ، وشوق مبرح للنمو وبلوغ أكمل الحالات الممكنة . فما غاية هذا الشوق ، ولماذا وجد ذلك الظمأ ، إذا كان الفناء كعبة الكمال ونهايته ؟

أتلاشى ما كان في طائري من انس وايناس ؟ أضاعت نفسه الصغيرة الحلوة في الأثير كما امتزجت تغاريده بأمواج الهواء وعناصر جسمه بالتراب والماء ؟ أم هو يحفظ جوهر ذاتيته ويظل هو هو في مجاهل الفضاء ؟

علام وجد ولماذا قضى ؟

ألهذا الفناء ترقى نوعه حتى صار طائراً غريداً ؟ أعاش يوماً وكان من نصيبي لكي يطربني ثم يوحشني ، يزيل كآبة نفسي حيناً ثم يتركني حائرة في أمره وأمري ؟

أين الحكيم يكشف لنا هذه السرائر ويزيح الستار عما في الحياة من الغوامض ؟

وأنتم أيها الموتى ، أطياراً كنتم أم بشراً ، ألا تنطقون مرة واحدة لكي تفضوا إلينا بما طوي من الأسرار وراء حُجُب الردى ؟ ألا تهمسون في نفوسنا بالكلمة الأولى من اللغز الأزلي السرمدي الكامن في ضمير الوجود ؟

نحوَ مرقص الحياة

... ولما انتهى دور الوقوف في الكوة وجدتني بين الجماهير ووجهتي مرقص الحياة ، جاهلة من ذا يسيرني وإياهم وبأي دافع هم يسيرون . فتناولني حيناً دوار الاختلاط بالجمع الكبير ، إلا أن الشخصية العامة لم تستول علي فتغرق في قدرتها عجزي . بل بقيت أنا تلك الصغيرة الضعيفة الحائرة وسط المعضلات والزوايا . ولم يفتأ ذلك الوحي المعذب يهمس في سورته ، وذلك الاحتياج المتوهج بضرم في ناره . ففهمت أمراً آخر وهو أنه حيث تكون العاطفة متيقظة مرهفة فهناك النزاع الأليم والاستشهاد ، وإذا رافقتها الأنفة وشرف السكوت على مضض الحروق والكروب فهناك مأساة الصلب تتجدد مع الأيام ...

نحو مرقص الحياة

في ليل مسترخي السدول سرت على شط بحر الأيام مع السائرين . سرت نحو مرقص الحياة في ليلة غار نجمها وادلهم ديجورها ؛ على شط بحر الأيام سرت مع السائرين بين ما طمسته عصور وخلفته عصور وشادته عصور ، على شط بحر الأيام سرت أتلمس سبيلاً قريب المنفذ نظيفاً أنيقاً ، لئلا تلطخ الأوحال نعلي الإغريقي الأبيض وتمزق السموم وريقات زهرة رأسي ، زهرة الياسمين التي زنت بها رأسي .

انوار المرقص هناك عيون تناديني ، وفي كل من قدميَّ جناحان يحثانني على الرقص قبل الوصول . يا لطول الطريق المتشعبة في الدجى ، يا لطول الطريق ويا لهول الطريق ! اليس من هادٍ يهديني بين جماهير السائرين ؟

●

جاءني خيال سائلاً وفي صوته لهجة المتأدب : إلى أين تقصدين ؟

قلت : أرأيت القصر العظيم الذي تتهامس في صدره أسرار الألحان ، ونوافذه الحاظ أنوارٍ تناديني ، أرأيت القصر العظيم ؟ إنما إليه أقصد لأنه مرقص الحياة .

قال : وما عملي إلا قيادة الناس إلى المرقص ، قيادة من شاء من السائرين .

قلت مبتهجة : أصحيح ما أنت قائل ؟ ومن أنت إذن لتفعل ما أنت فاعل ؟

قال يقدم نفسه : أنا الغريب . أنا الغرباء . أنا التاجر والطبيب والمهندس والمحامي والنائب والحاكم . أنا العامل والخادم ، والباني والهادم ، وأنا المتهم والقاضي . أتعاطى جميع الحرف ، وأعمل للناس وهم لي يعملون . أخدمهم في بابي ليكون كل منهم لي في بابه خادماً . أقدم لهم ما لا يحصلون عليه بدوني ، وأعقد في ما بينهم بروابط لولاها ما تبودلت فائدة ولا اشترك في منفعة . أنا الغريب الذي تجعله المصلحة قريباً لكل غريب .

قلت : عرفتك يا سيدي . هذا سواري أعطيكه فقدني نحو مرقص الحياة .

في مركبة الغريب سرت مسافة طويلة ، قطعنا جبالاً وأودية لم أر منها الصعاب ولم تتعثر قدمي فيها بالصخور . وإذ وصلنا سلسلة الأطواد المتساندات في حدود الأفق ودَّعني الغريب لأن مركبته لا تستطيع المسير ، ودَّعني الغريب ومضى .

●

دارُ المرقص اقتربتُ منها قليلاً ولكن بيني وبينها سلسلة الأطواد المتساندات . رأيتني وحدي ، فلذعني البرد ، وهدَّدتني دياجير الآفاق ، وشاكتني أشياء لم ألمسها بيدي . وإذا خيالٌ يقترب متعمداً ممـاشاتي . فوقفت واجفة وسألت : من أنت الذي تعترضني في طريقي ؟

أجاب وفي صوته شر واستهزاء مهين : مَن أنا ؟ أنا الدياجير المهددة ، وأنا الأشياء الشائكة في الظلام . أنا النميمة والأغتياب والوقاحة والشراسة والامتهان . أنا الشفة التي تبتسم هازئة لأن وراءها أنياباً تنهش نهشاً . أنا اليد التي تضرب لتثأر بلا ثأر . أنا القلب الذي يكظم الحقد والضغينة بسبب وبلا سبب . أنا الكيد والغيرة والخبث والحسد ، وأنا الذم القبيح المختبىء وراء شهد التمليق وتكلف السكوت . أنا العدو . أنا الأعداء .

قلت مرتعشة : لعلك تعني سواي بهذا الكلام . أنا لا أكره أحداً ، ولا أحقد على أحد ، ولا أعداء لي . وإذا صدر مني أذىً فإما عن سهو واما عن سوء تفاهم ، وأنا أول من يتألم له بعد حدوثه .

أجاب وقد تضخمت معاني البغض في صوته : بل إياك أعني ، أنا عدوك أنت ولا أستطيع أن أكون لك إلا ذلك . عبثاً تتحاشين طريقي ، وعبثاً تتبعين سبل الحذر والتحفظ . سوف اؤذيكِ بأصغر الأسلحة ، وأوفرها اقتداراً ، واحدّها مضاءً ، وأبعدها عن منطقة العقوبة : اللسان .

وبينا كلماته تنقضُّ عليّ كالصواعق ، توارى عني ففطنت لنفسي . فطنت لنفسي فوجدتني أقطع نفقاً ضاق منه الجو وثقل فيه ضغط الهواء ، حتى خلته قبراً ملأته عقارب توجعني ، وحيات تلسعني ، والسنة لهيب تكويني . سرتُ هائمة والعبرات متحجرات في أقاصي قلبي . ولما عثرتُ على منفذ أخرجني من النفق الرهيب وجدت تحمسي يأساً والأجنحة في قدميّ أغلالاً . خلفت سلسلة الأطواد المتساندات ولم يبق بيني وبين المرقص إلا منبسطات السهول . عندئذ بكيت ثم مسحت دموعي المتسابقات لأفسح مجالاً لدموع جديدات . ثم قلت : ترى لأي شيء يوجد في الوجود شيء ؟

●

بلطف النسيم امتدَّت اليد إليَّ . يدٌ ترسل أناملها نوراً ، وتبعث من حركاتها حرارة تدفّيء روحي . ولما أن أجفلتُ قال صاحب اليد : هاتي يدك .

فنظرتُ إلى الخيال قائلة : كفاني ما لقيت من الخيالات في طريقي . إني لا أطلب مساعدة أحد وقد عدلت عن الذهاب إلى المرقص ، فدعني وحيدة في كآبتي ، دعني في سآمتي ويأسي وحيدة .

قال ــ لا أستطيع أن ادعك هنا ، ولا أنت تستطيعين إلا قبول مساعدتي .

قلت ـ كيف ذلك ؟ ومن أنت ؟

قال وكأن ابتسامات الملائكة قد تجمعت في صوته إخلاصاً وحلاوة ـ أنا الصديق . أنا ذاك الذي يشعر ويدرك ويفهم ويعلم . أنا ذاك الذي يعلم . أنا التعزية وموضع الثقة والأمان . أنا الصديق .

قلت ـ لا ثقة لي بأحد . وأنا لا أعرفك ولا أريد أن أعرفك .

قال ـ ارادتك وعكسها عندي سيان . هذه السهول لا يعرف خفاياها غيري . طريقك فيها وليس لك من دليل غيري . وعندي لك رسالة وقد جئت مرغماً لأبلغها إليك .

قلت ـ ممن هذه الرسالة وما هو مضمونها ؟

قال ـ لا أدري . لقد دفعتها إلى يد الخفاء وحجمها في نفسي يدلني على أنها ليست لي . ثم زاد وفي صوته الحاح وكآبة : خذيها ، هي لك ! وستعلمين سرها ساعة تأخذينها وتناولينني رسالة أخرى لي عندك . كذلك قال لي الصوت المجهول الذي بعث بي إلى هذا المكان . خذي ما لك وأعطيني مالي !

●

إلى بحر الأيام حولت نظري طالبة إرشاداً . إلا أن صوت الأمواج متشابه لمن لا يسأل ولكن في أنة الأمواج لكل سائل جواباً . فارتفع الحباب قليلاً قليلاً ونمق لي الأمثولة بحروف فضية : « يقسم المرء الناس إلى غريب وعدو وصديق . فذاك يبتغي الدرهم متاجراً متأدباً ، والآخر لا يظهر إلا معانداً معذباً منتقماً ، وهذا يتكلم باسماً ودوداً فينطلق صوته وبسمته إلى سويداوات القلوب ، ويستقر صوته وبسمته في سويداوات القلوب . وما كان كل من هؤلاء إلا مؤدباً مرشداً إلى سبل الحياة ، وما كان كل منهم إلا استاذاً يدرس عليه ما لا يعلم من سواه ، لأنه يحمل في يده رسالة خفية قد اؤتمن

عليها من آلهة الغيب والأسرار » .

●

على شط بحر الأيام سرتُ مع السائرين . ومن منهل الغبطة المتدفق فيَّ سكبت تعزية . ومن الشمس المنيرة في جناني وزعت أنواراً على الذين معي من السائرين . وزعت من شمس جناني أنواراً ومن منهل غبطتي تعزية على المحزونين من السائرين .

الذكرى الجديدة

أصبحت اليوم وبين يديَّ ذكرى جديدةحارة تتضوّر وتتأوه وتتلوى كالنفس المترددة بين البقاء والانتحار . واخذتني منها شفقة فحملتها برأفة إلى معبد الأذكار القائم في أعماق روحي .

عبرت العتبة متأنية والتهيب يلاشي وقع خطواتي ، وجثوت بين تذكارات متبحرات في شفق التأمل العميق حيث لكل ميتٍ مضى اسم ولكل حدث انقضى رسم . فتقلصت التذكارات من ذواتهن الهيولية وحنون عليّ هامسات وقلن : « نحن فيكِ وأنت فينا » .

فردّدت همسهن وقلت : « أنا فيكن وأنتن فيَّ » .

ونهضت بالذكرى الجديدة أعيّنُ لها مستقراً فاستوت على متوسط المذبح ، وأخذت أنسق أمامها طاقات الأزهار ، وأنثر على جوانبها فرائد العطر والندى ، وأوقد حولها الشموع والمصابيح وأذكي نار المجامر بالمر واللبان ، ثم وقفت أرقبها بانشراح إذ رأيت الهدوء يباغت اضطرابها وتوجعها .

وفي النهاية مشيت متراجعة إلى المدخل . وبعد نظرة الوداع غادرت معبد الأذكار وبي ارتياح من أدّى واجباً عزيزاً وفخر من أتى أمراً عظيماً .

●

والآن ستتسارع الشهور حتى تنتظم أعواماً ، وتتساند الأعوام حتى تترتب عقوداً ، ويتقاذفني موج العمر فلا أعي يوماً إلا وأثر ذكراي الخفي يبدو

في جميع أعمالي .

فإذا تكلمت واتخذ صوتي قراراً بعيداً كان متكلماً فيه صوت ذكراي .

وإذا أحرجني موقف فأحجمت ، فهممت ، فأقدمت ، فتجاوزته إلى غيره ، كان الفضل لامثولةٍ ألقتها عليّ ذكراي .

وإذا سرت أحياناً بخطوات يخلن لتريثهن مفكراتٍ بأرض يطوينها ، كان ذلك التباطؤ هوى من إهواء ذكراي .

وإذا استفزني التحمس لمظلوم واستبسلت في الدفاع عن ذي حق فما ذلك إلا مكافحة لطغيان استدر الدموع والدماء من قلب ذكراي .
ذكراي .

وإذا شعرت يوماً بزمهرير البحار المتجلدة يجاور في كياني تأجّج الرمضاء المستعرة ، وتلاطم بين جوانحي هبوب الصرصر بلوافح السموم ، فما ذلك سوى ثورة جديدة تقوم بها عناصر ذكراي .

وإذا شمت خيرات العالم فقراً وازدحام العالم قفراً فلأن لا ائتناس ولا غنىً في غير عالم تبدعه ذكراي .

وإذا رآني جليسي وناظراي يخترقانه إلى ابعاد شاسعات فلأني ألمح بين طبقات السحب خيالاً من ذوي القربى لذكراي .

وإذا نما حبي بغتة واحتوى الموجودات بقوة كأن الروح الكلية اتخذته لحظة رسول عطفها على الخلائق فما ذلك إلا اختمار فطير ذكراي .

●

وعندما أعود إلى منشأ الكائنات ومرجعها وأرقد بين جلال المدافن في قبري الضيق حيث تنقلب صورتي البشرية تراباً ، فهباء ، وينحل ما ارتبط من اسمي الصغير فلا تمثل الميم منه والياء سوى حرفين من حروف الأبجدية فحسب ، يومذاك سيكون التماسك والحياة نصيب ذكراي .

وبعدئذ ستمر الذراري الجديدات وتحل محلها الذراري اللاحقات.

فتجلس فتاة في صباح خريف شجيّ كهذا الصباح على مقربة من نافذتها وراء الأستار المخرمة وترسل نظرها إلى الأفق الذابل يتفتنها سحر الطبيعة ساكباً أنوار الفجر في نقيّ السحاب. وتسأل نفسها «أين السعادة؟» فتتملكها رغبة فجائية في ركوب تلك السحابة ذات الشكل الطوديّ واثقة من أن السعادة كلها في اعتلاء متن النور والهواء.

فتاة المستقبل سترجع بعد حين وتضحك من رغبتها قائلة: «ان هذا لجنون!».

أما أنا ابنة الحاضر فأعلم منذ الساعة أن تلك الرغبة في النفس الصغيرة المجهولة سوف يثيرها عمل الذكرى التي أدخلتها معبد الادّكار ووضعتها على المذبح حارة تتضوّر وتتأوّه وتتلوى كالنفس الحائرة بين البقاء والإنتحار.

العيون

تلك الأحداق القائمة في الوجوه كتعاويذ من حلك ولجين .

تلك المياه الجائلة بين الأشفار والأهداب كبحيرات تنطّقن بالشواطىء وأشجار الحور .

العيون ، ألا تدهشك العيون ؟
العيون الرمادية بأحلامها
والعيون الزرقاء بتنوعها
والعيون العسلية بحلاوتها
والعيون البنية بجاذبيتها
والعيون القاتمة بما يتناوبها من قوة وعذوبة .

●

جميع العيون
تلك التي تذكرك بصفاء السماء
وتلك التي يركدفيها عمق اليموم
وتلك التي تريك مفاوز الصحراء وسرابها
وتلك التي تعرج بخيالك في ملكوت اثيريّ كله بهاء .
وتلك التي تمر فيها سحائب مبرقة مهضبة
وتلك التي لا يتحول عنها بصرك إلا ليبحث عن شامة في الوجنة

العيون الضيقة المستديرة ، والعيون اللوزية المستطيلة
وتلك الغائرة في محاجرها لشدة ما تتمعن وتتبصر
وتلك الرحيبة اللواحظ البطيئة الحركات
وتلك التي تطفو عليها الأجفان العليا بهدوء كما ترفرف أسراب الطيور البيضاء على بحيرات الشمال .
وتلك الأخرى ذات اللهيب الأخضر التي تلوّي شعاعها كعقافة كلاّب على القلب فتحتجنه ، وغيرها ، وغيرها ، وغيرها .
العيون التي تشعر
والعيون التي تفكر
والعيون التي تتمتع
والعيون التي ترنم
وتلك التي عسكرت فيها الأحقاد والحفائظ
وتلك التي غزرت في شعابها الأسرار .

●

جميع العيون وجميع أسرار العيون
تلك التي يظل فيها الوحيُ طُلَعة خبأة
وتلك التي تكاثفت عليها اغشية الخمول
وتلك التي يتسع سوادها أمام من تحب وينكمش لدى من تكره
وتلك التي لا تفتأ سائلة « من أنت ؟ » وكلما أجبتها زادت استفهاماً
وتلك التي تقرر بلحظة « أنت عبدي ! »
وتلك التي تصرخ « بي احتياج إلى الألم ، أليس بين الناس من يتقن تعذيبي ؟ »
وتلك التي تقول « بي حاجة إلى الاستبداد فأين ضحيتي ؟ »
وتلك التي تبتسم وتتوسل .

وتلك التي يشخص فيها انجذاب الصلاة وانخطاف المصلي .

وتلك التي تظل مستطلعة خفاياك وهي تقول « ألا تعرفني ؟ »

وتلك التي يتعاقب في مياهها كل استخبار ، وكل انجذاب ، وكل نفي ، وكل إثبات .

العيون ، جميع العيون ، ألا تدهشك العيون ؟

●

وأنتَ ما لون عينيك ، وما معناهما ، وإلى أي نقطة بين المرئيات أو وراءها ترميان ؟

قم إلى مرآتك !

وانظر إلى طلسميك السحريين ، هل درستهما قبل اليوم ؟

تفرس في عمق أعماقهما تتبين الذات العلمية التي ترصد حركات الأنام وتساير دورة الأفلاك والأزمنة .

في أعماق أعماقهما ترى كل مشهد وكل وجه وكل شيء .

وإذا شئت أن تعرفني ، أنا المجهولة ، تفرس في حدقتيك يجدني نظرك في نظرك على رغم منك .

الحكيم ومطالب الحكمة

كان يتكلم والطلبة حوله ينصتون .

كان يتكلم عن ذلك الإتجاه الفكري في القرن التاسع للهجرة ، وقد دعاه العرب « فلسفة طبيعية » .

فاستطرد الحكيم قائلاً : « وسمي هذا الإتجاه أيضاً فلسفة على الاطلاق من حيث أنه مقابل لفلسفة المتكلمين أو الفلسفة الكلامية .

« وكان الطب أهم مباحث تلك الفلسفة المشار إلى المشتغل بها بالمزج المعتاد بين لفظتي حكيم وطبيب .

« واستمرت تلك الأبحاث إلى القرن العاشر ،

« فكان أشهر القائمين بها الطبيب الرازي(المتوفى عام ٩٢٣ أو ٩٣٢) .

« عديدة هي الكتب المنسوبة إلى الرازي . وأكثرها رسالات وجيزة . وقد تشتّت جزء يُذكر منها في مكاتب مختلفة .

« ومن تلك المؤلفات كتاب في الكيمياء القديمة أهداه الرازي إلى أمير خراسان ، منصور بن أسحق الساماني » .

« ولما عجز الرازي عن أن يبرهن عملياً عمّا اثبته في كتابه مبدئياً ،

« ضربه الأمير على وجهه ضربة أزالت بصره ... انظروا إلى هذا التوحش ! » .

أحد الطلبة : « فعل الأمير ذلك لأن الاعتقاد بفعل الكيمياء القديمة ضرب من الأوهام . وملاحقة الأوهام توجب الردع . فعمل أمير خراسان لم يكن إذاً توحشاً بل عقاباً عادلاً » .

الحكيم (بعد سكوت قصير) : « إذاً أنت ترى أن هذا الرجل استحق فقد عينيه لأنه كان يلاحق ما دعوته أوهاماً ؟ » .

الطالب : « نعم » .

الحكيم (بعد سكوت آخر) : « إذا كانت ملاحقة الأوهام والاعتقاد بها تستوجب عقوبة العمى فمن ذا منا يا ترى ، من ذا من البشر يا ترى يستحق أن يكون بصيراً ؟ » .

ليلة عيد النصر

عاملان إثنان يتجاذبان الجنان : عامل الحزن وعامل السرور ، على أن قطرة حزنٍ في عمقها توازي بحر سرورٍ في إتساعه ...

صوتان إثنان يناديان المرءَ من سحيق أقطاب الحياة : صوت السعادة وصوت الشقاء . فينطلق يعدو والسعادة وجهته . على أن صخور الوعر تهشم قدميه ، وأشواك القتاد تدمي يديه ، وتأوه الثكل والوداع يفطّر لبّه ، وتجهده المسؤولية في معترك الأعمال ، فينسى السعادة بين الشفقة والنضال لأن الشقاء حقيقة والسعادة خيال ...

عاملان إثنان يتجاذبان الجنان : الحزن والسرور . على أن قطرة حزنٍ في عمقها توازي بحر سرورٍ في إتساعه ...

●

من لا يذكر ذلك النهار والليلة التي تبعته ، يوم قامت دول الحلفاء تذيع بشائر النصر بدويٍّ مدفع طالما هدر لدى الكريهة مجاهراً باستصغار الحياة وإكبار المفاداة ؟ من لا يذكر مهرجاناً انتشرت بهجته على ضواحي العاصمة وتقاسم أفراحه صاحب الكف النديّ الذي أجزل للمعدم العطاء وصاحب اليد الفارغة التي اثقلتها أكياس الطعام والحلوى ؟

إلا أن نور النهار باهتٌ لزخرف الأعياد ولا تتمّ الحفلات وتسطع الزينات إلا تحت رواق الظلام الغدافي .

وأنت ، أيها الظلام ، أمينٌ على مواعدك دقيق في الوفاء بها . ما شرعت الشمس مرة في الأفول إلا دنوت أنت متلمساً متمهلاً ، كأنك ذلك المحب المحجوب الذي ينفث في روع الفهِ الكلمة المنتظرة طويلاً قبل أن ينبس بها ، ويقولها بأساليب شتّى قبل انتهاج الأسلوب الأوحد .

واليوم ، لدن حلولك ، تتكيف غيوم المغرب متلوّنات وتترجرج خلالها الأنجم الزاهرات ، كأن هذه وتلك أوسمة العز وأشرطة الفخار على صدور الأبطال .

وأقواس النصر هيفاء تحت بنود ألوية تعاقدن عليها . والأنوار تتغامز متفاهمات عن بعدٍ كأرواح الأحباب ، وأجواق الموسيقى تنبثق من جميع الشوارع والزوايا ، والجيوش تجوب الأحياء بطبولها دون أن يعلم من أين تجيء وأنّى تغدو .

ولأسراب الطيارات عزيفٌ اذ تحلّقُ في السماوات العلى باعثاتٍ من جوانبها إلى الأرض بذيول الضياء ، مرصعاتٍ هواء الشفق ببسمة نجوم البرايا لنجوم الباري .

هوذا مائجٌ على الآفاق لألاء المواسم والأعياد . ومن أحشاء المدينة يصعد هزج النشوة والظفر . كلُّ شيء يلمعُ ويموج ويهتف ويتلظّى . وقد سرَت إليَّ عدوى الطرب فها أنا أعتلي سطوح الحِمى لأشرف على فرح الفارحين وأنال منه نصيبي .

ولكن ...

عاملان اثنان يتجاذبان الجنان : الحزن والسرور . على أن قطرة حزنٍ في عمقها توازي بحر سرور في اتساعه .

●

إذ بينا الإنسان يبتهج حاسباً أن أنظمة الاجتماع قد انحلت ونواميس

الطبيعة توقفت حتى انقضاء سروره ، إذا بالنواميس والأنظمة نافذة في أدق مغازيها .

... وفي وسط الهتاف المنسجم تعالت نغمة شاذة .

وقفت عند الزاوية المشرفة على الديار المجاورة أبحث عن مصدر الأجيج وما لبثت أن عثرت عليه في فاجعة من فواجع البؤس العديدة . تلك التي تذوب حيالها لفائف القلوب .

هاك أربعة رجال على أحد السطوح المحاذية ، يعالجون أمتعة أخرجت من غرفة صغيرة ويزجرون امرأة بينهم تتوسل وتنتحب . مسكينة أحدودب ظهرها ، وقبحت هيئتها ، ونثر شتاء العمر على هامتها ثلج الشيخوخة . لقد مرت شهور خمسة ولم تؤدِّ بدل الإيجار فتسلح المالك القوي بالقانون وحجز متاعها ليباع بالمزاد ، وأما هي فتطرد طرداً من الغرفة الصغيرة القائمة في طرف السطح ، وتطرد من المنزل إلى تحت قبة السماء .

الجماهير السعيدة ترقب أفاعي النور التي شرعت تتلوَّى في الظلام ، ترقبها وتهتف . والشيخة التعسة تجيل الطرف وتبكي . وما كانت الدموع لتنقلب يوماً ذهباً وفضة يفيها المدين ويرضى بها الدائن !

هذه هي الطاولة التي تتناول عليها طعامها الغث الجافّ . وهذا هو المقعد الذي طالما جلست عليه تستطلع خبايا الليل البهيم . وهذه هي المرآة الكالحة البلور التي ترجع صورة وجهها الكئيب وقامتها الممسوخة ودموعها الغزيرة .

وجيع ، وجيع مشهد دموع اليأس في المرآة الصلبة الباردة !

كم كانت تحرص على هذه الأمتعة الحقيرة ! هي تلمسها الساعة ملاطفة ، شاكية ، شاكرة ، آسفة . ألا أنها لم تعد لها ، فمن أين هي آتية بمثلها الآن ؟ .

تعاون الرجال على إخراج أكبر متاع من الغرفة فهرولت الشيخة إليهم

والزفير في صوتها يقطع الشهيق : هوذا السرير ! السرير الذي طالما أنال أعضاءها الكليلة راحة بعد مشقة النهار الطويل .

وُضع السرير بجوار الحوائج الأخرى . ووقفت هي عنده واستولى عليها الهدوء بغتة ، وطفق رأسها ينحني ببطء حتى استقر عند نحرها . وظلت كذلك كأنها في جمودها تمثال الحزن على ضريح ميت حبيب .

الجماعات تضجّ والمدافع تقصف ، والأضواء تجعل الليل نهاراً وهّاجاً . غير أني لم أعد أرى سوى نقاب القنوط المجلل وجه الشيخة الذليلة . وكأني لمحت غائرات الكواكب يتشاورن في مؤاساة تلك المرأة الوحيدة ـ الوحيدة وسط ازدحام الجماهير .

●

عاملان اثنان يتجاذبان الجنان : الحزن والسرور . على أن قطرة حزن في عمقها توازي بحر سرور في إتساعه .

صوتان اثنان يناديان المرء من سحيق أقطاب الحياة : صوت السعادة وصوت الشقاء . فينطلق يعدو والسعادة وجهته . على أن صخور الوعر تهشّم قدميه ، وأشواك القتاد تدمي يديه ، وتأوه الثكل والوداع يفطر لبه ، وتجهده المسؤولية في ميدان الأعمال ، فينسى السعادة بين الشفقة والنضال لأن الشقاء حقيقة والسعادة خيال .

عاملان اثنان يتجاذبان الجنان : الحزن والسرور . على أن قطرة حزن في عمقها توازي بحر سرور في اتساعه .

تدافعت الجماهير في الشوارع المؤدية إلى حديقة الأزبكية لحضور المهرجان الأكبر ، فهل من باحث يهتدي إلى الشيخة وسط العباب البشري المتزاحم ؟

فَقَدكِ بصري ولكني لا أفتأ أتحزّن لكِ ، أيتها الطّريدة . إلى أين تذهبين ؟

أتقصدين إلى جمعية خيرية وكلهنّ الليلة موصدات الأبواب؟ أم تطرقين باب كريم وكرام البشر لا يعبأون بغير لطيف الجمال أنيق الهندام؟ أم تهجعين في مدخل منزل عظيم والناس كالشرطة يعتبرون من لا منزل له لصاً متشرداً؟ أم تبكين كما رأيتك باكية. وتمدّين يدك المرتعشة للتسوّل فيعرض عنك الفرحون لأن نائحاً يعكر صفو الأنس مكروه بحق! أم تستنهضين همة صديق ولستِ بالشابة المليحة ليتحمس لكِ المتحمسون. ولا بالوجيهة القديرة ليتقرب اليك المتقربون؟ أم أنت وطّدتِ النفس على زيارة النيل السخي الذي يجود ولا ينتظر وفاء فتجدين من أمواجه صدراً ليّناً ومن أمواهه عطفاً عذباً. وتباركين موتاً احتضنكِ عندما نبذتك الحياة؟

●

أياً كانت وجهتك قفي قليلاً لاودعك.

نظري بعيد عنكِ وإنما هو حائم حولك وتتبعك شفقتي الدامية. تتبعك روحي المتفطرة معك.

روحي المتفطرة تعانقك. أيتها المسكينة. أشاعرة أنت بوجودي؟ أنا الفتاة استطيع أن أكون لك لحظة أمّاً. أيتها الشيخة الطريدة. أنت الآن ككل سقيم تحتاجين إلى حنو الأم وما كان كل ذي أم نائلاً من الحياة حنوّاً! سأهمس في مسمعك كلمات حلوة لا تعرف سرها سوى شفاه المظلومين. وسأمسح عبراتك بأنضر ورود البستان. ثم أهدي الوردة وما امتصته من لآلىء القلب إلى آلهة العبرات والأشجان.

لا تشكي الوحدة فاخوانك الأشقياء كثير. ولا تندبي حظك فانواع العذاب جمّة وصنوف الذل لا تحصى. لست بالقبيحة ما كان لك جمال اليأس الرائع. ولا أنت بالعجوز ما ظل منها البكاء فيك فتياً كما كان منذ فجر العالم.

فيك يتجلّ الليلة الفرد الجوهري بينا الفرحون يمثلون الفرد المجازي . أنت الذات الجليلة المفجّعة وهم الذات الهزلية الطائشة . أنت الحقيقة الناضجة وهم الوهم الخالي . أنت قطرة الحزن التي توازي بحر السرور . لأن وراء اللهو والجزل فراغاً وخلواً . ووراء الحسرة والقنوط نفساً زاخرة بالعواطف ، متسعرّة بالحرق ، رويّة بالدموع يتناظر في غورها جبّارا الحياة : الممكن والمستحيل .

صوتان اثنان يناديان المرء من سحيق أقطاب الحياة : صوت السعادة وصوت الشقاء . فينطلق يعدو والسعادة وجهته . على أن صخور الوعر تهشم قدميه ، وأشواك القتاد تدمي يديه ، وتأوه الثكل والوداع يفطّر لبه ، وتجهده المسؤولية في معترك الأعمال فينسى السعادة بين الشفقة والنضال لأن الشقاء حقيقة والسعادة خيال .

عاملان إثنان يتجاذبان الجنان : الحزن والسرور . على أن قطرة حزن في عمقها ترجح بحر سرور في اتساعه .

الطبيعة المعمّرة المدمّرة

بتلك الشجيرة الخضراء كنت أزيّن ردهة الاستقبال كل يوم عيد وكل يوم اجتماع .

وفي أحد الأمساء ، وقد خرج الزائرون ، سمعنا جلبة سقوط وتكسر ؛ فسارعنا ، فإذا الهرّة البيضاء واقفة في الظلام وقد دهشت لما نتج عن تلك القمزة الواحدة من قمزاتها العديدة .

وكان الأناء الخزفي قد انقلب وتحطم فتبعثرت اجزاؤه ؛ وانفصل عنق الشجيرة المليح عن جذعها وتجندل بعيداً كمن يعلم أنه صائر إلى لا شيء ، بعد الذبول والجفاف ، مع وريقات أنيقة لصقت به فتخللت خضرتها تلك الخطوط الدقيقة من حمراء وبرتقالية وفستقية وصفراء .

فجمدت جمود الآسف .

ثم وضعت العنق الطويل وما انتشر عليه من بهيج الوريقات في آنية طافحة بالماء ، لعله يستبقي حسنه أياماً أخرى أو ساعات . وأحكمت الجذع وما تشبّث به من متراكم التراب في إناء خزفي جديد ، وجعلت له مكاناً توفّر فيه الهواء والنور والحرارة .

وما انقضى أسبوع وجاء آخر إلا وبدت طلائع الوجود في ذلك الجذع المجدوع ، وأسفرت عند جوانبه بسيمات خضراء .

فزدت تعلقاً به وحرصاً عليه ، أرقب فيه تفرّع قدود الأغصان وتكوّن

صور الأوراق ؛ ولم يعد ينتظر سوى مرور الأيام لينمو ويتكامل .

فوقفت أعجب به ذات صباح وهتفت قائلة :

ـ « بورك بك ، أيتها الطبيعة السخية الوهوبة ! ما أتلفت يد الضياع ودمرت إلا رممت يد العطاء منك وجدَّدت . ستُردّ إلي بفضلك شجيرتي الحسناء ، أضعها في صدر الردهة فتبدو لي الردهة بها أيواناً صغيراً . بورك بك أيتها الطبيعة المليّة الشفيقة ، لأن إشارتك الأخيرة هي دوماً إشارة الذل والبناء ! » .

في هذه اللحظة أقبلت طفلة الهرة المولودة حديثاً تفتح عينيها المغمضتين للتعرّف بما حواليها . وما لبثت أن لمحت الآنية الخزفية أمامها : فمدت إليها يدها الصغيرة وقمزت إلى حافتها تشتمُّ وريقات النبتة المتجددة .

... ترى ، أتأتي البنت ما سبقتها الأم إلى فعله ؟

يَوم الموْتى

ريح خريفية تعصف في الأشجار فتنزع عنها الأوراق وتسفي التراب فتذرُهُ في الجو عجاجاً . وأشجان خريفية تشتد في مكامن النفس فتثير فيها تذكارات وتهيمن على تذكارات .

اليوم تجرحني الأصوات والخطوات والنظرات وأرى كل حركة يأتيها الناس تمثلاً . كأنما الحكمة المثلى لديَّ في تكتم الصور المتوارية تحت صُدرة القبور ، وفي هجوع الأشكال المتقلصة لحين ما من أحكام البعث والنشور .

اليوم عيد الموتى وهذا شهر الموتى . هذا شهر الكآبة المزدوجة : كآبة الحسرة والدموع عند الشعوريين وكآبة التأمل والتبحُّر عند الباحثين والمفكرين . للأموات من البشر يعيّد المعيّدون . وأنا أُعيّد لمن عاش ومضى . وعلم ونسي . ولما ظهر واختفى . وأبرق وانطفأ . أي لكيفيات الحياة المعروفة والمجهولة جميعاً .

اليوم عيد جميع الموتى .

عيد العيون الجامدات . والقلوب الساكنات . والأوراق الذابلات . والآمال الذاويات ؛ عيد شريف الانكسارات وذليل الانتصارات . عيد آلهة تزلّف لها العباد ونحروا على هياكلها الأفئدة قرابين . ثم قاموا يدكون قوائمها . ويحرقون معالمها ليدوسوا رمادها بأقدامهم الطاغيات ؛ وعيد

مذاهب شيدت صروحها في مجاهل الغابات وعلى قمم الراسيات بما تجمد من دماء القلوب وتصلب من لهب العواطف ، ثم انبرى مؤمنو البارحة يصيحون بين جدرانها صياح الهادم الأثيم . عيد كل ما قُدس من رمز ثم احتقر ، وكل ما فوخر به من رأي ثم دُحر . عيد مدنيات دوّن العلم ارتفاعها واندثارها ، ومدنيات غوّر ذكرها في غلس التاريخ وما زالت حية ظاهرة في استعداداتنا وميولنا . عيد عوالم خبت أنوارها في الإطار الفلكيّ ، وتطايرت غازاتها وتفتتت أجزاؤها متفرقة في المدى الشاسعات لينضمّ كلٌ منها إلى ما يجذبها من عنصر أو كوكب . وعيد شموس طالما بعثت بالنور والحرارة إلى أنظمة جليلة فصفرت وإياها في الهاوية الرهيبة صفوراً ، وليس من يلتفت لغيابها . لأن عين العلم وإن تسلحت بالتلسكوب ضعيفة عاجزة ، ولأن الاكوان لاهية بأنانيتها الحيوية ، مسوقة إلى تتميم دورتها المفروضة ، فلا يستوقفها في سبيلها ما يلتهب من شمس ، ويتحطم من عالم ، ويحترق من سيّار .

بل اليوم عيدكِ ، أيتها المجرَّة العظيمة ، بما تراكم وتلازب فيك من ملايين الكواكب المتتابعة التكون والتحوّل . وأنت على هذه الضخامة لست غير جزء من الخليقة الشاملة حيث تتعاقب الأكوان الفخمة فتملأ الفضاء الذي لا يُحد ، وتتجدد في كل إتجاه على أبعاد لا يدركها قياس ، ثم تبلى وتختفي في ظلمات اللانهاية .

•

ولكن قبل أن يطير الفكر منا إلى أبراج خاويات وشموس متجلدات ، ما ذكرنا الموت إلا احتضنتكم قلوبنا أيها النازحون الراقدون . ما ذكرنا الموت إلا سمعناكم متكلمين ، وخلناكم باسمين ، وشعرنا بنبضات قلوبكمّ في راحات أيدينا . فنسألكم « أين أنتم ؟ » فتجيب القبور « ها هم في حماي » . فتفرغ قلوبنا من عناقكم وراحاتنا من نبضات قلوبكم ، ولا يرن

في مسامعنا غير تنهد الأسى ولا تبصر عيوننا غير سائل عبرات .

●

سرت البارحة بين الأضرحة متمهّلةً استنشق جثمان الماضي الفسيح ، فتاقت أعضائي إلى الرقاد في ظلّ الغصون الحنونة . يا لغرور الذين أقاموا هذه القبور المرمرية ناصبين حواليها التماثيل الفنيّة ! عجّانُ المنايا يسوّي من كبريائنا الصعود والهبوط إذ يُلقي بنا في معمل التحوّل العام . فتعودُ أيدينا الحقيرة إلى إعلاء الآكام وحفر الحفرات تمييزاً لذليل الأسماء ! وبدلاً من أن نبعث بذوينا إلى باريهم على ما يريد ترانا نوثقهم بكثائف التظاهر والدعوى ، ونثقل كواهلهم بالجدران والتماثيل خوفاً من أن نكون بسطاء متواضعين ولو في أحزاننا فحسب ! ولكنّ أصوات الموتى تتشابهُ وراء القبور البسيطة الجليلة والقبور المزخرفة الحقيرة : هذا ضريح شهمٍ عظيم سألتهُ حكاية نزيله فقال : لقد عاش وأحبَّ وتعذَّب وجاهد ثم ــ قضى .

وهذا مضجعُ فقير ينزوي وراء المضاجع سألتهُ عن ضيفه فأجاب : لقد عاش وأحبَّ وتعذَّب وجاهد ثم ــ قضى .

وهذا قبر فتاةٍ لم يرَ الناس منها غير اللطف والبسمات وفي قلبها الآلام والغصّات ، وهو كذلك يقول : لقد عاشت وأحبّت وتعذَّبت وجاهدت ثم ــ قضت .

وهذا قبر امرأةٍ صالحةٍ أسعدت زوجها وأبناءها جميعاً . وصوته يقول : لقد عاشت وأحبّت وتعذَّبت وجاهدت ثم ــ قضت .

وهذا قبر من كان عالةً على نفسه وعلى ذويه ، وعلى كلّ محيطه حتى من لقيه صدفةً في طريقه ، وصوته يقولُ : لقد عاش واحبَّ وتعذب وجاهد ثم ــ قضى .

وهذا قبر طفل رضيع لم يُحسب عمره بغير الأيام ، وهو يقول هذه هي

حكاية الموتى وهذه هي حكايتنا نحن اللاحقين بهم ،

هذه هي حكاية الموتى على الاطلاق ، حكاية الظالم منهم والمظلوم ، والكبير والصغير ، والذكي والمعتوه ، والأحمق والحكيم ، صاحب القبر المرمري الذي لا تبلغ الهامات عتبته ، وصاحب المضجع الترابي الذي تدوس هامته الأقدام ، كلٌ منهم عاش مرغماً ، وأحبَّ مرغماً ، وتعذّب وجاهد بإمكانه الفطري والاكتسابي ثم ـ دعاهُ الردى فلبّى صاغراً .

●

وإذا تحوّلنا عن هذه المقبرة ذات الحدود إلى مقبرة الخليقة التي لا حدود لها ، سمعنا من الزهرة والشجرة والحيوان والإنسان والشعب والجنس والمدنية ، ومن كل سيّارٍ ، ومن كل شمسٍ ، ومن كل نظام شمسيٍ ، هذه اللازمة التي تأبى التغيّرَ : لقد عاش بقوّةِ الحياة التي كوّنتهُ وشكّلتهُ وادمجتهُ في فصائلها . ولقد أحبَّ بقوة الجاذبية الشفيقة العنيفة التي تضمد جراح القلوب لتمزقها ، وتواسي أوجاع الأرواح لتضنيها ، وتجلو للعقول أسراراً لتثقلها بغوامض الأسرار . ولقد تعذّب لأن العمر ارتفاع وإنحدار ونموّ وتناقص ، وبين هذه المتناقضات المحتّمة يتفطّر الفرد في احتياجه إلى التوازن والثبات . ولقد جاهد لأن الجهاد وسيلة يزعمها موصلة إلى الثبات والتوازن . وهي لا توصل إلى غير نفسها ، لو علم العالمون ! لقد جاهد ضد العناصر وضد الفصول ، ضد الأجناس وضد الجماعات ، ضد الاصطلاحات المتحجرة والمجازفات المتهورة . ضد الغنى والفقر معاً ، ضد الجمال والقباحة ، وضد البله والذكاء . جاهد ضد الغرباء ، وضد الأعداء ، وضد الأصدقاء ، وجاهد ضد أحبّ الأحباب . وكان أوجع جهوده ضد ذاته ـ تلت الجهود التي تكّسر لولب القدرة وتبيده بينا الجهود ضد العالم الخارجي تعزّزه وتقوّيه . ثم عندما تحلّبت منه القوى بالحياة والحب والعذاب والجهاد قضى ـ أي التحف باللغز الأعظم ، وأسدل على حقيقته الظاهرة حجاب . الخفاء ،

وغاص في مغذّية الكائنات ليتقمّص في النار شرارة ، وفي الهواء نسمة ، وفي الماء قطرة ، وفي التراب ذرّة . وما هي الذرّة ؟ أهي مادة أم هي قوة ؟ أهي فاعلة أم هي منفعلة ؟ أهي بصيرة أم هي كفيفة ؟ ولماذا تتجمهر ومثيلاتها لتشكل الصور ثم تحلها ، ثم تشكلها ثم تحلها ؟ أفي المادة كل وعود الحياة وكل قواها ، أم في الحياة كل وعود المادة وكل قواها ؟ ولماذا تتعاون الحياة والمادة حتى تصيرا في دماغنا ادراكاً ، وفي جناننا عاطفة ، وفي أعضائنا حركة ، وفي الحاظنا نوراً ، وفي محاجرنا دموعاً ، ماذا تريد منا الحياة وماذا تبتغي المادة منا ؟ ومتى تنتهي هذه الألعوبة السحرية التي تبتدىء بالاهتزاز ، وتستطرد بالاهتزاز ، ولا اهتزاز ينهيها ؟

والآن اذ أسمع الرياح تعتول وتندب ، والأجراس تطنّ طنين الغم والكرب ، والارغون يعزف الحان التفجّع والانتحاب ؛ ثم تتراءى لي أودية وجبال زرعت فيها العظام منا وامتدت الأعصاب ، وتنبسط لمخيلتي سهول ومروج تغذّت من أجسامنا وارتوت بدمائنا ، وتضج حولي أصوات الباكين الحزانى ، وتتزاحم أمام ناظري جميع مشاهد الفراق ـ فراق مرّ يحتّمه الموت وفراق أمر تقضي به الحياة . فأذوب وأتضاءل ثم أذوب حيال بحر الشقاء العام حتى البث ذرة واحدة متوجعة متلهفة متفجعة تتوق إلى التلاشي ـ إذ ذاك تنقشع عن عاقلتي حجبُ الجهل والأنانية ، وتلقي بي يدُ الروح الأعظم في فضاء اللانهاية ، ويحملني جناحان قويان إلى حيث أجد الموت حدثاً عرضياً والفناء خيالاً زائلاً . إذ ذاك ينمو كياني ويتعالى ويعظم فيتنشق هواء الحياة الواحدة السائدة في كل مكان .

من أعماق اللجج إلى أعالي الجبال ، من نواة السلب المبعثرة في المادة الخرساء إلى نواة الايجاب الكامنة في بوارق الكهرباء ، من ذرة الرمل ، إلى الشجرة المزهرة ، إلى الهواء الملامس أفنانها ، إلى طير سابحات تحت الغمام ، إلى فتيت شموسٍ تلبّد في حضن المجرّة ، إلى أبعادٍ لا يدركها غير

الخيال العظيم ، إلى ما وراء ذلك من إطار الخليقة السلبي ، إلى كل نقطة من كل مسافة في كل مكان من كل زمان في كل ابدية تتموَّجُ حركةُ الحياة النضناض متتابعة متقطعة ، متفردة متنوِّعة ، متظاهرة متوارية ، متلاطفة متخاشنة ، متمهلة متضاعفة ، متشدِّدة متعادلة ، أبدية أزلية سرمدية . صوتها العجيب يتراجع من حنجرةٍ إلى حنجرةٍ ، ومن أفق إلى أفقٍ ، ومن عالم إلى عالم ، ومن سكوت إلى سكوت ، مولولاً مع الأعصار ، هامساً مع النسمات ، نادباً مع البحار ، مدمدماً مع العناصر ، متمتماً مع ثلاثمائة ألفٍ من أجناس الحشرات ، صامتاً مع جميع المكروبات والذرّات ، آجّاً مع المجهولات ، ملعلعاً مع الآلات ، حافّاً في حفيف الأفلاك ، داوياً بجميع أنغامه ونبراته في ملايين الملايين من أصوات الخلائق .

تكسونا الحياة كرداءٍ سحري لا تبلى خيوطه وتحضننا السماء فنحن فيها مقيمون قبل الحياة وبعد الموت . والجحيم والفردوس في نفوسنا يتناوبان . تغزونا الحياة في الإندحار وفي الانتصار ، فنحن أبطالها ونحن ضحاياها سواء اشئنا أم لم نشأ .

ما الأرض والبحار وأبعادُ الأفلاك ، سوى مدافن دهرية ـ . إنما هي الوقت نفسه معاملُ توليدٍ وتكوين .نحن نخلد الحياة بفنائنا وهي تفنينا بخلودها . ونحن أبداً كذلك حتى تثلج الشموس وتضمحل قوى العناصر وتتفكك عرى الأكوان سابحة في الفناء الأنور ، في البقاء الأوحد ، في حضن الله .

إذاً أَعيدُ الموتى اليوم أم عيد الأحياء ؟

إنما اليوم ككل يوم ، عيد الناموس الفرد الذي يعجن أشكالاً تبدعها الطبيعة العلماء . يجبلها باليد الواحدة التي تدعى التكييف قطعاً ذات صور معيّنة . ولا يفتأ يستخرج الجديد من القديم ويدغم القديم في الجديد ، ليتمَّ للأحقاب تعاقبها بالبشر والأفلاك والزمان في مجاهل اللانهاية الخالدة .

في مرقص الحياة

... ودرجت في التيار المكتسح الملايين فبلغت جوانب الميدان الفسيح الذي تلجه الأفواج من جميع المناهج ، حتى إذا ائتمتها الأيام والاختبار تغلغلت فيه شيئاً فشيئاً . في ذلك الميدان تقيم الحياة مرقصها ليس في قصر واحد كما ظننت قبلاً ، بل في مئات الألوف من القصور والمنازل والأكواخ وما بينها من الصحاري والواحات والجبال والوهاد والبحار . وما كنت أخاله الحاظ نور تناديني وجدته مزيجاً من مشاعل الانتصار ، وأضواء الأفراح ، ولمعان الأسلحة ، وشموع الجنازات ، ووقود التدفئة ، ومسارج النذور ، ونباريس الاجتهاد والعناء . والنشيد الذي حسبته أهزوجة طرب وحبور كان خليطاً هائلاً من صراخ الصرعى وعويل الهلكى واستغاثة الغرقى ، وأنين المحرومين واسترحام المتوجعين ، وتهليل الفرحين والسعداء والمستفلحين ، وابتهال الاتقياء والزهاد والمصلين ، وزفير الحفيظة والشماتة ، وصعق التحريض والتهديد والاستنزال ، وحمد القناعة والشكر والرضوان ــ والوف الوف الأصوات المؤلفة نشيد الحياة الرائع المستديم .

والقدرة الخفية التي أوقفتني في الكوة ثم دفعت بي إلى السير وأوصلتني إلى هذا الميدان ، هي التي سوتني والذين جعلتهم حولي يصفقون ويلطمون . فتذمرت مع الضعفاء وانتصرت مع الأقوياء ، وتواكلت كالطفيليين وتنشطت كالنبلاء ، فعرفت كيف يعز الناس وكيف يذلون ، كيف يجوعون ويشبعون ، كيف يؤلمون ويتألمون ، كيف يستبدون ويظلمون . عرفت عبودية المساكين وحسدهم ولجاجتهم واستقلال الأغنياء وأناقتهم وجفافهم . عرفت أن لكل امرىء غماً وإن هش وبش ، وأن لكل عاتق حملاً وأن تقوَّم وانتصب ، وأن لكل

من أسرى الحياة أطماعاً ومطالب وشكايات : فواحد يبتغي الفوز بالحذق والجهود ، وواحد يكد ولا ينال شيئاً ، وواحد لا يتعب ولكنه ينال كل شيء ، وواحد يصيح بأنه ذو حق ونصيب وليس له الكفاءة والاجتهاد اللازم للظفر بذلك الحق والتمتع بهذا النصيب . وبينا جلبة الأصوات تتعالى من كل صوب يطغى المد جارفاً الجماهير والأنظمة والجهود والمطامع فيحتضنها من الحياة العباب الرجاف كما يحتضن الخضم الزاخر ملايين القطرات التي لا تعد ولا تحصى ـ وتظل الحياة محيية مرقصها حيث تتابع الأشباح والصور واللغو والحركات والأنوار والظلمات ...

وها أنا ذا أسير في أطراف مرقص الحياة معانية ما يعانيه مساجين الوجود جميعاً ، يبرح بي وإياهم الشوق إلى السعادة وأتلقى مثلهم ذلك الوحي المتجدد بوجودها . وعند كل خطوة خيبة وكمد ، وعند كل خطوة أمل وجذل ، وعند كل خطوة روعة حيال هذا السيل الحيوي الذي يتدفق مرغياً مزبداً إلى حيث لا يدري . وعند كل خطوة استفهام لا جواب له عن معنى الحياة وغايتها ، عن معنى الألم وغايته ، عن معنى الطرب وغايته . وعند كل خطوة سؤال للكون لماذا وجدت النفس الإنسانية كالنحاس المجوف ترجع لكل صوت يقرعها صدى رناناً عميقاً وجيعاً ...

كن سعيداً

في هيكل الأشجان الإنسانية وقف الزعيم الأكبر يخطب في القوم فسمعته يقول :

« إذا كنت غنياً كن سعيداً ! لأن مزاولة الأمور الخطيرة هُيئَت لك وكنت مشكور الصالحات مرجوّ الجميل . لقد عزَّ جانبك ، ومُنعت حوزتك ، ونُشر رواق العز فوق ذمارك فتمّ لك وجه من وجوه الحرية والاستقلال . وإن كنت فقيراً كن سعيداً ! لأنك سلمت من شلل معنوي ابتلي به من دانت لرغبته جميع المطالب ووقيت ما عُرِّض له السريُّ من حسد وكرهٍ ، فلا تتلظى الصدور لنعمتك ولا يُنْظر إلى متاعك بعين مريضة .

« إذا كنت محسناً كن سعيداً ! لأنك ملأت الأيدي الفارغة ، وسترت الأجساد العارية ، وكوّنت من لا كيان له فرضيت عن نفسك وددت اسعاد عشرات ومئات لتتضاعف مسرتك النبيلة الواحدة بتعدُّد المنتفعين بأسبابها . وإن عجزت عن الإحسان كن سعيداً ! فقد اجّلت ساعة تشهد فيها نكران الجميل ممن صانعت فاتّخذ المعروف سلاحاً يهددك به حاسباً التجني شجاعة والسفاهة حذقاً . تلك الساعة لا بد من مرورها فتتوتّر لها أعصابك ، ويفوز سخطك ، وتقسو عواطفك ، ويجفُّ منهل كرمك ، وتحتقر الإنسان وتيأس من إصلاحه قبل أن تصل إلى قمة الغفران السامي والتغاضي الحكيم .

« إذا كنت شاباً كن سعيداً ! لأن شجرة مطالبك مخضلة الغصون ، وقد بعُد أمامك مرمى الآمال فتيسر لك إخراج الأحلام إلى حيز الواقع

إذا كنت بذلك حقيقاً . وإذا كنت شيخاً كن سعيداً ! لأنك عركت الدهر وناسه وألقيت إليك من صدق الفراسة وحسن المعالجة مقاليد الأمور : فكل أعمالك إن شئت منافع ، والدقيقة الواحدة توازي من عمرك أعواماً لأنها حافلة بالخبرة والتبصر وأصالة الرأي ، كأنها ثمرة الخريف موفورة النضج ، غزيرة العصير ، أشبعت بمادة الاكتمال والدسم والرغبة .

« إذا كنت رجلاً كن سعيداً ! لأن في شهامة الرجولة يتجسم معنى الحياة الأكبر . وإذا كنت امرأة كن سعيداً ! فالمرأة منشودة الرجل ، ونبلها موضع اتكاله ، وعذوبتها مستودع تعزيته ، وبسمتها مكافأة أتعابه .

« إذا كنت رفيع الحسب كن سعيداً ! فقد فزت بثقة الجماعة دون أن يوصي بك أحد . وإن كنت وضيع النسب كن سعيداً ! لأنه خيرٌ لك أن تكون مؤسس عيلتك ورافع عمادها الذي تعرف به وتفاخر بذكراه ، من أن تكون أحد ابنائها المرغمين بطبيعة الحال على حمل اسمهم ولا فضل لهم باعلائه .

« إذا كنت كثير الأصدقاء كن سعيداً ! لأن ذاتك ترتسم في ذات كل منهم . والنجاح مع الصداقة أبهر ظهوراً والأخفاق أقل مرارة . وجمع القلوب حولك يستلزم صفات وقدرات لا توجد في غير النفوس ذات الوزن الكبير ، أهمها الخروج من حصن أنانيتك لاستكشاف ما عند الآخرين من نبل ولطف وذكاء . وإذا كنت كثير الأعداء كن سعيداً ! لأن الأعداء سلّم الارتقاء وهم أضمن شهادة بخطورتك . وكلما زادت منهم المقاومة والتحامل ، وتنوَّع الاغتياب والنميمة ، زدت شعوراً بأهميتك ، فاتعظت بالصائب من النقد الذي هو كالسم يريدونه فتّاكاً ولكنك تأخذه بكميات قليلة فيكون لك أعظم المقويات . وتعرض عما بقي ، وكان مصدره الكيد والعجز ، اعراضاً رشيقاً . وهل يهتم النسر المحلّق في قصيّ الآفاق بما تتآمر له خنافس الغبراء ؟

« إذا كنت صحيحاً كن سعيداً ! فقد استبان فيك توازن الناموس الكلي وانسجامه وأهِّلت لمعالجة المصاعب ودحر العقبات . وإن كنت عليلاً كن سعيداً ! لأنك مسرح تتقاتل فيه قوتا الكون العظيمتان فالغلبة لما تختار منهما والشفاء موقوف على ما تريد .

« إذا كنت عبقرياً كن سعيداً ! فقد تجلّى فيك شعاع ألمعي من المقام الأسنى ورمقك الرحمن بنظرة انعكست صورتها على جبهتك فكراً ، وفي عينيك طلسماً ، وفي صوتك سحراً . والألفاظ التي هي عند الآخرين أصوات ونبرات ومقاطع صارت بين شفتيك وتحت لمسك ناراً ونوراً تلذع وتضيء وتحرق وتهنأ ، وتخجل وتكبر ، وتذلّ وتنشط ، وتوجع وتلطِّف ، وتسخط وتدهش ، وتقول للمعنى « كن ! » فيكون . وإن كنت خاملاً كن سعيداً ! لأن الألسنة لا ترهف حدها لتذكرك ، والأنظار لا يستعر فيها لهيب التفحص وحب المنافسة إذ تتجه إليك . هاك القمة فاقتحمها إن كنت كفؤاً . وإلا فاقنع بانك جزء مهم من أجزاء الكون تستعملك الكفاءة وقوداً . فالايوانات الباذخة لا تقوم بغير الحجارة الصغيرة ، وأنت متمتع براحة لا ينعم بها من لا ترتوي شفتاه بغير ماء الحياة ولا تغتسل روحه بغير سيول الإلهام .

« إذا كان صاحبك وفياً كن سعيداً ! لأن الأيام حبتك بكنز من أثمن كنوزها . وإن كان خائناً كن سعيداً ! لأنه لم يكن على استعداد لاستماع أمثولة خفية تلقيها عليه نفسك . ولا يغادر امرؤ حظيرة المحبة إلا ليفسح مكاناً لمن هو خير منه وأجدر .

« إذا كنت حرّاً كن سعيداً ! ففي الحرية تتمرّن القوى وتتشدد الملكات وتتسع الممكنات . وإن كنت مستعبَداً كن سعيداً ! لأن العبودية أفضل مدرسة تتعلم فيها دروس الحرية وتقف على ما يصيرك لها أهلاً .

« إذا عشت في وسط يفهمك ويقدرك كن سعيداً ! فهناك اكتسبت

كل يوم شباباً جديداً وقوة جديدة ، ونمت روحك ثم نمت حتى أذهلتك منها الآفاق والبحار . وإن عشت في وسط متقهقر منحطّ ، أيها التعس ! كن سعيداً . لأنك في حل من أن تخلق لك جناحين تطير بهما فوقه ، إلى حيث تبدع من أشباح روحك عالماً حوى قوتاً لجوع فكرك وشراباً لظمأ جنانك .

« إذا كنت محبّاً محبوباً كن سعيداً ! فقد دلّلتك الحياة وضمتك إلى ابنائها المختارين ، وأرتك الألوهية عطفها في تبادل القلوب ، واجتمع النصفان التائهان في المجاهل المدلهمة فتجلت لهما بدائع الفجر وهنأتهما الشموس بما لم تهتد بعد إليه في دورتها بين الأفلاك ، وأفضى إليهما الأثير بمكنون أسراره ، لذلك هما يتأملان حيث يتصابى الخالي ، ويصمتان حيث يتكلم ، ويمزحان حيث يجدّ ، ويتفرسان في خطوط البقاء حيث لا يلمح هو خيالاً .

« وإن كنت محبّاً غير محبوب كن سعيداً ! لأن النابذ يحب المنبوذ في أعلى طبقات كيانه ـ حبّاً لا يدانيه افتتانه بمن يهوى . والهجران حالة جمة المعاني والألغاز ترقّق ما ضخم من الرغبات وتصفي ما عكر من الانفعالات حتى يغدو الفؤاد شفافاً نورانياً متلألئاً كآنية تتناول فيها الآلهة كوثر الخلود .

ولسوف تفوز بمن تريد إن لم يكن في تلك الصورة الأنسية المتباعدة ففي سواها . تهيَّأ للحب مهما اثقلتك المشاعر لأن للحب هبّات وسكنات ، وأنت لا تعرف ساعة مروره . كن عظيماً ليختارك الحب العظيم ، وإلا فنصيبك حب يسفُّ التراب ويتمرَّغ في الأوحال ، فتظل على ما أنت أو تهبط به ، بدلاً من أن تسمو إلى أبراج لم ترها عين ولم تخطر عجائبها على قلب بشر ، لأن هياكل مطالبنا إنما تقام على خرائط وهمية وضعتها منا الأشواق .

« كن سعيداً لأن أبواب السعادة شتى ، ومنافذ الحظ لا تحصى ،

ومسالك الحياة تتجدد مع الدقائق . كن سعيداً دواماً ، كن سعيداً على كل حال ! » .

●

انفضّ القوم فاذا الجماعات تقف عند بقية جدار خارج الهيكل لتنتحب وتبكي ، ومضى غيرها في سبيله ضاحكاً هازئاً . فنظرت إلى شبح انتصب قربي نظرة استفهام فقال : « أنا روح الخطاب جئت أرى تأثيري في الناس » .

قلت : « إذن أنت تعلم ما هذا الذي يبكي الناس عنده »

قال : « هذا جدار الدموع » .

قلت : « وهل هؤلاء يهود وهل نحن في أورشليم » ؟

فقال : « للانسانية كما لليهود « جدار دموع » تبكي عليه وتتحسر » .

قلت : « ولماذا يبكي هؤلاء بعد تلك الخطبة المعزية الموحية الرجاء ، خطبة السعادة الجميلة ؟ »

قال : « منهم من يبكي لأنه لم يسمعها من قبل . ومنهم لأنه سمعها قبل الآن ولم يستفد . وآخر لأنه استفاد أياماً ثم تغلّب عليه المحيط وجرّته الوراثة بأثقالها الباهظة إلى هوة القنوط . وغيره يبكي بكاء عصبياً لأن الباكين يحيطون به ولو ضحكوا ورقصوا لكان أول المقلدين . وغيره ليظهر أنه ذو نفس حساسة تستوعب كل تأثير صالح . ويبكي غيره لأنه يرى في الجدار المحطم صورة لآماله الذاوية وهو من الذين يندبون حيال متراكم الأخربة ، ومندثر الديار ، ومتعفي الآثار » .

قلت : « واولئك الضاحكون ؟ »

قال : « هم ذوو الأذهان المحددة التي لا تعترف بما لا تفهم وتهزأ بكل ما لا تعترف . أنهم أحق بالإشفاق من الباكين » .

قلت : « وهناك خيالان لا يبكيان ولا يضحكان . رجل وامرأة يسيران جنباً إلى جنب بخطوات هادئة بطيئة منحني الجبهة وفي عيونهما تتتالى دوائر الأفكار ، أتدري من هما ؟ »

فرنا اليهما الشبح وقال « : هما الأرض المخصبة . هما الشعلة المقدسة . هما اللذان فهما واستفادا » .

فقلت مكتئبة : « أسفاً على الخطاب البليغ تسمعه الجماهير الغفيرة فلا يستفيد به سوى اثنين ! »

فتألق وجه الشبح بنور سماوي وقال : « بل ما أنفعه خطاباً هو في هذين الروحين غلّة للدهور ، وفي هذين الفكرين مجدّد للقديم ، وفي هذه الأيدي مشعل يتطاير منه الشرر فتتقد به شموس الأفلاك وشموس الأذهان . بورك به خطاباً ، بورك به ! » .

وغادرني الشبح وسار إلى ذينك الخيالين فنشر من كتفيه جناحين خفيين وحلّق فوق رأسيهما يقودهما ويرعاهما .

السهرات الراقصات

دنا موسم السهرات الراقصات فيمّمها أهلُ المدينة أفواجاً . وسرتُ في جملة السائرين بثوبي القرمزيّ المردَّن والقلب يحدوني بشدو الشباب والطرب . وما خطوتُ في القاعة الساطعة خطوة حتى ترنحت لتوقيع العازفات والعازفين . واستحثني تمايل الراقصات والراقصين فأغفلتُ ذكر اللواعج والتباريح ، ونسيت أنه بينا في رحبات الجذل يتمتع السعداء ويلهون إذاً في كهوف القدرِ تتفطر حشاشات وتدمع عيون .

رقصت مع كل راقصٍ ذي كياسة ، واحتسيت الكوثر من كؤوس عسجدية ، وبسمت شفتاي لكل شفة باسمة ، ولمعت عيناي لكل عينٍ لامعة . ولما طاف طائفُ الكرى بين أجفاني عدتُ مستوفية السرور إلى مضجعي ونمتُ نومة طويلة عميقة .

واستيقظت في الغد فأذهلني أن أشعر بترضرض في روحي ، وبطعم الفناء في فمي ، وبأثقال تميع على صفحة وجداني كأنها أحمال الدماء .

وفي السهرة الثانية حيّاني أظرف رجل بين الرجال وقال « هل لك في دورة تتوافق وأنين الأوتار ؟ » .

قلت « بل عفوتُ اليوم عن نفسي وعن ابناء الانس أجمعين فلا هم يتعبون بمراقصتي ولا أنا أُتحَف بتعليقهم عليها » .

قال « إذاً نجلس في خلوة المقصف حيث الشراب والحلوى والمجاملة » .

قلت « لا . بل على الشرفة الصغيرة حيث النور رقيقٌ يمازج الظلام ولا يزيلهُ . اتصل بي محدّثٌ ألمعيّ فكل سهرتي هذه اصغاء » .

ففتل شاربيه بأناقة . ورنا إلى طرفيهما باعجاب ثم ، انحنى شاكراً لأنه متواضع . ثم سار بي إلى الشرفة وقال « تفضلي إذاً واستريحي على هذا المقعد ذي العلاقة بصاحبة الملايين » .

قلت « ومن هذه ؟ هات بطرف من حكايتها ! »

ففعل بظرف واضحكني شديداً . ثم قدَّم إليّ زهرة أهدى مثلها ذلك النبيل إلى تلك العظيمة ، وسرد حكايتهما . ثم تلاعليّ رسالة جاءتهُ من تلك الجميلة وأخرى وردت إليه من ذلك الوزير : ، وسرد حكايتهما .

ثم حدثني عن آخرين وأخريات . وكان الراقصون يتتابعون أزواجاً متخاصرة وذاكرة نديمي سجلٌ حفظت صفحاتهُ الأمينة تواريخ الأفراد والجماعات صعوداً إلى آباء الآباء بما يزينها من فضل ــ وما أقله ! ــ وما يشوبها من نقص ــ وما أوفره ! وتطرّق إلى الالماع عن تأثيره الحالي في تقسيم الممالك واتفاق الدول وعقد المؤتمرات وسنّ القوانين . تلك شؤون لم يكن ليعرفها أحد وإنما هو كان يُسِرُّ بها إليّ لأنه ينظر إليّ بعين الاكبار والإعجاب ، وكل ما يتبع هذين أو يسبقهما من الاعتبارات ، فكنت أصغي متفكهةً ضاحكة إذ أجد في ما يقول ظرفاً لا يبارى ، وتوقداً لا يخمد ، وفطنة لا يلحقها كلل أو نضوب . إلا أني كنت أهمس لنفسي « ليته يسرد لي حكايتي لأعلم كيف هي في الغد تكون ! »

وأتينا على آخر السهرة فقلت باخلاص « ما كان أقصر هذه الساعة ! »

ففتل شاربيه بأناقة ، ورنا إلى طرفيهما باعجاب ، ثم انحنى شاكراً لأنه متواضع . ثم قال مشيراً إلى رجل بطيء الخطى ، مهيب المنظر ،

مرّ على مقربة منا . قال « لا أدري ما إذا كانت قصيرة في نظر هذا » .

فسألت « ومن هو هذا ؟ » .

أجاب محدثي « هذا أحد اثنين : فأما يظل صامتاً فلا يدرك المرء لسكوته معنى ولو عاشره مليون سنة ؛ وأما يتكلم ... فينطبق عليه قول يزعم أحد الظرفاء أن الله قاله عن الرئيس ابن سينا ! » .

قلت « ألا اخبرني بما يزعم ذلك الظريف أنه تعالى قاله عن ابن سينا » !

فحدثني نديمي قائلاً « يزعم صاحبي المليح النكتة أنه لما مضى ابن سينا إلى ربه جاءه الملكان وسألاه « ما هو الله ؟ »

فاجاب لفوره : « هو اسطقسٌ فوق الاسطقسات » .

فتبادل الملكان نظرة فلم يفهما . فذهبا إلى الحق سبحانه وقالا : « ربنا ! لقد جاء الساعة عبد من عبيدك البشر ، رجل يتكلم كالمتكلمين ولكننا لا نفقه لقوله معنى » .

فسأل الحق جلّ وعلا : « وماذا يقول هذا الرجل ؟ »

فأجاب الملكان : ربنا ! سألناه « ما هو الله ؟ » فقال : « هو اسطقسٌ فوق الاسطقسات » .

فأطرق المولى سبحانه وقد ألبس عليه مغزى الكلام ، وقال : « إن أمر هذا الرجل لغريب ! وما اسمه ، أيها الملكان ؟ » .

فقال الملكان : « ربنا ! اسمه عبدك الرئيس ابن سينا » .

فضحك ذو الجلال وقال : « هاهاها ! لقد عرفته ! فدعاه وشأنه . هذا رجل قضى عمره متكلماً فلم تفهم خلائق الأرضين كلمة من أقواله » .

« ذاك ، على زعم صاحبي ، ما قاله الله تعالى عن الرئيس ابن سينا » .

فضحكت ثم ضحكت ؛ وودعت محدثي قائلة : « حقاً أنك رجل

ظريف ! » وهمست لنفسي مرة أخرى « ليته سرد لي حكايتي لأعلم كيف هي في الغد تكون ! » .

●

واستيقظت في الغد فأذهلني أن أشعر بترضرض في روحي ، وبطعم الفناء في فمي ، وبأثقال تميع على صفحة وجداني كأنها أحمال الدماء .

وبكى فيَّ قلبي لما شهدته من الدعوى الفارغة ، واللغو المزعج ، والتمثيل الكاذب ، والعاطفة السقيمة . ثم قلت مصممة : « إذن فالليلة لا رقص ولا حديث » .

وجنَّ الليل فقصدت إلى السهرة الحافلة . تجنبت قاعة الراقصات والراقصين ، وهربت من أظرف رجل بين الرجال ، وانتحيت مكاناً فيه ينفرد الرجل السكوت .

بادرته بالتحية فلم يردَّ التحية . والقيت عليه الأسئلة فلم يحر جواباً وإنما نظر إليّ نظرة رأيت وراءها محافل الأجيال ومواكب الدهور . فجلست في ظلّ سكوته ، ولم يكن سكوته سوى سكوت الفضاء المملوء بحفيف الأفلاك . وانبسطت دوائر فكره وترامت قليلاً قليلاً فاحتوت هالة كياني ، واجتذبتني منه القوة السرية إلى سويداء قلب الوجود حيث الليل الأليل يفضي إلى برج الأضواء .

وانتهت السهرة قبل أن تبتدىء . ولما عدت إلى مضجعي لم أرقد إلا لأواصل السير في عالم السكوت .

واستيقظتُ في الصباح فحرّكت روحي جناحيها وقد لونتهما أشعةُ قوس الغمام ، وارتفعت جبهتي تحت تاج معنوي قد ركز عليها ، ونموتُ وكبرت فجأة لأن مختلف الرغبات في المعرفة والإطلاع انبثقت فيّ .

وها قد انقضت ملايين أعوام فيها تعلمتُ جميع لغات الأنس والجن ،

ووعيت جميع علومهم ، واستظهرت جميع مصنفاتهم ، وتتلمذت لجميع اساتذتهم ، وجادلت جميع فلاسفتهم ، ومحصت جميع أقوالهم ، وسبرت أغوارهم ، وتسلقت جميع قممهم ، ولمستْ قدماي الداميتان عتبات الغيوب دون أن أظفر بادراك أبسط معنى يجولُ في خاطر الرجل السكوت .

الموضوع التافه

جاء من « النادي الأسنى » وفدٌ كبيرٌ يدعوني إلى القاءِ خطبة في الحفلة السنوية. فخاطبتُ الوفد قائلة:

« أيها السادة العلماء والأعيان والفضلاء.

« أنتم تمثلون في أشخاصكم المحترمة جميع مراتب المدعوّين. ولما كنتُ طامعة في رضاكم ورضى الجمهور لئلا يضيع الوقت سدى ونكون عرضة للانتقاد، فأنا أطلبُ إليكم أن تتفق كلمتكم على موضوع أخاطب الناس به، فأقبل دعوتكم بارتياح ».

فقال أحد الأعضاء « حبذا الاقتراح الحصيف! أما ونحن عند حركة نسائية نبتغي أن تتناول نساءنا وبناتنا، فأحرِ بك أن تتكلمي في ترقية المرأة عن طريق العلم والتهذيب لأنها، وهي دعامة العائلة، إنما عليها تقوم عظمة الأمة وسلامة العمران ».

فقال آخر: « عفوك سيدي، كل موضوع غير هذا حسن. أما إذا ذاكرتنا بهذا الشأن فقد ينسحب المدعوون واحداً بعد الآخر، كما سبق أني فعلتُ وبعض أصحابي يوم قامت سيدة تلوك أمامنا ما سئمنا سماعه، حتى صرنا نحسب أنها مردّدة اسطوانة فارغة تحوك الألفاظ ولا تعي. فلتحدّثنا إذاً خطيبة الغد عن الحركة العمرانية الكبرى وروح العصر العامة فذلك أنسب وأنفع ».

فقال ثالث : « أنزعج ابنتنا بتهيئة ما قد نلمّ به من مطالعة الصحف السيارة وإنباء البرق والبريد؟ نريد أن ننشط النساء ونبثّ فيهن حب الرقيّ والعرفان ، كما نريد تحويل الرجال عن القهاوي وموائد المقامرة وحانات الرقص . فلنتكلم إذاً في موضوع علمي فلسفي يشحذ القرائح ويغذّي النفوس » .

فقال آخر : « سينعقد الاجتماع بعد طعام العشاء أي ساعة لا يكون هناك متسع « للتغذية » ويكون « الشحذ » في غير أوانه . وما نفع كلام لا يفهمه سوى النفر القليل فتزهق أرواح الآخرين فيحسبون الخطيبة متقعرة ويمقتون في جهلهم وتخلّفهم العلم للنساء؟ ألا فلتلقِ علينا بحثاً في ما مارسته اخواتها دواماً ، حتى في العصور المظلمة ، كالموسيقى والرقص والغناء فيجيء كلامها سائغاً ملطّفاً بعد عمل النهار الشاقّ ، ولا تغلق معانية على أحد » .

فاعترض آخر قائلاً : أتريد لتتسلّى أنت وترتاح أن تجعلها هدفاً لتبجّح السخفاء الذين سيقولون : بدلاً من أن تلقي علينا دروساً نظرية في الرقص والغناء فالأوفق أن ترينا منهما الدرس العملي طارحة عنها عناء العلم والبحث والتنقيب » . قلت : « إذاً أنه خير لنا ولها أن تعمد إلى عادة من عاداتنا الشائنة فتحكم تمحيصها وإظهار أضرارها ، مشيرة إلى عادة أخرى يحسن الجري عليها ، فنخرج من تلك الحفلة متفاهمين مستفيدين » .

فقال آخر : « إذا طلبنا الوعظ والإرشاد واحتجنا إلى التهذيب والتقويم فعندنا الكاهن في الكنيسة والخطيب في المسجد . أما ونحن في تطوّر قوميّ كبير فلتلفتنا إلى ما نفتقر إليه من المشروعات الزراعية والآلية والاقتصادية العائدة على البلاد بالثروة والفرج ، فتحثّنا على تأييده ويكون لقولها تأثير عظيم » .

فتأفف آخر قائلاً : « ولكنك تخلط ، يا صاحبي ، بين احتفالات الأندية وبين أحزاب الإصلاح ولجان التقرير . ليس قصدنا سنّ قوانين جديدة

للبلاد ، وتعديل ميزانيتها ، والقاء الدروس على ولاة الأمور ، وإبدال برامج التعليم بسواها . إن نحن إلا أعضاء ناد اجتماعيّ من رجال ونساء يحيون ليلة أنس وطرب . فأرى أن تترجم مقالاً أو قصيدة عن كاتب أو شاعر غربيّ ، لأن الغربيين سبقونا إلى الابتكار الذهني ، فتتحفنا بأفكار جديدة نبتهج لها بلا إجهاد » .

فصاح آخر قائلاً : « فلتسقط الترجمة إلى الحضيض وليهبط التعريب إلى قعر الهاوية ! حرام على من كان ذكياً أن يفني وقته في عمل جدير بمعشر الببغاوات البشرية . أما ونحن في هذا الاجتماع شرقيون لا أجنبي بيننا فلتتكلم إذاً ، ولتتكلم بحماسة عن وجوب تعلق القوم بلغتهم ليفهم المتفرنجون كم هم ضالون وخليقون بالسخرية والإحتقار » .

فقال آخر : « وماذنب النادي اليك ، يا عزيزي ، لتقترح اقتراحاً يعود عليه بالتداعي ؟ إن جل الاعضاء متفرنجون ومتفرنجات ، أتريد أن يسخط هؤلاء تاركين قاعاتنا بلاقع ؟ دع الناس يتكلمون بما شاؤوا من لغات أنزلها اللهُ ! أما خطيبتنا فلتصدق جنسها النسائي في حكاية غرامية تصفُ فيها بعض طبقات الناس وبعض عادات البلدان ، وتشرح عواطف المرأة ونزعاتها المتنافرة . فالرواية اليوم مسهبة كانت أم موجزة ، غدت آلة فريدة لنشر الآراء التاريخية والنظريات العلمية والفلسفية فضلاً عن وصف أحوال الشعوب وتسيير الإصلاح الإجتماعي والديني في وجهة معينة » .

فقال آخر : « لا أرى الرواية مناسبة لهذا الموقف ، ولا يجعل للرواية هذه الأهمية إلا ذوو الأذهان الكليلة الذين يأنفون الأبحاث الجادّة مجردة من الأوهام والتلفيق . بل فلترمِ هي إلى الإفادة المباشرة وتحدثنا بما نكبره في فتاة كالطبيعيات والفلك ، فأنا لا أحتمل من الكُتّاب والخطباء إلا الذين تنالني منهم فائدة علمية ما » .

فقال آخر : « وهل الإفادة محصورة في العلوم الطبيعية والرياضية ؟

وهل هي قائمة في التلقين الأبله كما يلقّن المعلم صغار المتعلمين؟ أرى أن الكاتب الأمثل هو الذي لا يتصور نفسه فوق الآخرين علماً وذكاء ، بل يسترسل في أبحاثه واثقاً من أن الجميع يفهمونه . ولكل منهم أن يحتضن من آرائه الخاصة ما يتفق مع ميوله وحاجاته . هذا هو الكاتب الفنان الذي أعزه وأحبه وأهوى مجالسته عند صفحات الأوراق لأنه يعرف كيف يثير مني الشجون والرغبات ، وكيف يفتح أمامي جديد الآفاق . أما الذي يُنصّبُ نفسه معلماً لي فهو الجاهل المركّب ، هو الدعيُّ المغرور الذي ألقي على تنطُّعه وتفيقه نظرة واحدة لازداد وثوقاً مما أعلمه ، وهو أنه يخيفني من ماء غيره وأنه ليس عنده أكثر مما يعطيني متعاظماً ... »

فتنهد آخرُ قائلاً « ربّاه ! هل جفّت مناهل العواطف في قلوب الناس حتى صاروا لا همّ لهم سوى العلوم والأبحاث؟ ألا فلتُسمِعْنا قصيدةً منها منظومةً أو منثورة ، فهي شاعرة قبل كل شيء . ونحن في حاجة إلى أجنحة المثل الأعلى تساعدنا على النهوض من حمأة المادة لنعيش ، ولو لحظة ، في أبدية الجمال » .

فاحتجّ قومٌ على الشعر المنظوم والمنثور قائلين أنه آفة هذا الجيل ، وانبرى آخرون يدافعون عنهُ قائلين أنه سلوى الحياة ووحيها ورونقها . واشتبك الفريقان في المناقشة والجدَل .

فاختليتُ أنا بنفسي أبحثُ عن الموضوع فوجدتُ فيّ اخلاطاً نفيسة من معارف ومدركات وقدرات كانت وستظلُّ دواماً إرث بني الإنسان : فهناك الأبحاث الفلسفية والتاريخية ، وهناك الاكتشافات والاختراعات ، وهناك الآداب واللغات ، وهناك العلوم الطبيعية والرياضية ، وهناك المذاهب اللاهوتية والباطنية ، وهناك الفنون الجميلة على اختلافها ، وهناك الروايات والأشعار وعلوم البيان ووصف الأسفار ، وهناك الموضوعات الخفيفة الرشيقة المفكهة ، والأخرى الوجيعة الرثائية المحزنة . وعلى مقربة منها

أساليب النقد واقتراحات الإصلاح وخرائط المشروعات المتنوعة .

وبينا جلبة وفد النادي تصطخب حولي جعلتُ أنا أخلق لذاتي الجماهير المتعددة ـ كما تمثل أحياناً رواية مصغرة خلال تمثيل الرواية الكبيرة ـ ، وصرتُ أخطب في كل جمهور بما يحبُ ويتطلب . فأقتضب الكلام هنا ، وهناك أطيلُه . أتكلم مرة بتحمُّس الشاعر ، وبتدقيق الباحث أخرى . حيناً بصرامة العلم الطبيعي وحيناً بسيطرة الفكر الفلسفي . هنا بعذوبة الحب وأنينه ، وهناك بقسوة الإصلاح واستئثاره .

خلقتُ لذاتي الجماهير لا لأعلم بل لأتعلم ، لا لأفيد بل لأستفيد ، لا لأوقف الآخرين على أسرارهم وممكناتهم بل لأهتدي إلى أسراري وممكناتي . تكلمتُ ودرستُ وكتبتُ وخطبتُ لأهذب نفسي وأدللها ، لأعزيها وأنميها . فعلتُ ذلك لأطير ونفسي فوق الشواهق ، ونحسو ماء الغدران ، ونكتنه غور الأعماق ، ونمتصَّ عصير الأزهار ، فأعيش وإياها تلك الحياة الداخلية الرائعة التي يُشرَفُ منها وحدها على بدائع الكون .

وما زلتُ أفعل ذلك ، والناس يتناقشون في أي الموضوعات أنسب وأنفع ، وفي أي الموضوعات عليّ أن أعالج !

أنتَ أيها الغريبُ

أنا وأنت سجينان من سجناء الحياة ،

وكما يُعرَف السجناء بأرقامهم يُعرَفُ كلُّ حي باسمِهِ .

وقد التقينا وسط جماعات المتفقين فيما بينهم على الضحك من سواهم حيناً ، والضحك بعضهم من بعض أحياناً .

أنا منهم وإياك غير أن شبهك بهم يسوءني .لأني إنما أقلدهم لأريك وجهاً مني جديداً . وأنت ، أتجاريهم بمثل قصدي أم الهزء والاستخفاف فيك طوية وسجية ؟

ولكن رغم انقباضي للنكتة منك والظرف ، ورغم امتعاضي للتغافل منك والحبور ، أراني وإياك على تفاهم صامت مستديم يتخللهُ تفاهم آخر يظهر في لحظات الكتمان والعبوس والتأثر .

بنظرك النافذ الهادىء تذوقتُ غبطة من لهُ عينٌ ترقبه وتهتم به . فصرت ما ذكرتك إلا ارتدت نفسي بثوب فضفاض من الصلاح والنبل والكرم ، متمنية أن انثر الخير والسعادة على جميع الخلائق .

لي بك ثقةٌ موثوقة ، وقلبي العتيُّ يفيض دموعاً . سأفزع إلى رحمتك عند اخفاق الأماني ، وابثك شكوى احزاني ـ أنا التي تراني طروبة طيارة ،

وأحصي لك الأثقال التي قوست كتفيَّ وحنت رأسي منذ فجر أيامي ـ أنا التي أسير محفوفة بجناحين متوجة بأكليل .

وسأدعوك أبي وامي متهيبة فيك سطوة الكبير وتأثير الآمر ،

وسأدعوك قومي وعشيرتي ، أنا التي أعلم أن هؤلاء ليسوا دواماً بالمحبين .

وسأدعوك أخي وصديقي ، أنا التي لا أخ لي ولا صديق .

وسأطلعك على ضعفي واحتياجي إلى المعونة ، أنا التي تتخيل فيَّ قوة الأبطال ومناعة الصناديد .

وسأبين لك افتقاري إلى العطف والحنان ، ثم أبكي أمامك ، وأنت لا تدري .

وسأطلب منك الرأي والنصيحة عند ارتباك فكري واشتباك السبل .

وإذا اسيء التصرف وأرتكب ذنباً ما سأسير اليك متواضعة واجفة في انتظار التعنيف والعقوبة .

وقد أتعمد الخطأ لأفوز بسخطك عليَّ فأتوب على يدك وامتثل لأمرك .

وسأصلح نفسي تحت رقابتك المعنوية مقدمة لك عن أعمالي حساباً لأحصل على التحبيذ منك أو الاستنكار ، فأسعد في الحالين .

وسأوقفك على حقيقة ما ينسب إليَّ من آثام ، فتكون لي وحدك الحكم المنصف .

وما يحسبه الناس لي فضلاً وحسنات سأبسطه أمامك فتنبهني إلى الغلط فيه والسهو والنقصان .

ستقومني وتسامحني وتشجعني ، وتحتقر المتحاملين والمتطاولين لأنك تقرأ الحقيقة منقوشة على لوح جناني .

كما أكذب أنا وشاية منافسيك وبهتان حاسديك ، ولا أصدق سوى نظرتي فيك وهي أبرُّ شاهد .

كل ذلك ، وأنت لا تعلم !

ساستعيد ذكرك متكلماً في خلوتي لأسمع منك حكاية غمومك وأطماعك وآمالك . حكاية البشر المتجمعة في فرد أحد .

وسأتسمع إلى جميع الأصوات عليّ أعثر على لهجة صوتك .

واشرح جميع الأفكار وامتدح الصائب من الآراء ليتعاظم تقديري لآرائك وأفكارك .

وسأتبين في جميع الوجوه صور التعبير والمعنى لأعلم كم هي شاحبة تافهة لأنها ليست صور تعبيرك ومعناك .

وسأبتسم في المرآة ابتسامتك .

في حضورك سأتحول عنك إلى نفسي لأفكر فيك ، وفي غيابك سأتحول عن الآخرين إليك لأفكر فيك .

سأتصورك عليلاً لأشفيك ، مصاباً لأعزيك ، مطروداً مرذولاً لأكون لك وطناً وأهل وطن ، سجيناً لأشهدك بأي تهور يجازف الاخلاص ؛ ثم أبصرك متفوقاً فريداً لأفاخر بك واركن إليك .

وسأتخيل الف الف مرة كيف أنت تطرب ، وكيف تشتاق ، وكيف تحزن ، وكيف تتغلب على عاديّ الانفعال برزانة وشهامة لتستسلم ببسالة وحرارة إلى الإنفعال النبيل . وسأتخيل الف الف مرة إلى أي درجة تستطيع أنت أن تقسو ، وإلى أي درجة تستطيع أنت أن ترفق لأعرف إلى أي درجة تستطيع أنت أن تحب .

وفي أعماق نفسي يتصاعد الشكر لك بخوراً لأنك أوحيت إلي ما عجز دونه الآخرون .

اتعلم ذلك ، أنت الذي لا تعلم ؟ أتعلم ذلك ، أنت الذي لا أريد أن تعلم ؟

قرب منعطف السّبيل

قرب منعطف السبيل عندما تمثلتُ انقضاء الماضي ، وجمود الحاضر وإستحالة السير إلى الإمام ، لم يبقَ لي سوى اختيار إحدى الميتتين : ميتة طويلة مفعمة بحشرجة القنوط ، وميتة الانتحار السريعة المنقذة .

فاخترتُ هذه على أن أجعلها كيّسة مأنوسة لا تلطخها الدماء ولا تتلوى فيها الأعضاء . واهتديتُ إلى الأزهار المزعوفة التي تطعّم منعها العطرُ بالسمّ ولهاث الردى . ولكن ــ

هناك ، في تلك الزاوية الضائقة حيث أقام القَدَرُ من دواهيه على صدري جدران الحديد ومعاقل الرصاص ، هناك قرب حلول الشفق برزتَ فجأةً أمامي .

وأخذت تتكلم عن معانٍ اختفت طي المعاني ، وأشياء توارت في الأشياء ، وممكنات حُجبت في المستحيلات ، وخيرٍ حصحص وراء الشر ، ونورٍ أشرق في لجج الظلام ، وسموٍ تجلى جلال الحقارة .

وكانت يدك تتحرك متريثةً متأنية فبدت منها الإشارات سحرية ساهيةً ، كأنما هي إنعكاس إشاراتٍ خفية على المرايا المتبحّرة في مهجور القصور وضاء الجوُّ حولي بلألاء الشرف والأبهة والسؤدد . ومشى نظرك تواً إليَّ يكتشفُ فيَّ جديد العوالم .

نظرتَ ، فعلمتني أعزاز الوجود وأدركتُ أني ما تخليتُ أجلي عند

حينه الا لأتشدَّد واتحفز لوثبةٍ كبيرة ـ كما يتنفس المتسابقون منتعشين متجدّدين قبيل خطير الأشواط .

فارتدَّت الحوائطُ قليلاً قليلاً وتنحّتِ الحصونُ مسفرة عن المروج والرياض واتشحتِ الكائناتُ بنقاب وسيم لا تنسجهُ سوى يد الوجد على زعم المتيمين .

ولكن ، أنّى جاء الوجدُ ؟

أنت لم تكن تهتم بي وأنا لم أكن أهتم بك . ولكن علامَ تشلّ أوصال روحي للدنو من مكان حللته ؟ وعلامَ اضطرابك وإرتعاش يديك اذ تلمح خيالي عن بعد ؟

أنت لم تكن تنظر إلي وأنا لم أكن أنظر إليك . ولكن لماذا كانت تتبلبل خواطري وأهرب عند قدومك ؟ وأنت ان لم تستطع السكوت ، لماذا يخرج صوتك متقطعاً متهدجاً كأنك تجاهد لتقهر تأثراً ما ؟

أنت لم تكن تعبأ بوجودي ، وأنا لم أكن أعبأ بوجودك .

ولكن لماذا كنتُ اخاشنك متعملة الأعراض وعدم الإنتباه ؟ ولماذا ، وأنت مثال الوداعة والتهذيب ، كنت تكفهرّ لحضوري وتنقبض كمن يود أن يتجنى علي ، أو كمن يخشى أن يُرمى بالبشاشة والمجاملة ، ثم يعود نظرك في المرة التالية يستفحصني عن زلته ـ أنا التي كنت اغتفرُ لك وأتناسى مُرغمة قبل أن تحدّث نفسك بالاستغفار .

أنت لم تكن تفكر فيَّ وأنا لم أكن أفكر فيك . ولكن لماذا كنت أحيدُ عن طريقك لئلا التقي بك أنا التي أود أن ابحث عنك في كل مكان ؟ ولماذا كنت تتقن خطواتك إذ تعلم أني أرقبها ، وتنغّم نبرات صوتك وتنوّعها إذ تعلم أنها واصلة إلي ؟

أنت لم تكن لي شيئاً وأنا لم أكن لك شيئاً . ولكن وجوه القائمين حولك كنت أراها متألقةبنورك . وأنت كانت تدهشك كل حركة مني كأنها

لم يأتها قبلي إنسان .

أنت لم تكن لي شيئاً وأنا لم أكن لك شيئاً . ولكن أليس ان ارادتك حلّقت فوق خواطري كيدٍ آمرة فتقتُ لأجلها إلى الطاعة والخضوع ؟ أو ليس أنك كنت تحاول إرضائي وإثارة إعجابي حتى ارتفعت بذلك فوق ذاتك المألوفة فتجليت بهياً عظيماً ؟

من أنت ؟ وماذا كنت ؟

أكنت وحياً من فيض شاعريتي المكتظة ، وطيفاً من أطياف شوقي وعذابي ؟ أم أنت حقيقة محسوسة مرت في أفق حياتي مرور السفن في البحر إلى الشواطىء النائية ؟ لقد كنتَ وحياً من فيض شاعريتي المكتظة ، وكنت طيفاً من أطياف شوقي وعذابي ، وأنت حقيقة محسوسة مرَّت في أفق حياتي مرور السفن في البحر إلى الشواطىء النائية .

يا مهذّبي !

أينَ وطني

عندما ذاعت اسماء الوطنيات ،
كتبت اسم وطني ووضعت عليه شفتيّ اقبّلهُ ،
وأحصيت آلامه مفاخرة بأن لي كذوي الأوطان وطناً ،
ثم جاء دور الشرح والتفصيل فالممت بالمشاكل التي لا تحلّ ،
وحنيت جبهتي وانشأت أفكر ؛
وما لبث أن انقلب التفكر فيَّ شعوراً ،
فشعرت بانسحاق عميق يُذِلّني ،
لأني ، دون سواي ، تلك التي لا وطن لها .

يوقظني في الصباح نفير الجيوش المودعة . ولدوي أبواق النحاس انغامٌ تثقلها دموع الفراق ، واهازيج يُجنحها طلب التفادي والاستبسال . فأمقت الظافرين وأودُّ لحظة أن أتوحّد وإياهم لأنسى في ثروتهم فقري ، وفي بطشهم هواني .

وإذ تمرُّ مواكب الأمم المظلومة منكّسة أعلامها وراء نعوش الشهداء ، وهتاف الحرية والاستقلال يتغلب على أنين الثكل والتفجّع منها ، اعتز لأني ابنة شعب في حالة التكون والارتفاع ، لا تابعة شعب تكوّن وارتفع ولم يبقَ أمامه سوى الإنحدار .

ولكنّ الشعوب تهمس همساً يطرق مسمعي : فهؤلاء يقولون « أنتِ لستِ منّا لأنك من طائفة أخرى » . ويقول أولئك : « أنتِ لستِ منا

لأنك من جنس آخر » .

فلماذا أكون ، دون سواي ، تلك التي لا وطن لها ؟

●

ولدتُ في بلد ، وأبي من بلد ، وأمي من بلد ، وسكني في بلد ، وأشباح نفْسي تنتقل من بلد إلى بلد ، فلأيّ هذه البلدان انتمي ، وعن أي هذه البلدان ادافع ؟

يمضي الموتى تاركين للأحفاد وراثات حسيّة ومعنوية ينعمون بها ، وشرفاً قومياً يعززونه ، وتقاليد يحافظون عليها . أما أنا فلم يبقَ لي من آثار موتاي سوى الأثقال المعلقة في يديّ وعنقي . أثقال إذا حاولت طرحها والفرار جرّت قدماي ما هو أثقل منها . فهبطتُ على طريق جلجلتي تشير نحوي أصابع المتشفّين الساخرين ، وليس من يد رحيمة تعين وتؤاسي .

وأما متاع موتاي فاستولى عليه أولئك الأباعد . ولو تخلوا عنه لتحكم بي هؤلاء الأقارب الذين عيّرتني منهم القحة بصفات انقلبت عندهم عيوباً ، وأنكر عليّ الحسد منهم والخمول حقّ التمتع بما اشتريته بالجهود والعبرات .

بأي اللهجات أتفاهم والناس ، وبأي الروابط أرتبط ؟ أأتقيد بلغة جماعتي وهي ، على زعمهم ، ليست لي ولم توجد لأمثالي ؟ أم اكتفي بلغة الغرباء وأنا في نظرهم متهجّمة عليها ؟ أأصون عادات قديمة يحاربها اليوم الناهضون أم أقبل الأساليب الحديثة فأكون لسهام المحافظين هدفاً ؟

إذا جاملت العتيّ توصلاً إلى ما لا غنى عنه قالوا عبدة تمرّغ جبهتها في التراب وتتزلّف ؛ وإذا جعلت لي من المصارحة سلاحاً ، ومن الأنفة حصناً . سطت عليّ اليدُ الحديدية ، ومزقتني ألسنة « الاخوان » ، وانفضّ من حولي « المخلصون » لأنهم إنما خلقوا لمساعدة نفوسهم .

فلماذا قُدِّر علي أن أكون ابنة وطن تنقصه شروط الوطنية ، فأمسي تلك التي لا وطن لها ؟

•

كل امة تحدّث عن عظمتها وفضلها على المدنية ونبلها في صيانة حقوق الضعفاء ، ـ فبأي الأمم أعجب ؟

وكل أمة ـ دون سواها ـ تحمي ذمار الحرية وتذود عن العدل والمساواة والاخاء ، ـ فعلى أي الأمم أتكل ؟

وكل دين ـ دون سواه ـ احتكر لاتباعه الشرفَ والفضيلة في الحياة ، والسماء والألوهية بعد الممات ، ـ فأي الأديان أعتنق ؟

وكل حزب يدّعي الصدق والعصمة ، وكل فرد صائب الرأي يضحّي الخير الخاص للخير العام ، ـ فأي الأحزاب أصدِّق وأي الأفراد اتبع ؟

ما سمعت وصف بلاد إلا سعى إليها اشتياقي .
ولا حُدثتُ عن بسالة أمة وسؤددها إلا تمنيتها أمتي .
ولا أصغيت إلى صوت قوم إلا خلته صوت يأسي وأملي .

ولا تبينت عيوب شعب ومفاخره إلا أدركتها صورة مفاخري وعيوبي .

ولا رمت طائفةً طائفةً بالتعصب والمغالاة إلا وجدت فيَّ هذه المغالاة وذاك التعصب .

ولا تخيلت مسافات الأرض وأبعاد الفلك والصحاري والبحار والكواكب والعوالم إلا اهتاجني الحنين إليها كأنها أوطان يردد هواؤها ترنيمة طفولتي وتنتظرني فيها قلوب الأحباب والخلان .

أمّا وقوى اعزازي تتوزّع باستهتار وجنون ، فلماذا تتجمع قوى

اكتئابي عميقة مرهفة لأني أنا وحدي في الدنيا ـ تلك التي لا وطن لها ؟

●

بنسيم وطني امتزج الوحي والنبوءات ،
ومع أشعة الشمس فيه انتشرت صور الجمال ،

فكانت له حياة وهّاجة متلظيّة وراء مظاهر الجمود والهجران وخيالات الآلهة تسيرُ أبداً فيه متمهلة متأملة ،

من القمم والأودية ، من الصخور والينابيع ، من الأحراج والمروج تتعالى معاني بلادي في الضحى ، وعند الشفق تتكاملُ أرواحُ الأشياء وتتجمهر كأنها تتداول في إنشاء عوالم جديدة .

أُحبُّ عطور تربة الجدود ورائحة الأرض التي دغدغها المحراث منذ حين . أحب الحصى والأعشاب ، وقطرات الماء الملتجئة إلى شقوق الأصلاد .

واحب الأشجار ذات الظل الوارف أكانت محجوبة في أحشاء الوادي أم أسفرت مشرقة على البحر البعيد .

واحب الطرق الوعرة المتوارية في قلب الغاب ، وتلك الملتوية على اكتاف الجبال كالأفاعي البيضاء ، وتلك السبل الطويلة الممتدة الممتدة ، وكأن الغبار الذهبي منها ينتهي إلى قرص الشمس .

ولكن أيكفي أن نحب شيئاً ليصير لنا ؟ وهكذا رغم حبي الأفيح أنا في وطني تلك الشريدة الطريدة لا وطن لها .

جرّبتُ من الوطنيات صنوفاً : وطنية الأفكار والأذواق والميول ،
وتلك الوطنية القدسية المثلى : وطنية القلوب ،
فوجدتُ في عالم المعنى ما عرفته في عالم الحس
إلا بقعة بعيدة تفرّدت فيها الصور وتسامت المعاني .

ثقّفني أبناءُ وطني ، وأدبني أبناء الأوطان الأخرى
وأسعدني أبناء وطني وأسعدني الغرباءُ أيضاً ،
ولا ميزة لابناء وطني في أنهم أوسعوني أيلاماً
فقد نالني من الغرباء أذى كثير :
فبأي الأقيسة أقيس أبناء الوطن ،
ولماذا أكون أنا وحدي تلك التي لا تدري أين وطنها ؟

●

أيها السعداء ذوي الأهل والأوطان ، عرّفوا لي سعادتكم واشركوني فيها !

رضيتُ حيناً بأنه ليس للعلم والفلسفة والشعر والفن من وطن ، أما اليوم فصرت أعلم أن للعالم والفيلسوف والشاعر والفنان وطناً . صرت أعرف ضعف الإنسان الذي إذا مال إلى النوم والراحة طلب مضجعاً ناعماً لجسمه المضني لا مرْجاً واسعاً يتناوله منه الحر والبرد ، ولا بحراً عرمرماً تبتلعه منه اللجج .

إني أعبد تفطّرك الصامت ، أيها الفيلسوف القديم ، أنت الذي بعد ان اكتشفت آيات الفكر وعجائبه ، أرسلت زفرة كأنها شكوى الدهور فقلتَ : إنما أريد صديقاً لأموت لأجلهِ .

وأنا أجثو الآن خاشعة أمام ذكرك مردّدة ما يشبه قولك : إنما أريد وطناً لأموت لأجله ـ أو لأحيا به !

عِندَ قَدَمي أبي الهَوْل

الأفق واسع واسع ، والليل عميق عميق ، وأنوار المساكن وأضواء الشهب في أحشاء الدجى جراح وحروق . وأصوات المدينة تحدّث عن أوصاب المدينة جاهلة ما عداها . لذلك جئت ناديك أنشد الاختلاء وراء تلال فصلت بين عمران البشر الضاجّ المقيد وعمرانك المستقل في حضن السكوت غير المتناهي .

تتتالى على البسيطة شعوبٌ ودولٌ تأتي بالأديان والشرائع واللغات والعادات ، وتتبارى في محق عمل الأجيال زلازل وبراكين وصواعق واوبئة وثورات وزعازع وطوفانات . وأنت هنا رابض أمام أهرام انتصبت في وجه الفضاء تنقض أحكام الفناء . والهياكل تلقي بين يديك حديث الدهر بألفاظ الحجر والصوان وتعززه بصور الأرباب والملوك والكماة .

وكأن ما نزل بها من العاديات بعض تلك الصور المنيلة خطابها بلاغته وروعته .

ههنا تربض فريداً على وثير الرمال في مملكتك الفيحاء مملكة الكتمان والجلال والإيماء ، وعظمة القياصرة حديثة النعمة دميمة حيال عظمتك المجردة الرفيعة . والإنسان المتطاول الشغوف بهتك الأستار يدخل أيوان وحدتك السنيّ . ولكنك في غيبوبتك غير منظور لهذه الأشباح الفانية ، وغير ملموس لهذه الأيدي الذبابية المتنقلة على مخالبك ومنكبيك تلهيّاً واستقصاء .

غير أن الإنسان ليس بالمتلهي المستقصي فحسب ، بل هو خصوصاً الدنف المتألم . يتناوله من الكون قهراً دوّار الفواجع والنوائب فيدرك أن الثبات العام منسوج من الوجل والاضطراب ، وأن البقاء الظاهر مصنوعٌ من التغير والتحول . يدرك مأساة الكفاح بين الحرية والقدر . يدرك أن عجاجات القوى تضيع جزافاً في شلّال الذراري والأنسال الجارف الآلهة والمحاربين والشارعين والقديسين والأنبياء والقتلة والقتلى سواسية . يرى التعاسة على طريق العروش ، والصوالجة والتيجان تختلط بقيود المجرمين . يرى الأعراس والجنازات والمواليد والوفيات يتخللها العوز والبطر ، والمرض والعافية ، والخيانة والأمانة ، والدعوى والتطيّر ، والضلال والهدى . وازاء ما يفطره ويعذب سواه يظل الكون على ما هو ، والخلائق والأشياء تتوثب فيه وتتولد كالمياه الرهوة الرجراجة ، وكل ما خال منها وشيكاً كان نهاية تعقبها بداية وأنقاضاً تستوي عليها الأسس .

وإذ يزفر طالباً للحوادث تفسيراً يقال له « هذه هي الحياة ! »« ما هذا إلا الحياة » ، « لا تكون الحياة إلا كذا » نعم . يا أبا الأهوال الساهي ، أزاء الهبة والحرمان ، والوفاء والغدر ، والبياض والسواد ، والفخار والمذلة ، والغلبة والإندحار ، أزاء كل مسرةٍ وكل توجع ، التفسير واحدٌ لا يتغير ! إننا نفسر الحياة بالحياة ، ونداوي داء الحياة بمصل الحياة ، ونهرب من الحياة لنجدنا والحياة وجهاً لوجهٍ .

●

وأنا صورة من ملايين صور الحياة نهضتُ اتفهّم الحياة كما نهض جميع أولئك المساكين . وكما وقفتَ قديماً على طريق طيبة تلقي الأسئلة على العابرين وقفت أسأل أبناء السبيل عن معنى الحياة ، فقال أحدهم « هي صدر الأم » .

فالتصقت بصدر أمي فإذا أنا منه في عش دفء وحرارة وحصن مناعة

وأمان ، لا ترعبني الرياح العاصفة والرعود الداوية والبروق الملعلعة والسيول المتدفقة . ومر يوم . فضاق بي صدر أمي وعدت إلى موقفي أسأل « ما هي الحياة ؟ »

فأجاب مجيب « هي الدين والتقوى »

فبادرت أمرّغ جبهتي على عتبة المذبح مخفية اداة التقشف والأماتة تحت مزركش الأثواب . وأقرع صدري مستغفرة عن آثام لم ارتكبها وذنوب لم تخطر على بالي . فناجتني الصور الصامتة في أطُرها وهمست لي الصلبان بنكال الحربة والمسامير . فمر يوم . وصدر الهيكل الذي كان ليناً عطوفاً أنقلب كالمرمر صلابة وبرودة . وصارت الطقوس الدينية ترتيباً مسرحياً . وأرواح البخور التي كانت تنزل عليّ فيض الوحي والالهام غدت مزعجة كعطور تنشرها ذوات الذوق الكثيف . فعدت إلى مكاني من السبيل سائلة « ما هي الحياة ؟ » .

فقال صوت الغرور « وهل هي للفتاة غير التيه والدلال والتظرف ؟ »

فمضيت أساجل مرآتي فتعشقت صورتي فيها . ولم أكن أفارق تلك الصورة إلا لأبحث عما يزينها ويجملها . وكان يبكيني مشهد الباكين ، فأصبحت وقد تذوقت لذة اللهو واللعب في نسل خيوط القلوب . ومر يوم . فأطل شبح الملل في عينيّ . فعدت أسأل أبناء السبيل « ما هي الحياة ؟ » .

فعلا صوت الحضارة في صفير البخار وجلبة الآلات وقال : « هي الثروة والجاه العالمي وأبهة العمران » .

فعدوت في سبيل هذه ، سوى أني لم أصرف ساعة حتى تحجّر كياني . فعدت والضجر يقتلني أسأل « ما هي الحياة ؟ » .

سألت طويلاً وبكيت غزيراً ، وقنطت حتى طلبت الموت فانبثقت صورة من غور عنائي . لم تتكلم وإنما فهمت أن الحياة عندها . أرأيت ،

يا أبا الهول ، النجوم راقصة ؟ بلحظة تململ ثابت النواميس فرقصت جميع النجوم حولي ، وخشعت الكائنات سجوداً لدى من هو شفيعها عند ذي الجبروت ، وتناقلت الموجودات صورة وجه واحد ـ أو فخرت بنسخ خطٍّ من خطوطه وانتحال معنى من معانيه . واستحدثت جميع الأشرقة نورها من تألق عينين اثنتين ، وصارت زرقة الجو وبهجة الربيع وطلاوة الأمواج انعكاساً مبهماً ضئيلاً لتلك البسمة ـ تلك البسمة البطيئة الرقيقة النادرة . واستدعتني الألوهية إلى عرشها فوضعت يدي ويد الباري على لولب الوجود وقمت وإياه بادارة حركة الأكوان . فمر يوم . فقمعت ثورة النجوم وقدمت خضوعها للنظام الأوحد ، وعادت لكل كائن أهميته في الخليقة . فرجعت أسأل العابرين « ما هي الحياة ؟ » .

فقال صوت العلم الرزين « أنا الحياة لأني أشرح الحياة » .

فألقيت بنفسي في الخضم الزاخر أعالج العلم المادي تارةً والفلسفة الروحانية أخرى . كم من علم خلقنا ، أيها المليك ، لنبحث عمّا لا يُعلم ، وكم من لغة ابدعنا لنشرح ما لا يشرح ! فهداني الجهابذة إلى القوة التي يتم بها التفاعل الكوني بين الأجرام فلا تتفلت من عناقها شمس ولا ذرة : الجاذبية . فسألت : وما هي هذه الجاذبية ، من رآها من سمعها ، من لمسها ؟ أهي وسيط ينتقل على تموج الأثير ، أم هي سيّال يتموّج بنفسه مستقلاً عن العناصر ؟ فأجابوا « ذاك سر الحياة وهو مجهول » .

الحياة ! مجهول ! لفظتان تمثلان الإنفصال والإتحاد جميعاً .

هذه الرمال التي تفرش ربوعك بطنافس ناعمة ـ منذ أربعة آلاف سنة ، يا حارس الصحراء ، منذ أربعة آلاف سنة والعلم يقلّب الذرة الواحدة منها ويديرها ويقسمها ويجزّىء تقسيمها . لقد نحَرها بحثاً ودرساً وتحليلاً متلمساً علة تركيبها واللغز المتواري وراء محلها . فسارت جهوده من مجهول إلى مجهول ومن استفهام إلى استفهام . وما زال مثلي أنا الطفلة الغريرة يسأل

« ما هي الحياة ؟ ما هي الحياة ؟ »

كذلك طال استجوابي للسابلة فضحك كثيرون ومضوا لأنهم لم يفهموا ، والقليلون الذين وقفوا وأجابوا أرهفوا فيَّ اللجاجة والحرقة والأسى .

●

يا وليد بابل أم السحر والتعاويذ ، إلى أي حقيقة رمز بك الرامزون ؟ ولماذا جعلوا بين كفيك درجات خفية تفضي إلى سرداب امتد وتاه في مجاهل الأهرام ؟ لماذا أودعوا قلبك مفتاح باب الغيب حيث كان العرافون يستمعون للآلهة الهواتف ؟ ولماذا لا يعرف موضع أصغرك إلا جوف منك سوى شفتيك المطبقتين على كرّ الأعقاب ؟

تفترُّ شفتاك دون كشف وإعلان ، أتأكيدٌ هذه البسمة أم إيهام ؟ أإشفاق على دماء المفاداة وقد اذيبت فيها الأوحال ، أم لأن ما هو كائن أقلص من ظل حصاة حيال ما سيكون ؟

هذا نيلك رضاب الطبيعة المحيي عُبِدَ من منبعه إلى مصبه لما يظهره من اريحية ووفاء ، أتدرك معنى احمراره الصيفيّ ومعنى خصبه ؟ أتفهم معنى شكل هندسي تجلّب به أهرامك الخالدة ؟ أنت الذي نحتك الكلدان قبل أن يرسموا دائرة البروج ، أتعلم ما إذا كانت هذه الأهرام منائر للصحراء ، أم مدافن للفراعنة ، أم حصون دفاع ، أم مستودعات كنوز ، أم مجتمع عشاق ، أم محفلاً فيه يدينُ اوزريس موتاه ؟ أتعلم لماذا أدرجت أوراق البردى وأسرارها الهيروغليفية طيّ الأكفان مع الموميات في التوابيت والنواويس ؟ أتعرف معنى سوسن الماء وزهرات عرائس النيل العائمة على النهر المقدس ؟ نحن الجهلاء نعلم أن جميع هذه إنما هي رموزٌ إلى الحياة المتحكمة فينا ، وأنت ألم يبقَ لك ما يُكتسب ههنا لتحول نظرك وتسكت سكوتاً لا ينتهي ؟

أم أنت لا ترقب هناك سوى ما نرقبُ؟ أترصد حركة الأصبع الموجّه الإبرة الممغنطة نحو الشمال تجر بعدها النُّظُم الشمسية وهيئات الكواكب؟ أم تستعرض مواكب الأنوار والظلمات، وجيوش الثوابت والسيارات، وجحافل الأمكنة والأزمنة، أم أنت تتهجأ اسم الحياة يخطّه قلم النواميس بحروف الشموس والمذنبات والسدم والعوالم؟ أم يذهلك تدفق الفيض الإلهي من وراء حجب الوجود ليتكوَّن أثيراً وهواءً وناراً وماءً وهيولى؟

نحن مثلك نترقب ونتوقع ونتوقع ونترقب، فهل تعلم ما هذا الذي ننتظرهُ وتنتظرهُ الآفاق المنحنية علينا؟ لقد سُجنَّا في حالك الظلمات تخترقها خيوط النور حيناً بعد حين فنهبُّ نحسبها مقدمة لتحقيق الرجيّة، وما هي غير السراب الخدّاع. فيزيد الظلام حلكاً ونلبث في الإنتظار مترددين.

لقد دفن نصفك في الرمال المغيرة على علاك وما زلت ترقب الشرق وتبتسم، ونحن تغزونا الكوارث وتفتك بنا الدواهي فنظل نترقب ونرجو.

أصحيح أن لغزك لغز الدهور أم خلقك الإنسان رمزاً له كما خلق آلهته على صورته ومثاله؟ لقد أعطاك من الثور الخاصرتين مكمن الغريزة الجوفية الرامزة إلى السكوت، ومن الأسد براثن التحمس والإستماتة الرامزة إلى الجرأة، ومن النسر الجناحين المحلقين في بعيد المدى الرامزين إلى المعرفة، ومنه ـ من انسانيته ـ أعطاك الرأس مشيراً إلى التبصر والإرادة المدركة المتغلبة على الغريزة والإنفعال والخيال. فكيف يحصر فيك جميع هذه النزعات التي تتجاذبه ولا يضيف إليها ما بقي؟ لماذا لا يكون ابتسامك الدائم صورة الأمل المتجدد أبداً فيه؟ أليس إنه مثلك لأنك مثله؟ أليس إن في أعماقه أبا هول شاخصاً أبداً في السموات العلى كلما ظفر بفجر وشروق لبث يتوقع بزوغ كوكب جديد وشروق شمس ساطعة؟

الصحائف ٧

سُطور

فجرٌ جديد يرسل أشعَّتهُ وألوانه . ولا بدّ للجيل الجديد أن يترجم فيه عن الوحي الجديد .

●

الكلمة التي لا تموت تختبىء في قلوبنا . وكلّما حاولنا أن نلفظها تبدَّلت أصواتنا كأن الهواء لم يتمّ استعداده لتلقي نبراتها .

●

النقد من أخصّ خواصّ عصرنا . في السياسة ، والإدارة ، والقانون ، والتاريخ ، والآداب ، والإجتماع ، ترى النقد شائعاً بمختلف اللهجات والأساليب . حتى الاكتشافات العلمية وانقياد عناصر الطبيعة لخدمة الإنسان جاءت عن طريق النقد .

●

الثورة ككل جرأة : في وقتها ومكانها عبقريةٌ وإنتصار ، وفي غير ذلك حماقة وإندحار .

تحديد الخطأ والصواب أساس في نقد العلوم الرياضية والطبيعية واللغوية . أما النقد الأدبي فلا إطلاق فيه . وعمل الناقد البصير هو التحليل لتقرير ماهية كتاب أو أثر . فينبىء الناقد بذلك نفسه ، وينبئ المؤلِّف أو المنشىء ،

وينبيء الجمهور معيّناً نزعة من نزعات العصر .

●

نحن في حالتنا الأدبية الحاضرة أشبه ما نكون بالعبرانيين في صحراء التيه . فـأنّى لنا الدليل الخبير ليسير أمامنا في النهار عموداً من السحاب وفي الليل عمود نارٍ يضيء لنا ؟

●

حتى ولو سار العمود أمامك يهديك سواء السبيل فلا بدّ أن تكون لنفسك المصباح والدليل .

●

لعلّ كلمة « نقد » هي التي أوهمت مُعالج النقد وأوهمت الناس أنهُ لا بدّ من الطعن والتحامل ليكون النقد « بارعاً » فلو وضعنا « تمييز » مكانها كانت أوفى بالغرض .

●

عاطفة واحدة قد تكفي لتكون شاعراً وفناناً . أما للناقد فلا أقلّ من عاطفتين اثنتين : إحداهما للشعور مع موضوعهِ ، ومثلهُ ، وبدرجة انفعاله . والأخرى للتميُّز عنهُ ، والعودة إلى شخصيتهِ (الناقد) يستمدُّ منها قوة التبيُّن والحكم .

●

بسبب هذا التضاعف الفنّي وهذا الإزدواج في الشخصية نرى أن أعاظم الشعراء والفنانين لم يكونوا في نقدهم دونهم في غُررهم الابداعية . والذي لا يعرف أن يعجب بنفائس الفن عند دانتي مثلاً ، وبترارکا وميكلانجو وفاجنر وجوتي وهايني . يستفيد ممّا تجلّى من طبيعتهم في عميق البحث ،

ونافذ البصر، وواسع الإطلاع، وعالي الحكم.

●

لا يحتاج الشاعر إلى أكثر من الشعر ولا يحتاج العالِم إلى غير العلم. أمّا الناقد فإن لم يكن ذا إلمامٍ بالعلوم والتواريخ، جامعاً بين الفطانة والصدق، ذا مقدرة لمسايرة أبعد شاعرية وتفهُّم أدق فكرة وقبول كلِّ نظام، والتقمُّص في كلّ فردٍ، والخضوع لكلّ تأثير، إن لم يكن كلُّ ذلك تصحبهُ مواهب أخرى، فلستُ أدري ماذا يكون. ولا هو يدري كيف يتصدى للنقد العامّ.

●

تجتاز الأرواح النسرية آفاق جيلها كعجائب خارقة. كظواهر بسيطة ساحرة في رؤى طويلة الأمد.

●

الوصف على ثلاثة أنواع: وصف الخطوط الظاهرة من الحوادث والأشخاص والأشياء. ووصف تلك الخطوط بعد أن تكون أفرغت في الأشياء والأشخاص والحوادث من دماء جراحك، ونبضات قلبك، وتحليق خيالك، ولهب أفكارك، ومرارة اختبارك، وعجيب بداهتك، وحلاوة أملك. ووصفٌ آخر ليس فيه حتى ولا نسخ الخطوط.

قضبان النوافذ في السجن تنقلب أوتار قيثارةٍ لمن يعرف أن ينفث في الجماد حياةً.

●

أقرأ أحياناً ما أُسائل نفسي عنده: أأنا أمام صراحة جريءٍ مقدام؟ أم هذه جسارة من يفتقر إلى التثقيف؟

●

يظهر للبيب من جهلك ومعرفتك وحكمتك في ما لا تقول في بعض المواقف أكثر مما يظهر لـذي الفكر العادي في ما تقول وتشرح .

●

بعض الناس غير موفقين في ألسنتهم : فإن أثنوا جاء الثناء إهانة ، وإن فخَّموا جاء التفخيم مهزلة ، وإذا سردوا حكاية أثبت مغزاها عكس ما أرادوا ، وإذا صاموا وصلُّوا قُطع عنهم المنُّ والسلوى .

●

في عالم المحسوس تهدم أولاً ثم تشيد . أما في عالم المعنى فالهدم يتمّ إذا شئتَ وأنتَ تبني .

●

يأبى جيلنا التحصُّن في الأساليب الماضية لأنها لا تكفيه . إلّا أنهُ لم يهتدِ إلى أساتذتهِ السائرين في طليعته حتى اليوم .

●

النقد وحيٌ لأنهُ يدرك الوحي ويحتضنهُ . وحرية لأنَّ لا تمييز في العبودية .

●

كان عصر النهضة في أوروبا فجراً للإلهام الأدبي والإبداع الفنيّ ، والنقد والحرية . وجميعها تسير في موكبٍ واحد .

●

أنشأ النقد الحصيف يظهر هنا وهناك في أنحاء العالم العربي . إنه كثيراً ما يُضِلّ وكثيراً ما يخطىء . ولكنهُ سينمو . لأن براعم الإبداع والحرية آخذة في النموّ .

●

من الكتّاب من هو ملخّص جلسات ومدوِّن وقائع . ومنهم كولمبسُ جاء لإقتحام البحار وركوب الأخطار واكتشاف عوالم مجهولة .

●

من ظريف النكات في الثناء على المرأة الذكية قولهم « إنها تجاري الرجال » . ولماذا لا تكون مجاريةً نفسها التي تكشفتها كلَّ يوم ؟

●

لا عجب أن يخاطب الكاتب الأجنبي قومه بلا شرح ولا تعليق . أمّا نحن فعلينا أن نشرح ونعلّق لأن جمهورنا جماهير ، عدا إنه أقلّ إطّلاعاً من الجمهور الغربيّ . وما يعرفهُ المتلقّي دروسه بالإنجليزية عن تاريخ أمريكا وإنجلترا وحوادثهما ورجالهما يجهل أكثره المتعلّم بالفرنساوية المتضلّع في تاريخ فرنسا وآدابها . وقس على ذلك .

●

نحسب أن ما يمكن حصرهُ وتعريفهُ هو غاية الغايات . ما أيسر الإحاطة بالبركة والحوض ، بينا لن نقوى حياتنا على سبر غور البحر ولا في ناحية من نواحيهِ !

●

لقد كان هوجو ظالماً يوم قال : « إن الحسود وصاحب الغرض هما اللذان يوحّدان بين الشيء العاديّ والفريدة » .

فقد يصدر هذا عن نفوس موفورة الفطنة والشعور والأنصاف لأننا بني الإنسان كالشمس : هي منبع الضياء والحرارة ومع ذلك فلا تخلو من بقع الجمود والظلام .

●

كأنّ القافية مَن شعرنا نُقِشت في عقولنا كذلك . فصرنا ما ذكرنا شخصاً ، أو أمراً ، أو حادثاً إلّا حشرناه في بحر ووزن وقافية .

●

النقد التحليليُّ أقلّ حظّاً في الإنتشار من الهجو والطعن وحبّ التقوُّل . ولكنَّ له من لا يرضى بغيرهِ ، ولله الحمد ! .

●

لا يقوم الحاضر إلّا على قاعدة الماضي ؛ فليذكر هذا أولئك الذين يقولون بالهدم « المُطلَق » !

●

الجمال في الآداب كما في الأشخاص على أنواع : منها الجمال الذي هو لطف باسم ملوّن وكلّ ما فيه واضح جليّ : جمال الصباح . ومنها جمالٌ هو روعة الليل الزاخر بالأنس والجلال معاً ، الزاخر بالأضواء والأسرار والأكوان والعجائب .

●

الحبُّ الذي يجعل العالم هيكلاً حيث تتخشع النفوس فتجثو للعبادة والصلاة والاتحاد الروحي مع جميع قوى الكون ـ هو هذا الذي نعنيه عندما نتكلّم عن الحبّ ، ونعظّم عواطف الحبّ .

●

للعقول والنفوس كما للأجساد مناخ . ألا ترى كثيرين يمرضون في الأمكنة المرتفعة أو على السواحل ولا يستريحون إلّا في الأمكنة المعتدلة الهواء ؟

●

مرعاةً لصحتهم يغادر ذوو الحول والصول المرتفعات فتظلُّ كما كانت قبل : مسرحاً للغزلان ، ونزهة للأسود ، وموطئاً للنسور ، وعروشاً للتجلّي .

وراء الشرقيين إرث عظيم الأديان والنبوّات . لذلك يتصوّر بعضهم أن الكاتب لا يكتب ، وأن الخطيب لا يخطب إلّا ليعلّم ويهذّب .

●

للأسلوب التهذيبي وقتهُ ومكانهُ . وهو لا يؤدّي رسالتهُ سواه وإن كره دعاة « الفنّ للفنّ » وأنصار « الحياة للحياة » . على أنّ القول الذي يرفع النفوس إلى باريها في محافل الصلاة من الواعظ الدينيّ . ويُرغّب في حميد الأخلاق من الخطيب المدنيّ . يتغيَّر معناه ويفقد قوّته يوم يصمّم امرؤٌ على أن لا يكتب إلا ليرسلهُ ، وأن لا يخطب إلاّ ليؤيده .

●

من أفعل أساليب التهذيب والإصلاح . الأساليب غير المباشرة لأن القيود ألذّ ما تكون للبشر عندما يوثقون بها وهم مقتنعون بأنهم لم يصلوا يوماً إلى مثل هذه « الحرّية » .

●

كأنّ أعظم صيحةٍ يلقيها العبقريُّ في الناس . وإن هو جهلها . هي كلمة قالها السيّد المسيح للمخلّع « قمْ أحملْ سريرك وأمشِ ! » .

●

ينهض الجمهور . أو أفراد منه . لمباراة السابقين ويمضي هؤلاء في تحليقهم المألوف لهم فتظلّ المسافة متشابهة . أو هي تتزايد اتساعاً بينهم وبين المتسلّقي آفاقهم . وهنا ينفذُ نظام بقاء الإصلح في صورةٍ من صورهِ المسارعة :

فالضعيف ينحدرُ ويهبط ، ويتحطم . وذو الكفاءة يرتفع إلى أعلى مرتبة يمكن أن يدركها .

●

وهذا الإندفاع إلى الأمام لا حدّ لهُ ولا نهاية .

●

وراء كلّ أفق أفقٌ ينفسحُ . كذلك الحياة دوماً في تكرُّرٍ والفكر في تنوُّع ، والفنُّ في تجدّد .

صَحائِف عَن أُشخاص

الدكتور شِبْلي شميل - الشاعر[1]

وما هو الشعر ؟

هو عاطفة ذائبة ، أو فكرة متوقدة ، أو خاطرة عميقة سُكِبت في قالب موزون الكلام والنغمة . والشعر الغزلي موسيقى تناجي القلب وتلمس الفكر ، سابحة بالروح على أمواج الفنون . وما النثر إلّا شعرٌ أفلت من أقيسة الوزن الضيقة . غير أنه لا يكون مرضياً إلّا إذا خضع لنواميس الإنشاء بما فيها من توازن الجُمل ، وموسيقى الألفاظ ، وسرد الأفكار بسلاسة وسذاجة . فالنثر إذاً شعر حرٌّ ويتسنى لكل كاتب أن يكون شاعراً في نثره . هذا إذا كان من تلك النفوس العطشى المرتفعة بأميالها عن الشواغل العادية ، باحثة عن مَثَلٍ أعلى يسير أمامها في سبل الحياة المحفوفة بالأنوار والظلمات . ولكل إنسان ، مهما كان عاديّ الميول ، ساعات قليلة أو كثيرة يكون فيها شاعراً . فإذا كان من أهل القلم أفضى إلى الورق بِهَمْسِ سرائره ، وكشف للغرباء عن خفايا قلبه . وإلّا كان لنفسهِ منشداً و« مطيباً » معاً .

●

منذ أن تقدمت العلوم الطبيعية علا صوتُ جماعة الماديين منددين بالشعر والشعراء ، قادحين في المعارف الأدبية والعلوم الفنية ، مزدرين كلّ ما لا يُصدم ولا يلمس . كأنَّ الإنسان لم يخلق إلّا من المادة فقط ، وكأنَّ ليس فيه ما يوجب الأعجاب إلا التراكيب الكيماوية والكريات الدموية مع ما يتبعها

(١) نشرت في « مجلة سركيس » ، عدد حزيران (يونيه) ١٩١٣ .

من هيكل عظام وجهاز أعصاب. وقد غالوا في الذمّ والإستخفاف اعتقاداً منهم أن المستقبل للعلم وحده. وفاتهم في تطرفهم أن الفنون ستظل راية المدنية رغم ما للعلم من الفوز الباهر. وأن روح الشعر لا تفارق روح العالم ما بقي القلب في صدر الإنسانية خافقاً، وما دام وميض الأمل في جوّ أحزانها بارقاً. ما هي الحياة بلا أمل؟ وما هي العلوم بلا آداب وفنون؟

تلك موت أمرُّ من الموت. وهذه تمتدُّ بين الأقطار الشاسعة صحراء قحطاء جرداء لا يجد المسافر فيها قطرة ماء تروي عطشه، ولا فيء شجرة تقيه القيظ فيذوق تحت غصونها الراحة الضرورية لأتعاب الحياة. فالآداب والفنون أشجار الحياة وازهارها، وهواؤها وماؤها. ولا يكملُ الإنسان إلا إذا وقف قلبه وفكره أمام تماثيل الطبيعة وأشباح الأحلام، فيميل كل منهما إلى وجهته، ويقتسمان حظيهما من المشاعر والمدارك والآمال.

وما هو الأمل؟

حلِّل ما شئتَ وفسِّر ما استطعت، لا تجدْ للأملِ إلاّ تعريفاً يقربُ من هذا: هو مزيج من الأحلام المتوقع أن تصير حقائق.

أرأيت بعد هذا أن الماديين يسيئون إلى أنفسهم باساءتهم إلى الشعراء؟ إنهم يحلمون مثلهم. غير أنهم يُلبسون أحلامهم ثوباً حجرياً أو معدنياً. بينا الشعراء يزينون أحلامهم بأنسجة رقيقة وحُجب شفَّافة. وهذا كل ما بين الفريقين من الخلاف.

●

ولقد كان الدكتور شميِّل من أوَّل الهاتفين بيننا «إن من العلم لسحراً». وياليته اقتصر على هذا الهتاف الجميل. لكنه اردفه (وقد خلط الأدباء بالمتأدبين، والشعراء بالمشعوذين، والعارفين بالمدعين، والمخلصين بالكاذبين) بكتابات هذه خلاصتها: «فضونا من غلبتكم يا أُدباتيه، يا أولاد الكلب»

(هذا كلامه حرفياً) . وكان للأدباء المساكين أن يسألوه : « قلمك يقول إننا أبناء القرد ، وصوتك يقول إننا أبناء الكلب فأيُّ الوجيهين جَدُّنا ؟ » ـ وقد فكرت طويلاً في أن أثأر من الدكتور شميل فعثرت في كتاباته على سلاح أصوِّبهُ نحوه الآن . وهو قولي أنه شاعر . وسأعرض لهُ من مقالاته وقصائده ما يؤيّد هذا القول .

لقد وجدت في بعض قصائده شيئاً غير البحر والسجع والرويّ . وجدت تعبيرات جميلة وخيالات فخمة تتهادى بين أجرام المادة . أجل ، وجدت قوة شعرية ، لا أقول غزلية ، في تلك النفس التي تدّعي احتقار الفنون . قوة من القوى الأولية أخفتها الحياة تحت طيات الاختبار الكثيفة ، وحجبتها كبرياء العلم وتعصبه وراء أستار المادة الضخمة . غير أنّها لا تنفك باحثة عن منفذٍ تطلُّ منهُ على عالم النور . كالبذرة الكامنة في صدر الأرض تشقُّ صلابة ما يعترض بروزها من الحواجز والموانع ، وتظهر في معاطف الجبال حياةً جديدةً حاملة بين اليافها ووريقاتها عالم أسرار وألغاز . كذلك كان الشعر في نفس الدكتور شميل ... وكذلك هو في نفس كل انسان . لكن قوة التعبير لم تُعطَ إلّا للأفراد .

فطبيبنا شاعر رغم إرادته . وأظنه كاتباً رغم إرادته أيضاً ، بمعنى أنه لا يكتب إلّا في ساعات الغضب والتهيج والإشمئزاز مما يظنه أعوجاجاً وضلالاً . أو عندما يشعر بأن مبادئه تناديه بصوت بشريٍّ : « انصرفي ، أيّدني ، أشهرني ! » كما أنه يكتب في الأيام المظلمة عندما ترقد النفس على مهد الشك والأسف والقنوط ، ناسجة من كآبتها كفناً يحول بينها وبين العالم الذي يؤلمها (اقرأ مقالة « المريض » ومقالة « بمعزل عن الناس » صفحة ١٥٧ وصفحة ١٦٢ في الجزء الثاني من مجموعته) .

وهذه المميزات ترفع الحجاب قليلاً عن شخصية شاعرنا الفيلسوف . فيلسوف؟ الدكتور شميل لا يريد أن يُلقّب بهذا اللقب العظيم . وينفي

الفلسفة عن نفسه بحدة تكاد تكون غضباً : فهو إذاً فيلسوف على رغم منه . بل هو هو على رغم منه . ألا ترى في هذا الارغام المتواصل شيئاً من أخلاق الأطفال ؟

•

طباع متعاكسة متناقضة ، غريبة في شدّتها ولينها . هذا الرجل القاسي الذي يودّ أن يقبض بيديه على صواعق جوبتير ليلقيها على رأس الهيئة الإجتماعية مبيداً كل ما فيها من الشرائع والأنظمة ، يقف متردداً بين الشفقة والتوسل أمام المجرم ويفكر قائلاً : ما ذنب هذا المسكين إذا اكسبته الوراثة جراثيم الجرائم ؟ هل يعاقَب المصدور على علته والمجنون على جنونه ؟ هذا المتحامل على الأدباء الذي يحسب فنَّ الكلام داء عصرياً ، يأتيك بالبراهين العلمية الجافة بأسلوب شهيّ لذيذ ، ويقيس قبل التحبير مقاطع الألفاظ ، ويزن كلامه بالأفكار كيلا يقلل من هذه ولا يزيد من ذاك . هذا الساخر بالشعراء يعلم الشعراء التحوُّل في الشعر . هذا المادي يسكر لأنين العيدان ولا يلبث أن يئنّ مع الأوتار منشداً :

فيانوح الحمـــام على هديـــــل ‏ ‏ بكينا معه كل صد شريـــدِ
فما أحناك من صوت شجـــــيّ ‏ ‏ وما أوفاه منِ خلٍ ودودِ

هذا الطبيب الذي يكوي بناره ، ويجرح بمشرطه ، ويؤلم بلمسه ، ويعذّب بعلقم أدويتهِ يقف متأملاً أمام صفحة الأرض ، هامساً في أذن الأحياء مع الشاعر :

خفف الوطء ما أظن أديم الـــ ‏ ‏ أرض إلا من هذه الأجسادِ

هذا الرجل الكئيب الذي يخيل أحياناً حاملاً في صدره أحزان الخريف ، وغيوم الشتاء ، ووحدة البحار الواسعة تضحكهُ فكاهةٌ صغيرة ولا تفوته نكتة مبهمة . هذا المستبد في علمه الراسخ ، الثابت في أحكامه المُطلقة ،

هذا الضاحك من اللاادريين تسأله : ما هي المادة ؟ فيستشيط غضباً لأنك وضعتهُ إزاء أمرٍ لا يعرفه بشر . ويتردد حيناً ثم يدفعه إخلاصه وعلمه إلى الجواب : لا أدري !

كم وكم من الفلاسفة باحوا بهذا الإقرار : لا أدري !

هذا المتأله في تصلُّب يقينهِ « الحجريّ » يشعر بقشعريرة الزمان متمشية في أعماق كيانه أمام يتيمة الفنون وأرملة الأجيال قلعة بعلبك . فيهوي جاثياً على ركبتيه ، ممرغاً جبهته في تراب آلهة الماضي . أجل ، الماديّ الجاحد تهزهُ هيبة المكان فيسجد لقوة القوى المجهولة ، لأنّ أشعة القمر الحزينة تفتقد عند انتصاب الليل هياكل عشتروت المحطمة !

●

بقولي أن الدكتور شميل شاعر لا أعني أنك تجد في قصائده رقة شوقي الذائبة إذ يحدّثك أنه « ابن الظل والماء » أو عذوبة الخليل الجارحة إذ يضع يده على قلبه باكياً :

ان لـــي قلبـــاً خفوقـــاً واهــن العــزم كســـيرا

أو دلال ولي الدين المعذَّب إذ يقول :

إن ضـــلَّ حنانـكِ عن قلـــبي فأنا بولوعـــي أرشـــدهُ

لا . الدكتور شميل بعيد عن هذه النغمات لسبب رئيسي وهو أنه يكتب بفكره فقط . ويندر جداً أن تسمع عواطفه متكلمة لأنّ شعره كنثره ينحدر من دماغه . ومع ذلك فاقرأ كيف يحدد الشعر :

هـــو للنفـس حيـــــاة ولكرب النفــس مسربْ

وتعثر في قصائده على مثل هذا الوصف الجميل :

وإذا الشمس ومـــــا فـي ـ الشمس من معنـــى محجّبْ

تتجــلى فــوق مــرج أخضر الوشــي مذهّــب

مثل بحـــر زاخـــرٍ والموجُ فيـــه يتقلّــب

تستقي الأزهـــارُ منهـــا ماء حسن ليس ينضـــبْ

وعليهـــا بـــرواء وبـــريا تتسحّـــب

حبـــذا زهـــر الربـــى من كل صـــاف ومخضّب

مثل فجـــر مستطـــير أو كأفـــق قد تلهـــب

يتهـــادى في نسيـــم كتهادي الطفـــل يلعب

والنـــدى من فوقـــه حيران كالدمـــع تصعّب

قلق ممـــا يعـــاني قلـــق القلـــب المعذّب

في البيتين الأخيرين معنى في منتهى الرقة والعذوبة إلا أن شعره غالباً علمي . وأرى عكس ما يعتقده كثيرون . وهو أن هذا النوع من الشعر يزيد في ثروة اللغة وجمالها . وقد جرى نفرٌ من كبار شعراء الإفرنج على هذا الأسلوب في بعض القصائد . ولا تخلو حتى مجموعة سولّي برودم من القصائد العلمية الفلسفية التي لا تفضل قصائد الدكتور شميل إلا بكون اللغة الفرنساوية تنقاد للمعاني بلينٍ لم تألفهُ اللغة العربية إلى اليوم . وهذا فضل يضاف إلى أفضال شاعرنا العلمي . أسمع كيف هو يحدد ناموس الجاذبية في الأجرام الذيهو ناموس الحب في البشر :

شوقٌ تكامل من أدنـــى الوجود إلى
أعلى فأعلى إلى أعلى أعاليـــــــه

حتى تنـــاهى وقلـــب المـــرء تلهبـــه
نار من الحب يذكيهـــا وتذكيـــه

واقرأ الأبيات التالية في المعنى نفسه . وهي أفكار لها من العظَمة الجوهرية ما يغنيها عن النعم ، لئلا تعدم شيئاً من قوتها :

هو الحب أكسير الوجـــود بلا مِــرا
ولولاهُ ما كان الوجـــود كما تــرى
فكل الذي تلقاه في الكون ســـره
وهاديه في أفعاله كيفما نحــــا
هو الحي مولوداً ، هو الميت فانياً
هو النجم قد أسرى ، هو الصبح والدجـى
هو الكل في كلٍّ معيداً ومبديـــاً
وما نحن إلا فيــه من صور الفنــا
وليــس فنــاءٌ مــا نراه وإنمــا
هو العود للأولى ، هو البعث لـــلأُلى
قضوا فحيينــا وانقضينــا بعودنــا
اليهــم . وغير الكــل ليس لـــه البقا

اعتراضي شديد على كلمة « بلا مِرا » في هذه الأبيات : ولكن هل سمعت أن الحب « أكسير الوجود » ؟ والبيت الثاني يتمم معنى البيت الأول ويهيء القارىء لتعداد الإجرام :

« هو الحـــي مولوداً ، هو الميـت فانيــاً ،
هو النجم قد أسرى ، هو الصبح والدجـى

ويتبعه هذا البيت الجليل حيث تتلاشى جميع الأفكار في فكر واحد شامل ، وتتجلّى الحقيقة في سذاجتها المهيبة :

هو الكل في كــلٍّ معيــداً ومبديــاً
وما نحن إلا فيه من صـــور الفنــا

قد يجلب الشطر الثاني حزناً لولا ما يتعالى من أصوات الأمل والحياة .

وليس فنـــاء ما نراه وإنمـــا هــو العــود لـلاولى ...

هنا يشعر القارىء بأن نفسه تتسع وتتباعد منبسطة كذراعين يضمّان الكون :

« ... هو البعث للألى »

قضوا فحيينا فانقضينا بعودنـــا إليهم وغير الكل ليس له البقا

طويل صدى هذه الأبيات في الروح ، طويل عميق. يتسرب تموُّجهُ بين ثنيات المدارك وإلى خلايا الإفهام ، بينا أشباحُ الفناء تمرُّ أمام ناظريْ الخيالِ ببطء فخم للتلاشي في أبدية القوة الخالدة ...

هذا شعر الدكتور شميل : أفكار عميقة وحقائق رائعة تجلب التأمُّل والتبحُّر .

●

فضلُ مصْر على الشَرق(1)

حفلة الأمس جعلها وزير مصريٌّ خطير تحت رئاسته وافتتحها بكلماتٍ لا تنطلق إلَّا من قلبٍ كبير. وتوسط عقدها شاب مصريّ حرٌّ الفكر ذكي الفؤاد. وختمها مصريّ ما اشتهر في وادي النيل شاعر أكثر منه. ذلك والراحل السوري يطلُّ على جمهور الأحياء من خلال صورته، مستمعاً لأقوالهم بنظرةٍ وبسمة كثيراً ما نراهما في صور الموتى. نظرة آتية من وراء تموّج الأثير. وبسمة آتية من الروح الحائمة وراء النجوم، وكأنّ فيها أشفاقاً على الأحياء وآلامهم وإنفعالاتهم.

أجمل نعتٍ أُعطي بالأمس إلى الدكتور شميل جاء من حضرة صاحب المعالي أحمد حشمت باشا اذ دعاه «رسول علم ونور».

نعم كذلك جاء الدكتور شميل: رسول علم لشرقنا الذي كان مستكنّاً في جهله يستنكف هزة يدٍ تنبّهُ فيه حركة الحياة ورسول نورٍ في ليلة ادلهمَّت بظلمات الجهل والخرافة والدعوى. أتى يقظ الفؤاد، متلهّب الذكاءِ، نبيل الفطرة وبعث بأنوار فكرهِ في تلك الغياهب. على أن تلك الأنوار أقرب إلى ألسنة اللهيب اللاذعة منها إلى الأشعة المنبهة المضيئة.

●

---

(1) نشرت في «الأهرام» و«المحروسة» و«المقتطف» بعد الحفلة الأربعينية التي أقيمت في النادي السوري لتأبين الدكتور شميل برئاسة معالي حشمت باشا في ١٠ شباط «فبراير» سنة ١٩١٧.

سلام على « رسول العلم والنور » .

« سلام على تلك الروح الطاهرة » التي رغم ما انتابها من مصائب الدهر وكوارثه ، ورغم ما كان يلازمها من حدة ويهزّها من انفعال ، قد استبقت من الطفل طيبه وبساطته وبسمته في الحياة وفي الموت . شهد ذلك من رأى الدكتور شميل نائماً نومته الأخيرة في نعشٍ غمَرته أكاليل الورد ، وهو وسط ذينك السكوت والحزن الشاملين يبسم بسمة ما أشبهها ببشاشة الحياة منها بعبوس الموت . ونحن اصدقاءه القائمين حوله كنا إذا ما نظرنا تارة إلى هالة الجلال المحيطة بوجهه ، وطوراً إلى البسمة العذبة التي تثني شفتيه ، كنا نشعر بأن الدموع تجفُّ في عيوننا لتغلُّب السكينة في نفوسنا على الأسف إزاء تلك البسمة العجيبة ، متسائلين كيف يمكن أن تأتلف رهبة الموت بمثل هذه اللطافة الحلوة .

ولكن كذلك الحياة : رهبة ولطافة ، حركة وجمود ، نعش وزهرة ، عين تتأمل باكية وعين تنام هادئة ، رواية مفجعة ورواية هزلية تُمثَّلان جنباً إلى جنب . كذلك هي الحياة !

سلام على من كان أنوفاً يربأ بنفسه عن مواطن الذل ويتجافى بها عن مطارح الهوان . « سلام على نفس أبيّة زاهدة » نفذ نظرها إلى قلب الإنسانية فتفطرت لمشهد أوجاعها وحاجاتها . وأحبّتها في جميع مظاهرها وأطوارها . أحبتها في مجدها وعظمتها فأشارت إلى المتأملين بأن يقفوا متهيبين . أحبتها في فقرها ، في مرضها ، في نقائصها فحنت عليها باهتمام الطبيب الحاذق . وكم كان الطبيب من الدكتور شميل أباً ، والعالم محسناً ، والمصلح صديقاً ، والمدمّر العاتي مؤاسياً رحيماً !

●

كذلك كانت الكلمة المصرية معبرة بالأمس عن حسرة النفس السورية . فكيف نشكر مصر وهي ككل كريم لا تطيق الشكر وإن أحبّتهُ ؟ وعلامَ

نحاول إظهار الامتنان وهي أدرى بما هو عليه القلب العربي من قوة الحب وحفظ الجميل ؟

قبل عشرات المئات من الأعوام ، في عهد إيزيس وعشتروت يوم كان العنصر العربي ضائعاً بين العناصر القوية القابضة يومئذ على أعنة المدنية ، كان القلب العربي ينبض بقوة ، ينبض محبّاً وينبض شاكراً .

ولما ظهر قبيل القرن السادس مبرزاً للملأ لغته الغنية وصار الراعي ينام إلى جنب خيمته ، على مقربةٍ من أغنامهِ بينا عيناه الطويلتان ترتفعان نحو الأفق المظلم مراقبتين حركات الكواكب متلمستين الغازها ، إذ ذاك كان العربي يضع يده على قلبه ذاكراً في أصفى ساعات تأمله أسرار حبه وأثر الجميل في نفسه .

ولما تجمعت قواه وعلت موجةُ حضارته فغمرت أفريقيا وآسيا وشطراً من أوروبا ، يوم كان يقتحم ساحات الوغى طالباً لوطنه عظمة ولمدنيتهِ انتشاراً . يومئذ لم يكن ينسيه سكرُ العَظمة عاطفتين غذّاهما بزبدة روحه : الحب وذكر الجميل .

ثم تبعثر العنصر العربي ومرت بهِ العبر السياسية وتناولت إيمانُه العقائد المتنوعة ، وتناوبته أحوال اقتصادية ما فتئت ترفعه تارة وتهبطه أخرى . وها هو الآن تلذع فكره شرارة الحياة فيذكر أنهُ كان عظيماً ويتحفز للنهوض قوياً . في جميع هذه الأدوار ، في العناء والهناء ، ظلّ العربي يرقب في قلبه عاطفتين عزيزتين : الحب وذكر الجميل .

فماذا عسى أن يقول العربي للعربي ؟ أليس القلب العربي الخافق في صدر السوري هو القلب العربي الخافق في صدر المصري ؟ كفى بذلك الخفوق المتشابه بياناً بليغاً .

●

وأنت أيها الزعيم الراحل ، لئن بعُد على نعشك شاطىء سوريا الحبيبة وتوارى جبلك الأشمُّ ، أيها اللبناني ، وراء نيران الحروب ودخان المدافع . لئن تعذر عليك الرقاد في المدافن اللبنانية تحت السنديانة الكبيرة قرب العين المترنمة ، فها قد ضمَّتك مصر إلى صدرها الحنون . هذه تربة شرقيَّة ولها نحو الموتى لمسات ناعمة .

نمْ آمناً بين يدي ربٍّ قضيت عمركَ باحثاً عنهُ . ولئن دعاكَ البشر كافراً وملحداً فالدين سرٌّ عظيم بين الخالق ومخلوقهِ . وقد يغتفرُ ربُّكَ ارتياب اللا أدريين كما يرضيه إيمان المؤمنين . وما كان ربكَ إلَّا حليماً غفورا .

ونحن الآسفون على كنز اغتالته المنية منا ، الشاعرون بافتقارنا إلى عملك وشجاعتك ، يوم تكشر الجمعية عن أنيابهامتهددة متوعدة ، يوم يؤلمنا الغرباء والمعارف حتى الذين يدّعون الصداقة فنضرب بيننا وبينهم حجاب الكبرياء . يوم نرى البريء ساقطاً تحت أثقاله والظالم مستبداً في طغيانه . يوم يفطرنا أنين المتوجعين فلا نجد في يدنا القوة التي تساعد ولا للساننا الكلمة التي تعزي . يوم يعذبنا العطش إلى الكمال وننظر حولنا باحثين عنهُ فنرى الشر بأثواب الصلاح ، ويكلِّمنا الكذب بلهجة الصدق فتشمئز فينا الحياة لصغر الحياة ، إذ ذاك سنلتجىء إلى حرية العزلة وعذوبة السكوت سائلين الكون عن غايته . إذ ذاك سنذكر أن لنا في الخلود خالداً .

إذ ذاك نستحضر صورتك ونذكر صفاتٍ عاليات نبهت فينا الإجلال فتكون لنا أستاذاً صامتاً يرشدنا إلى ما هو جميل شريف ، ويأتينا من العالم الأسنى بخواطر سامية تدور حولنا كأجواق أرواح علوية .

كذلك تكون محسناً في حياتك وفي مماتك . ومن كان مثلك كان خالد الإحسان لأنه خالد الأثر .

ميكلانجلو[1]

يوم الأربعاء ٦ مارس :

أنزعُ هذا الصباح ورقةً من يوميتي كالمعتاد فأجد تاريخاً واسم مكان واسم رجل يا له من رجل عظيم ، ميكلانجلو بوناروتي وُلد في ٦ مارس عام ١٤٧٥ في كابريزي من أعمال إيطاليا . يخيل إليَّ أن المسافة تطوى وأن الأزمنة تتجمع وتتلازب حتى تصبح صورة رجل اتقن أربعة من الفنون الكبرى[2] فشعشع نبوغه في متلاحق الأجيال . ولكأني الآن أراه أمام مكتبه يقرض الشعر عاشقاً ، وينقش الرسوم مبدعاً ، ويمسّ الحجر الصلد فيلين الحجر طائعاً ، ويلمس المرمر الجامد فيتحرك المرمر نابضاً بحياةٍ من روح الفنان الساحرة .

●

لم يظهر حتى اليوم إلّا ثلاث مدارس[3] كبرى للفن ، هي مدارس أثينا وفلورنسا والبندقية . فمدرسة أثينا كانت غايتها إظهار جمال الجسد

---

(١) نشرت في « الهلال » عدد نيسان « ابريل » ١٩١٨ .

(٢) الفنون الكبرى خمسة وهي : الشعر ، والنحت ، والرسم ، وهندسة البناء ، والموسيقى . وقد اتقن منها ميكلانجلو الأربعة الأولى .

(٣) المدرسة (Ecole) هي الرأي الشائع في طائفة معينة من العلماء أو الفلاسفة أو الفنانين أو الشعراء أو اللغويين حتى أن الفرنجة عند كتابتهم عن العرب يعبرون ، مثلاً ، عن مذهب البصريين والكوفيين في النحو بالمدرسة البصرية والكوفية .

الإنساني فأتت بأعظم التماثيل وكان اتقانها المتناهي أس عظمتها الفنية . أما المدرسة الفلورنتينية فكانت غايتها التعبير عن الإنفعال النفسي في حركات الجسد ، ووضع الأعضاء ، ومعاني الملامح ، وكيفية الجلوس والوقوف . وقد تفوقت في إدراك غايتها تفوقاً باهراً . وأما مدرسة البندقية فكانت غايتها إتقان فعل الألوان والإظلال على جميع الأشقياء لا سيما على الجسد البشريّ . أعمالها آيات للمبدعين .

يبتدىء تاريخ الفن الحديث بسقوط عبادة الأوثان . منذ عهد كومودس[1] وديوكليسيانس[2] تغير فن النحت تغيراً تاماً . فبعد أن كان متمتعاً بالإتقان في المدنية الإغريقية اللاتينية أمسى ضئيلاً ، حائراً ، كله عيوب ونقائص . فتماثيل القياصرة في ذلك العهد تدل على ارتباك في يد الفنّان وإنحطاط في أساليب الفن . في مثل ذلك وصل الفن إلى طوره البيزنطي . والفن البيزنطي مزيجٌ من الفن الإغريقي اللاتيني تتغلب عليه خصائص شرقية . وقد اتسم بطابعه الخاص في القرن السادس بعد الميلاد وأظهر آثاره معبد آجيا صوفيا المشاد في القسطنطينية من ٥٣٢ إلى ٥٣٨ . ومن مميزاته الخطوط المقوّسة ، والقبب الواسعة ، والزخرف بالحجارة الملونة بالذهب ، وتخريم الأفاريز الدقيقة الصنعة . وقد انتشر الفن البيزنطي في القرون الوسطى انتشاراً كبيراً خصوصاً في الشرق .

تعدّدت يومئذٍ صور العذراء وتماثيل المسيح وجميعها هزيلة الهيئة كأن النوع الإنساني عليل يشكو فقراً في الدم وضعفاً في القلب . بيد أن

---

(١) قيصر روماني ملك من سنة ١٨٠ إلى سنة ١٩٢ بعد الميلاد ، وهو ابن ماركس أوريليوس اشتهر بجوره وصرامته وقد مات تسمماً وخنقاً في آن واحد .

(٢) قيصر روماني ملك من عام ٢٨٤ إلى عام ٣٠٥ وقد اضطهد المسيحيين اضطهاداً شديداً حتى دعي عصره « عصر الشهداء » . إلا أنه مل أتعاب الملك في شيخوخته فتنازل عن العرش وعاش عيشة الخلاء البسيطة .

الفن أخذ بالتحسن قليلاً قليلاً بنوع من الإنبعاث[1] كأن الصحة عادت إليه بالتدريج . فظل مستشفياً مدة قرن تقريباً . فلما انتشر نور الانبعاث في العلوم والفنون عاد الفنانون إلى استيحاء آيات المدنية القديمة ، ونسخ جمال التماثيل الإغريقية واللاتينية ، وكأن الآلهات الميثلوجية رجعت من منفاها المجهول فوجدت في إيطاليا خير موطن وأطيب مستقرّ .

●

تتغير أنواع العبقرية بتنوع حاجات العصور . ففي عصر تنمو عاطفة الكمال الأخلاقي ، وفي آخر تروج النظريات الفلسفية أو الاكتشافات العلمية . وآناً يقدر إتقان الرسم والنحت ، وآونة يؤثر قرض الشعر وتنميق الإنشاء . وقد يستأثر ويتفرّدُ يوماً فنٌّ إيقاد الحروب وتدريب الجيوش . إلى غير ذلك من ضروب المقدرة البشرية . أما في قرن الإنبعاث الذي خلف ظلام القرون الوسطى فقد تسابقت جميع القوى في ميدانٍ مترامي الأطراف لا يرى له المتأمل حدوداً . فتبادرت فيه جهود الفكر والعلم والعمل جميعاً . تجدد يومئذٍ درس القوانين والشرائع ؛ وعاد رونق المذاهب الفلسفية على تعددها ، وتوافرت الإكتشافات العلمية ، وانفتح باب النقد بعد الاصلاح اللوثري (Reformation) فكانت أوسع موجة من تلك الحركة الكبرى في عالم الفن بإيطاليا وطن الإنبعاث الأول .

ولقد كثرت حملات القوط في القرون الوسطى على جميع أنحاء أوروبا ولم تسلم إيطاليا من شرّهم بل قاست من بطشهم مُرَّ النكال . وكان القوم إذا اجتاحوا مملكة أنزلوا فيها عاداتهم وبثوا في أرجائها لغتهم وفنونهم شأن

---

(١) الأحياء أو الإنبعاث ، هو الحركة الفنية والأدبية والعلمية الكبرى التي وجدت في أوروبا في القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وكانت قائمة من وجوه كثيرة على نسخ المدنيات القديمة .

الغزاة في كل زمانٍ ومكان . فانتشرت الهندسة القوطية في أوروبا إلَّا أنها لم تدخل إيطاليا إلا بعد جهد جهيد . ولم تؤخذ هنالك على علاتها بل اقتبس منها مظاهرها ليس غير . وإذا وُجد كنيستان فيها من الطراز القوطي البحت فهما عمل مهندسين غير إيطاليين . ذلك لأن الفكر الإيطالي مدرسيّ (classique) مطبوع على تقدير آثار قدماء الإغريق وقدماء الرومان ، ويرى ذاته خليفتهم في السير في طليعة الشعوب . لذلك كانت إيطاليا في القرن الخامس عشر أوفر ثروة وعلماً وأدباً من الممالك الأوروبية الأخرى . وما اشتعلت فيها شرارة الإنبعاث حتى تيقظت الأفكار ، وكثر عدد النوابغ الذين أحيت عبقريتهم دولة العلم والفن والآداب .

عندئذٍ أصبح الجسد جميلاً تحت يد الفنّانين تتخلله الأناقة والرقة . هذا في البندقية . أما في فلورنسا فنجد تلك المدرسة الزاهرة (وزعيمها ميكلانجلو) التي تعدُّ بين أتباعها الكثيرين أسماء شهيرة كليوناردو دافينشي ، ورافائيلي ، ودوناتلُّو ، وأندريا دل سارتو ، والأخ باربولوميو ، وغيرهم من الذين أوجدوا في بابهم أجمل شكل يتحدّاه الفن الحديث . ففي تلك الأعضاء القوية من تماثيلهم ورسومهم ، وفي تلك العضلات البارزة والأجساد الكبيرة ، والصحة النضرة ، لا نرى شيئاً من التعب والكد والإنحلال البادي في الآثار الفنية السابقة . بل أن الرأس منها ، والوجه ، وجميع الأعضاء تدل عند رافائيلي على اللطف والعذوبة وطمأنينة النفس . وترسم عند ليوناردو دا فينشي سمو الأخلاق ودقة الفكر وحدّة الذكاء . وتمثل عند ميكلانجلو القدرة والعزم على أبدع منوال ، وترسم الشجاعة وقوة الإرادة وعلوّ الهمة . ولكأنك أمام تماثيل هذا الجبار تستحضر وجوه الأبطال من البشر المتقدمين يوم كانوا يهبطون من أعالي الجبال فيقضون على أعدائهم بلطمةٍ ويخنقون الأسود دعابةً في أحضانهم . فإذا كانت أثينا الوطن الأول للجمال ، وكانت شجرة الفن قد خيمت للمرة الأولى تحت سمائها الصافية ، كما قال هيبوليت تاين ، فإن أمتن دوحة من تلك الشجرة امتدت إلى فلورنسا وأورقت

فيها ، وكان ميكلانجلو أكبر وأبدع زهرة على أفنانها .

●

عاش ميكلانجلو قرناً تقريباً . وبدأ ولوعه بالرسم منذ حداثته فدخل يتعلم عند رسام يدعى جيرلنداجو . ولما أنشأ لورانزو دي مديتشي[1] مدرسة للنحت في قصره سأل جيرلنداجو أن يبعث إليه ببعض تلاميذه ، فأرسل ثلاثة ومنهم المدعو ميكلانجلو . دخل ميكلانجلو حدائق سان ماركو ، وهو الفتى المختار لإيجاد نزعةٍ جديدة في الفن الحديث ، فأخذهُ الإعجاب أزاء التماثيل الإغريقية التي جمعها هنالك آل مديتشي ، وصمم على ممارسة النحت . بدأ بنسخ أحد التماثيل القائمة في الحديقة فكان نجاحه تامّاً . فسرَّ بذلك لورانزو فدعاه إلى مائدته وعيَّن له راتباً شهرياً . ولكن لم يلبث أن قضى لورانزو . فعاد الفنان إلى منزل والده يعمل لنفسه ، وشهرته تتسع مع زيادة إتقانه لفنِّه . ثم استقدمه البابا يوليوس الثاني إلى روما لتشييد مدفَنه : إلا أنهما اختلفا بعد أن شرع ميكلانجلو يكيِّف المرمر لتماثيل المدفن . فمضى إلى فلورنسا حيث لقي من يدعوه إلى القسطنطينية ليقيم بينها وبين بيرا جسراً عظيماً . غير أنه عاد واتفق مع البابا سنة ١٥٠٥ فتابع العمل في شخوص ذلك المدفن الذي لم يتم إلا سنة ١٥٤٥ .

ولما توفي يوليوس الثاني ، عهد خلفه ليون العاشر إلى ميكلانجلو بإتمام كنيسة آل مديتشي في فلورنسا وحفر مدافنهم الشهيرة . وقد أكثر الفنَّان خلال هذه المشروعات العمومية من التماثيل والرسوم الخصوصية وكلها من فاخر الأعمال الفنية .

●

---

(١) (Médici) اسم أسرة شهيرة ملَكت في فرنسا ، ولورانزو هذا أحد أعضائها الحاكمين وقد لقِّب (Il Magnifico) لأنه كان كريماً منشطاً للفنون والآداب .

كان ميكلانجلو قوي البنية ، عصبي المزاج ، يأكل قليلاً وينام قليلاً ويعيش عيشة الفقراء على ما لديه من واسع الثروة . كان يسيء الظن في كل شيء لشدة ما لقي من آلام أوجدها له الحاسدون . أحب العزلة ، مرتع المفكرين والمتألمين ، حباً جماً ، فعلمته الهدوء والسكينة ، وأنالتهُ القوة ، ووهبته إدراك جمال الفن وقداسة العمل . ولم يستوقف نظره وقلبه طول حياته إلا امرأة واحدة أحبته حتى الموت ، وهي فيتوريا كولونّا ، مركيزة بسكاري .

لما اجتمعا للمرة الأولى في روما كانت المركيزة أرملة في الخامسة والثلاثين من سنيها وكان هو في الستين من عمره ، فتبادلا حباً طاهراً ألقى على حياة كل منهما رونقاً لا يكون مصدره إلا لذة العاطفة . وكانت تلك النفس الوحيدة التي سكب فيها قلبه الكبير . فتراسلا نثراً ونظماً لأنها كانت عالمة شاعرة مثله . وبقيت صداقتهما نامية حتى وافى فيتوريا الحِمام فكان موتها أوجع أحزانه وأكبرها . لكنه لم ينسها طول حياته وظلت حية في قصائده وفي مجموعة رسائله .

•

والآن ما ذُكر ميكلانجلو إلا ذُكرت معهُ فيتوريا كولونّا التي رسم العاشق وجهها بيدٍ يقودها الوجدُ . وتيسرت المقابلة بين ميكلانجلو وبين دانتي الشاعر العاشق بياتريتشي ، لأن الرجلين كانا مدركين لكل ما في الحياة من الفواجع ولكلّ ما في العالم من الأسرار . لكن بينا دانتي يهبط إلى نفسه أمام جور الأشياء وينسى ثقل المادة باغتساله في موجات الروح ، فإن ميكلانجلو يظلُّ معذباً بحنينه إلى جمال الصور فلم يرتو عطشه هذا طول حياته . أول الرجلين منتصر قاهر وثانيهما مجاهد متألم . ميكلانجلو شاعرٌ يقاسي أوجاع النفس الممزقة بين تنازع المبادىء وتناقض الميول . فلا نسمع في صوته رنين الظفر ، بل هو هامسٌ أبداً بغصة الكروب وثقل الهموم . وإذا لطفت لهجته كثيراً

كان مبتهلاً مستغيثاً . كأنما هو إرادة في حالة التكون ، تريد أن تكون قوية ثابتة لكنها لا تكون إلا قلقةً مجاهدة . ولا تفوز إلَّا بتراكم تردّدها وشكوكها على الإدراك البشري . وربما كان ذلك ينبوع عبقرية ميكلانجلو العظيم رجلاً وفنَّاناً جميعاً ، هو عظيم دواماً سواء حفر التماثيل ، أو نقش الأفاريز ، أو شاد قبة سان بيترو في روما ، أو نصب مدافن الباباوات والملوك ، أو توجَّع من حسد منافسيه برامانتي ورافائيلي ، أو نظم حبَّه شعراً لفيتوريا كولونّا . ليس الحب عند ميكلانجلو اغتباطاً وراحة ، بل هو انفعال وعذاب . وما الألم إلَّا تشنُّجاً ، وما النفور إلا كرهاً وبُغضاً . وهو لم يقف في شيء ، لا سيما في نبوغه ، عند حد الاعتدال . لذلك كان وسيظل على كر الدهور واحداً من كبار مصارعي القلب والفكر البشريين .

مدام ده سفينيه وعصرها[1]

مدام ده سفينيه ؟.. إذا لفظنا هذا الاسم تَمثّلت لنا المركيزةُ الحسناءُ ورأينا عقاربَ شعرها الذهبي سابحات على خدّيها ، ولمحنا إمارات الذكاء والحبّ جائلات في مياه عينيها على نحو ما أوجدتهما ريشة الرسّام وصوّرتهما مخيلتنا عند مطالعة رسائلها . ولا نلبثُ أن نرى وجهاً آخر تتناسقُ خطوطهُ قرب استدارة الوجهِ الأول . وهو وجهٌ إن لم يجد فيهِ الباحثون مثل ما في وجه مدام ده سفينيه من الملاحة والظرف ، فإنَّ فيهِ من آيات الجمال الباهر ما أهّل صاحبتهُ لأن تدعى في عصرها « أجمل فتيات فرنسا » . أعني بها الكونتس ده جرينيان[2] ابنة مدام ده سفينيه التي راسلتها أمها مدة ٢٧ سنة فكانت مراسلتهما أثراً نفيساً في تاريخ الآداب اشتهرت بهِ الأم والابنة معاً .

●

كذلك ما ذكرت مدام ده سفينيه إلا ذُكر القرن الذي عاشت فيهِ أي القرن السابع عشر ، وقد أطلق عليهِ الفرنسويون اسم ملكهم فدعوهُ « عصر لويس الرابع عشر »[3] . وحقّاً أن لهذا القرن الواقع بين القرن

---

(١) نشرت في « المقتطف » عدد تموز « يولية » سنة ١٩١٨ .

(٢) كانت الكونتس ساكنة في الريف مع زوجها الكونت ده جرينيان الذي كان حاكماً لمقاطعة بروفنسا .

(٣) وكانوا يدعون هذا الملك العظيم Le Roi-Soleil أي الملك ـ الشمس .

السادس عشر قرن الانبعاث (renaissance) والقرن الثامن عشر قرن الفلسفة ، مركزاً فريداً سواءٌ في فرنسا وفي جميع أنحاء أوروبا لأنهُ موجد الثورة الفكرية السلمية . فيه تكوّنت تلك الثورة وان لم تبشّر فاتحتهُ بنتائج عظيمة ، ولم يكن ينتظر يومئذ أن تخرج الفلسفة من هوّة الخمول التي كانت منهارة فيها . لأن الحروب الأهلية المتتابعة كانت تمزّق فرنسا ، ومنازعات الكلفنيين[1] تقلق الراحة العمومية والسلام الملائم لنمو الأفكار . كما أن التعصب الديني في إنجلترا في أيام كرمول[2] كان يقوم سدّاً أمام كل حرية فكرية . وعلى رغم ذلك فقد عقد بعض فلاسفة الانجليز اجتماعاً بسماح كرمول وتحت مراقبتهِ للبحث عن الحقائق العلمية فأذَن الملك تشارلس الثاني بانشاء مجمع العلوم البريطاني (The Royal Society) . ولمّا لم ينل المجمع من الحكومة إلا ذلك فقد ظلّ حرّاً في أبحاثهِ وأعمالهِ التي قادتهُ إلى اكتشافات شتى في النور والجاذبية وعلم الفلك . فحقّ للقرن السابع عشر أن يُدعى « عصر الإنجليز » كما دُعيَ « عصر لويس الرابع عشر » عند الفرنسيين .

إلّا أن الغيرة أخذت كولبر[3] الذي رغب في أن يكون لفرنسا مثل ذلك فاستصدر من الملك أمراً بانشاء ذلك المجمع واستحضر له كبار العلماء من إيطاليا وهولندا والدنمارك وعين لهم الرواتب الكبيرة[4] . كذلك اهتمّ

---

(١) Calvinistes وهم أتباع كلفن الذي نشر الإصلاح الديني Reformation في فرنسا وسويسرا في القرن السادس عشر ونظم في جنيفا جمهورية بروتستانية . وما زالت عقيدته منتشرة في سويسرا وهولاندا وهونغاريا واسكتلندا .

(٢) Cromwell سياسي انجليزي شهير ، وهو حامي الجمهورية الإنجليزية عام ١٦٣٥ وزعيم الثورة الذي ساق الملك تشارلس الأول إلى الإعدام .

(٣) Colbert . وزير من أعظم وزراء فرنسا ومن أشدّهم غيرة على وطنهم ومن أحكمهم تنظيماً لدوائر الحكومة . وقد اهتم بترقية الآداب والفنون غير أن منافسة لوفوا (الذي خلفه) قضت على ما كان له من الحظوة في عيني لويس الرابع عشر وأبدلت حب الجمهور له بالكره الشديد .

(٤) من أولئك العلماء رومر Roemer الذي قاس سرعة نور الشمس وهويجنس Huygens الذي =

الفرنسيون بالعلوم الطبيعية والجغرافية ودرس طبائع النبات ، والشرائع والقوانين وأصدروا «جريدة العلماء» وكانت الأولى من نوعها ومقدمة الصحافة الأوروبية . ولئن لم تزدهر الفلسفة يومئذٍ في فرنسا ازدهارها في إنجلترا وفلورنسا فقد كان لفرنسا السيادة في عالم الأدب ، وظلّت مهذِّبة أوروبا من حيث البلاغة والشعر والنقد الأخلاقي والتعاليم اللاهوتية والأناقة والظرف جميعاً .

ما شبّه ذلك العصر الفرنساوي بعصور بريكلس[1] وأغسطس[2] ولاون العاشر[3] إلّا لتقدُّم الآداب فيه ، وارتقاء الفنون ، ونبوغ طائفة من أعظم الناثرين والشعراء والفنانين . مثل كورناي وراسين وموليير في الروايات التمثيلية ، ولافونتن وبوالو في الشعر ، وبوسيه وفنيلون وفليشيه في الخطابة الدينية ، ولابروير ولاروشفوكو في النقد الأخلاقي ، وبسكال في الفلسفة ؛ وسان سيمون ورتز في التاريخ ، وبوسن ولبرون وبيرو ومانسار وجيراردن وبوجه في الفنون . وقيل أن الفضل في ذلك للملك . لأنه وإن لم يبدع عبقرية زمانهِ فقد مهّد لها السبيل وفسح المجال لنموّها بتأييدهِ الكتّاب والشعراء واستدعائهم إلى بلاطهِ ، وتعيين الرواتب السنوية لمساعدتهم ، وتأليف حاشيتهِ وموظّفي قصرهِ من أفرادٍ أذكياء متعلمين يغارون على الرقي الفكري ويعملون في سبيلهِ ما استطاعوا .

= اكتشف حلقات زحل وأحد أقماره . وكاسيني Cassini الذي اكتشف أربعة أقمار أخرى لهذا السيار .

(۱) Périclès سياسي إغريقي نشّط الفنون والآداب فأطلق اسمه على أعظم عصر عرفته بلاد الإغريق .

(۲) هو القيصر اكتافيوس أغسطس حفيد يوليس قيصر ووريثه وهو الذي حوّل الجمهورية الرومانية إلى إمبراطورية . وقد ارتقت في زمانه الآداب والشعر والخطابة ارتقاء لم تصل إليه بعده .

(۳) لاون العاشر هو يوحنا دي مديتشي بابا روما في أوائل القرن السادس عشر . وقد كان ولوعاً بالفن القديم فصار ظهيراً للفنون والآداب والعلوم .

قضت الأحوالَ السياسية بأن ينفعل الفكر الفرنسوي بالآداب الاسبانية والإيطالية زمناً طويلاً . لأن إيطاليا لبثت ميداناً لحروب فرنساوية عديدة قبل أن تبعث إلى فرنسا بملكتين من أميراتها هما كاترينا وماريا ده مديتشي . أما اسبانيا فقد استعانت بما كان لها من سطوةٍ واقتدارٍ في عهد كارلس الخامس وفيليبو الثاني لنشر لغتها وآدابها في جميع أنحاء أوروبا . لا سيما في فرنسا عدوتها القديمة[1] . لكن ما أخذت الأفكار والميول بالتحوُّل في أوائل القرن السابع عشر حتى اشتمّ أن الوقت الذي تتسم فيهِ الآداب الفرنساوية بوسمتها الخاصة ليس بالوقت البعيد .

وقد امتاز ذلك القرن بأوساط ثلاثة كانت هي الدوائر الجوهرية التي انطلقت منها الحركة الإجتماعية والفكرية وتلك الأوساط هي : قصر الملك في فرسايل ، واوتيل ده رمبوليه ، وبورت رويال .

فقصر ملك فرنسا فضلاً عن أنهُ كان يضمّ بين جدرانهِ أذكياء الموظفين والأعوان ، وينزل فيهِ الشعراءُ على الرحب والسعة ، فقد كانت تقام فيهِ سهرات راقصات وحفلات شائقات للفنّ والأدب تُمثَّل خلالها الروايات الشعرية غنائية وتاريخية نقدية ، ويدعى إلى حضورها سراة القوم ووجوههم . فيظهر في هذه الاحتفالات من العظمة والأُبهة ما يرفع الملك في عين أمتهِ ويحث ملوك أوروبا على تتبع خطاهُ . حتى صار بلاط فرسايل قدوةً تقتدي بها قصور الملوك في عواصم الغرب .

أما أوتيل ده رمبوليه فإن صاحبتها المركيزة ده رمبوليه كانت على جانب عظيم من العلم والذكاء . فصارت تستقبل زائريها ، وبينهم كبار القواد وأعاظم الأشراف ومشاهير الكتّاب والشعراء ، في غرفة عُرفت في تاريخ

---

(١) وقد زالت تلك العداوة بتصاهر العائلتين المالكتين . فقد تزوّج لويس الثالث عشر بالاميرة حنه ابنة الملك فيليب الثالث وزوّج شقيقته من وليّ عهد إسبانيا الذي ملّك بعدئذ باسم فيليب الرابع .

الأدب باسم « الغرفة الزرقاء » . فتدور هناك المباحثات في موضوعات أدبية ولغوية واجتماعية . وكلٌّ يجتهد في إتقان فن الحديث الذي لهُ مقام رفيع عند الفرنسيين وقيل أنهم يجيدونهُ أكثر من أيّ شعب آخر . وكان الزوار يقتدي بعضهم ببعض فيقلد الأشراف الكتّاب في دقة الفكر ، وسموّ المدارك ، وحصافة الرأي ، وبُعد النظر . ويقتبس الكتاب عن الاشراف ظرف الكلام والإبتسام ، والتفنن في أساليب الحديث ، والأناقة في الملبس والمعاملة ويشيرون مثلهم إشارات الكبراء . وينضم إلى الرجال بعض السيدات من شريفات متعلمات وكاتبات فيزيد وجودهن في رونق الإجتماع وتشحذ به قرائح الحاضرين . حتى أصبحت دار رمبوليه هيكل الذوق السليم الذي تتمثل بهِ كلُّ دار كبير وعظيم وتسري ازياؤهُ ونصوصهُ وعاداتهُ في كل إجتماع فخم[1] .

●

ويصح القول بأن الفضل في تأسيس الاكاديميا الفرنساوية عائد إلى أوتيل ده رمبوليه[2] لأن أعضاءها الأولين كانوا من زوار « الغرفة الزرقاء »

---

(١) لقد كان أوتيل ده رمبوليه أول الصالونات الأدبية (Salon Littéraires) الفرنساوية التي صار لها فيما بعد من الأهمية والتأثير في أحوال الأمة ما لا محل لذكره هنا . ومن أشهر تلك الصالونات في القرن الثامن عشر صالون المركيزة ده لمبرت وصالون مدام جوفرن وصالون مدام نكر (زوجة الوزير الفرنسوي الشهير ووالد مدام ده ستايل) وصالون مدام دي ديفان مراسلة فولتر الكبير . هناك كان يلتقي الساسة والعلماء والشعراء . وهناك اتحدت كلمة الانسيكلوبيديين على وضع دائرة المعارف الفرنساوية خدمة للعلم ورغبة في ترويج الآراء الفلسفية والأفكار الحديثة . ويطلق اسم الانسكلوبيديين على ديدرو ودالمبر وفولتر ومونتسكيو وروسو وأمثالهم من أحرار المفكرين في القرن الثامن عشر .

(٢) ألغيت الاجتماعات في دار رمبوليه نحو عام ١٦٤٨ لأن القلاقل الأهلية شتتت شمل الأعضاء وقد حل بالمركيزة مصائب شتى من خسارة مال وفقد ولد وحبيب فنظمت هذه الأبيات لتكتب على ضريحها :

"Ici gît Arthénice exempte des riguems
= Dont l'âpreté du Sort l'a toujours poursuivie:

حيث اعتادوا التأنق الفكري والكلامي. فصار بضعة أشخاص يجتمعون في مكتبة أحدهم المدعو كونرار صاحب المكتبة الواسعة الفاخرة، للمباحثة الأدبية وتبادل الأخبار. وإذا ألّف أحدهم كتاباً عرضهُ على رفاقهِ قبل طبعهِ فيبدون فيهِ رأيهم بحرية وصراحة. وظلوا على هذه الحال إلى أن اتصل خبرهم بريشليو [1] وهو على ما هو من الأنانية والدهاء.

فعرض عليهم أن يحوّل اجتماعهم إلى مجمع تحت رعاية الحكومة أو رعايتهِ. فأرغموا على القبول. وأخذت الاكاديميا شيئاً فشيئاً هيئتها الرسمية، وغايتها تنقيح اللغة وتطهيرها وتوسيعها. ولم تمتلىء كراسيها الأربعون إلّا بعد سنوات أربع لتعصب الهيئة في اختيار الأعضاء. وجُعل كونرار الذي نشأت الإجتماعات في مكتبته، سكرتيراً دائمياً للمجمع [2].

غير أن التأثير الأعظم كان لبورت رويال [1] الذي أدّى خدمات جليلات للآداب واللغة في عصر لم تكن فيه للغة الفرنسوية آثار تذكر.

=

Et si tu veux, passant, compter tous ses malheurs,
Tu n'auras qu'à compter les moments de sa vie".

(١) Richelieu أكبر وزراء فرنسا في عهد لويس الثالث عشر.

(٢) يكاد جميع كبار الكتّاب في ذلك العصر يعدون من أعضاء الاكاديميا إلّا خمسة وهم: ديكارت الفيلسوف وقد قضى أكثر سني حياته خارج فرنسا، وبسكال الفيلسوف، وأرنو اللاهوتي لأنهما كانا من أتباع جانسنيوس Jansenius، والأب بوردالو الذي تنازل عن هذا الشرف لأنه كاهن. وموليير لأنه كان ممثلاً. وقد وضعت الأكاديميا بعد موته صورته في قاعة جلساتها وتحتها هذا البيت:

"Rien ne manque à sa gloire, il manquait à la nôtre"

وجنسنيوس المشار إليه Jansenius هو مؤلف كتاب الأغسطينوس Augustinus وفيه يسرد آراء القديس أغسطينوس وما تعني في نظر في ما يتعلق بالنعمة والقضاء والقدر وتعريف الاختيار البشري. وقد ظهر هذا الكتاب بعد وفاة مؤلفه فنبذته الكنيسة لكن طائفة من كبار علماء فرنسا تشيعت له واعتنقت نظرياته كعقيدة دعيت الجانسنيسم Jansénisme. وكان زعماء هذه العقيدة يسكنون بورت رويال.

فأبدع أولئك العلماء والمفكرون لنفسهم أسلوباً جليّاً خالياً من التطويل والحواشي الرائجة في أوتيل ده رمبوليه ، سليماً من المبالغة والتكلف المستعملين في بلاط الملك والأندية الأدبية والإجتماعية ، فكان أسلوبهم المختصرُ البليغ آية العصر الكتابية . وما عدا الأفراد المشاهير مثل بسكال وأرنو ونيقول الذين نشروا كتاباتهم كلٌّ تحت اسمهِ ، فإن كل ما ألّفهُ زهاد بورت رويال كان غفلاً من التوقيع أو موقعاً باسم مستعار لأن ضمير المتكلم لم يكن مستحسناً عندهم فيبدلونه بكلمة « On » الفرنساوية . وما كانوا عليه من إنكار الذات والإنقطاع إلى العلم والدين والفلسفة ، كان يرغّب الناس في التقرب منهم . كما أن تشبثهم بآرائهم وإخلاصهم لعقيدتهم كان يجعلهم محترمين ويساعد في نشر مؤلفاتهم . فانضمّ إليهم نفر غير قليل من أعاظم العصر ، وأيّدهم المشاهير من رجال ونساء . فظهر أثرهم بين الأقلية الراقية في زمن أكثره لوامع سطحية وفخفخة اجتماعية .

●

في هذه الأوساط الثلاثة الكبرى كانت مدام ده سفينيه تتلقى دروس الاجتماع والآداب والفكر . فتجد في البلاط من المجد الباسق والزينة والبهاء ما يلائم ذوقها الارستقراطي . وتختلط بأمثالها الأشراف والأعيان فتفتخر إذا ما ادنتها الملكة إليها لتسألها عن ابنتها مدام دي جرينيان . ويراقصها الملك فيزيد إعجابها بهِ وتقول « حقّاً أنهُ لملك عظيم ! » . وكانت ولوعاً بهذه

---

(١) Port Royal ديْر شيد في القرن الثالث عشر للراهبات البرناردبات في وادي شفروز على مقربة من فرسايل . وقد أصبح في القرن السابع عشر تحت رئاسة انجليكا أرنو ، مكان عزلة يلجأ إليه الزهّاد من كبار الكتّاب . وقد سكنه الفيلسوف بسكال وأمثاله كلمستر ده ساسي ونيقول وأرنو الكبير ولانسلو وغيرهم وهم الذين وضعوا المؤلفات النفيسة في اللاهوت واللغة والمنطق . اعتنقوا عقيدة جانسنيوس فقامت المشاحنات بينهم وبين الآباء اليسوعيين وأقفل الدير بأمر لويس الرابع عشر عام ١٧٠٥ وهدم سنة ١٧١٠ . وكان له فرع في باريس يدعى « بورت رويال باريس » تسكنه الراهبات ويتردد عليه المتشيعون للجانسينية .

الاجتماعات تصف كلاً منها بقلمها الرشيق في رسائلها إلى ابنتها وإلى اصدقائها .

كذلك في أوتيل ده رمبوليه حيث كانت تلتقي بكثيرين من مدعوّي البلاط فتختلف الموضوعات وتتناول الأحاديث معاني الشعر والأدب واللغة . فتعرِضُ على أصحابها رسائل ابنتها وتنقل إليها رأيهم في تلك الرسائل وكلهُ ثناءٌ وإعجاب متزايد . وهناك تعلمت التأنق الذي عمّ فيما بعد حتى اقتبستْهُ نساءُ فرنسا فدعين « المتصنعات » أو « المتأنقات » Précieuses وقد بقي تاريخهن مدوناً في رواية هزلية شهيرة لموليير (Les Précieuses ridicules) .

أما صداقتها لعلماء بورت رويال فلم يعتّرها فتور أو ملل ، وقد كتبت في مدحهم والثناء على مصنفاتهم وخطبهم وأبحاثهم فقراتٍ خالدات .

قالوا أن المراسلة مسامرة كتابية . وأنه لما كان فنُّ الكلام من فنون النساء كانت كتابة الرسائل تسهل عليهنّ . وقد تجيد الواحدة منهنّ في هذا الصنف من الأدب ولو فشلت في كلّ صنف آخر ... هذا رأي الرجال في المسألة . وسواء كان رأيهم صائباً أو مبالغاً فيه ، فإن فن المراسلة شاع شيوعاً عظيماً بين نساء القرن السابع عشر . فانبرت طائفة من أشرفهن نسباً وأرفعهن مقاماً تنشر أفكارها على الجمهور في الروايات والشعر والرسائل جميعاً . ولمدام ده مانتنون زوجة الملك لويس الرابع عشر الثانية ، ولمدام ده مونتسبان وغيرهما مكاتيب شائقة . لكن مدام ده سفينيه فاقتهنّ جميعاً فصار فنّ المراسلة لديها مرناً شيقاً مهما بما كان يتضمنهُ من حوادث اجتماعية ومداعبة تلك المداعبة الفرنساوية التي كانت تظهر في أخلاق الكاتبة ظهوراً جليّاً . حتى قال فولتر أنها أكتبُ كتَّاب عصرها في إنشاء الرسائل ، خصوصاً فيما يتعلق بسرد الحوادث التافهة بذوق وأناقة .

●

قال قوم أن لا قيمة لهذه الرسائل (بصرف النظر عن جمال لغتها وحسن

سبكها) إلّا لأنها تاريخ الإجتماع الفرنساوي في النصف الثاني من القرن السابع عشر . ولكنها ليست فريدة من نوعها في هذا الموضوع . لأن هناك مذكرات الكاردينال ده رتز وتاريخ سان سيمون وهما من أوفى المؤلفات التاريخية يشهدان بما لكاتبيهما من المهارة والتفوّق . وقال آخرون أن جمال الرسائل قائم في كونها ترسم شخصية الكاتبة . ولكن رسائل شيشرون وفولتر ترسمُ شخصية كل منهما ، وتمثّل ما في تينك الشخصيتين الكبيرتين من الأهمية وبعد الغور . فلماذا نحن برسائل مدام ده سفينية أكثر منا إعجاباً برسائلهما ؟

أظن لأننا نجد في رسائل شيشرون وفولتر الشخصية التي نتوقع رؤيتها : ففي الأولى نرى المتشرع والخطيب في الأيام الأخيرة من عهد الجمهورية الرومانية بما يميز أسلوبهُ من أفكار سامية وعبارات فخمة . وفي الثانية نجد تدقيق الباحث ورغبة المفكر في الإصلاح ، والقلم الرشيق الذي يخلق من كل كلمة يخطها سهاماً نافذةً في كبدِ من اتخذهُ موضوعاً لنقدهِ ، بينا تلوح على شفتهِ تلك البسمةُ الفولترية العجيبة .

أما من مدام ده سفينيه فنتوقع رؤية المرأة العظيمة بمولدها وزواجها ونسبها جميعاً . المرأة التي عاشت في عصر هو من أكثر عصور الملكية الفرنسوية أبهة وزهواً ، وما من همٍّ لأهلهِ إلّا ثرثرة الأندية وحوادث الإجتماع ، والرتب العسكرية ، والحفلات الراقصة ، والأعياد والأزياء وما نحوها . وقد كانت « مركيزة » كلّ المركيز فلم تهمل يوماً الواجبات المنوطة بمركزها ولقبها ، ولم تتنازل مرة عما يخولانها من الحقوق والإمتيازات . لكنها كانت تعلو على ذلك في صحائف من رسائلها ما أكثر ما تذهل قارئها للمرة الأولى ؛ لأنه يجدُ أمامهُ نفساً كثيرة التناقض ، مختلفة الميول ، متضاربة الآراء ، لجوجة النشاط لا تستريح لحظة ، كأنها طائر جميل يريد أن يلمس بجناحيهِ جميع الأغصان .

في ذلك القرن الذي كان فيه الجمهور بحكم العادة لا بحكم الاقتناع متعلقاً بالسدة الملكية ، تابعاً عقيدتها الدينية ، كان لمدام ده سفينيه اهتمام بالسياسة ومشاغل دينية . وكأن مطالعتها لمؤلفات أصدقائها الجانسنيين تدفع بها أحياناً إلى أعلى ذرى الفكر والتأمل . لا أعني أنها شعرت بتلك الرعشة التي اعترت بسكال أمام فكرة الخلود والأبدية . لكنّ كل فكرةٍ عميقة تتطلع عليها تترك في نفسها السريعة الإنفعال دويّاً فتكتب إلى ابنتها : « أجدني مرتبطة بمعاهدة تكثر ارتباكي وقد ركبتُ بحر الحياة على غير رضى ولا معرفة . فكيف أخرج من هذا البحر ؟ . من أي جهة أو من أي منفذ ؟ . وماذا كتب في صحيفتي أمام عيني الله » ؟ .

قالوا إن مدام ده سفينيه « مخبرٌ » بارع يلتقط الأخبار من جميع الدوائر ويدوّنها بأمانة مع جمالٍ في الأسلوب وأناقة في الألفاظ ليبعث بحوادث المدينة والبلاط إلى أصدقائهِ الريفيين . وكل ذلك صحيح . غير أني أرى قلب مدام ده سفينيه منهل تفوّقها . الكاتب الأول هو الكاتب المحب ، والكاتب « المخبر » يأتي بعدهُ . الكاتب الأول هو الذي يكتب مدفوعاً بعواطفهِ ليعبر عن عالم وجدٍ وحنين ولأن نفسهُ تلتهب شوقاً .

يقال إن لكل امرىءٍ حبّاً كبيراً في حياتهِ مهما تعدّدت ميولهُ وتواترت شواغلهُ وكثر أصدقاؤهُ . ومدام ده سفينيه التي كانت ودود الفطرة ، محبة القلب لم تجد سبيلاً لإظهار عواطفها في طفولتها لأنها كانت يتيمة الوالدين . فظلت قواها الحية مدفونة في فؤادها لحين اقترانها بالمركيز ده سفينيه الذي لم يكن أهلاً لتعلقها بهِ لما كان عليه مِن الطيش والغرور . أخلصت لهُ حيّاً وميتاً ، وقد دُفِنَت قرب حب الابنة لوالديها حب الزوجة لزوجها ، لتسكب الحبَّين في حب الوالدة لولديها . وترعرع ابنها شبيهاً بابيهِ فصوبت كل عواطفها نحو ابنتها الكونتس ده جرينيان التي كانت دواماً موضوع ولعها الأكبر .

لقد اهتمَّ المؤرخون بدرس خلُق الكونتس ده جرينيان فقال بعضهم بجمود عواطفها وصلفها ، وأثبت آخرون عكس ذلك . ويقول سواهم إنها لم تسعد زوجها الذي لم يختلف كثيراً عن أبيها وأخيها وإن كان يكبرها بأكثر من عشرين سنة . فعكفت على الدرس هرباً من اليأس والملل ، وشغفت بفلسفة ديكارت فزاد ذلك ما كان قد وضعهُ الألم في نفسها من الميل إلى اعتزال الناس والمبالغة في كتم العواطف . وكانت أمها على نقيض ذلك لأنها من الذين لا يذوقون عذوبةَ العاطفة إلَّا بالمجاهرة بها ليشهد الجميع بصحتها وقوتها . فكلما اجتمعتا سواءٌ في باريس أو في قصر جرينيان ، كان هذاالاختلاف يوجد بينهما ألماً وكدراً فتوجع كل منهما الأخرى على غير قصد . حتى إذا افترقتا أنساهما البعد استياءهما وعادت مراسلتهما ذاهبة آئبة بين باريز وجرينيان . وما ذلك إلَّا من حظ التاريخ الأدبي وحظ القراء جميعاً .

ولم يبقَ من الكونتس دي جرينيان سوى أربع رسائل يستشف منها علوّ الفكر وسمو النفس . وسواءٌ كانت جامدة العواطف أو شديدة الإحساس فإن أمها أحبتها حبّاً جمّاً لم تحاسب فيهِ على شيء ، كمن تنازل عن غبطة من يرى عند حبيبهِ مثل ما عندهُ .

سكبت على ذلك الوجه الجميل حبها وأمانيها وكتبت لتفضي إلى ابنتها بذلك الحب فجعلت عواطفها خالدة . فلم تكن مدام ده سفينيه امرأة متفوقة في فكرها بل في شعورها . وذلك على قول البعض أعظم نبوغ وأفضل عبقرية .

المواكب[1]

اقترحت عليَّ مجلة « الهلال » كتابة فصلٍ عن « المواكب » وإني لأجدُ مشقةً في تلبيةِ كلِّ اقتراح لأنه يذكِّرني نوعاً بالفروض المدرسية التي يقيِّد التلاميذ بموضوعاتها المعيَّنة ، وإن لم يكونوا بالأفكار وباسلوب ايرادها ، مقيَّدين . ومؤلف « المواكب » من الكتَّاب الذين أُفضِّل على البحثِ في مواهبهم الوقوفَ على رأي الغير فيهم ، مؤثرةً على هذا وذاك تصفُّح ما تَخطّهُ أقلامهم . ثم أن « المواكب » مراحل نفسية استقرت صورُها في منظوم ومرسوم : فتقدير المنظوم يقتضي حكم الشعراء واللغويين ، وإيفاء المرسوم حقه لا يُطلب إلا من جدارةِ المصورين . فأيَّ المواقف أقفُ إزاء هؤلاء وأولئك ؟ إن منتهى ما في مقدوري لا يتعدّى الإغتباط بالنظر إلى المعاني وإلى كيفية التصرّف بها ، كأحد غواة الفن Amateur . على أن هذا النظر البسيط لا يتفق مع نظر الآخرين إلّا إلى حدٍّ يصبحُ عندهُ مخالفاً لرأي كل من عرفوا جبران خليل جبران مفكراً . وكأني بهؤلاء قد أقاموا عنهم نائباً ينطق بلسانهم في شخص نسيب أفندي عريضة الذي وضع « للمواكب » مقدمةً دلَّت على ما عندهُ من فكرٍ دقيق وفؤادٍ طروب .

فنسيب أفندي يخبرنا بأن مؤلف « المواكب » كان متمرِّداً في كل حياته الكتابية ؛ « يعرف ذلك من طالع كتبهُ وأهمها « الأرواح المتمرّدة » و « الأجنحة

---

(١) نشرت في « الهلال » تموز « يوليه » ١٩١٩ .

المتكسرة » فهو يقفُ وأبطاله وبطلاته متمردين لا على عدوٍّ ظاهر حقير بل على الحياة نفسها » . لم أفهم جيداً ماذا يقصد بالتمرُّد « على الحياة نفسها » . وأي حياةٍ هي « نفس الحياة » في نظر صاحب المقدمة ؟ أحياةُ المدنيةِ التي يعبدها جبران أفندي وإن أزعجهُ ما فيها من سخافة وهو لا يشبعها هجواً وتقريعاً إلا لأنه يعبدها . أم حياة الطبيعة التي يؤلِّهها هذا اللبناني الذي جعل وادي قاديشا في نفسه إندفاع مياههِ وجلال الغابة التاريخية القائمة في جوارهِ ؟

سلَّمتُ بتمرّد « الأرواح المتمرِّدة » ، ولكن أليس جوهر « الأجنحة المتكسرة » امتثالاً ؟ هناك يمتثل صديق سلمى بلا شكوى . ويمتثل أبوها بلا شبه شكوى وتمتثل هي بشكوى لا غنى عنها لإيجاد العامل المفجع في الرواية . أقول « الرواية » وأعني القصيدة ، لأن « الأجنحة المتكسرة » قصيدة منثورة . أمتمردٌ بطل الرواية الذي تُنتزع منهُ سلمى فلا يعترض ولا يحتج ، ثم يكتب ببساطة : « وهكذا قبض **القدر** على سلمى وقادها عبدةً ذليلةً في مواكب النساء الشرقيات التاعسات » ؟ وبعد عقد الخطبة الذي لا يحضرهُ القارىء ولكنهُ يشعر بأنهُ قد تمَّ ، يقول البطل : « في نهاية الأسبوع ، **وقد سكرت نفسي بخمرة عواطفي** سرت مساء إلى منزل سلمى » ! أمتمردٌ هذا الذي تكاد لا تقرأ له فصلاً إلا وتعثر على ذكر القضاء والقدر فتجد لهما في نظرهِ يداً لا تغالب وحكماً لا مردّ له ؟ أمتمردٌ هذا القائل بالتناسخ أي بالنشوء التدريجي والتطور المحتم خلال أعمار متتابعات ؟ نعم إنه يعتنق نظرية التناسخ ليس باقتناع الفيلسوف المتمذهب بل بعاطفة روائية تبسط لهُ مسرح الإنفعالات والأهواء إلى أقاصي الدهور والأجيال ، بدلاً من أن تقتصر على عمر واحد وأعوام بشرية محدودة . وقد أجال فكره وقلمه في هذا المضمار حينما كتب « رماد الأجيال والنار الخالدة »[١] ، و« الشاعر البعلبكي »[٢] وغير ذلك . والقول بالتناسخ ولو على هذه الكيفية

(١) من كتاب « عرائس المروج » .

(٢) كتبت لحفلة التكريم التي أقامتها « مجلة سركيس » لخليل بك مطران عام ١٩١٣ .

الروائية ينفي التمرد لأنه مُضمرٌ فيه التسليم بتقيّد المعلول بعلتهِ وبرجوع كل حدثٍ إلى سببٍ قديم غائرٍ في الأعمار السحيقة . ألا إنما ذلك الخضوع القصيّ .

•

كلمة « خضوع » سيضحك منها غير واحد . ولكن هل رأيت رمز الحرية (أو رمز الرجل الذي يظن نفسه حرّاً) في « المواكب » باسطاً جناحيه ، وقد مدَّ ذراعيهِ فرحاً متثبتاً من حريتهِ ، بينا تظلّ قدماهُ مغلولتين بقيد فردٍ تعدَّدت منهُ العُقَد ، وانطلقت النزعاتُ والميول تشدّ بريش جناحيهِ إلى الأرض ؟ أرأيت الروح الجزئية مسارعةً عند الموت إلى حضن الروح الكلية الشاملة ، فتستقبلها هذه بهدوء النظام الذي لا يتغير ولا يتحوَّل ؟ ألم تقرأ آخر جملة من كتاب « المجنون » وهي هذه : « لماذا أنا هنا »[1] ؟ . ألم تقف على الأبيات الخاتمة « المواكب » :

العيش في الغاب والأيـــام لو نظمـــت
في قبضـــتي لغـــدت في الغـــابِ تنتثرُ
لكن هو الدهـــر في نفـــسي لهُ أربٌ
فكلما رمـــت غابـــاً قام يعتـــذر
وللتقادير سبـــل لا تغـــيرها
والناس في عجـــزهم عن قصدهـــم قصروا

أتذكر السطور الأخيرة من « العاصفة »[2] بعد حديثه مع يوسف الفخري :

---

(١) "Why am I here, O God of lost Souls
Thou who art lost amongst the Gods?"

(٢) في كتاب « العواصف » .

« نعم إن اليقظة الروحية أخلق شيء بالإنسان بل هي الغرض من الوجود (؟) ولكن أليست المدنية بما فيها من التلبس والأشكال من دواعي اليقظة الروحية ؟ وكيف يا ترى نستطيع إنكار أمرٍ موجود ونفس وجوده دليل على إثبات صلاحيته ؟ قد تكون المدنية عرضاً زائلاً . ولكن الناموس الأبدي قد جعل الأعراض سلَّماً **تنتهي درجاته بالجوهر المطلق** » .

حسنٌ جداً .

إذاً نحن أمام رجل متمرد على أنظمة البشر . ومن جهة أُخرى تراه يدافع عنها مفسراً ما فيها من لبس وأشكال ، مقرراً أنها أعراض ضرورية للسير نحو الجوهر المطلق . وهو واثق بذلك إلى حدٍّ الإرتياب في زوال هذه المدنية . فيقول قد « تكون المدنية الحاضرة عرضاً زائلاً » .

إنها عرضٌ زائل بلا « قد » وبلا ريب لأنّ كل مُقبلٍ يسير إلى الإدبار ، وكل صرح يُدركهُ الخراب ليشاد غيرهُ على أنقاضهِ ، وكل مدنية تنهارُ وتتلاشى لتقوم مقامها مدنيةٌ جديدة . « قد » ، « لو » ، « هل » ، « لكن » ، « لماذا » ، أهذه هي الكلمات التي ينصبُّ فيها غيظ المتمرّدين ؟

إني أراها ، على كل حال ، متفقةً تمام الإتفاق مع قول بطل « الأجنحة المتكسرة » عند ذكر الفراق الأخير (أخير في الرواية) .

« وكم مرةٍ فكرت منذ تلك الليلة إلى هذه الساعة بالنواميس النفسية التي جعلت سلمى تختار الموت بدلاً من الحياة .وكم مرة وضعت نبالة التضحية بجانب سعادة المتمردين لأرى أيهما أجلّ وأجمل » .

لنقفنَّ هنيهةً عند « سعادة المتمردين » فهي نقطة جوهرية . هو متمرد التمرُّدَ اللازم للشعور بتلك « السعادة » المفاجئة الفائضة على النفس إحساساً جديداً ، وتأثيراً لم تختبره من ذي قبل ، وهزةً عجيبة تنبسطُ لها جوانب الكيان . هو أليف الحماسة مهبط الوحي ، التي تطلبُ أبداً تحريضاً حديثاً

يمكّنها من إبداع أساليب مجهولة . وكما تتجاوبُ الأصوات والأنغام ، وتأتلف الألوان والعطور في هيكل الطبيعة كذلك هي في هيكل الإنسان . ولكنها لا تفطنُ لها إلا الأعصاب التي دوزنها التوتُّر والتيقُّظ ، أعصابُ الشعراء والفنانين ، لا سيما إذا كانوا من الرمزيين . وجبران أفندي مع ما يرمي إليه دواماً من إصلاح محسوس ، ومع ما يبقى عليه من الحصافة والرزانة حتى في أوسع شوارده الشعرية ، كثيراً ما تراهُ في حالة الإنجذاب لا يدري أهو يستنشق الألحان ، أو يسمع الألوان ، أو يرقد على حزمة من متجمعات الأشعة ، فينشد :

هــل تحممــتَ بعطــر وتنشفــت بنــور
وشربت الفجــر خمــراً في كــؤوس من أثــير ؟

فكيف لا يبحث مثل هذا المزاج عن خبرات غير مألوفة ؟ وأي شيء أطرب للفنان من الضرب على اليد القوية التي سنَّت قوانينَ الإجتماع واصطلاحاته ، لا سيما إذا قاومت إحدى رغباته ، أو قاسى بسببها العذاب يوماً . هل تألّم مؤلف « المواكب » من تلك القيود ؟ إنه تألم من بعضها ، بلا شك ، بفكره وبقلبه وبكبريائه . تألم شديداً حتى بلغ الدرجة الإبتدائية من سلم الحكمة حيث يتعلم المرء الجرأة والخروج على ما يعذّبهُ . ولكن هذه القيود ضرورية له ميداناً تبرز فيه قوّتهُ ويمرّن عليها مجهوداته . فهو لا يُبدلها بألف حريةٍ معاً . انه في حاجة إلى ما تقدمه إليه من ضغط ومقاومة يصيبان منه خفايا النفس فينبثق في جوانبها ينبوع الوحي والإلهام .

●

إن الاثنينية التي نجدها اليوم في « المواكب » كأنما شخصان إثنان يتحدثان متعارضين ـ شيخ وفتى ، يقول نسيب أفندي عريضه ـ قد جاء جبران أفندي بمثلها في « العاصفة » ، وما هي إلّا تعدد الوجدانات في جميع البشر . فإن الشخص الواحد يتكلم بلهجات متباينات في أحوال متشابهة . ومن ذا

الذي لم يمتحن هذا الأمر في نفسه ؟ فالشخصية التي اكتسبها مُسيّر « المواكب » من الاجتماع ، تلك الشخصية التي تقيدها الشواغل والأطماع بقيود لا تريد التخلص منها لاهتمامها بما يترتّب عليها من النتائج ، تراقب نفسها وتنظر إلى أحوال العالم محاسبة منتقدة . فإذا ما أرادت تدوين ما تعلم وما هي مختبرة ، استعارت من « المواكب » الرائيّة الواسعة البحر التي يتفق قرارها البعيد مع صوت الإختبار الجديّ . على أن لهجة هذا الوجدان تناقض نفسها أحياناً ، فآناً تنتقد وآونةً تقرر ما يحسن عندها . ألا يخيل إليك أن يوسف الفخري يتكلم في هذه الأبيات الدالة على حب الحياة السامية حياة العزلة والأنفراد ، حياة كل شاعر وكل مفكر صميم :

فإن رأيتَ أخــا الأحــلام منفــرداً
عن قومه وهو منبـــوذ ومحتقــرُ
فهو النبــيُّ وبــرد الغــد يحجبــه
عن أمــةٍ برداء الأمس تأتـــزر
وهو الغريب عن الدنيا وساكنهــا
وهو المجاهر لام الناس أم عذروا
وهو الشديد وإن أبـــدى ملاينـــةً
وهو البعيد تدانـــى الناس أم هجــروا

وعندما يغوص في تلك الحياة العميقة المكتظة بتطواف سوانحه وخيالات إبداعه ، فيشعر كم هو عبد لها ، إذ ذاك يهتف :

والحُــرُّ في الأرض يبني من منازعــهِ
سجناً لهُ فهو لا يدري فيؤتـــسرُ
وهو الطليق ولكـــن في تسرُّعــهِ
حتى إلى أوج مجــدٍ خالد صغــرُ

الحمد لله الذي أنعم على أهل المجد والشهرة بعقلٍ يدرك بطلان المجد والشهرة! ما هو المجد، ان لم يكن تلك اللحظة التي تُصرَف في إتقان العمل وهو آلة الخلود؟ يخيَّل أن جبران أفندي يدرك ذلك، وأن إتقان العمل يخلق فيه نشوة تدفعه إلى الكلام كالمعرّي ساعة يقول:

فالناس إن شربوا ســـــروا كأنهـــم
رهن الهوى وعلى التخدير قد فطـــروا
فـــذا يعربـــد إن صـــلى، وذاك إذا
أثرى، وذلك بالأحـــــلام يختمـــر
فالأرض خمارة والدهر صاحبهـــــا
وليس يرضى بها غير الأُولى سكـــــروا

نشوة الأحلام، نشوة الوحي، إن هذا الفنان ليستخدم كل شيء للحصول عليها. يستخدم حتى أشرف العواطف وأرفعها حيث يقول:

والحب في الروح لا في الجســـم نعرفـــه
كالخمر للوحـــي لا للسكـــر ينعصـــرُ

وما نشوة الوحي، ونشوة العاطفة، ومجد الفكر والعمل المتقن إلّا سبل مؤدية إلى تلك الكعبة التي ما برحت الإنسانية سائرة نحوها منذ فجر الوجود، والتي يحنُّ إليها الشاعر ويُحسن التعبير عنها أكثر من غيره، ألا وهي السعادة. هو يحدّق في موكب السعادة حيناً فتعود إليه ذكرى كل ما حسبه سعادة في الماضي، فيقلب شفته لما أبقت له من مرارة ومللٍ ويرسل هذه الحكمة الرائعة:

وما السعادة في الدنيـــا سوى شبـــح
يرجى فإن صار جسماً ملـــهُ البشـــر

لم يسعد الناس إلا في تشوقهم
إلى المنبع ، فإن صاروا به فتروا

ولكن فتى الغاب « واقف بالمرصاد » وما ألطف استعماله موسيقى الموشح الخفيف لمعارضة وجدان الخبرة وسوء الظن . وكثيراً ما يجيء كلامه ضحكاً من الاستهزاء وتهكماً على التهكم فيجيب :

إنما العيش رجاءٌ احدى هاتيك العلل

●

في « المواكب » كما في « المجنون » أكاد اتبيّن تأثير نيتشه ، وإن كانت بسمة التهكم الفني الدقيق التي نراها عند جبران أفندي لن تشبه أبداً ضحكة نيتشه ذات الجلبة الضخمة المزعجة . إن الشاعر السوري فنّان في كل شيء ونظرة واحدة إلى كتاب « المواكب » تكفي لتعرف ما عنده من ذوقٍ بسيط أنيق . ولا تقيم المرارة لديه طويلاً لأنه يعود إلى ذكر الطبيعة وحبها ، وينشد مطرباً حزنه ولهفه بأغنية عذبة :

ليس حزن النفس إلّا ظلّ وهمٍ لا يدومْ
وغيوم النفس تبدو من ثناياها النجوم

وقد يرتفع أحياناً إلى أعلى ذُرى التأمل ، فنحسب الإمام الغزالي متكلماً :

وغاية الروح طي الروح قد خفيت
فلا المظاهر تبديها ولا الصور

فما طوتْ شمألٌ أذيال عاقلة
إلّا ومرّ بها الشرقي فتنتشرُ

فيجيبهُ فتى الغاب بما يدلّ على وحدةِ الوجود :

لم أجد في الغاب فرقاً بين نفسٍ وجسدْ

فالهـــوا مـــاء تهـــادى   والنـــدى مـــاء ركـــد
والشـــذا زهـــر تمـــادى   والـــثرى زهـــر جمـــد
وظـــلال الحـــور حـــورٌ   ظـــن ليـــلاً فرقـــد
أعطـــني النـــاي وغـــنِّ   فالغنـــا جســـم وروحْ
وأنـــين النـــاي أبقـــى   من غبـــوق وصبـــوح

ولا يفتأ المرء يسائل نفسهُ ما هذا الناي الذي يبقى بعد فناء كل شيء وأنينه « سرالخلود » ؟ أهو أداة الفن ريشة كانت أو قلماً أو وتراً ؟ أهو الجاذبية سرُّ تعارف الأكوان ؟ أهو نظام الإستمرار الدائم مع ما يتخللهُ من تحوُّل وانشعاب ؟ أم هو الحياة كل الحياة ؟ لست أعلم ما إذا كان ذلك واضحاً في ضمير الشاعر وهل هو يعني بالناي شيئاً معيناً ؟ ولكن ان غمض علينا هذا المعنى فإن كل معنى في صورهِ ألاخَّاذة جليّ ، وكلا منا حكايةُ خاطرة وقصيدةٌ رمزية رسمت بريشة استاذ ماهر جمع بين بداهة الشرق وصناعة الغرب . وإزاء رسم الثالوث الهندي كما ازاء صورة « العزم » التي رُسمت بيد جريئة ، لست أدري لماذا ينتابني ذكر بعض اللوحات الخالدة في تاريخ الفن . فأتهيّب شاعرة بأن جبران الكاتب ليس إلّا نصف جبران فقط . إنني في كل القليل الذي رأيته من رسومه كما في بعض الكثير الذي قرأته من كتاباته ، أستشف من وراء الظواهر طبيعةً شغوفاً بالاستسلام . إن جبران خليل جبران المتمرّد من أخلص اتباع القدرية والجبرية . وهو ينزع إليهما بقوة أشد من الفكر والإرادة ، أعني قوة البداهة الشرقية والوراثة الشرقية .

●

فلهذه الأسباب .

وحيث أن جميع القراء يعترضون على هذا البيان .

وحيث أنهم يقولون إن ما بسطتهُ ليس إلا صنفاً من صنوف المنطق

النسائي المفعم بالاغاليط والمناقضات .

وحيث أن كل ما عندي من هذا النوع .

فقد حكمت عليَّ محكمة النقض والإبرام (من دولة الآداب) بالإعتذار إلى « الهلال » عن كتابة بحث في « المواكب » .

وقد اعتذرت .

ولكني أود أن أضيف مغالطة أخرى ، وهي هذه : أعتقد أن ذاتية الكاتب لم تدرك بعد استعدادها الأقصى ولم تقف إلى الآن على ذروة اقتدارها . سواء في التصوير والكتابة ما زال جبران أفندي خليل جبران متسلقاً كتف الجبل الذي قيدته الأقدار بالتصعد عليه . وسيتابع الصعود « متمرداً » ، ما دام كلفاً بهذا النعت ، وراء ستار الهجو والتهكم بالرموز والأمثال ، ولكنه سيصل يوماً إلى القمة فنسمع منه عندئذ أجمل أنغامه ، ونلمح اسمى هيئة من نفسه السنية التي تسطع في أرجائها الأضواء وترعى في جوانبها الاظلال .

قلت « الاظلال » وأعني تلك الاظلال التي « تبدو من ثناياها النجوم » كما يبدو معنى الامتثال والاستسلام من خلال ضجيج التمرد والعصيان .

شيءٌ عن وليّ الدين يكن[1]

استوقفني في ردودٍ على استفتاء ، قول فتاة أنها تودّ أن تموت غرقاً . وقد سبق أني سمعت هذا التمني ممَّن لم يكن فتاةً بل كان شاعراً . ولا يندر أن يكون الشاعر فتاةً في بعض تخيلاته اللطيفة . وأعني وليَّ الدين بك يكن .

إن حياة وليَّ الدين بك تعدَّدت فيها الفواجع البكماء .

هذا الرجل الذي يُعَدُّ من أعظم البيوتات الإسلامية في المشرقين ، ومن أعظم أسرةٍ مصرية على الإطلاق ، قد جلب على نفسهِ سخط ذويهِ بزواجه من سيدة يونانيَّة مسيحيَّة . ولأجل شغفه بالحرية تعرَّض لصواعق عبد الحميد فخسر منصبه العالي في الحكومة التركية . وذاق ، وهو النفس الكبيرة الأبيَّة ، الفقر والسجن والنفي والبعد عن الأهل والوطن . ثم عاد إلى مصر وتكاثرت عليه المصائب في السنوات الأخيرة فمات ثاني أنجاله ، ولهُ من العمر ١٦ سنة ، فجأة بلمس سلك كهربائي . ثم توفيت والدته . وآلمه أكثر من ذلك فقد شقيقته التي كان يحبها حباً شديداً ، وهي قرينة أحد أعضاء الأسرة اليكنية . وها هو اليوم في حلوان يُستشفى من مرض المَّ به وقد قاطع جميع معارفه وأصدقائه . فنسمع زفراته هنا في نتاج قلمه كما يسمعونها في سوريا وفي البلدان الأخرى .

ورغم ما نزل به من الرزايا كان مجلسه ظرف وأدب وتكاد النكتة

---

(١) نشرت في مجلة الفجر (بيروت) عدد تشرين أول « اكتوبر » سنة ١٩٢٠ .

تبرز في كل جملة يقولها. وللأشياء عنده مقارنات غريبة. رأى يوماً خط المرحوم شميِّل (وكانت رداءة خط الدكتور مشهورة فوضع وليّ الدين بك أصبعه على أحد الحروف قائلاً: «تعجبني هذه الألف لأنها تشبه النبُّوت». أما كرهه لكلمة «أيضاً» فلا حدَّ له، وهو يهجوها بألفاظ ونعوت تضحك الحاضرين حتى تستدر دموعهم وتجعلهم يتجنبون لفظها ما استطاعوا. فقد يتفق أني أكتب، مثلاً، كلمتين أو ثلاث كلمات أو جملة بتمامها لأتخلص من وجود «أيضاً». وإذا اضطررت وكتبتها مرَّة، أو قرأتها أو سمعتها يوماً، عاودني بعض ما أضحكني في هجوها فأسفت لأني دونتها مسوقة.

سألتُ مرة وليَّ الدين بك متى يجاوب الكاتب الذي يناقشه في إحدى الصحف. فأجاب بمنتهى الجدّ «وكيف يمكنني أن أناقش رجلاً يدمج في مقالة واحدة عشرين «أيضاً ولا يموت»؟ إذا جاوبته أقول له «ما لي ولك، يا أيضاً»؟

وكان يوماً في حفلة حافلة بالوزراء والكبراء. وبعد انقضاء ساعة تقريباً قمز بغتة وخرج من القاعة مسرعاً. ثم عاد بعد انتهاء الحفلة معتذراً من الذين كانوا بجواره وذهلوا لحركته الفجائية. اعتذر بأنه لم يكن عالماً أن فلاناً موجود وأنه لا يحتمل أن يكون وإياه في غرفة واحدة. فقيل له «أنت تكره فلاناً، ولكنه لو هو أحبك وطلب صداقتك فماذا تفعل»؟ فأجاب لفورهِ «أنتحر!». والغريب أنه لم يكن من علاقة بينه وبين الشخص المكروه ولم يكلمه مرة في حياته على ما يقال. وليس في خلق ولي الدين بك شيء من التكلف. فهو صادق في ميله صادق في نفوره، سواءٌ أكان فيهما على هدىً أو على ضلال.

وللألحان والألوان تأثير شديد في نفسه. قال لسماع فتاة تغني بصوت خافت «هذه نسمات البوسفور» أما تلك القطعة الموسيقية المرقصة المعروفة

باسم « كارمن سيلفا » فلا يرى البيانو مفتوحاً إلا ويسارع طالباً أن تُعزف لهُ ، وفي إحدى زياراته لنا رأيت نظره جامداً بعيد وصوله ، وإذ سألته ما به قال « هذه » مشيراً إلى زهرةٍ ليلكية في ثوبي : « يحزنني هذا اللون الليلكي » . فحاولت نزع الزهرة فقال : « لا تفعلي ، أرجوكِ ! يحزنني أن أراها ويحزنني أكثر من ذلك أن تنزع » وأنشدنا ذلك المساء أبياتاً من شعره الحزين .

وكما أن كرهه ونفوره شديدان فكذلك حبه وإعجابه . هو معجب بالرسم الذي تعلم مبادئه في المنفى فلا يندر أن يكتب أبياتاً يرسم فيها ذوات المعاني . مثل غرَّد الطير فهو ، يكتب « غرَّد » كتابةً ويرسم الطير رسماً . وهكذا . وله ولع بخليل مطران وبشعره . فقد رأيناه مرة يضطرب وتتغير ملامحه لمجرد سماع أبيات من قصيدة « الأسد الباكي » :

أنا الأسدُ الباكي ، أنا جبلُ الأسى ،
أنا الرمس يمشي دامياً فوق أرماسِ

فيا منتهى حبي إلى منتهى المنى
ونعمة فكري فوق شقوة إحساسي

دعوتكَ استشفي إليك ، فوافني
على غير علم منك إنك لي آسي

فهتف ولي الدين بك « كفى ! » ثم تابع بعد سكوت قصير « آه خليل ، خليل ! لو سئلت كيف ينظم موكب دفني لتمنيت أن يرثيني خليل مطران بأبيات ينشدها عزيز نصر على مقربة من نعشي السائر . أريد أن أشيَّع إلى قبري على هذه الصورة في موكبٍ ينظمهُ سليم سركيس » .

كتبتُ كل هذا عن ولي الدين بك لأني أعلم أنه كاتب محبوب في سوريا وأن أخباره تهم القراء الذين لا يستطيعون الوقوف على مثل هذه المعلومات من الصحف السيارة . ان الأدب العذب المتسم به هذا الرجل

شأن من تربى تربية عالية ممتازة ، لا يحول دون شذوذ خاص به . هو نفس كثيرة الأهواء ، منهوكة القوى ، متمرّدة وثابتة ، حساسة رقيقة حتى لتخال رقَّتها وإحساسها سقاماً أحياناً . وإذا جاء وقت الوثب كان متهوراً في شجاعته ، غير مبالٍ ولا هيَّاب . فلا عجب إذا جذبه البحر ونبَّه فيه أشواقاً غير مألوفة ، ولا عجب أن تسمع منه هذه الجملة :

« أود أن أموت غرقاً بدلاً من أن أموت في سريري بين جدران ضيقة ، بعد عذاب أيام وحشرجة ساعات . أريد أن أموت غرقاً في البحر على غير استعداد ، لأن في مثل هذه الميتة الشعرية عظمة وشذوذاً » .

لوتي الراحل الباقي (١)

هل تحسن ترجمة كتبه؟

أردتُ أن أحتفي بذكره احتفاء خاصاً ، أنا التي طالما عشتُ في الصفحات الجميلة من كتبه وطالما استسلمتُ لسحر بيانهِ . فما اهتديتُ إلى خير من أن أحملَ كتابهُ عن مصر « موت أنس الوجود » فأقرأهُ في مكان خصه في هذا الكتاب بفصل فتان . فمضيتُ إلى دار الآثار المصرية وجلست طويلاً على مقربة من قاعة الموميات . وطالعتُ فصولهُ بهدوء وتأمُّل ، من النبذة الأولى وموضوعها أبو الهول والأهرام تلك الرموز العظمى التي راعهُ لونها الوردي في ضوء القمر ، « التي بطلت عبادتها منذ مئات وألوف الأعوام وما زال الناس من جميع الأجناس وجميع الأزمان يقصدون إليها ويطوفون حواليها مجذوبين بما فيها من ضخامة وأسرار » . حتى أتيتُ على الفصل الأخير عن أسوان وهيكل أنس الوجود . فقرأت بعدئذ كلامهُ عن قاعة الموميات في دار الآثار ، وهو الفصل الرابع من الكتاب ، وكنت ادخرته خاتمةً لجلستي هذه مع لوتي الراحل الباقي .

ليس أتفه ، على ما يرى لوتي ، من زيارة في النهار لهذا المتحف المصري الذي ينعي عليه هندسته البنائية ، فضلاً عن عرض أولئك الموتى الأجلاء لجميع الأنظار بهيئة غير جليلة . لذلك أراد أن يزوره في الليل وحده ،

(١) نشرت في « المحروسة » عدد الثلاثاء ٢٦ حزيران « يونيه » ١٩٢٣ .

بل برفقة مدير المتحف في ذلك الحين . وأن يتجول في هذا المدفن الوسيع يرى ما يرى منه على نور المصباح الضئيل . فتخيفه مرةً نظرات العيون المحدجة كأن التماثيل تنفث في روعهِ وحي خاطرةٍ آتية من أعماق الأحقاب . وطوراً ترعبه الجفون المسبلة كأنها تأبى رؤيته ، وتنكر عليه اقتحام ناديها تنطلق الأشباح من الشخوص والذخائر لتتبادل فيما بينها ما جنته في سكينة النهار من خلاصة الذات البشرية الكبرى ...

وكأني بلوتي في هواه وطلبه المومياءات عند انتصاف الليل يقرب كثيراً من بلقيس التي ردت على سليمان إذ قال لها « مُلكي عند قدميك . بماذا أستطيع أن أرضيك ؟ » ردَّت بقولها : « أريد أن أخاف ! كيف أتعرف إلى لذة الخوف ؟ » .

ذهب لوتي يطلب هناك لذة الخوف ، ولذة التفرد بما لا يناله سواه ، ورعشة فنية يستعين بذكرها فيما بعد لتسلية ضجره الطويل الذي طاف به جميع الأقاليم وجميع البحار فلم يزدد إلا ظهوراً وثباتاً وتمدُّداً .

●

كتب لوتي هذا الكتاب سنة ١٩٠٧ وأهداه إلى مصطفى كامل الذي كان مثله « إبناً معنوياً » لمدام جوليت آدم . أَخَوان بالروح ابنان لأمٍ واحدة ، ولكنهما ككثير من الأخوة مختلفان كل الإختلاف من حيث نظرتهما إلى الحياة . كان لمصطفى كامل غاية معينة يجري وراءها ، ويسعى لها ، ويبذل في سبيلها شبابه وقوته وذكاءه دون مراعاه لبنيتهِ الضعيفة . فهدمتهُ الحياة القوية . على أنه ترك وراءه شرارة الوطنية وحب الراية الحمراء البهجة الخافقة في جوٍّ الوادي الأخضر .

أما لوتي فقضى حياته الطويلة وغرضه الصميم ، هو يقول ذلك في كل كتاباته ، معالجة سآمته الدائمه . لا شك أن تلك السآمة كانت فطريةً في غريزته . ولا شك كذلك أنه كان يغالي فيها ويفرط في مجاراة « الزي

الرائج يومئذ في اوروبا حيث كانت طائفة من الادباء والشعراء تحسب الضجر والسآمة والملل من ضروب الأناقة النفسية والإجتماعية. وظلت تلك الطائفة على ذلك حتى جاءت الحرب الكبرى فنفضت عن كثير من الرجال هذه الأنوثة العليلة. وعنوان غرض لوتي من الحياة تجده ملخَّصاً في مطلع كتابه عن «ازياديه» حيث يقول: ، «عندما يتناولني الهواء الرطب كصبٍ من مثلج الماء، وترتدي الطبيعة هيأتها المغبرة المسترحمة، عندئذ أهبط إلى ذاتي ولا أجد في داخلي غير ذلك الفراغ المقزز، وسآمة العيش الواسعة». «يجب أن نتبل على أحسن ما نستطيع طعم الحياة التافه».

وعلى ذلك يمضي «متَّبلاً» طعم أيامه ولياليه على أحسن ما يستطيع. والذين يساعدونه على «التتبيل» سيكافئهم (؟) بأن يجعلهم موضوع كتاب جديد يمرِّن فيه مقدرته الشعرية العظيمة وفنه الساحر في الوصف والتحليل. ويشرح على صفحاته فلسفة سآمته، فلسفة القنوط الأنيق والموت والفناء. ذلك بأسلوب هو من أبلغ وأعذب وأروع ما عرفته لغة الفرنسيس من أساليب البيان.

والنتيجة المنطقية لهذا المزاج العليل وهذه «العقلية» العصبية، هي كره المدنية الحاضرة ونبذ كل مستحدث ومبتكر. لوتي يعيش في الماضي، في التذكار، في التلفُّت. فلئن كان سميراً شيقاً في ساعات معيَّنة من العمر، فهو أسوأ أستاذ لمن يريد أن يحيا، وأضر مرشد لمن يحفل بالحاضر وينشد المستقبل في أنوار الرجاء وحرارة الإيمان.

هاك ما يقول في فصل «موت القاهرة»: ـ «بين فتيان المصريين مسلمين وأقباطاً المتخرجين في المدارس، كم من ذي فكر ممتاز وذكاء وقَّاد! وإذ ألقي على هذه الأرض المضمَّخة بذكرى المجد القديم نظرة الغريب الواصل البارحة، أرى إني مدفوعٌ إلى أن أصيح في وجوههم بصراحة خشنة ولكن بعطف أكيد فأقول: ـ «قاوموا قبل فوات الوقت!

قاوموا ليس بحدة ولا بشراسة ولكن بازدراء وامتهان صنوف تجارة الدنيا ، هذه الإغارة المفسدة التي تفيض عليكم بعد أن ينقضي رواجها عندنا فننبذها ! حاولوا الاحتفاظ ليس بتقاليدكم ولغتكم العربية الحَرِية بالإعجاب فحسب ، بل احتفظوا بجمال مدنيتكم وبسرها وبترف مساكنكم المكرر المصون . إنكم لمسؤولون عن كرامتكم القومية . لقد كنتم شرقيين (وأني ألفظ باحترام هذه الكلمة التي تتضمن ماضياً ذا حضارة مبكرة وعظمة جليلة) ولكن حذار ! فلن تمضي أعوام حتى يصنعوا منكم سماسرة شرقيين وهمكم الوحيد إرتفاع سعر الأراضي وغلاء القطن » .

حبذا دعوة لوتي إلى الاحتفاظ بجميل الموروث وكرامة اللغة . ولكن كيف يهملون تحسين أراضيهم وسعر أقطانهم والاقتصادُ أساس الاستقلال القومي في هذا العصر وفي كل عصر ؟ وهل تُستعبَد الشعوب ان لم يكن في ماليّتها عجزٌ ؟ ثم إن نحن لم نستفد بمنافع مدنية الغرب فعلى أي مدنية نتكل ؟ وبأي المنافع نأخذ ؟ لقد كانت المدنية العربية نبيلة عظيمة وصلت بين حضارة الماضي والحاضر فشغلت تسعة قرون بطولها ، بينا حضارة اليونان والرومان معاً لم تشغل زمناً أطول . ولكن هل هي تكفينا اليوم إن نحن أعرضنا عن جميع الأساليب الجديدة التي اهتدت إليها عبقرية الإنسان فحققها حذقه في حياته اليومية ؟ ألسنا نسد أمامنا آفاقاً واسعة بالتعامي عما في مدنية الغرب من جمال وجلال ؟ ثم أليس هذا الإنقطاع لذكرى الماضي كفيلاً في أن يستعبدنا الذين يتمتعون بكل ممكنات الحياة وكل مبتكرات الاكتشاف والاختراع ؟

●

وقد ارتأى بعض كتابنا الأفاضل تعريب كتاب « موت أنس الوجود » وكتب لوتي الأخرى عن الشرق الأدنى . وهو رأي وجيه صائب لو قصر على الاعتراف بأدب لوتي الرائع والإقرار بالجميل نحو تلك النفس الكبيرة التي أنالت الشرق وأبناء الشرق قسطاً وافراً من عطفها ومحبتها ، بل من

شغفها واعجابها . فكانت مرآة سحرية نبصر فيها نفوسنا فنبتسم بافتتان وشكر . على أن الأمر أبعد من ذلك . وفي نقل كتاب أو كتب لوتي خطر على شبيبتنا متعدد الوجوه . فلوتي واحد من كتّاب الغرب يقرأه دون سواه القارىء العربي فيحسب رأيه في الحياة وسير العمران الرأي الأعلى . وذاك خطأ . ولوتي ضجِر ملول يضرب ببراعة فائقة على وتر شديد الإحساس من أوتار النفس الإنسانية ، وتر السآمة واليأس وبطلان العمل والجهاد ، والشك في كل عاطفة وكل إيمان وكل إخلاص . ويسوّغ لنفسه أي شيء ليتسلى ويلهو . ونحن في حاجة إلى إهمال هذا الوتر المفني القوة . نحن في حاجة إلى إهماله وتحريك أوتار النشاط والتجدُّد والأمل وحب الحياة لأنها الحياة . ومن عيوب لوتي الكبرى نظرته إلى المرأة فهي نظرة غير نبيلة . المرأة عنده أداة لهو وسرور ، ونحن نريد لرجالنا الشرقيين من هذه الجهة نزعة أعلى وأشرف . نريد أن يشمل الرجل عندنا المرأة بعطفه ، ويرفعها إلى أُفقِه ليرتفع بها . أن يستوحيها ويوحي إليها فيتعاونان على حياة يعلمان أن اللهو والسلوى بعضها لا كلُّها . وعندي أن الرجل مهما سمت عبقريته ووفر علمه فهو ناقص أبتر إن لم ينظر إلى المرأة النظرة النبيلة التي تُعيِّن لها في الأسرة والمجتمع مكانة كريمة .

ولوتي ندّاب كثير النواح والشكوى والتذمر فيؤذي من لا إلمام له بآداب الغربيين ، أو من كان قليل الإلمام بها . كما كان قبله شديد الأذى ، روسّو ناصب المناحات الكبرى ببلاغته العميقة الملهبة وشكواه الحزينة المؤثرة . ولوتي فوق كل شيء لا مثل أعلى له ولا غاية سامية في الحياة . ونحن اليوم أطفال في الحياة الفكرية لا يمكننا أن نهضم كل غذاء لأن قوى التمييز والملاحظة والاختيار لم تكتمل عندنا . وشبيبتنا اليوم تحتاج إلى أن تقودها غاية عظيمة وإلى أن يستحثها أمل عظيم ، أو على الأقل وهمٌ عظيم . ومرحباً بالوهم إذا هو دفع إلى العمل ، وحرّض على النشاط ، وأوحى حبَّ الحياة وتقدير ممكناتها .

أقول أن شبيبتنا لا تحتاج إلى كتب لوتي بل إلى كتب أساتذة أقوياء يكيِّفونها ويستحثونها على الرجاء ويبثُّون في نفسها اليقين. فترجمة كتب لوتي «صديق الشرق» خطِرة لمن لا يعرف أن يتسلى بسحر لوتي تسلية ويعجب ببيانه دون أن يحسب قولهُ درساً وأمثولة.

وبعد، وقد قلت ما أعتقد في هذا الباب، فإن نفسي لترحل مجتازة البحر والبر لتصل إلى ضريح لوتي. فتجثو هناك مصليّة، وتضع عند زواياه طاقة الأسف والتحنان والشكران للصديق الذي أحبّ من بلادنا كل شيء وكلّ أحدٍ. الصديق الذي لم تكن تملأ هاوية نفسه غير عطور الشرق، ومعاني الشرق، وتلك الأصداءُ المرفرفة الهابطة من أعالي المآذن مُرددة «لا إله إلا الله»!.

●

الرواية التي لم تكتمل(١)

في القاهرة شارع جميل يكاد ، مع شارع عباس ، ينهي من الجهة الغربية أفخم أحياء المدينة : حيّ الإسماعيلية . وهو شارع سليمان باشا الذي يبتدىءُ في شارع بولاق ويعترض في استرساله شارع المغربي ، فشارع المناخ وغيره حتى ينفسح في ميدان سليمان باشا حيث تلتقي بعض الشوارع . ومن ثم يعود إلى الإنتظام في استرساله . فيبلغ مداه في ميدان الإسماعيلية الرحب حيث تتفرّع الشوارع المترامية هنا إلى قلب المدينة وهناك إلى الضواحي .

ويتوسّط ميدان سليمان باشا تمثالٌ قام مثلهُ في غير تلك الناحية من أنحاء القاهرة والإسكندرية ، تخليداً لأشخاص خدموا مصر في تاريخها الحديث . فليس في هذا التمثال ما يستدعي الإنتباه أكثر من سواه لولا أن اسم صاحبه سليمان باشا الفرنسوي . فمن ذا يكون هذا الفرنسوي المسمى بسليمان ؟ وكيف يتسنى لامرىء أن يكون فرنسوياً وسليمان في آنٍ واحد ؟ الأمر كل الأمر هو هذا ، كما يقول هملت . وهذا المزيج التاريخي من الفرنساوية والسليمانية هو هو موضوع الرواية التي لم تكتمل بعد ... ولكن فلنبدأ بالابتداء ... وإن رجع بنا إلى أوائل القرن التاسع عشر .

اندحر نابوليون في واترلو سنة ١٨١٥ وتقوّضت الامبراطورية الفرنساوية فجلس على عرش البوربون القديم الملك لويس الثامن عشر ، وقامت حكومته

---

(١) نشرت في مجلة « الخدر » الجزء الممتاز لشهري تموز وآب « يوليو وأغسطس » ١٩٢٣ .

الملكية تنظم الشؤون . فكان مما جاءت به أنها أحالت ضباط الجيش النابوليوني على المعاش يتقاضون من رواتبهم السابقة نصفها أو بعضها . فمنهم من امتثل للحال على الكره أو على الرضى . ومنهم من هاجر يبحث في الغربة عما أنكر عليه في وطنه من ثروة ، أو ظهور ، أو مجد ، أو أمل .

ومن هؤلاء رجل اقتحم الأخطار ، وابتغى لرزقه الأسباب فلم يطلْ أن لبّاه الحظُّ وجعله من أسعد بني الإنسان . واسم ذلك الرجل جوزيف سيف (Sève)

ولد في ليون سنة ١٧٨٨ من عائلة وضيعة إذ كان والده يعمل في الحياكة ليقوم بأود ذويه . وكان الفتى في حداثته شكساً متمرّداً حتى يئسوا من إصلاحه . أدخله والده صبياً نوتياً يخدم في سفينة حربية ، إلا أنه في التاسعة عشرة من عمره تخاصم وضابط كبير فسُدَّت البحرية أمامه . ولم تغوه فكرة الرجوع إلى بيته ، فشخص إلى إيطاليا والتحق بالجيش المحارب فيها . وهنا تحت تأثير نابوليون ورهبة اسمه ، وبفعل الصرامة العسكرية والنظام المتتابع أنشأت قواه تتوازن وتصقل . والحماس الشديد الذي كان يهز الجيش خلق منه رجلاً جديداً . فأقبلت معركة وانقضت معركة فإذا ببطلنا يرتقي المراتب العسكرية الأولى . ثم جرح وأخذ أسيراً .. ثم يفلت وعاد إلى ميادين القتال فحارب في روسيا ، وفي ألمانيا ، وفي فرنسا وكان من استبساله وبراعتهِ أنه وصل إلى مرتبة قائد بوقت غير طويل .

●

وكان ارتفاعٌ وكان انخفاض فأفل نجم نابوليون وتألبت الدول تقضي على آماله في النهوض والسطوع . فأحيل جوزيف سيف مع من أحيلوا على نصف مرتبه السابق . فرأى نفسه مرذولاً ذليلاً في ابتعاده عن الحياة العسكرية التي خلق لها . وكان يعذّبه ضيق ذات يده . فأخذ يتلمّس وسائل الربح ويحتال عليها بما تيسر من فطانة ومداورة . فاشتغل في تأجير الخيل والمركبات ،

واشتغل في توزيع البريد ، ومضى إلى لومبارديا يبيع البضائع الرخيصة على ذمة أصحابها التجار . ولم يكن شيء من ذلك ليفرّج كربته بل ظل يتساءل كيف يضمن لنفسه القوت في الغد .

وكان يوماً على أسوأ ما عهد والضنك ينخر في قوّته عندما اتصل به أن شاه العجم يبحث عن ضباط فرنسويين ليكل اليهم بتخريج جيوشه وتدريبها . فعزم على السفر إلى هاتيك البلاد . وكان له في باريس من يؤيده التأييد المعنوي وهو الكونت دي ساجور (de Ségur) الذي كان ياوراً عند الإمبراطور ، فتسنى له أن يعرف هناك الضابط ويقدّره ويحبه .

فكتب إلى الكونت يطلب كتاب توصية إلى الشاه . وما كان أن جاء الرد من الكونت تصحبه التوصية ولكن ليس باسم الشاه ، بل باسم محمد علي والي مصر الذي كان بدأ في ذلك الحين يجذب أنظار أوروبا . وكان قد مرّ أربعة أعوام على تهدّم الإمبراطورية الفرنساوية . فأبحر جوزيف سيف إلى الإسكندرية وكأن كان يطير إليها بجناحين إثنين : التوصية من الكونت ، والأمل .

قدم القاهرة ، ومثل بين يدي الوالي ظاناً أن كتاب التوصية وماضيه العسكري كفيلان بأن يعهد إليه بقيادة فرقة في الحال . غير أن ذلك لم يكن . بل أن محمد علي الذي بش له وهش ، وقبله في خدمته ، أراد أن يمتحنه قبل التعيين . فأرسله إلى الصعيد يستكشف بعض مناجم الفحم الذي زعم الوالي أنه قيل له أخيراً بوجودها . أليس من الشذوذ والغرابة أن تمتحِن كفاءة الجندي وشجاعته بأن تحمله على عمل هو من خصائص مهندسي المناجم ؟ ولكنها كانت طريقة مستحبة عند ذلك الرجل الكبير .

ركب الجنديُّ النيل صعوداً إلى أعاليه في الوجه القبلي وعكف على تفحُّص تلك الجهة بدقةٍ واعتناء . بحث طويلاً . أما والمناجم هناك وهمية فلم يكن العثور عليها بالميسور . فرجع إلى القاهرة وقد هيأ تقريراً ضافياً عن رحلته

وأبحاثه . فإذا القاهرة في هرج ومرج وقد هبّت أهاليها تحتفي باستقبال إبراهيم باشا نجل الوالي ، العائد من رحلته في بلاد العرب بمجد الفاتح الظافر .

كان محمد علي طيلة ذلك اليوم راضياً . ولعله سرّه كذلك التقرير الموضح تفاصيل البحث ، النامّ عن فطنة الباحث ومضاء عزيمته . فأنعم عليه بلقب « آغا » وعهد إليه بتدريب فرقة . ورأى الضابط النابوليوني تنافراً بين « جوزيف » و « آغا » فسمّى نفسه بسليمان ، وانقلب جوزيف سيف سليمان آغا !

تعاون كل ذلك وجمال هيئة سليمان ، وماضيه العسكري ، وقوة بنيته ، وحسن سياسته ، على تنبيه التهيب والإحترام في نفوس المحيطين بالغريب الموهوب . وإذ أرسل إلى أسوان لتدريب الآليات المعدة لخوض غمار الحرب ، أوجد في أقصر وقت ممكن ست فرق تتكون من ٢٥ ألف رجل مسلحة بالمعدات الحديثة على الطراز الأوروبي ، يقودها ضباط من المماليك ومن الأوروبيين .

ودخل سليمان آغا العاصمة بجيشه هذا الجميل فتهلل الوالي فرحاً وصار تحمّسهُ أشدهِ . فأنعم على القائد بلقب « بك » وولّاهُ قيادة أهم جيوشه ، وملّكه الأراضي الواسعة الموفورة الخصب والنتاج .

وعندئذ قرَّ رأيُ سليمان على قطع كلّ ما يصله بحياته السابقة فينتفع من كل الوجوه بممكنات السبيل المفتوحة أمامه . فهدم الحاجز القائم بينه وبين رؤسائه وجنوده واعتنق الإسلام .

●

وحدث بعدئذ أن تغلبت الجيوش اليونانية على التركية براً وبحراً فانتبه سلطان تركيا لوالي مصر صاحب الجيوش القوية المنظمة . وخاطبه مستنجداً

فسار الأسطول المصري إلى بلاد اليونان بقيادة إبراهيم باشا . وانضمت الفيالق المصرية (وبينها فيلق سليمان بك) إلى الجيش التركي ونزلوا يحتلون البلاد .

وحالفهم النجاح في بادىء الأمر فدحروا اليونان في غير موقعة وفتحوا المدن واستولوا على محتوياتها . على أن أوروبا تحركت خوفاً على نفسها . ونهضت تتصدى لهم بمفاجئة أسطولها المتحدوالأسطول التركي في معركة نافارينو فكاد يقضي عليه ، وأدّى ذلك إلى الجلاء عن بلاد اليونان والعودة إلى مصر . لكن سليمان لم يعد وحده . بل استصحب معه أعز غنائمه وأثمنها في نظره . وهي غادة يونانية زوجة صانع أحذية لقيها في بلادها فأشعل الحب قلبيهما . بهذه الغنيمة اعتلى سليمان متن سفينته . وبها دخل القاهرة . وبها عاد إلى منزله حيث جعلها السيدة الآمرة المطلَقة .

وبعدُ ، أتظنون أن صانع الأحذية ظل مكتوف اليدين ؟ أنه ، يا سادتي ، هرع إلى مصر مقتفياً أثر الزوجة المخطوفة ولجأ إلى العدل يشكو خاطفها . وإذ جاءت « ستي ماريا » أمام القاضي جاهرت بأنها تعبد سليمان ، وأنها تبعته بملء خاطرها . وأنها الآن زوجته وقد اعتنقت الإسلام نهائياً ، وإن الأمور ولله الحمد على ما يرام فلا تبغي أن تغيّر أو تنقّح فيها شيئاً !

انقلب اليوناني راجعاً إلى وطنه وما له من حيلة سوى التمذهب بفلسفة المهجورين الناقمين على النساء الخائنات ! أما « ستي ماريا » فعاشت سعيدة مع سليمانها الذي أبى حياته الإقتران بغيرها رغم تصريح القرآن له بذلك عند الحاجة .

●

صار سليمان خلال حرب فلسطين وسوريا قائداً عامّاً « جنرال » واجتمع أبان الحملة في صيدا برجل شهير هو ، هوراس فرنت (Vernet) الذي ذاع صيته بإتقان تصوير المواقع الحربية . ففرح القائد بابن وطنه الأوّل وقابله

مقابلة الصديق العزيز . فشكره المصوّر على ذلك بأن صنع له رسماً بديعاً .

في ١٨٤٥ أتى فرنسويٌّ آخر يزور مصر . وهو الدوق دي مونبانسيه نجل لويس فيليب ملك فرنسا . فاحتفى به المصريون احتفاءً عظيماً . ومضى إبراهيم باشا إلى فرنسا يرد الزيارة بعد فترةٍ ومعه سليمان ، سليمان المصري المسْلِم . عبر سليمان مرسيليا ، «وفسنت ليبان» قاصداً إلى ليون مسقط رأسه ومسرح فقره وخموله وعذابه ويأسه . وها هو يجيئها الآن غنيّاً ناعم البال ، كبير الجاه والنفوذ . في هذه المدينة كان شقياً بين أبويه لا يتفاهم وإياهم . وها هو الآن تابع لأمير غريب يحبُّه ويحترمهُ . ولد هنا في منزل حقير ، منزل عامل فقير . وها هو يعود وقد ولد ولادة اجتماعية أخرى ، متمتّعاً بشخصية جديدة وحياة جديدة . واجتمع جوزيف ـ سليمان بالبقية الباقية من أعضاء عائلته : أختٍ وعمّ وبعض الأقارب . إلا أن هذا اللقاء جعله أشدّ شعوراً بأن مكانهُ في بقعة أخرى من هذه البسيطة .

أبحر بعد أسبوع آئباً إلى مصر . أبحر سعيداً لتأكده أنه أصبح مصرياً بعادته وملابسه وروحه . أبحر سعيداً لأنَّ له في مصر زوجة تهواه ويهواها ، ولأن مصر موضع عظمته ومقدرته . وقُدِّر له أن يعيش أعواماً أخرى طويلة في بحبوحة الرغد . وقضى ، بل نام نوماً هادئاً سنة ١٨٦٠ بعد شيخوخة هنيئة وسط عواطف المحبة والإحترام والإعجاب .

●

مضى ستون عاماً فحصحص فصلٌ آخر من رواية حياتهِ النادرة ، ذاك أنه كان لسليمان باشا الفرنسوي ابنة تزوجها شريف باشا التركي الأصل إلا أنه يعرف بشريف باشا الفرنسوي كذلك ، لأنه صاهر من يُنْعَت بهذا النعت . ورزق شريف باشا ابنة اقترن بها بعدئذ عبد الرحيم صبري باشا الذي صار محافظاً فوزيراً . وكبرى بنات عبد الرحيم باشا فتاة تدعى نازلي زُفَّت منذ أربعة أو خمسة أعوام إلى جلالة فؤاد الأول . وها هي

حفيدة جندي نابوليون تعتلي اليوم العرش الدهري العظيم ، عرش مصر حيث جلس الفراعنة الفخام ليس كملوك فقط بل كأنصاف آلهة .

●

وهذه حكاية الرجل الذي يقوم تمثاله في منتصف ميدان من ميادين العاصمة . حتى إذا سمعتَ اسمه للمرة الأولى استفهمت عن سبب نعتهِ بالفرنسوي ...

هذه هي حكاية تلك الحياة التي لم تكتملْ بعد روايتها .

اسماعيل صبري باشا[1]

بين يدي الآن صحيفة أسبوعية وفيها أبيات « الرئيس » عن « الساعات » كما رأيتها مرة في حياته ، وقد نشرتها صحيفة عربية تصدر خارج القطر . فاحتفظتُ بالصحيفة لأطلعه عليها . ولما كان يوم الثلاثاء يوم الاستقبال ، جاء مساء كعادته مع قريب له أظن اسمه سليم بك محمد . إلَّا أننا وزوَّارنا كنا ندعوه سليم بك ولا نزيد . ومعهما الشيخ الليثي ، « شاعر » كذلك بشهادة صبري باشا وبشهادة الأبيات والقصائد الكثيرة التي كان ينظمها الأسبوع بعد الأسبوع . فضلاً عن الأدوار الغنائية الرائجة في مصر وسوريا وهو واضع الكثير منها . زِدْ على ذلك أنه نجل الشيخ علي الليثي من شعراء الجيل الأسبق (جيل البارودي وفكري وعبد الله النديم وسواهم) وشاعر الخديوي اسماعيل . وكان صبري باشا وصاحباه يقطنون متجاورين فقلما افترقوا في السنوات الأخيرة ، وكنتَ ما تكاد تلمح أحدهم في مكان حتى يُقبل عليك بعده الآخران .

●

قلتُ ملوِّحةً بالصحيفة : « خبر جديد يا باشا » قال « خيراً ؟ » . فتلوت الأبيات . فإذا بمعنى وجهه يتغير من الرضى والإبتسام إلى الإستياء

(١) نشرت في « المرأة الجديدة » ، بيروت عدد أيلول (سبتمبر) ١٩٢٣ .

والعبوس . وكانت الجهامة من الرئيس شديدة الوقع في نفس من ألف في ملامحه أنساً ووداعة ملازمين . ثم قال « مسخوها ! والله مسخوها ! » ومضى يلقي الأبيات على ما هي في حافظته متذوقاً معانيها ـ وكان شديد الشغف بشعره ـ متأنياً على جلاء ألفاظها وإحكام توقيعها . فتناولت قلم رصاص ودوّنتها وهو يمليها ، وهي هذه :

كم ساعـــة آلمـني مسهـــــا
وازعجتنـــي يـــدها القاسيـــهْ
فتّشتُ فيهـــا جاهـــداً لم أجـــد
هنيهـــة واحـــدة صافيـــة
وكم سقتـــني المرّ أختـــت لهـــا
فرحت اشكوهـــا إلى التاليـــة
فأسلمتنـــي هـــذه عنـــوةً
لساعـــة أخـرى ، وبي ما بيـــه
ويحـــك يا مسكين؟ هـــل تشتكـي
جارحة الظفـــر إلى ضاريـــة ؟
حاذر من الساعـــات! ويـــل لمن
يأمـــن تلـــك الفئـــة الطاغيـــة !
وان تجـــد من بينهـــا ساعـــةً
جعبتهـــا من غصص خاليـــة
فالـــهُ بهـــا لهـــو الحكيـــم الـــذي
لم ينســـه حاضره ماضيـــه
وأمـــرح كما يمـــرح ذو نشـــوة
في قلبه من تحتهـــا الهـــاوية

فهـي وان بشـت وإن داعبـت
قتالـة ، فتاكـة ، عـادية

عناقهـا خنـق ، وتقبيلهـا
كما تعض الحيـة الباغيـة

●

هذا هو العيش فقـل للـذى
تجرحـه الساعـة والثانيـة :

« يا شاكـي الساعـات اسمع ! عسى
تنجيـك منهـا الساعة القاضيـة »

ولدَيَّ منه أبيات أخرى كانت تنشرها الصحف مشوَّهة فأدونّها وهو يُلقيها على ما يريد أن تكون . منها أبيات « يا صرحة ! » التي لم أر منها في الصحف المصرية بعد وفاته إلّا البيتين الثاني والثالث . وهي هذه :

يا صرحة بجوار المـاء ناضـرة
سقاك دمعـي إن لم يوف ساقيـكِ

عار عليك وهـذا الظـل منتشـر
فتـك الهجير بمثـلي في نواحيـك

هل من معيري جناحـي طائر غـرد
كي أقطع العمر شدواً في أعاليـك

فلا انفُر عن أرض غُـرست بهـا
ولا يرن بسمعي غير واديـك ؟

●

للمجاملة عندنا اصطلاحات كلامية تُنفَّذ في مختلف الأحوال نتج

معظمها عن شعور بالفراغ والخلوّ في الأصل. فكنا ساعة باخسين الكبير حقه في كبير الثناء وصادق التقدير، وكنا مرة مدفوعين إلى الايهام بوجود شيء ما، فعمدنا إلى الغلو والإفراط وركوب جميع مطايا الشطط في الإغراق وبعد، فهل من قيمة للتبجيل والتفخيم وهما يُغدقان على كل أحد؟ فإذا اجتمعنا بامرئ بعد فراق طويل أو قصير استهللنا الحديث بأنه (وحشنا) حتى ولو لم يخطر لنا على بال. ثم اردفنا شكوى الوحشة بأنه الآن «آنسنا» بوجوده. وإذا تزوج أحدنا فقد أشرقت شموس السعد وبزغت أقمار الهناء. وإذا مات ابن من حُكم على ذريته بالحياة والموت جميعاً فأنذر الكون بالتعطيل، والنظم الشمسية بالجمود، والشموس بالإنطفاء، والكواكب بالإنهواء. فانظرْكمْ تعظم فاجعة الخليقة إذا كان الراحل يدعى صبري باشا الكبير بمكانته الاجتماعية والأدبية، الكبير بالوظائف العالية التي شغلها وبالدور الذي اتم تمثيله في مرتبته ووطنه سواء في مناصب النيابة والقضاء والحكم والوزارة!

ولقد أدرك المؤبنون خطورة الموقف فاقتحموا على الأفلاك وأنزلوا بها النائبات الموافقة للحال ولم يكونوا مسرفين!! ولكن ندر في كلامهم ما ينطبق على صبري باشا دون سواه. بل منهم من «أطنب» مجاراة وخوفاً من أن يرمى بالقصور وعدم تقدير المؤبَّن. ومن هؤلاء شاعر سمعته يقول قبل حفلة التأبين بأيام «لا أدري ماذا أنا فاعل؟ أأكتفي بالسعي إلى الإرضاء الواجب في مثل هذا الموقف أم أعمد إلى الإستقلال في الأسلوب؟».

كان صبري باشا كوكباً، وكان شمساً، وكان حديقةً وكان بحراً. هذا ما قيل في أدبه وخلقه وعلمه التشريعي وفضله، وأي ميت لا يقال عنه ذلك في مختلف الأقطار الناطقة بالعربية؟ ولكن أيذنبُ القائلُ أن صبري باشا في شعره ينبوع صغير بلوري المياه عذبها؟ ينبوع يرشح مرة البيت والبيتين والثلاثة الأبيات، وينتظم مرَّةً أخرى تسلسله المكرر اللماع الملوّن،

على أنه غير فيّاض لا يدهش بروعته ولا يرهب بجلاله. إنما يجذب بحسنهِ المأنوس ويرضي ببساطته وجلائه، ويُدخل الطرب على النفس الطروبة برقة عواطفه، وسلاسة ألفاظه، وإتقان نظمه. وهل ألطف من الينبوع الصغير في تدفقه الموزون بلا تهور، وهل أقرب منه إلى إرواء الظمأ؟

هي هذه الصفات، يسيطر عليها دواماً الذوق الدقيق المصفّى، التي جعلت من صبري باشا، على بضاعته الشعرية المحدودة ـ شاعراً كبيراً. كان يتكلم أحياناً عن «شيطانه» بلهجة المؤمن بأن للشاعر شيطان إلهام وإغراء. فلا ينظم إلا مسوقاً، وهذا أول شروط الشعر؛ حتى إذا نظم وقعت نغيتهُ من نفسك في مكانها الخاص بها وصارت جزءاً من حاستك الغنائية. تتناولها حافظتك بلا إجهاد، ويشربها قلبك كأساً منعشة قد تخالطها مرارة مستحبة غير أنها لا تجدّد منك عطشاً ولا تقلق عندك غوراً، ولا تبعث فيك هوس الطيران والغوص والمخاطرة.

أكثر أبيات الرئيس وجدانية غزلية، وهاك مثالاً بديعاً منها في مخاطبة قلبه:

سلا الفؤاد الـــذي شاطرتـــه زمنـــاً
حمل الصبابة، فاخفق وحـــدك الآنا!

وقليلها من هذا النوع الذي أكاد أدعوه وجدانياً فكرياً:

أغداً كلنـــا ترابٌ ولا مـلــــــــ
ـــك خلاف التراب بـــراً وبحـــراً؟
أغـــداً يصبح الصراع عناقـــــاً
في الهيـــولى ويصبـــح العبد حـــراً؟

أسلفت القول أن الروعة لا تستولي على النفس لتلاوة شعر صبري. ولكن ما أروع الصورة في هذين البيتين، وأن لم تمضِ الفكرة الكونيّة

منها إلى أقصى معانيها ! ومما يزيد في الروعة الممزوجة هنا بمسّ من الحزن (كان دواماً من خصائص هذا الشاعر حتى ليراه المتأمل ممثلاً في نظره) ـ هو الاستفهام : أغداً ؟

وهنا ، كما في كل ما نظمه الرئيس بعد طور الشباب ، تتجلى دقة الوصف ، وسلاسة التعبير ، وسهولة الألفاظ ، وإتقان الصيغة الشعرية ، ورسم اللوحة التامة المستكملة بخطوط قليلة . ما ردّدت أشعاره إلا زدتُ تقديراً لفن الصياغة الشعرية في الشعر والنثر ، وزدت تقديراً لأهمية البيان وجمال اللغة ونفاستها في الصحة والمتانة ، وفي حذف الزوائد ، وانتخاب الألفاظ وتنظيم أجزاء الخطاب . ما رددت أشعاره إلّا أدركت لماذا كان يضيق صدره لسماع تلك الإستعارات التي تحجرت وفنيت منها القوة في تأدية المعنى الواحد المنسوخ دهوراً . وأدركتُ كذلك لماذا كان يتأفف ويميل بوجهه جانباً فيأبى الإصغاء إلى تلك الجمل الشعثاء الكثاء الملتكة المستباحة الآن باسم « الطراز الجديد » و« الأسلوب الفريد » يقرأها القارىء المسكين وهو يلهث تعباً ويتعذّب . وما يأتي على آخر المقال « الفريد من نوعه » ـ وأيّ مقال عندنا ، وأي كتاب ، وأي كاتب ليس فريداً من نوعه ! ـ إلا وفي نواحي ذهنه رضوض ... ترى ألم يعنِ الرئيس هذا الأسلوب وذاك عندما قال في مناجاة الدواة :

وإذا خفت أن يكـــون من الصخـــر
جلاميد ترجـــمُ السامعينـــا

فابخـلي بالمداد بخلاً وإن اعطيـــت
فيـــه المثين ثم المئينـــا

كان في خلقه كما في شعره وديعاً بلا دعوى ، بسيطاً بلا تنطُّع . يعرف مدى شاعريته ويقف عند حدودها . وما أندر هذه الصفة في الشرقيين ، شعراء كانوا أم غير ذلك ! ولطالما سألته : « متى تجمع قصائدك في كتاب

يا باشا ؟ » فيجيب كمن يعتذر عن قصوره ويخجل بفقره : « أحب ما عليّ . لكن والله ما يطلعوا ديوان يا بنتي ! » ومع شدة تمسكه باسلامه كان من أقرب الناس إلى الحرّية الفكرية ومن أكثر من أعرف تساهلاً وحلماً .

أذكر له مجالس رائقة عندنا مع المرحوم المطران دريان يتطارحان فيها الشعر . وأمامهما الدكتور شميِّل راكباً على كرسيه كالقائد العام يمتطي جواداً في صميم المعركة ويلقي الأوامر الموجزة الخطيرة إلى فيالق الميمنة والقلب والميسرة لتنقضَّ على العدو كالصواعق . كذلك كانت نبرات الدكتور شميِّل وإشارته ومعاني عينيه القادحتين شرراً (إلا ساعة الهدوء والضحك) على صهوة كرسي الخيزران !

ثلاثة مختلفو العقيدة والمذهب والميل في الدين والعلم والفكر ، ولكنهم لم يفترقوا مرة إلا على إتحاد ووئام .

كان صبري باشا ولوعاً بجمال اللفظ وعذوبة الصوت وبلاغة الالقاء . يطرب لذلك طربه للموسيقى الشجية فيرسل تلك الآهة الطويلة العميقة التي يعرفها له اصدقاؤه وجلاسه . ولعل جميع المصريين في ذلك صبري باشا . ولهم مباهاة بلفظهم ولهجتهم ، يصحبها تهكم لطيف بكل لهجة عربية أخرى تقريباً . ومن دلائل ذلك قول بعضهم للعائد من سوريا « كم كلمة جبت وياك من الشام ؟ » وإذا سمعتهم يقولون في خطيب أو شاعر أو متكلم « دامالو بيرطن كدا يا أخي ؟ » فاعلم أن الاعتبار الفني انقلب له في نفوسهم ابتساماً . . .

وكان المطران دريان فخم اللفظ ، متين المبنى ، يحبّ منظوماته الوجدانية (القليلة) و« يشعر » بكلامه قبل إلقائه . فكان الرئيس يستمع إليه بسرور واهتمام ، وبلغ من استحسانه أنه قال مرّة : « هيه ؟ والله أنت من عندنا ! » فصرخ الدكتور شميل ضاحكاً غاضباً في آن واحد ـ وكان على كرسيه في قلب المعمعة ـ « يخرب بيت هلمصريين شو متعصبين ! » وأنت تعلم

يا قارئي ، أن الأعوام الطويلة التي قضاها في هذه الديار معرّب « شرح بخنر على مذهب دارون » كانت بالنسبة للهجته كالأبدية في عين الرب ... .

لست هنا دارسةً شعر صبري باشا أو راسمةً صورة من نفسيَّتِهِ . إن هذه إلا سوانح وتذكارات أدونها سريعاً ، وبي حنين إلى تلك الشخصيات الكبيرة التي كنا بالأمس نسعد بمجالستها ونستفيد بأحاديثها غير عالمين أنها ستسبقنا قريباً إلى حيث لم تكن هي تدري ولا نحن الآن ندري . صمت صبري باشا آخر أعوام حياته . والمرجح أن الأبيات التالية هي آخر ما نظم فلها بذلك قيمة خاصة عدا كونها حاوية لجميع خصائص فنه :

يا مقر الغزال ، قـــد صـــح عنـــدي
اليوم أني اقتحمتُ منـــك عرينـــا
حسب عيني ما رابهـــا من قلـــوب
بات يغري بهـــا السواد عيونـــا
وضلوعٍ جاءتـــك وهي خـــوال
ثم عادت مـــلأى هوى وشجونـــا
ما الذي يبتغـــي غـــزالك مـــني
ـ بعد كوني عبداً لـــه ـ أن أكونـــا
كلما قلـــتُ قـــد أبـــل فـــــؤادي
ساورتـــه الذكـــرى فـــزاد جنونـا

خيالات في الحياة تروح وتغدو . ونحن المتخلفون نعرفُ منها النبل والعظمة بما تؤدي من خدمة في محيطها . حتى إذا حمُ القضاء وامتثلتْ للنظام الأعلى تلمَّسنا عظمتها ونبلها في ما تخلف من نبرة حماسةٍ وإشارة استنهاض . وقد ترك صبري باشا هذه الإشارة وتلك النبرة في قصيدة من أمهات قصائده وهي « فرعون وقومه » . وسُمعت النبرة وتجلَّت الإشارة

خصوصاً في هذه الكلمات الحقيقية بفنٍّ داتي « أهرامهم تلك ! حي الفن ... » .

فلنحيي فن مصر في آثارها ، وفي الجميل من شعرها ، وفي الوجه القيم من الحياة الجديدة التي تهز أبناءها .

●

مات أحمد كمال(1)

مات أحمد كمال باشا فعمدت الصحف والنشرات الدورية إلى ما لديها من « كليشهات » جاهزة لمثل هذا الظرف . ولم تبخل بعبارات الثناء والإطراء والأسف التي هي دواماً تحت الطلب . توفي « هذا العلّامة الأثريّ » « عن ٧٣ عاماً حافلة بجلائل الأعمال التي قام بها لخدمة » « أمته وتاريخها بأبحاث في الحفريات والأثريات أدهشت » « علماء الغرب فجعلتهم يعجبون أيما إعجاب بالنبوغ » « المصري والعبقرية الشرقية ، وما ضُمِنَا من مقدرة » « فريدة ومواهب عالية . فرفع رأس مصر بين العالمين » « فعلمت شعوب الغرب أننا أمة ناهضة تسير في » « مصاف الأمم الراقية ، وأننا نحن أبناء مصر العظيمة » « مصر الفراعنة مهد الحضارة وقمة المدنية معلمة العالم » « ومهذبة الخ ... الخ ... الخ ... » .

وكانت صحفنا ، بارك الله فيها ، قد سبقت فقامت بالواجب ، وقالت مثل هذا القول (مع بعض التعديل طبعاً) يوم أن نال أحمد كمال رتبة الباشوية ، منذ شهور فقط . وطلبت إلى الحكومة أن تعنى بطبع القاموس الكبير الذي وضعه سعادة الباشا للغة المصرية القديمة ، لأنهُ الأول من نوعهِ والواحد .

كلام جميل وقول صائب لو هو قصر على أهله أمثال أحمد باشا كمال

---

(١) نشرت في « النهضة النسائية » عدد أيلول « سبتمبر » ١٩٢٣ .

وأقر أنه في الفضل . ولكنه كلام يردد كلّ يوم لأقلّ المناسبات التي لا تعيرها الأمم الأخرى أكثر مما تستحق من الالتفات . « فالنبوغ » و« العبقرية » و« الالمعية » و« التفوُّق » و« رفع رأس مصر » و« النهوض والسير في مصاف الأمم الحية الراقية » . وما إلى ذلك من الاستعارات المألوفة ومعاني الغلو الباهظ ، صارت لنا طعاماً وشراباً وزينة وكساءً وهواء ورقاداً ويقظة ونزهة . كلّنا نوابغ ، وكلنا عبقريون ، وكلّ ما نأتي به فريدٌ في بابه . وكل واحد منا عزٌ وفخار . وكلٌّ منا « حجَّة الشرق على الغرب » ندسّهُ في أنف أوروبا كلما عنَّ لها أن تشمخ علينا ، ولو لم يخطر لها ذلك مطلقاً . وكلّما عنّ لها أن تعزو إلينا العجز والتقهقر . فتخرُّ خاشعة أمام قدرتنا وتمرِّغ جبهتها في التراب مستغفرة ! !

●

مسكين ديوجينوس ! طاف أسواق أثينا في رابعة النهار يبحث عن « رجل » على نور المصباح . يبحث عن رجُل لا أكثر . رجل بلا عبقرية وبلا تفوّق . رجُل لا يدهش العالم ولا يرهب الكائنات ، ولا تدبُّ هيبته في قلب الفلت الذاهل الحيران . أتراه لو جاءنا اليوم بمصباحين اثنين ، يبحث عمّن هو ليس بألمعي ، ولا بأستاذ ، ولا بقطب ، ولا بركن ، ولا هو بصاحب مذهب ـ أتراه يعثر على تلك العنقاء ؟ أم هو يعود إلى برميله بحزن قائلاً إن العالم تغير ، وأن بني الإنسان بعد أن ندر التفوق بينهم أصبحوا الآن في مرعىً خصيب من العبقرية والنبوغ واللوذعية يرتعون ... ؟ .

●

قلت إذن إن أحمد كمال باشا قضى فكتُب عنه ما يُكتب عن غيره . مات ودُفن فكان موكب جنازته موكب راحل كبير المقام . لا غير . وحفَّ بنعشه الأقارب والأنسباء والأصدقاء والمعارف . لا غير . وبينا الشعوب التي نريد أن « ندهشها » تذكر عند موت عظيم غريب أنه كان له بها علاقة

ما في حياته ، أو أنه ذكرها في كتاباته بانصاف . فتوفد عنها من يمثّلها بتشييع جنازته رسميّاً (وأقرب مثال لنا في ذلك الحكومة التركية التي أوفدت من يمثلها رسمياً في تشييع جنازة بير لوتي) . وبينا الأمم التي نريد أن « نذهلها » تحتفل بتشييع علمائها وكتابها وشعرائها ، حتى وكبار ممثليها وممثلاتها احتفالاً رسمياً . بينا نشهد ذلك ، يموت هذا الأثريّ في مصر الممتازة بآثارها . يموت هذا العالِم في مصر المفتقرة كل الافتقار إلى العلماء . يموت أحمد كمال فيُطوى في قبره ٧٣ عاماً من البحث العلمي ، والعمل العلمي ، والخلق العلمي . يموت أحمد كمال في مصر الحديثة ، الفتية ، المتجددة ، المنادية بالنهوض ، الهاتفة بالحياة . يموت من مصر أثريُّها الواحد فيكون موكب جنازته بسيطاً كموكب أي وجيه المقام ، لا غير . لا غير .

•

كم أنت طفلة يا مصر ! كم أنت غرير ، أيها الشرق ! قولوا لي يا بني أمي ، كم أحمد كمال عندكم ؟ أحصوا لي أهل مرتبته في العلم سواء أكان ذلك العلم أثرياً أم غير ذلك ! احصوا لي من هم في مثل عَظَمته الهادئة المعرضة عن العظمة ! ليس عندكم سوى أحمد كمال واحد . ولئن كان عندكم أفذاذ آخرون فإنهم قلائل ، وهم مغبونون ، وهم مغموط حقهم ، وهم يعيشون في انزوائهم البعيد الجليل . عندكم مثلاً صاحب « دائرة معارف القرن العشرين » محمد فريد وجدي بك الذي كانت تألفت لجنة منذ ثلاثة أو أربعة أعوام للاحتفاء به . ثم ماذا جرى ؟ وأيّ شيء تريدون أن يجري ؟ لقد جاء هذا الرجل بدائرة المعارف الوحيدة التامة في العربية . ولكن جزاء العمل في العمل نفسه ، أليس كذلك . وكفاه بعد أن يكون ملقَّباً ككثير غيره بالعلّامة والفيلسوف والكاتب الكبير في عجاجة كتّابنا وعلمائنا وفلاسفتنا . فتهملونه في حياته ، وتجهلونه كأنه غير موجود ، وتغمطون حقه . فبدهيٌّ والحالة هذه أن يموت مثل أحمد كمال فتكون

جنازته كأي رجل معروف في قومه ، لا غير !

حدِّثوني يا بني أميّ ، وابسطوا لي قوائم الآمال وفهارس المقاصد ! حدثوني ! ولكن اسمحوا لي ، عندما أرى مثل هذه الغرارة أن أعلم أنكم ما زلتم أطفالاً ! اسمحوا لي ساعة أقرأ نعوتكم التي تسوّون فيها بين الواحد الفذِّ والشخص العادي أن أصغي إلى النواقيس الضاربة في كلامكم بهزٍّ الكتف وقلب الشفة ، أليس كذلك ؟

●

صَحائِفُ أُخَرَى

رحلات السندباد البحري الثاني (١)

الرحلة الأولى
بيروت ـ حيفا

السندباد البحري الثاني ليس إلَّا أنا « الموقِّعة اسمي أدناه » . وأنا الموقعة اسمي أدناه سندبادة في الواقع لا سندباد كما يزعم العنوان . فلكَ الحرية أن تطلق عليَّ الإسم الذي تختار : السندباد البحري الثاني أو السندبادة البحرية الأولى . وكلاهما عندي مقبول ومنطبق على حالتي الحاضرة انطباقاً نسبياً ، كما يقول الذين يكتبون الكتب والذين يحرّرون الصحف .

ولا يروعنك عنواني أو يغرينك فتحسبنني قاصّة عليك مثل ما قصّ سميي من قبلي . ليس لي من ذلك الرجل الذكيّ إلَّا الإسم المُنتحَل . هو عظيم وأنا صغيرة . صغيرة وجاهلة وضعيفة . ورحلاتي لا تقاس برحلاته لأنها قصيرة لا تتجاوز بعض شواطىء سوريا ومصر المعروفة لمن ألِف الاصطياف في لبنان . وليس فيها من الحوادث العلمية والاكتشافات المدهشة وركوب الأخطار شيء . إني لا أركبُ فيها إلَّا هذه السفينة النمساوية ، ولا يقع نظري خلالها إلَّا على صفحة البحر وخطوط الشواطىء ، ولا هو يرتفع إلَّا إلى أطلس الفلك المُرصّع بالكواكب . وهي هذه الأشياء التي أريد أن أحدّث عنها بسذاجتي وارتباكي وأغلاطي وهوسي وضلالي . من ذا يرضى أن

---

(١) مذكرات الرجوع من الاصطياف الأخير في سوريا قبيل الحرب .

يشعر حيناً بقلبي ، ويتألم ويتهنّا معي ، ويحلم بأحلامي ، ويذهل بذهولي ؟ من ذا يرضى أن يصرف بعض وقته في الإصغاء إلى من لا تعرف كيف تُحكِر القول ؟

عذبةٌ ساعة السفر بما فيها من المرارة بنت الفراق والوداع . ولكم اعتليتُ سطوح السفن وهي على وشك الرحيل . أنظرُ إلى الثغور وإلى ما وراءها من مروج وجبالٍ ومدنٍ ، وإلى ما يتخلل هذه من آثار مخلّدة المجد لا تزيدها نوائب الزمان إلّا عظمة وجلالاً . أنظرُ إلى كل هذا الذي لا يُرى وكأني بتأمُّلي فيهِ أفقدُ إحساسي بذاتي وبما يحيط بي . حتى إذا ما رفعتْ السفينةُ أثقالها ، وشدّت حبالها ، وضمّت إليها مرساها ، ومضت في مسيرها تشق المياه العميقة انطلقت من نفسي صلاةٌ حارَّة : « يا مصر حنّي علينا بالرجوع إليكِ ! » وإذا كنتُ مودّعةً سوريا ناجيتُ الوطن القديم قائلة : « إلى الملتقى يا سوريا الحبيبة الجميلة ! » وما وصلتُ عرض البحر إلّا صرتُ كلّي غنيمةً شاردة لا يقيّدني مطلبٌ ولا مطمع . ترعى في نفسي الأحلام . وينبهني قلباً وعقلاً التأثيرُ المنطلق من تلك الأناشيد المستديمة التي لا تفتأ تعزفها البحار في الفجر وفي الغروب ، في النور وفي الظلام .

●

ركبنا البحر والشفق يملأُ الأفق .

اني أظلُّ أقول إن الضحى أبهى ساعات النهار . إلّا أن الشفق ألذّها وأوعبها للمعاني وأجلبها للأحلام .

وقفتُ أحدّق في الألوان المالئة الفضاء . ألوان الشفق المتمازجة : الأحمر واللازوردي والرمادي والأسود الذي لم يتمّ سواده . وقفت أرقب كيف تنطفىء اللهب وتكمُد السحب ، وكيف تحزن الآفاق ويحلك الكون غارقاً في ظلمةٍ شاملة . وقفتُ طويلاً . وكان يشتدّ فعلُ هذا المشهد فيّ بفكرة

أني سألذّ بمرأى مثل هذا التنوُّع وهذا السناء سبعة أيام متوالية . فما أحسن الوباء الذي يفرض على المسافر أن يقضي أسبوعاً قبل دخول الأرض المصرية ! وما أحسن ما ارتأى قادة المركب بصرف هذا الأسبوع أياماً متقطعة في الشواطىء التي هي على خطّ رحلتنا ، بدلاً من الجمود في مكان واحد نكون فيه أقرب إلى الضجر والملل !

كنتُ أفكّر مردّدة « سأظلُّ كل هذا الأسبوع فريسة الأحلام ، الفريسة السعيدة ... سأنسى كلّ هذه الأيام أنني جسد ... » فإذا « بالجرسون » يدقّ ناقوسه دقاً عنيفاً . مضى يدقُّ في جميع الزوايا شأن من يستنهض أمّة للحرب والنضال لا شأن من يدعو المسافر إلى قاعة الطعام . وانقض على زاويتي ولم يكن فيها غيري . وظلّ يدق باستهتار ، وأنا أصيح « سمعت ! » ولكنهُ لم يسمع صياحي . ووضعتُ يديّ بداهة على سمعي ، ولكن « الجرسون » لم يرَ مني أكثر مما سمع . لأنهُ كان يقوم بدقّ ناقوسهِ وإتمام واجبه بإلحاح وتصميم . فلم يبقَ لي إلّا أن أضحك قائلة : « وهل يمكنني أن أنسى إني جسد وفي هذا المركب المبارك جرس كهذا الجرس يدقّهُ هذا « الجرسون » البطل ! » .

وكانت البليَّة في قاعة الطعام . إذ وجدتُ نفسي بين سيدة ورجل وكانت السيدة جارتي بسرة ، والرجل جاري يمنة . وكان هذا الجار ألمانياً . فأخذ على نفسه ملاطفتي بلغتهِ وانطلق في حديث استغرق العشاء من أوَّلهِ إلى آخرهِ بلا مهادنةٍ ولا تباطؤ . وكان استيائي وفروغ صبري مَضحكةً لجارتي وجيرانها . إلّا أن وقت الخلاص دنا عندما نهضتُ بعد العشاء مودّعة جاري اليمين فاستوقفني ليقدّم لي ... مسك الختام . قدّم لي علبة مفتوحة وأكّد لي أن العلبة وما فيها من واردات برلين . وظلّ يدعوني إلى أن أتحقق من ذلك بنفسي . يدعوني ويتبسم . فنظرتُ إلى العلبة ، ثم إلى مخاطبي ، ثم إلى العلبة مرّة

أخرى ففهمتُ أن ما لا بدّ منهُ لا غنى عنهُ . ومددتُ يدي أتناول بين أصابعي قليلاً من « النشوق » المعطّر ...

لا شك عندي في أنك لبيب يا مَن تقرأ ...

●

ولكن هيّا إلى سطح السفينة ! هيّا إلى حيث نخلو بالظلام ! فإن الظلام مخيّم في الأفق ، متكاثف على الشاطىء ممتدٌّ على الأمواج . وأنوار بيروت تغامزني مشيرة إلى ما لا أعلم . وجبال لبنان تقف متساندة في الليل كأنها أسوار من روعةٍ وظلام .

وأخذتِ السفينة تتحرّك فخُيِّل أن بيروت ولبنان يتباعدان هما عنّا يهمّان بأمرٍ خطيرٍ يجب ألا نعرف منهُ شيئاً ، نحن النقطة الهائمة على الماء . وظلّا يتباعدان كَتُومين فمضيت إلى سريري قبل أن يغيبا عن البصر تماماً . ورقدْتُ سعيدة لأني نمتُ مرّة أخرى في بيروت عند قدم لبنان . واستلمني إله الكرى .

وما انتبهت في صباح الغد إلّا والشمس مشرقة والأفق بسّام فوق مدينة حيفا .

●

الرحلة الثانية

حيفا ـ يافا

كما تسرع الموجة الصغيرة إلى الاختباء في حضن أمها بعد مداعبة الشاطىء كذلك تجلس حيفا في سفح الكرمل. كأنها بعد غسل بيوتها في البحر ابتعدت وارتفعت خوفاً من البلل.

ومن جوانبها تتشعّب السبل إلى مختلف الأنحاء. فأسير فيها بالتخيُّل والذكرى.

هذه سبيل تحاذي شفة البحر إلى عكّاء الجميلة الضواحي، الغنية التاريخ. ومن ثم إلى حديقة «البهجة» أجمل حدائق تلك البقعة. وفي جوارها «بستان العجم» عزلة كبير البهائيين عباس أفندي، ومن أحفل الجنّات بالورود. ثم تمتدُّ الطريق وتتلوّى، وترتفع وتنخفض حتى صور ابنة صيدا وأم قرطاجنة. صور التي شيدت، على ما يرى المحدثون، بأمر من تيروس سابع أبناء يافث بن نوح. ويقال إن أجينور الطرواديَّ سكنها مع أبنائه الثلاثة: قدموس، رافع جدران طيبة اليونانية وناشر الأبجدية في بلاد الإغريق. وفينيقس الذي أطلق اسمه على بقاع فينيقيا الواسعة. وأورب الذي دعيت أوربا باسمه.

من صور هذه انطلقت القوافل النشيطة تنشىء المستعمرات في بلاد لم تكن تعرف معنى العمران. شادت قرطاجنة منافسة روما بعدئذ، وأوتيكا

الأفريقية ذات التجارة الغنية ، وقاديثا الأندلسية التي مضى منها الإسبان فيما يلي من العصور للبحث عن العالم الجديد .

صور اليوم مهدَّمة كئيبة . وفيها سكينة اليأس والكلال بعد أن كانت الملتقى الأكبر للمواصلات مع جميع أنحاء العالم المعروف يومئذٍ . تتتابع الطريق منها بامتثال ، على مقربة من بحرها الجميل الفتَّان ، إلى صيدا المدعوة في التوراة « صيدا العظيمة » . صيدا العظيمة التي أغرت الغزاة والفاتحين بجمال موقعها ووفرة ثروتها . هنا ما زالت الطبيعة فتية باسمة . في بساتينها تتهدَّل الأثمار ويعذب الجنى . وفي فضائها تنتشر عطورُ الأزهار وأرواح جميع ما تنتجُ الأرضُ . والبحر يعزف أنشودتهُ في ظلٍّ جبال لبنان المضمَّخة بهناء معناها وحب أبنائها .

ليس الجبل الذي تستند عليه حيفا القائمة أمامي لبناناً ، بل هو الكرمل .

هو أكمة من سلسلة جبال الكرمل الممتدة بين بلاد الجليل والسامرة . لقد سافرتُ في حياتي الصغيرة مرَّات على ظهر الجواد في ظل هذه الجبال ، واستوعبتْ روحي ما ينطلق من أشكالها وروائحها وبقاعها وغاباتها وصخورها من المعاني والأخيلة . ولكم شهدتُ أسراب الطيور فوقها وحواليها مرفرفةً ! ولكم رأيتُ الأرانب والغزلان بين صخورها وأشجارها شاردة !

رأس الكرمل أعلى الرؤوس في الشواطىء السورية . ويدعونهُ كذلك « جبل مار الياس » تأييداً لما ورد في التوراة من أن ذلك القديس الجليل عاش في مغاورهِ . وقد شاد الآباء الكرمليون كنيسة على قمتهِ ، وبجوار الكنيسة دير يقطنهُ عشرات من أولئك الأتقياء الصالحين . إنها لعزلة جميلة تطلُّ على منظر بديع . هناك لا يزعجك صوتٌ ممقوت ، ولا جلبة الاجتماع وأكاذيبه . بل ما تسمعه صباح مساء هو أناشيد التسبيح والتهليل على توقيع الأرغن الحنَّان . وتظلُّ ابتهالات الغسق والضحى والأصيل متعاليةً نحو الذي رفع الجبال ومرج البحار .

لست أدري أأنا أشد حبًّا للكرمل ، أم لجبل الطور المستدير هناك على صفحة مرجِ ابن عامر ؟

قد تنتهي أيامي قبل أن أكون على بينة من الأمر . كلُّ هذا يبث في النفس عواطف رحيبة . وكأنه يوسع التنفس في الصدر ويجتاز بالمرء كل عاطفةٍ وكل تأثرٍ وكل إحساس بما ينشره من أشكال وألوان وخطوطٍ وعطورٍ وتذكارات قديمة مجهولة . وسحره الأكبر . كسحر كل محبوب ، هو الشيء الذي لا يعبر عنهُ . كان لامرتين ما حل بأرضٍ جميلة إلَّا قال : « هذه أبهى ما رأيت . وأودُّ أن أدفن هنا بعد موتي » . ولكأني من هذا القبيل لامرتين بعض « اللامرتينية » .

على أن أعذب تذكار لديَّ من هذه الميناء هو أني عندما تعرفت بالبحر ووقفت في حضرتهِ للمرة الأولى في طفولتي . وهو الذي ركبتهُ يومئذٍ لأذهب إلى مدرسة راهبات الزيارة في عين طوراً .

مساءٌ ما زال حيًّا كأنه مساء البارحة .

كان القمر بدراً يغمر هذه الجبال والبقاع المنبسطة عند موطئها . وكانت أشعته تنصبُّ سيلاً على المياه فتخطُّ فيها ممرًّا نورانياً وسيعاً . قضيت تلك السهرة وأنا أرقب ألوف الأرواح الصامتة تغتسل فيه جذَلى . وإذ همَّت الباخرة بالمسير حمل إلينا النسيم مقاطع شدوٍ كله شهيق ونحيب . كان النسيم يحمل ذلك الشدو متقطعاً كأنه مثقلٌ بعطور الكرمل من صعتر ونعناع وخزامى وخليط من شذا سائر الأعشاب البرية .

ما هو هذا الصوت ؟ أصوات وداع بعيد ؟ أهو يأس يتفطر في أواخر السهرة عندما يطوف الكرى في اللواحظ ؟ أهو نشيد للبحر أم نشيد من البحر ؟ أم هو إيذان بالرحيل للسفين المتأهبة ؟ لم أعلم يومئذٍ . ولقد زاد هذا الجهل في تفخيم اللغز وإيهام لذاذتهِ . ومرت أعوام قبل أن أعلم أن ذلك كان صوت كمنجة ، تلك الآلة الوترية التي هي أعجوبة عذوبةٍ وتفجع

كأفعل حنجرة انسانية شادية .

●

كنت أراجع هذه الذكريات الحية وأنا أنظر من نافذة قاعة المائدة إلى جبل الكرمل الذي كانت السفينة تدور حولهُ في تلك الساعة الحارَّة ، ساعة الظهر . فأجد تناقضاً بين وقت التذكر ووقت حدوث الذكرى ويَنيلني هذا التناقض سروراً . ولكن الرجل الذي ولَّته الآلهة أمر تعذيبي في هذين اليومين ، كان جالساً إلى يمناي كعادتهِ في غرفة المائدة . فقطع عليَّ سير خواطري بحديث آخر ، طويل كجميع أحاديثه . لعله كان الحديث ذاته يردِّده كل مرَّة ؟ لالا ! إن فيه هذه المرة شيئاً جديداً . جاري يندب سوء حظه لأن عند المساء نازلٌ في يافا حيث ينتظرهُ أصحابهُ . بشَّرك الله بالخير يا جاري ! ومضيتُ أُهنئهُ بالسلامة قبل السلامة بخمس ساعات . فشكرني شكراً صميماً بأن قدم لي علبتهُ المحبوبة . فاغترفت منها هذه المرة برضىً وإقرار بالمعروف كأني من منهل فضلهِ أغترف .

وودعني جاري عند الغروب والزوارق تحتشد حول الباخرة الراسية. وكان متأثراً قليل الكلام ولكن سخيّ اليد . لأنهُ فتح علبة النشوق مرة أخرى فتحة طويلة ، طويلة كأحاديثه ، وظلت علبته مفتوحة حتى ابتعد الى أطراف السفينة . فأطبقها هناك وهرول ينزل الدرجات الخشبية .

عادت الزوارق الى الشاطىء وهدأت الحركة على صفحة البحر . فجاء الظلام مَرة أخرى بحلكه المرصع بالأنوار ، وروعته التي تملأ النفوس تعبُّداً وخشوعاً .

الرحلة الثالثة

يافا ـ بور سعيد

هل خطر لك أن تعرف تاريخ ولادة أبي وأبيك وأبيه وأبينا وأبيكم وأبيهم . أعني أبا الجميع . آدم بالاختصار؟ ألا فاسمع وأعجب !

كانت الأرض خاوية خالية فجاءها آدم قبل مجيء المسيح بثلاثة آلاف وتسعمائة وأربع وثمانين سنة . وكان ذلك اليوم المجيد يوم الجمعة في ٢٨ اكتوبر الساعة ٦ صباحاً والدقيقة ١٢ .

هذا ما حدثني به جاري الألماني قبل الفراق في إحدى محاوراتنا ، قائلاً إن عالِماً جرمانياً قضى السنين الطوال في معالجة هذه العملية الحسابية التي يترتب عليها تاريخ النوع بأسره .

قلت : بورك في الألمان وعلمائهم ! وها إني أنتظر من فطنتهم حل مسألة أخرى لاتقل أهمية عن عمر أبي الجنس البشري .

قال : وما هي ؟

قلتُ : يقال إن نوح البار بنى فُلكه الشهير في معامل مدينة يافا . وإنه دخل ذلك الفلك هو وعائلته وسائر الحيوانات المختارة للالتجاء معه ، في هذه الميناء التي أمامنا ، ميناء يافا . وترى أهالي « قاديثا » ـ أحد الشواطىء الأسبانية ـ يقولون ذات القول عن مدينتهم ، وينسبون هذا المجد إلى مينائهم. فهل لعالم ألماني أن يحل هذا المشكل وينبيء الناس ما اذا كان فلك جدنا نوح

عليه السلام سوريًّا أم أسبانيًّا ؟

فوعدني مخاطبي باستنهاض أصدقائه من المؤرخين والعلماء . وأنا أعد القارىء بأن انبئه الخبر عند ما تأتيني خلاصة هذا المبحث الخطير .

●

ايقظني في صباح الغد صوت كبير دوى في البحر طويلاً حتى خال لي أنه حطم الجبال الراسية في قعره . فنهضت مسرعة أنظر من النافذة . واذا بأمطار غزيرة تتدفق والجو ملبد بالغيوم السوداء . وقد عبث البحر بالسماء فظهر غضبه قتاماً حتى تلاحمت أطرافه وأطراف الجو . فأسرعت بالنهوض لأني لم أر زوبعة في زماني . وصعدت إلى ظهر السفينة فإذا جمال رائع . المياه تقاتل المياه ، والأمواج تكتسح الأمواج لأنها تحسبها غيوماً . تكتسحها لعجزها عن التوصل إلى الغيوم المتراكمة في الجو . والغيوم تمازح البحر في علاها كمن يقول : لقد امتصتني حرارة الشمس من أطرافكَ أيها البحر ، وأنت غافل ! فاحتمل الآن ضربات نقمتي لعدم أكتراثك بي . عند ذلك يدوي الرعد في كبد الغيوم البعيدة ويرجع صداها الهائل على زوايا الغيوم اللاصقة بالأمواج . والبرق يتلوى مخترقاً قتام الجو حتى إذا لمس صفحة المياه تلاشى تاركاً للنظر صورة جمال مرعب .

أخذت الغيوم قبيل الظهر تصفرُّ شيئاً فشيئاً . وقد صغر حجمها بقوة الشمس فوقها تحرقها بحرارتها وتطعنها بحراب الأشعة . فهبط سقف الغيوم ، وتشقق تماسكه وتبدَّدت جيوشه بفعل الأنوار المهاجمة من كل صوب .

ثغرٌ كبير تفتح في ظلام الجو . ومن بين الشفاه الملتهبة ناراً ونوراً سال على الكون نهر بهجة وضياء . ثم اتسع ذلك الثغر ، وتشققت الشفاه عن زرقةٍ تحتجبُ ولكنها لا تغيب . وصفا الجو فسرحت غزالة النهار تجرُّبتيه ودلال شعورها الطويلة الشاملة أطراف العالم ، ولا حياة لهذا العالم إلا بها ...

. .رأيت انقلاب الجو ، وصفاء الفلك ، وسكون البحر دون أن أتحرك

كأن صاعقة انقضت عليّ. دهشةُ هذه العجائب سلبت مني القوى ، فلم يبق فيّ غير الحاسة التي تشعر وتسكن وتستسلم وهي سكرى .

●

كالملكة على عرشها تستوي يافا على شطها . وفي البعيد تدور حولها الحدائق والأشجار كهالة سندسية . وتنطلق منها أرواح البرتقال والليمون مختلطة برائحة المرارة البحرية القوية .

من أطراف يافا تتفرع الطرق أمامنا إلى الداخلية فأراني سائرة عليهابالتذكار .

هذه طريق تنتهي إلى بيت المقدس المكفنة بجلال تاريخها وبالكآبة الدهرية المخيمة على آكامها وسهولها . وتلك طريق تسير نحو الخليل وغزة . وطريق أخرى تمضي إلى السامرة الجثوم في صدر جناتها الشائقات ، وفي أهوائها ترفرف أرواح الفل « واليوسف أفندي » كأجنحة عطرية . وكأن السامرة تتجمع في تلك الغوطة لتصغي إلى نشيد المياه المتدفقة ، ذاك النشيد المتواصل وفي حلاوته تهليل وتكبير .

ووراء السامرة جبال كثيرة الاخربة وسهول عديدة الآثار ، وقرى كأنها مقاييس خطوات الزمان . ثم جانين القائمة في مدخل مرج ابن عامر ساحة قتال الفلسطينيين الكبرى حتى أيام نابوليون .

ومن هنا تسير السبيل إلى الناصرة ، فقانا الجليل فقيرون حطين القائمة بين جبلي الطور وحرمون ، والمشرفة على بحيرة طبريا الحزينة . ثم طبريا. ثم تتوغل الطريق في انحاء يسكنها عرب المضارب ذوو العيون السوداء الطويلة ، حتى قيصرية فيليب القائمة عند قدم حرمون « جبل الشيخ » . ثم الصحراء . ثم الواحات . ثم دمشق واحة الواحات و « مليكة الصحراء » .

●

من كل تاريخ يافا الخطير أذكر الآن أمرين صغيرين : أولهما أن المراكب

التي أرسلها حيرام ملك صور مشحونة بخشب أرز لبنان لبناء هيكل سليمان ، رسَت في ميناء يافا ، ومنها نقل الخشب إلى أورشليم . اذكر هذا الأمر هنا لأني أتخيل أن وقوع بعض الأرزات سهواً (وهذه الأرزات لا تزال في قعر الماء !) هو ما يجعل هذه الميناء صعبة العبور ، شكسة الصخور ، حادة الانواء .

والأمر الآخر هو حكاية النبي يونان الذي ابتلعهُ الحوت هنا حيا وبعد أن أقام في جوفهِ ثلاثة أيام مضى يقذف بهِ على ساحل جونيه بلبنان ـ على ما يروون .

●

أقبل المساء فتحوَّلت السفينة عن الشواطىء السورية وجاء النسيم يحمل نفحات الوداع من حدائق يافا ومعها أريج البرتقال والياسمين . والكنار الذي ابتعتُه عند الظهر من باعة يافا أرسل نشيده الشجي كأنه شعر بالرحيل . نشيداً لن نسمعه طويلاً ، لأن هذا الكنار سنفقده غداً فيكون البحر العظيم ضريحه .

مضت السفينة نحو الشط المصري ، ففتحت كذلك سفينة أحلامي شراعها وأخذت تشقُّ بحر هجسها وتخيلها .

وغرد البلبل . فقلت وداعاً يا آخر سواحل سوريا ! إني أحمل منك في مسمعي تغريداً ، وفي عيني جمالاً ، وفي روحي صبابة وانتعاشاً .

الرحلة الرابعة

بور سعيد ـ الإسكندرية

قالوا ان الاختبار استاذ ماهر وأنا أصادق على هذا بفكري وقلمي ولساني. لأني اختبرت أشياء بنفسي وكان لي من الظروف والوقائع مقنع ومرشد.

رأيت في أسفاري القصيرة ان الذين يصابون بدوار البحر يصغرون في عيني نوعاً ، مهما سمت درجتهم وكبر مقامهم . ولاحظت أن البحر يلبسهم من البلادة ثوباً مضحكاً وهم يتألمون . وانهُ يأخذ من هيأتهم وحركتهم ومشيتهم ما يدلُّ على الذكاء والتوازن ، حتى لا يسعك الى أن تضحك من من تمايلهم وأنت عالم بما يقاسون.

ثم نظرتُ إلى « الجرسونات » نظرة المعجب بخفة حركتهم وسهوهم عن حركة السفينة . فقلت في نفسي ان جرسوناً من هؤلاء يفضل أفلاطون وهو دائخ . دعْ عنك فلسفته وتفرُّدهُ . والخلاصة ان هذه الملاحظات أدت بي إلى نتيجة جعلتها مصدراً لنتيجة أخرى جمعت بين الفائدة والحسن . وهي اني قبل ركوب الباخرة أكتبُ بخط يدي تعهداً على نفسي بألا أدوخ الا عند الضرورة القصوى . وأعني بالضرورة القصوى رفاق السفر غير المرغوب فيهم : مثلاً : لو ظل جاري معنا كل الطريق لدخت بلا محالة دون أن أنكث عهدي مع ذاتي .

لكن كان غير ذلك ، فلم أجد فرصة للدوَّار يصيبني . لأن رئيس المركب ومن معهُ من البحارة قوم لطاف . وكذلك بعض المسافرين ، وفيهم الموسيقيون والعلماء والسيدات الجميلات لا سيما الشاب الانجليزي الذي يجيد العزف

على البيانو. والسيدة الايطالية الأصل ، السورية الزوج ، ذات الصوت الرخيم. إلى غير ذلك مما يبهج النظر ويسر الخاطر. حتى اني عند وصولنا مياه بورت سعيد سألت الله سرًّا أن يطيل أيام الحجر الصحي على ظهر هذه الباخرة ، الجميلة وان كانت ارملة ...

...هل أخبرتك ان سفينتنا أرملة ؟ لا أظنني فعلت ، حتى ولا عرفتك بها ! فاعلم ان هذه الباخرة تدعى باسم آلهة من خرافات الأقدمين. هي أميرة بنات المياه. هي امبراطورة الجنيات كما أن جلالة جورج الخامس هو امبراطور الهند وهي ملكة الأمواج كما أنا ملكة قلمي. هي « امفيتريت » امرأة « نبطون » إله البحر ، ذي الخطاف المثلث الشوكات.

ولذا تراني أمشي على ظهرها باحترام وخوف كيلا أسبب لها ما قد تحسبه إهانة واستخفافاً.

وقد سألت القبطان عنها فقال انها تجاوزت السادسة والثلاثين ، وإنها تحتوي بين دفتيها على أربعة آلاف طن.

ثم سألته عما اذا كان بين بواخر الشركة النمساوية باخرة تدعى « نبطون» فأجاب انه كان هناك سفينة بهذا الاسم لكنها شاخت وقضت نحبها. ولذلك أصبحت (امفيتريت) أرملة ... ولا حول ولا قوة إلا بالله !

●

مكثنا في بورت سعيد يومين وفي ميناء الإسكندرية يومين ، ولا تسل عن الزيارات الطبية فإنها متواترة تضحك وتغضب. لكن نظرة واحدة الى البحر تنسيني هذه الحوادث الصغيرة فأعود الى التأمل في لجج المياه المتدافعة.

وكم تمنيت أن أكون رجلاً لأكون بحرياً وكاتباً ، مثل بيير لوتي أحد أعضاء الأكاديميا الفرنساوية الذي لم ينظم شعراً. ورغم ذلك فهو في نثره كلما جرى قلمهُ على صفحات الأوراق.

هم سعداء حقاً أولئك الذين يقضون شطراً من حياتهم تائهين على الأمواج ! غرفتهم المتحركة تجول بهم في العالم ، وعيونهم تنفتح أبداً على شواطىء غريبة جديدة فتانة .

البحر يمثل لهم عظمة الله ، والبقاع الواسعة المتنوعة المحتويات تريهم شطراً أكبر من آثار قدرته . كما انها تزيدهم معرفة بالإنسان وأخلاقه وعاداته وممكناته .

في كل بحّار ترى شاعراً وفيلسوفاً وعالماً . البحّار كالجندي الرجل كل الرجل عندما يخلص في حب مهنته . في عينيه ترى صورة الزوابع التي شهدها كما ترى في عيني الجندي صورة المعامع التي اقتحمها . وهو كالمياه في لينه ومثلها في بطشه .

في ساعديه وروحه قوة اكتسبها من مقاتلة العناصر الهوجاء . وفي أفكاره حرية المياه وعمقها . وفي قلبه عبادة البحر مملكته وملكوته .

●

البحر ! ... هو أحد أقانيم حبي وحبي مثلث الأقانيم : السماء والبحر والعيون .

السماء حيث تتوه النجوم عن أبصارنا الضعيفة مواصلة حركتها الدائمة . السماء حيث تتمشى الغيوم وتبتسم ربة الجمال . السماء حيث ينطق البدر صامتاً وهو سائر لتكميل دورته بين رفرفة الأرواح وحومة الخواطر . والبحر شقيق السماء ومرآتها حيث ينعكس أثيرها ونجومها وأنوارها . حيث تسبح الأسماك العجيبة الأجناس والألوان وحيوانات البحر العظيمة . البحر شقيق السماء وصورة الأبدية مثلها .

والعين مرآة القلب ونافذة الروح . فيها تتمشى الأفكار وفيها تتصور العواطف والأميال . وعليها ترتسم العوامل والتأثيرات ، ومنها تطل خيالات

الآمال وبوادر السرور والابتسام .

والعين كذلك صورة الأبدية الصغرى لأنها مرآة الروح ، والروح مجموع الأبدية ...

●

طال سهري آخر ليلة وأنا أمشي على سطح المركب أودِّع المياه وقد اعتدت منظرها في الضوء وفي الحلك . طال سهري أفكر اني لن أراها قبل مجيء الصيف المقبل . وشعرت بالحزن يدفقُ في جوانحي أسفاً على الأموات (وهذا الشهر شهرهم) الراقدين تحت الثرى لا يرون بدائع الكون ...

...أيتها العيون المحوَّلة نظرك عن أرضنا ! على أي آفاق تفتحين جفونك؟ وماذا ترين هنالك ، يا أيتها الأحداق الشاخصة ؟ هل بين ظلام الأبدية وظلام أرضنا تشابه وانتساب ؟ وهل أنوار دياركم تماثل أنوار ديارنا ؟ .

أين تنظرين وماذا ترين ؟ ألا صدقتنا الخبر يا عيون الموتى ؟

●

إيه مصر العزيزة ، عليك ألف تحية وسلام ! بلاد الشمس والنور الباهر ،

إيه مصر العزيزة ، عليك ألف تحية وسلام ! بلاد الشمس والنور الباهر ، مرضع الحنطة والأثمار ، مغزية القطن ومروية النباتات ، مقلع المرمر والصوان ، مملكة الهياكل والتماثيل والأعمدة . محراب الآلهة ، مكمن الأرواح ، معقل الخلود ، خزينة الذخائر الغالية ، جنينة الأفراح والتغاريد، حديقة الورد والفل والبنفسج ، سلام عليك وعلى نيلك ، على لغتكِ وأهليك ، وسلام على سهولك الفيحاء ؟

...أرض الفراعنة والبطالسة ومن همْ أقدر من بطليموس وفرعون ، في سمائك تتجاوب نبرات العزِّ ونفحات الأسرار ! أنت متحف الرموز والإشارات حيث أشباح لهب المشاعل على الجدران توقظ الآلهة الهاجعة في

هيا كلك ! ها قد عدتُ اليك فإذا بقلبي يمتدُّ لك بساط صلاة وتضرُّع ..

عادت روحي إلى مصر فدعوني أجلس وراء تلال الرمال حيث يقطن السكوت غير المتناهي ! دعوني أنفرد في وحدة الأفق وأناجي أبا الهول !

تأبين فتحي زغلول باشا

رسالة إلى لطفي بك السيد

في هذه الرسالة والرد الذي يتلوها سجل من السجلات القيمة، ولعله الوحيد من نوعه – من حيث ممشاة الحركة النسائية والإجتماعية في مصر . كتبت سنة ١٩١٤ بعد حفلة الأربعين لتأبين فتحي زغلول باشا . ومضت بعد ذلك خمسة أعوام الحرب والنفوس تختمر في السكوت وتنضج . حتى جاءت حركة ١٩١٩ وكان ما كان من نهوض الأمة بشطريها . مما أدى إلى الامتزاج بعض الشيء . واليوم ترى للسيدات مكانهن في كثير من الحفلات العامة ...

وقد نشرت هذه الرسالة يومئذ في « الجريدة » التي كتبت لها . ثم في « المحروسة » و« مجلة سركيس » .

حضرة الأستاذ الفاضل مدير « الجريدة »

في نفسي كلمات جائلات منذ ثلاثة أيام ، اذا حاولت الإفصاح عنها باللسان أو بالقلم تبعتها حتماً علامة الاستفهام .

ارفعها إليكَ لأنك كتاب حيٌّ يرجع إليهِ الباحث في ساعة الحيرة والتردُّد. ولقد جرّأني على إبداء فكري اني وجدت في خطبتك الجميلة ذكراً لوالدة فقيد مصر، وذكرتَ من أجلها جميع الأمهات القرويات الساذجات اللائي أعطين لمصر أعاظمها . لم تضرب صفحاً على جهلهن وبساطتهن ومع ذلك فقد اعترفتَ بأنهن مهذّبات فتحي باشا وأمثاله . كأنك أردتَ أن تنبّه السامع

والقارىء الى أن الخواطر العظيمة ، كما قال فوقينارج ، تأتي من القلب ، وأن على هذا القياس يكون ذكاءُ القلب أعظم ذكاء .

أما سؤالي فها هو: لماذا لم يكن للنساء نصيب في حضور حفلة التأبين ؟

حفلة جليلة أقامتها مصر لتأبين فتاها . ومصر كسائر بلاد الله ، على ما أظن ، تتألف من رجال ونساء . لم تكن الحفلة قاصرة على هيئة الحكومة أو على طائفة المحامين والعلماء . بل كانت عمومية جامعة بين المحمدي والعيسوي والشرقي والأجنبي على السواء . غير انكم نبذتم منها جنساً واحداً : وهو الجنس الذي منه رفيقة مهد فتحي باشا ورفيقة نعشه ، والدته وزوجته . نبذتم ذلك الجنس الذي يعيش بعيداً في ظل النصر الشامل يوم يكون الرجل غالباً قاهراً . حتى اذا نهش نفسه اليأس وأدماها الألم ، وخالطتها وحشة الموت عاد الى جنب الجنس الذي لم يخلق إلا ليكون شقياً ، الجنس النسائي .

قالوا ان مثلا حياً واحداً لهو أنفع من ألف درس نظري تمليه كتب المتقدمين والمتأخرين ، ويلقيه ابلغ الفصحاء من المتكلمين . فإذا شكا الرجال بحقٍ أو بغير حق ، ثرثرة النساء وخفّة نفوسهن وميلهن الى الزخرف والزركشة و « الدنتلا » ، واعتبروهن غير حريات بأن يشاركنهم في الحياة القومية ، فما بالهم لا يسعون بالتقريب بين الإفهام وحذف ما بين مدارك الجنسين من مسافة يزعمونها شاسعة ؟

غريب أن تبخلوا على المرأة بحضور اجتماع يرفع نفسها الى أسمى درجات التأثر المفيد ، ويلفت عقلها الى هيبة العلم وعظمة الفضل ، ويعلّمها إجلال الوطن ورجال الوطن . مع انكم تسمحون لها بالذهاب الى هذه الاوبرا نفسها لحضور الروايات التمثيلية . روايات قد يكون لبعضها أثر طيب في الذهن ولكنه بعيدٌ عليه أن يلمس من نفسها الموضع الذي كان ذلك الاجتماع قد يلمسه .

قد تقولون ان المرأة لا تفهم معاني التأبين كما يفهمها الرجل . فأجيب أننا اهتممنا بالخطب والقصائد اهتماماً عظيماً واستعملنا عند قراءتها ملكتي النقد والاستحسان . وهذا ينمّ عن استعدادٍ فينا غير قليل تتجاهلونهُ عمداً أو تجهلونه سهواً وإهمالاً .

وإذا قلتم ان فتحي باشا كان عالماً مفكراً وان العلم والتفكير من خصائص الرجال أجبتُ أن العالِم الحقيقي والمفكر المخلص هو ذاك الذي يكتب للرجال والنساء بلا تفريق ، ويودُّ أن تكون كتاباتُه هدى ووحياً لجميع أفراد الأمة . بل يودُّ أن تكون ذلك لشعوب العالم أجمعين . ولا شك أن فتحي باشا ذلك الرجل . إذ لا رأيتُ أنا ، ولا أحد رأى على غلاف كتبه كلمة كهذه « محظور على النساء » أو « حقوق المطالعة محفوظة للرجال » .

لما قرأتُ الخطب والقصائد حملني الخيالُ الى ذلك الاجتماع ، ورأيتُ الجمع ينصت كأن صوت الخطيب والشاعر يجاهر بما يجول في نفس الجمهور . رأيت الجمع منحني الرؤوس كأنه عالم بوجود قوةٍ خالدة في فضاء المكان يتهيب النظر أن يرتفع إلى هيولاها ، ويخاف الفكر البحث في ماهيتها . بينا القلوب تتردَّد همساً : هي الروح المودِّعة ترفرف على جباه ذاكريها.

موقفٌ جليل فيه الذكرى أفصح خطيب ، والصمت العميق أحدُّ تصفيق ، وآهات الحياة حكمٌ باهرات ، والدموع ، دموع سعد باشا ! ... انها دموع عظيمة آتية من بعيد ، من أعماق المحبة المقدسة . انها سيَّال حبٍّ تدفعهُ أبدية القلب الراحل في لوعة القلب الباقي . انها دموع بسيطة ، طاهرة ، بليغة ، أبكت من شهدها وما برحت تستفز دموع من سمع بها . دموع رجل نسي كل شيء في لحظة واحدة . غير ذاكر إلا أنه كان له أخٌ خطير غاب غياباً أبدياً لا لقاء بعده في هذه الدار . أراد إسداء الشكر الى الأحياء ، فما عثر إلاَّ على كلمات الوداع للراحل فلم يُجد قلبه ولسانه وعيناه إلاَّ بتلك الكلمات . وهي العبرات .

هذه آية البيان :

لو حضر النساء هذا الاجتماع لأخذن عنه أمثولة طيبة وحفظن منه في نفوسهن أثراً جليلاً .

هذا سؤالي يا سيدي الأستاذ ، ألحقته بالحواشي الطويلات . لعلك لا تجده بعد مطالعته سؤالاً بل تقريراً . وقد تحكم أن ما حسبتهُ أنا اشارة ليس إلا علامة أسف .

لك أن تحكم بما تشاء ، وكلمتي هذه هي ما تريد أن تكون ميّ .

●

جواب « الجريدة » :

« الحق مع حضرة الكاتبة الفاضلة . ولست أعرف للّجنة التي أنا أحد أعضائها عذراً في نفي النساء عن ألواجهنَّ[1] العاديَّة في الأوبرا ذلك اليوم إلا لعادةٍ درجنا عليها . لو سُئلت رأيي في اللجنة عن دعوة السيدات الى هذا الاحتفال لتردَّدت كثيراً ، وربما كان جوابي الرفض . لست قادراً على أن أقدم لهذا الرفض أسباباً يقبلها العقل ولكن الأمر هو هذا : ان احتفال التأبين ضربٌ من مأتم عمومي . ومع ذلك فإن المآتم لا تقوم إلا بالرجال والنساء . فلا أعرف شيئاً جديداً أقوله في هذا المعنى ، إلا اننا لم نكسر هذه الدفعة قيود عادة لم تستحكم بعد .

فالتأبين في ذاته حديث في بلادنا في هذه الأجيال الأخيرة . ومع ذلك يظهر لي أن الذي جعلنا لا نخصص ألواج السيدات لهن في هذا الاحتفال هو الغضاضة التي نجدها من أن ندعو النساء لحفلة مثل هذه . غضاضة مرجعها الى العادة كما قلنا .

(١) ألواجهنّ جمع (لوج » وهي كلمة فرنسية معناها « مقصورة في مسرح » .

على انه يوجد في البلاد شعور قوي لا يوافقه أن تدعى النساء للحفلات العمومية . وهو شعورٌ لا نستطيع إلا احترامه وإن كان العمل سائراً على نقيضه. لأن الذين لا يريدون دعوة النساء لمثل هذه الحفلات يسكتون على شهودهن مراسح التمثيل . اضطرابٌ في الفكر ، ولكنه اضطرابٌ طبيعيٌ قضت بهِ حال الانتقال التي نحن فيها .

تلك الحال نرجو أن يذهب بها المستقبل القريب . وحسبنا أن نغتبط بهذه الروح الجديدة التي تدفع الجنس اللطيف عندنا للحرص على حقوقه . نثبت للآنسة « مي » في ذلك سعياً مشكوراً .

في الجمعية الجغرافية[1]

نشطت الأسرة المالكة عندنا حركتها في عالم الفن والأدب على ما يظهر. فقد افتتح في الأسبوع الماضي معرض القاهرة للتصوير والحفر والزخارف قاعاته لسنة **١٩٢٢** برئاسة شرف سمو البرنسس سمية طاهر كريمة المغفور له السلطان حسين الأول. البرنسس نفسها في هذا المعرض فئة من التماثيل الصغيرة لأنها تعالج فن النحت بذوق واعتناء.

وقد سبق البرنس عمر طوسون منذ أسابيع فألقى في المجمع العلمي المصري محاضرةً ضمّنت معلوماته عن النيل. وتبعه البرنس حيدر فاضل، فألقى محاضرة في الجمعية الجغرافية الملوكية، وأخرى في جمعية الاقتصاد السياسي والتشريع عن رحلتهِ الى الأقطار الأميركية والشرق الأقصى خلال الشتاء المنصرم.

ذكرت صحف أميركا الشمالية في مطلع هذا العام خبر وصول أميرين مصريين إلى الولايات المتحدة، وعلّقت على الخبر بأن البرنس يوسف كمال مولع بالصيد كلّ المولع. ولكنها أهملت البرنس حيدر مع أنه يتصف بما هو أنبل من مطاردة الوحوش الضارية وابقى من اقتناصها. ذلك أنه صديق الشعراء والموسيقيين والفلاسفة. وليس هو الصديق النظري بل هو من «غواة» الفن ومعالجيه يكتب اللغة الفرنساوية بكياسة نظماً ونثراً. وقد أصدر منذ عامين تقريباً مجموعة قصائد شائقة بعنوان «ورود مضرجة بالدماء».

---

(١) نشرت في «المرأة الجديدة» عدد آب «أغسطس» ١٩٢٢.

وله فوق ذلك اهتمام بالعلوم الصوفية ، وهو ذو نزعة روحانية في أقواله وكتاباتهِ .

لذلك أردت أن أسمع محاضرته عن اليابان في قاعة الجمعية الجغرافية . فتكلم طويلاً بسهولة وبراعة ،تكلم بالفرنساوية كشاعر ومفكر معا . ولم يكن بالمحاضر الأصوليّ بل كان ، كما صرح في بدء الكلام ، تاليا لنا مذكرات كتبها لنفسه .

أألخّص ما سمعت منه ؟ عندما أذكر ان تلك المحاضرة ستنشر في كتابٍ على حدة تفتر همتي في التلخيص . لكني أود أن أثبت بعض ما قال عن المرأة اليابانية « تلك المخلوقة ذات القامة القصيرة ، النحيفة ، الشفافة ، اللطيفة الطائعة كدُميةٍ متحركة . التي لا تزين نفسها بالحلي واللآلئ بل بتلك الابتسامة النسائية الفاتنة ، وبالخضوع والسجود . حتى ان القَدَر نفسه اذ يراها على هذه الحالة طائعة مستسلمة يكاد لا يجرأ على لمسها والإيذاء بها ...

كان يتكلم في السكوت ، ولكن لا شك أن المعارضين له كانوا كثيرين... وتابع قائلاً إن « المسألة النسائية حُلّت هنالك في ترك المرأة على ما كانت ، أبداً ممتثلة خاضعة ، تبتسم وتخاف ولا تفتكر ، ولا همّ لها غير فن المجاملة المجاملة ومحاولة الارضاء ... » .

وهنا اعتذر إلى السيدات الحاضرات وبينهن نساء السفراء والقناصل وأعيان الجالية الأوروبية ، مصرّحاً بأنه شديد الأعجاب بالمرأة الغربية الحديثة ولكن..

في هذه اللحظة هبطت حربة جاء بها أحد أعضاء الجمعية منذ أعوام، واهداها إلى متحف الجمعية تذكاراً لرحلته إلى الانحاء القصية حيث يأكلون لحوم البشر.

هبطت الحربة المفزعة في خزانتها فانكسر حاجز الزجاج واجفل الحضور وتشتّت منهم الفكر . وكأنّ السيدات رأين في ذلك احتجاجاً على مايريد

البرنس أن يقول ، فأخذن يقهقهن تشفياً وانتقاماً . فابتسم المحاضر ، وأعلن أن الجلسة لم تنتهِ بعد . وعاد إلى مذكراته يصف من اليابان الصروح والتجارة والفن والنشاط ، ولا سيما المرأة ذات الجمال الخاص والبسمة الفاتنة .

فعجبتُ كيف تختلف نظرات الناس حتى الأذكياء منهم ، وكيف تتنافر آراؤهم في الأشخاص والحوادث . فقد كتب وليم أفندي كاتسفليس إلى جريدة « السائح » عند سفره إلى اليابان منذ شهور ، واصفاً المرأة اليابانية على نقيض ما يصفها الآن البرنس حيدر . لا أذكر ماذا قال بالحرف . وكل ما بقي من قوله في ذهني هو أن المرأة اليابانية ضئيلة سقيمة سخيفة .

ولكن هل من عجبٍ والأذواق تتعدد بتعدُّد الوجوه ؟

وبينا الجمع ينفضُّ في جلبة الثرثرة والضحك وقفتُ أدرس من الناس الملامح والحركات ، محاولةً تفسير ما وراءها من الميول والمطالب . وتمنيتُ وجود وليم أفندي مع عبد المسيح أفندي حداد في قاعتنا هذه المتسربلة بحلَّة الأعياد والاحتفالات ليستخرجا من هذا المجتمع الالمعي ذي الألقاب والثروة ما حذق كل منهما في استخراجه : فيصور إحداهما « القلوب الجائعة » بلهجته الرؤوف العطوف . ويأتي الآخر بحكاية جديدة على نسق « حكايات المهجر » بمزاحه المنوّع وبظرفهِ الرشيق .

المعرض المستديم[1]

هي فكرة فنية وطنية ذات مظهر تجاري اقتصادي ، حَدَتْ بي إلى زيارة ذلك المعرض المستديم الذي فتحته مصلحة التجارة والزراعة من وزارة المالية المصرية خلال العام المنصرم . الناس تتردَّد على هذا المكان منذ شهور ، وأنا لم أقصد إليه إلاّ صباح أمس الأول .

وجدتُني عنده أمام باب كبير كأكثر أبواب دواوين الحكومة . يحرسه جندي مصري ببذلته الشتوية القاتمة ذات الأزرار والاشرطة المذهبة. وكأن طربوشه المُحكَم الوضع على هامته فوق وجهه المقطب ، يقول بنضرته واستقامته : « اديني هنا ! شفت ازّاي ، الواحد يبقى عسكري ونظيف ويعمل الشغل تمام ؟ » .

وقد شغل المعرض منزلين اثنين متقابلين خصّصتهما الوزارة .وكلاهما بدور واحد ذي غرف خمس أو ست ، عدا الردهة والممرات . وقد شُحنت جميعاً بالمحصولات والمصنوعات المصرية والسودانية .

قلت : « المصرية والسودانية » مع أن واردات السودان من حبوب وأثمار وعاج وريش نعام وشمع وصمغ ، جُعلت كلها في غرفة واحدة . وأهمّ تلك الواردات هو العاج . وقد عرضوا منه قبضات للعصي والمظلاّت والمدى والأسلحة الأخرى ، وأيدياً للمراوح المصنوعة من ريش النعام ، وخرزات

(١) نشرت في « المرأة الجديدة » بيروت ، عدد شباط « فبراير » ١٩٢٣ .

للقلائد والسبحات فضلاً عن العلب والآلات الصغيرة المصنوعة من العاج والفضة ، وهي في دقتها السودانية تضارع مثيلاتها من الصنعة اليابانية . وما غادرتُ تلك الغرفة الاّ بحلية ابتعتها بعشرة غروش مصرية وأنا راضية كلّ الرضا ، اتزيّن بها ولا أعبأ بالضاحكين .

أما الغرف الأخرى فكل منها خصيصة بالمحصول الواحد والمصنوعات المُستخرجة منه .

فهناك غرفتان للقش . فيهما الحصر المصنوعة في الزقازيق ومصر باتقان متناه في حبك القش الأبيض وتشغيله بالقش الملوّن ، على رسوم وأشكال هي غاية في الذوق والإحكام . وفيهما المقاعد والموائد والسلال والزنابيل المصنوعة في المنوفية وفوه وأسيوط ومصر . يتوسط احدى الغرفتين زورقٌ من الخشب صُنع في القاهرة مليح الشكل ، متقن الفن ، لم يدخل في تركيبهِ مسمار واحد . وإنما ترتبط منه الألواح بخيطٍ حديدي لُفق منّمقاً على القطع البارزة. فجاء كبعض ضروب الوشي التي كنا نزركش بها أثوابنا منذ ثلاثة أو أربعة أعوام .

أمّا غرفة البُسُط والسجاجيد فليس لها من رونق ، لأن محتوياتها مصنوعة بخيط الدوباره الغليظ (هو خيط القنب بلغة القاموس وخيط المصيص باللغة العامية في سوريا) . ولكن إن حرمت تلك السجاجيد نفاسة البساط العجمي ، وبهجة السجادة الاستمبولية فكانت غير لائقة بغرف الزينة والاستقبال ، فهي على الأقل من الصنف المتين الذي يُستعمَل كثيراً ويعيش طويلاً .

وهناك غرفة الأثاث المطعّم بالصدف على نحو ما يفعلون في دمشق وغيرها . وفيها أواني النحاس المجمّل بالحفر والنقش العربي والفارسي . وغرفة أخرى للخزف والفخّار والقشاني وبينها أواني الزينة والمائدة والمطبخ . لا سيما « الانتيكات » التي أتقنتها أسيوط فقلّدت الآثار والتماثيل القديمة تبيعها للسياح فتجني كل عام الأرباح الكبيرة .

أما ترى لهذه الصناعة مثالاً في تمثاليْ ايزيس واوزيرس بهيبتهما الحجرية المفكهة ، يحفُّ بهما لفيف الآلهة القدماء من هورس اله السكوت ، إلى كبش الغنم ابيسا ، إلى أبي الهول مستودع الاسرار؟ وجميع أعضاء هذا المحفل الرباني يخالون هنا نكاتاً خزفية جسّدتها يد المكر والكفران .

كذلك خُصصت غرفة للجلد وكل ما يصنع منه كالصناديق والعلب والمحافظ الخ .

وغرفة أخرى للأقمشة الحريرية البديعة ذات اللون الواحد ، والأقمشة المنقوشة والمضلعة والمشجرة وما شاكل ، صنع المحلة الكبرى ودمياط وأسيوط ومصر .

وغيرها للحلى الذهبية التي تحبها نساء الطبقة الدنيا وبعض نساء الطبقتين الوسطى والعليا الريفيات اللائي لم يُغيِّرن الزيّ القديم . ولعل باحثة البادية كانت تتزين بمثل هذه الحلى أحياناً تعصباً لذلك الزيّ . كذلك تراها في الصورتين الوحيدتين اللتين أعرفهما لشخصها . وقد صدرتُ كتابي عنها باحداهما .

خطيَّتي لدى المدخنين عظيمة ، لأني لم أُلقِ على غرفة التبغ سوى نظرة قصيرة دون أن أخطو العتبة . فرأيتُ عشرات من علب السجاير تتثاءب عليها أسماء المعامل اليونانية والأرمنية العديدة . فلم تتحرك إليها أشواقي . خطيَّتي عظيمة ، ورغم ذلك فلست بمستغفرة !

غير اني ادَّخرت الوقت المُكتَسَب بالإعراض عن غرفة أنابيب السموم لأقيم وقتاً طويلاً في غرفة المنسوجات القطنية . فقال الموظف المصري دليلي في المعرض ، وقد أشار إلى ملاءات الأسرَّة المخططة بقلم ورديّ ، قال : «كان عندنا من هذا الصنف كمية كبيرة غير مخططة (سادا) ثمن القطعة الواحدة أربعون غرشاً مصرياً . فاهتدى إلينا في الصيف المنصرم موظفو الوزارات وصنعوا لهم منها بذلات صيفية . فكانوا اذا يأتون صباحاً إلى الديوان بملابس

ذات لون واحد وقماش واحد ، كانوا يشبهون تلاميذ المعهد العلمي الواحد يرتدون « الكسوة الرسمية » .

في صدر تلك الغرفة خزانة من الزجاج فيها نتفة من القطن « الكلاريدس [1] » . تناسقت حولها مغازل صغيرة وآلات تمثل كيفية نـدف القطن ومدّه وفتله وغزله حتى يدور خيطاً لماعاً على دولاب لطيف التركيب . فقال الموظف المصري : ـ « أرأيتِ مصدر ثروتنا يا سيدتي ؟ أرأيتِ هذا الخيط الحريري وارد معامل لنكشير؟ انهم يبتاعون منا قنطار القطن الواحد بخمسة جنيهات . ثم يعيدونه الينا خيطاً كهذا نشتريه بمائة وعشرة جنيهات لننسج به الأقمشة التي ترين . بهذا الثمن نشتري قطننا خيطاً ، فما قولك به نسيجاً ؟ إنَّ أرباحهُ اذن لا يقدرها ... سواهم ... وكيف يمكنهم بعد هذا أن يستغنوا عن بلدنا » ؟

قلتُ : « عسى يأتي يوم يكون فيه لمصر آلات الفتل والغزل ، ومعامل الحياكة والنسج ، لتجني وحدها خير أراضيها » .

فتنهد قائلاً : « من أين ؟ يا ليت » !

●

أما الغرض من هذا المعرض فهو تسهيل العمل التجاري وتهيئة مكان تُعرض فيه جميع المصنوعات . فينتفع التاجر والمشتري ويروج فنُّ البلاد وصناعتها . يعرض هذه الأصناف أصحابها مجاناً ويحدّدون منها الأسعار فتباع لحسابهم .

سألت الموظف عن عدد الزائرين والمشترين فقال : «كتير قوي » . قلت « أوَطنيون هم أم أجانب » ؟ فابتسم وأجاب بشيء من الأسف : « أجانب والله » . قلت « مع ان المنتظر في هذه الحركة الأخيرة ... » . فتمّم قائلاً :

---

(١) أنواع القطن المصري كثيرة أهمّها : الكلاريدس والأشموني ، والكلاريدس أجملها وأثمنها .

« نعم كان يُنتظرَ اقبال المصريين على مصنوعات بلادهم ... ولكن الواقع أن ٩٠ في المائة من الشارين أجانب . ثمانون منهم انكليز ولعلهم أكثر الجاليات الأوروبية عندنا تقديراً لصناعتنا . أما الأقلية المصرية المقبلة على هذا المعرض فهي غالباً من السيدات » .

قلت : « ولكن في وسع السيدات المصريات بأن يروّجن مصنوعات البلاد بإقبال أعظم مما ذكرتَ » .

قال : « صحيح ولكن هـذا المعرض ليس الوحيد من نوعه في القاهرة. فيوجد مثلاً مخازن المدرسة الإلهامية الواسعة في شارع سليمان باشا ، ومعرض مدرسة الصنائع في الموسكي . فيؤمَّهما الناس بسهولة لأنهما في وسط المدينة ، بينا نحن نكاد نكون في الطرف اذا قوبلنا بهما » .

●

ان للبنان وسوريا محصولات ومصنوعات يجهلها حتى المتنوّرون منَّا ، ولا يعرف أهميتها من الوطنيين والأجانب إلاَّ الذين تخصصوا للمتاجرة بها بها والبحث فيها .

فلماذا لا تهتم الحكومة ، أو البلديات ، أو لجنة التجار وأصحاب المال بإقامة مثل هذه السوق القليلة النفقات ، الكبيرة المنافع ؟

انها لا تقتضي أكثر من منزل أو منزلين يتولى الإدارة فيهما والبيع موظف واحد ، وموظف آخر لمسك الدفاتر ، وخادم أو اثنين للسهر على نظافة المكان ، وجندي أو اثنين لحراستهِ .

ومقابل هذا يكون لنا مستودع صغير نعلم أن فيه نماذج من صناعتنا وفنِّنا ، ومجموعة نفسية ممَّا استطاع أن يوجده ذكاءُ السلف الصالح وما زال ينتجهُ نشاطُ الخلَف في جهاده للحياة ...

سرّ النجاح[1]

إذاً للنجاح سرّ ؟

والذين فشلوا منذ مطلع الحياة أو وقفوا فجأةً في منتصف السبيل ، وأولئك الذين كانت مجموعة أعمالهم خيبة منوَّعة وخذلاناً طويلاً ، أهم اندحروا حيال الناس وحيال نفوسهم لأنهم جهلوا سر النجاح ؟

وتلك الجماهير التي عبرت الأزمنة والأمكنة صاغرةً خانعة كأنّ يد القدر الحديدية تثقل عليها . أو كأنها جاءت الدنيا تكفّر عن جرم رهيب في مشهد فوز السعداء وسماع هزج الفرحين ، أعاشت وهي يذكو من لهفتها الضرام وتنكأ من لوعتها القروح لأنها جهلت سر النجاح ؟

وماذا يكون ذاك « السرّ » ، وما هي علاقته بالحظ والنصيب ؟

بمثل هذه الخواطر التي طالما جالت في نفسي دون أن أجد لها جواباً شافياً فتحتُ كتاب « سر النجاح » . فقرأتهُ وأتيت عليهِ ، فماذا كانت النتيجة ؟

لعل أوضحَ ما فهمتُ من هذه الصفحات هو الفرق بين الحظ والنجاح .

فالحظ حالة عرضية مفاجئة قد تستعبد المتنعّم وتغريه الى الكسل والقعود . حتى اذا تخلَّت عنه ومضتْ تركته صفراً أجوف . وأمست قواه كأنها تلك « الاطلال » الموحية القصائد « العصماء » الى بعض « كبار » الشعراء .

---

(١) نشرت في (المقتطف) و (المقطم) عدد نيسان « ابريل » ١٩٢٣ .

أما النجاح فأشرف من الحظ وأبقى من السعد . وما السعد والحظ والفرض ، كالذكاء والمعرفة والفطانة والنشاط والعزم والمثابرة وإصابة النظر ودقة الذوق ، إلاّ بعض آلاته وأدواته .

النجاح النسبيّ ميسور غالباً للمجاهد على كل حال . إلا ان الحظ قد يخدم بالفرص الموافقة فيسرع في انضاج النجاح ويوسع دائرته ويزيد في أهميته . غير أنه يظلُّ دواماً على وفاق مع مزاج المحظوظ ومطالبهِ ومطامحهِ، مقيّداً بممكناته وبيئته وأحواله والغاية المنشودة . ولكم كانت حتى المواهب والممكنات والغايات قيوداً وسجوناً وحدوداً !

وقد تكون أمْيز الفوارق بين الحظ والنجاح ان الحظ كثيراً ما يكون مفسداً ذليلاً غبياً عندما يأتي عفواً لغير ذي الأهلية .

أما الجهاد للنجاح فدواماً مثقَّفٌ قوي رشيد متبصر. ان في الجهاد للنجاح، وإن فشل ، عنصر رجولة نبيلة أبية ، ورأسمال من الخبرة والمقدرة والهدوء لا يفنى .

ولقد ظهر الحظ ومرادفاته في كتاب « سر النجاح » من محرضات الأمل وموارده التي يصح استثمارها بحذق وحرص كما يستثمر كل موارد سواها . ولكن حاشا لأولئك العظماء أن يجعلوا لهم من البخت والنصيب غاية ودستوراً !

هم علموا أن في كل أمرٍ جانباً عاثباً عقيماً أبتر ، وجانباً آخر موفور الخصب قابل التعديل داني الآمال . فميَّزوا بينهما وأحسنوا اختيار الجانب الحقيقي بالمجهود ، الأقرب موافقة لمواهبهم ومساعيهم . فعالجوه فحققوا بفلاحهم ذلك المثل الفرنسوي القائل « ساعد نفسك تساعدك السماء » أو « ساعد نفسك يساعدك السعد » .

●

لذلك كان الاسم الذي أطلقه الدكتور صروف على هذا الكتاب « سر النجاح » أتمّ من العنوان الإنجليزي الأصلي (Self Help) وأدل على مضمونه وعلى الغاية التي يرمي اليها . لأن « مساعدة الذات » هي كالحظ ، بعض أدوات النجاح أو بعض عناصره . مساعدة الذات قد تتحوّل ، وما أسهل تحولها ؟ الى أنانية . أما النجاح في معناه الجميل ، والجهاد في سبيله ، فساعدة للذات ومساعدة للغير جميعاً . وأولئك الأقطاب الذين نسمع حديثهم في « سر النجاح » أبدعوا في ضروب الجهاد والعزم والابتكار . فكان برموز مواهبهم فوزاً متكرِّراً للإنسانية في أرفع المعارك التي بواسطتهم كافحت فيها الجهل والمصاعب فتغلبت على ظلم البيئة ، واستئثار الشرائع ، وإجحاف المراتب ، واستبداد العادات ، وقساوة الطبيعة . فكانت انتصاراتهم الفردية ذكرى لبني الإنسان ، وثروة باقية ، وفائدة متجدّدة ، اوقدوة أخلاقية جليلة.

أما ما أضافه علاّمتنا الدكتور صروف الى الأصل الإنجليزي من تراجم أفذاذ التفوق والنجاح في الشرق فتعة خلا منها الكتاب في الأصل وكاد يكون فيه ذلك النقص عيباً في نظرنا .

أثبت لنا المؤلف أمثلة من مختلف الشعوب ولكنه نسي العرب وتاريخهم وهو بالطبع غير مجبر على أن يعرفنا . إلا أننا نحن علينا أن نعرف مكانتنا فلا نتهاون فيها ، وأن نذكّر الناس حيناً بعد حين بأننا نشغل موضعنا في خريطة الوجود .

ان الأجانب يقدرون أهمية بلادنا ، أو بالأحرى أهمية البلاد ... التي نقطنها ، ويعنون أيما عناية بما ادخرته من العاديات والأثريات . وللشعراء وذوي النزعات الروائية منهم وثبات في عالم الخيال يحدثوننا فيها عن نفوسنا بشائق الأحاديث . ولكن إذا استثنينا نفراً من الباحثين الجادّين ، رأينا حتى جماعة الكتّاب والأدباء عندهم ضاربين عنّا صفحاً كريماً .

انظر الى بعض الكتب الفرنسوية مثلاً ، تر أن المؤلف يحفظ فيها حقوق

النقل والترجمة في جميع البلدان بما فيها اسوج ونروج (ويخال أنهما كانا في الماضي مثلنا كمية مهملة) . أما نحن فقد ترجمنا وعرَّبنا مؤلفاتهم ومصنفاتهم ، ورغم ذلك فلا وجود لنا . بل لنا وجود ، وهم لاهون عنه...به.

ففي ما أضافه الدكتور صروف جرأة واقتحام تمازجه بسمة تهكم تكاد لدقتها لا تُرى . إلاَّ أنه كان حقاً أن يضاف لأننا إن اعتبرنا بفوز كل عظيم ، فإننا بمعرفة عظمائنا أولى .

ومن جميع مؤلفات الدكتور صروف وكتاباته الجليلة الشأن أرى لهذا الكتاب مكانة خاصة . فهو الباب الذي دخل منه عالم الفكر والقلم حيث تسنَّم فيما بعد عرشاً . نقله سنة ١٨٧٧ وهو في فخر الشباب تنبسط أمامه صفحة الحياة بتهاويلها وأهوالها .فاستفاد منه ، كما يقول ، أكثر مما استفاد من أي كتاب سواه . وهو يخبرنا في مقدمة هذه الطبعة الرابعة أن الكتاب طبع للمرة الأولى في بيروت سنة ١٨٨٠ وأنه قدم « له يومئذٍ مقدمة وجيزة قلت فيها ... » ثم يخبرنا بعد سطور قليلة بأن الدكتور كرنيليوس فان ديك الذي نقل الكتاب بايعاز منه « مهَّد له حينئذ تمهيداً وجيزاً قال فيه ... » .
ولست أدري لماذا يذكر لنا الدكتور بعض هذا التمهيد وشيئاً من تلك المقدمة ولا يبسطهما لنا بتمامهما في الطبعة الجديدة.إن الطبعة الحديثة لا تلغي مقدمات الطبعات السابقة . بل نحن في تسلسل الفكر لو ملخصاً موجزاً نرى لمحة من تطور الكاتب . وتعاقُب الحالات النفسية عليه وتبلور ما تبلور منها عظيم الأهمية في رسم صورته المعنوية التي لها في أذهاننا البقاء .

●

من الكتب ما هو الملهى ، ومنها المدرسة ، ومنها الهيكل ، ومنها المتحف ، ومنها المنبر ، ومنها الحديقة .

ومنها الغذاء ، أو الدواء ، أو الملجأ الأمين .

ومنها القلب الشفيق ونبضاته تنادي المتعبين. فتتكيء عليه جباه اثقلتها هواجس ومشاغل أكبر منهاسناً فتذوق عنده راحة الثقة والأمتثال والاستسلام.

أما «سر النجاح» فصالح للساعات الوردية والساعات السوداء على السواء، مفيد عند الملل من كفاح الحياة وعند التوق إلى معالجة الحياة واستغلالها. ليس هو الكتاب الذي يقرأ مرة فينسى. بل قد تطالع فيه اليوم فصلا ويوماً آخر صفحة، ويوماً آخر نبذة أو فقرة. فتطبقه كل مرة وقد استدررت من النشاط ونبل المقصد ما يفتح أمامك أفقاً جديداً ويبعث فيك أملاً جديداً.

أما أسلوبه ولغته فتحفة من يراعة الدكتور صروف الذي عودنا الوضوح في طلاوة وفي متانة، غير متسامح ولا في لفظة واحدة تطنّ وترنّ بلا معنى وبلا غرض. جاءه ذلك من معالجة العلوم الرياضية والطبيعية والفلسفية فكان في كل حياته الكتابية آية بساطة وجلاء وأحكام.

الا أن هذا الأسلوب العلمي تصحبه أناقة الأديب والشاعر اللذين يخيل أن الدكتور صروف يخجل أن يكونهما. مع أنهما جزءان من شخصيته تنمّ عنهما طائفة كبيرة مما خط قلمه.

كذلك كانت كل صفحة من «سرالنجاح» تشحذ الهمة، وتخلق الرجاء، وتوحي المطلب السامي. بينا هي للفكر راحة ومسرة في سهولة الألفاظ، وأحكام السبك، وتفصيل الجمال.

●

مِن وَالِد إلى وَلَده (1)

سيدي

نظريةٌ مألوفة ومُسلَّمٌ بها ، مع أنها من أوسع أبواب المناقشة وأجدى مواردها ، تلك التي تعني أن الوالدين ملجأ الولد وممهدا وسائل العيش أمامه . وأن قلبيهما دون سواهما يدّخران الكفاف لحاجة قلبه من محبة ونصح وتدبير ورعاية .

والواقع أنه قلَّ من الأهل مَن قام بكلّ واجبه أو ببعضه بل قلّ منهم من فهم مزاج ولده وأدرك ما فرض عليه نحو هذا المخلوق الذي أوجده لاهياً أو جاداً . وجلّ ما يفعل أكثر الوالدين هو طرح الأولاد في معترك العمر بلا عدة ولا ذخيرة ، وقد قيدوهم من جهة بما نقلوا إليهم من خصائص وراثية وحاجات بشرية ، وقيدوهم من جهة أخرى بقيود المرتبة والبيئة والمجتمع .

ولئن كان هناك يتامى حرمهم الموت إعزاز الأبوين وعنايتهما فلَكَم من ولدٍ يعيش يتيماً وإن قضى عمره بين أبيه وأمه !

كم من ولد ترهقهُ الأثقال ، ويتحتم عليه إقتحام المصاعب تحت مهماز الحياة القاسي ، فيئن في وحدته باكياً : « إني في حاجةٍ إلى أب ! إني في

---

(1) نشرت في « المحروسة » عدد ٣ أيار « مايو » سنة ١٩٢٣ ، وهي رسالة إلى مؤلف الكتاب أحمد حافظ بك عوض .

حاجة إلى أمّ ! أريد من الأب عطفاً مقروناً بحزم الرجل ، وأريد من الأم حناناً ممزوجاً بتبصُّر المرأة ! » .

وأياً كان حظ الولد تراه ولو كان من أحدِّ الأولاد ذكاءً وأمضاهم عزيمة ، تراه في أوقات معينة من حياته يتلمّس شيئاً من الأبوة والأمومة في النفوس التي سعدَ بالركون إليها على حظٍّ رحلته الدنيوية ... نفوس كريمة تمد نحوه أيديها الخفية طافحةً بعطايا المحبة والرحمة والاهتمام .

ولقد كنتَ يا سيدي ، من تلك النفوس البارة . لأنك وإن جعلت رسائلك هديّة عطفٍ لولدك السعيد ، فشفّت الصورة النظرية منها عن عنايتك العملية به ، فإني أرى رأيَ جماعةٍ من الذين كتبوا إليك عن هذه المجموعة ، فقالوا انك فيها أب لكثيرين .

إن ولدك من قارئيها الناشىء اليتيم . والآخر الذي يعيش وفي قلبه ذل اليتم وعلى شفته شكواه . والآخر الذي لا يلقى من والده حسن الادارة وسعة الصدر . فإذا بكَ في كتابك الأب المعنوي الذي يوثق به ، وتُلتَمَس معونته في الألم والحيرة والارتياب .

●

يقولون أنه اذا كانت محبة الوالدة غريزية ، فمحبة الوالد اكتسابية تنمو وتنتظم بعادات المجتمع وأحكام قوانينه .

ولعلّ الصواب هو أن هذه العاطفة ككل عاطفة سواها ، تابعة للنفس التي تنشأ فيها .

الصواب أنها في النفس الجامدة مثلجة صماء ، وفي النفس الحمقاء هوجاء شعواء . وانها متقدة فطنة في النفس الحاذقة المتلظية .

وللقائل في سرّه « ترى كيف يحبّ الوالدُ ؟ ترى كيف تحب الوالدة؟» .. جئتَ أنت ببعض الجواب في الرسالة الأولى حيث وصفتَ حبك لولدك

وصفاً جميلاً . ولكن أكما تقول أن ذلك الحبّ « نهاية الفناء في إنكار الذات » ؟ أم هو على نقيض ذلك ، إثباتٌ لذات أوسع وأكبر ، وتطلّعٌ إلى بقاء أبقى وأشمل ؟

إني شديدة الحذر من حب الذات . ولا أراه إلاّ متحيّناً الفرص ليعلن التنازل عن نفسه ، في حين هو يتعرّج ويتلوّى مندساً بشتى الحيل والمعاني في كل عاطفة وكل فكر وكل عمل .

واصارحك إني مررت بالرسالة الأولى وبي بعض الأجفال . لأنه لاح لي أنك بتلك العاطفة الآمرة الحضانة ترمي إلى استهواء الولد كمن ينكر عليه شخصيته المستقلة . وتنفث في روعه وجوب التقيُّد بالرأي الذي تبسط والخطة التي تسنّ ، محدِّداً أمامه المستقبل على نوع ما ، ومجرده من إمكانية الاختيار الفردي والتصرف الحر . فما أتيتُ على تلك الرسالة الأولى إلاّ وقد قررتُ « هذا تحكم شرقيٌّ باسم الحبّ » !

على أني انتقلت الى الرسائل التالية فإذا فكرك يتملص من ضغط العاطفة مستوياً في أفق التبصر والعرفان . فكنتَ هناك أقرب إلى الانصاف . وجاهرت غير مرة برغبتك في أن يتخرّج ولدك على الاستقلال الفردي ، وجوهر التصريف العقلي . أي تربية الذهن تربية واسعة مطلقة تعوِّده النظر الصائب الى مسائل الحياة المختلفة ، وحل المشكلات والأخذ بمقتضيات الأحوال . « لأن التربية والتعليم للناشئين يجب أن يناسبا زمانهما وظروفهما . فالعلوم والمعارف والتهذيب والأخلاق التي كانت لازمة لنجاح شخص وفوزه في زمن المأمون العباسي وعصره العربي الزاهر ؛ ليست أبداً هي المعارف والصفات التي تمكنه من الظهور في هذا العصر الذي اشتدّت فيه المنافسة ...

بهذا الإثبات وما نحا نحوه ، أنلتَ رأيك المرونة المطلوبة ، فتسنى للقارىء أن يستوحيه فيستفيد ويتنشط . لأن النصيحة الحكيمة على خطورتها قد تغل الملكات . الا اذا نبَّهت أن لكل حال تدبيراً يلائمها دون سواه . وأن

الظافر ليس من استفاد من تجارِب غيره فحسبُ ، بل من اعتبر بتلك التجارب ومن تجاربه جميعاً ، تاركاً اختباره الخاص ارثاً مضافا الى الاختبار الإنساني العام .

•

هي الحياة !

ولن تفرش الأيام سبلنا بالورود وإن أجهدتم نفوسكم ، أيها الآباء الألباء ، في نزع الأشواك تحت خطانا وازاحة العثرات التي تعترضنا .

ستجرحنا الحياة كما جرحتكم ، وتصرعنا قبضتها العنيفة فنمتثل ريثما ينجز المقدور ما تحتم أن نكابده من عذاب ونكال .

وغاية ما تستطيعون هو أن تقووا فينا الشجاعة المعنوية ، والاتكال على النفس ، والاحتمال بعزة وإباء . خير ما تفعلون هو تعليمنا براعة الكفاح في حينه ، غير خانعين أمام الألم المثقف ، ولا ناكصين على أعقاب الخذلان . تاركين لنا من عطفكم وعنايتكم وحكمتكم ذكرى وسلوى وقدوة .

•

كذلك رسمت هذه الرسائل منك صورة غير صورة الصحافي اليقظ المنوع التي نراها كل يوم في « المحروسة » .

للمرء مواقف يحرج فيها ويحرَج . إلا أن حمى العمل تترك له ساعات له أن يقضيها لاهيا ، وله أن يلجأ فيها الى داخل نفسه متبينا هناك أمتن ما يصدق فيه وأحب ما ينزع اليه .

فاخترت أنت هذه العزلة لتفيد وتستفيد . وذلك من عجائب المحبة النقية ، « أنها تغني المعطي كما تغني الآخذ » . وكيف لا يستفيد الصديق الكبير المعالج الحياة الذائق طعومها ، إذا ما عطف على صديقه الصغير ليبين له الأمور بصدق وجلاء .

فإذا كان ولدك قد فتح في نفسك عند ولادته « بابا للعواطف كان مغلقاً »، فانه يوم شئت أن تهذّب مشاعره، وتوجه أفكاره وتنظّم حياته قد رفعَك إلى أفق الاخلاص والنبل أوحى إليكَ خدمة هي من أجل ما يبذله الجيل الحاضر في سبيل الجيل التالي فعنيت بتهيئته للأخذ بصالح نفسه، وصالح بلاد التي هو ابنها، وصالح الانسانية التي هو جزء منها.

ولئن حق لولدك الفخر بأن يكون موضوع تلك الرسائل التي ظهر من كلمته في صدرها أنه أهل لها، وان تنتقل هذه الرسائل إلى الجمهور عن طريقه، فإنه كان السبب في أن يبرزها والده فيصير بها « أبا » لكثيرين. وليس كل والد بمستحق أن يلقب بالأب.

لقد كنت جديراً بذلك الاسم ليس بتنميق هذه الرسائل وحسن تقسيمها وتبويبها، وسلاسة تتابعها، وبراعة تلخيص الموضوعات على تشعبها. فذلك فضل للكاتب المشبع الذهن اطلاعا، المصري طلاوة، الإسلامي بياناً. ولكنك كنت أباً لمجرد التفكير في انشائها. لأن هذه الفكرة وليدة حب وافر، وعناية كريمة، وادراك لأهمية الواجب والمسؤولية.

فهنيئا للولد بأبيه وللأب بولده.

وعاشا طويلاً يتبادلان عواطف الثقة والاحترام والرفق والشكران.

الصيحة الأخيرة (١)

أتعلم لماذا أنا أسفتُ لوفاة ملكة الجبل الأسود السابقة ، الملكة ميلانة ؟ ذلك لأني كنتُ أتمنّى أن تشهد نتيجة مساعيها في زواج حفيدتها البرنسس يولاندا الايطالية ، هي التي بذلت كلّ مجهودٍ لتمهيدهِ والتغلُّب على المصاعب القائمة في سبيله .

ومساعدتها هذه حبّبتها إلى النفوس الحرة التي ، إن هي دعت الى الاحتفاظ بالنبيل المفيد من العادات والتقاليد ، فهي تقول بنقيضه . بل تحث على الهدم والإسقاط فيما هو سخافة الخيلاء وتألُّه الكبرياء .

ولَكم من قيدٍ قديم واصطلاح مذموم يُسيطرُ على العالم ويغل هناءه وما هو سوى بعض الجثثِ والرمم ، كما قال لافروف الروسي ، الشاغلة مكان الأجسام الحيَّة مضيّقة حولها المسافة ، مُفسدةً عليها الهواء .

●

تلك الرسالة التي ردت بها الارشيدوقة ماري لويز على والدها امبراطور النمسا يوم أن أفضى إليها برغبته في اكتساب رضى نابليون عن طريق المصاهرة ، ما زالت تلك الرسالة سنداً تاريخياً قيّماً في بابه . وقد جاء فيها أن بنات الأسر المالكة غير مخيَّرات في التصرف بقلوبهن لأن زواجهن مرتبط بمصالح الدولة . فهي لذلك طوع اشارة أبيها .

---

(١) نشرت في « المرأة الجديدة » شهر حزيران « يونيه » ١٩٢٣ .

وإن هي إلا أسابيع حتى اقترن نابليون بالارشيدوقة النمساوية في قصر التويلري بباريس ، باحتفال زانته فخامةٌ وأُبهة لم يُعهد لهما مثيل بين أفراح الملوك في ذلك العهد .

على أن جمال ماري لويز وتعلُّق نابوليون لم يجلبا السعادة المنشودة. بل كانت حياة «النسر» العائلية مفجعة أليمة ، لم يُمثَّل الفصل الأخير منها إلا بعد وفاته بأعوام . يوم قضى ولده الوحيد «فرخ النسر» و «ملك روما» الذي شقي بوالدته ، وباتصاله بدمها ، وبعيشته في البلاط النمسوي ، وكابد مثلما كابد والده وإن اختلف نوع العذاب .

وكرَّت العصور وتلك الأُسَرْ لا تخرج عن انسابها ، وإلا فالمجازف مكابرٌ حق عليه انحطاط القدر ونزع الامتيازات والألقاب . ولقد أُحرج الامبراطور فرنسيس يوسف بكلٍّ ما داهم بيته من النكبات والمحن ، ليُسلم بزواج ولي العهد زواجاً لا صبغة عامة له ولا فيه حقوق الوراثة للزوجة . وظلت الدوقة دي هوهنبرج زوجة لولي العهد كما كانت من قبل مدام دي مانتنون زوجةً للويس الرابع عشر الفرنسوي ، لا ملكة على فرنسا . وقد فرقت الكبرياء بين الدوقة وزوجها حتى بعد الموت . مع انهما قضيا نحبهما معاً قتيلين في مفجعة سراجيفو التي انبعثت منها شرارة الحرب الكبرى .

ولو تذكرنا أن امبراطور ألمانيا السابق قطع السبُل على ابنته الوحيدة فيكتوريا لويزا لئلا تجتمع بذلك الضابط الحارس في بلاطه ، وزوَّجها قبيل الحرب إلى أرنست دوق برونسويك لونبورج ولي عهد إحدى دول التحالف الجرماني يومئذ . وان احدى برنسسات تلك الدول انتحرت في ذلك الحين لأنهم حظَّروا عليها الاقتران بشاب «بارون» ليس غير !

●

عصفت الحرب الكبرى جارفةً بعض ما هو بالجَرفِ حقيقٌ . وقضت على عادات مُحدِثةً ثلمةً فاغرة في جدار التقاليد ، موجدةً تبدُّلاً في الاجتماع

واختلاطاً في المراتب.

وكان الحب احدى أدوات التبديل والاختلاط. فتزوّج الملك اسكندر اليوناني من ابنة أحد القوّاد. وتزوَّج عمّه أخو الملك قسطنطين بسيدة أمريكية واسعة الثروة. وقيل ان ولدها الثريَّ سيقترن كذلك بإحدى البرنسسات اليونانيات. ورأى الملك قسطنطين رحمهُ الله، أن ينعم على زوجة أخيه بلقب الإمارة حين أنكره على زوجة ولدِه المتوفي الملك اسكندر.

ثم زُفَّت البرنسس بتريسيا الانجليزية الى ابن لورد فقط. وزفَّت ابنة ابن عمها ملك الإنجليز الى فيكونت لا أكثر ولا أقل. وزفَّت البرنسس دجمار الدنمركية إلى أحد أبناء الشعب «حاف» بلا لقب. وخطب اخيراً ديوك أوف يورك ابنة أحد الأشراف وقد حملت الينا برقيَّات هذا الأسبوع تفاصيل عقد قرانهما وحفلة زواجهما.

وقامت يولندا الجميلة تمثِّل دورها في ثورة النشء على العقيم من التقاليد. وتشترك مع غيرها للمجاهرة بأن ارادة الفرد ان هي رضخت في الظاهر لمؤثرات المحيط ومقتضيات المراسيم، وامتثلت لقوانين حبّتها بعظمةٍ لم تطلبها وقيّدتها بواجبات قبل أن تستشيرها، فإن هذا الرضوخ المصنوع لا يقوى على اسكات العواطف المشروعة التي وضعها الخالق في النفوس، ولا هو بقامع هيجان القلوب واستِعار نارها.

وصارت هذه الفتاة ابنة الملك تسارع الى حضور حفلات سباق الخيل ليس في إيطاليا فقط، بل ذهبت الى لندن في العام الماضي. فرأى الناس في ذلك تحكُّكاً ببلاطِ انجلترا رغبة منها في وليّ العهد البريطاني.

وفي ذلك مثال لكثير من آراء الناس وتقوُّلهم.

فإن عروسنا كانت تجري الى حيث تشهد فوز جنديِّها الباسل متسلِّحة بإذن والديها وقويَّة برضاهما.

ويمكننا أن نتصور كيف نُسِجَتْ روايتها العذبة وإياه منذ أن كان جريحاً وهي تمرِّضه في مستشفيات خطِّ القتال . وكيف ظلَّ ذلك العناد الوجداني (وهل أعند من القلب وحُبّه الصادق النبيل) ؟ يجالد ويناضل خمسة أعوام، حتى تم لهُ الظفر بفضل الأحوال ، الديمقراطية ، الموافقة ومساعدة الجدَّة المدافعة عن قضية حفيدتها الوالهة .

●

وقبل النعي بأيام قلائل اطَّلعتُ في صحف روما على صورة التلغراف الذي هنأت بهِ الملكة الشيخة العروس الفتاة عند اعلان الخطبة الرسمية . قالت :

« كان في وسعكِ أن تكوني ملكة فآثرت أن تعيشي للحُبِّ . الحياة بلا حُب كذبة وخدعة » .

●

قد تكون هذه آخر كلمات خطَّتها الملكة على القرطاس في حياتها . أتراها درت أنها مدوّنةٌ ما هو حريٌّ بكاتبٍ كبير وفنّانٍ عظيم ؟

تلك نفثةُ قلبٍ عرف من الدنيا الرفعة والضعةَ ، والتحمُّس والإعراض، والغنى والفقر ، فاهتدى الى فجٍّ سحيق من فجاج العيش حيث يتألّق جوهرُ المطلبِ صافياً وفيه كلُّ العزاء وفيه كل الرجاء .

لم يصغِ العالم الى هذه الصيحة الأخيرة لأنهُ اليوم عاكفٌ على تسليك أمورٍ وحلِّ عُقَدٍ تذبلُ في سبيلها نضرتهُ وتخبو أنواره . بيد أنه كان لهُ أن يُلقي هذه الصرخة في دويِّ جلبته واشتباك رغباته .

نعم . كان العالم في حاجة الى هذه الملكة بلا مملكة ، إلى هذه الزوجة بلا زوج ، الى هذه الأمّ التي تتقاذف أولادها دوافع الحظوظ وجوانبها بين مجد العروش والتيجان ومهبط الحاجة والخذلان .

كان قلبُ العالم في حاجة الى هذه الشيخة الحزينة عند عتبة القبر لترسل الصيحة الثائرة دون خوف من الهزء البليد والنقد الوقح. فتخطّ أسنى الكلمات وأجدرها بالخلود لأنها منسوخة عن لوحة القلب القريب المثُول أمام باريه.

ولكن، ترى عن أيّ شيء تنمُّ هذه الصيحة؟

أهي كلمة امتنان للحياة أم كلمة عتاب للقدَر؟ نوحُ محرومٍ هي أم شكران نائل؟ حمدُ مرتوٍ أم شكوى ظمآن؟

من ذا يعلم؟

●

فلتحتفظ الشيخة الراحلة بسرّها!

حسبنا أنها قالت لمن يسمع، والسامعون قليل، على أن القليل في مثل هذه الحال كثير.

قالت ان الثروة والجاه والصولجان هباءٌ حيال ذلك الينبوع السرّي المترنم في خلوة القلب. وإن من سُعِد باكتشافه نال أعذب وأخصب ما في وسع الحياة أن تقدّم لأبنائها المعذّبين.

سوانح فتاة

فيما يأتي صورة الرسالة التي وجهها **وليّ الدين يكن** بخطه إلى الآنسة **مي** يناشدها فيها ضم سوانحها في كتاب .

ولا ريب في أن تلك الرسالة هي خير ما تُتوَّج به هذه السوانح .

الناشر

الى حضرة الشاعرة الآنسة مي

مصر في ٢٤ ابريل ١٩١٢

سيدتي

وددت لو الهمنا من الكلام ما يكون حقيقياً ينتهي اليك في اوجك العالي. انا حيرانة انظر فاري فضلاً باهراً وتصوّنتني الى تلك المجالس. ثم يستوقفني عرفاني بعجزي. ما بينت القصيدة في بدائع القدرة. لسرحانك العام وتفتح بنت ايزيس واوزيريس.

لا ادري ما أحب بجانبك الطيب ام صوتك الرخيم ام كلامك العذب ام فكرك المبين. اني ما في هذه المليحات بين عدلك و بعيدة عن الاحاطة بادراكها.

كانت لي في دولة الشعر مكانة واليوم اشهد انني لا اكاد اهوي من عليائي. انت كالطبيعة في كل بدائعها ولكنها مستقلة وانت ثابتة. ولا اقرنك الا من سلفك من سيدات الشرق ولا من جاء بعدهن من سيدات الغرب ولا اقول انت حمامة الدوح فتلك عجماء وانت معربة ولكني اقول انك بلبل الشعر الصادح في روضة الحياة.

وفصول السنة تعلو بالمدارك وتنير جوانب النفوس
فلا تتحول كالأوراق التي تخضر في الربيع وتذوي في الشتاء
اجمعها جنة خضراء وكللها بزهر . ونحن في هذه الأعوام . الناس
في حاجة الى هذه الأنغام الالهية .

سيدي
هذه تحية محب وشاد اضعها تحت اقدامك فانه
يليق بذلك المقام محبي

مع الخضوع
[illegible]

السانحة الأولى

نحن الفتيات أسيرات الأزياء ، وعبدات التبرُّج ، ولُعَب الأهواء ـ أنكتب نحن فتيات اليوم ؟

نعم ، صرنا نكتب ليس بمعنى تسويد الصحائف فحسبُ بل بمعنى الانتباه للشعور قبل التحبير ، لقد خبرنا الاختلاء بذواتنا فأقبلنا على تفهم معاني الحياة نتفرس في المشاهد بأبصارٍ جديدة ، ونصغي الى الأصوات بمسامع منتبهة ، ونشوق الى الحرية والاستقلال بقلوبٍ طروبة ، ونعبِّر عن النزعات بأقلامٍ يشفع الإخلاصُ في تردّدها . إن الأمر لكذلك . وجرأتنا هذه لم تبدُ من اللائي سبقننا ، وإقدامنا لم يألفه الرجل من سوانا ، والجمهور يرقبنا بنظرةٍ خاصة تائقاً الى تصفُّحِ نفس المرأة في ما تصِفُ به ذاتها وليس في ما يرويه عنها الكاتبون .

وما الغرض من ذلك ؟

يزعم الجمهور إن رغبته في تذوُّق إنشاء المرأة لا تُعربُ عن إكبارهِ لذلك الإنشاء ، أو عن اقرارهِ بصدق الفراسة منها . وإنما لأن في كتابتها مظهراً من مظاهر الذات النسائية العامة .

خطوةٌ صالحة نحو تكريم الأدب النسائي ، إلاّ أن فيها من الظلم وغمط الحقوق ما فيها . نحن نحبُّ الحلم ، ونطلب التساهل ، ونريد أن يستعان في الحكم علينا « بالظروف المخففة » ـ كما يقول سادتنا

الحقوقيون . نريد ذلك لأننا مبتدئات . نريده لأننا مبتدئات ولأننا بنات يوم تشرق علينا شمسه نخلق أنفسنا بأيدينا ، ونكتشف الطرق في غابات مهجورة . ونمهد السبُلَ بين الصخور والأدغال لنا وللآتيات بعدنا .

إفساح المجال علينا عسير . فنشكرُ للحليم تغاضيه عن القصور في عملنا وانتباهه لضآلة وراثتنا في عالم القلم ـ كما نشكر للناقد الكيّس ما يُبيّنه لنا من أغلاطٍ ناتجةٍ عن ضعف الفتاة وقلة اختبارها . ولكنهُ لا يجوز في شرع العدل والحقيقة ان تُرمى جميع أعمالنا بالضعف النسائي وأن يطلق عليها الحكم بلا بحثٍ ومقارنةٍ .

لقد غالى بعض المفكرين ، لا سيما بعض الذين أقنعوا نفوسهم بأنهم مفكرون ؛ لقد غالى هؤلاء في فصل المرأة عن النوع الإنساني الذي كادوا يحصرونه في الرجل . والواقع أن كل حميَّة تهزُّ المرأة انما تنطلق من النفس الإنسانية الشاملة . وكلُّ نقص يشوبها انما يرجعُ الى العجز البشري الشائع . وكلُّ أثرٍ من آثار ذكائها انما هو وجهٌ من وجوه الفكر الإنساني العام .

احرصي على قلبكِ

أرْخَى الشَّفَقُ سُدُولَهُ على الأرضِ بَطِيئاً
ولُفِقَتْ حَوَاشي السُّحُبِ بِخُيوطِ الذَّهَبِ والفُضَّة ،
وتَلاشى ما كانَ يَبْدُو كَبُحَيْرَاتِ اليَاقُوتِ وبركِ الزُّمُرُّدْ حِيَالَ عَرْشِ الغُرُوب ،
وغَشَتْ الأرضَ كآبَةٌ رَبْداءُ ،
وغَشَتْ عَيْنَيْكِ كآبَةٌ رَبداء ؛
أيُّ شمس تغيبُ فيكِ ، أيتها الفتاة ، ولماذا يُشجيكِ المساء لتغشى عينيكِ هذه الكآبة الربداء ؟
ألا احرصي على قلبكِ ، أيتها الفتاة !

●

تجلّت الشمس في الأوج تحت رواقِ الفلك ،
والأشعة تغازل الأزهار وتوسع المياه عناقاً وتلويناً ،
والمنازلُ تَسطع كحجارة كبيرة من نور ؛
وانتعشت جميع الأشياء انتعاش من خرج من أزمةٍ وانفرج ،
أما أنتِ فتلوبين جائعة عطشى ،
تقولين ما يجب ألاّ يُقال وتفعلين ما يجب ألا يُفعل ،

ثم تأسفين على القول والفعل وتعودين تلوبين-
ووراء المللِ والسآمة وهيجٌ فيكِ واحتدام ؛
اخبريني ما بكِ ، أيتها الفتاة !
لماذا أراكِ عند نافذتي ترقبين ما ليس بالموجود وتشتافين ما ليس بالبادي ؟
وإذا تحولتُ عنكِ إلى مرآتي رأيتُ هناك وجهك مفجعاً حزيناً ؟
أهو أملٌ غزا نفسكِ فثقل على فؤادٍ منكِ اعتاد القنوط ؟
أم قرب تهليل الأمل يأسٌ ينتحبُ وشعورٌ بالفشل طالما خالط الرجاء ؟
جميع الأشياء انتعشت انتعاش من خرج من أزمة وانفرج
وأنتِ أيُّ علّة تضنيك فتلوبين وتتأوهين ؟
ألا احرصي على قلبك أيتها الفتاة !

●

جاء المساء مرةً أخرى ؛ جاء المساءُ وتبعه الليل
وعيناك قرب السراج جامدتان جمود من يتأمل جثة
فأشعر بأن شيئاً فيكِ أمسى جثة
لقد استسلمت لجمال المساء فطعنك المساءُ بسكين منه سريٍّ يقطر دماً وظلاماً
أخضعتِ نفسك لسحرِ الغروب ولم تحرصي على قلبك !
اما الآن وقد فرطت به فاحرصي على الجرح المنفتح فيه -
احرصي على جرح قلبك ، أيتها الفتاة !

ذكرى قلعة بعلبك

« معبد للأسرار قام ولكن صنْعـه كان أعظم الأسرار »

خليل مطران

تحرّك القطار صباحاً في محطة بيروت وهو يهدر ويزمجر ويقذف دخاناً كثيفاً أثقل الهواء وترامى على صفحة الأمواج فعكر صفاءها . وما فتىء زئيرهُ الهائل كزئير الأسود يترددُ في جوانب الفضاء حتى كاد الصدى منه ينتهي إلى أخربة بعلبك هامساً « لقد سبقتُ الآخرين لأهزأ بكِ ، يا اشباح البلى ، اهزأ بك في نقمتي على أُناسٍ يستخدمونني أنا احدى آيات الاختراع الحديث ليزوروك ـ أنتِ رمال الليالي الغاديات وبقايا الأيام الخوالي » !

وما لبث أن أسرع القطار في سيره متلوياً بين الأشجار ، وكأن سخطه هدأ تحت قبلات نسيم الجبال فخفّ زئيرهُ ، وتدرّج متسلقاً اكتاف لبنان يترك محطةً ويمرُّ بأخرى حتى وقف في محطة صوفر ، وهي أعلى نقطة فوق وادي حمّانا ـ ذلك الوادي الذي قال فيه لامرتين انهُ أجمل أودية العالم القديم . هناك تتطوّى التلالُ كالأقمشة الحريرية وتمتد لمداعبة اطراف الجبال المحاذية ، تتناسق بينها دوائر أظلّتها الأشجار ، وتتخللها القرى ذوات المساكن البيضاء متوّجة بالقرميد الأحمر . وهناك ، هناك على الشاطىء البعيد ربضت الآكام كأسود تحمي بحراً بسط لديها زرقتهُ

الفسيحة وارتفع عند الأفق كمن يستمدّ من الجوِّ نعمةً ما . هذا وبيروت تستوي على شفة البحر استواء المليكة على عرشها .

ثم أخذ القطارُ ينحدر الى سهول البقاع وقد قامت على جانبيها سلسلتا جبال لبنان وانتِ لبنان كما تحدق اسوار الدهر بمروج الأبدية . وبعد السير في السهل نحو ثلاث ساعات تراءى لنا في عصارى النهار طيفُ مدينة « باعال » يحيط بها نطاق سندسي من شجر الفاكهة والحور الرجراج ، وتتعالى فوق المنازل منها والحدائق أعمدةُ هيكلِ الشمس بقدودها الهيفاء . أعمدة ستة هي كل ما سلم في وسط ذلك التهدُّم ، وكأنها من أبعادِ وحشتها تنادي المسافر قائلة : « تعالَ انظر إليَّ أيهذا المارّ ، فهل عرفت حزناً أشد من حزني » ؟

بقيةٌ عظيمةٌ من عظمةٍ بائدة حيالها أضخم الأشجار أعشاب ، ذاك هو شبح الماضي المحاول تخليد الأصنام المعبودة ... وثلوج لبنان التي رأت يوماً من مدينة الشمس أبراج العزّ متعالية في الفضاء ، تطلُّ الآن من شاهق « فم الميزاب » و « ظهر القضيب » مستفسرة عن سرّ هدم المعابد والأبراج.

منذ ألوف الأعوام والثلوج تتراكم على هذه الذُّرى . فالشمس تشرق ثم تغيب ، والصيف يأتي ويذهب الشتاء ، وقلعة بعلبك موحشة في عظمتها المحطمة ؛ بينا ثلوج لبنان تطل عليها مستفهمة أيّ خطبٍ جرى ولكنها لا تفهم .

●

تجسّم حزني وجثا عند أعتاب القلعة باكياً . ولست أدري أبكي هناك أسفاً على أعجوبة الدهور أم اكتئاباً لمشهد درجات أوجدتها هناك يدُ الغريب.

عند مدخل هذا الهيكل الذي ألقت أسسه شعوب شرقية جاء الأجنبي يضعُ درجات توصلهُ الى معابد الشرق القديم . مشهد أفعم نفسي غمّاً كأن هذه الحجارة ثقُلت عليَّ لأنها دليل تدخُّل الغربيّ في قديمنا وجديدنا ،

وعنوان طمعه في الاستيلاء على بلادنا . وكان أحرى به أن يتركنا وتراب هياكلنا الغالي دون أن تأتي يده عاملة للترميم والإصلاح ـ ومدنسة ما قدَّستهُ دهور البلايا وعزَّزته بلايا الدهور .

دخلتُ امشي الهوينا بين أكوام الأخربة وبقايا الأبنية ، بين الأعمدة المطروحة على الحضيض كالعمالقة ورؤوس الأسود المتعانقة في تهشمها عناقاً أبدياً ، بين آثار شعب لاحق تختلطُ بآثار شعب سابق ، والتراب يتراكم في كل مكان متجمعاً في الأفاريز المرضضة والنقوش المحفَّرة . مشيت في عالمٍ مشوهٍ من البدائع الفنية دهشة كيف سطا الزمان عليها ، كأنها غابةٌ هاجمتها الزوابع فكسَّرت منها الأشجار ، واقتلعت الأصول ، وتركت الأغصان ملقاةً على حضيض الهواء .

أين من هذه الضخامة والمتانة قصور عصرنا وصروحه ! انها لتخال ألاعيب صبيانية شيدت ساعة فراغ ولهوٍ ، فيها الحصى تقوم مقام الحجارة والأشبارُ منها توازي الأميال .

لقد تألبت الشعوب على هذا الهيكل فهاجمت جدران مجدهِ وخرَّبت بديع معالمه . وحوَّل المسيحيون جانباً منهُ إلى كنيسة فشادوا المذابح على قوائم معابد الأصنام . ثم انقلبت الكنيسة وما يحيط بها قلعة اسلامية حتى فاجأتها الزلازل فتخلجت منها الأسس وانهارت الجدران ، ودكت ذلك العزّ إغارات الطبيعة بعد أن طغت عليه يد الإنسان .

لكن آثار المجد في بعلبك ظاهرة باقية . والنفس العصرية تقف متردِّدة بين الهزوء والاحترام أمام معابد آلهة خرافية تضحكنا الآن اسماؤها ، وتتعاقب عليها مشاعر جمة من خوف وشفقة وإعجاب وسخرية لتتغلب عليها عاطفة تضمُّ في رحابها قوى النفس جميعاً ، وهي الشعور بعمق السرِّ العظيم ، سر البقاء رغم الفناء ....

وهناك على مرتفع هيكل الشمس تقف أعمدة ستة حاملةً إفريزاً كأنه

تاجٌ مكسّر تنحني تحته رؤوسها على وهدة عزّها المتفتت . وما انحناءُ تلك الأعمدة إلا رثاءٌ وتأبين ، بل هو التأبين الوحيد اللائق بهيكل بعلبك ...

وثلوج لبنان التي تجهل أي خطبٍ جرى تنظر من علٍ إلى حزن الجماد الدهري وتودُّ أن تفهم علة إنهيار الجدران والأعمدة والأبراج وأنى لها أن تفهم ...

●

ألا كسروا باليأس الأقلام ، وأزيلوا المداد عن الطروس ، وأسكتوا الشفاه المتكلمة ، وألجموا الأيدي عن التحبير والكتابة !

رائحة الأكفان تفوح لدى هذا التهدم الشامل وتتكشف معاني القبور ، وينتشر في الهواء عطر المجامر وتعقد غيوم البخور ، وتعود الأيادي القديمة الى نحر تلك الضحايا والقرابين على أنصاب لاشتها يدُ الدهور .

كسروا الأقلام ومزقوا الطروس ! انما هذا موقف لا تأبين فيه بغير حزن الجماد ولوعة النفوس .

أحزن الجماد لا زلتَ للأفئدةِ مفطراً ما طرحت عِبرُ الزمان الجبابرة على حضيض الهوان ! ألوعة النفوس ، لا زلتِ لاذعة ما بُترت سلسلة الآجال واعتلت حركة القلوب ! أآثار الحياة ، لا زلت عالية كآمال المنى وسواد العيون ما ذوت الآمال بالمتأمل وما بيَّض سوادُ الموت سواد العيون ! أأعمدة بعلبك ، لا زلت مهشمة ، صامتة ، منحنية ، كئيبة ما سعى دبيب المنى في زوايا المهج وتمايلت أشباح الآلام والأوجاع طيَّ القلوب والصدور !

إذا هزأ الدهر بهذه الجدران المنيعة فماذا أنتم من الدهر منتظرون ؟ إذا مرت قدمُ الدهر على هذه المتانة الحصينة فهرستها هرساً فماذا تغني بعد ذلك حركة قصبتكم الضئيلة ونقش طروسكم البالية ؟ أين من المسافة

موضعها وما هو من الخلود نصيبها ؟

ضموا إلى شفاهكم الأقلام وإلى قلوبكم الطروس ، دعوها تنطق يأساً وحباً باسم قلعة بعلبك . ثم حطِّموها وإن عزّت ، ومزّقوها وإن كانت شطراً من الأرواح .

الزمان يتابع المسير فويلاً لتربة تدوسها قدمه ! هناك تزلزل الزلازل ، وتهدم السدود ، وتطغى البحار ، وهناك يشعر الإنسان بأنهُ عبد لحظات الأقدار وإنهُ لا يعرف من أسرار الأرض غير اسوداد الليل وابيضاض النهار ...

(كتبت في أواخر سنة ١٩١١)

قتلُ النفوس

رأيتها تنظر إلى الأشجار بعينين كئيبتين وشفتاها مطبقتان كأن قبلة الأسف طُبعت عليهما . كانت لي رفيقة في الصغر : تعلمنا شهوراً في مدرسةٍ واحدةٍ ، ودرسنا أمثولةً واحدةً ، وسمعنا إرشاداً واحداً ، وكبرنا فكانت تلك العلاقة الواهية متينة بيننا .

قلت « ما لي أراكِ حزينة » ؟

قالت « يحزنني الربيع »

قلتُ « اخبريني ما بكِ » !

قالت « يحزنني الربيع . يحزنني أن أرى مواكبه الجميلة تسير في الفضاء فلا يراه البشر إلا من كوى ضيقة نُقبت في الجدران الحديدية التي أقامها المجتمع حول الأرواح . ويحزنني ألا أكون مستقلة بكوّتي وأن يكون للآخرين حقوق عليها يفتحونها ويغلقونها كيفما شاؤوا لا مثلما أريد ».

قلت « ماذا يحزنك » ؟

قالت « يحزنني الربيع . تحزنني هذه الأزهار الزرقاء والصفراء والحمراء . انها تنوّر على أطراف الأغصان وتبرز جمالها وسط جمال الكون . انها تستنشقُ الهواء بكل ما فيها من قابلية وتتمتع بالحياة بكل ما فيها من استعداد . فلماذا قُدّر على بني الإنسان أن يكونوا دون النبات حريةً »؟

قلتُ « قولي لي سبب حزنك » ؟

قالت « مسألة تافهة أعادت اليَّ التأمل في هذا الصباح كما نبهتهُ فيَّ قبل الآن . لي شقيقة تقطن الاسكندرية مع زوجها ـ ولي بها ولها بي ولع عظيم فنتكاتب مرةً في الأسبوع . على أن تمرّ رسائلها تحت نظر والدي ووالدتي وأخي وأختي وأخي الأصغر حتى تنتهي إليَّ بالتالي لأنني أحدث افراد العائلة سناً . ولا يُلقى خطابي إليها في صندوق البريد إلا بعد أن يطلع عليه وينتقده ذويَّ . مع ان مراسلتنا عادية ساذجة ، لا أهمية لها إلا بكونها جزءاً من حياتنا . وليس لديَّ من سرٍّ أخفيه ولكني أريد أن احفظ حقي في أن يكون لديَّ أسرار . وهذه المعاملة تعذبني منذ شهور لأنها تنمّ عن ضعف ثقتهم بي وأنا لم أفعل قط ما يستوجب سوء الظن . وصرتُ أتألمُ كلما وردت إليَّ رسالة لأنها تذكرني بأن في بيتنا قلم مراقبة منظم ».

ورفعت رأسها ناظرة إلى الزهرات الفرحة بأنفاس الربيع وأرسلت زفرةً عميقة ، ثم قالت « معاملة كهذه تحملني على الشك في صلاحي وكرامتي . وقد يدفعني الغيظ والكبرياء الى فعل ما لا أفعلهُ لو كان لأهلي بي ثقة . النبات حرٌّ فلماذا لا يكون الناس أحراراً » ؟

مسألة تافهة في ذاتها . ولكنها تتكرَّر بين الوالدين والأبناء فتفضي إلى أحد اثنين : التمرد أو العبودية وكلاهما سيء . بل العبودية وحدها ممقوتة والتمرد نبيل في الغالب يدلُّ على القوة والحياة . ولكن كثيراً هم الأبناء الذين يجدون ضغط الوالدين على حريتهم أمراً طبيعياً فلا يتألمون لأن نفوسهم عقيمة قاحلة لا ينموا فيها غير الشوك والعوسج .

يتألفُ التهذيب من أعمال وحركات متتابعة مدة أعوام بين الآباء والأبناء كما يتركب تمرين الأعضاء من حركات مستطردة يأتيها الفرد في أوقات معينة فتكسبه خفةً ورشاقة وانتظاماً .

وإن لم يروّض المرء اعضاءه ضعفت وأمست ضخمة الشكل بطيئة

الحركة ، وقد يذهب به الجمود الى فقد الصحة . فما الخلل الذي نراه الآن في تربيتنا إلا نتيجة جمود الأعضاء المعنوية من نشء الأجيال الماضية ولأننا جميعاً عبيد الجهل المقيم والضغط القديم .

لماذا تراقب مراسلات الفتيات ؟ سمعتُ عن رجلٍ ينهي شقيقتهُ عن مراسلة صديقة لها خوفاً من أن يطلع أخوها على تلك الرسائل ؛ ثم اتصل بي ان ذلك الرجل الذي يظن نفسهُ حراً أبياً (؟ !) يقضي ليلهُ وشقيقته هذه حول طاولة البوكر مع شبان آخرين وفتيات أخريات ؛ ورأيته وإياها يحتسيان الجعة في حانةٍ يتصاعد في جوانبها لهاث السكارى ؛ ورأيته فيما بعد داخلاً بها عارية النحر والذراعين الى المرقص لتنتقل على وفق الإيقاعات الموسيقية من يد رجل الى يد آخر . فضلاً عما يجيزه « تمديننا » الحديث من مداعبة كلامية يسميها الغربيون « فلورت » ويستعملها كثيرون منا دون أن يحاولوا ايجاد اسم لها .

فكيف نوفق بين النقيضين ؟ بين التساهل في قبول العادات الأوروبية المتفشية بيننا وبين الاستعباد الشرقي الراكد في مستنقعات نفوسنا ؟ ان هذا الخلل في توازن التربية يعذب الشبيبة ويجعلها أليفة الحيرة والتردد جاهلة بهما قيمة الحياة . انما الحياة في قيمة ننسبها إليها . فكيف نهتدي الى قيمة الحياة التي لا تبرز إلا للمنتبه المتيقظ الواثق من حريته في القول والعمل — كيف نهتدي اليها في هذا التناقض المبين : تناقض الضغط الشديد والتهور المجازف .

●

انما التربية ترمي الى غايةٍ واحدة هي توسيع دائرة الحياة وتأهيل الفرد للسير بحذق والتصرف باعتدال بين تشعب الشؤون مستخرجاً وسائل السعادة والفائدة مما يحيط به . فإن لم تكن هذه الغاية نصب عيون الوالدين ولم تثقف الناشئة على مبادىء التهذيب القويم فقدت آمالنا بالمستقبل القريب .

وأول قواعد التهذيب معرفة الواجب ، وشرط معرفة الواجب الشعور بالحرية.

أقول الحرية وأعنيها ، وهي ليست الإباحية كما يزعم كثيرون . والفرق بينهما أن للواحدة حدوداً تهدمها الأخرى وتتجاوزها .

على الوالدين أن يقوموا بما عليهم نحو الأبناء ثم فليتركوهم وشأنهم يأتون ما يميلون اليه والضمير الحي يراقبهم والخلق القويم يحميهم . فإن جاء عملهم بخير كان فيه تعزية وتشجيع على المثابرة والإقدام ، وإن جاء بشرٍّ كان أمثولة مفيدة ومادة اختبارٍ ينتفع بها في الكوارث والرزايا المالئة سبل العمر .

كل امرىءٍ يحيا حياتهُ وعليه أن يجد طريقهُ بين متشعب المسالك ، وهو مسؤول عن كل عملٍ يأتيه ويتحمل نتائجه ، انْ فائدة وإنْ أذىً. فالفتاة التي اعتادت الانقياد لآراء والديها وعجزت عن اتيان عملٍ فرديٍّ تدفعها إليهِ ارادتها بالاشتراك مع ضميرها ، ما هي إلا عبدة قد تصير في المستقبل « والدة » ولكنها لا تصير « أمّاً » وإن دعاها أبناؤها بهذا الإسم . لأن في « الأمومة » معنًى رفيعاً يسمو بالمرأة إلى الإشراف على النفوس والأفكار ؟ والعبدة لا تربي إلا عبيداً . ولا خير في رجالٍ ليس لهم من الرجولة غير ما يدَّعون ، ان هم سادوا فعلوا بالقوة الوحشية وهي مظهر من مظاهر العبودية . أولئك سوف يكونون أبداً أسرى الأهواء وعبيد الصغائر الهابطة بهم إلى حيث لا يعلمون ، الى الفناء المعنوي ، الى الموت في الحياة .

تربيتنا الناقصة جعلتنا نسيء الظن في كل شخصٍ وفي كل أمرٍ . ريح سموم تهبُّ على المجتمع فتصبغ الجو وما يحويه بلونٍ قاتم خبيث . ولو أنصف الناس لحكموا على بعضهم بعدلٍ وصدق فأراحوا واستراحوا . الخير أصلٌ في الحياة وليس الشرُّ شراً إلا لأننا أشرار ، ولا ظلام حولنا إلا الظلام المنبثق من شكوكنا وأحزاننا ومطامعنا .

احتياجنا شديد إلى مثل هذه الكلمة « ثقوا بالإنسان » !

أما جاءكم خبرُ ذلك العالم الألماني الذي كان يدفع إلى ابنته البالغة من العمر ١٦ سنة رسائلها مختومة . ولما لامهُ أحدُ أصدقائه أجاب « ثقتي بالفطرة النسائية عظيمة . لا أقرأ رسائل ابنتي بل أعرض عليها رسائلي . وعوضاً عن أن أشحن دماغها بآرائي ونصائحي التي قد لا تتفق مع ظروف حياتها أسألها رأيها في كل ما يشكل عليَّ من الأمور . فالمرأة أوفر من الرجل نبلاً لأنها أقرب منه إلى سرائر الأحوال وقلب الأشياء » .

مع هذا الرجل الحكيم أقول « ثقوا بجوهر المرأة ! ثقوا بابنة اليوم تجدوا أبناء الغد أهلاً للثقة » !

(ابريل سنة ١٩١٣)

رسائلنا اليوم وبالأمس

بعض الأوامر السلطانية تستوقف نظر الأديب برشيق أسلوبها وبليغ إيجازها . منها الأمر الذي صدر بتعيين صاحب العزة محمود فخري بك[1] أميناً أول لعظمة السلطان . وما دامت سراي عابدين تهتم بأساليب الإنشاء فحقَّ لمحبي الأدب أن يرجوا . ولو كنت رجلاً وجاز لي البحث في ما يختص بالرجال لتمنَّيْتُ لدواوين الحكومة أن تحذو حذو السراي السلطانية فتتوب عن اللغة والأسلوب السقيمين المستعملين في أوامرها ومراسلاتها .

اسمعك مزمجراً يا سيدي الرقيب . وقد اقترب قلمك من جملتي هذه يقصد الفتك بها . فاصغ إليَّ غير مأمور ! لا أنت جندي ألماني ولا أنا جندي فرنسوي ولا هذه الصفحة كنيسة ريمس . فكن حليماً ولا تحذف منها شيئاً . ثم أرجو أن تذكر أني بدأت تلك الجملة بكلمة « لو » . وهل أنتَ مَن يخفى عليه قول الفرنسيس بإمكان وضع باريس في زجاجة اذا ما استعملت كلمة « لو » ؟ ولا أظنك محتجاً على وضع باريس في زجاجة ، على شريطة أن تكون الزجاجة غير ألمانية تملأ بالغازات السامة . وإني لموافقة على ذلك . وكل هذا الكلام أقوله لأنسيك شطب تلك الجملة الأثيمة ـ أنساكها الله !

●

(١) حضرة صاحب المعالي محمود فخري باشا .

لقد تحسن فنُّ الإنشاء في أيامنا . بالأمس كانوا يكتبون طويلاً دون أن يقولوا شيئاً إذ لم يكن معظم الرسائل غير استعارات محفوظة وأسجاع مرصوصة . فبعد « غب الشوق » الأصولية كان مراسلك يبعث إليك « بسلام ، لو كان ذا أجسام لملأ الأرض بالتمام » ـ دون أن يترك للأرض هامشاً ! و « بتحيات أزكى من النعامى (أو من « نَفس النعامى » لا أدري) بين ورق الخزامى » . كذلك يبدأ الخطاب بالسلام والتحيات والأشواق ويختمه بالأشواق والتحيات والسلام .

أما الآن فأخذنا نكتب لنعبّر عن شيء نريد أن يفهمه مَن نخاطب . فإذا اطلعت على رسالة تيسر لك الحكم على ذوق كاتبها ومعارفه ودرجة تربيته ومكانته الاجتماعية . فأخذ ينطبق علينا مبدأ « الإنشاء هو الشخص ».

غير أن أهل الذوق وجدوا في كل آن وزمان . وبينا كان المجموع يملأ صحيفة الرسالة بالمبالغة والإغراق كانت الخاصة تكتب كتابة الإيجاز والبلاغة . كلٌّ منا يعرف رسالة المتنبي إلى صديق كان يعوده في مرضه فانقطع عنه بعد الشفاء فكتب اليه المتنبي يقول : « وصلتني . وصلك الله ، معتلاً ، وقطعتني مبلاً . فإن رأيتَ ان تحبب العلة إليَّ ولا تكدر الصحة عليَّ ، فعلتَ ان شاء الله » .

وتُحسب هذه الكلمة من بدائع الإنشاء .

لقد كان خاصة العرب أهل ذوق وكفاءة . فاحر بِنا الاحتفاظ بجميل الموروث بينا نثقف أفكارنا وأقلامنا على نافع المكتَسب .

(١٩١٥)

بين الدكتور شميل والكاتب الأمريكي

منذ شهرين تقريباً نشر الدكتور شبلي شميل رسالته إلى العالِمَ الألماني هكّل ، باللغة الفرنساوية ، وأردت أن أعرف رأي الأجانب في الرسالة ومؤلفها ، فبعثتُ بها إلى كاتب أمريكاني زار مصر وأحب وادينا حباً جماً . وشفعت الرسالة بتفاصيل عن الدكتور وأطواره الغريبة التي تجعل له شخصيتين تكاد الواحدة منهما تناقض الأخرى . وأخبرتهُ أن الدكتور شميل غاضب على الأمريكان لأنهم لا يساعدون الحلفاء على دحر ألمانيا ، وإنه يقول عنهم انهم أنانيون . فجاء الجواب وها أنا أنشره ضاحكة ، لأنه يهمني كثيراً أن يتخاصم الرجلان وهما على مسافة ستة آلاف ميل بين الواحد والآخر :

« قرأت باهتمام ما كتبتِه عن الدكتور شميل ورسالته إلى هكّل ، وسأبعث بنسخة من هذه الرسالة إلى المستر روزفلت .

يسرني وجود رجل كالدكتور شميل في الشرق لأن هذا الرجل لازم لهدم الأفكار القديمة التي يتقبلها الناس بلا بحث ولا جدال ، كأن ليس لأفكارهم أهمية إلا بقدمها . أفكار يزيد في ثقلها صدأ الأجيال ويحاول حفظها التعصب الذي يحيط بها بقوة ودقة كأنه نسج العنكبوت . فأمثال الدكتور شميل يمزقون خيوط العنكبوت ويبيدون الصدأ وقاعدته دفعة واحدة ، ولا بأس من هيجان المجموع لهذه الفوضى . فهياجه ضروري بل لا بد

منه . أمثال الدكتور هم العنصر الهادم ما في الجمعيات والأديان من الغلو والإفراط ، وهم فاتحو الطريق للذين سيقيمون أسساً جديدة ملائمة لمطالب العصر ومعارفه . والآخرون لا يتمكنون من العمل إلا إذا عمل قبلهم الأولون .

تعجبين لماذا لا يشيد الدكتور شميل أثراً مكان الأثر الذي يهدمه . لكن لا عجب في ذلك . اذكري ديكارت تعلمي أن الأمرين لا يُطلبان من رجل واحد . فالطبيعة وحدها مدمرة معمرة .

أما ما في أخلاق فيلسوفكم من التناقض فلا بد أنه راجع إلى الوراثة ، نام بالظروف . لا بدَّ أن يكون الدكتور عنيف الطبع حاد المزاج ، ولهذا الخلق جماله . على اني أحب الخلق الهادىء الذي يترك الآخرين يتخاصمون حتى اذا ما سمع ما يقولونه من الحقائق والخرافات أعرض عن التافه من أقوالهم وتمسك بالصواب . فلا يتحول عنه ، بل كلما مرت الأيام زاد به ثقة وحباً .

« لا أدري لماذا يقول الدكتور شميل أن الأمريكيين أنانيون . هل عرف حضرته بعض أبناء وطني فحكم على أمة لأجل أفراد ، أم هي فكرة تناقلتها الألسن والأقلام فأثرت في فكره ؟

« ما هي البينات التي تقنعه بأن الأمريكان أكثر أنانية من غيرهم ؟ أود أن أسأله إذا حلت على العالم الويلات فمن يسارع إلى المساعدة قبلنا ، ومن يفتح قلبه وكيسه قبل أبناء أمريكا ؟ كم من الملايين أرسلت إلى الحلفاء في هذه الحرب الطاحنة ؟ غذاء بلجيكا وكساؤها يذهبان من وراء البحار وأمريكا ترسل إليها ٣٦ مليوناً شهرياً . بعض السيدات من أجمل نساء أمريكا تركن أزواجهن وأولادهن وذهبن لمعالجة الجرحى في ميدان القتال . الرجل الأمريكي أحسن زوج في نظر الفتاة الإنجليزية ، لا لأنه أناني ، بل لأنه يحترم المرأة ويعترف بمواهبها العالية ويعاملها المعاملة التي تستحقها

رقتها وسمو عواطفها . أعظم المستشفيات في باريز أمريكية وينفق عليها من ثروات أمريكية فردية . قد يرى الدكتور شميل في كل هذا أنانية ، ولكنها أنانية كريمة جميلة » .

« العالم الجديد جديد في كل شيء . اختباره ، واعتقاده ، وعمله وأسلوبه ، وحريته . ولكن ليس فيه الأنانية التي تظنون .

« تضحكين من أمريكا لأنها تبعث باحتياجاتها يمنة ويسرة . وأنا أضحك . صحيح اني لا أريد أن أكون في موقف الدكتور ولسن في هذه الأيام . ان هذا الرجل المسكين لا يدري على أي رجل يرقص بين عشرة ملايين من الأمريكان الألمان المحتجين في أذنه اليمنى ، وباقي ملايين الأمة المحتجة في أذنه اليسرى ؛ هذا مع حالة المكسيك الحاضرة التي تكاد تشتعل اشتعالاً » .

« أمريكا رغماً عن شعبها الألماني الأصل تجاهر بميلها إلى الحلفاء بلا خوف ولا تردد . لا أعني الحكومة بل الشعب . هناك أمر لا يحتمله أمريكاني حرٌّ ربي على فكر الحرية وشرب لبنها كما شربه من قبله آباؤه — وهو مهاجمة بلجيكا وغزوتها . هذا لن نغفره لألمانيا قط » .

« قولي هذا للدكتور شميل إذا شئتِ . واسأليه أن لا يصدق كل ما يكتبه عنّا كتّاب فرنسا وانجلترا كما أني لا أصدق شيئاً مما يكتب عن الشرق والشرقيين . قولي له ذلك واهديه احترامي » .

ها أنا قلت لك ذلك وأهديتك احترامه مشفوعاً باحترامي ، يا سيدي الدكتور . أفعل ذلك مترقّبةً بعض صواعق عربية كانت أم فرنجية ، فقد أوحشتنا كثيراً نارها العذبة .

(١٩١٥)

نقلت جريدة « الأخبار » فقرة من هذه الرسالة
فأرسل أحد القراء إلى الجريدة الاعتراض التالي :

الأفكار القديمة

ومراسل الآنسة مي

مكاتب حضرة الآنسة مي الذي نشرت الأخبار شيئاً من كلامه نقلاً عن المحروسة . لا نعرف منه سوى انه « مسرور من وجود مثل الدكتور شميل في الشرق لأن هذا الرجل لازم لهدم الأفكار القديمة التي يتقبلها الناس بلا بحث ولا جدال الخ » فنهنيء حضرة الدكتور بهذه الحظوى ـ ولكنا نأخذ على حضرة الكاتب خوضه في مثل هذا الموضوع الخطير بكلام خيالي شعري هو من الإبهام بحيث لا يفيد إلا التضليل وامتهان النفس بأشرف عاطفة فيها .

تدل القرائن على أن حضرة الكاتب يريد « بالأفكار القديمة » العقائد الدينية كالإيمان بإله كامل سرمدي الخ . مثلاً مما تخضع له العقول على سموّه وعجزها عن فهم كنهه . فمثل هذه الأفكار على قدميتها ـ ثابت على أقوى الأساس والبراهين التي طالما احتك بها المتفلسفون وصقلتها الأجيال فلم تزدها إلا إرهاقاً .

وأنا وايم الحق لنستغرب من الكاتب امتعاضه من تلك « الأفكار »

ورميه ذويها بالجهل والتعاسة وافتتانه بالآراء الحديثة وادعاءه لها أرجحية الثبوت والوضوح . ونحن نرى العلماء يتنازعون فيها ولا يزالون ينقضون اليوم ما بنوا أمس على حين نراهم هم أنفسهم يزدادون كل يوم تمسكاً بتلك الأفكار التي يدعوها حضرة الكاتب قديمة . ويجاهرون مفاخرين بتمسكهم بها كنيوتون وأراجو وباستور وأمبير وغيرهم كثيرين ممن يحسبون أئمة في العلوم .

وإنا لندهش من أن مراسل الآنسة مي يحرم نفسه الآن لذة التمتع بمشاهدة ما تتجلى به الأفكار الحديثة من مظاهر الرقي وتهذيب الطباع وتلطيف الهمجية القديمة باستعمال الغازات السامة وطرق القرصنة وأساليب صب البلاء على الأبرياء والضعفاء فضلاً عما أفادت الألمان ـ وهم أخص مروجيها ودعاتها ـ من القدرة التي سمت بهم إلى قتل الأسرى والفتك بالأحداث والشيوخ والنساء .

فأحر الكاتب الغيور أن يذهب إلى ميادين القتال هناك ويساعد الألمان في هدم معاهد تلك الأفكار القديمة ومعاقل تلك المعتقدات الدينية التي أثقلها صدى الأجيال كريمس وشقيقاتها . ولا يخفى أن المجال هناك رحب لغيرته فهذه « الأفكار القديمة » تتجلى الآن بأبهى مظاهرها في فرنسا في الخنادق والمعابد والمعاهد والمعسكرات حيث تقام الشعائر الدينية ويجهر الجميع بالصلاة . ولم يفت أصدقاء الكاتب في مصر الوقوف على شيء من مظاهر هذه الأفكار في وفاة ومشهد الجندي لروى ومن كلام الكولونل موكور الذي أبّنه بألطف كلام وسكب على جراح ذويه بلسم التعزية بذكر وفاته المسيحية متزوداً الأسرار المقدسة .

ويحسن في هذا الصدد أن نذكر ما نقل عن العلاّمة الافرنسي الشهير اميل اماجات الذي خسرته العلوم ونعته فرنسا الى العالم حديثاً وهو أحد أعضاء الجمعية العلمية في باريس والجمعية الملكية في لندن له المباحث الخطيرة

والاكتشافات النافعة في كثير من فروع العلوم الطبيعية . فهذا الفقيد لما اشتدت عليه وطأة المرض استدعى الكاهن وقال له : « طلبتك لتؤهلني للحضور أمام الله . أموت مؤمناً بكل ما تعتقد به الكنيسة الكاثوليكية ... قد كان لي ديني راية ، يعلم الله اني ما دنستها بما يشين لأجل مجد أو مقام » .

أفلا يخجل حضرة الكاتب من امتهانه الأفكار القديمة والعقائد الدينية ورميه بالجهل الناس الذين يقبلونها.بلا بحث ولا جدال . وهو يرى أمثال اميل اماجات متمسكين بها منتمين بكل افتخار إلى الكنيسة التي تعلمها ؟

« ب . ر »

إلى حضرة ب . ر

أشكر لحضرة معترض جريدة « الأخبار » اهتمامه بما نقلتُ عن الكاتب الأمريكي . وما كنت لأزعجه بجوابي هذا لولا أني شعرت في رده بشيء من سوء التفاهم بيننا . فإما أن تكون « الاخبار » نسيت سهواً نقل الجملة كما هي فاستأذنها بالإشارة إلى ذلك . وإما أن أكون أسأت التعريب ـ وهذا هو الأصح ـ فوجب عليَّ الإصلاح قدر المستطاع .

لست بمناقشة ، لأني يوم عرَّبتُ رسالة الكاتب الأجنبي لم أكن ناشرة إلا رأيه دون رأيي . ولا أنا بمعترضة على قول حضرة ب . ر . ان الكاتب أخطأ إذا خاض في الموضوع « بكلام خيالي شعري » . أولاً لأن الرجل ليس شاعراً . ثانياً لأني أضطر آنئذٍ أن أذكِّر حضرة ب . ر . ان التوراة والإنجيل الشريفين مكتوبان بأسلوب شعري خيالي . ففي التوراة يفيض الشعر فيضاناً جميلاً من مزامير داود إلى نشيد سليمان . إلى سفر أيوب . إلى نواح ارميا . وأما الإنجيل فمملوء بالرموز والإشارات كما انه مملوء بالتعاليم العالية المؤدية إلى الكمال الأسمى . والسيد المسيح نفسه قال انه يتكلم بالرموز ويضرب الأمثال .

على أني أستأذن حضرته بإلفاته إلى قول الكاتب الأجنبي ان « أمثاله (الدكتور شميل) يهدمون ما في الأديان والجمعيات من الغلو والإفراط » . هذا صريح لا يحتمل تدليلاً . فهل « الغلو والإفراط » يعنيان الإيمان بإلهٍ أزليٍّ سرمدي ؟ كلا . ان هذه الفكرة العظيمة أم العقائد الدينية وغير

الدينية جميعاً . انها ملازمة لفكرة الخليقة ملازمة لا تقبل انفصالاً . وسواء دعيت تلك العناية المثلى « هو وهي » كما يدعوها الإسرائيليون القدماء ، أم الله ، أم الطبيعة ، فهي هي ، وما كان البشر إلا معددين لها الاسماء والألقاب . « وأصدقاء » الكاتب الأجنبي يؤكدون لحضرة ب . ر . أن الرجل مؤمن بالله . فلماذا لا يكون « الغلو والإفراط » في التجاء امرأة ضاع منها منديلها مثلاً ، إلى القديس أنطونيوس تستحلفه بأمه وأبيه أن ينزع منديلها من أيدي الشياطين ويضعه في جيبها مباشرة ، وذلك بمقابل بخور بكذا قروش تهديه إليه في الغد . ولماذا لا يكون « الغلو والإفراط » في التجاء السيدات المسلمات إلى « الزار » والمشعوذين . ولماذا لا يكون « الغلو والإفراط » في حرق المرأة الحية قرب زوجها الميت عند الهنود ؟

أظن أن مثل هذه الاعتقادات الصبيانية والعادات الفظيعة تستحق نعت « الغلو والإفراط » .

بعد خطة الدفاع يتخذ حضرة ب . ر . خطة الهجوم فينتقل دفعة واحدة من الدين إلى الحرب . واعترف بأن هذا الهجوم الفجائي يدهشني بعض الدهشة ، وهو يعلم أن لا دخل للدين في حروبنا اليوم . نعم انهم يفتتحون الحرب باسم الله ، وينادونه إلى الأخذ بيدهم . ويملقونه ــ وهو الرفيع عن كل تملُّق ــ قائلين : أنت إلهنا وأنت معنا . حتى إذا ما أفنوا حياة سُمِح بأن تكون ، وهدموا دياراً سُمح بأن تشاد ، ومزقوا أجساداً وسحقوا قلوباً عادوا إلى كنائسهم ومعابدهم ، وجثوا أمام الإله العظيم إله الرحمة والحب والإشفاق ، وأنشدوا : « إياك اللهم نعظم » ! ان الأديان لتبرأ من فظائع الحروب ولا تجوّز إلا الدفاع عن الوطن إذا هاجمه الأعداء . ولكن جميع النفوس لا تفهم الأديان كما هي ، بل كل منا يفهم دينه حسب درجة عقله وميول قلبه . ولا يقتصر البشر على الإيمان بالعقائد الدينية الأساسية بل يتعصبون لاعتقادات أخرى إضافية لم تكن إلا

اختراع التعصب والجهل . وكثيراً ما يستفيد رؤساء الشعب والحكومات من هذا التعصب فيشهرون الحروب ، ويقودون الشعب المسكين إلى حيث لا أثر للدين ، ولا منفعة لغير السياسة .

فان استعمل الالمان وسواهم العلم وبذلوا كل ما لديهم من معرفة وحيلة في سبيل قهر أعدائهم ، فهل هذا يعيب العلم ؟ الطب عائد بالخير على الإنسانية ، فهل إذا دس طبيب لعليله السم لغرض من الاغراض فسدت منفعة الطب ووجب علينا أن نحسبه من حيث طبيعته شراً ؟ هذا العلم الذي هو آلة شر وفناء في يد ألمانيا وغيرها الآن كان وما زال آلة خير وحياة في يد ألوف من الأفراد وعشرات من الشعوب . لذلك لا يتحتم أن يكون المؤمن جاهلاً . فالدين شيء والعلم شيء آخر . الدين مهذب شخصيتنا المعنوية والعلم ضرورة من ضروريات حياتنا . هذا للزمان وذاك للأبدية ، وليس لأحدهما أن يلاشي الآخر .

يختم حضرة ب . ر . مقاله كمن يتساءل ألا يخجل الكاتب لأنه لا يعتقد اعتقاد اميل اماجات ؟ لست أدري ، يا سيدي ، لأني لم أسأله بعد . ولكني أعتقد أن الدين علاقة سرية بين الخالق والمخلوق ، أعتقد أن كل امرىء يلاقي نتيجة أفعاله ولا يتحملها عنه أحد ، أعتقد أن الله منح البشر حريتهم ـ اسمح لي أن أذكر الحرية بلهجة غير لاهوتية ـ فعلى كلٍّ أن يرى وجهة الخير أمامه ، ويعبد ربه ويخدمه كيفما شاء . ما دام الله سامحاً بذلك ، لماذا لا يسمح به الناس ؟

أما الدكتور شميل الذي تفضلت وهنأته « بهذه الحظوى » فلست أعرف كيف تقبلها وإذا كان إعجاب رجل أجنبي أو شرقي يهمه كثيراً . ولكني أعرف أن اسمه من الاسماء التي سيفتخر بها الشرقيون دواماً سواء أكانوا مؤمنين أو ملحدين . لم يكتب ضد الدين أحدٌ أكثر من فولتر ورغم ذلك فمقامه الأدبي محفوظ حتى لدى المتديّنين ، ويفاخر أبناء فرنسا بأن

ينعتوا لغتهم باسمه فيقولون عنها « لغة فولتر » .

(١٩١٥)

سلام الله يا مطر عليك

قلبتُ الشطر وغيَّرتُ منهُ المعنى لأنصفك . يا مطر الجوّ ، وأثأر لك من الشاعر العربيّ . وسواء أعَنَاك في شعره أم عنى رسولاً اسمه « مطر » ، أم جعل الكلمة الواحدة في الشطرين تعنيك مرةً وتعني الرسول أخرى ـ فأنتَ ، يا مطر الغيوم ، مظلوم . وما أظلم الشعراء يوم لا يرحمون !

وما ذنبكَ أنت المنفعل وإن خلناك فاعلاً ـ ما ذنبكَ إذا امتصتك الشمس من البحر بخاراً ، وعقدتك في الجو سحاباً ، ثم تفجَّرت السحب وتدفقت سيولاً تروي السنابل والأشجار ، وتذبل الانبتة والأزهار حيناً في انتظار ربيع يحبوها من جديد بنضرة الشباب وسحر الحياة ؟

وما ذنبكَ إذا أبطأ الرسول مطر في رسالته ـ فلعلَّ له في طريقه ليلى تحدثهُ ؟ وما ذنبك أن لم يُعد مطر الرسول إلى الشاعر بجوابٍ مرضيٍّ من ليلاه ؟ وهب انك هطلتَ قبيل اجتماعهما المنتظر فكنتَ بينهما حائلاً ـ فما ذنبك ؟

سخط الشاعر وسبَّك بالأوزان والأسجاع على نحو ما يكون سباب الشعراء ، ولكنه إذا كان شاعراً صميماً فما لبث أن هدأ سخطهُ . وفكر في شعوبٍ جائعةٍ تنتظر منك ارواء غليلها وضمانة قوتها .

ولكن لعلَّ الشاعر كان مصرياً فما استطاع أن يرى فيك ما تراهُ شعوبٌ ليس في ديارها نيل كريم يفيض بدموع الآلهة فيغنيها عن منافعك وأضرارك ؟

يحق لبعض المصريين ، من جانب آخر ، أن يقروا الشاعر القديم في قوله « وليس عليك يا مطر السلامُ » . يحق لهم ذلك إذا ما رأوا الأحياء غير الأوروبية في هذه المدينة . والأحياء الأوروبية وغير الأوروبية من الأمور التي تسوسها مصلحة التنظيم . ومصلحة التنظيم ــ كما تعلم أو كما لا تعلم . أيها المطر ــ دائرة من دوائر الحكومة . فإذا ذكرناها بغير الثناء والتعظيم والتبجيل كان نصيبنا منها نصيبك من شاعر ليلى ــ على الأقل !

(١٩١٦)

بين الأدب والصحافة

تساءل مستر برسي هوايت في احدى محاضراته الأخيرة بالجامعة المصرية : هل الأدب والصحافة واحد ؟ وما لبث أن أجاب نفسه قائلاً : « كلاّ ليسا واحداً . قد تلامس الصحافة الراقية ، في بعض موضوعاتها ، المعاني الأدبية العالية فتوسم بوسمها وتؤثر تأثيرها . لكن الصحافة ، بوجه الإجمال ، تختلف عن الأدب من حيث الغرض والمرمى والتأثير » .

بينا كان الاستاذ يبسط رأيه كنتُ أضاحك نفسي قائلة : قد يكون هذا رأيكم ، أيها الغربيون ، لكن الأمر عندنا على غير ما تذكرون . عندنا إذا كتب المرء مقالات قليلة في الزراعة مثلاً ، حاز دفعة واحدة جميع الألقاب الكتابية المدوَّنة في القاموس فأصبح كاتباً مجيداً ، أديباً أريباً ، مفكراً مبتكراً ، شاعراً فذاً ، خطيباً مفوّهاً ، سياسياً محنكاً ، عالماً علاّمة وبحراً فهّامة . وإذا أردت معرفة ألقابه الأخرى فعليك « بنجعة الرائد » لليازجي صفحة ٢ الباب السادس من الجزء الثاني .

الأدب فن التعبير عن العواطف والميول والتأثيرات نثراً ونظماً . فالشعر فرع من الأدب . والشرط الجوهري للكاتب الأدبي هو أن يكون ذا إحساس قوي يتأثر بجميع الحوادث ، فإذا نقص هذا الشرط تلاشى الكاتب الأدبي .

وكيف يؤثر من لا يكون متأثراً : ألا انّ الذكاء يتعب ، والعلم يعذب ، والحرية الفكرية تقلق النفس . ولئن عرفت كيف تضرب

على أبواب القلوب سمعت الجواب دواماً . تجاوبك الدموع . دموع التعزية في الغالب ، ودموع الألم أبداً .

أما الصحافة ففي نشر الأخبار السياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية . فهي اذن مختلفة عن الأدب كل الاختلاف . إذا احتاج الأديب إلى شعور قوي فلا حاجة للصحافي إلى ذلك ، وما عليه سوى نقل الأنباء التلغرافية ونشر الحوادث المحلية . فإذا فعل أجاد وكان عند ربه وعند الناس مرضياً .

على أن خدمات الصحافة جليلات ولا غنى لأمة متمدنة عنها . ولصحافتنا العربية مزية خاصة في هذا العصر بكونها لسان حال الأدباء والعلماء والمفكرين والمتشرعين . كتب العلم والأدب قليلة عندنا لأن علماءنا وأدباءنا قليلون . وقد ندر بينهم من استطاع تأليف كتاب والإجادة التي هي شرط الإفادة . أما معظم الكتب المتداولة بين أيدينا فمنقول عن اللغات الأجنبية وإذا كان لنا منها فائدة فهي ، على كل حال ، لم تكتب لنا ولم تلاحظ أحوالنا ووراثتنا وأخلاقنا في تأليفها . ولا يستطيع الإتيان بذلك إلاّ كاتب منّا . لأن الكاتب الأجنبي لا يفهم طبيعتنا الشرقية تماماً مهما عاش بيننا وهو ذو طبيعة متباينة ، فلا بد من المقابلة بينه وبيننا في كل أمر . وهو لا ينظر إلينا إلا بعين الغرب للشرق أي بعين الاستفهام الدائم ، بعين الاستغراب والاستحسان اللذين يتجاذبانه أمام كل حركة من حركاتنا .

ويجيد كتّابنا في بعض المقالات المنشورة في الصحف السيارة . يجيدون في تشخيص الداء وفي الإرشاد إلى الدواء . فنرى أحياناً بين التلغرافات والحوادث المحلية سطوراً أدبية ملؤها الشعور الصادق والاختبار والمعرفة . وهذا فضل يضيفه الصحافيون إلى أفضالهم الكثيرة . فإن لم يكن الشعور ضرورياً للقيام بواجباتهم ، فهم يعرفون كيف يستعملونه ومتى يظهرونه .

أصبح الصحافيون زمرةً قوية تخشاها الأرض ومن عليها . فهم ينتقدون القوانين ، ويحاجّون الحكومات ، ويسنون أوامرهم للبشر ، ويبسطون

آراءهم لأولي الحل والعقد حتى اذا شعروا بأن الفكرة التي يبدونها بعيدة عن ذهن القارىء عمدوا إلى اسماء التحبب فدعوه تارة « القارىء اللبيب » وطوراً « القارىء الكريم » وحيناً « القارىء العزيز » إلى غير ذلك من النعوت الطيبة التي ترضي الجميع . فيقتنع القارىء بأنه لبيب وكريم وعزيز ، فعلى كل لبيب كريم عزيز أن يفكر ان ما جاء في المقال هو الحقيقة بعينها .

أكتب هذا وأنا أعضُّ على سبابتي ضاحكة . لا تغضبوا يا سادتي الصحافيُّون. كلنا معترف بالخير المتدفق من أقلامكم على من يقرأ وعلى من لا يقرأ جميعاً ؟ وأشهد باحترام أن وجودكم بيننا عنوان ارتقائنا ، أليس كذلك ؟ غير أني أريد أن أنصفكم فأقول : لئن كان كل منكم القدرة المجسمة ، فان هناك شخصاً أقدر منكم لو اتحدتم جميعاً . لا تظنون أن الله هو من أعني ، بل هو بطل قلم الرقابة ... هو الرقيب .

(١٩١٦)

مَوعِظَة شهر الوُرُود

دنا المساء فهزّني طربُ الربيعِ ورغبتُ في الخروج والتجوال لأشارك الطبيعة في أفراحها . كأني حسبت جدران البيت تقطع الصلة بيني وبينها ، وتشعرني بأني محرومة من مشاركة الموجودات الهاتفات بأريج أيّار بين الغصون وبزينة الأرض العروس .

خرجتُ وليس لي وجهة معينة أطلبُ بداهةً احياءً قلما اخترقْتُها . فسرتُ في شارع قصير على مقربة من شارعنا كأن نفسي المتيقظة لبت داعي الأخضرين المحيطين بهاتيك المنازل : أخضر يبسطُ على أرض الحديقة طنفسة مخملية ، وأخضر يتعالى ظليلاً فيعكس طيف افنانهِ على وجه الجدران الشاهقات .

سرتُ متمهلةً انتقل من رصيف الى رصيف ، والشمس آخذة في التحدّر وقد انكسرت حدّتها ، ولطف نورها ، حتى بدت الأشعةُ حزينة بما مازجها من معاني الفراق . وما كان أندر المركبات والسيارات في ذلك المنعرج ، والمارّون يتبادلون نظرة كأنهم لقلّتهم يقولون « أرأيت ؟ لا أحد إلّا أنا » !

أتيت على آخر الشارع فنفذتُ إلى شارع رحبٍ طويل هو شارع ماريت باشا المؤدي إلى دار الآثار المصرية . فخطوتُ متردّدة بين العودة من حيث أتيتُ ومتابعة المسير إلى الامام . وإذا بناقوس يدقُّ على مقربة مني ولرنينه ازاء الغروب دويٌّ متوسل حنّان . فالتفتُّ الى جهته فوجدتني

أمام كنيسة صغيرة رأيتها مراراً ولم أدخلها مرة .

وقفت أتأمل واجهة الكنيسة وأدير النظر في الحديقة التي تتقدَّمها وكانت تجتازها بعض السيدات . فلما توارين وراء باب الكنيسة تبادر إليَّ انه يحتفل بصلاة الشهر المريمي في هذه الساعة من كل يوم على طول الشهر ، لأن أيَّار (مايو) مكرَّس للعذراء . ولم يعد ينقصني إلاَّ أن أرى فتاة تسير بخطوات عصفور في ثوبٍ أزرق كزرقة الأحلام ، وتتوارى هي أيضاً وراء باب الكنيسة ، لأجد مني شوقاً إلى مشهد الهياكل وتوقاً إلى رائحة البخور . اضحكوا ما شئتم ، انتم الزاعمون أن الثوب المليح دعاني ، وأن زيه البسيط تخريمه الدقيق كان له مع المرأة مني أحاديث .

أما الكنيسة فكانت مملوءة بالمصلين ولم يخلُ في مقاعدها إلاّ مكان واحد جثوتُ عندهُ قرب الكاهن الراكع أمام المذبح يتلو المسبحة باللاتينية فيردُّ عليهِ الجمهور بلهجة الخاشع المتهيِّب .

لا أعرف شيئاً أجمل وأسمى من الصلاة في أي دين من الأديان ، لأنها ترفع النفس إلى أعلى درجات الارتقاء ومحاولة الدنو من روح الحياة الكبرى . هي مناجاة العابد للمعبود ، هي شكر المخلوق للخالق واستعطافه لاستنزال عطاياهُ . وما أعذب هذا الاعتقاد أن في السماء ، هناك وراء جمع القوى والعجائب الكونية ، إلهاً قديراً لا يُقضى دونه أمر ، لديه النعم يفيضها على الحاجة البشرية ، وعزة يتلاشى حيالها ضعف الإنسان ، وجودٌ يعمُّ البرايا فتموج وتتنوع وتنبض بالحياة والقوة والتحوّل .

إلا أني لا أستحسن الصلاة الآلية المستطردة على وتيرة واحدة دون أن يشترك فيها العقل والقلب ، ـ الصلاة المتعاقبة ألفاظها بين الشفاه والأصابع تعدُّ منها أرقاماً معينة ـ لأنها أبعث إلى التنويم المغناطيسي منها إلى الإيقاظ الروحي . قد يكون هذا التأثير من تفنن الشيطان في التجربة والخداع . قاتلهُ الله ! لقد وسوس في صدري حتى شتت أفكاري وحملني على احصاء

الحاضرين . وكانت النتيجة اني جزمت بأن النساء أسبق إلى دخول السماء نسبة إلى عددهنَّ في الكنيسة ، إذ لم يكن بين مائتي امرأة إلا رجلان وخمسة أرباع . أما الرجلان فرجلان ، وأما الخمسة الأرباع فصِبْيان صغار خمسة جاؤوا مع امهاتهم . وكم كنتُ ظالمة في الإحصاء والحكم ! ذلك أني عند الخروج وجدت جمهور الرجال في مدخل الكنيسة ، يقفون هناك مراعاة للسيدات وتكرّماً منهم لهنَّ بالمقاعد .

وظلَّ الخنَّاس الوسواس يجرّبني فحسَّن لي تفحص المعبد فتفحصَّت جدرانه وما قام عليها من صور وتماثيل ، وهندستهُ وما ميزها من نقوش ورموز ، وهياكلهُ وما تناسق عليها من صلبان وطاقات أزهار ـ تلك الأزهار ذات الانحناء السريّ ، تتخللها شموع كأن لهيبها تذكارات لاذعة في شفق الغيبوبة والنسيان .

لكلّ شيء في العالم نهاية . صمتت الأصوات فمشى الكاهن إلى الدرابزون أمام المذبح الكبير وبدأ موعظته الإيطالية . وكان يقول أشياء عادية بصوت المثبت ، وإشارته مرتبكة كإشارات التلاميذ في حفلة توزيع الجوائز . ولكن لم يلبث أن ارتفع صوتهُ وركزت هيئتهُ ، واتسعت اشارته ، ولمعت عيناهُ وهو يقول :

إلى مريم ربة هذا الشهر الجميل يجب أن تلتجىء النساء جميعاً . فالأمهات يتعلمن منها التجمل بالصفات التي أحاطت بها ابنها يسوع : وهي الحنان والحصافة والمحبة الصادقة التي لا زهو فيها ولا تهوّر . لقد كانت ، وما زالت ، وستبقى أبداً أسمى مثال للأمومة القدسية ، تسير الأمهات وراءها مستوحيات أساليب التربية والتهذيب .

إليها يلتجىء اليتامى الذين لا أمّ لهم فيجدون في حضنها الراحة والعطف والمساعدة . إليها تلتجىء العذارى لأنها أبهى مظهر للطهر والحشمة والوداعة .

اسمعن يا اخواتي يا نساء القاهرة ! اليكنّ أوجه هذه الكلمات فاقبلنها لأنها خلاصة اعتقادي . تعلّمن الحشمة من مريم انتنّ بنات اليوم الناسيات . ما وقار المرأة واحترام الناس لها إلا نتيجة حشمتها وعفتها . قد تكنّ عفيفات طاهرات في قلوبكنّ ولكن كيف يصدقكنّ الرائي ويحسن الظن بكنّ وأنتنّ تسرن في الشوارع بهذه الأزياء الحديثة التي تعرّي منكنّ العنق والنحر والذراعين ، هذه الأزياء الشريرة بأقمشتها الشفافة ، الشريرة بقصرها وضيقها ، التي تعدم لابستها كل هيبة وجلال ؟

أَلِلْحُبِّ تتزين ؟ أللحبِّ تتِهن في هذا التهتك ؟ ألا فاعلمن إذاً ان حب الرجل لا يُكتسب بالتهتك بل بالتكتم . الرجل محارب من طبعهِ يهوى الفتوحات ويستميت في الإخضاع بينا هو يعرض عن كل ما لا يكلفهُ ألماً وكدّاً .

أم انتنّ تتزيّنّ للجمال ؟ ولكن هل الجمال في الزينة والأناقة وملاحة الوجه وتناسب الأعضاء ؟ كلاًّ ! كم من امرأة تُحسب آية تناسب وملاحة وهي مع ذلك غير جميلة ، إذا سرَّ امروءٌ بمشاهدتها مرةً أو مرّاتٍ فهو لا يتمنى مجالستها ويملُّ كلامها وسخافتها بعد أن يعرفها قليلاً ، إذ يرى ان أحسن ما فيها هو هذا الشيء الخارجي الذي لا يكفي لامتلاك القلوب واكتساب الأرواح .

ألا فاعلمن أن النساء اللاتي كنّ ذوات أثر في أعاظم الرجال وذوات سلطة وشوكةٍ حزْن جمالاً أعظم من هذا الجمال الخسيس وأبقى . لقد كان لهنَّ جمال النفس الذي تزيدهُ الأيام رونقاً بينا هي تحت القشرة هنا وهناك وتوسعها كل ساعة ذبولاً وإتلافاً . كان لهنَّ جمال العقل وجمال القلب ، وجمال حسن التصرّف ، وجمال اللطف الصحيح ، وجمال المحبة الطاهرة العميقة المستخفة بالمظاهر التي لا يغرّها جمال الشباب وجمال الأناقة وجمال الأزياء .

أتعلمن ما هو الشباب والجمال ؟ هما حديقة تملأها الأزهار النضرة والعطور المنعشة ، أمامها يقف المارّون معجبين . وما هو إلا يوم وليلة فتمرّ العاصفة صارعةً أشجارها ، مبدّدةً أزهارها ، مبيدةً عطورها ، وتغادرها خالية إلا من أكوام التراب والأغصان المكسرة . هذا ما تسمونه جمال الشباب أي جمال القشور . أما الجمال الآخر فهو جمال الجوهر . الآلام تطهرهُ والمصائب تجلوهُ ، والعواطف تفعمهُ قوةً ونبلاً . هو الجمال الذي يبقى نامياً مدى الحياة . هو مسعد العائلة ، وهو مساعد الزوج ، هو مهذب الأطفال ، هو السلام والخير والبركة . ولتحفظه المرأة ... اسمعن أيتها السيدات ... لتحفظ المرأة ذلك الجمال . عليها أن تكون وردةً تحيط بها الأشواك ...

انتهت الوعظة . فعزف الأرغن الشجيّ وابتدأ الزياح فاشترك الجميع في الترتيل وتصاعدت الشعائر نحو الله ملحنة أنغاماً ومحترقة أمام هيكله بخوراً.

وعند خروجي من الكنيسة كان الظلام يغمر المدينة ومضيئوا المصابيح يجرون في الشارع حاملين المشاعل . فوقف أحدهم يتفرج على السيدات وهو يفترُ عن أسنانهِ البيضاء ، ويثني على كل مارّة الثناء المعتاد قائلاً بلهجتهِ المصرية النغشة « أنتَ يا واد يا حلو ! أنت ياللي زي الباشا ! أنت يا واد يا حلاوة » .

هذه هي موعظة شهر الورود : على المرأة أن تكون وردة تحيط بها الأشواك . وما « أشواك » الوردة النسائية غير التكتم والحشمة والطهارة كما قال ذلك القس . فإن عجبتم اليوم لهذا الكمّ الطويل الذي يتعثر قلمي باذياله فاعلموا أن سببه موعظة شهر الورود . وإن أعرضتُ عن ذلك الثوب الشفاف الساحر واستبدلته بهذا الشبيه بثوب أبينا الواعظ لكثافته فما سببهُ ألا موعظة شهر الورود . وإن غادرتكم الآن ، فما ذلك إلا لأني أريد أسمع أن موعظة شهر الورود مرة أخرى : ــ على المرأة أن تكون وردة تحيط بها الأشواك .

الحركة بركة

شكا الناس هذا العام وما فيه من كثرة الجلبة في ميادين القتال وقلة الحركة في ميادين الأعمال . قال بعضهم أن مصر فارغة في هذه الشهور فراغ جيب البخيل . وقال آخرون أن جيب البخيل لا تفرغ ان كانت يده لا تمتلىء ، فسعى بالصلح جماعة أرضوا الفريقين بقولهم « بل قد تكون جيب البخيل ويدهُ ملآنين ولكن عينه تبقى فارغة » .

هؤلاء الناس سفسطائيون لا يعرفون شيئاً . أيها القارىء ، لا بد أن اسمّيك اليوم لبيباً ، إذ لديَّ من الأقوال ما أودّ أن تقبله بلا اعتراض ، وأن تضحك له لا منهُ . هذا لا بد أن تكون لبيباً . فإذا كان دولاب الأشغال (كما يقول الاختصاصيون) قد أكله الصدأ ، وما كثر في هذه الأيام من العمّال إلا العاطلون فلا تظن الحالة موجبة لليأس . صحيح أن البورصة تحزن السماسرة بعض الحزن لأنها عنيدةٌ تأمل الطلوع ، لكني أعترفُ لك سراً بأنها مصيبة . فليست الأيام أيام طلوع وكلّ مرتفع مُعرَّض للمقذوفات . انما الزمان زمان خنادق . حفرت البورصة لنفسها خندقاً ملائماً للأحوال ونزلت فيه صامتة .

غير أني أكرر أن الحالة لا توجب اليأس لأن اللصوص قوم أذكياء ، اذا هدأت الحركات غلت حركاتهم وتنوعت . يتهادون بين المنازل والدكاكين تهادي ربات الجمال وذوات الحجال . يسيرون من باب الى بابٍ ، ومن مستودعات الجواهر الى مستودعات الأموال ، بخفة وهدوءٍ لئلاّ يقلقوا

راحة النائمين. الأدب حسن في كل حين ، واللصوص جماعة « جنتلمن ».

على أني أعجب للمسروقين لماذا يغضبهم انهم لا ينتبهون لمرور الساعة الرهيبة ؛ أهذا جزاء المعروف ، يا سادتي ؟ أما البوليس فلا اعتراض على وقفته : يقفُ في النهار بكرامة ، وعلى مقربةٍ منه تتخاصم الناس وتتصادم المركبات ، وهو ولله الحمد واقفٌ بالسلامة ، منصوبٌ قوامه إلاّ من طرفيه كالألف المتقنة الصنع ـ وهذا يزيدهُ شبهاً بالهِ الحدود القديم عند الرومان .

استغفر الله ! لست أعني أنه يظلّ واقفاً كالتمثال ! كلاّ ثم كلاّ ! انه يمشي أحياناً ، ويرفع يده مسلماً على بعض المارين في المركبات ، وطرف حديث مع الاخوان لا يزعجه بل بالعكس . وهو مع ذلك متممٌ أمور وظيفته . فإذا رأى قبيل المساء حوذياً لم ينوِّر شمعتيّ مركبته صاح إلهُ الحدود الجديد باسطاً ذراعيه إلى الأمام وقام « نوّر يا أسطى » !. انهُ لبطل شجاع لا يحابي أحداً ، ولا يخشى هولاً إذا ما أمره الواجب ! علينا أن نعترف من جهة أخرى بأن الحوذي يطيع مرة في المئة ويعصي تسعاً وتسعين مرة ، مكتفياً بأن يجيب على أمر البوليس « حاضر يا سيدي » !. يقول المثل « لاقني ولا تعَشّني » . وكذا يعمل الحوذي لأنَّ ثقته في حلم البوليس لا حدَّ لها . مهما كان المرءُ بوليساً فإنه يظل إنساناً رحيماً .

هذه حالة البوليس في النهار ، أما عن الليل فلا تسلني ! قيل لي في قديم الزمان وسالف العصر والأوان أن بوليس الليل يدعى خفيراً . وهو كذلك . إنه ما زال بوليساً معتبراً ما دام قائماً مقام البوليس ولا أعرف عن هذا البطل الآخر سوى حادثة صغيرة جرت في شارعنا منذ أسبوعين تقريباً : دخل لص بيتاً فأفاق أهل البيت ، وانتبه الجيران ، وقبض هؤلاء وأولئك على اللص وشريكه ، ثم تساءلوا أين البوليس أو القائم مقامه . فبعد أن بحثوا عن رجل الساعة وجدوه نائماً كطفل بريء ... فأيقظوه ! ويلٌ لقساة القلوب انهم لا يشفقون !

من ألذّ أخبار اليوم حوادث ثلاث : سرقتان لمبالغ ٥٠ جنيهاً و١١٥ جنيهاً من بعض المخازن ، وسرقة حليّ وجواهر من منزل سيدة وطنية بقيمة خمسين ألفاً من الفرنكات .

بارك الله فيكم أيها اللصوص ! ان ضاعت أيامكم فإن لياليكم لا تضيع ! تذكرون قول الأمريكان « الوقت من ذهب » ، وقول السويسريين « السكوت من ذهب » وتستخدمون الوقت والسكوت معاً فينقلب الذهبان بين أيديكم لآلىء وجواهر ! بارك الله فيكم جميعاً ! أليس كذلك أيها القارىء اللبيب ؟

والبوليس ؟ لا توقظوه ! انه نائم بالسلامة كطفل بريء ...

(١٩١٦)

دنا عيد الميلاد ...

دنا عيد الميلاد وجاءت معه جميع الذكريات والتصورات والمعاني الخاصة به . غداً يلقي الواعظون من على المنابر كلمات الرفق والإحسان والغفران ، وينشد المنشدون « المجد لله في العلى وعلى الأرض السلام » فيسمع الناس الأناشيد والمواعظ ولا يحاولون ادراك كنهها ، وإن أدركوا فلا يعتقدون بوجوب تطبيقها على أعمالهم ؛ لأنها كجميع النصائح تقل قيمتها بالتكرار ويستخف بها كلما تبرع بها المتبرّعون .

المجد لله ليس في العلى الذي لا نعلم ما هو فحسبُ ، بل المجد له في كل مكان وكل زمان . أما السلام فليس على الأرض في أيامنا . ولا ينتظر أن يحل عليها قبل أن يتغير نظام الكون وهو التصارع والتقاتل الذي لا يفتر ولا يضعف .

منذ مئات الأعوام والدهور تتجاوب كلمات المحبة والمساواة أما الأعمال فلا يظهر فيها غير تنازع البقاء و تنازع القوة ، وتنازع الغلبة والظفر بين الأفراد والجماعات في شؤون العمران والدين والطبيعة . ليس غير التنازع من سبب في أن تقيم الفنادق الكبرى شجرة عيد الميلاد ليدور حولها الراقصون الراغبون في نسيان همومهم وتسريح غمومهم . وهو ، هو باعث نظرات السرور في عيني طفلٍ يرقب لعيبات ودمى وخيل وأسلحة ومركبات عمرت بها نوافذ المحال التجارية . وهو منبّه الذكرى في نفوسنا ومعيدنا إلى أيام كنا نرى في هذه اللعيبات الكون بأسره . كما أنه في

الوقت ذاته العاطفة التي تحوّلنا عن هذه الأشياء الى ما هو خير منها . أو ليس هو ذلك في شكل مجاملة ، صارت بالاستمرار اخلاصاً اجتماعياً ، الذي يجعلني أقول : كل عام وأنتم ...

عام سعيد

كلمة يتبادلها الناس في هذه الأيام ولا يضنّون بها إلاّ على المتشح بأثواب الحداد . فإذا ما قابلوه جمدت البسمة على شفاههم وصافحوه صامتين كأنما هم يحاولون طلاء وجوههم بلونٍ معنويٍّ قاتم كلون أثوابه .

ما أكثرها عادات تقيِّدنا في جميع الأحوال فتجعلنا من المهد إلى اللحد عبيداً ! نتمرّدُ عليها ثم ننفّذ أحكامها مرغمين . ويصح لكلٍّ أن يطرح على نفسه هذا السؤال « أتكون هذه الحياة « حياتي » حقيقة وأنا فيها خاضع لعادات واصطلاحات أسخر بها في خلوتي ، ويمجُّها ذوقي ، وينبذها منطقي ، ثم أعود فأتمشى على نصوصها أمام البشر » ؟

يبتلي امرؤٌ بفقد عزيز فيعين لهُ الاصطلاح من أثوابه اللون والقماش والتفصيل والطول والعرض والأزرار فلا يتبرنط ، ولا يتزيا ، ولا ينتعل ، ولا يتحرك ، ولا يبكي إلا بموجب مشيئة بيئته المسجلة في لوائح الحداد الوهمية . كأنما هو قاصر عن إيجاد حداد خاص يظهر فيه ــ أو لا يظهر ــ حزنه الصادق المنبثق من أعماق فؤاده .

إذا خرج المخزون من بيته فلا زيارات ولا نُزَه ولا هو يلتقي بغير الحزانى أمثاله . عليه أن يتحاشى كل مكان لا تخيِّم عليه رهبة الموت ؛ المعابد والمدافن كعبة غدواته وروحاته يتأمّها وعلى وجهه علامات اليأس والمرارة .

وأما في داخل منزله فلا استقبالات رسمية ، ولا اجتماعات سرور ، ولا أحاديث إيناس . الأزهار تختني حوله وخضرة النبات تذبل على شرفته ، وآلات الطرب تفقد فجأة موهبة النطق الموسيقي ؛ حتى البيانو أو الأرغن لا يجوز لمسه إلا للدرس الجدي أو لتوقيع ألحان مدرسية وكنسية ـ على شريطة أن يكون الموقع وحده لا يحضر مجلسه هذا أحد . أما القرطاس فيمسي مخططاً طولاً وعرضاً بخطوط سوداء يجفل القلب لمرآها .

كانت هذه الاصطلاحات بالأمس على غير ما هي اليوم ، وقد لا يبقى منها شيء بعد مرور أعوام . ولكن الناس يتبعونها الآن صاغرين لأن العادة أقوى الأقوياء وأظلم المستبدين .

ان المحزون أحق الناس بالتعزية والسلوى ؛ لسمعه يجبُ أن تهمس الموسيقى بأعذب الألحان ، وعليه أن يكثر من التنزه لا لينسى حزنه فالحزن مهذب لا مثيل لهُ في نفسٍ تحسنُ استرشادهُ ، وإنما ليذكر أن في الحياة أموراً أخرى غير الحزن والقنوط .

ألا رُبَّ قائلٍ يقول ان المحزون من طبعه لا يميل إلى غير الألوان القاتمة والمظاهر الكئيبة . إذاً دعوهُ وشأنه ! دعوه يلبس ما يشاء ويفعل ما يختار ! دعوا النفس تحرّك جناحيها وتقول كلمتها ! فللنفس معرفة باللائق والمناسب تفوق بنود اللائحة الاتفاقية حصافةً وحكمةً .

بل أرى أن أخبار الأفراح التي يطنطن بها الناس كالنواقيس ، ومظاهر الحداد التي ينشرونها كالأعلام ، انما هي بقايا همجية قديمة من نوع تلك العادة التي تقضي بحرق المرأة الهندية حيةً قرب جثة زوجها . وإني لعلى يقينٍ من أنه سيجيءُ يومٌ فيه يصير الناس أتم أدباً من أن يقلقوا الآفاق بطبول مواكب، الأعراس والجنازات ، وأسلم ذوقاً من أن يحدثوا الأرض وساكنيها انهُ جرى لأحدهم ما يجري لعباد الله أجمعين من ولادةٍ وزواجٍ ووفاة .

وتمهيداً لذلك اليوم الآتي أحييّ الآن كلّ متشحٍ بالسواد ؛ أما السعداء فلهم من نعيمهم ما يغنيهم عن السلامات والتحيات .

أحيّ الذين يبكون بعيونهم ، وأولئك الذين يبكون بقلوبهم :
أحيي كلّ حزين ، وكل منفردٍ ، وكل بائسٍ ، وكل كئيب .
أحيي كلاً منهم متمنية له عاماً مقبلاً أقلّ حزناً وأوفر هناء من العام المنصرم .

نعم ، للحزين وحدهُ يجب أن يقال « عام سعيد » !

أجوبة الفتيات

نشرت احدى صحف اليوم تحت هذا العنوان النبذة التالية : ألقت نشرة امتحانات التعليم الابتدائي الفرنساوية على الفتيات المتقدمات للحصول على الشهادة هذا السؤال « ما هي غايتكِ من الحياة » ؟ . وبعض الأجوبة جدير بالذكر . منها :

« أريد أن أكون من راهبات القديس فرنسيس لأمرّض المرضى طول حياتي » .

« لقد قرَّ رأيي على أن أكون مركيزة » .

« أودّ أن أكون ملكة على فرنسا ».

« أشتهي أن أصير أمّاً » .

« أودّ أن أكون راعيةً للغنم » .

« أطمع في الحصول على ساعة » .

« أريد أن أكون بطلة مثل جان دارك » .

« أتمنى أن أسافر وأموت غرقاً » .

« أودّ أن أبرع في أساليب الهزوء والتنكيت الخ . الخ » .

●

فسألت نفسي بعد قراءة هذه النبذة « وما هي أمنيتك الآن » ؟ وأغمضت عينيَّ منتظرة الجواب . وما أغمضتهما إلاّ وتلاشت الأصوات حولي ،

ونسيت محيطي . ورأيتني سابحة فوق الأزرق الوسيع ، ورائحة المرارة البحرية وطعمها يخترقان كياني بينا الأهوية والنسائم يتناقلنني . يا لهذا البحر الجميل كم من أرضٍ محبوبةٍ يحول دونها ، وكم من وجهٍ عزيزٍ يحجب عن المشوق معناه ! ... وما لبثت أن وجدتني مستلقية على الشاطىء البعيد ...

أتعرفون تلك البقعة الهادئة المنبسطة على شفة البحر تحت ذياك المكان المدعو « بوطإ نهر الكلب » ؟ أما زالت هناك كما كانت يخاصمها البحر ويصالحها ليل نهار ؟ هناك أودُّ أن أنام ، شأني وأنا في الثانية عشرة من سنواتي البشرية . هناك الرمال ذهبية نظيفة لا تفنأ الأمواج تغسلها وتظلُّ الأشعة تنشفها . هناك صخور وشقوق أود أن أستريح في فيئها سعيدة بالاختلاء والكآبة . سعيدة بغرز يدي في الرمل الناعم ، مُعْرِضة عن كل شيء ، ناسية كل شيء . مكتفية بمناجاة الأصداف والحصى والذرات حولي وبإلقاء هذا السؤال على الكون الصامت « لماذا أوجدتني . أيها الكون . وما تريد مني » ؟

●

أويقات سجلت في كتاب الحياة ، أتمنى رجوعها لحظة ويأسف لانقضائها قلبي . ولكن فكري ليس ليشتهيها لأننا في عالم نشوء وارتقاء . ولئن اكتفى جزء من النفس مرة فهناك جزء آخر يبقى متفلتاً من اظلال الماضي . تائقاً إلى المستقبل المجهول ، لا يعرف لذة الارتواء وسعادة الاكتفاء ...

وصف غرفة في مكتبة

أستخرج هذه الصفحة من فصولٍ لم تنشر بعد كتبتها تحت عنوان « مذكرات الجامعة المصرية » لسنة ١٩١٦ . والغرفة التي وصفتها تابعة لمكتبة الجامعة وهي اليوم مركز سكرتارية المكتبة . أما يوم كتبتُ فيها فكانت خالية يجتمع فيها الطالبات إذا جئن قبل ابتداء الدرس الذي يقصدن حضورهُ . ومنهنَّ الفرنساوية والإنجليزية والروسية واليونانية والإيطالية والبلجيكية والسورية . ولم تخلُ تلك الاجتماعات إلاَّ من الفتاة المصرية وهي الحقيقة بحضور الدروس أكثر من غيرها لأنّ الجامعة جامعتها أكثر منها جامعة الأجانب .

كنا نجتمع هناك كمؤتمر دولي التَّأم لعقد الهدنة وتقرير شروط الصلح ، أو كمؤتمر نسائي غرضه المطالبة بحقوقه والمجاهرة بمطالبه . ولكنَّ الأحاديث الدائرة بيننا لم تكن لتدل على ذلك بل كانت مقتصرة على أخبار « الكونسرتات » والسينماتوغرافات والأزياء وأشكال البرانيط الحديثة . ويتخلل هذه الثرثرة النسائية المحضة ضحك « يدبُّ دبيبهُ » في كل موضوع تجاذبت أطرافه فتاتان ، فكيف به إذا صار ضجة فتيات كثيرات ؟

من عجائب الحديث النسائي أن السيدات إما يصغين جميعاً ولا تتكلم منهن واحدة ، وهذا نادر . وإما يتكلمن جميعاً في آن واحد ولا تصغي منهنَّ واحدة . وكانت الحال الثانية حالنا في اجتماعاتنا نظلُّ عليها حتى يعرض

لنا ذكر موضوع الدرس ، فيهدأ ضجيجنا بغتة ونصغي جميعاً إلى المتكلمة فينا ولا نحجم عن بثٍّ الآراء والمناقشة أحياناً . ونبقى « عاقلات » حتى يمر في الحديث خيال نكتة صغيرة فنعودُ إلى الثرثرة والضحك المتقطع المتواصل .

اجتماعات لطيفة كاجتماعات الفتيات في كل زمان ومكان ولكننا لم نكن لنهتم « بسرّ » الغرفة التي تجمعنا جدرانها ؛ ولم أنتبه لذلك « السرّ » إلاّ يوم وجدتني هناك وحدي ناظرة إلى ما نُشر على الجدران من رسوم أعاظم الكتَّاب والمفكرين .

●

يقال أن في العالم نحو ثلثمائة جامعة . ولئن كانت الجامعة المصرية أحدث هذه الجامعات سناً وأقلهنَّ فائدة مادية (لأنه ليس لألقابها حروف شتى يجرها الطلبة وراء أسمائهم) ، فهي مع ذلك آخذة مكانها بينهنَّ . ولها ميزة خاصة بكونها جامعة أهلية .

على أنها ليست الجامعة الأولى في الشرق الأدنى .

ان الأزهر الشريف أقدم جامعات الشرق والغرب لأنه تأسس في القرن العاشر في حين أن أقدم جامعات أوروبا ـ وهما جامعتا بولونيا وباريس ـ لم توجد قبل القرن الثاني عشر .

يجلل الأزهر وقار القِدَم . غير أن بابه مقفلٌ في وجه غير المسلمين وتعاليمه دينية لغوية في الغالب . فهو في نظر كثيرين حلم عميق للمرء أن يذكره ويحدّث عنه ، ولكن لمسه ليس بالأمر الميسور .

أما الجامعة المصرية فمفتوحة للجميع ولا تقلل من فضلها حداثة سنها . إنّ كلّ صغير محبوب لأنه يطلبُ العطف . كل صغير مستودع آمال كبيرات لأن له قابلية النمو والتكاثر .

قال الفرد ده موسيه (وهو الشاعر الذي أعطى قوة التعبير عن أعمق العواطف بألطف الألفاظ) « كأسي صغيرة لكني أشرب من كأسي » . وعلى هذا القياس للمصريين أن يقولوا : « جامعتنا صغيرة لكننا نتعلم في جامعتنا » .

●

ليست الجامعة منهل علم لطلبتها فحسبُ ، بل هي مهبط وحيٍ لي حين أبلغها قبل ابتداء الدرس الذي ابتغي حضوره بدقائق أقضيها منتظرة متأملة .

فكم من فكر إنساني ما يحيط بي من آثار الحياة ! وكم من تأمل التقط موضوعه نظري بين وريقات شجرة خضراء تتمايلُ أمام النافذة ، وكم من حلم لمحت خطوطهُ مرسومة في جوّ قاعة الدرس وألوانهُ متخللة خيوط الأشعة المطلة علينا ! أفكار وتأملات وأحلام رفرفتْ عليَّ حيناً وغنَّت في نفسي كالاطيار ، ثم فتحت جناحها الذهبي ساعة جاء الدرس ينبهني ـ فتحت جناحها وانطلقت تعدو إلى آفاق قصيّة أجهلها وأحبها لأن لي فيها أطياراً خيالية .

أنا الآن في غرفة صغيرة تابعة لمكتبة الجامعة . وليس في هذه الغرفة من الكتب إلا ثلاثة أجهل اسمها ولغتها لأنها خفيت تحت كتاب رابع من تأليف مارمونتل . وهذا أديب فرنسوي لم يتفوق في موضوع من الموضوعات الكثيرة التي عالجها ، بل اكتفى بالإجادة فيها جميعاً إجادة معتدلة ، تاركاً البراعة والتفوق لأستاذيهما الكبيرين : فولتر وروسو . روسو الذي حاول تكوين مجتمع جديد بقلمه القادر البليغ وملأ العالم ندباً ورثاء . وفولتر الذي كافح القيود الدهرية برأس قلمه الرشيق النافذ كالسهم إلى أعماق الأفكار ، وبابتسامته الخالدة التي يرى فيها أتباعُهُ فجرَ الحرية المنبثق من ليل العبودية الاليل .

ان للأمكنة أرواحاً ، وفي هذه الغرفة الصغيرة روح تناجيني وسرٌّ أطمع

في اجتلاء غوامضه . كلّ ما يحيطُ بنا في الحياة سرٌّ ولغزٌ لكنَّ حواسنا المثقلة بأحمال المادة تحجبُ عنا الأنوار ، فلا نرى للأشياء وجوداً ولا ندركُ لها حقيقة إلا بقدر ما تتفقُ معانيها مع أطماعنا وشواغلنا .

كلما رأيتني وحدي في هذه الغرفة شعرتُ بأن في جوّها روحاً . أهي مجموع أرواح النوابغ الحاضرين هنا برسومهم وبخيالات الأفكار المطلة من أحداقهم ؟

نهضتُ أمشي في الغرفة ، أمشي وأفكر . وراء الطاولة التي أكتبُ عليها صورةُ سفينةٍ ركبت من البحر جواداً حروناً وسارت تقطعُ الأمواج الكبار بقوةٍ وثبات . وتحت السفينة إطار حوى ورقة ممزقة وفيها بعض السطور الهيروغليفية .

الكتابة الهيروغليفية قرب الباخرة ! أن جوار هذين الرسمين لرمزي : السفينة فينيقيا والخط الهيروغليفي مصر .

فينيقيا ومصر !

المدينتان القديمتان اللتان بزغت منهما مدنيّاتنا الحديثة وانحدرت من ذراريهما تواريخ ذرارينا ! ترى هل وقفنا على جميع ما فيهما من الاسرار وعرفنا كل ما كان عندهما من علم وفن ومقدرة وسلطان ؟ أم نحن في ذلك مدّعون دعوانا في سائر أقسام المعرفة ؟

قبل أن يكتشف كولمبس القارة الامريكية بقرون طويلات كانت سفن الفينيقيين تضربُ في البحر طولاً وعرضاً وقد عيَّن التاريخ خطوط رحلاتها ، ولكن أيُّ شيء أجهل من العلم إن لم يكن التاريخ ؟ ومن يدرينا ما إذا كانت اليد التي شادت الاهرام وأقامت الهياكل المتراكمة اليوم بقاياها على رمال النيل ، هي غير اليد التي أوجدت هياكل ، تُرى الآن انقاضها في أواسط امريكا ، ونحتت ما عثر عليه لورد دوفرن من مسلات

مصرية ونقوش شرقية في كولمبيا البريطانيا ؟

والتليفون الذي أراه في زاوية الغرفة على مقربة من الكرة الأرضية أهو اختراع هذا العصر فحسبُ ؟ ألم تكن من نوعه الآلة التي يقال انها كانت مستعملة عند كهنة إيزيس وأوزريس لمخاطبة الهياكل الأخرى من أقصى البلاد إلى أقصاها خلال الاحتفالات السنوية الكبرى والاجتماعات الدينية ؟ ولماذا لا يقوى العالم الحديث على استخراج الأرجوان من الأصداف كما كان يفعل الفينيقيون ؟ لماذا لا يُخرج لنا ألواناً ثابتة لا تنفض نضارتها كألوان هياكل الأقصر ؟

أكان أجدادنا جاهلين أم نحن لهم ظالمون ؟ أم كل الفرق في أن العلم كان عندهم محصوراً ضمن الأقلية المنتخبة وقد أصبح في زماننا « حصة من جدَّ اعتزاماً » ؟

●

ولكن لنتابعن سيرنا في الغرفة :

في منتصف الجدار إلى اليمين صورة هوغو في شيخوخته ويده تحمل جبهته المثقلة بالافكار العظيمة . كأنما هو في جلوسه يناجي الاجيال قائلاً : ها أنا ذا ! أنا هوغو الذي انالته الحياة مجداً وثروة وحباً . أنا ذاك الذي شاخ في المنفى فكان سعيداً في الشقاء . أنا ذاك الذي بحث عن نوابغ الماضي ودوّن اسماءهم تاركاً بعدها مكاناً واسعاً لإسم جديد . والإسم الذي أعني إنما هو اسم الرجل الجالس هنا حاملاً على يده جبهته المثقلة بالأفكار العظيمة : فيكتور هوغو !

وإلى شمال هوغو أرى الفيلسوف الرياضي ديكارت الذي قال فولتر في وصفه انه جعل العميان يبصرون ، إذ بيَّن للقرن السابع عشر أغلاط القرون الخاليات وجعل شعار هذه الجملة : « لتبلغ الحقيقة يجب أن تنسى

مرة في حياتكَ جميع الآراء والاعتقادات التي شببتَ عليها ، ثم تقيم أسساً جديدة لآراء واعتقادات شخصية » .

إلى شمال ديكارت أرى بوسويه اسقف «مورو» . ترى بأي شيء يسرّ ديكارت إلى بوسويه في ساعات الوحدة ، وبماذا يجيب الأسقف الكاثوليكي ؟ ليت لي من سبيل إلى التجرد من جسدي حيناً لأسمع محاوراتهما ولو مرة واحدة ، ولأعلم كيف يتناقش العلم والدين في عالم الأرواح .

على يمين هوغو موليير الشاعر الفذّ الذي ملأ رواياته ، وراء لهجة الاستخفاف والظرف والتنكيت ، انتقادات اجتماعية وعلمية ودينية ، وعلَّم أهل زمانه الضحك من أنفسهم غير متذمرين .

وعلى يمين موليير وجهٌ نحيف جذاب . من هذا ؟ لو نسي مصوّرك كتابة اسمك تحت رسمك ، لو دُرِسَتْ آثار فكرك وعلمك وانتقادك وطمسَ الزمان كل ما أيده قلمك ، لو أكلتْ النار وجهك غير مبقية إلا على شفتيك لعرفتك يا فولتر ! يا لفمك من فم هائل في كلامه . هائل في بسمته . هائل في سكوته حتى في سكوت الصور !

تحت هوغو إطار ذو رسمين يمثل أحدهما راسين والآخر بوالو . ولو أنصفت الجامعة لوضعت راسين فوق هوغو وأقصت النظّام بوالو عن الشاعرين . لكني أفهم أن صورة هوغو عندها أكبر من صورة راسين . كذلك تسير مواكب الحياة ! فكثيراً ما يقطن الأكبر تحت الكبير ويقف الأحسن دون الحسن ، ولكلٍّ ان يرضى بما قسم لهُ لأن الزمان شاء ومشيئته لا تتغير !

من زاوية فولتر إلى الباب تمتدُّ مكتبة صغيرة خالية مما وُجدت له ، تتجلى فوقها صورة امرأة عظيمة : مدام ده سفينيه ! كم تسرني رؤية هذه المرأة قرب هؤلاء الرجال ! كأن وجودها هنا عنوان اهتمام الجامعة بالفتيان والفتيات على السواء ، كأن صورتها على هذا الجدار صوت يستحث

الفكر النسائي قائلاً : إلى الامام !

على الجدار المقابل لجدار فولتر صورة فنيلون « أسقف كمبري » مؤلف كتاب « تليماك » المفعم بالانتقاد الدقيق الخفي لحكومة لويس الرابع عشر وللملك العظيم نفسه . وإلى جانبه معاصره الشهير كورنيل واضع الروايات البديعات اللائي ما برحن ميداناً ، فيه الحب والواجب يتنازعان .

وعند الباب هيكل عظام بشري إلا أنه صُنع من خشب الجوز أو من خشب آخر دُهن بهذا اللون . كل ما هنا يساعد ما في جوارِه لجعل هذه الغرفة كبيرة في صغرها ، عظيمة في سذاجتها .

صدق القائل إن للغرف ارواحاً ...

احب روح هذه الغرفة الممزوجة من أرواحٍ شتى .

وهل من مخبر بما رأتهُ هذه الجدران قبل أن تكون للجامعة من اتراحٍ وأحزان ، وبما شهدتهُ من تقلُّبات الحدثان !

لعلها سمعت تنهداتٍ لم يلنْ لها قلبٌ ، أو رأت قلباً وحيداً لم يشاركهُ في ابتهاجه مشارك ؟

لعلها رأت دموعاً سخينة لم تمسحها اليد الرحيمة ؟

فولتر ! هوغو !

لو تكلمَّت الجدران لكانت أتمَّ منكما بلاغةً وأعمق تأثيراً !

في محكمة الجنايات

زرتُ اليوم مكاناً لعلّه أرعب الأمكنة بعد مسارح الجرائم الخفية ومواضع تنفيذ الاعدام . أعني القاعة الكبرى في محكمة الجنايات حيث يُصدرُ العدل البشريُّ أشد احكامه على مَن يكون في عرفه مجرماً . ذهبتُ إلى تلك القاعة حيث تنعقدُ المحكمة العسكرية لمحاكمة المتهمين بأنهم من أعضاء « جمعية الانتقام » المتآمرة على خلع السلطان ، وقتل الوزراء ، وقلب الحكومة ، والتحريض على الثورة في البلاد . ما أرهب هذه الكلمات التي تصوّر للمخيلة مشاهد الظلم والفتك والدماء والدمار ! ومن مميزات الحركة النسائية الجديدة أن المصريات امتزجن بالحياة العامة فصرن يظهرن في كل اجتماع قومي ، حتى وفي أحرج المواقف وأوجعها للقلوب الوطنية . كذلك حضرَ بعضهن جلسات المحكمة بالتتابع .

دخلتُ الدهليز الواسع بين الجنود المنتصبين يمنةً ويسرةً ، وخلالهم يختلط المحامون بأصحاب القضايا ويناقشونهم بأصوات خافتة على رغمٍ منهم . فتلقّاني جندي حاجبٌ قدّمتُ لهُ تذكرة الدخول فأوصلني إلى آخر . وسار بي هذا إلى ثالث وأنا أعدُّ الازرار الذهبية المنضدة على كتف كلٍ منهم ، وأتظاهر بعدم الاكتراث لأسكت دقات قلبي . وما كان حتى رأيت ضابطاً ينحني امامي وهو يفتح باباً لم اسمع لهُ ما يشبه الصوت . فوجدتني بغتةً في قاعة متوسطة الاتساع قد تبلغ مساحتها العشرين متراً طولاً على عشرة أمتار عرضاً . وبدلاً من أن أخطو وراء الجندي الذي سار ليدلّني على مكاني ،

ظللت واقفة وأنا في أجفالي اتفرَّسُ في الوجوه المستوية في صدر القاعة وقد اشرأبّت نحوي جميعاً . غير أن الذي تكفَّل بايصالي عاد إليّ ثم مشى يهديني حتى أجلسني على المقعد الرابع ، وعلى مقربة مني « قفص » المتهمين .

أجميع الحضور يحدّقون فيّ أم أنا في هلوعي أظنهم فاعلين ؟ رفعتُ بصري اتبيَّن الأمر في سيماء القضاة أولاً فإذا بهم يرقبونني وقد ادركوا في سرّهم مقدار جزعي واضطرابي . وهل من نظرٍ ينفذ إلى أعماق النفس ويعرّيها من أستارها كنظر القاضي ؟ ربما كان هناك شخص واحد يفوقه براعة ، وهو الكاهن الكاثوليكي الذي يكسبُه تعاطي الاعتراف واستماع شكايات الناس ، حنكة ودراية ومعرفة بأسرار النفوس لا يماثله فيها من العلمانيين غير من شفَّت بصيرته بأنوار الإلهام .

لم أجرأ على النظر إلى المتهمين . وشعرتُ بأن اسلم النظرات عاقبة وأضمنها براءة هي نظرة اصعدُ بها الى سقف المكان مستوضحة هندسته وزخرفته .

زخرف محكمة الجنايات ؟ ما هذا المجون ؟

نعم ؛ هناك زخرفٌ وتنميق ، وهو عبارة عن خطٍّ عريض نُقش بالنقوش الحجرية البيضاء ودار حول سقف القاعة في أعالي جدرانها الكلسية الجرداء . وقطعتْ خطوطٌ أخرى من نوعِهِ السقف ثلاثاً وأنالته شكلاً مرضياً . ثم هبطت عيناي إلى الحوائط ، وفي احدها القائم شمالاً شبابيك كبيرة واسعة رُفعت الأستار الكتانية إلى أوجها فتدفق خلالها نور النهار الداخل من الحديقة الفاصلة بين هذه القاعة وبين الشارع حيث يسير الناس أحراراً غير مقيَّدين . ولما فرغتُ من تفحُّص الحائط ولنوافذ والستائر ، واستنزفتُ عليها كلَّ ما جال في دماغي من ملاحظة ومناقشة وتعليق – مشى بصري قليلاً قليلاً إلى صدر الغرفة حيث استوت هيئة القضاء

لتحكم بقسطاس العدل .

أين ذهب اضطرابي حتى واجهتُ نظر القضاة بهدوء هذه المرة ، وبي شعور يشبه الراحة والطمأنينة ؟ فعدَّلتُ جلوسي واستعدادي العقلي لأضع الأشياء في مواضعها .

هيئة المحكمة تتألف من قضاة عسكريين أربعة يلحق بهم المترجم ، ويرئسهم قائد تبدو مرتبته في الأشرطة الحمراء المذهبة على كتفيه وكميّه ، وفي صفّ الأشرطة الملونة الصغيرة الممتدّين على صدرهِ واحداً فوق الآخر ليدلاً على ما عنده من مختلف المداليات والأوسمة . ويتوسط الهيئة « نائب الأحكام » وهو قاض في المحاكم المختلطة وأحد كبار رجال القانون الإنجليزي ، وهو وحدهُ بين القضاة يلبس الشعر العارية الابيض والرداء الأسود . وإلى اليمين كرسي المدعي العمومي ، أو مدَّعي الملك ، كما يسمونه في هذه القضية ؛ وهو كنائب الاحكام يلبس الشعر الأبيض والرداء الاسود . وأمام المحكمة مكان المحامين ، فموقف الشهود ، تتناسق متتابعة ووراءه مقاعد القاعة التي أجلس أنا في صفها الرابع ، وإلى يميني قفص المتّهمين الذي تنتهي حدوده من الجهة الأخرى قرب هيئة المحكمة .

أيّ المواقف أغرب من موقف المتّهم إزاء القاضي ؟ وأي كرهٍ قسري بين هذين الاثنين ــ بين شخصٍ ضعيف أعزل تحت رحمة الآخر ، وبين هذا الآخر الذي وُجد ليفسر الحركات والمعاني ويتصرف كيفما شاء في مصلحة المتّهم وراحته وحياته . أيّ عداء وأي اختلاف أعظم من هذا ؟ مع ذلك فالاثنان خاضعان معاً لجميع نواميس الطبيعة وأهوائها . فلو تساقط الثلج الآن لانتفضنا معاً ، ولو زلزلت الأرض زلزالها وفغرت فاها لالتهمتهما معاً . ولو انتشر مكروب خبيث لتناولهما معاً ولتألم كلٌّ على حدةٍ بمثل ما يتألم الآخر . بل ها هم جميعاً كلّت أدمغتهم وأغمضوا عيونهم وفي كل منهم احتياج يظهر حتى وفي تصلّب جلوسه ، احتياج إلى أن يتثاءب ويتمطّى

كما يفعل الأسد ؛ أو كما تفعل هرّتي البيضاء عندما تأبى ملاعبة من لا يعجبها . وعندما تخرج كلمة هزلية من فم المحامي أو القاضي أو الشاهد تلمع عيونهم جميعاً ويشتركون في الضحك . ولئن بعث القضاة إلى المتهمين بنظرة نافذة مستفسرة باردة كالسلاح الأبيض ، حيناً بعد حين ، فلواحظ هؤلاء تخال باسمة في الغالب .

نعم – في جميع عيون المتهمين ابتسام ، وهيئة القاعة عموماً بسيطة ليس فيها ما كنت أتوقعهُ من مظاهر الغم والعبوسة . كأنها مكتبٌ لأي عمل من الأعمال التجارية مثلاً . وبينا المدعي العمومي يتابع شكايته مستطرداً في الاتهام فيأتي بالحجة بعد الحجة ، وبالإثبات تلو الإثبات – إذا بالمتهمين لاهون عن أقوالهِ بما بين أيديهم من جرائد ومجلات يقلبون صفحاتها ، ثم يتحادثون كأنهم يتبادلون الآراء في الموضوع الذي يقرأونه ولا علاقة له بالمحاكمة أصلاً . ثم يرتسم الحزن في سواد عيونهم وتبرز على جباههم أحكام نقشها لهم القدر في كتابهِ النحاسي ، فيتأملون قليلاً ويتنهدون . إلا أن اجتماعهم إجمالاً يشبه اجتماع مدرسيّ جدي . أقول « مدرسي » لأنهم من طلبة المدارس العليا . فهذا كان يدرس الطب ، وذاك القانون ، والآخر من طلبة الأزهر ، وغيره من مدرسة القضاء الشرعي ، وهيئة التلمذة عليهم جميعاً إلا عبد الرحمن بك فهمي الواقف في مدخل الممّر إلى القفص كالجبار ، وعليه ملامح الحكام والوزراء [١] .

حسن بزتهم يشير إلى درجتهم الاجتماعية ، وفي عيونهم ترقص أنوار الحياة ، وعلى شفاههم يبسم رونق النضارة ، وفي ذقون بعضهم تلك الطبعة

---

(١) عبد الرحمن بك فهمي سكرتير لجنة الوفد المركزية متهم بأنه كان يمدّ « جمعية الانتقام » بالمال والسلاح ، وهو من وجهاء البلاد وكان مديراً لمديرية بني سويف (المدير في مصر يوازي الوالي في سوريا قبل الانقلاب الأخير بل قد يفوقه أهمية) ثم عيّن وكيلاً لوزارة الأوقاف .

الجاذبة التي يحسبها أهل الفراسة علامة الحب الشديد ورمزاً إلى أن في صاحبها احتياجاً للشعور بأن لهُ من يعزُّهُ ويحنو عليه . وإن حُرِمَهُ شقي شقاء لا يدركه غير أمثاله . فكيف يحتمل هؤلاء حياة السجن وراء الأبواب المقفلة وفي عناء الأشغال الشاقة ؟ وكيف يحتملون القيود والأغلال وكل ما هيأه المجتمع من نظام ولباس ويحوّل يأس الجاني إلى سخرية ظاهرة ؟ وأي التوسلات ستنطلق من هذه الأفئدة ، وأي الدموع ستلهب هذه المحاجر ؟

تلاشى فجأة ما يحيط بي ، واتسع القفص ، وأضيفت إليه جميع الأقفاص في جميع محاكم العالم وقد حشر فيها الألوف والملايين . ورأيت في عيون الجناة صور جناياتهم ، وفي عيون الأبرياء صور براءتهم ، وفي جميع العيون أشباح الخوف والفزع . ثم انهدمت جدران القاعة وارتدَّت حدودها إلى ما وراء جميع المحاكم في الماضي والحاضر والمستقبل . وصار القضاة الخمسة ألوفاً وملايين ، ونظراتهم النافذة المستفسرة الباردة كالسلاح الأبيض تتَّجه نحو العيون المذعورة . وسمعتُ الأحكام على العبيد وعلى الملوك ، على المظلومين وعلى الظالمين ، وتراءت لي السجون بغمومها والأشغال الشاقة بذلّها ، وآلات التعذيب بهولها ، وبدت أمامي وجوه الجرائم والفظائع والشرور فتقطَّعت أوصال إحساسي . وفي هذه الغرفة التي كانت تبسمُ منذ هنيهة سمعتُ صلصلة السلاسل وقعقعة القيود ، ولمحتُ أحكام الإعدام على لابسي البذلات القرمزية السائرين نحو المشانق عراة الأقدام ...

ما هذه الضوضاء التي تخرج بي من هذا الكابوس الفكري ؟ أكلّ هذه جلبة الحبال في الأعناق ؟ كلا ، بل حانت ساعة الانصراف ، ورفعت الجلسة ، وانفرط عقد المجتمعين وها هم يخرجون إلى الدهليز الوسيع المؤدي إلى الشارع . وهناك عند العمود الضخم المنتصب أمام المحكمة رفع أحد المتهمين نظره إلى إفريز العمود الأعلى ثم أداره سريعاً إلى الأرض

وأرسل زفرةً محرقة . فنظرتُ إلى الافريز الأعلى وإذا بطائرين قد وقفا جنباً إلى جنبٍ ينشدان أنشودة الحياة والحب والحرية .

"سعادة" ملك اليونان

نقلت برقيات اليوم خبر عودة الملك قسطنطين والأسرة المالكة إلى بلاد اليونان ، فقالت أنه قوبل بحماسةٍ شديدة وروت عنهُ هذه الكلمة « اني سعيد بالعودة إلى وطني » .

طبعيٌّ أن يسرَّ المرءُ بالعودة إلى بلادٍ أُقصي عنها وهو يحبها ؛ طبعيٌّ أن يرتاح لاستنشاق هوائها لا سيما ولهُ فيها عرش كسائر العروش انتصبت قوائمه على قوة الاستمرار والتسليم بلا مناقشة . ليس تلاميذ المدرسة اليونانية الذين أسمعهم يهتفون لقسطنطين عند الانصراف هم وحدهم أطفالاً يؤيدون من يجهلون وينادون بما لا يفقهون . الجمهور طفل بوجهٍ عام . موجة ترفعه وموجة تدفعه . انفعال يطير به إلى قمم الجبال وانفعال يهوي به إلى أعماق الهاوية . يؤلّهُ الساعة من سيذلّ بعد ستين دقيقة وسيمجّد غداً ما قدّسهُ أعواماً ودهوراً . وهو في كلّ ذلكم هائج مائج ، مسيَّر غير مخيَّر يتدافع بلا تروٍّ أو تعقل .

ومن الغرائب أن الأشياء تقوى بالتضاعف إلا ذكاء الجمهور . فلو اختير خمسة أشخاص أو عشرون شخصاً من أرقى الناس وجُمعوا للمناقشة والبتّ في أحد الموضوعات ، وأفرد لمثل ذلك شخص واحد متوقد الجنان ماضي العزيمة فلربما جاء الفردُ بما قصرت دونه الجماعة . لأن مستوى الذكاء يهبط في الجمهور ويختلط بينا هو في الفرد يسمو ويتناهى . وهو حدث سيكولوجي معروف لدى علماء النفس . ولعلَّ المقابلة بين قاموس الأكادمية الفرنساوية

الذي يشتغل فيه عشرات « الخالدين » منذ عشرات الأعوام ، وبين قاموس لاروس الكبير الذي أنهاه فردٌ واحد دون مساعدة أحد ـ لعلَّ هذه المقابلة مصداق يقبله كثيرون .

على أن كلمة الملك تستوقف الذهن وتنبه الهواجس عند ذويها . يقول إنه « سعيد بالعودة » . ولكنّ سبب هذه العودة راجع إلى موت ولدِه ، إذ لو بقي الملك اسكندر على قيد الحياة ما تقيَّض لأبيه أن يغادر سويسرا في هذه الآونة . وإذا كان « سعيداً » بالنتيجة فكيف لا يكون سعيداً بما أدَّى إليها ، أي بوفاة ولدِه ؟ .

والذي ساقته الهواجس إلى هذه النقطة لا يحجم عن أن يخطو خطوةً أثيمة أخرى ، فيقول : إذا سعد الملك بتلك الوفاة بعد وقوعها ، فأي مانعٍ منعهُ عن أن يسعد قبلئذٍ بتخيُّل احتمال وقوعها ؟ ترى ألم يمرّ في مخيلته خيال الموت وولدهُ على فراش المرض ؟ ومن يدري ؟ ألم يتحرك في قرارة نفسهِ شيء يشبه الخوف أو... التمني ؟

لا ، لا أريد استطراد التحليل ! وسواء أكان هذا الوهم ممكناً أو مستحيلاً في قلب والدٍ أو والدة ، فإن النفس البشرية تبقى دواماً هي هي في ارتباك انفعالاتها واشتباك نزعاتها . ولئن كانت العواطف الأبوية قوية في الغالب فلكم ضُحّي من ولدٍ لغاية شخصية ، أو لأجل قريب ، بل لأجل غريب إذا أحسن ذلك الغريب لمس الموضع الحساس من حبّ الذات ، أو علل طمعاً من أطماع النفس أو منَّاها بإحدى رغائبها ...

لمحة مرعبة في قلب الإنسان . فلنحولنَّ النظر إلى ما هو أقلّ أدلهماماً !

ماك سويني

على ذكر الملك اسكندر أقول أني ككثيرين غيري ، كنت أرقبُ الأخبار عنهُ صباح مساء كل مدة مرضه . لم أكن لأهتم بشخصه من حيث هو ملك اليونان « الموافق » الآن لسياسة الدول . لقد أتعستني الطبيعة ـ أو أسعدتني ـ بأن جعلت لفافة السياسة في دماغي جافة عقيمة لا تتأثر ولا تتحرّك . إلا أنه كان مذكوراً بالخير لسحقه تقاليد راسخة وتحطيمه سلاسل وثيقة بزواجه من فتاةٍ من ذوات الدم الأحمر الحيوي الفوّار ، بدلاً من الدم الأزرق « الشريف » الذي ليس بشريف ولا هو بأزرق في غير دعوى مدّعيه .

كذلك كنت أهتم لأخبار ماك سويني إذ كاد يدخل العليلان دور النزع معاً ، وقد توفي أحدهما بعد الآخر بساعات معدودات . وكلٌّ منهما بطلٌ في بابه ، ضحية في بابه : فهما مختلفان متشابهان .

ملك اليونان يقضي بعضّة حيوان غاضب ، يقضي مرغماً تمرّضه امرأةٌ عزيزة . والآخر يقضي ببطء مختاراً لا يداويه عزيز ، ولا هو يسير بنشوة الحماسة وجنونها نحو الموت بل ينتظرهُ انتظاراً رياضياً ، منظماً ، متتابعاً ، متماسكاً عنيداً . يموت لينفِّذ كلمة قالها عند دخول السجن : « سأخرج من هنا بعد شهر حياً أو ميتاً » . ولم يثنِ عزمه ذكر زوجةٍ وأبناء ينتظرون نعيه في البيت الخالي منه حيث لن يعود قط .

أي رجل كان ذلك الرجل ؟ حمل ثقيل أزيح عن عاتقي عندما علمت بانتهاء آلامه .

لقد طالعت كثيراً مما كتُب عنه في الصحف الإنجليزية وغير الإنجليزيه ، وقرأت يوميات دوّنها في سجنه ـ وقد تكون مختلقة أو محرّفة . وحضرت قداساً أقيم في كنيسة القديس يوسف لراحة نفسه . وظهرت هنا بعض الصحف الوطنية مصدرة برسمه ، وقد جرت في أعمدتها أنهار النظم تنويهاً بشجاعته وبطولته . أما أنا فلم أفهم بعد أية خدمة أدى إلى وطنه ، وأي درس ستتلقى إرلندا من موته سوى درس المثابرة والثبات ؟

أليس من الخسارة الفادحة أن يلاقي رجل كهذا حتفه مختاراً ، ليعطي وطنه أمثولة كان في وسعه أن يعطيه عشرات لا تنقصها أهمية وإن اختلفت عنها نوعاً في حياته ، حتى اذا حانت ساعة الموت رحل عن الدنيا بميتة هي أنبل من الميتةِ الغبراء وأسمى ؟

زواج الملوك

« أثينا في ١٠ مارس سنة ١٩٢١ – احتفل في الكاتدرائية بزواج
وليّ عهد رومانيا بالبرنسيس هيلانة اليونانية – روتر » .

زار وليّ عهد رومانيا مصراً في الشتاء السابق قاصداً إلى اليابان ، على ما أظن ؛ وقد دُعيت ورحلته يومئذٍ « حمية النسيان » فصارت اليوم « رحلة الشفاء » . أرسلوه يجوب الأقطار ليسلو زوجته وولده وليُقدم على إهمالهما وإنكارها . لأنه هو الآخر فعل فعل الملك اسكندر واقترن بابنة ضابط بسيط . غير أن اسكندر اليوناني تزوج بعد ارتقائه العرش يوم لم تكن في الدولة فوق إرادته إرادة . أما كارول الروماني فحاول التملص من وثقٍ تجعله إنساناً مركباً ، مقيداً ، رهين أهواء المناورات الدولية . فتنازل عن العرش الموعود ، ورفض تاجاً يهيئه له المستقبل ، ورضي بأن يبقى رجلاً بسيطاً حراً سعيداً بزوجته وولده ، وأن يتمتع بالحقوق العامة كأحد رعايا رومانيا دون أن يطمح إلى ميزةٍ أخرى .

كان ذلك ؛ فأرسلوهُ يُسرّح عواطفه بين ماء القارة ويابستها . وعندما عاد بعد ستة أشهر إلى عاصمة رومانيا كان خطيب هيلانة اليونانية . وإذ وقف يشكر الذين شربوا نخبه في الوليمة الرسمية التي أقيمت احتفاءً بعودته ، رفع الكأس بيدٍ ثابتة وقال بصوتٍ جليٍّ أدهش الحاضرين : « علمتُ في رحلتي هذهِ أن المرء يخصّ وطنهُ قبل كل شيء » .

ولما كنت أقرأ وصف المهرجانات المعدة في أثينا احتفالاً بمجيء الملك قسطنطين والعائلة المالكة كنت أفكر على رغمٍ مني في امرأة تمزق قلبها أصوات الفرح . هـي وحدها تلبس السواد في وسط الزينة والأبهـة ، وتبكي تحت نقاب الأرامل بينا الملكة تركز على جبهتها تاجاً كادت تفقدهُ وترصع صدرها بجواهر العرش . تلك المرأة وحدها تذكر في وسط النسيان الشامل ، وشيء كثير ان يكون للمرء قلب واحد لا ينسى .

وهناك امرأة تشبهها في بخارست ، غير أن زوجها حيٌّ سعيد وقد تملكتهُ من جديد أطماع الملوك وأطماع انصاف الملوك ، وتهلَّل شعبهُ بهداه ـ أو على الأقل زعم أنه تهلل . الجريمة التي يعاقب عليها القانون بصرامة في طبقات المجتمع على اختلافها يُرغم على ارتكابها من يُعدّ بعد الملك منبع الشرف في الدولة ، ويحسبون امتثاله وذله عقلاً وحصافة ؛ فيسارع ملك آخر إلى تسليمه يد ابنته وحياتها . ومَن توفرت له هذه المزايا فلا بد أن يكون في الغد ملكاً عظيماً ...

أرملة اسكندر في أثينا ، وأرملة كارول في بخارست : ترى أيّ المرأتين أشقى ؟

الشَباب وَالموْت

لم يهمل سادتنا العلماء موضوعاً هو في نظر بعضهم الموضوع الأمثل.

نحن نسمي هذه الدنيا «وادي الدموع» ثم نشفق على الذين يغادرونها، وأقصى ما نتمنى هو أن نعمر طويلاً متمتعين بخصائص القوة والصحة والشباب.

لقد استولت تلك الأمنية على قلوب الناس فجعلتهم آناً كاذبين محتالين، وآونة خونة مارقين. كم أفسدت من عملٍ نبيلٍ. وكم قادت إلى فظيع الجنايات.

كلٌّ منا يريد التفلُّت من شِباك الردى ليطيل الجلوس في مأدبة العمر مراقباً مناظر الطبيعة، متسقّطاً أخبار العالم، نائلاً حظّه من التنعُّم والتلذُّذ، ومن التوجع أيضاً. ولكم متن قيدُ الألم حتى تجاوزهُ الفَلَ. بينا قيود الحبور مقطّعة الأوصال، لا تفتأ تُصهر مادتها لتستحيل ألماً ذا طعمٍ جديد.

كذلك أخذوا يبحثون عن «عين الحياة» التي أوجدها زفس[1] فوصفها أحد علماء الجغرافيا وصفاً... جغرافياً. وارتأى كاتب روائي انها تأتي من النيل ومن أنهار الفردوس الأرضي، وأن قطرة منها تعيد إلى العليل صحته وإلى الشيخ شبابه. ومضى يطلبها رحّالة اسباني فاكتشف مقاطعة فلوريدا وهي من الولايات الأمريكية المتحدة. وانحنى الكاباليون على الصهور الكيماوي

(١) في خرافات الأقدمين أن جوبتر إله الآلهة حوّل حورية من بنات الماء إلى ينبوع يعيد الشباب والصحة إلى كل من استحم بمائه.

يبحثون عن مادة الشباب فتبارى بايكون ، وسن جرمان ، وكاليوسترو في تركيب «اكسير الحياة»، وتعدّدت الكتب الدالة على وسائل إطالة العمر وحفظ الشباب. ومتصفّح جريدة «السائح» النيويركية ومجلة «الأخلاق» يرى هناك إعلاناً عن «كتاب الاكتشاف الثمين لإطالة العمر مئات من السنين» بقلم الدكتور لويس صابونجي السوري الذي كان سكرتيراً ثانياً للسلطان عبد الحميد وأستاذ التاريخ لنجله البرنس برهان الدين.

وهنا أخذت تهتم الدوائر العلمية بمباحث الدكتور فرونوف، وتجاربه الدائرة حول استبدال الغدد المتداخلة بين الأنسجة بغددٍ تُستخرج من الحيوانات. ويقال إن النجاح باهر يحوّل الشيخ شاباً بلا وجعٍ ولا ألم بل بحقنة بسيطة تحت الجلد.

إلى هنا وصلنا من طمعنا الأكبر. وحسن أن يستعيد المرءُ شبابه وأن يحفظه طويلاً، ولكني لا أرغب في إبعاد الموت عن البشر.

لقد وصف الكاتب الإنجليزي «سويفت» في كتابه «رحلات جلفر» حال قبيلة استرالدبرج المحتَّم عليها أن تعيش دواماً. فقال إن أعضاءها يصرفون المئة سنة الأولى وشأنهم شأننا نحن النوع الآدمي، حتى إذا تجاوزوها أصيبوا بكآبة يائسة وساورتهم الهموم والغموم. ينادون الموت فلا يلبي نداءهم، ويجدفون على الحياة كلما شهدوا موكب جنازة، ويمقتون الطبيعة التي حرمتهم لذة الموت وهناء الاستسلام إلى الراحة الدائمة.

وأي نصيب أمرّ من هذا؟

ألا إنما قيمة الحياة في رهبة الموت الذي هو جزءٌ منها، وإذا أدرنا البصر في أحوال الناس ورأينا تلك الوجوه السقيمة، والأجسام المشوهة، والأعضاء البتراء، ورأينا ذوي العاهات الأخلاقية الذين يُنزلون في المجتمع المصائب والأوصاب ويظلون عالة عليه طول حياتهم، إذا رأينا ذلك أدركنا ضرورة

الموت وعرفنا فيهِ محسناً كريماً .

ثم ، أي اسم غير اسمهِ يخفف من حزن الحزين ، وأي خيال غير خياله يلطف من يأس الآيس ؟

عائدة تتذكّر

أيهذا المارّ أمام معاهد التعليم ، ما أجهلك بما وراء الجدران من متزاحم العواطف ومتضارب الانفعالات ! هناك هيئة اجتماعية صغيرة . والعمر الذي تحسبهُ أليف الصفاء والغفلة والهناء إنما هو كالشباب والكهولة والشيخوخة أسير حمَّى الحياة . هناك جميع صنوف الناس : المتيمّن والمتطيّر ، المفكّر والأحمق ، الشجاع والجبان ، الرصين والطائش ، الشخصية الممتازة والشخصية العادية ، النفس الأبية الشماء والنفس الدعيّة المتبذّلة . وما الطفولة إلاّ مقدمة قد يكفي أن تطالعها أحياناً لتلمّ إلماماً سريعاً بما ضمنهُ الكتاب من تفصيل وإسهاب .

كانت عائدة ذات طبيعة غنية خصبة . تحبُّ الجري واللعب والضحك ، أي بنية لا تحب ذلك ؟ وتبتكر للهو أساليب طريفة ترفعها في تقدير رفيقاتها . ولكنها كانت وحيدة الروح . وكثيراً ما تنزح عن ميدان اللعب إلى الحجر المنفرد في أطراف الساحة ، فتجلس هناك ناظرة الى البحر البعيد ، الى زرقته الفيحاء واستدارة الأفق المخيم عليها ، متمتّعةً بجمال الطبيعة ومتهيبة إزاء روعتها جميعاً . فترى السفن ، وقد تضاءلت بشاسع المسافة ، مارة في تلك الزُّرقة القصية بكياسة ورشاقة ، تترك وراءها خطاً أبيض طويلاً لا تعرُّجَ فيه . عندئذٍ تُمعن عائدة في تفحص ذلك الخط المستقيم ، كأنما هي تقابلُ بينهُ وبين خطٍّ آخر رسمهُ في داخلها مرور سفينة من سفن أحلامها شقّت أمواه نفسها العميقة .

كانت تحسنُ ركوب الخيل على حداثة سنها ، وقد قطعت على ظهر الجـواد سهولاً وجبالاً نبضت حياةُ التاريخ تحت الأرض منها ، وبين الأشجار ، وعلى الصخور وحـول القمـم . ما شهدت جلال الطبيعة إلاَّ عادت اليها تلك الذكريات مع صدى الأغاني الوجدانية التي ينشدها أهل المضارب في الظلام فتثير بين ستائر الخيام أنة جزع وغرام . أمام البحر ها هي شجية تتذكر ، فتنشد من الالحان البدوية ما تهتز لهُ أوتار قلبها .

●

تكوَّنت بينها وبين احدى الراهبات ، على مرور الأيام ، صداقة حارة تنشأ أحياناً بين النساء الجامعات بين غزارة العواطف وحدّة الذكاء ــ ولعل تلك الراهبة كانت وحيدة بين الراهبات وحدة عائدة بين التلميذات .

لم تكن الأخت أوجني من معلمات عائدة ، فهذه من بنات « الداخلية » والأخت أوجني تتولّى تدريس أصغر الصفوف في « الخارجية » ، وليس بين المدرستين غير الصلة الحجرية لأنهما في طرفين متباعدين من بناء الدير الواحد . فكانت الفتاة تقول لنفسها « لو كانت هي معلمتي لتفوَّقت في صفّي ارضاء لها ، بدلاً من أن أُرغَم الآن على العمل تحت مراقبة راهبة لا أحبها وإن قالت لنا الرئيسة انها حفيدة مارشال فرنسوي . ما أقل اهتمامي بكَ وبحفيدتك أيها المارشال العظيم ! وكم يسوءني أن أطيع حفيدتك ، أيها المارشال العظيم ! وكم أكره الواجب لأن حفيدتك تدعو اليه ، أيها المارشال العظيم ! ما أجهل الناس بأساليب الإخضاع والتعليم ! اذا كان وجه الطاعة والواجب عابساً ، كما يقولون ، ألا فلتأتِ الدعوة اليهما من أصوات نعزٌ منها الوجوه في حالتيّ البشاشة والقطوب ... » .

لم تكن عائدة في سنّ أو في درجة عقلية تستطيع معها الإفصاح عن رغبتها بمثل هذا الكلام . وإنما ذلك ما كان يخالج ضميرها . والتعبير عن الشعور ان لم يبرز بياناً منسقاً واضحاً فقد برز زفيراً حاراً . لذلك كانت الصغيرة تصغي

إلى صوت فؤادها وتتنهّد .

قلّ ما اجتمعت الصديقتان في غير الكنيسة حيث تحتشد عشرات الراهبات ومئات التلميذات من داخليات « بانسيونر » ، وبنات الميتم ، وبنات المشغل ، وبنات التفصيل . فتدخل كل جماعة في الوقت المعين وتجلس في مكانها تحت رقابة المعلمات . وعند انتهاء الصلاة تنصرف كل جماعة في دورها فلا يختلط الفتيات ، ولا يتحاذين ، وأن تلاقين صدفة فلا يتخاطبن . يعِشْن غريبان في دير واحد لأن هيئتهنّ ... الهيئة الاجتماعية بما بين أعضائها من فروق المراتب .

وقد تلتقي الصديقتان صدفة في الحديقة أو في أحد الممرّات فتتبادلان الأخبار بسرعة بينا العيون تتحدَّث بلغتها المختلفة . غير ان عائدة لم تكن لتقنع بهذه اللحظات النادرة . فتتحيَّن الفرص لتذهب خلال نزهة الظهر ، ولو دقائق ، الى الجناح الآخر من الدير وتدخل على الأخت أوجني وهي تطرّز وحدها في المدرسة منتظرة وصول تلاميذها وتلميذاتها .

ما أخطر هذه المجازفة وأعظم هذه الجرأة ! ولكن الفتاة كانت تُكافأ إذ ترى أمارات السرور على وجه الراهبة وتسمعها قائلة « انظري إليَّ ، يا عائدة ! » يجب أن تتعلمي الخضوع للقانون وألاّ تعودي الى مثل هذه « الفلتات » . والآن استودعك الله .« اذهبي يا ابنتي ، اذهبي يا صغيرتي ولا تنسيني » ! .

يا ابنتي ، يا صغيرتي ، بمثل هذا تنادي الراهبات جميع التلميذات . ولكنهُ من فم الأخت أوجني نشيد سماوي يظلُّ صداهُ متردداً في جنان عائدة .

●

جدَّدت هذه « الفلتة » اللذيذة يوماً ووقفت عند عتبة الراهبة وهي تلهثُ تعباً واضطراباً . ربّاه ! ماذا ترى في هذه الغرفة وماذا تسمع ! بين ذراعيْ صديقتها فتاة تقريباً من عمرها هي عائدة . الفتاة تبكي والراهبة تؤاسيها بصوتٍ شفيق قائلة : « لا تبكي يا ابنتي ، لا تبكي يا صغيرتي ! » .

لم تلمح هذا المشهد حتى انقلبت راجعةً من حيثُ أتت . سمعت الفتيات في الخارج يتحسّرن على هند « لأن أمها ماتت » . ففهمت وقالت « مسكينة هند » . ولكن شفقتها كانت سطحية لاستيائها من هند المجهولة هذه التي أخذت مكانها ، والنداء الذي يجب أن تنادي به وحدها ، الأخت أوجني هي ! هي ! تستعمله لتعزية الفتاة الغريبة ...

آه من خيانة البشر ! آه ما أضيق الحياة ! ما أثقل جدران هذا الدير وأرهب ظلّها المنعكس على ساحة اللعب مختلطاً بظلّ الأشجار الكبيرة ! وتبًّا لهذه الأشجار فقد مشت الأخت أوجني ، الخائنة ! ، تحتها ! وتلك الفروض التي يجب أن تُكتب : وتلك الدروس التي يجب أن تُستظهر ! ما أطيب الموت ! أين أنت أيها الموت ؟

مسكينة عائدة ! كانت قوية الشعور فطرةً وقد ساعدت تربيتها الأولية على تقوية عواطفها وإرهافها ، ولم يكن لديها العقل اللاجم ولا الخبرة الحكيمة . وكم من امرأة تقضي عمرها على هذه الحال فتشقى وتُشقي وهي لا تدري انها مريضة في أعصابها ، وان نسبت ذلك الى الرِّقة . نعم ، الحياة تافهة ان لم يبهجها نور الحب ويعظّمها سناء الفكر ، ولكنَّ بين هاتين القوتين الجليلتين وسخافة الغيرة بوناً شاسعاً .

وصارت عائدة توجّه الى الراهبة كلَّ كلمة حواها كتاب الصلاة في هجو الشيطان واحتقارهِ . وتلخَّصت معاملتها لها في اظهار الاستياء والاستنكاف الى درجة المبالغة . وكلما أبدت الصديقة الكبيرة ألماً زادت الصغيرة الشريرة تعذيباً .

●

تكاد حيوية الشر تتغلب على حيوية الخير . ولكن القلب الوفي لا يفتأ يلتمس من المحبة غذاءً ودواء . لذلك أفرغ قلب عائدة الكره في أسابيع وأخذت تتسرَّب اليه الكآبة .

أخذت تكتئب لا سيما وقد دنا عيد الميلاد وأسرعت أيام العام الأخيرة نحو هوّة العدم . يخيل ان هذه المواسم أعلام العمر أو محطات على خطّ الرحلة منه . فتحتاج القلوب الى مضاعفة المحبة والصداقة والعطف والتبحر ، بينا قلوب أخرى تلهو بالرقص واللعب والانشاد ومـا شاكلها من أمور خارجية .

وكانت تكتئب لأن رفيقاتها الصغيرات أخذن يغادرن الدير ليصرفن الأسبوع بين أهلهن المقيمين في المدينة أو في ضواحيها . وعائدة من بلدةٍ بعيدةٍ كلَّ البعد ، لذلك لا يزورها من ذويها في العيد أحد . وستقضي هذه الأيام وحدها بين أولئك النسوة الصائمات ، المصليات ، الزاهدات ، اللائي كانت تشعر بأن منهنَّ غير السعيدات رغم امتثالهنَّ الظاهري ؛ فتودّع رفيقاتها الواحدة بعد الأخرى متمنية لهن عيداً سعيداً . حتى اذا مضت اخراهنَّ انطلقت الى الكنيسة وحجبت وجهها بيديها وأجهشت بالبكاء . واذا بصوتٍ مألوفٍ يهمس في أذنها : « تعالي يا عائدة . فقد سمحت الأم الرئيسة أن اشترك واياكِ مع الأخت حنة في تهيئة المذود » .

فانتصبت الفتاة وفرَّت هاربة الى حيث لا يُعثر عليها ، وشهقت متفجعة تقول « اواه ! انها تشفق عليَّ ، انهنَّ يشفقنَ عليَّ ! ربي ، ترى ايهما أمرّ ، أخيانة البشر أم شفقتهم ؟ »

وكان مساء العيد حزيناً ، وجوّهُ مكفهراً ، والدير صامتاً ، كتوماً، مرمرياً كالمقابر القديمة يضنُّ بخفاياه . وكان لعائدة يومئذٍ ان تفعل ما شاءت دون قانون يقيّدها فتقضي أكثر أوقاتها في غرفة الموسيقى المنفردة في أطراف الحديقة تخيم عليها الأشجار ذات الغصون العارية .

هناك جلستْ طويلاً والسماء تمطر رذاذاً ، ثم نهضت الى البيانو وما كادت تمس أصابع العاج حتى سحبت يدها قائلة « ما أشد بـرد البيانـو ! » ثم أضافت « بل البرد في يدي ، البرد في روحي ، البرد في وحدتي وغربتي !

اني جليد ولكني جليدٌ يتعذب ، واشعر بان كل ما في هذا الدير جليد حيٌّ ينبضُ ويتعذَّب ويبكي ! » .

ألقت برأسها الى خشب الآلة الموسيقية . على أن يداً لطيفة اجتذبتها مداعبة شعرها وخدّها . فصرخت الفتاة قائلة « اتركيني ! لا أريد أن يشفق عليَّ أحد لأني لا أطلب الشفقة ! » .

فقالت الأخت أوجني « واذا طلبتُ أناشفقتك أتضنّين بها ؟ » وتابعتْ بصوت خافت مملوءٍ بتعنيفٍ عذب .

« ألم تفكري فيّ كل هذه المدة ؟ ألا تحتاجين إليَّ في هذه الأيام مثلما احتاج اليك ؟ » .

وبدلاً من أن تبكي عائدة على خشب البيانو البارد الصلب ، أخذت تبكي على صدرٍ ليّنٍ دافىء عُلّق عليهِ الصليب الفضيّ رمز التضحية والامتثال ، واكتساب الحياة بالموت الاختياري .

●

رأيتُ عائدة اليوم في أحد المخازن أمام مذودٍ نام فيه تمثال الطفل تحيطُ به رموز عيد الميلاد المختلفة . فقلت « أتذكرين أيام المدرسة يا صديقتي ؟ » فأجابت « أذكرها على الدوام » . وأخذت تفكر في شيء بعيد . فحدَّقتُ في عينيها ، وخيِّل إليَّ أني أرى هناك رسم ابنة اثنتي عشرة سنة اتكأت على صدر عُلِّق عليه الصليب ، وقد انحنى على وجه الفتاة الباكية وجه الراهبة الحزين.

فقلت : « أتذكرين الأخت أوجني أحياناً ؟ » . فأشارت بالايجاب . قلت : « حتى بعد مرور أربع عشرة سنة تشجيك تلك الذكريات الصبيانية ؟ ».

فلزمت عائدة الصمت وقد بدا وجهها مهيباً ، ثم قالت : « ذكريات صبيانية ؟ وهل نحن الآن غير أطفال ؟ وهل الشباب والكهولة والشيخوخة

سوى مظاهر أخرى من الحياة الدائمة الطفولة؟ ما مرَّ بي يوم إلاَّ زدتُ اعتقاداً ان ما نراه ، ونشعر به ، ونختبره في الحداثة انما هو ، هو ما نشهده متتابعاً من عام إلى عام ، ولكن بصورة أكبر ، في ميدان العالم الوسيع » .

حكاية السيدة التي لها حكاية

لكلٍّ من الناس حكاية أوّلية يتناقلها الأقارب والأباعد بلهجاتهم المتعددة ويفهمونها بعقلياتهم المختلفة . وينسجون حولها حكايات كثيرات . يسردُ الواحد « الحكاية » الأولية عن ذبيحته في تلك الساعة ثم يزد قائلاً وله معي أنا أيضاً « فصل » ، وله مع زميلي « عبارة » ، وله مع الآخر « طابق » الخ . ويجود بهذا الطابق والفصل والعبارة شارحاً متبسطاً منمنماً مزخرفاً . ويصغي الآخرون متعجبين متأففين ، ويتعوّذون بالله العليّ العظيم . وينكتون ويتهكمون كأنهم لم يأتوا همُ ولم يأتِ بشرٌ قبلهم شيئاً شبيهاً لما يسمعون . وبديهيٌّ أنهم في تطبيق الأحكام على سواهم لا يراعون قانوناً مرناً يستعملونهُ في الحكم على نفوسهم والقاعدة الذهبية القائلة بحبّ القريب ومعاملة الآخرين بمثل ما يودُّ المرءُ أن يُعامل ، لا تزال قاعدة ذهبية ... فحسبُ .

لا يراعي الناسُ في حكمهم على الآخرين ما يجيزونهُ لأنفسهم وإنما يحكمون وفقاً لنصوصٍ صلبة جُمعت في الجدول الأخلاقي الذي يتسلحون به أمام بعضهم بعضاً . فإذا ما طرحت العيوب في سوق المزايدة ، هي مزايدة لا تقبل المناقصة مطلقاً ، عمد المتحدثون الذين صار كلٌّ منهم في ذلك الموقف باراً صفياً وقديساً مفضالاً . عمدوا الى ذلك الجدول الصارم كوجه الجلاَّد . وكما ان جدول الحساب الذي وضعهُ فيثاغورس اليوناني هو جدول ضرب كذلك كان الجدول الأخلاقي لمساوىء العباد والحكم عليها . جدول ضربٍ تعالت أرقامهُ الشريفة عن كل طرحٍ شائن ! .

●

كثيراً ما كنتُ التقي بالسيدة . غ . ب . في أماكن مختلفة ! في الكنيسة ، والحفلات الموسيقية (كونسرت) ، والمخازن الكبرى ؛ وكان يندر أن أسير في شوارع حيّ الاسماعيلية كشارع قصر النيل ، وعماد الدين ، والمغربي ، والمدابغ ، وسليمان باشا ، دون أن أراها مارةً كأنها تقطن هذه الجهات أو قريباً منها . فإذا كنتُ مع صاحبةٍ أو رفيقة لُفظت بيننا تلك الكلمة التي يتبادلها النساءُ ، والرجال أيضاً ، مع احترامي لسادتنا الاجلاء ، لدى مرور سيدة ذات ميزة ما . تلك الكلمة هي « انظري ! انظر ! » ولتلك السيدة غير ميزة فهي معروفة بجمال الصوت وقد سمعتُها في حفلتين اثنتين . وهي أنيقة الهندام تتزيا بأحدث الأزياء ، بل هي من السابقات الى ترويج الأزياء الحديثة في القاهرة . ويقولون انها حسناء .

كنتُ أشاهدها عن بعدٍ فيستلفتني اليها ذلك الشيء الخاص في كل انسان وليس هو الهندام ، ولا ملامح الوجه ، ولا الحركة ، ولا السكوت ولكنه شيء مبهم يختلف باختلاف الأشخاص . ويزعم بعض أهل الفراسة أن مقرّه بين العينين ؛ ويدعي غيرهم انهُ في انسانِ العين ، أو حول الفم ، أو في خطوط الشفاه ، أو في ارتكاز الذقن . وأنا لا أعلم سوى انه موجود وانه المكوّن الأكبر لما نسمّيه « معنى » الشخص . وهو عند بعضهم قوي ، شديد التأثير ، يلتصق بنفس الرائي فلا يعود ينسى ذلك « المعنى » ولا ينسى حامله .

بعد كلمة « أنظر ! انظري ! » لا بد من « حكاية » عن موضوع النظر . وهكذا سمعتُ عن تلك السيدة حكايات جمَّة جعلتني كثيرة التفكير فيها أسائل « معناها » الباقي في نفسي ماذا عليّ ان اصدق من كلّ ما قيل ويُقال . ويزيد اهتمامي بها بتراكم الحكايات عنها ، كأني ذلك الرجل الذي تعرّف الى أحدِ المشاهير وقال « سمعتهم يذّمونك فشاقني التعرف بهولك » .

عيناها كانتا أعلق الأشياء بحافظتي . هما عينان متغيرتان تظهران مرةً عينيّ امرأة وجيعة صابرة وحيناً تفكران معرضتين عن جميع مظاهر الحياة .

ويوماً تكنّان نظرةً لا قرار لها ، وتخترقان الأشياء الى فضاءٍ يحيطُ بها ، كأنهما ترقبان في الهواء اشارات يدٍ غير منظورة . وطوراً تبدو ان كعينيّ الشخص الاجتماعي الذي يتمتع بافراح عادية ويكتفي بها غير متخيّل وجود ما يفضلها. ثم تتألقان سعيدتين كأن الحياة أشبعتهما مسرات لطيفة هادئة وحقّقت منهما بعيد الأماني . إلا اني كنتُ أحبُّهما عندما تذبلان وينطفىءُ نورهما كأن صاحبتهما شاخت في أسبوعين خمسين عاماً . ثم التقي بها مرةً أخرى فأحسبها في ثوبها الوردي ، وبرنيطتها المرفرفة على وجهها ، طفلةً تنتظرُ من الوجود جميع صنوف الهناء .

●

أقامت يوماً نخبة غواةٍ حفلة موسيقية في قاعة الأعياد الكبرى بفندق شبرد . وقد اشرف على تنظيمها استأذان شهيران هما السيدة ك . أقدر معلّمة بين الأجنبيات المتعاطيات تدريس فن الغناء ، ولها في منزلها اجتماعات حافلة بأجمل أصوات القاهرة من نساءٍ ورجال درسوا عليها والتفوا حولها . والسنيور ف . الذي يقطن هذه المدينة منذ أعوام وقد كثر تلاميذُه وتلميذاته من مختلف الجاليات ، وتزايد عدد أصدقائه والمعجبين به الذين يرون معجزاته على البيانو متجددةً كل يوم ، مدهشةً كل مرة .

في تلك الحفلة غنّت السيدة التي لها حكاية الآ اني لم أجد من يحدثني عنها ، ربما لأن أكثر الحضور من أهل الغواة . فكلما عزف عازف أو انشدت منشدة زفّ الجمعُ التهاني الى ذويه وذويها ليضمنوا بذلك تهانيء تزفّ اليهم عند ما يغني أولادهم ويعزفون . تلك المرأة لم يكن لها أهل ، ومع ذلك فقد أحدث انشادها تأثيراً كبيراً وأثار تصفيقاً حاداً لم تكن تقابلُهُ هي بغير السكون. وقد أطلّ من عينيها لهيبٌ قاتم عميق وارتدت ملامحها هيئةً آمرة تبعدها عن الشباب والشيخوخة معاً ، وتجعلها شبيهة بالتماثيل التي لا تتغير شاراتها وتظلُّ في أوضاعها ثابتة على الدوام .

فكرت فيها طويلاً ذلك المساء ، وألَّفْتُ من كلّ ما سمعتُ عنها رواية كئيبة فقلت لنفسي « يا للخسارة ! لماذا تتجاهل هذه المرأة ذاتها ؟ لماذا لا تنسى أنها حسناء فترتفع الى القمة التي أراها أهلاً لبلوغها ؟ » .

وفي الغد جاء السنيور ف . ليعطيني درسي الموسيقي ولكن بدلاً من أن يأتي في الساعة الحادية عشرة ، وهي الوقت المعيّن ، جاء قبل الظهر بعشر دقائق . دخل يفرك يديه وعيناهُ تلمعان وراء زجاجتيّ نظارته . فتذمرت وقلتُ « انك لا تبالي بوقتي يا أستاذ . لقد أتلفت صباحي ، بل نهاري كله ! » فضحك ضحكة ابتدأت في قرارٍ معتدل وانتهت في ما يشبهُ زقزقة الطيور وقال : « أنا لستُ أستاذ رياضياتٍ لألزم بالمجيء في الوقت المعين » . وفرك يديه من جديد ليستشهد بالمثل الفرنسوي القائل . بعض التشويش ضروري لتجميل الفنّ » قلت : « ولكن وقتي ... » فقاطع قائلاً « الدرس ، الدرس » وسمع الجيران مدة ساعة طويلة تلك الضوضاء الخاصة التي يحدثها التمرين والمراجعة في حضرة المعلم .

ولما انقضت الساعة بإجهاد وسلام طلبت حقّي . والسنيور ف . يعزف لتلاميذه القطعة التي يطلبونها اذا كان راضياً عنهم . وحقي الذي طلبته يومئذٍ قطعة موسيقى روسية كان قد عزفها في حفلة اليوم السابق .

●

فجلس الى البيانو وقبل أن يبدأ تكلمنا عن « الكونسرت » وتبادلنا الآراء في أصوات المنشدين والمنشدات حتى وصلنا الى ذات الحكاية . فسألته « أهي من تلاميذك ؟ » .

أجاب «كلاً ولكنها من تلميذات السيدة ك . وقد اجتمعتُ بها عندها غير مرة » .

قلت « أسمعهم يلقبونها تارة بالمدام وطوراً بالمدموازيل ، أمتزوجة هي

أم عزباء ؟ » .

فتنهد وقال « يا لها من امرأة مسكينة ! » .

فقلت : « وهل من ظروف حياتها ما يحرّك الشفقة الى هذه الدرجة؟».

فقال : « ومَن ذا الذي لا يشفق على امرأة جمعت بين الحسن والذكاء والصلاح وهيَّأتها الطبيعة لتسعد وتسعد فلم يكن نصيبها الا الشقاء ؟ » .

قلت : « أي شقاء تعني ؟ » .

قال : « كيف ؟ ألا تعرفين حكايتها ؟ » .

قلت : « أعرف عنها نتفاً مبعثرة . ومن ذا الذي يستطيع أن يرسم لحياة امرىءٍ صورة جلية من كلام الناس ؟ » .

فتنهد مرة أخرى ، وجرَت أنامله بسرعة على السلم الموسيقي كأنه يسرح شيئاً من أسفه أو يبحث عن أسلوب جديد لحكاية قديمة . ثم غشت نظره سحابة وقال « كان والد هذه الفتاة قاضياً في المحاكم المختلطة وهو على جانب كبير من العلم والذكاء ، فعلّم ابنته وثقَّفها أحسن تثقيف . ولما جاء وقت الزواج جرى لها ما يجري لفتيات كثيرات ، أي أن والديها انتقيا لها خطيباً أجنبياً مثلها ، رأيا فيه ما يُملق مطالبهما الاجتماعية . وكان على الخاطب مسحة من الجمال فلم تعارض . ورضيت كما ترضى الكثيرات من أخواتها ليفرحن بالأثواب ، والأساور والحرية المنتظرة . فتزوجت في عرس فخم دُعي إليه أعيان الجاليات الأوروبية . ولم يكنْ حتى استولى الزوج على البائنة المتفق عليها .

وقف الأستاذ عن الكلام ، وقد بدت على وجهه سيماء الخجل والرحمة والاحتقار جميعاً . ثم قال بعد سكوت قصير «كم أشقت المرأة من رجلٍ ، وكم مزّقت من شملٍ ، وكم كسرت من قلبٍ ! ولكن مسكينة هي عندما لا تكون شريرة ! مهما علت في عين نفسها ، ومهما تحررت من قيودها ،

ومهما بالغت المناديات بحقوقها في رفعها الى مستوى الرجل فإن حياتها ، كلَّ حياتها ، تظلُّ في قبضة هذا الرجل الذي تزعم انها مثيلته وما هي في الواقع سوى ما يريد هو أن تكون . فإذا كان حراً نبيلاً جعلها حرّةً نبيلة ، وان كان ذليلا حقيراً حقّرها وأذلها . فهي ألعوبته ، وهي عبدته ، وهي الشيء الذي يتصرف به في سائر الأحوال . وبعض ذوي الضمائر من الرجال تروعهم هذه السلطة على المرأة ، وهذه القدرة التي تهزأ بتقلُّب السياسة والاجتماع لأنها أقوى من الاجتماع والسياسة وأمكن باستنادها على الطبيعة نفسها . فيحجمون عن الزواج خوفاً من نفوسهم » .

ضايقتني هذه التعليقات على أهميتها لأني كنتُ أرغب في استماع البقية ، فقلت : « ثم ماذا جرى ؟ » .

قال : « جرى ان ذلك المتحذلق كان مقترناً سراً بامرأة أخرى ، وكان يحتاج إلى نقود فكان الزواج أسهل وسيلة للفوز بحاجته . وبعد ثلاثة أسابيع اختفى » .

ـ « وكيف اختفى ؟ » .

ـ « خرج من منزله ولم يعدْ . فجنّت زوجتهُ في الأيام الأولى اذ ظنت أنهُ قُتل . ومرّت الأسابيع فشاع خبر سفره مع زوجته الأولى . فارسلوا يبحثون عنه في بلده بإيطاليا ، وهنا غصَّ السنيور ف . بريقهِ لأنه إيطالي ، ولكن ذهبت أتعاب البوليس سدىً ، ولم يجدوا له أثراً لا في إيطاليا ولا في غيرها من بلاد الغرب . ولم يطل حتى توفي والد هذه المرأة التي غُدِرَت في شبابها ، وفي حبها ، وفي مالها ، وفي مركزها . فأمست وحيدة فقيرة ، والكنيسة لا تحلُّ زواجها لأن الرجل لم يكن مرتبطاً مع زوجته الأولى بزواج كنسيّ بل كان زواجه اتفاقياً . فقط القانون يعاقب على هذا ولكن كيف يصل القانون الى من ضاع في المجهول ؟ ولو كسرت الكنيسة زواج المرأة لظلَّ الناس في ريبة من أمرها ، لأن المظلوم أكثر تعرضاً للشبهات والتخمين

من الظالم ، لا سيما إذا كان المظلوم امرأة والظالم رجلاً . لذلك ترين الناس يؤولون كل حركة تأتيها لأنها حلّت على ألسنتهم وصارت لأفواههم مضغة سائغة . ولو قضت أيامها بالصوم والصلاة والتقشف لما أنصفوها . ومهما نقدتهم الثمن غالياً فلا يبيعونها ذلك الاعتبار الوهمي الذي يتزلّفون به لدى أهل الجاه والثروة والسلطان ، أو لدى من اتقن « البلف » عليهم . فأي غاية لهذه المرأة من الحياة ؟ لا هي طليقة تتصرف بأيامها ولا هي مقيّدة تجد في تحطيم قيودها تعزية وسلوى . هذه حياة بتراء أشقاها الرجل كما بتر وأشقى مثلها وقبلها كثيرات ... » .

قلتُ : « ولكن كيف لم تشعر هي خلال الخطبة أنه يخادعها ؟ » .

قال : « لا أدري كيف لم تفهم هي ولم يلمح أهلها شيئاً من ذلك » .

قلت : « لعلّه تزوجها مخلصاً إلا أنه ظلّ يفكر في تلك التي ربما كانت على جمال عظيم » .

قال : « يقول الذين يعرفونها أنها عجوز شمطاء ويتعجبون كيف يرضى بها هذا المتوقد المتأنق جارية » . ثم أطرق قليلاً وقال : « ولكن ليس للشباب والجمال دخل في هذه المسائل . الجمال يُبحث عنه في الصالون ، والمرسح ، والاجتماع ، والشارع والمرأة المليحة تجذب النظر عادةً أكثر ممّن كانت أقلّ ملاحة . على أن تأثيرها لا يتعدّى ذلك والتاريخ شاهد على قولي . وأقرب شواهد التاريخ نجدها في وليّ عهد النمسا الذي نشبتْ الحرب أثر مقتله ، وهو الذي أعرض عن جميع الارشيدوقات النمساويات الباهرات الجمال ، وعن جميع الأميرات في الدول المالكة ، وتنازل عن العرش والتاج غير مرة ليتزوّج بمن هي أقلّ النساء ظرفاً وحسناً . وهي الكونتس دي شوتك وصيفة إحدى قريباته ، التي صارت بعد زواجهما الدوقة دي هوهنبرج وقد قُتلت معهُ في مفجعة سراجيفو» .

وعدّل السنيور ف . جلوسه وأخذ يعزف قطعةً حماسيةً حزينة من

وضع بتهوفن وهي « مارش جنازة البطل » . (Marcia funebre d'un erore)

●

رأيتُ البارحة ، في حديقة بضواحي القاهرة ، السيدة ذات الحكاية . فهمتُ الآن لماذا يتغير معنى عينيها ؛ ولئن لم أدرك بعد تماماً ماذا تعني « حياة بتراء » فإني أدرك ان الحياة تهيئ لبعضهم ظروفاً لم يحلموا بها ، لو حلموا لتلافوها مشياً على الأشواك والجمرات . وعلمتُ أن في ذلك القوام المعتدل ، وفي ذلك الهيكل الذي يمثل القوة والأنفة قلباً ، قد يكون جرحَه الحبُّ الصادق يوماً إلا أنه اليوم يعذبُه سرطان تتمدَّد منه الأصول في جميع نواحيه ، ذلك السرطان العريق الذي لا يقتلع احتقار الحياة وعدم الثقة بالناس.

ساعة مع عيلة غريبة

الأشخاص

متاتياس ـ مالي من رجال البورصة

أغابي ـ زوجته يونانية الأصل تظهر اللكنة الأعجمية في لفظها .

مدام سالم ـ أخته الكبرى ضيفة عنده مع زوجها

الدكتور سالم ـ صهر متاتياس

سميحة ـ أخت متاتياس الصغرى . عزباء تسكن معه . وقد توفيت والدة هؤلاء الاخوة الثلاثة على أثر ولادة سميحة

شفيق ـ طالب في مدرسة الحقوق . أديب وموسيقي . أخو متاتياس لأبيه وقد توفيت والدته كذلك بعد وفاة أبيه . يصغر سميحة بعامين أو أكثر قليلا .

المكان

منزل فخم في رمل الإسكندرية .

الوقت

بعيد الساعة التاسعة صباحاً .

متاتياس ـ (جالس أمام المائده يتناول طعام الفطور وإلى يمينه زوجته ، وإلى شماله شقيقتاه مدام سالم وسميحة . يتحادثون عن أشياء عادية كالمغص

الذي تألم منه الولد ، والخصام بين الخدم ، والمخصر على طاولة البكارا البارحة ، وكم ربح الجيران من مدخول البوكر في الشهر المنصرم الخ . يدخل شفيق بلا تسرّع ويجلس بهدوء في مكانه قرب سميحة . متاتياس يرقبه بشيء من الاستياء ثم يتنحنح ليجلو صوته ولينذر السامعين بأنه سيقول شيئاً خطيراً . مخاطباً شفيق) : صحّ النوم !

شفيق ـ (بعد سكوت قصير) : لم أكن نائماً ، أنا آتٍ من حمّام البحر .

متاتياس ـ من حمّام البحر ؟ إذاً هذه الليلة لم تنم كعادتك ؟ (شفيق يصب القهوة في فنجانه معرضاً) إذاً تريد أن تنتحر انتحاراً ؟ أتظنّ اني سأحتمل هذا طويلاً دون أن أدعك تشعر بأن لك من يسيطر عليك ؟ في الليل بدلاً من أن تفعل كسائر الخلائق فتسهر في تياترو أو في سينما ...

شفيق ـ (مقاطعاً بأدب) : وهل من شروط الخليقة أن تسهر (مفخماً للفظة) الخلائق في تياترو أو في سينما ؟

متاتياس ـ (دون أن يلتفت لمقاطعته) ... أو معنا نحن أهلك فإنك تذهب إلى مجتمعات الدعوى ، والكلام الفارغ ، والعقول المرقّعة التي تسمّيها أندية الأدب والمناقشة والخطابة (أغابي ومدام سالم يتبادلان اشارة أسف وتتنهدان عالياً جداً » وتعود بعد نصف الليل الى كتبك الشيطانية كأنَّ نور النهار لا يكفي لإضعاف بصرك وإتلاف صحتك وتقصير حياتك ...

أغابي ـ (تتنهد مرة أخرى) : يا سلام !

متاتياس ـ (ينظر اليهاشزراً لجرأتها على مقاطعته . ويتابع متغيظاً) : كانت غرفتك منارة عند الساعة الثالثة فمتى نمت ومتى استيقظت ؟ ألا تعلم أن الكتب لم يتاجر بها متاجرٌ إلاَّ وجننته ، جنّنتهُ وأفقرته ؟ أتريد أن تعيش مستعطياً ذليلاً ؟ ألسنا نحن أفضل من هذه الوريقات عدّة ابليس ؟ أليس مجلسنا أهلاً لك حتى تقضي الساعات مسجوناً في غرفتك ، وعندما تخرج

الينا لا تعطينا غير الدقائق التي تقضيها على المائدة؟ أهكذا يصطاف الناس، أهكذا يتنزّهون ويعيشون؟ أتعلم أن أمرك صار يشغلني الى درجة القلق! ساعدك الله على حياتك كيف تكون!

شفيق ـ (يحرّك السكر في فنجانه بهدوء ويحتمل هذه الوعظة بتجلد من اعتاد سماعها. يتكلم بأدب ورصانة): يسوءني أن أكون سبباً لإزعاجك. ولكني لا أستطيع تغيير فطرتي. ثق بأني لن أفعل ما يؤذيني بل أتمتع بحريتي باعتدال. أحب أن أشعر بأني حرٌّ مطلق الحرية.

مدام سالم ـ (تشهق متعمّلةً التعجب والغيظ): أخوك يريد خيرك وينصحك وأنت تقول له «أنا حرّ»؟ نجّنا يا ألله من أولاد الجيل الجديد دا!

أغابي ـ دا أيه دايـا شفيق؟ أنت تبقى حرّ ازّاي!

شفيق ـ (متألماً في ذكائه لمناقشة هذه الرؤوس الخاوية): ها قد ابتلينا بموضوع جديد! وهل كلمة «أنا حرّ»، هذه الكلمة التي تُثبتُ وجود الإنسان أمام الوجود، هل هي أثيمة الى هذا الحد؟ انَّ لي ذوقي وميولي ومطالبي ورغباتي وكلها تختلف عن ذوق أخي وميوله ومطالبه ورغباته. لا يعني هذا اني أفضله أو أنه يفضلني. كلٌّ طبيعة حسنة منسجمة في ذاتها. ولكنه عندما ينصحني ويعنفني يقدّر أني مثلهُ تماماً، ويجردني من نفسي، ولا يتصور أني أختلف عنه كل الاختلاف. فحبذا لو تفاهمنا مرة واحدة ووضعنا حداً لمثل هذه المناقشات. لكلٍّ منّا فطرته وحريته؛ ولي حريتي وأريد أن أتمتع بها.

مدام سالم ـ (وقد طفح كيل تعجُّبها): يا ابني دا أخوك. يكبرك بعشرين سنة. دا رباك زيّ أبوك. دا هوَّ احتضنك ورباك. وأنت مخطىء تتبع سبل الضلال، ولما يجي ينصحك تقوم انت تتجاسر تقول له «أنا حر».

شفيق ـ (متتبعاً باهتمام تحنّي هذا المنطق الأعوج): مَن يسمعكِ

قائلة أني أسير في « سبل الضلال » يحسب أني ... (يصمت فجأة اذ يأنف متابعة جدال كهذا ، ثم يقول بشيء من المرارة) تلومونني لأني لا أطيل معكم ، وهل من عجبٍ وكل جلسة كهذه الجلسة ؟

متاتياس ـ (يتنحنح كعادته ليقول شيئاً خطيراً » : وكم دفعت ثمن الأرغن الذي جئتَ به البارحة ؟

شفيق ـ (بتأدب) : هذا أمر لا يعني غيري .

متاتياس ـ (يغضب حقيقة هذه المرة) : شؤونك المالية لا تعنيني ؟

شفيق ـ (ينجح في أن يكون هادئاً كالأول) : انها لا تعني غيري في هذا الموقف لأني ابتعتُ الأرغن بما توفر لديَّ من مصروفاتي الشهرية . وأنا حرّ في أن أشتري آلة موسيقية تسرني ولا تؤذي أحداً .

مدام سالم ـ هو « حرٌّ » من جديد . هو « حرّ » كل مرة .

متاتياس ـ ألست مجنوناً ؟

شفيق ـ (يهزُّ كتفيه) : قد أكون مجنوناً لأني لست مثل ...

متاتياس ـ (متمّماً فكر شفيق) : مثلنا نحن ، أليس كذلك ؟ نحن عقلاء نعمل كجميع الناس ، ونجتمع بالوجهاء أمثالنا ، وألعابنا ومسراتنا معقولة معتبرة كما أن أشغالنا شريفة كثيرة الأرباح . أما أنتَ فانظر الى ما تفعل واذكر من تعاشر. وأنا أريد أن أصلحك رحمةً بكَ وخوفاً على مستقبلك فتقبل نصحي كالمجنون الأحمق .

شفيق ـ (بهدوء حزين) : حدثني عن رحمتكَ ... اني حتى الساعة لَم ألمح خيالها ...

متاتياس ـ (يتكلف الشفقة المتناهية) : وماذا ينفع الذكاء والدرس ان لم يقدهما النصحُ والرأي ؟ اعلم ، أيها المغرور ، انه كما قال الشاعر العربي (بفخامة وتأنٍّ في الألفاظ) « الرأي قبل شجاعة الشجعان » .

(شفيق ينظرُ الى أخيه بعينين واسعتين دهشتين وفيهما خيال الضحك . فتهمس له سميحة بسرعة : « لا تدهشنَّكَ هذه الفصاحة الفجائية ! هذا عنوان اعلان تجاري رآه في جريدة هذا الصباح قرب أخبار البورصة » . هنا ينهض متاتياس بعظمةٍ تتبعه زوجته ومدام سالم ويتجهون نحو الباب . وعندما يصل متاتياس قرب أخيه يتهكم قائلاً : « ابقَ على حريتك لنرى على أين تقودك » ثم يخرجون وشفيق مهتم بملس الزبدة على كسرة خبز في يده . وبعد أن يبتعد وقع أقدامهم يجيل النظر فيما حولهفيرى انه وحده فيحمل فوطته ويلوّح بها في الفضاء كمن يطرد الذباب . فيسمع صوتاً يتكلم وراءه ويلتفت فيرى الدكتور سالم مشيراً نحو الشرفة حيث سميحة تسقي الأزهار) .

الدكتور سالم ـ (مخاطباً سميحة) : أتسمحين لي بفنجان قهوة صغير؟

سميحة ـ أسمح بفنجان قهوة كبير (تدخل من الشرفة وتدنو من المائدة).

الدكتور ـ أشكر لكِ كرماً لن أتمتّع به . يجب أن أذهب الى المدينة في الحال (مخاطباً شفيق) كيف الحال ، ياسي شفيق ؟

شفيق ـ في الحياة أمراض لا يداويها الطبُ ، يا دكتور .

سميحة ـ (بعطف أكيد) : لقد أنهكوا قوى هذا الولد المسكين .

الدكتور ـ (يشرب القهوة واقفاً) : كده ؟ وأي ذنبٍ جنيتَ ، يا كثير الذنوب ؟

شفيق ـ هو الذنب الأكبر الذي لا ينتهي . وهل ينتظرك في المدينة مريض ما ؟

الدكتور ـ لا تغير الموضوع . اخبرني عن ذنبك الجديد .

سميحة ـ سهر البارحة في النادي . وظلّت غرفتهُ منارةً حتى الساعة الثالثة صباحاً . وابتاع ارغناً . وقال انه « حرّ » . هـذه قائمة الذنوب الجديدة.

شفيق ـ (لا يلتفت اليها) :ذنبي الذي لا يغفر هو اني لست طفلاً .

اريد أن أفتكر بنفسي ، وأعمل لنفسي ، وأعتمد على نفسي . وهم يقذفون عليَّ بآرائهم ونصائحهم في كل حين . وما هي قيمة الرأي يا ترى اني لم أطلبه أنا ؟ وقد أطلبه وأسمعه دون أن أتبعه . ثم اذا استشرت غيري كل خطوةفكيف أعرك الأمور فأخطىء هنا وأصيب هناك ، وأكتسب من الفشل والنجاح اختباراً هو في الحقيقة أكبر وأقدر ما يقود المرء في هذه الحياة المتشعبة السبل ؟

الدكتور ـ الرأي حسن ، يا شفيق ، عندما تطلبهُ وتكون في حاجة اليهِ .

شفيق ـ (متحمساً) : حسن في هذه الحال وقبيح في ما عداها . عندما أقصدكَ مستشفياً أعلم انك تستطيع شفائي فأذعن لأوامرك وأقبل نصائحك . وعندما أسألك رأيك اعتبرك قادراً على وضع نفسك مكاني والشعور معي ، حقيقاً بأن تقودني في طريقٍ سلكتها واختبرتها قبلي . ولكن ما قيمة الرأي عند غير أهله ؟ كيف يرشدني في الموسيقى من لا يتقن إلا النجارة ؟ كيف يصلح اغلاطي اللغوية من كان صحيحه مغلوطاً ؟ كيف يعلمني الصينية من لا يعرف عدد حروفها ؟ ثم كيف هو ينهاني عن قيادة زورق حياتي كما أريد ! عجباً ! أألام لأني لا أقضي لياليَّ حول الطاولة الخضراء ، ولا اصرف نهاري بين سباق الخيل ، وصيد الحمام ، وحانات الرقص والشراب ؟ كنتُ وما زلتُ اعتقد ان من كانت هذه حياته حقَّ عليه الملام ، وها أنا الذي أطلب الهدوء والوحدة أُقابَل بالشغب والعبوس . (يصمت آسفا لأنه تكلم ، إلا أن الكلام يعود متدفقاً من شفتيه) يُعيرني انه رباني صغيراً . والله يعلم كيف رباني ! انه أدخلني المدرسة وهل كان بوسعه أن يفعل اقلَّ من ذلك ! ويقول أنـه بمثابة الأب لي فأي حنوّ وطّد هذه الأبوّة ؟ كنت اقضي في المدرسة شهوراً طويلة دون ان أراه ، وإذا زارني هو و... وهنّ حملوا إليَّ الحلوى واللعبات وكل ما تجلبه الدراهم ولكنهم لم يكونوا ليعطوني منهم شيئاً . الدراهم ألتي أورثنيها أبي مثل ما أورثهم . أما قلوبهم فكانت مختومة كالقبور . كنت أبكي ـ

أتسمع يا دكتور؟ قلتُ ابكي ـ كنت ابكي عندما أرى رفاقي في احضان ذويهم محبوبين مدللين ؛ أما هو فكان يأتي ويذهب بلا قبلة عطف، بلا كلمة محبة ، بلا نظرة اهتمام لليتيم الصغير الذي كنتهُ . وكَم كنت مستعداً لأحبه ! وكم كنت أتمنى ان يتركني احبهُ دون أن يجمد قلبي ! ولو علمت اليوم انه ينصحني مهتماً مخلصاً لسعدتُ بالتنازل عن رأيي وسارعتُ الى اتيان ما يشتهي . ولكنه ينصحني ليجعل لنفسه اهمية وليذلني ؛ ولو أذْعِنْتُ لكلامه لحظةً ما تأخر عن تغييره في اللحظة التالية (يتنهد) لا أستنشق في هذا البيت غير هواء المقت والكظيمة . انهم ينظرون اليَّ كدخيلٍ مغتصب. وهذه أمراض عضّالة لا تستطيع معالجتها يا دكتور (تلتقي عيناه بعينيّ الطبيب وهو ينظر اليه طويلاً بعطف يشبه المصادقة . فيهز رأسه فجأة ويحاول الابتسام) استمحيك عفواً فقد مزجتُ قهوتك بالشكوى . (يهز كتفيه) ما احقر الشكوى وما أحقر الشاكي ! (يتغلب على نفسه ويرسل زفرة عميقة) انتهى يا دكتور .

الدكتور ـ (متجهاً نحو الباب) : نصيحة اليك ، وإن كرهتَ الناصحين. ان تخرج من نفسك بقدر الإمكان . ان عكفك على ذاتك يزيد عواطفك رقةً وتهيجاً . احتكَّ بالناس ، اسمع ثرثرتهم ، شاركهم فيها ، اخرج الى الهواء الطلق ، تعاطَ الألعاب الرياضية . العبْ ، العب ، كن من ابناء جيلك لئلا تتعذب كثيراً .

سميحة ـ (تقمز ضاحكة) : سلمني مريضك فأمرّضه يا دكتور ! (الى شفيق) تعالَ معي الى الهواء الطلق ! تعالى وكن رابع رفقائي في دور « التنس » هذا الصباح ! (يخرج الطبيب مسلماً ويحاول شفيق اتباعه فتسدَّ سميحة الطريق قائلة) : لا تذهب هكذا . لئن ساءني أن أراك غاضباً فإنه يحزنني أن أراك حزيناً . وعندما يضايقونك يضعف احتمالي وينفذ صبري .

شفيق ـ (ببرود) : يحزنكِ ! يسوءكِ ! انك مثلهم جميعاً .

سميحة ـ ما أجهلك بي ! لماذا لا تنظر إليَّ ؟ لا أدري أأنت محقّ أم متاتياس ، ولكن ميلي معك .

شفيق ـ (بلا أكتراث ودون أن ينظر اليها) : عجائب !

سميحة ـ لوعلمت اني في حاجة اليك ، وإني شقية مثلك في هذا البيت لما كلمتني بهذه اللهجة .

شفيق ـ (يتكلف الاهتمام التمثيلي) : شقية أنت بين حمّامات البحر ، ولعب الكرة ، والسهرات الراقصات ، والسينما ، والتياترو ، ومغازلة أبناء الوجهاء أمثال أخيك ؟ تعزي بالأثواب الجديدة ، والقلائد الكثيرة ، والكعاب الطويلة ؛ تعزي ولا تحزني ! (ينظر الى ساعته) مضى الوقت أرجوك ان تدعيني أخرج .

سميحة ـ (بتأنٍّ) : قلت اني في حاجة اليك .

شفيق ـ (يخرج من جيبه مفكرة وقلم رصاص) : صحيح ، نسيت ؛ بماذا تريدين أن أجيئكِ من المدينة (منتظر أن تتكلم ليكتب بودرا ؟ خضاب ؟ عطر؟ زهور؟ شكولاتا ؟ أي شيء ؟

سميحة ـ (يظهر الحزن في وجهها . وتفسح له الطريق قائلة) : لك أن تخرج .

شفيق ـ (يخطو العتبة وهناك يتردّد ذاكراً خشونته . ثم يلتفت ويعود نحو سميحة وينظر في وجهها متمتماً ما يشبه الاعتذار) : انك لا تنقمين عليَّ أليس كذلك ؟

سميحة ـ وماذا يهمك ؟

شفيق ـ لا يهمني ! لقد هنتُ على الآخرين فهانوا هم عليَّ . لا يهمني شيء .

سميحة ـ فهمتُ اني لا أهمك وإنك لا تريد أن تعتني بأمري . أعدتَ لتقول هذا ؟

شفيق ـ عدتُ لأقول ... (بتردد) أراكِ غير راضية .

سميحة ـ حقاً لستُ راضية . اني شقية .

شفيق ـ (لا يريد أن يتأثر) لستِ جادّة .

سميحة ـ وهل من شقاءٍ أوفر جداً من أن تقصد زوجة متاتياس أن تزوجني لأحد أقاربها واسمه خريستو بوبو لاندو بولس .

شفيق ـ (يرفع يده كمن يقي رأسه لطمة) يا حفيظ ! ما كل هذا ؟

سميحة ـ كل هذا اسم واحد . (يائسة) اسم يملأ بطاقة الزيارة من أولها إلى آخرها .

شفيق ـ (مؤاسياً) هوّني عليكِ ! وماذا يقول متاتياس ؟

سميحة ـ وماذا يُنتظر من رجلٍ لا قيمة عنده إلاّ للمال ، وكل اسمه متاتياس ؟

شفيق ـ (يضحك) لست أدري لماذا أعطوه هذا الاسم .

سميحة ـ يظهر ان ابن جارة يونانية لنا كان يُدعى به . وربما كان نبوءة بأنه سيقترن بامرأة يونانية من ذوي قرباها خريستو بوبو لاندو بولس هذا.

شفيق ـ ممكن (يضحك . ثم تعود اليه هيئة التفكير شيئاً فشيئاً) إذاً تتخوَّفين الإرغام ؟ أيزعجك الإرشاد المتتابع ، أم في هذا القلب الصغير شيء آخر .

سميحة ـ أنت طيب كجميع الرجال الأذكياء .

شفيق ـ (يتفحص وجهها بدقة) وكيف عرفتِ جميع الرجال لتعلمي أن الأذكياء منهم ...

سميحة ـ (مشرقة الوجه) أعرف الجميع لأنني أعرف واحداً (تهز رأسها لتخفي خجلها) وأنت اخبرني اسرارك : بين الكثيرات المفضّلات

على الكثيرات ، والقليلات المفضّلات على الأخريات ، ألا يوجد واحدة ...

شفيق ـ (يأتي اشارة مبهمة ونظره يتبعُ خطوطَ حلمٍ بعيد) ليس هذا من شؤون الفتيات . وساروفيمك هذا من أبطال « التنس » ؟

سميحة ـ ان ذكاءك لمدهش ! هو زميلي وقد غلبتهُ مرات مع انه لاعب ماهر .

شفيق ـ وقد نال حظوة في عينيك لأنه لاعبٌ ماهر أم لأنه مثَّل دور المغلوب ؟

سميحة ـ (تحلم) لستُ أدري . انه يجذبني خصوصاً ونحن وحدنا في الليل على شطِّ البحر .

شفيق ـ (متبرّماً) : وحدكما على شطّ البحر ، وفي الليل ، ماهذه الحكاية ؟

سميحة ـ (تتغير ملامحها وتجللها الهيبة والعظمة) : هناك عطفة تؤدي الى الشط حيث طائفة صخورٍ لها صور الضواري وأشكال الكواسر. ينبسط أمامها البحرُ بمروجهِ المائية وتنهده العميق الفسيح . هناك تحت عيون النجوم أجلسُ على مقربة منهُ ، أجلسُ في حماه ، فيتناجى هو والبحر صامتين وأظلُّ حابسةَ أنفاسي لأستمع لنجواهما .

شفيق ـ (مأخوذاً بهذا الشيء الجديد الذي لم يعهده فيها) : أشاعرة أنتِ ! حقاً ان المرأة لغزٌ . (ولكنه يعود إلى ما يشغله) ومن ذا الذي اكتشف هذه الخلوة ؟

سميحة ـ ومن ذا الذي يصنع الأعاجيب غيره ؟ اكتشفها وقال « تعالي » فذهبت .

شفيق ـ (غير مسرور) أيكفي أن يقول « تعالي » لتذهبي ؟

سميحة ـ (تملأ عينيها مشاهد بعيدة) يكفي أن يقول « تعالي » لأذهب.

شفيق ـ (جاداً) أنصحك ألاَّ تذهبي بعد الآن . (سكوت قصير . ثم يقول آمراً وبقوة هادئة) لا أريد أن تذهبي . أتفهمين ؟

سميحة ـ (تعود الى خفتها الأولى . مقلدة صوته) « نصحي إليك ألا تذهبي » « لا أريد أن تذهبي » (ثم بلهجة خطابية فخمة وإشارة تمثيلية واسعة) اصغي خاشعة ، ايتها الشعوب ، فإن اخا متاتياس يتكلم !

شفيق ـ (متغلباً على نفسه لا يريد أن يضحك) اسمعي يا بنيّة . أنت لا تعرفين هؤلاء الشبان ولا تسمعين ما يتبجّحون بــه أمام بعضهم بعضاً . يكفي الواحد منهم أن يعرف فتاةً معرفة سطحية وأن تكون علاقته بها اجتماعية محضة ، فتجامله مجاملةً تقضي بها الاصطلاحات ، بل قد يكفي أن يراها مرةً واحدة ليذكرها بلهجةٍ توهُم أنه واقف على جميع دخائلها . لو علمت النساءُ جميع التعليقات ، والملاحظات ، وانصاف الابتسامات ، انصاف النظرات ، وصنوف السكوت الخبيثة التي يشفعُ بها ذكرهنَّ أولئك المتملقون! آه لو علمت النساء الغافلات !

سميحة ـ شرير منكَ أن تعمد إلى الوشاية .

شفيق ـ هذا هو الواقع مع الأسف .

سميحة ـ قد يوجد بين الرجال كمن وصفتَ ولكن هو لا يشبههم .

شفيق ـ كلُّ امرأةٍ تُكبرُ بطلها وترفعه فوق الآخرين . أقول لكِ أنه يكفي أن يصافحها ...

سميحة ـ (بلهجة الغالب) وأنا أقول لك انه لا يصافحني .

شفيق ـ (مرتاباً) ألا تصافحينهُ قبل « التنس » وبعده ؟

سميحة ـ أُصافحه وقتئذٍ ، واصافحهُ كلما اجتمعت به في الأندية العامة كما أصافح غيره من معارفي . أما في تلك الخلوة القدسية ، فلا .

شفيق ـ أهي معاهدةٌ بينكما ؟

سميحة ـ تعاهدنا ولكن بغير كلام .

شفيق ـ لم تتصافحا البارحة ، أما الغد فمن يضمنهُ ؟ لو مدَّ لك يدهُ ، نعم لو مدَّ يدهُ وقال « ضعي يدك هنا » فماذا أنت فاعلة ؟

سميحة ـ لا تريد أن تتخيل ذلك) : هذا غير ممكن . هذا مستحيل .

شفيق ـ ولكن هي لحظة أن المستحيل ممكن . لو مدَّ يده غداً وقال (يلفظ الكلمات بتأنٍ متعمداً) بلهجة قوله « تعالي » ، لو قال بتلك اللهجة « ضعي يدك هنا » فماذا أنت فاعلة ؟

سميحة ـ (حائرة حزينة) أتركهُ ، أهرب ، ولا أعود ألتقي به . (ترفع رأسها مفاخرةً) غير أن الرجل الذي احتمي بحماه لا يُحرجني إلى الهرب .

شفيق ـ كم تحبينهُ ! (سميحة تضطرب كأن هذه الكلمة لمست من نفسها مكاناً مؤلماً فتسبل أجفانها وتسحّ دموعها ببطء . شفيق يتأملها) إلى هذا الحد ؟

سميحة ـ (تفتح عينيها فجأةً وتسأل بحرقة) شفيق ، قل لي ! أتظن ان فتاة مثلي ، فتاة عادية مثلي ، تستطيع أن تسعد رجلاً حادّ الذكاء ؟

شفيق ـ (يبتسم بحلم) أرى جميع أعراض المرض بادية .. وأراك ككلّ امرأة تبالغين في قدر من تحبين . (يسكت متأملا) أتمنى ان يكون هذا الغلام أهلاً للكنز الذي هو أنت . (ثم معاتباً ومداعباً معاً) وهكذا أفقد أختي ساعة أجدها ! إذا سرق هو كل شيء ، فماذا يبقى لي ؟

سميحة ـ في صدر المرأة قلوب ، يا فيلسوف ، وعلى كلٍّ ان يجد القلب الذي يخصه . (عائدة الى الموضوع الرئيسي) خلاصة كل هذا إني أتكل عليك في دحر متاتياس وخريستوبو بولاندوبولوس وشركائهما .

شفيق ـ سندحرهم ! ومعنا الدكتور سالم الذي احترمه لأنه ليس على

وفاق مع أختك زوجته .. مسكين ! أما سهراتك أنتِ على شط البحر فسيكون لك من يرقبها ويحرسها ... يا لعناد النساء ! وفي ما عدا ذلك سندحرهم ، ولنا الفوز المبين !

سميحة ـ أمين ! (تمضي باحثة عن صولجان « التنس » وشبكته وتنشد) « يا ليله يابيضا يا نهار سلطاني » (ثم تغادر الغرفة بخطوات خفيفات راقصات)

شفيق ـ (يخرج الى الشرفة منتظراً مرورها في الحديقة وعندما يراها ينحني قائلاً) سلّمي عليه !

سميحة ـ (تتظاهر بعدم الفهم) أي شيء؟ ثم تضمّ أصابعها وتدنيها من شفتيها وتقول) : ما أحلى اسمك ياشفيق !

(الستار)

مي زيادة

ابتسامات ودموع

أو

الحب الألماني

للكاتب ف . مكس مولر

ف. ماكس مولر

إلى العينين اللتين أطبقهما الموت قبل أن ألثمهما . الى الإبتسامة لا أعرف منها إلا خيالها . الى الاسم العذب الذي لا تهمس به شفتاي دون أن تملأ عينيَّ الدموع . الى الطفل الذي رحل الى خالقه ويتّم فيَّ عاطفة الحب الأخوي فحرمني من حنوّ الأخ وقبلته وابتسامته ودمعته : الى أخي الوحيد الذي تقاسمه الأثير والثرى .

ميّ

مقدمة(١)

اراني راغبة في تقديم الطبعة الجديدة بكلمة تشير إلى كيفية تعريب هذا الكتاب ، وتوضح السبب الذي حملني على استبدال اسمه الأصلي « الحب الألماني » Deutshe Liebe باسم « ابتسامات ودموع » الذي عرف به لدى قراء العربية . وأن أشرح ما يتناول هذه الطبعة من تغير يبدو في كل جملة تقريباً ، ومن زيادة أتيت بها في صفحات كثيرة من أغلب الفصول .

على أني لا أكاد أذكر الترجمة الأولى إلاّ ويأخذ محيطي بالتلاشي ، ويسقط القلم من يدي لأحدّق في الصحيفة البيضاء كأنها آلة سحرية تستهوي الوسيط وتسطو عليه أسرارها . ولا يطول حتى تنتقش عليها صورة المكان الذي أظلتني يومذاك سماؤه ودوّت حولي أصواته . هاك حفيف الأوراق ، وتصفيق الأجنحة ، وتغريد الأطيار على الغصون . ألا فاصغ إلى وقع أقدام السائرين في الطريق الحمراء الضيقة المتلوية بين أشجار الصنوبر صعوداً إلى قمة أشرفت على المرتفعات والمنخفضات يسرةً ويمنةً ، شرقاً وغرباً . وأنظر جانباً إلى صنين وقد أثقلت ذروتَه ثلوجٌ حوّلها انعكاس الأشعة ثغراً نورانياً يُسرُّ إلى صدر الفضاء بما توصله إليه أصداءُ الغبراء عن شكاية وتأوه . تنبثق من جانبه سلسلة آكام تتساند مستديرة ، مستطيلة ، ناشزة ، وتظل في انتقاص وتصاغر على انسجام

(١) كتبت ميّ هذه المقدمة للطبعة الثانية الصادرة عن مطبعة الهلال ١٩٢١ .

وحسن دراية حتى تسجد بواقي الصخور منها على الشاطىء . كأن أعالي صنين أنفذتها برسالة إلى البحر لتعود بالجواب عليها . والبحر ، آه ! ترى ماذا يقول ذلك الأزرق الأفيح المائج بهدوء ودلال ، كأنه أرجوحة الأثير تهزها أيادي آلهة الهواء لتنوّم فيها طفلاً عجيباً دهشت بجماله السماوات وافتُتنت الأرضين بغرامه ؟ .

نعم ، ها أنذا في ضهور الشوير بلبنان ، ذلك المصيف الهنيء . نحن في صميم القيظ وقد تقاطر المصطافون حتى ضاقت بهم المنازل والفنادق . والجماعات التي تباينت أفرادها عِلماً وتهذيباً وارتقاءً ، وتنافرت عاداتٍ ومشارِبَ وأطماعاً ، هَا هِي تعيش تحت سقف واحد ، وتتبع في أمور جمة نظاماً فرداً وضع لضيوف النزل جميعاً . ومن هذا الاجتماع بالغرباء ، ومحاذاتهم أياماً وأسابيعَ وشهوراً ، والجلوس وإياهم حول مائدة واحدة مرةً بعد مرةٍ ، وحدةٌ تنشأ وتتثبت بالتكرار ؛ فضلاً عن خبرة موفورة لدرس أخلاق الناس ، وتمرينٍ ميسور في أساليب المعاملة والإرضاء .

بيد أني بعد الأحاديثِ المسليّةِ والضحكِ والإئتناسِ أظل شاعرة بفراغ واسع ، أظل متسائلةً ماذا يعرف أولئك المتنادمون المتسامرون المغتابون ، من بعضهم بعضاً ، أظل تائقة إلى الوحدة والاختلاء تحت أشجار الحرج الصغير . لذلك سعيتُ في أن يُبنى لي هذا الكوخ الضيق من خشب الغصون ويسقف بالأعشاب اليابسة ، وليس في داخله من حطام الدنيا سوى مقعد وطاولة نُضِّدت عليها كتب قليلة . وإنما دعي كوخي « الكوخ الأخضر » لأني جللت جدرانه من الداخل بنسيج أخضر . عدا عن أفنان مخضَوْضبة حنتْ عليه ، وخضرةٍ غضة أحدقت به من كل جانب . هنا تعرفت بمكس مولر وبكتابه الجميل . تعرفت به في الخلوة لأن الأرواح الكبيرة تنكمش في المحافل العادية ولا تتجلى إلا في العزلة لمن كان على استعداد لتلقّي فيض بهائها .

كنتُ شرعت أدرس الألمانية في القاهرة إبان الشتاء ولم ينلني منها سوى عشرين درساً أو أكثر قليلاً . ولما تزودتُ بالكتب قُبيل الرحيل أضفْتُ إلى حقيبتي كتاباً ألمانياً لا غير ، هو « الحب الألماني » هذا . وقد وقع عليه اختياري لأن السيدة البروسية التي تتلمذتُ لها ذكرَتْهُ بمتدحة أسلوب ماكس مولر المشبعَ فكراً ومعرفة على سهولته ورشاقته . ونسبتْ هذه الرشاقة وتلك السهولة إلى كون المؤلف شاعراً بفطرته ووراثته رغم اشتهاره بالعلم والبحث ، وإلى كونه انجليزياً بوالدته كما صار بعدئذ انجليزياً بزوجته وباستيطانه انجلترا أعواماً طوالاً . فكان له من إجادة اللغة الإنجليزية ومعالجتها والتأليف فيها مساعد قويّ في تجريد جملته الألمانية من التطويل والصعوبة والابهام الملازم لها غالباً عند كتّاب الألمان ، لا سيما العلماء والفلاسفة .

أنشأت أتصفح الكتاب في عزلة « الكوخ الأخضر » ولم أفرغ من الفصل الأول حتى تملكتني روحه الشعرية الفلسفية وأرهَفتْ ذهني ، فتمكنتُ من الاحاطة بالمعنى العام وإن فاتني من معنى المفردات كثير . وما أتيت عليه إلا وعدت أراجع قراءته مرّاتٍ حتى ابتهجتْ بمحاسنه نفسي المنفردة . وعلى قصر باعي بالعربية التي كنتُ نشرتُ فيها مقالات ابتدائية قلائل ، ومع اني لم يكن لديَّ معجم ألماني ، استعنت بالقلم والقرطاس لأرسم بلغتي تلك الخطوط البديعة ؛ ولو كان لي مقدرة مكس مولر الفكرية والانشائية لما أفصحت عن حركات النفس بسواها . وقد قال لي أحد الأدباء عندما نشرت « ابتسامات ودموع » في ذيل « المحروسة » في الشتاء التالي ، قال : « أسائل ذاتي ساعة أقرأ ذيل « المحروسة » أأنتِ ناقلةُ مكس مولر إلى العربية أم هو ناقلكِ إلى الألمانية ؟ » . في هذه الكلمة ، التي تخال تملقاً للوهلة الأولى ، حقيقةٌ أولية هي كل قوة الكاتب الوجداني الذي إنما نحكم له بالتفوق لأنه أحسن التعبير ، ليس عمّا يشعر به هو الكاتب ، بل عمّا نشعر به نحن

القراء . وكيفَ لا نحكم له بذلك وهو الغريب الجاهل أسرار قلوبنا قد أطلع على خفايانا وبسطها لنا وللعالمين . وكتاب « ابتسامات ودموع » من هذا القبيل آية سحر وبراعة ، لا يُقصِّرُ على الوصف ، بل هو مهبط وحيٍ للنفوس الحساسة .

●

كان ذلك في صيف ١٩١١ وبي تيقُّظُ الفتاة الأول ، واستفسارها الصامت ازاء المسائل الكونية والعمرانية والروحية ، وأعجابُها المنتبه المتحفز للاهتمام والتحمس ؛ وبي كذلك خجلُها وحيرتها وتردّدها .

وكنت كئيبة . كنت اكتئب لغير سبب ، واكتئب للعوامل الدافعة بالاجتماع ، الشاغلة أفراده ليلاً ونهاراً . حتى اذا احتميتُ بحمى الطبيعة والقيت عليها اتكال روحي رافقت الكآبة حبي واتكالي . الكآبة خاتمة شعور الإنسان ازاء الجمال والقباحة ، والخير والشر ، والعدل والظلم ، والكره والحب ، والفوز والخذلان ، إليها تنتهي حركات التأثر في جميع حظائر النفس كأن لا شيء وراءها سوى المبهم والمجهول والظلام الدامس . أهي ناتجةٌ عن شعور المرء بضعفه حيال قوة العالم ، وبعجزه عن تحويل الأشياء عن مجراها ؟ قد يكون . ولكن الواقع ان التنهد والامتثال نهايةُ كل عاطفةٍ وكل فكر ، كما أن كلَّ عمر بشري يختم بارسال الزفرة وإسبال الجفون .

كنت قبلئذٍ أسيرُ لا ألوي على شيء ، ان وقعت عيني على شخص ، أو طَرقَ سمعي موضوع نظرتُ في هذا وذاك نظرة استخبار سطحيّ . أما هناك فطَفِقْتُ ألقي على نفسي أسئلة منطلقة من جهلي المتعطش إلى الارتواء . من أنا ؟ ما هو موقفي في الدنيا ؟ لماذا تزعجني بعض الأحاديث ، وتسخطني بعض الوجوه في حين ارتاح لأحاديث أخرى وتجذبني وجوهُ غيرها ؟ لماذا أحبُّ هذه ولا أحبُّ تلك ؟ لماذا ينفث هذا في روعي وجوب احترامه فأسعد بتوجيه عاطفة جليلة إلى موضوع يليق بها ، بينا ذاك الآخر لا يُلهمني

غير الهزء والامتهان ؟ لماذا يُفرحني الناس وأفرحهم ؟ لماذا يؤلمني الناس وأؤلمهم ؟ ومن أين لي ولهم هذه القدرة العميقة النافذة ؟ أسئلة نقضي العمر ناشدين عنها أجوبة ولا نفوزُ قبل الموت بالجواب الشافي . وهكذا صار كوخي الأخضر سجناً اختيارياً ، وشرفتُهُ نافذةً مفتوحة على ميدان العجائبِ والغرائب وقد تسنى لي أن أستعرضَها واتفحَّصها بفكري سائلة عن ماهيّتها دون أن يكون ثمّة سامع أو مجيب .

الفكر ! ما أجذَبَ الفكر اذا هو مُزِج بطلاوة العاطفة وخيمت عليه أوشحة الخيال ! عشت السنوات الأولى من حياتي دون تفكير ، وها قد غدا الجناح الملون بألوان قوس السحاب يضربُ جبهتي ليُفسحَ له فيها وكْراً فصار كلُّ موضوع ، وكلُّ شخص ، وكل مشهد طبيعي ينفحني بتأملات زرقاء ، وردية ، ذهبية ، فضية ، رمادية تحوم حولي تارة ، وطوراً تَجثم فيَّ متعاونةً مع ما في الكتاب على ايصالي الى روح الإنسانية . فأكاد اسمع دقاتِ قلبها وصدى أنينها فأدرك أنها شقية بجهلها واضطرابها وهمومها ، وأنه قُدِّر على المختارين من بنيها أن يتألموا أضعافاً لأنهم السابقون إلى مقاتلة المجهول ، وكجميع الطلائع يتلقون ضربات المصادرة والمقاومة . فلا تضعف عزائمُهم ، ولا تكلُّ أقدامهم ، ويثابرون على تلمُّس السبيل في حالك الظلمات ، ويسيرون إلى الأمام حاملين غنيمة الجهود الإنسانية والثقة بتحقيق الآمال .

●

والطبيعة ! يا لاستهواء الطبيعة وقد انتشرت الأشجارُ والصخورُ على الجبال والوهاد فرقصتْ هناك الأشعة وانسلَّت هنالك الاظلال ! يا لخشوعها وقد تجمعت منازل القرى حول قبة الأجراس المنتصبة كالمِسلة ، بل هي قامت في الوسط ككاهن مدَّ يمينه نحو العلاء مبتهلاً وجثتْ حوله الرعية خاضعة ضارعة ! يا لبراعة الطبيعة بالتنوع في لبناني الجميل ! لقد تصرفتْ بجميع فنون الجمال فهي منه كلُّ يوم في حلة جديدة وهيئة طريفة . فساعةً تغرُق

الكائناتِ جميعاً فيَ أوقيانس ضياء يبهر الأنظار ويذهل العقول ؛ وساعة تزحف كتائبُ الضباب المتراصةُ من أطراف البحار وتهجم فيالق السحب المتكاثفة من أقاصي الآفاق فتكتسح ما قام أمامها وتبسطُ رواقها الرمادي ، كأن العالَمَ في دوره السديميِّ. ويعتدل النورُ والحرارة يوماً ، ويبرز روح التيقظ والكتمان فتصبح أليافُ كلٍّ نبت ، وكل قطرة ماء ، وكل ذرة هواء ، شاعرةً بسر الوجود الخطير ، تؤيد بحركتها اللطيفة ضرورة مساعدتها وحقيقة كيانها ؛ ويخال الهواء حساساً كقلب الولهان داوياً كالنحاس المجوَّف. وآناً تبدو خطوطُ الموجودات ونبراتُ الأصوات بوضوح غير عادي ، وتنمو روعةُ الأشياء كأنها كبرت واتسعت وربضت في مجاهلها الأهوالُ باتفاق فجائي بين آلهة القدر. فيتولاني افتتانٌ به ينقلب الزمن والمسافة سائلاً متحركاً أو عُباباً متموجاً يحملني تيارهُ الى حيث لا أدري من عوالم الخيال ؛ شأن الحياة بالإنسانية الضعيفة الساذجة ، الانسانية التي تجهلُ الغرض من تحركها ووجودها ولا تفتأ تذوبُ شوقاً إلى بلوغ غايةٍ تزعم الاحاطةَ بها وهي في الواقع لا تعلم ما هي !

وكم خلتُ القوة الحيوية غباراً ذهبياً أو سيالاً أثيرياً منبعثاً من البحر والجبال والكائنات جميعاً ؛ وكم عبدت الطبيعة عبادة حارة خاشعة كعبادة المتدينين والشعراء والمتيمين ، أولئك الذين يقدّسون الحياة خارجاً عن أشخاصهم ومحصورة في إلهٍ ، أو رمزٍ ، أو إنسان ؛ وكم ملأت الدموع عينيَّ شكراً للحياة ، شكراً للطبيعة ، شكراً لجميع الموجودات ، شكراً لهذا الكتاب الذي تتهادى بين سطوره خيالاتُ اليأس والأمل والبكاء والابتسام والحب والموت واللانهاية.

أظنني قلت في مطلع الكلام أن القلم سقط من يدي ، وكان ذلك وهماً. ها هو القلم يجري على الصحائف قليلاً قليلاً مستحضراً تلك الساعات تباعاً كما تتعاقب الصورُ المتحركة على غطاء المرسح ، وما الألفاظ سوى رسوم

ايمائية لحقيقتها. غير أن النفس تدَّخرها ككنوز ثمينة لأنها كبيرة الشأن في تطوّري الروحي والفكري.

« الحب الألماني » كلا، ليس هذا الكتاب حباً ألمانياً فقط بل هو خلاصة بسمات الإنسان وعبراته. فسميته « ابتسامات ودموع ». فإن كان ذلك تزييفاً لفكرة المؤلف الواجب احترامها على كل مترجم، فهو صادق من حيث اقتناعي الخاص، أمينٌ للصورة التي ارتسمتْ منه في نفسي.

●

انتشر الكتيِّبُ وكادت نسخه تنفد منذ ثلاثة أو أربعة أعوام فحال دون طبعه اعتقادي بوجوب اعادة الترجمة. لأني وإن رأيت بسرور أني ألممتُ بروح الكتاب إلماماً يكاد يكون تاماً إلاّ أنه كان يخجلني ويسوءني معاً اني أهملت طائفةً من الأفكار الجميلة والمعاني الرائعة التي لا يجوز الإغضاء عنها.

والآن أهدي اليك، أيها القارىء، هذه الطبعةَ الجديدة. لقد تقيَّدت بالأصل معنىً وتعبيراً محاولةً إبرازه إلى العربية بصيغته الشعرية البسيطة خالياً من الاستعارة الغريبة والتنميق الشرقي. والألفاظ التي أكثرَ المؤلف من استعمالها مثل « حاولت » و« خيِّل إليَّ » و« ظننت » و« روحي » و« نفسي » و« قلبي »، جميع هذه الألفاظ وغيرُها وضعتُها في أماكنها لأنها ضرورية للغة التذكار.

وستحبُّ هذا الكتاب سواءٌ أكنتَ معلماً أو متعلماً، فيلسوفاً أو شاعراً، سياسياً أو تاجراً، سعيداً أو شقياً، كبيراً أو صغيراً. ستحيا فيه وبه كما حييْت. ستنمو به وتتوحد وإياه حيناً فينتزعك من ميدان المزاحمة والمنافسة والحقد والتهكم والحسد والإجهاد. ستتوحد وإياه مستدعياً ماضيك، أو مفكراً في حاضرك، أو مترقباً مستقبلك. أو هو يمثل لك فصولاً من ماضيك وحاضرك ومستقبلك جميعاً في آنٍ واحد، كائناً عمرك ما كان، لأن العواطف لا تفنى والقلب لا تدركه الشيخوخة. بل يسير جامعاً من يأسه وآلامه وانتصاره

واندحاره خبرةً وقوة توصلانه إلى سبل جديدة ومعارف مطلوبة . وحسبه أن ينبّه فيكَ الذكرياتِ الحلوة المرّة من مباغتات الحب والحياة والموت والابتسامات والدموع ، وهي إرثُ بني الإنسان أجمعين .

ميّ

العلّامة اللغوي مكس مولر

كان مكس مولر عالماً من شيوخ العلماء واستاذاً جليل الشأن طبَّقت شهرته الخافقين وكان له اليد الطولى في وضع علم اللغات وتسهيل الاطلاع على عقائد الأمم الشرقية . وهو ألماني المولد انكليزي الموطن ولد بدساو من دوقية انهلت سنة ١٨٢٣ وأبوه شاعر ألماني أورثهُ قريحتهُ ومخيلته فامتاز من صغره بالذكاء وسرعة الخاطر وقوة الخيال حتى يكاد نثره يكون شعراً لما فيه من الصور الخيالية . وقد قال في هذا الصدد « اني ابن شاعر وقد بذلت جهدي العمر كله لكي لا أكون شاعراً » لكن الطبيعة لا تغلَب ولله دَرُّ من قال .

تكلّف شيءٍ في طباعك ضدهُ ... وأسرعُ مفعولٍ فعلتَ تغيراً

وكيف تغلب وقد ربي على ما ينميها ويقويها فقد كان بيت أبيه نادياً لرجال الأدب من الشعراء والمغنين حتى أنه علق صناعة الغناء وصار غرضهُ الأكبر ان يصير من كبار الموسيقيين وبقي على حبه لها العمر كله درس في ليبسك وبرلين وباريس وامتاز وهو في كلية برلين بالاجتهاد وسرعة التحصيل وذهب مذهب كنت الفيلسوف الألماني ولم يمل عنه . ثم مال إلى درس اللغات الشرقية فنال منها النصيب الأوفر وبرع في السنسكريتية والفارسية وترجم الهيتوبادسا (كتاب قصص الهنود) من السنسكريتية ونشرها وهو في العشرين من عمره . ثم انتقل إلى باريس ودرس على العلّامة المستشرق الأستاذ ايجن برنوف ولم يكن على سعة من العيش لكن كان من حسن بخته

أن صادقه البارون بنصن العالم الكبير فمدَّ إليه يد المساعدة وكتب عنه الى الارتشديكن كارل الانكليزي يقول :

« لقد أوصاني بعض ذوي المقامات العليا بشاب عمره اثنتان وعشرون سنة له مقام كبير في عيني شلنغ (فيلسوف الماني) أشهر نفسه بترجمته الهيتوبادسا من السنسكريت وهو واسع الاطلاع بارع في كل شيء ويود أن يقيم في انكلترا بضع سنوات .. وهو ابن الشاعر اللغوي المشهور وليم مولر والذي أعلمه من أمره أنه رائع الآداب رزين العقل » .

ويقال ان أعظم اكتشاف اكتشفه البارون بنصن لفائدة اللغات الشرقية هو اكتشافه مكس مولر . وقد ساعده البارون بنصن والأستاذ ولسن على الشروع في العمل الذي بقي عاكفاً عليه إلى أن ادركته الوفاة فوكلت إليه شركة الهند الشرقية ترجمة الرغ فيدا كتاب ترانيم البراهمة وهو أساس الآداب السنسكريتية . وقال له بنصن حينئذٍ « لقد وكلتَ بعمل يكفيك العمر كله قطعة كبيرة لا تُنحت ولا تصقل الاَّ في سنوات كثيرة لكن لا بدَّ لك من أن تعطينا نُتَفاً منها من وقت إلى آخر » فجعلت هذه النتف تنهال من قلمه كالمطر. وبقي عشرين سنة في تحرير الرغ فيدا لكنه لم يقتصر عليه بل اشتغل بمواضيع كثيرة وبرع فيها كلها فدرس اللغة الانكليزية وصار من البلغاء فيها كلاماً وانشاءً وله الخطب الرنانة التي كان الناس يتقاطرون لاستماعها ولو كانت في أعوص المواضيع اللغوية والفلسفية لبلاغة عبارتها وسهولة مأخذها والكتب الكثيرة التي أعيد طبعها مراراً لرغبة الناس فيها . ومن هذه الكتب لغات دار الحرب (أي بلاد الهند) طبعه سنة ١٨٥٤ . وعقائد الأمم طبعه سنة ١٨٥٦ وتاريخ الآداب السنسكريتية طبعه سنة ١٨٥٩ وخطب في علم اللغات طبعها بين سنة ١٨٦١ و ١٨٦٣ وخطب في علم الدين طبعها سنة ١٨٧٠ وكتاب النُتَف في أربعة مجلدات طبعت بين سنة ١٨٦٨ و ١٨٧٥ وخطب في أصل الدين ونحوه طبعت سنة ١٨٧٨ ومقالات مختارة طبعت سنة ١٨٨١ .

ومقالات في ترجمات المشاهير من اصدقائه ومن معلمي بلاد الهند طبعت سنة ١٨٨٣ وكتاب في الدين الطبيعي طبع سنة ١٨٨٩ . وحرَّر الرغ فيدا في ستة مجلدات كبيرة فيها ثمانية آلاف صفحة متْناً وشرحاً وقد فحصه سبع مئة من البراهمة فحكموا أنه أفضل نسخة وأصلحوا نسخهم عليه . وحرر كتب المشرق الدينية وهي خمسون مجلداً . وله غير ذلك من الكتب والمقالات ومن آخر مقالاته مقالة في أديان أهالي الصين نشرت في جزء شهر (نوفمبر سنة ١٩٠٠) من مجلة القرن التاسع عشر .

وحالما ظهرت مقدرته في علم اللغات اختير استاذاً فيه ، في مدرسة اكسفورد الجامعة فأقام فيها نحو خمسين سنة . ولبعض العلماء مثل هكسلي وتندل وفوستر مقدرة فائقة على بسط المواضيع العلمية وهم يخطبون فيها حتى ترى الناس يتقاطرون الى نوادي الخطابة عن طيب نفس ولو كان الموضوع من المسائل الطبيعية العويصة . فجرى مكس مولر مجراهم وبلغ الطبقة العليا بينهم فكان يخطب في علم اللغات وقد لا يقول شيئاً جديداً أو شيئاً لم يذكره أحد قبله ولكنه كان يفصح عنه على أسلوب يختلب الألباب لم يسبقه أحد إليه حتى ذاع اسمه في البلاد الانكليزية كلها وصارت خطبه من المواضيع التي يتحدث الناس بها في مجتمعاتهم وولائمهم وذهب كثير من أقواله أمثالاً .

ولم تكن آراؤه كلها مما يقوى على النقد والتمحيص ولا لقي الطاعة العمياء من معاصريه والتسليم التام لمقدماته ونتائجه بل لقي من علماء عصره كل منتقد عنيد كما ترى في ما ذكرناه في المجلد السادس عن رأيه في أصل اللغات وانتقاد الأستاذ هوتني عليه . وكذا مذهبه في اشتقاق الشعوب الأوروبية من الشعوب الآرية وتولد الأوروبيين والهنود من أصل واحد ومهاجرة الأوروبيين إلى أوروبا من قلب آسيا فإن كثيرين من نخبة العلماء يخالفونه الآن في هذا المذهب . ويقال بنوع عام أنه كان متطرفاً في مذاهبه متسرعاً في أحكامه لكن لا ينكر أحد أن علم اللغات (الفيلولوجيا) الذي وضعه الأستاذ

بوب سنة ١٨٣٥ لم يوسعه أحد مثل تلميذه مكس مولر . وكتابه في عقائد الأمم لا يخلو من آراء غير سديدة ولكنه هدى العلماء إلى مكتشفات عديدة في هذا الموضوع وأوضح كثيراً من الغوامض بذكاء عقله وقوة بداهته .

ولا شبهة عندنا في أنه وسَّع نطاق علم اللغات ورغَّب الناس في درسه وعلَّم الأوروبيين والمشارقة أنفسهم كثيراً مما لم يكونوا يعلمونه من تاريخ لغاتهم ومعتقداتهم ولكننا نرتاب كثيراً في أن ذلك أفاد سكان المشرق سياسياً فقد بذل جهده مدة خمسين سنة ليقنع الانكليز أن الهنود أبناء أعمامهم لكن هذ لم يغير رأي الانكليز في الهنود ولا أفاد الهنود مثقال ذرَّة . ومن لا يقنعه قول الكتاب ان الناس كلهم من أب واحد وأم واحدة لا تقنعه آراء العلماء وأقوال الفلاسفة .

وكان رضيّ الأخلاق كثير الأصدقاء يقصده الزوار من أقطار المسكونة ويكاتبه الناس بلغات شتى . اختار انكلترا وطناً له لكن حب ألمانيا وطنه الأصلي لم يهجر فؤاده فلما نشبت الحرب بين فرنسا وألمانيا سنة ١٨٧٠ نشر خمس مقالات في جريدة التيمس دافع فيها عن سياسة بسمارك وأقام الادلة على أنه كان يقصد بها السلم لا الحرب . وبقي العمر كله عالماً ألمانيًّا بين العلماء الانكليز . وقد بذل الانكليز جهدهم في اكرام مثواه وخلقوا له منصب استاذية اللغات الأجنبية خلقةً لكي لا يحرموا فوائده ولا يدعوه يهجر بلادهم . ثم أبدلوها بأستاذيه علم اللغات (الفيلولوجيا) . ولما كثرت أشغاله ودّ أن يعفى من هذا المنصب لأنه لم يعد قادراً على القيام به عينت المدرسة استاذاً آخر نائباً عنه يقوم بأعبائه وأبقت الاستاذية له . ولكن لما خلت كرسي استاذ السنسكريت وترشح لها هو والأستاذ الانكليزي مونير وليمس فضَّل المنتخبون الأستاذ مونير وليمس عليه لا لأنه اكفى منه لهذا المنصب بل لأنه انكليزي ومكس مولر الماني فاستاء من ذلك لكنه لم يحقد على الذين فضلوا غيرُه عليه . وود مراراً أن يترك اكسفورد وأما اكسفورد

فلم تتركه وقد اكرمته كما أكرمت أشهر تلامذتها وأعظم اساتذتها وكان الصلة المتينة بينها وبين علماء أوروبا ولا سيما علماء ألمانيا حتى أن امبراطور ألمانيا كان يبعث إليه بتلغراف التهنئة كلما فازت اكسفورد في سباق أو نحوه .

توفي في الثامن والعشرين من اكتوبر سنة ١٩٠٠ في بيته بأكسفورد على أثر مرض عقام في كبده واحتفل بدفنه في غرة نوفبر وحضر الاحتفال الجنرال غودفراي كلارك من قبل جلالة الملكة والهرشلز ستينورتز من قبل جلالة امبراطور ألمانيا وبعث الامبراطور بأكليل فاخر من الازهار البيضاء وضع على النعش وقد كتب عليه « لصديقي العزيز » وبعث ملك اسوج اكليلاً من الزنابق . وحضر الاحتفال أيضاً ولي عهد سيام ونواب المدارس الجامعية والجمعيات العلمية .

(المقتطف عدد تشرين ثاني « نوفبر » سنة ١٩٠٠)

مقدّمة المؤلف

الحرقة اللاذعة قلب من جلس إلى منضدةٍ طالما اتكأ عليها صديق نام الآن في القبر ليستريح ، ترى من لا يشعر بتلك الحرقة بعد فراق الحبيب ؟ من ذا الذي لم يحاول ولو مرةً فتح أبواب حفظت أسرار فؤاد يختفي اليوم وراء هدوء المدافن وجلالها ؟

هذه رسائل أحبها كثيراً ذاك الذي أجمعنا القلوب علىمحبته . وهذه صور ، وأشرطة ، وكتب وُضعت بين صفحاتها العلامات والرموز ، من ذا الذي يستطيع الآن تقليبها ليستشف الغاية منها ؟ وهل من يد سحرية تلم شمل هذه الوردة الممزقة الجافة وتنفث فيها من جديد روح الحياة وأريجها ؟

كان اليونان يضعون موتاهم على فراش ناري فيلتهمها اللهيب . واعتاد الأقدمون ايداع النار كل عزيز لديهم ، وإنما النار مستودع أمين لهاتيك الذخائر .

كذلك يقرأ الصديق الأسيف صحائف لم تقع عليها عينٌ غير تلك التي اطبقت إلى الأبد . وإذ يتثبت من خلوها مما يعبأ به العالم يحملها بيد مرتجفة ويلقيها في النار ، فيضم اللهيب وديعته هنيهة ولايطول حتى ينقلب وإياها رماداً .

لقد نجت الصفحات التالية من مثل هذا المقدور . ولم يكن يراد في البدء سوى اذاعتها بين خلاّن الصديق الراحل . أما وقد وجدت أصدقاء بين الغرباء فهي جديرةٌ بالانتشار في العالم الوسيع . وكان يودّ ناشرها إظهارها على صورةٍ أتمّ إلّا أن الأوراق بالية في الأصل لا يتيسر نشرها بحذافيرها .

ف . مكس مولر

الذكرى الأولى

للطفولة أسرار ومميزات ولكن من ذا الذي يستطيع وصفها ! من ذا الذي يستطيع تعليلها ؟ لقد اجتاز كلٌّ منا ذلك العمر الذي تشبه ذكراه ذكرى غابة هادئة مسحورة ، وخبر يوماً فيه فتح عينيه المملوءتين بدهشة السعادة على سناء الحياة الجديدة الفائضة في روحه . يومذاك لا ندري أين نحن ومن نحن : بل العالم كله يخصنا ونحن ملك العالم بأسره . حياة تخال دائمةً بلا بداية ولا نهاية لا همَّ فيها ولا ألم . القلوب عندها صافية كسماء الربيع ، عذبة كعرف البنفسج ، مطمئنة قدسية كصباح أيام الأحد .

ماذا يطرأ على الطفل فيقلق فيه هذا السلام الإلهي ، وكيف تنتهي تلك الحياة المشبعة سذاجة وطهارة ؟ أيٍّ العوامل يحوّل معاني كيانه ، ويميت فيه الشعور بالاتحاد والتضامن ؟ أيٍّ العوامل يعلمه تمييز المفرد من الجمع ، فينتبه فجأة ليجد نفسه في معترك الحياة وحيداً كئيباً ؟

لا تقل ، يا ذا الوجه العبوس ، ان ذلك العامل هو الخطيه ! أو هَل يجني الطفل اثماً ويقترف ذنباً ؟ بل حريٌّ بك أن تعترف اننا لكل شيء جاهلون وإنه ما علينا سوى الاستسلام والامتثال .

أهي الخطية التي تنبت البذرة زهرة ، وتنضج الزهرة ثمرة ، ثم تفنى الثمرة وتذرها هباءً !

أهي الخطيئة التي تحوّل الحشرة دودةً وتجنّح الدودة فراشةً ، وتذر الفراشة هباءً ؟

أهي الخطيئة التي تسيّر الطفل رجلاً ، وتشعل منه الرأس بشيب الشيخوخة ، ثم تهمد الشيخ جثةً ، ثم تذر الجثة هباءً ؟

وما هو هذا الهباء الذي تضيع فيه الصور؟ ألا فاعترف بأننا لكل شيء جاهلون وإنه ما علينا سوى الامتثال والاستسلام !

ولكنهُ يحلو التلفت إلى ربيع الحياة وإلقاء نظرة على هيكل التذكار ، سواء أكنّا من العمر في قيظ الصيف أو حزن الخريف ، أو زمهرير الشتاء . بل لا بد من ساعات فيها يناجي القلب ذاته قائلاً « وأنا أيضاً أشعر بالربيع متيقظاً فيَّ » !

هذا ما أشعر به اليوم . وتراني مستلقياً على نديّ العشب في الغابة العطرية لأريح جسمي المضني . أرفع بنظري إلى زرقة السماء البادية من خلال الوريقات الخضراء وأفكر « ترى كيف كانت طفولتي » ؟

أخالني ناسياً كل شيء لأن صفحات الذاكرة الأولى تشبه التوراة القديمة المحفوظة في العائلة أي أن أوراق الاستهلال منها ذابلة متجعدة ملوَّثة ، ولا تتيسر القراءة إلا بعد صفحات وصفحات ، عند السطور المحدّثة عن طرد آدم وحواء من الفردوس .

طفولتي بعيدة العهد يفوتني كثير من حوادثها ولا أعي أيامها القصوى ، أعود بأحلامي اليها ، وأنتقل منها إلى الأبدية التي سبقتها ، وتظلُّ البداية المبهمة متراجعة أمامي كلما تتبّعها فكري القاصر ، لأن فجر الحياة يختفي في ظلمات الغفلة والحداثة . وأنا في ذلك كالطفل يبحث عن نقطة ارتكاز السماء على الأرضِ فيعدو حثيثاً وتلبثُ السماء مجدَّدة آفاقها . فيتعب الطفل وتكل قدماه ولا ينال من بغيته شيئاً .

على أني ما زلت أذكر أول مرة رأيت النجوم وكانت النجوم تعرفني منذ زمن طويل . كنت في ذلك المساء على ركبتي والدتي ، ورغم

ذلك سرى البرد في جسدي واستولى عليَّ الخوف ، فانتبهت لذاتي الصغيرة انتباهاً غير عاديّ . ورفعت والدتي اصبعها مشيرة إلى النجوم اللامعة . فدهشت وفكرّتُ « بأي لباقة صنعت أمي كل هذا » ! وعادت الحرارة الى جسدي وأظنني استسلمت للنوم .

وأذكر كيف اضطجعتُ مرة على العشب الأخضر وكل ما حولي يموجُ ويهتزُّ ويطنُّ ويهمهم . فاقتربتْ مني جماعة مخلوقات صغيرة مجنَّحة ذات أقدام متعدّدة وحلَّت على جبهتي قائلة : « نهارك سعيد » . فشعرت بألم في أجفاني وصرخت منادياً أمي . فجاءت وقالت : « يا بنيَّ المسكين ، ها قد لسعتك البعوض » ! ولم أتمكن من فتح عينيَّ لأرى زرقة السماء . وكانت أمي تحمل طاقة بنفسج نضير فأحسست بالأريج المسكّن ذي الزرقة القاتمة يخترق دماغي . ومنذ ذلك اليوم ما رأيت باكورة البنفسج إلاّ انتعشت تلك الذكرى في حافظتي فأغمض عينيَّ لعلَّ سماء ذاك العمر تخيِّم عليَّ مرةً أخرى .

شفيتُ ، فانبسط أمامي عالم لم أعهدهُ يفوق منهُ الجمال جمال الكواكب ويفضلُ منهُ العطر عطر البنفسج . وكان صباح عيد الفصح . فأيقظتني والدتي باكراً فوقفت أنظر إلى الكنيسة القديمة القائمة إزاء النافذة . لم تكن جميلة كنيسة طفولتي ، انما كانت شاهقة ، جدرانها ذات منظر مهيب ، باذخة قبّتها يعلوها صليب مذهّب ، وتبدو أقدم جميع المنازل المجاورة .

ولطالما تمنيتُ تعرّف من يسكنها فنظرتُ من شبك الباب الحديدي ، وأطلتُ النظر مرةً وكان الداخل خاوياً خالياً رطباً وليس ثمة نفس واحدة . فصرتُ أفزع كلما مررتُ بها فأعدو طلباً للهرب .

ولكن في ذلك الصباح ، صباح عيد الفصح ، أمطرتنا السماء في الضحى رذاذاً ثم بزغت الشمس في أبهى حلة من الأنوار فبهجت جدران الكنيسة القديمة وتألق سطحها المصفح الأشهب ، ولمعت نوافذها الكبيرة ، وسطعت

القبة بسناء صليبها الذهبي سطوعاً مدهشاً تناول كل شيء منها وحواليها . وبدا النور السائل من النوافذ الكبيرة حياً متموجاً وأبهى من أن يمكن التحديق فيه. فأغمضت عينيَّ . إلا ان النور العجيب ما زال يفيض على روحي جاعلاً جميع الأشياء لامعة عطرة ترنُّ وتنشد .

خلتُ حياة جديدة تنبض فيَّ كأن شخصي الأول تبدل بشخص آخر ؛ وإذ سألت عن الأصوات الفخمة المتصاعدة من أعماق الكنيسة قالت والدتي ان هذا نشيد الفصح . لم يتسنَّ لي الى اليوم معرفة ذلك النشيد الذي هبطت أنغامه على روحي ، ولا ريب انه من تلك المزامير الرائعة التي تسربت الى روح لوثر الصارمة . ولم أعد أسمعه مرة أخرى . أما الآن فعندما أصغي الى موسيقى بيتهوفن أو مزامير مارسلو ، أو أجواق هيندل وأحياناً عندما أسمع الأغاني الساذجة في جبال اسكوتلندا والتيرول ، أشعر بأن نوافذ كنيستي القديمة تسطع بنور باهر ، وان عالَماً جديداً ينفتح أمامي أجمل من عالم الكواكب وأعذب من عرف البنفسج .

هذا ما علق بذهني من تذكارات طفولتي يتخللها وجه أمي الحنونة وعينا أبي العميقتان ، وحدائق وأشجار وأعشاب مخملية الخضرة ، ودالية تحمل العناقيد الناضجة ، وكتاب جليل حافل بالصور الملونة ، التوراة ، هذا كل ما أميزه على الصفحات الأولى من ذاكرتي الذابلة .

لكن ما يعقبه واضح جليٌّ . أرى ملامح الوجوه التي اعتدت مشاهدتها وأنادي أصحاب هذه الوجوه بأسمائهم : أبي وأمي ، وأخواتي وإخوتي ، والأصدقاء والمعارف والمعلمون وبعض الغرباء .

أواه ! يا لحلاوة تذكار تركه الغرباء في فؤادي ! ويا لعمق موضع روحي نُقشت فيه أسماؤهم !

الذكرى الثانية

كان على مقربةٍ من بيتنا وإزاء الكنيسة ذات الصليب المذهَّب بناية شاهقة تعلوها قبب كثيرة . عظمت حتى صغرت حيالها بناية الكنيسة ذاتها . وكانت قببها شهباء قديمة كقبب الكنيسة إنما لم تظهر فوقها الصلبان المذهبَّة بل قامت على الجوانح نسورٌ حجرية وخففت رايةٌ زرقاء على القبة العليا المطلّة على المدخل ، وقد امتد أمامه سلم يمنةً وآخر يسرة ووقف جندي يحرس كلاً منهما .

نوافذ المنزل عديدة تجلّلها من الداخل الحرائر القرمزية تتدلى منها الطرر الذهبية . وأشجار الليمون المنتصبة في الساحة الفيحاء تغطي الجدران بوريقاتها الغضة وتنشر على العشب أريج أزهارها .

كثيراً ما كنتُ أرفع عينيَّ الى هناك عند المساء إذ تطلق أشجار الليمون أعذب أنفاسها وترسل النوافذ أبهى أنوارها فأرى خيالات تجيء وتروح ، وأسمع انغام الموسيقى مترددة من أعالي القصر. ثم تمرُّ المركبات الى القصر فيترجل الرجال والنساء ويصعدون على الدرجات وعلى وجوههم سيماء الصلاح والنبل ، بينا نجوم الأوسمة تشع على صدور الرجال والورود والرياحين ترقص بين شعور النساء. فأفكر في بساطتي « لماذا لا أذهب أنا كذلك » ؟

أخذني والدي بيدي يوماً وقال « ها نحن ذاهبان الى القصر. فتأدبْ . وإذا كلمتك الأميرة أجب باحتشامٍ وقبّل يدها » . وكنتُ في عامي السادس

ففرحتُ فرح أهلَ هذا العمر. وكنتُ أسمع الثناء الكثير على أخلاق الأمير والأميرة صاحبيّ القصر وما فطرا عليه من ميل الى الاحسان وعطفٍ على الفقراء، فضلاً عن عدلٍ وانصاف بهما يمثلان الله تعالى على الأرض في معاقبة الأشرار والمعتدين. فحسبتُني أعرفهما، وحسبتهما نظير الصورة التي وضعتها لهما مخيلتي. بل هما كانا من معارفي القدماء لا كلفة بيننا ولا تكلف كأنهما بعض ألاعيبي وجنودي الخشبية.

صعدتُ في السلم وقلبي يدق بسرعة. وأخذ أبي يوصيني أن أقول «سموّك» في مخاطبة الأميرة. ففتحت الأبواب ورأيت أمامي امرأة طويلة القامة ذات عينين براقتين نافذتين، تخال آتية تواً إليَّ تمد يدها لأضع فيها يدي. وللامحها هيئة الفها ذهني ونصف ابتسامة محجوبة تلعب حول ثغرها بلطفٍ. فلم أتمكن من ضبط نفسي. وفي حين ظل أبي واقفاً قرب الباب ينحني (لا أدري لماذا؟) انحناءً عميقاً خففت أنا الى السيدة الجميلة وقلبي يقمز الى شفتيَّ، ثم طوقت عنقها بذراعي وقبلتها كما أقبل والدتي. فظهر الارتياح على وجهها وداعبت شعري ضاحكة. إلا أن أبي مسك بيدي ودفعني بجفاء قائلاً اني صبي شرير واني لن أرافقه مرةً أخرى. فأخذتني الحيرة وصعد الدم الى وجنتيّ وشعرت بسهم يخترق فؤادي الصغير وان أبي يظلمني. نظرت إلى الأميرة استمد دفاعاً فلم أرَ في محيّاها غير الرصانة واللطف. وأدرت ببصري في القاعة ومن فيها من رجال ونساء لعلّي أجد من يشاركني في ألمي فإذا بهم جميعاً يضحكون. فهطلت الدموع من عينيَّ وسرتُ نحو الباب وهبطتُ السلم مسرعاً تحت أشجار الليمون حتى وصلت المنزل والتقيت بأمي، فرميت بنفسي بين ذراعيها والشهيق يقطع صدري.

فقالت: «ماذا جرى لك يا بنيّ»؟

قلت: «آه لو تعلمين! ذهبت الى الأميرة فوجدتها جميلة لطيفة مثلك

يا أماه فلم أتمالك أن طوقت عنقها بذراعي وقبّلت وجنتيها » .

فقالت : « وكيف فعلت ! هؤلاء الناس أشراف أماثل وهم غرباء عنا » .

قلت : « ماذا يهمني كونهم غرباء ؟ أليس لي أن أحب كل من نظر إليّ بعينين معسولتين باسمتين » ؟

قالت : « لك أن تحبَّ من تشاء يا بني . ولكن عليكَ أن تكتم حبك ولا تظهر منه شيئاً » .

قلت : « ان لم يكن حبُّ الغرباء جريمة فلماذا يحظّر عليّ إظهاره » .

فتنهدت أمي وقالت « انك لمصيب يا بنيَّ . لكن عليك أن تطيع والدك . وعندما تكبر سناً وفهماً تعلم لماذا لا يجوز أن تطوق عنق كل سيدة جميلة ذات عينين جذابتين » .

وكان ذلك اليوم كئيباً . عاد أبي الى البيت وكرر إني أسأت التصرف وفي المساء سارت بي أمي الى سريري فجثوت وصليت . غير اني لم أنم إلا بعد أرقٍ طويل متسائلاً من هم الغرباء الذين لا تجوز محبتهم .

وا لوعتاه عليك يا قلب الانسان ! ان أوراقك لتجف في ربيع أيامك والريش يتساقط عن جناحيك قبل الأوان . عندما يبزغ فجر الحياة في أفق النفس ينتشر فيه عبير الحبّ . نحن نتعلم السير والوقوف والكلام والقراءة لكننا لا نتعلم الحب ، لأن الحب جوهر الروح وجميع قوى الروح تناديه بأصواتها المختلفـة . وقوة الحب أهمّ أصل غرسته الطبيعة في أعماق الكيان . فكما تجذب الأجرام السماوية بعضها بعضاً بالجاذبية الأبدية كذلك تجذب الأرواح المتآلفة بعضها بعضاً وترتبط الواحدة بالأخرى برباط الحب الأبدي . هيهات للزهرة أن تعيش بلا شمس وللإنسان أن يحيا حياةً عظيمة بلا حبّ .

أليس ان قلب الطفل يكاد ينسحق انسحاقاً إذ تهبُّ عليه من الجفاء النسمات الباردة الأولى في هذا العالم الزئبقي ؟ ولكن ها ان حب والديه يظلُّ

لامعاً في ألحاظهم كأنوار سماوية وأشعة إلهية .

حنين الطفل أطهر أنواع الحب وأبعدها غوراً وأشملها طبيعةً لأنه يحتضن العالم بأسره منسكباً على كل نظرة ودودة ، ويهتزّ لسماع كل نغمة عذبة . هو بحرٌ عميق زاخر لا قرارَ له ، وهو ربيع كنوزٍ لا تُقدَّر وخيرات لا تحصى . وكل من اختبر الحب عرف أنه لا يقاس ولا يكال ولا يوزن ولا زيادة فيه ولا نقصان ، وإن الذي يحبُّ صادقاً يحب بكلية قلبه وروحه وبمجموع قواه وأفكاره .

لكن واحسرتاه ! ما أقل ما يبقى من هذا الحب بعد الوصول إلى نصف رحلة الحياة ! عندما يعلم الطفل أن في العالم « غرباء » ويفهم من هم أولئك الغرباء تنتهي أيام طفولته . فيختفي ينبوع الحب وتسحقه أقدام الأعوام والاختبار . ويوم يتلاشى لمعان العين الطاهرة فتحل محله خيالات التعب والريب ينظر الإنسان إلى أخيه نظرة الغريب إلى الغريب ويتحاشى الدنو منه في الشارع المزدحم . يمرُّ غير مسلمٍ خوفاً أن لا ترد التحية فتتوجع روحه ، لأن الإنسان ذاق مرارة الهجر من أصدقاء طالما بادلهم تحية الرؤوس وابتسام الشفاه ولمس الأيدي . الريش البهي يتساقط عن جناحيّ النفس ، وتجف وريقات الزهرة منها وتتمزق ، ولا يبقى من منهل الحب سوى قطرات قلائل لإرواء غليل التائه في صحراء الحياة . تلك القطرات نظل ندعوها حباً . فأين هي من حبّ الطفل الفياض الجوَّاد ؟

ليس ذاك سوى حبّ مزج بالشك والغموم ونار الانفعال المضطرم . حبٌّ يفني ذاته بذاته كقطرات المطر على الرمال الحارة . حبٌّ يطلب دواماً ولا يبذل يوماً . حبٌّ يسأل « أتريد أن تكون لي » ؟ ولا يقول « يجب أن أكون لك » . حب يستغرق نفسه ، ويذيب نفسه ، ويلاشي نفسه ، وهو معذَّب يائس . هذا هو الحب الذي تترنَّم بوصفه الشعراء ويتوق إليه الفتيان والفتيات . شعلة تلتهب ثم تنطفي ولا تدفيء ، وتذهب تاركة بعدها الدخان

والرماد . نحن نزعم يوماً أن هذه الأسهم النارية انما هي آية الحب الدائم ، ولكن كلما استعرت تلك النار وعظم لهيبها الموقوت قرب خبوها وحلكت ظلمة الليل الذي يتبعها .

وساعة يسوَدُّ الأفق ويدلهمُّ حول الواحد منا فيرى نفسه وحيداً شريداً بين السائرين يمنةً ويسرةً دون أن يعيروه التفاتاً ، إذن تنهض عاطفةٌ منسية وتتمشى في صدره ذهاباً وإياباً ، ولا يدري أهي عاطفة حب أو عاطفة صداقة ، ويودُّ أن يصرخ لكلٍّ من أولئك الغرباء « ألا تعرفني » ؟

إذ ذاك يشعر بأن الغريب أدنى إلى الغريب من الأخ إلى أخيه ومن الأب الى ابنه ومن الصديق الى صديقه ، يدوي في طبقات ذاكرته صوت مجهول قائلاً ان هؤلاء « الغرباء » أقرب أصدقائنا وأعزهم لدينا وأحبهم عندنا .

إذاً لماذا نمرُّ بهم صامتين ؟ ذاك سرٌّ لا يُدرك وما علينا سوى الامتثال عندما يمرُّ قطاران وأنت في أحدهما وفي الآخر وجه يودُّ أن يبتسم لك ، حاول مدّ يدك لمصافحة الصديق المبتعد عنك قهراً . حاول ذلك وجرّبه لعلّك تعلم لماذا يمرُّ الإنسان بالإنسان صامتاً .

قال فيلسوف قديم : رأيت بقايا سفينة أغرقتها العاصفة عائمة على صفحة البحر . يتلامس بعضها ويتلاقى الى حين . ثم تهب الريح فتفرقها شرقاً وغرباً دون أملٍ في اللقاء . وذاك مصير بني الإنسان في بحر الحياة ، ولكن ليس بينهم من شهدَ غرق السفينة .

الذكرى الثالثة

غيوم الحزن لا تبقى طويلاً في جو حياة الطفل بل تتبدّد بتدفقها من عينيه دموعاً. لذلك عدتُ بعد أيام الى القصر فأعطتني الأميرة يدها وأتيح لي تقبيلها. وجاءتني بأولادها الأمراء والأميرات فأنشأنا نتقاسم الألعاب ونتشارك في الملاهي شأن الذين يرجع عهد تعارفهم إلى سنوات خلت. تلك أيام هنيئة لأني بعد ساعات المدرسة، وكنت بدأت أذهب الى المدرسة، كان لي أن أتوجه إلى القصر فأجتمع برفاقي وبين أيدينا ما يشتهي قلب الطفل من لعيبات ودمى كثر ما رأتنيها والدتي وراء زجاج الحوانيت الكبيرة، قائلة انها باهظة الثمن قد تكفي الواحدة منها لإعالة العيلة الفقيرة أسبوعاً كاملاً. ومثلها كتُب الصور الجميلة التي أبصرت أبي يقلبها عند أصحاب المكاتب ويقول انها لا تشترى لغير الأولاد الصالحين. ها هي لي الآن في القصر أقرأها وأتمعن في صفحاتها ساعات طويلات، لأن كل ما يخص الأمراء الصغار يخصني، أو بالأحرى هذا ما أزعمه. إذ لا تقصر حريتي على استعمال ذلك المتاع الصبياني عند أصحابه بل أنا مخيّر في أخذ ما أريد منه الى البيت وفي التصرف به وإهدائه الى أولاد آخرين. وزبدة القول أني كنت اشتراكياً بأوسع معاني الكلمة.

وكانت الأميرة تلبس يوماً أفعى ذهبية التفّت حول زندها التفاف الحياة والإحساس. فدفعتْ بها الينا لنلهو. وعند الانصراف لَوَيْتُ الأفعى حول ساعدي لأرعب أمي في الظلام. فلقيت في طريقي امرأة توسلت إليّ

أن أريها الأفعى ففعلتُ . فتنهدت وقالت انها لو ملكتها لخلصت بثمنها زوجها من غيابات السجن . فلم أتردد لحظة في مساعدتها ، ومضيت أعدو تاركاً المرأة والسوار الذهبي بين يديها .

وحدث في الغد جلبة وضوضاء إذ جيء بالمرأة الى القصر تبكي وتنتحب وقد اتهمت بأن اغتصبتني الأفعى . فاستَشَطتُ غضباً وصرّحتُ بتحمس وحدّة اني وهبتها السوار ولا أروم استرداده . لا أدري ماذا جرى بعدئذ . على أني صرت منذ ذلك اليوم أعرض على الأميرة كل ما أحمله معي إلى البيت .

مرّ زمن قبل أن تتسع أفكاري فأدرك معنى خاصتي وخاصتك . وطال اختلاط المعنيين في ذهني كما طال عجزي دون التمييز بين اللونين الأحمر والأزرق . وآخر مرة ضحك مني أصحابي لمثل ذلك ، كانت يوم أعطتني والدتي نقوداً لأبتاع تفاحاً . أعطتني عشرين بارة وكان ثمن التفاح نصف هذه القيمة . فقالت البائعة بصوت خلته حزيناً انها لم تبع شيئاً منذ الصباح وليس لديها من النقود ما ترده إليَّ ، وتمنت أن أشتري تفاحاً بعشرين بارة . فتذكرتُ ان في جيبي قطعة نقود أخرى من ذوات العشر بارات ، وسررتُ أن أحلّ المشكل بنقدها تلك القطعة قائلاً « الآن تستطيعين أن تردي العشر بارات الباقية » . فلم تفهمني المرأة المسكينة بل أعادت إليَّ قطعة العشرين بارة واستبقت لنفسها قطعة العشر بارات .

كنت أذهب كل يوم أشارك الأمراء في ألعابهم وأتعلم معهم الفرنساوية . ومنذ ذلك الحين أرى صورة ترتفع من أعماق ذاكرتي ، هي صورة ابنة الأمير الكبرى الكونتس ماري التي توفيت والدتها أثر وضعها ، فتزوج الأمير بعدئذ بالأميرة الحالية . تتصاعد تلك الصورة في شفق ذاكرتي بتمهل وإبهام . فهي في البدء خيال سابح في الهواء يتشكل ويتكيف قليلاً قليلاً مقترباً مني ، حتى يقف أخيراً أمام نفسي ساطعاً كالبدر يشق حجاب الغيوم بعد

زوبعة شديدة ويبرز فينير وجه الليل . كانت الفتاة أبداً مريضة تتألم صامتة . لم أرها حياتي إلا ملقاة على سرير نقال يحمله إلى غرفتنا رجلان ، ويحملانه منها إذا هي تعبت وأشارت . هناك كانت ترقد بين الأنسجة البيضاء شابكة يديها على صدرها ، ووجهها شاحب وإنما مليح لطيف وعيناها عميقتان لا قرار لغورهما . فأقف حيالها مشتت الفكر ، وأحدق في عينيها متسائلاً ما إذا كانت هي الأخرى من « الغرباء » . فتضع يدها على رأسي فتعتريني هزةٌ وألبث جامداً صامتاً بلا حركة ولا كلام ، وكل قواي تطل من حدقتي على تينك العينين العميقتين اللتين لا قرار لهما ...

كانت تكلمنا نادراً غير ان نظرها يرقب كافة ألعابنا . ولم تكن تتذمر مهما أفرطنا في رفع الصوت وإكثار الجلبة بل تنقل يديها الى جبهتها العاجية وتغمـض عينيها كمن يستسلم للنوم . وتشعرُ بتحسن صحتها في أيام أخرى فتستوي فوق مضجعها ونرى على وجنتيها نضرة الفجر الباكر . فتحدثنا الأحاديث المسلية وتقص علينا الحكايات المدهشة . لست أدري كم كانت سنها ، على أنها كانت باعتلالها الطويل وضعفها شبيهة بالأطفال يداريها الجميع ، ويذكرونها برفق واحترام وينعتونها « بالملك » ولم أسمع عنها يوماً سوى الكلمة الطيبة . أما أنا فكنت أقف حيالها خاشعاً ، وعندما أراها صامتة بائسة وأفكر في انها لن تعرف يوماً لذة النهوض والسير من مكان الى مكان بمجرد دافع الإرادة ، وانها ليس لديها من عمل تؤديه ولا من مسرة تتمتع بها بل ان سريرها هذا في الحياة إنما هو رمز نعش يضمها في الممات ، إذ ذاك أساءل نفسي لماذا جاءت هذا العالم وهي أهل لأن تذوق راحة رضيّة في حضن الله ، أو ان تُحمل على أجنحة الملائكة البيضاء على ما نراه ممثلاً في الصور المقدسة . ثم أشعر بوجوب مقاسمتها آلامها لئلا تقاسي وحدها جاهلة ان قربها قلباً يتألم لها ويحتمل معها . ولكن كيف أبوح لها بما يجول في خاطري وأنا غافل عن وجوده ؟ كل ما كنت أعلم انه لا يجوز لي أن ألقي بنفسي على عنقها لئلا أسبب لها كدراً وغماً . فأكتفي بالابتهال الى الله من أعماق

قلبي أن يريحها من سقامها .

أُدخلت علينا في يوم حار من أيام الربيع وهي شاحبة كل الشحوب ، أما عيناها فكانتا أشد لمعاناً وأبعد غوراً . فجلست على مضجعها ونادت بنا وقالت « اليوم تذكار مولدي . حبذا العيشة معكم طويلاً ولكن قد يدعوني الله إليه في القريب العاجل . ولما كنت راغبة في أن لا تنسوني تماماً بعد رحيلي جئت كلاً منكم بخاتم يلبسه الآن في السبابة ويظل ينقله الى الأصبع المحاذي كلما مرت الأعوام حتى يستقر في الخنصر وهناك يبقى مدى الحياة » .

وعمدت الى خواتم خمسة في أصابعها فنزعتها الواحد بعد الآخر وعلى وجهها إمارات حزنٍ عميق يمازجه حبٌّ ولين . فأغمضتُ عينيّ كيلا أبكي . فأعطت أخاها الأكبر الخاتم الأول وقبَّلتهُ ، ودفعت الخاتمين الثاني والثالث الى أختيها الأميرتين ، وكان الخاتم الرابع نصيب الأمير الأصغر ، وقبَّلتهم جميعاً . وكنتُ أقفُ قربها محدّقاً في يدها البيضاء وفي الخاتم الوحيد الباقي في أصبعها . ثم استلقت على سريرها منهوكة القوى فتبع حركتها نظري والتقى بنظرها ففهمتْ بلا ريب ما يدور في خلدي وسمعت ما يهمس به قلبي لأن ألحاظ الأطفال شديدة التعبير بليغة المعنى . حزنتُ لأعراضها ، ولو حاولتْ مراضاتي الآن ما رضيت أن أنال الخاتم الأخير لأن التخلّف إنما يدلُّ على إني غريب لا تخصّني بإعزاز ولا تحبني محبتها لاخوتها وأخواتها . وصرت متوجعاً كمن فتح أحد عروقه أو قطع بعض أعصابه ، ولم أعد أدري انّي أوجه نظري لأخفي كربتي .

فجلستْ من جديد ولمستْ جبهتي مرسلة في عيني نظرة استقصاء واستقراء أشعرتني بأن ما من سر فيَّ إلا اكتنهته الفتاة وما من فكر إلا قرأتهُ . وسحبتْ الخاتم الأخير من يدها متمهلة وقالت : « وددت أن يصحبني هذا الخاتم يوم أفارقكم ولكن ألبسه أنت فذلك خير . وفكر فيَّ عندما أصير بعيدة عنكم . اقرأ الكلمات المنقوشة عليهِ «كما يشاء الله» . أما قلبك هذا ففعم حرارة

ورقة ، ألا فلتروّضهُ الحياة وتنمهِ دون أن تقسيه » ! ثم قبلتني كما قبلت اخوتها وأعطتني الخاتم .

ما أصعب الوصف وما أعصاه ! يومذاك كنت أكاد أكون صبياً ، فكيف يتفلّت قلبي من سحر ذلك الملك المتألم ولطفه ؟ كنت أحبها كما يحب الصبي ، والصبيان يحبون بحرارةٍ وصدق وطهارة قلَّ منهم من يحبّ بها في الشبيبة والرجولة ، على أني ذكرتُ أنها من « الغرباء » الذين حرّمت عليَّ المجاهرة بحبهم . إنما شعرتُ بتقارب روحينا اوبتلامسهما بأرق ما تتلامس به أرواح البشر. زالت المرارة من قلبي ولم أعد أشعر بأني وحيد في العالم ، ولم أعد أشعر بأني غريب عنها تفصل بيننا هوة أو مرتبة . كنتُ معها ، كنتُ قربها ، وكانت روحي تلمس روحها ، فحسبي .

ثم رأيت ان استبقاء الخاتم الذي ودَّت أخذه الى القبر ، رأيت ان استبقاءه معي حرماناً لها ، وتعالت في نفسي عاطفة طفت على كل عاطفة سواها فقلتُ مضطرباً « احتفظي بالخاتم ان شئت أن يكون نصيبي . لأن ما لك هو لي» فأطالت النظر في وجهي دهشةً متأملة ، ثم تناولت الخاتم ووضعته في أصبعها وقبّلتْ جبهتي مرةً أخرى وقالت بصوتها العذب الرقيق « أنت لا تدري ماذا تقول ، أيها الفتى ، فحاول أن تفهم نفسك لتسعد وتُسعد الآخرين » .

الذكرى الرابعة

نجتاز من العمر أعواماً يماثل تتابعها ممراً طويلاً قامت على جانبيه أشجار الحور تحجب عنا استدارة الأفق فنظل جاهلين أي الأنحاء نجوب ، ولا نحفظ منها سوى كئيب الذكر إننا قطعنا من الأيام مراحل وتقدمنا في السن. ونلهو في حداثتنا بمراقبة المد المنبسط من نهر الحياة فيلوح لنا المشهد واحداً وان تغيرت منه المناظر وتجددت على الشطين. فإذا ما بلغنا شلالات الحياة ، شلالات الجهاد والعناء والألم ، كان عملها في نفوسنا شديد الأثر ، وكلما ابتعدنا عنها زاد تعالي صخبها وهديرها وضجيجها . حتى إذا أخذنا في الدنو من أوقيانس الأبدية اجتلى في ذهننا معناها ، ووضحت لنا أهميتها ، فشعرنا بأن القوة التي ما فتئت تمدنا بالنشاط والفطنة والحكمة وما زالت تسوقنا الى الأمام نحو غاية سامية إنما تلك الشلالات أصلها ومصدرها ، ومنها منهلها الذي لا ينضب .

انقضت مدة دراستي ومضت معها أوقات السرور والخلوّ وذوى من أحلامي الجميلة كثير ، على أنه بقي لي إيماني بالله وحسن ثقتي بالبشر. رأيت الحياة شديدة الاختلاف عما صورته مخيلتي ، ولكن الشؤون بدت لادراكي كبيرة مهمة تزينها المعاني الرفيعة السامية . وما أشكل منها وجلب غماً وألماً صار في تقديري أقوى شاهد على ان يد الله تدير حركات الكون فليس لعقولنا المحدودة أن تحصر تلك الحكمة المتناهية . « لا يقع شيء إلا بإذن الله وسماحه » غدا هذا المبدأ الفلسفي موضع راحتي وتعزيتي .

عدت في عطلة الصيف الى بلدتي . فرح العودة وفرح اللقاء ، من ذا منا يشرح أسبابه ؟ من ذا الذي يتفهم لذةً نتذوقها في أن نرى مرة أخرى ما رأيناه من قبل ، وأن نجد من جديد ما سبق وعرفناه قدماً ؟ يكاد يكون التذكار سرّ كل تمتع وكل مسرة . قد يكون ما نراه ونسمعه ونذوقه لأول مرة جميلاً مرضياً لذيذاً على انه يدهشنا بجدته وغرابته فلا يتم الهناء به لأن مجهود السرور يجيء غالباً أقوى من السرور نفسه . ولكن إذا سمع المرء بعد مرور أعوام نغمة قديمة كان يزعم انه نسي كل نبرة من نبراتها فعرفتها روحه وعانقتها كأنها كأنها صديق عزيز ؛ أو وقف أمام صورة العذراء ناظراً في عيني طفل تحمله فتنبهت فيه عواطف اعتادها عند هذا المشهد في صغره ؛ أو استنشق زهرة ، أو ذاق طعاماً لم يذكره منذ زمن الحداثة ، شعر بلذة لا يدري لعمقها أهي آتية من السرور الحاضر وحده أم هي جمعت بين أطايب الساعة المارة وتذكارات عهد مضى .

كذلك يعود الطالب منا الى وطنه بعد غياب أعوام فتخوض نفسه بحر خواطر تحمله منهُ الموجات المترنحة نحو شواطىء الأيام القصية ، وإذ يسمع ساعة البرج تدق يضطرب خوفاً من التأخر عن ميعاد الدرس ثم يعود من رعبه جذلاً بانقضاء أيام الدراسة . يرى كلباً يعبر الشارع هو الكلب الذي طالما لاعبه في الماضي ، وها هو الآن قد كبر وشاخ حتى قام الفراغ مقام أنيابه . وهاك بائع السلع المتجول الذي طالما جربتنا تفاحاته وما زالت في حكمنا ، رغم غبارٍ يلتصق بها ويغلفها ، أشهى صنوف التفاح في العالم . وهناك هدم منزل قديم وشيد غيره مكانه . ذاك كان منزل معلم الموسيقى . ما كان أبهج الوقوف تحت نوافذه في ليالي الصيف والاصغاء الى ما يبتكره ارتجالاً للتسلية بعد ساعات العمل الطويلة ، فتنطلق الألحان كأنها بخار تجمَّع في نفسه خلال النهار فأنشأ يعتقه ليلقي عنه حملاً ثقيلاً . وهنا في هذا الزقاق الضيق الذي كنت أخاله أوسع قليلاً ـ هنا اجتمعت ليلة بابنة الجيران الجميلة .

لم أكن فيما مضى لأجرأ على محادثتها والنظر إليها . على إننا نحن الصبيان كنا نتناقل أخبارها في المدرسة ونسميها « الفتاة الحسناء » . فإن رأيتها آتية في الشارع عن بعد اغتبطت لهذه المصادفة دون أن أطلب الدنو منها . وكان انها مرة في هذا الزقاق المؤدي الى المقبرة اتكأت على ذراعي وسألتني أن أسير بها الى البيت . مشينا ولم ننبس بكلمة طول الطريق . كنت صامتاً وظلت هي ساكتة ، ولكن سروري كان من الشدة بحيث إني الآن بعد مرور أعوام ، ان ذكرت تلك البرهة تمنيت انقلاب الزمان ورجوع ما لا يرجع ليتسنى لي السير مرة أخرى صامتاً سعيداً تستند على ساعدي « الفتاة الحسناء » .

وهكذا تتوارد خاطرة أثر خاطرة حتى تعجّ موجات التذكار فوق رؤوسنا ، ونرسل زفرة تلفتنا الى أن الهجس أقلق انتظام التنفس منا . فيختفي عالم الأحلام بغتة كما تتلاشى الأشباح عند صياح الديك في الضحى .

ولما مررتُ أمام القصر القديم المحاط بأشجار الليمون ورأيت الحراس على خيلهم عند الدرجات العاليات توافدت التذكارات متلازبةً في خاطري واكتأبتُ لدوران الأيام . لم أدخل هذا القصر منذ أعوام عديدة . لقد توفيت الأميرة ، واعتزل الأمير خدمة الحكومة وسكن منزلاً منفرداً في ايطاليا ، وصار نجله الأكبر الذي نشأت وإياه نائباً عنه . يقيم في هذا القصر تحفّ به بطانةٌ من شبان الأشراف والقوّاد يتمتع بحديثهم ويهنأ بعشرتهم ، فكيف لا يحسب أصدقاء طفولتهِ غرباء عنهُ ؟ ومما رغبني في الإبتعاد إني ككل شاب ألمانيٍّ عرف احتياج الشعب الألماني من جهة وخطأ الحكومة الالمانية من جهة أخرى ، كنت انضممت إلى حزب الأحرار واعتنقت نظرياته المغايرة لنظريات بلاط الملوك كل المغايرة .

نعم ، منذ أعوام لم أصعد على ذلك الدرج . ورغم ذلك ألفظ كل يوم اسماً قطنتْ صاحبتهُ في هذا القصر ومَثلَتْ صورتها في ذهني لا تبتعد عني .

اعتدت فراقها الجسدي لأنها نمتْ خيالاً جميلاً وثقتُ من أنّ لا أصل له في الواقع . صارت ملكي الحارس وذاتي الأخرى ، أحادثها ساعة أحادث نفسي ، وأستشيرها وأعمل بنصيحتها . لست أدري كيف تجسمت فيَّ إلى هذا الحد على قلة معرفتي بها . ولكن كما أن النظر يبدع من السحب أشكالاً كذلك حفظتْ ذكرى طفولتي رؤياها اللطيفة وكوَّنت من خطوط الحقيقة الضعيفة الواهية صورةً كاملةً بارزةً . أصبح تعاقب أفكاري محاورة بيني وبينها ؛ وما هو حسن فيَّ ، وكل ما أتوق إليه ، وأسعى في سبيله ، وأومن بهِ ـ ، كل ذاتي المثلى كانت تخصها ، كانت مهداةً إليها كما أنها آتية من روحها ، من روح ملكي الحارس الأمين .

أقمت في بيتي العتيق أياماً فجاءني في ذات صباح رسالة مكتوبة بالانجليزية من الكونتس ماري ، وهذا نصها :

« صديقي العزيز

« بلغني انك ستقيم هنا زمناً . نحن لم نلتق منذ أعوامٍ طويلة . فإن أرضاك نلتقي مرة أخرى فإني أسرُّ كل السرور بمشاهدة صديق قديم. تجدني وحدي بعد ظهر اليوم في الكوخ السويسري .

« لك بإخلاص

ماري »

فجاوبت فوراً بالإنجليزية اني سأزورها في الموعد المضروب . ولم يكن الكوخ السويسري سوى جناح من القصر ينفتح على الحديقة ويتيسر الوصول اليه دون المرور في ساحة القصر الكبرى . ولما أزفت الساعة الخامسة اجتزت الحديقة متغلباً على انفعالي ، متهيئاً لمقابلة رسمية ، مؤكداً « لملكي الحارس » في داخلي ان لا شأن لي مع هذه السيدة . ولكن ما معنى قلقي واضطرابي ، ولماذا لا يوحي إليَّ « ملكي الحارس » ما اتطمَّن به وأرتاح اليه ؟ أخيراً

تشجعت هامساً لنفسي بكلمات سخريةٍ بالحياة ، وطرقت باباً كان نصف مفتوح .

وجدت في الغرفة سيدة لا أعرفها خاطبتني بالإنجليزية وقالت ان الكونتس آتية في الحال . ثم خرجت وتركتني وحيداً ولديَّ الوقت الكافي لألقي نظرةً على ما يحيط بي .

كانت جدران الغرفة من خشب السنديان يدور حولها نقشٌ برزت فيه وريقات اللبلاب وتصاعدت معرّشة في السقف . كذلك كانت الطاولات والكراسي وأرض الغرفة من خشب السنديان وقد تحاذى فيها الحفر والنقش. وتوزع هنا وهناك كثير من أمتعةٍ ألفتُها في غرفة ألعابنا القديمة وقد أضيف اليها أمتعة جديدة ، لاسيما الصور والرسوم . وكانت هي الصور بعينها التي اخترتها لتزيين غرفتي في الجامعة : ففوق البيانو صور بتهوفن وهيندل ومندلسهن ؛ وفي احدى الزوايا زُهرة ميلو وهو في تقديري أتمُّ وأبدع تمثال أبقته لنا المدينة القديمة . وعلى الطاولات كتب دانتي وشكسبير ، ومجموعة مواعظ تولر ، وكتاب « اللاهوت الألماني » وأشعار روكرت وتنسن وبورنز ، وكتاب كارلايل « الماضي والحاضر » ، وهي الكتب نفسها التي كنت أقلبّها قبل أن أجيء إلى هذا المكان . فاجتذبت إلى دائرة التأمل ، بيد أني حاولت التملص منها ووقفت أمام صورة الأميرة المتوفاة . عندئذٍ فتح الباب ودخل الرجلان اللذان عهدتهما في حداثتي يحملان الكونتس على سريرها .

يا لعذوبة تلك الرؤيا ! كانت صامتة لا تتحرك وبقي وجهها هادئاً كصفحة البحيرة حتى غادر الرجلان الغرفة . إذ ذاك حوّلت نحوي عينيها ، تينك العينين القديمتين اللتين لا يدرك غورهما ، وتألّق وجهها فانقلبت كلُّ هيئتها ابتساماً . ثم قالت : « كنا صديقين ولا أظننا تغيّرنا في صداقتنا . لذلك لا يمكنني أن أقول « أنتم » . وحيث أن العادة لا تسمح بأن أقول « أنت »

بالألمانية فلنتخاطب بالإنجليزية[1] . أليس كذلك ؟

لم أتأهب لمقابلةٍ كهذه . رأيت أن لا تمثيل هنا ، ولا مجاملة ، ولا رياء. هنا روح تتوق إلى روح أخرى . هذا ترحيب صديق عرف عينيّ صديقه وراء الوجه العارية ورغم التنكّر الاتفاقيّ . فأخذتُ يدها التي مدتها إليّ وقلت منْ حادثَ الملائكة لا يقول « أنتم » .

ولكن ما أعظمها قوة سُبكت في قوالب الحياة واصطلاحاتها ! وكم يتعذر التكلم بلغة القلب حتى مع أشبه الأرواح بأرواحنا ! تعذّر ذلك علينا فاضطرب حديثنا وتضعضعت أفكارنا وشعرنا بارتباك مزعج حاولتُ التخلص منه بما حضرني من الكلام فقلت :

« لقد اعتاد الناس عيشة الأقفاص منذ الحداثة فإذا ما وجدوا نفوسهم فجأةً في الهواء الطلق لا يجرأون على تحريك أجنحتهم ، ويتخوفون الاصطدام بالصخور إذا هم حلّقوا في الفضاء الوسيع » !

فقالت « هو ذلك ، وهو عين الصواب وليس نقيضهبالممكن . لا ريب اننا نودُّ أحياناً أنْ نكون كالأطيار أحراراً نتنقّل على أشجار الغابات ونلتقي فوق الأغصان ونغرِّد سوياً ثم نفترق دون أن يعرف أحدنا الآخر. ولكن اذكر يا صديقي أنبين الأطيار غرباناً يؤثر تجنبها . ولعلَّ الحياة كالشعر : فكما يحسن الشاعر سبك المعاني الجميلة والحقائق الخالدة في أوزان معيَّنة ، كذلك على الناس صيانة حريتهم الفكرية والوجدانية رغم قيود المجتمع ودون الايذاء بها أو التطاول عليها » .

فأجبتُ مستشهداً بقول الشاعر بلاتن « أي شيء أثبت نفسه خالداً في كل

---

(١) الألمان كالإفرنسيين لا يستعملون ضمير المخاطب المفرد « أنتَ » إلّا بين أفراد العائلة وبين الأصدقاء الأحمّاء . أما الإنجليز فيخاطبون الجميع حتى الأقربين بالجمع . ولا يستعمل عندهم المخاطب المفرد « أنت » إلا في الصلاة والشعر وما نحوه من مناهج البلاغة .

مكان؟ ذاك هو الفكر الحرّ رغم قيود الألفاظ »[1] .

فابتسمتْ ابتسامة رقيقة وقالت : « نعم . ولكن لي من ألمي ووحدتي ما يخول لي ما يُنكر على سواي . وكم أشفق على الفتيات والشبان الذين لا يربطون فيما بينهم برابطة الصداقة والائتلاف الاَّ ويفكرون هم أو يفكّر لهم ذووهم ، بدنو الحب أو ما يسمونه حباً . الفتيات يجهلن الجمال المختفي في نفوسهن وقد يكفي لإظهاره حديث جدّي مع صديق نبيل . والشبان يتعشقون فضائل الفروسية ويمرنون نفوسهم على المحامد والمكارم إذا هم شعروا بمراقبة امرأة تحوم حول جهودهم ونتائجها سرّية كانت أم علنية .

ولكن للأسف ذلك لا يكون . لأن الحب لا يلبث أن يقتحم الميدان . الحب أو ما يسمونه حباً : أي ضربات القلب المتسارعة المتباطئة ، وعواصف اليأس والرجاء ، والتلذذ بالوجه المحبوب والتصورات المرضية ، وقد يرافق هذه غايات وأطماع جمة . تهجم كلها متعاونة على إقلاق ذلك البحر الهادىء العميق ، بحر الصداقة ، وهو صورة صادقة للحب الإنساني الطاهر » .

صمتتْ هنيهة فيما لاحت على وجهها امارات الألم ، ثم قالت : « حسبي اليوم كلاماً فطبيبي لا يسمح لي بالإطالة . والآن أرغب في سماع تلك القطعة الموسيقية لمندلسهن ، النغمة المزدوجة ، وكان صديقي الصغير يعزفها جميلاً فيما مضى . أليس كذلك » ؟

لم أحر جواباً لأنها عندما صمتت وطوت ذراعيها على صدرها كالعادة رأيتُ في خنصرها ذلك الخاتم الذي أعطتنيه يوماً ثم رددْته اليها . وكان تلاطم أفكاري يحول دون البيان . فجلستُ إلى البيانو وعزفتُ ما شاءت . ولما فرغتُ التفتُّ اليها وقلت : « حبذا لو أُنيل الإنسان قدرة الإفصاح بالنغمات

---

(1) "Denn was an allen Orten
Als ewig sich erweist?
Das ist in gebundenen Worten
Ein ungebundenen Geist".
Platen

الموسيقية من غير ألفاظ ! » .

فقالت : « ذلك واقع لا يحتاج إلى التمني . ولقد وعيت كل ما تهمس به هذه الألحان . غير اني لا أستطيع استماع غيرها هذه المرة لأن ضعفي يتزايد يوماً فيوماً . على الواحد منا أن يقبل بالآخر كما هو على علاته، ولنا سكة مسكينة عليلة مثلي أن تتوقع بعض الحلم من صديق مثلك . سنجتمع مساء غدٍ في الساعة نفسها . أليس كذلك » ؟

لمستُ يدها وهممتُ بتقبيلها . ولكنها أوقفت حركة يدي وضغطت عليها قائلة : « هذا خير . إلى الملتقى ! » .

الذكرى الخامسة

يتعذر عليَّ التعبير عن أفكاري وعواطفي بعد عودتي الى البيت . هناك «أفكــار بلا ألفاظ »[1] يعزفها الانسان لنفسه في الساعات الخطـيرة . لم أشعر بفرح ولا بحزن بل بدهشةٍ فائقة . وصار مثل الهواجس والتصوّرات المخترقة ضميري كمثل النيازك الهابطة من الجوّ على الأرض ما أدركت غايتها إلا بعد الانطفاء والاستحالة الى حجارة سوداء . وكما نقول لأنفسنا في الحلم أحياناً « أنت تحلم » كذلك قلت لنفسي « أنت يقظان . وهذه هي » . ثم حاولتُ استجماع خواطري ولم شعث فكري بقولي « انها لفتاة لطيفة ذكية الجنان وقّادة الذكاء » . وأخذتني منها شفقة وطفقتُ أحصي ساعات هنيئة سأقضيها واياها في هذه العطلة . لكن لا ، . لم تكن هذه سوى سوانح عبرت لباب خاطري ، وذلك اللباب ان هذه الفتاة هي منتهى ما بحثت عنه ، وفكرت فيه ، ورجوته وآمنت به الى الآن . هذه نفس بشرية عذبة كصباح الربيع ، عطرة كشذا البنفسج ، لامعة كلواحظ الكواكب . لقد تبيَّنت منذ النظرة الأولى قيمتها المعنوية وكلُّ ما أُودعتْ من بهاءٍ وسناء ، ورحَّب كلٌّ منا برفيقه لأن الروحين تعارفا . خيّل إليَّ ان « ملكي الحارس » مضى وتلاشى ، وحاولت ان أناديه فلم تجبني نفسي إلا بما دلني على ان في العالم مكاناً واحداً أجده فيه .

---

(1) في هذه الاستعارة تلميح إلى مجموعة قطع موسيقية لمندلسهن المذكور في الفصل السابق واسمها « أغان بلا كلمات » Worte Lieder ohne . قطع غاية في العذوبة الموسيقية الكئيبة الساهية . منها القطعة التي قال بطل الرواية في آخر « الذكرى » الماضية أنه عزفها .

وبدأ لنا عيشٌ رغيد ، اذ كنا نجتمع كل مساء فشعرنا بمتانة صداقتنا ورسوخهـا وأضحى ضمير الجمـع « أنتم » طفيلياً بيننا فعمدنا بالمخاطب المفرد « أنت » نستعمله كأننا لم نفترق منذ الطفولة أصلاً . لم تصف عاطفة الا تهادى خيالها في نفسي ولم ابسط فكرة الا أشارت مصادقة كمن يقول « هذا فكري أيضاً » . كنتُ سمعت اعظم اساتذة الموسيقى في عصرنا يرتجل وشقيقته ألحاناً على البيانو فأذهلني ان يتآلف فكر شخصين اثنين ويتوحد شعورهما فيوضحان الهامهما الموسيقي في آنٍ واحدٍ على أتم انسجام لا تخونهما شاردة ولا تشذّ في ابداعهما واردة . أما الآن فقد اتسع فكري فأدركت . اتسع فكري فعلمت ان روحي لم تكن فارغة مدقعة قاحلة ، وانما توهمتها كذلك لاحتجاب الشمس عنها وهي كفيلة باخراج البراعم والازهار الى الوجود والحياة . ورغم ذلك كان الربيع حزيناً وخيَّمت منه فوق نفسينا أوشحة رمادية لأن شهر مايو ورونقه لم ينسنا أن الورود سريعة العطب وان كل مساء ينزع من زهرة اجتماعنا ورقة . سبقتني هي إلى الشعور بذلك وذكرته يوماً دون أن تبدي أسفاً أو ألماً . فانقلبت أحاديثنا جديّة هادئة ينيلها كل مساء يمر رصانة وجلالاً .

قمت أودعها مرةً فقالت : « ظننت الموت قريباً عندما أعطيك الخاتم ، ولم أتوقع أن أعيش هذه السنوات . ولكني عشتها وتمتعت بالجمال كثيراً . كذلك تألمت شديداً . إنما المرء ينسى هذا في السعادة . والآن وقد قربت ساعة الفراق فكل دقيقة توازي كنوزاً . مساء الخير . لا تبطىء غداً » .

دخلت عليها يوماً وعندها مصور إيطالي . كان حديثهما بالإيطالية ، ومع أن الرجل كان أقرب إلى العامل منه إلى الفنان كانت لهجتها لطيفة وديعة يخالطها شيء من الاحترام فتجلى لديَّ عندئذ شرفهـا الحقيقي أي شرف النفس لا شرف المولـد . وبعد ذهاب المصور قالت : « أريـد أن أريك صورة أصلها في قصر اللوفر في باريس . قرأت وصفها فشئت أن تنقل لي »

ثم أرتني الصورة وانتظرتْ حكمي . وكانت تلك صورة كهل في الزي الألماني القديم ، تلوح على محياه سيماء التفكر والامتثال لقوة عُليا وقد بدا في هيئته وأوضاع جسمه معنى الحياة العميق فلم أرتب قط في أنه عاش يوماً ولم تبدعه مخيلة مصور. كان اللون البني القاتم متغلباً في الصورة ، على أن الجزء الخلفي استحضر مشهداً طبعياً نيراً وظهرت في الأفق أشعة الفجر الآتي . لم يذهلني من تلك الصورة شيء انما أوحت إليَّ عاطفة هادئة استطعت معها التحديق في الرسم طويلاً . فقلت : « لا صدق يفوق صدق الهيئة البشرية . وإن روفائيل نفسه ليعجز عن إبداع صورة صادقة كهذه ان لم يعش صاحبها يوماً » .

أجابت : « صدقت . أما الغرض من هذا الرسم فهاكه : قرأت وصفه فعلمت أن اسم راسمه مجهول كما جهل اسم الأصل الذي نقل عنه ، لعله من فلاسفة القرون الوسطى . فرغبت فيه ليتم به معرض الصور في غرفتي . ولما كان مؤلف « اللاهوت الألماني » مجهولاً وليس لدينا منه صورة رأيتُ أن صورةً وضعت لشخص مجهول بريشة مصور مجهول يصح أن تنوب عن مؤلف مجهول . فإن وافقت علقتها بين ألواحي ودعوتها « اللاهوت الألماني » .

قلت : « فكرة غاية في الحسن . ولكن ربما مثلت الصورة شخصاً أقوى من دكتور فرنكفورت وأعبس وجهاً » .

قالت : « ربما كان ذلك . ولكني أنا الفتاة المتألمة السائرة إلى الموت استقيت من هذا الكتاب قوة وتعزية ، ولمؤلفه عليَّ فضل كبير لأنه أعلن لي جوهر المسيحية في بساطته العجيبة . شمتُني ازاءه حرة في أن أومن أو أن أجحد لأنه لم يرغمني على أحد هذين ، وقبض عليَّ بشدة فخيل إليَّ اني ادركت معنى الوحي للمرة الأولى . وأنت تعلم انه مما يحول دون ولوج باب المسيحية الحقة ان التعاليم تبسط أمامنا كوحي علينا أن نؤمن به قبل ان

يهبط الوحي على نفوسنا . وطالما قلقت لذلك : لست أعني أني شككت في حقيقة الألوهية وفي الألوهية عقيدتنا . غير أني لم أكن لأكتفي بإيمان خلعه عليَّ الآخرون ، وحسبت أن ما تعلمته وتقبلته طفلة على غير فهم واختيار لا يستطيع أن يكون خاصتي ولي . الإيمان لا يعار واليقين لا يستعار ولا يجدي التمويه نفعاً . ولا بد من اقتناع شخصي نستند اليهِ ونتعزى به إذ لا أحد يحيا ويموت عن أخيه » .

قلت : « لا ريب أن كثيراً من المنازعات العنيفة والمناقشات الحادة ترجع إلى أن تعاليم المسيح عوضاً عن أن تكتسب قلوبنا شيئاً فشيئاً بلا إرغام كما تملكت قلوب الرسل والمسيحيين الأولين فإننا نجابهها منذ حداثتنا كنصوص كنيسية قوية لا تقبل ترددًا ولا ترضى جدالاً وتضطرنا إلى الإمتثال لأوامرها امتثالاً مطلقاً تسميه إيماناً . فلا بد من تولّد الارتياب عاجلاً أو آجلاً في كل نفس تميل إلى التأمل وتجلٍّ الحقيقة . وعندما نصل إلى تلك الخطوة من السبيل فيتيسّر لنا تحرير إيماننا المستعار المزعوم ، تنتصب في وجهنا أشباح الشك والإلحاد والكفر وتوقف فينا نموّ الحياة الجديدة » .

فقاطعتني قائلة : « قرأت حديثاً في كتابٍ انجليزي أن الحقيقة تتجلّى بالوحي وليس الوحي يتجلّى بالحقيقة . وأني لأشعر بذلك تمام الشعور لدى قراءة « اللاهوت الألماني » . قرأته فشعرت بقوة حقيقته القاهرة وأُرغمتُ على الاستسلام . أُوحيتْ إليَّ الحقيقة . بل أوحيت أنا الى نفسي ؛ وفهمتُ للمرة الأولى معنى كلمة ايمان . أصبحت الحقيقة ملكي بعد أن أطالت التملص مني لأن أقوال المعلِّم المجهول اخترقت كياني كتشعّع الضياء وأنارت خفاياي جاعلة حيرتي اقتناعاً ، وظنوني المبهمة إيضاحاتٍ جلية . فصمّمتُ على قراءة الأناجيل كما لو كانت هي الأخرى مكتوبة بقلم المعلّم المجهول ، وأبعدتُ عني ما استطعت كونها أوحيت من الروح القدسْ بأعجوبة إلى الرسل ، وأنها صودق عليها من مجامع الأساقفة والأحبار فاحتضنتها الكنيسة

باعتبار أنها الآية الفريدة العليا للدين المنقذ الوحيد . عندئذٍ بدأت أكتنه مع معنى الإيمان المسيحي معنى الوحي المسيحي » .

فقلت : « من المدهشات أن اللاهوتيين لم يفلحوا بعد في حمل البشر على جحود كل عقيدة كائنة ما كانت . ولكنهم فالحون يوماً إن لم يحتج المؤمنون بعزمٍ قائلين « لكم أن تبلغوا في شروحكم وأحكامكم هذا الحد ولا تتجاوزوه» . كل دين يحتاج إلى الدعاة ، ولكن لم يقم إلى الآن دين واحد في العالم لم يزيفه الكهنة ، سواء أكانوا براهمة أو لاما[1] أو كتبة وفريسيين . أولئك يتخاصمون موردين شواهدهم وحججهم بلغةٍ لا يفهمها من أبناء ملّتهم عشر واحد من عشرة أعشار . وعوضاً عن أن يستوحوا الإنجيل مرشدين الآخرين إلى استيحائه ترينهم يجادلون لإثبات صحة الإنجيل وعصمته لا من حيث هو إنجيل إنما لأنه دوَّنه قومٌ ملهمون . وهل يكون ذلك سوى حيلة من حيل التردُّد والقصور ؟ بأيّ حجة يثبتون إلهام أولئك الأفراد إلى تلك الدرجة العجيبة إن لم ينسبوا إلى أنفسهم إلهاماً أعجب وأدهش ؟ لا شك أنهم فرضوا هذا الاعتراض لذلك قصروا موهبة الإلهام على أكثرية من آباء الكنيسة المتألفة منهم هيئة المجامع . غير أن هذا التحديد لا يأتي بالجواب المطلوب . إذ كيف نتأكد أنه بين خمسين حبراً وأسقفاً ٢٦ كانوا ملهمين و ٢٤ لم يصلهم من الإلهام شيء ؟ يجزم المتطرفون اليائسون أنه يكفي أن يلمس الملهم يد شخصٍ ما لينتقل إليه الوحي والعصمة من الغلط ، ويوقنون أن العصمة والوحي إنما حفظا في رأس الكنيسة (أو في رؤوسها) إلى أيامنا بهذه الوسيلة . ويعتقدون أن عصمة أولئك الغرباء الذين لا نعرف منهم شيئاً تقضي على كل اقتناع صميم فينا بالبطلان ، وعلى كل استسلام مخلص بالفساد ، وتنكر كل بحثٍ من أبحاثنا إن لم يتفق مع بياناتها وأحكامها . ورغم كل ذلك يبقى السؤال القديم في انتظار الجواب : كيف يدري فلانٌ أن فلاناً ملهم

(١) « لاما » هو اسم كهنة البوذيين .

لو لم يكن له مثل ذلك الإلهام على الأقل ، هذا إن لم يحو إلهاماً أوفى وأشمل ؟ ألا يتحتم علينا حياز الوحي في أرواحنا لنكتشف آثاره عند الآخرين ؟ » .

أطرقت لمحة ثم قالت « يصعب الجواب . وطالما فكرت في كيفية استجلاء معاني الحب والتثبُّت من حقيقتها . كيف ندري أن شخصاً يحب أو لا يحب ؟ ما وجدت إشارة واحدة من إشارات الحب إلا كانت عرضة للتزوير والتقليد . فاهتديت أخيراً إلى أن المحب وحده يميِّز بين الصادق والكاذب من تلك العلامات وأنه إنما يثق من حب القلب الآخر لأنه واثق من حب قلبه . ولما كانت موهبة الحب شبيهة بموهبة الروح القدس (الوحي) كان الملهمون وحدهم إن هم سمعوا الرياح العاصفات حسبوها أصواتاً من السماء وإن أبصروا زهرات القرنفل زعموها ألسنة نارية . والآخرون يخافون ، أو يغضبون ، أو يسخرون قائلين « كلام عتيق ! أما نحن فنفوسنا ملأى بخمرة جديدة » . بيد أني أعود إلى ما أسلفت وهو أن كتاب « اللاهوت الألماني » هداني إلى إيمانٍ استخرجته من حاجات نفسي فوجدت قوتي العظمى فيما يراه غيري خطأً وعيباً ، وهو أن الأستاذ لا يبسط رأيه كقانون منظَّم بل ينثر أقواله كالزارع أملاً أن تقع بعض البذور على أرض صالحة فتتضاعف الغلة ألوفاً . كذلك أستاذنا الالهي (المسيح) لم يحاول إثبات تعاليمه بالبرهان ، لأن من حوى الحقيقة الكلية استخف بالمظاهر وأعرض عن جميع صنوف المباهاة والتعنت » .

هنا ذكرت شواهد أسبينوزا وأدلته في « أخلاقياته » وطالما فكرت في أن ذلك اللوذعي ما أكثر من شد خيوط شبكته الفلسفية إلا لشعوره بضعف مذهبه ووهنه . فأجبت محدثتي « نعم » . غير أني على ما أوحاه إليَّ « اللاهوت الألماني » من الخواطر المفيدة لا يسعني إلا الإقرار بأني لا أشاطرك كل اعجابك بهذا الكتاب . ينقصه في نظري العاطفة الإنسانية والطلاوة الشعرية ، لا سيما وأنه خلا من حرارة القلب وجحد الواقع ولم

يحترمه . روحانية القرن الرابع عشر لا تصلح عندي لأن تكون أكثر من درس نظري يتحتَّم أن تعقبه العودة إلى الحياة العملية بعزم وجرأة ، إلى تلك الحياة الواقعية التي عرفها لوثر وعالج منها المصاعب . لا غنى للإنسان عن إدراك معنى العدم ، ولو مرة في عمره ، ليعلم أنه ليس بشيء وأن أصوله بداية ونهاية ثابتة عريقة في أصل يتعالى عن المحسوس ويجلّ عن الحصر . وهذا الإتجاه نحو الله إن لم يقدنا في الحياة إلى كعبة آمالنا فهو يبقى في نفوسنا وجداً مقيماً إلى مرجعنا ومستقرنا الأبدي . ولكن البون شاسع بين هذا النوع من العبادة وبين إنكار الخليقة كما يفعل الروحانيون ، ولئن نشأ الإنسان من اللاشيء أي من الله وبه وحده ، فهو يعجز عن العودة إلى اللاشيء بقوته الذاتية . والتلاشي الروحي الذي يكثر « تاولر » الألماني من ذكره لا يفضل « النرفانا » أو الفناء النوراني الذي يقول به البوذيون . تاولر يصرح بأنه لو استطاع حباً بالله وإظهاراً لخضوعه له أن يفنى فناءً لما تردد في أن يسجد أمامه تعالى ويتلاشى في عمق أعماق الهاوية . إلا أن الخالق لم يشأ فناء هذه الخليقة التي أوجدها . وقد قال القديس أغسطينوس أنه « في اقتدار الإله أن يتجسد إنساناً وليس في مقدور الإنسان أن يستحيل إلى إلهٍ » . فلا بأس بالروحانية درساً يفيد ونظرية تنير ، بها ترهف النفس وتلطف وتزداد تألقاً . إنما ينبغي أن لا تبخر القوى والملكات على نحو ما تفعل النار بالماء الغالية في القدر . ومَن أدرك العدم في نفسه عليه رغم ذلك أن يؤمن بأن ذاته الصغيرة إن هي إلّا انعكاس الذات الإلهية الكبرى . جاء في « اللاهوت الألماني » :

« ليس كل ما تدفق من منهل الكمال بالجوهر الحق وليس له من جوهر في غير الكمال . ما هو إلا حدث أو بهاء ، أو مظهر محسوس . ليس هو الجوهر ولا جوهر له إلا في النار مبعث النور ، شأن شعاع الشمس وضوء الشمعة .

« ولئن كان ما فاض من الكيان الإلهي كلهيب النار إلا أنه لا بد أن يكون حقيقة إلهية في ذاته إذ قد يسائل المرء نفسه « وما هي النار بلا لهيب ، والشمس بلا نور ، والخالق بلا خليقة ؟ » وقيل أن الطامع في استجلاء هذه الغوامض وتفهم حكمة الله إنما رغبته هذه كرغبة آدم والشيطان .

« حسبنا علماً أننا نعكس الكائن الإلهي لنجتهد في صقل مواهبنا حتى يوم الكمال . يستحيل إخفاء النور الإلهي من نفوسنا تحت المكيال ، فلندعه إذاً يلمع ويشرق ويضيء ما يحيط بنا ويبعث فيه الحرارة ، لنشعر بأن دماءنا تطهرها نار الحياة . وإذ يحل فينا معنى قدسيّ رفيع يقوينا على اقتحام معارك العالم ، وتذكرنا أصغر الواجبات بعلاقتنا بالله ، لا يلبث أن يصبح الأرضي في تقديرنا سماوياً ، والزمني أبدياً كأن حياتنا بأكملها حياة فيه تعالى ؛ ليس الله الراحة الدائمة بل هو الحياة الدائمة . وأنجيليوس سليزيس مخطىء بزعمه أن الله لا إرادة له ، في قوله :

« نحن نصلي أيها الرب الهنا لتكن مشيئتك المقدسة ! ولكن اسمع وعِ : أيها المبتهل ، لا إرادة لله لأنه الراحة والسكون » .

كانت الفتاة تصغي إليّ بهدوء وإنتباه . فتأملت دقيقة ثم قالت « القوة والصحة ضروريتان لمن كان له مثل اعتقادك ، وفي الأرض نفوس متعبة تعاني رهقاً شديداً وتصبو إلى الراحة والطمأنينة لأن وحدتها تثقل عليها . تودّ أن يضمها السبات والسكينة إلى أحضانهما فلا يخسر العالم بذهابها ولا تأسف هي لفراقه . تلك النفوس تتعزى في هذه الدنيا بالإتحاد بالله والإستغراق في ذاته الصمدانية ، وهي تفعل ذلك بداهة إذ لا رباط يربطها بالعالم وليس لها من الأطماع ما يزعج ويقلق . فتتوق إلى الراحة وتراها ــ كما يراها الشاعر الإلماني ــ الخير الأسمى وترى الله راحة والراحة فيه . ثم أني أجدك ظالماً في نقد « اللاهوت الالماني » لأنه إن قال ببطلان الحياة الأرضية فهو لا ينـــادي بحذفهــا . ويقول في مكان آخر أن السكينة والراحة لا يلقاهما

الإنسان قبل الموت ، إلا أنه بارتقائه الروحي يصير شبيهاً بيد الله ، لا يأتي أمراً بإرادته الذاتية بل بإرادة الله ، كأنه عزّ وعلا اختاره ليسكن فيه . ويقيني أن من امتلأ بروح الله شعر بتلك الحضرة الإلهية فيه ، غير أنه يكتم هذا السر الجليل في نفسه كما يكتم العاشق عن الملا أسرار غرامه . أما أنا فطالما شعرت بأني كشجرة الحور المنتصبة أمام نافذتي . هي ساكنة في المساء لا تهتز وريْقةٌ من وريقاتها ولا يتحرك من أغصانها غصن ، وعندما يمرُّ بها نسيم الصباح فتترنح أوراقها ، يظل الجذع راسخاً هادئاً . وإذ يعود الخريف وتتناثر أوراق كانت بالأمس مفعمة حياة فيعتريها الذبول يبقى ذلك الجذع في مكانه بلا حراك مترقباً مجيء ربيع آخر ... »

لقد ألفت الفتاة هذه الحياة الروحية فمحاولة إخراجها منها إثم . أليس أني أنا أيضاً لم أفلح في التملص من هذا العالم السحري إلا بعد جهاد عنيف ؟ ومن يجزم بأنه ليس هو النصيب الأفضل الذي لا يفني وأننا لسنا بضالين نحن الذين نعدو ونكد لاقتناص منافع تحطّ منا الهمة وتذبل القلب وتقرض الروح ؟

وهكذا كان كل اجتماع يثير مذاكرة جديدة تكشف لي وجهاً مجهولاً من نفس لا تسبر ولا تحد . لم يكن حديثها سوى تفكر وإحساس ينسجان كلاماً مسموعاً بدلاً من أن يتعاقبا في وحدة الوجدان . ولم تكن آراؤها آراء بل أجزاء حية منها عاشت معها أعواماً لأنها كانت توردها بلا إجهاد ، كبنية ملأت حجرها أزهاراً وقامت تلقي بها على العشب الأخضر . كان يسوءني أن لا أفتح كتاب روحي تقرأ فيه ملياً كما أقرأ في كتاب روحها . ما أندر المحتفظ منا بفطرته الأصلية في وسط أكاذيب إتفاقية نقبلها مكرهين ، سمها ما شئت عادات ، أو أدباً ، أو تكتماً ، أو مراعاة ، أو حكمة اجتماعية ! وما أقل من يفلح في التفلت منها بين المخلصين المجاهدين ! بل ما أندر من يذكر أن حركاته إنما هي وجه عارية ، ونقاب سخرية أسدل على ملامح

الحياة ! نحن نكذب في كل شيء حتى وفي الحب ، حتى وفي الحب الذي نسكته قهراً ، وننكر عليه التنهد والتلوّي والإرتعاد ، ونحرجه إلى التواري عوضاً عن التجلي في الإشارات وتقديم النفس ضحية في النظرات ، نكذب في الحب الذي نسكته على أن يهمس في همهمة الشعراء . كم من مرة كدت أقول لها « أنت لا تعرفينني يا بنية » ولكني كنت أشعر بأن كلماتي لا تصدق الصدق كله . فعوَّلت على أن أترك بين يديها مجموعة أشعار أرنولد التي وردت إليَّ حديثاً ، وسألتها أن تقرأ قصيدة الحياة الدفينة : وكان مغزاها الاعتراف بحبي . ثم جثوت قرب سريرها وقلت « مساء الخير » . فردَّت بقولها « مساء الخير » ووضعت يدها على رأسي . فجرت في أعصابي تلك الهزة المستحبة وهبَّ ما رقد في جوانحي من تذكارات الطفولة ، ولم أعد أستطيع حراكاً بل ظللت أنظر في تينك العينين اللتين لا قرار لغورهما حتى أفاض سلام روحها على روحي سلاماً . ثم نهضت ومضيت صامتاً ، ورأيتُ تلك الليلة في أحلامي حورة طويلة تتلاطم الرياح حولها دون أن تهتز عليها ورقة أو يتحرك منها غصن .

الحياة الدفينة

النور يعلو ويغمر حروبنا الكلامية : أنظري ، ها أن عيني تراودها الدموع وأشعر بكآبة مبهمة تلتف حولي وتتمدد . أجل ، نحن نعلم أننا نستطيع أن نمزح ونعلم ، نعلم أننا نستطيع أن نبتسم ! ولكن في مهجتي حرقة لا تلطفها كلماتك الرقيقة ، ولا تسكنها منك البسمات .

أعطيني يدك وأصمتي قليلاً ، ولتستقر على عيني نظرة عينيك الصافيتين لأقرأ فيهما ، يا محبوبتي ، أيات روحك !

أواه ! هل يقصر الغرام دون فتح فؤادك واستماع صوته ؟

هل يحظر على المتيَّمين إظهار ما تكن قلوبهم ؟

كنت أعرف الناس يظنون بأفكارهم لئلاً يتلقاها الآخرون ببرودٍ وجفاء ، كنت أعلم أنهم يحيون ويتحركون مخدوعين خادعين ، متنكرين متسترين ، غرباء عن البشر ، غرباء عن ذواتهم ! إنما القلب بعينه ينبض في كل صدر بشري !

ولكن نحن ، يا محبوبتي ، أيسكت ذلك النهيُ الوهميّ قلوبنا ؟ وأصواتنا ؟ ، أيجب أن نخرس نحن أيضاً ؟ آه ! ما أسعدنا إذا حررنا قلبنا ، ولو لحظة ، وحللنا قيود الشفاه لأن السر الذي أطبقها وختم عليها تقدس في أعماقنا !

القدر الذي سبق فعلم كيف يكون الرجل طفلاً وكيف يكون زهوقاً ، وكيف تتقاذفه المطامع فيخوض ميادين الشقاق والنزاع حتى لتكادِ تتحوَّر شخصيته ، فلا يتمكن من وقاية النفس الطاهرة من تلاعب الأهواء وإن أرغمها على الخضوع لناموس الكيان ؛

ذلك القدر هو الذي يأمر نهر الحياة في صدرنا استطراد السير إلى الأمام .

فننسى حركة ذلك النهر الدفين وإن لازمناه وهو يجتاز عرض البحار وكنا مثله مسوقين على الدوام .

ولكن كم من مرة في ازدحام السيل ،

وكم من مرة في جلبة المصارعة وضوضاء التقاتل

يتصاعد فينا الشوق فننتبه لحياتنا الدفينة :

ويتيقظ لدينا احتياج لصرف نار قوانا التي لا تعرف السكون ،

ويضنينا توق إلى البحث عن أسرار القلب النابض بعنفٍ في أعماقنا لنعرف من أين تأتي أفكارنا وإلى أين تقصد !

كثيرٌ هم الذين يحفرون في قلوبهم وينبشون

لكن ، واأسفاه ! قلَّ من يشغل القلب وقلَّ من يفعمه ويكفيه !

عالجنا الحم من شؤون الحياة فأظهرنا في كل فن حذقاً ومهارة ؛

على أننا لم نكن كما نحن في ذاتنا القصوى ولم نسر في سبيلنا الواحدة سويعة ، ولم نفصح عن عاطفة من العواطف المتضاربة في صدرنا ،

وباطلاً ، حاولتْ أن تتكلم وتتحرك خلال تلك العواطف ذاتنا الخفية الصادقة !

فكانت أقوالنا وأفعالنا بليغة وحسنة ، ولكن غير صحيحة !

وإذ يثقل الألم علينا وطأة الجهاد نسأل صغائر الحياة قدرتها المدهشة للوصول إلى النسيان والسلوان فتلبي طلبنا إذ نلتجيء إليها !

ولكن رغم كل مغالبة وكل قهر تنهض ، الوقت بعد الوقت ، من عمق أعماق الكيان كما من أرض قصية مجهولة ، تنهض أصوات ملتبسة بائسة ، وتنتشر أصداء طائفة سابحة فتملأ أيامنا كآبة وغماً .

إنما وهذا نادر الحدوث ـ عندما نضم في يدنا يداً محبوبة ونقرأ بعينين يعذبهما دخان الساعات ولهيبها ، نقرأ بجلاء في عيني شخص آخر ، وتداعب سمعنا الذي أصمه ضجيج العالم نبرات صوت عزيز ـ .

إذ ذاك تنبسط الأنوار في أرجاء جناننا وتضرب من جديد نبضات العاطفة الدفينة وتستقر لواحظنا في محاجرها ،

وينفتح كتاب القلب فنعني ما نقول ، ونقف على ما نود معرفته ، ويرقب الواحد منا فيض حياته ويسمع همسها الشيّق ، ويلمس حركتها المتتابعة ، فيتمتع بالحقول اللامعة ، ويتمتع بالشمس والنسيم . وأخيراً ، أخيراً يداهم ذلك الفيض الحار هدوء حُبِس فيه الخيال المراوغ المدعو بالراحة : نسمة

باردة تهب على وجهه ، وسكون غير مرغوب فيه يهجع في صدره ؛

إذ ذاك تتخيله عارفاً آكاماً أشرقت عليها حياته وبحراً تسير إليه أعمار الأنهار .

الذكرى السادسة

في صباح الغد طُرق بابي باكراً ودخل عليَّ طبيب البلدة الذي كان بصلاحه وعنايته صديق كلّ نفسٍ فيها . شهد تعاقب جيلين اثنين من أهلها والأطفال الذين دخلوا العالم على يده وصلوا إلى دور الأبوّة والأمومة وما زال يعاملهم جميعاً معاملة الأب لأبنائه . لم يتزوج مع أنه كان حتى في شيخوخته قوياً جميلاً . رأيته مذ عرفته كما يقف الآن أمامي وعيناه الزرقاوان الرائقتان تلمعان تحت حاجبيه وشعرهُ الأبيض الكثيف يتلوّى جعدياً ، وهو يلبس الجرابات البيضاء وهذا الحذاء ذا العري الفضية ، وعلى ذراعه هذا الرداء البني الذي قضى عمره جديداً . وعصاهُ هذه الذهبية الرأس كان يحملها بعينها أيام طفولتي إذ يقف إلى جانب سريري ليجس نبضي ويصف لي الدواء . ولقد تعدّدت الأمراض في حداثتي إلّا أن إيماني بقدرةِ هذا الرجل كان كفيلاً بالشفاء ، لأني لم أشك لحظة في كفاءته وسطوته على جميع العلل . فكان قول والدتي بوجوب استدعاء الطبيب يوازي عندي قولها بوجوب حضور الخياط ليفصل لي قميصاً أو بذلةً . وما كان عليَّ إلّا أن أتناول أول جرعة من الدواء لأشعر ببدءِ الشفاء والتحسن .

دخل الغُرفة قائلاً : « كيف حالك يا صديقي الصغير ؟ أرى على وجهك دلائل التعب فلا تكثر من الدرس . ليس لديَّ وقت طويل للحديث . إنما جئتُ أقول لك أن تكفَّ عن زيارة الكونتس ماري . لقد صرفتُ الليل قرب سريرها وأنتَ علة اضطرابها فامتنع عن زيارتها إذا كانت حقيقة

عزيزة عليكَ . ستذهب هي إلى البرية قريباً وخير لك أن تسافر أنت أيضاً وتغيب مدة . والآن عم صباحاً وكن أبداً ولداً صالحاً كما هو عهدي بك » .

قال هذه الكلمات وتناول يدي ناظراً في عينيَّ بعطفٍ مستفهماً كمن يود سلب الوعد سلباً . ثم غادرني ليعود الأطفال المرضى .

أدهشني أن يهتدي غريب إلى أسرار نفسي قبل أن أكون على علمٍ تامٍ بها . غير أني لم أفكر في ذلك إلا عندما بلغ الطبيب أطراف الشارع ، فجاش قلبي كالماء طال مكوثه على النار فغلى فجأة وفار وعلا حتى ضاق عليهِ الإناء فتدفق .

كيف لا أرى صديقتي بعد الآن وأنا لا أحيا إلّا ساعة أكون بقربها ؟ سأقابلها هادئاً لا أتحرك ، وصامتاً لا أتكلم ، بل أكتفي بالوقوف عند النافذة وأنظر إليها وهي نائمة تحلم . كيف لا أراها ؟ وكيف يمكنني أن لا أراها ؟ بل كيف لا أودّعها ؟ هي لا تعلم ، ولا تستطيع أن تعلم ، أني أحبها . وأنا لا أرجو شيئاً ولا طمع لي في شيء وقلبي ينبض بانتظام في حضرتها . إنما أحتاج إلى الشعور بوجودها ، أحتاج إلى استنشاق روحها ، وعليَّ أن أزورها لأنها تنتظرني . ترى أيجمعنا القدر بلا مأرب ؟ ألست أنا تعزيتها ، وأليس أنها موضع راحتي ؟ أتدني الحياة بين روحين شأنها بذرَّات الرمل في الصحراء ثم تبعث بريح سموم فتتلاعب بضعفها وتذرها في الهواء غباراً ؟ أليس أن نفوساً سعدت بالتقارب والتفاهم تحافظ على سعادتها ، ولا تفصل بينها قوة ولو أسرفت في الدفاع والنضال وقضت في سبيل ذلك الإتصال ؟ وقد تحتقرني الفتاة إن أنا جازفت بحبها وأجفلت لأول إشارةٍ إجفال تلك الشجرة عند دويّ الرعد في الفضاء .

توقفتُ بغتةً وإذا بكلمة « حبها » تتراجع كالأصداء في جميع أنحاء قلبي مخيفةً مروّعة . « حبها » ؟ وماذا فعلت لأستحقه ؟ هي لا تعرفني إلّا قليلاً ، وإذا استطاعت أن تحبني فعليَّ مصارحتها بأني لستُ أهلاً لتلك

النعمة . وأخذتْ أفكاري وآمالي تتصاعد في جوّ نفسي ثم تهبط يائسة كاطيار تحاول التحليق في بعيد السماء وهي تجهل أن الأسلاك ضربت حولها سياجاً محكماً . إن لم تكن هذه السعادة سعادتي ، فلماذا تحلُّ على مقربةٍ مني ؟ ألا يصنع اللهُ العجائب ؟ ألا يصنعها كل يوم وكل ساعة ؟ ألم يصغ إلى صلواتي مراراً أرسلتها نحو علاهُ فعادت إليَّ تحمل مساعدة للمنكوب وتعزيةً للمضني ؟ أنا وهي لا ننشد خيراً دنيوياً ، إلا أن نفسينا المتفاهمتين تودّان عبور هذه الحياة يداً بيدٍ ووجهاً إزاء وجه ، وأن أكون أنا عضدها في آلامها وأن تكون هي تعزيتي أو حملي الغالي ، وهكذا إلى نهاية العمر . ولماذا لا يمد اللهُ بعمرها وينعم عليها من أيامها بربيعٍ بعد أوان الربيع ويبرىء سقامها ؟ آه ! يا للصور العذبة تمرُّ أمام عينيَّ ! هي تملك قصر والدتها في « التيرول » . هناك نمكث فوق الآكام الخضراء في هواء الجبال النقي بين أصحّاء لم تضعفهم المدنية ، بعيداً عن هموم العالم وجهودهِ حيث لا حاسد ولا عذول . هناك ندرك بسلام غروب الحياة فتذوب أيامنا الأخيرة رويداً رويداً كاحمرار الشفق لدى هجوم الظلام ...

تراءت لي البحيرة القاتمة بأمواجها الهادئةترجع صورة الجبال البعيدة يجلل الثلج أعاليها . وسمعت رنين أجراس القطيع وأغاني الرعاة ، وخلتُ الشيوخ والشبان متجمعين عند المساء في مدخل القرية ، وفوق هؤلاء جميعاً لمحت خيال الفتاة سابحاً كملك حب وسلام ، ورأيتُني دليلاً لها وصديقاً .

عندئذ صرخت بأعلى صوتي « يا لك من غبي ! يا لك من غبي ! أخارت قواك وذلّ شممك ، وبلغ بك الحمق والغرور هذا المبلغ ؟ ألا تيقظ وانهض ، وأذكر من أنتَ وأذكر فروقاً تحول بينك وبينها ! هي صالحة لطيفة تسرُّ برؤية نفسها منعكسة على مرآة نفسٍ أخرى . غير أن ثقتها هذه الشبيهة بثقة الأطفال ، وكيفية تصرفها معك ومعاملتها لك ، كلها تنم عن خلوّ فؤادها من عاطفة عميقة تحييك . ألم ترَ في ليالي الصيف المنيرة وأنت تائه

وحدك بين أحراج الزان كيف يسكب البدر فضيٍّ أشعته على كلّ غصنٍ وكل ورقة ، ويضيء بركة الأسماء ذات المياه القائمة فيشرق ممثلاً في كل قطرةٍ وجزء من قطرة ؟ ذاك موقف الفتاة أزاء ليل هذه الحياة ، ولئن نشرتْ في فؤادك نوراً ترتسم خلاله خطوط صورتها المأنوسة فلا ترجُ شعاعاً ، لا ترجُ شعاعاً حاراً لاذعاً ! لا ترجُ عاطفةً حارةً تشبعك وتحييك !

مثلتْ صورتها أمامي مثول الحياة ليس كذكرى بل كرؤيا ، فاستوقفني جمالها . ذلك لم يكن جمال الرونق الزاهي الذي تفتننا به الفتاة الحسناء لأول نظرةٍ ثم ينقضي ويزول بزوال الربيع . بل كان جمال الانسجام والالتئام بين أجزاء كيانها ، وجمال الحركة الصادقة والتعبير الروحي ، ومعنى السكون المقيم . أن جمال الشكل واللون الذي تمنحه الطبيعة بنات حوّاء لا يُرضي إلّا إذا أظهرت صاحبته أهليةً له بل وتغلباً عليه . وإلّا فهو يغضب ويسخط كأنه رداء ملكيّ تجرره في المرسح ممثلة ذات فنٍّ خاملٍ سقيم . الجمال الروحي هو الجمال الوحيد يمدُّ الصورة الترابية الجامدة بالحياة والمعنى ويصير المنفر جذاباً والقبيح مليحاً .

كلما أمعنت النظر في طيف الحبيبة أدركتُ منها نبل الجمال وعمق الروح كأن الوحي بذلك الجمال يهبط عليَّ بالتدريج . أواه أنها لغبطة ، أنها لسعادة تلمس يدي ! وما غاية الزمن من تعذيبي ؟ أيريني قمة الهناء ثم يلقي بي غدراً في القفار حيث الرمال المحرقة والوحدة الموجعة ؟ ما الغاية من اكتشاف كنوزٍ تحويها أرضنا هذه ؟ أليس دوام الشقاء خيراً من أن يحبّ المرء مرةً ثم يبقى إلى الأبد وحيداً ، ويرجو يوماً ليسحق اليأس قلبه دواماً ، ويلمح النور طرفه ليصرف حياته في الظلمات كفيفاً ؟ هذا ألمٌ يفوق الآلام البشرية مجموعة بتمامها .

طال تشتت أفكاري وتتابعها المشوش المختلّ ، إلى أن هدأت عاصفة شعوري وتجمعت خواطري وانتظمت قليلاً قليلاً . يسمّي الناس هذا الخمود

تفكيراً ولكن التفكير في مثل ذلك محال وما لدينا من قوة سوى الترقب والانتظار . وما هي نتيجة هذا وذاك ؟ هي تلك التي يشهدها الكيماوي بعد أن تتخذ العناصر أشكالها فيذهله أن نتائج التحليل تختلف عن مقدماته الاختلاف كله .

كذلك كانت الكلمة التي لفظتها بعد العودةمن غيبوبتي هي هذه « يجب أن أسافر » ! فجلست إلى مكتبي وكتبت إلى الطبيب أني سأغيب أسبوعين وإني أترك الأمر له . ثم انتحلت عذراً قدمته لأبويَّ وغادرت البلدة في ذلك المساء ووجهتي جبال « التيرول » .

الذكرى السابعة

ما أسعده فتى ذاك الذي جال في أنحاء « التيرول » فتسلق جبالها الشاهقة وهبط أوديتها العميقة برفقة صديق محبوب : أليس أن حظاً كهذا يبعث فيه نشاطاً ويطيل منه العمر ؟ وما أشقى ذاك الذي يجوب البراري والقفار والغابات والمدن وحده لا نديم له سوى أفكاره المؤلمة .

ترى ماذا يهمني من هاتيك الجبال المتجلية بحللها الخضراء ، ومن هذه الوهاد الغائرة السوداء ، وتلك البحيرات الزرقاء ، والشلالات المتدفقة تتكسر فيها خطوط الأنوار والظلمات ؟ عوضاً عن أن أنظر إليها ها هي تنظر إليَّ وبها ذهول لدلائل اليأس المرسومة على الوجه البشري الماثل أمامها ، وذهولها يسحق قلبي ويثقل عليَّ انفرادي إذ ليس في هذا العالم الواسع شخص يشتاق إليّ ، ويرغب فيّ ، ويؤثرني على أي أحد غيري . كنت أرقد كل مساء واستيقظ كل صباح بهذا اللهف المبرح ، كأنما هو نغمة نفذت في سمعي واحتلت ذاكرتي دون أمل في الجلاء .

دخلتُ ذات مساء إحدى الفنادق تعب النفس والجسد وجلست بين الحضور فتوجهت إليَّ أنظارهم ورأيت فيها خيال الشفقة على هذا الغريب التائه في ديارهم . فأمضّتني جراح قلبي ومضيت أسعى تحت جنح الظلام حيث لا عين ترى ولا شفيق يشفق . وعدت إلى غرفتي في أواخر الليل وانطرحت على مضجعي الملتهب مهمماً لنفسي بأغنية شوبرت المعروفة

« حيث لستَ موجوداً هناك السلام والطمأنينة » . ومرت الأيام وحالي في إزدياد حتى أمسيت لا أحتمل منظر المغبوطين الضاحكين ومشاهد الطبيعة البديعة الدائمة ، فصرت أنام ساعات النهار بطولها وأصرف الليالي متجولاً من مكان إلى مكان . إلا أن عاطفة قوية كانت تستولي عليَّ فتحول أفكاري عن مجراها وتردني إلى مخدعي ، وهي عاطفة الخوف أو إحساس الخوف ، سمِّهِ ما تشاء .

نعم كنت أخاف في تلك الليالي القمراء إذ أتسلق أكتاف الأطواد في أدغال ليس بمعروف مداها ولا منتهاها بمأمون ؛ فتتوتَّر أعصابي ويتيقظ بصري ويرهف سمعي فأرى أشباحاً بعيدة مبهمة ، وأتوجس أصواتاً ذات همس ودوي وطنين تنبعث من كل صوب ، وتتعثر قدمي في جذور انبثقت من شقوق الصخور ، هذا إن لم تزلق في عطفة بلَّت ترابها مياه الشلال ؛ فينكمش فيَّ فؤادي القانط وتهزه قشعريرة البرد وليس لديه من حرارة التذكار ما يدفئه ومن حلو الرجية ما يتعَّلل به . إن من أخذه مرةً وجلُ الليل لعالم بأنه وجلٌ يتناول النفس والجسد معاً .

لا أشك أن الخوف كان أول عذاب الإنسان يوم ظن نفسه منسياً من الله . ثم تشدد وخف اضطرابه بتعاون أبناء الله فيما بينهم وإتفاق كلمتهم على التكاتف والتضامن . وهو لا يعرف الوحدة الساحقة واليأس الصميم إلا عندما يعوزه الحب والمعونة فيخال له أنه إنما انقطع عن شركة الأحياء لأن الله هجره وأغفل وجوده . يسائل الطبيعة وعجائبها فيلقى من سكوتها هولاً لا مؤاساة ، وينقل خطواته على الأرض المتينة الصلبة فترتنح تحت وطئه وتتوارى كزبد البحر وموجه . وإن رفع بنظره نحو النور ينشره القمر صاعداً وراء احراج الشربين حسب أشعته رؤوس حراب تطعن مهج الصخور ، وخيوطه عقارب ساعة دارت دورتها زمناً ووقفت وقوفاً لا ينتهي .

النجوم تدور مسرعة في أبراجها السحيقة لا تلتفت إلى تعساء الغبراء فلا تعزية في مشهدها بل هو يزيد النفس شعوراً بالوحدة والهجران . وما من سلوى ممكنة في غير عمل الطبيعة المستطرد بدقة يشمل الموجودات بأسرها لا تشويش يزعج ذلك النظام الكامل العظيم .

هاك الشلال ، يا أيها المتأمل ! فان تدفق أمواهه أنال الجلاميد على جانبيه حياةً وكساها بطحلبٍ ذي خضرةٍ قاتمة ، وفي ظل الجلاميد تختبىء تلك الزهرة النحيفة المدعوة « لا تنسني ! » . هذه واحدة من ملايين الزهرات المنورات قرب كل ساقية وكل جدولٍ في كل روضٍ من رياض الأرض . وقد نورن في أمكنتهن مراراً عديدة منذ أن نثر الكون على الخليقة ثروة حيويته التي لا نفاد لها . أحصيت جميع الخطوط في وريقات هذه الزهرة ، وعُدَّت جميع الذرات في كأسها ، وضبطت جميع ألياف جذعها فليس من قوة أرضية مهما طغت وبطشت أن تزيد عليها أو تنقص منها فتيلاً . وإذا استعنا بالمجهر (المكرسكوب) لتبيّن عمل الطبيعة واكتشاف خفاياها في أدق أنواع إنتاجها وجدنا في أحشاء البذور الهادئة ، وفي البراعم والأزهار والأنسجة والخلايا ، الناموس ذاته متكرراً متجدداً ، ويظلُّ نظام الكون في أصغر الذرات وأنحف الألياف أبدياً لا يلمسه تغير ولا يلحق به تبديل . أنى توجهنا لقينا النظام الأوحد ، فالنفس من هذا العالم الصوري عين أحاطت بها المرايا ففقدت ذاتها في تكرار لا حد له ولا نهاية . وفي كل كائن وكل موجود يستقر الأبد الآبد الذي يختلب ذهنك إزاء هذه الزهرة النحيفة .

وهناك في أعالي الفلك تجد النظام بعينه نافذاً في الاجرام الكبرى : فالأقمار تدور حول السيارات ، والسيارات حول الشموس ، والشموس حول شموس أخرى وما السديم الخيالي السحيق إلا عالم عجائب وقدرة وجمال . ولا تفتأ هذه الكواكب العظيمة تدور في أبراجها لتُظفر الأرض بتوالي الفصول فتتمكن الزهرة من البروز والنمو ، وتنسج منها الخلايا

وتنتشر الأوراق فترصع هي وأخواتها بساط الحقول . كذلك ينفذ النظام في الفراشة المتوسدة أحضان الأزهار . فان يقظتها للوجود وتمتعها بالحياة وكيفية تنفسها ونموها لأعجب من نسيج النبات ودورة الشموس . ونحن البشر نظير كل كائن إنما يختص بنا النظام الكلي الخالد . فكم من موجودٍ انتبه من غفلة العدم وتحرك وعاش ثم اختفى غير تاركٍ لمروره من أثر !

فإذا كان الكل بموجوداته الكبيرة والصغيرة وما يدبرها من حكمة وقدرة ، إذا كان هذا الكل بأعجوبة حياته وحياة أعاجيبه صنع كائن أحد فلماذا أنت ترتعد وماذا تخشى ؟ أليس الأحرى بك أن تخر ساجداً مدركاً ضعف نفسك وعدمها ثم أن ترفع عينيك نحوه واثقاً بحبه وعطفه ؟ أليس أن فيك شيئاً أثمن من نسيج الأزهار وأعضاء الخفافيش وأبراج السيارات ؟ إذا كان ذلك ورأيت خيالك في صفحة الوجود محاطاً بتألق الكائن الدائم وشعرت بحضوره فوقك وتحتك وفي داخلك وإنما بذلك الحضور الإلهي يصبح الشبح منك إنساناً ، القلق عندك راحة ، والإنقطاع اشتراكاً ، والإنفراد واحديةً كبرى ؛ إذا كان ذلك وعرفت أنك تناجي إلهكَ إذ تصرخ في ليل الحياة البهيم «أبتِ ، فلتكن مشيئتك كما في السماء كذلك على الأرض وكذلك فيَّ ! » فكيف لا تنقشع عنك إذن غيوم الأكدار ويبزغ فجر السرور حاملاً معه تعزية ونوراً ؟ أن لك من الله يداً لا تهملك بل تظل تعضدك وتقودك عندما تهتز الراسيات وتنطفىء الشموس . حيثما حللت تكن معه ويكن معك وهو قريب اليك على الدوام . له الخليقة بورودها وأشواكها ، وله الإنسان بأفراحه وأتراحه «ولا يحدث شيء إلا بارادة الله وسماحه» .

بمثل هذه الخواطر كنت أسلي نفسي فأتقبلها تارة فرحاً وطوراً حزيناً . لأنه ان نحن بلغنا لحظة مقر الراحة والسلام القائم في غور الروح فيتعذر علينا المكث هناك طويلاً . وكثر من ينسى تلك الخلوة بعد الإهتداء إليها ،

وينسى حتى السبيل الفكري الممتد بين العالم وبينها .

انقضت الأسابيع ولم أتلقَّ من فتاتي حرفاً . فساورني همٌّ جديد إذ قلت لنفسي « ربما توفيت وهي تستريح الآن في حضن السلام الأبدي » فأقامت هذه الكلمات تحوم حول شفتي وكلما بالغتُ في ازدجارها بالغت هي في إثبات معناها .

فعلام الإزدجار وقد يكون حلَّ المقدور ؟ ألم يقل الطبيب أنها ضعيفة القلب وأنه يتوقع أن تفارق الحياة من يوم إلى يوم ؟ فهل أغتفر لنفسي تهاونها إذا غادرت صديقتي الدنيا دون أن أودعها وأبوح لها بحبي ولو في الساعة الأخيرة ؟ ألا يتحتم عليّ البحث عنها الآن لأستمع منها كلمات الحب والغفران ؟ لماذا يتردد الناس في قضاء الشؤون ويؤجلون مخيرين غبطة تتيسر في الحال ناسين أن كل دقيقة قد تكون الأخيرة وأن ما فقد من الزمن فقد فقِد من الأبدية ؟

فكرت في اجتماعي والطبيب قبيل السفر فأدركت أني لم أرحل إلّا لأثبت له أني قوي صلب الإرادة وقد عزَّ عليَّ الاعتراف بضعفي وباحتياجي إلى صديقتي . فاتضح لي الواجب في الحال وهو العودة إليها على استعدادٍ لقبول ما تبعث به إلينا السماء من فرح وترح ، وذكرت قول الطبيب بقرب ذهابها إلى البرية وقولها لي قبلئذٍ أنها اعتادت الاصطياف في قصرها في التيرول . أتكون إذن عل مقربة مني لا يفصل بيننا سوى سفر ساعات قلائل ؟ ما كاد يتضح الفكر حتى عاجلتهُ بالتنفيذ . فغادرتُ المكان عند انبثاق الفجر ووجدني الغروب أمام قصرها .

وكان المساءُ هادئاً جميلاً وقد ضرب مجد الغروب فوق قمم الجبال رواقاً عسجدياً فسبحت الهضاب في زرقةٍ ورديّةٍ ، وتصاعد من الأودية ضباب رمادي فجعل يستحيل لامعاً بملامسة الهواء المنير ، ثم اتجه نحو أعالي الجوّ كبحر ضياء متحرك . وتعدّد تلك الألوان والاعيب هاتيك الأنوار

كان يعكس على صفحة البحيرة المضطربة فتبدو فيها ذُرى الجبال مراقصةً رؤوس الأشجار وسطح الكنيسة المستدير ، وكأنَّ تلك الرسوم في الماء كانت هي بعينها الحدّ الفاصل بين عالمي المحسوس والخيال .

استقرّت عيناي على القصر القديم حيث أرجو الإجتماع بها ، ولم يكن في النوافذ نور ولا حول الجدران صوت يقلق سكون المساء . إن قلبي ليحدثني بلقياها ، أيكذبني اليوم قلبي ويخونني الرجاء ؟ مشيت متمهلاً فاجتزت الباب الخارجي ووجدتني في ساحة القصر حيث يسير الجندي الحارس ذهاباً وإياباً . بادرتهُ بالسؤال عن الكونتس فأجاب أنها في القصر . فقرعتُ جرس الدخول وانتظرت ، وفي تلك اللحظة دهشت لما أنا فاعل إذ قد يكون بين الخدم من يعرفني ، ولا أنا أجرأ على ذكر اسمي لأني قضيت الأسابيع الماضية تائهاً في الجبال وقد أهملت أمر لباسي وهندامي حتى صرت أشبه بالمتسوّلين . فماذا أقول ، وعمّن أسأل ؟ لم يطل هجسي لأن الباب فتح وظهر منه البواب في زيّ خدم الأمراء وحدّق فيَّ مبهوتاً .

سألتُ عن السيدة الإنجليزية وصيفة الكونتس فقال إنها هناك . فطلبت قرطاساً وقلماً وكتبت إليها أني قدمتُ للاستعلام عن صحة الكونتس .

فبعث البواب بالرسالة مع خادم سمعتُ وقع خطواتهِ المتباعدة في أبهاء القصر وممرّاتهِ ، وما تلاشت تلك الخطوات حتى صار موقفي لا يحتمل . فأخذت أنظر إلى ما علّق على الجدران من صور أفراد الأسرة الراحلين : فرسان تدجّجوا بالسلاح ، وسيدات ارتدين الزيّ القديم وفي وسطهنّ راهبة بثوبٍ ناصع البياض وعلى صدرها صليب أحمر . لقد رأيت هذه الصور قبل اليوم في أحوال مختلفة ولم أفكر قط أن قلوباً خفقت في هذه الصدور . وها أن ملامح هذه الوجوه تظهر اليوم كتباً ملأى بالمعاني وكأنها تقول جميعاً : « لقد عشنا نحن أيضاً وتألمنا مثلك » . نعم ، نعم تحت هذه الأسلحة دُفنت أسرار كالتي تفطر الآن حشاشتي ، وفي صدر الراهبة ذات

الثوب الأبيض والصليب الأحمر جاشت العواطف المتلاطمة الآن في صدري خيِّل إليَّ أن العيون تطلّ عليَّ من الرسوم مشفقة . ثم اختفت الشفقة وحل الكبرياء مكانها وقالت الصور وأهلها : « أنت لست منَّا » ! وكانت تمرّ الدقائق فبنمو وجلي . إلى أن سمعتُ وقع أقدامٍ خفيفة . وإذا بالسيدة الانجليزية تشير إليَّ بدخول إحدى الغرف . فنظرتُ إليها مستفسراً لأقف على ما تعرف ممَّا جرى ولكنَّ ملامحها بقيت هادئة لا يبدو عليها دهشة أو تعجّب أو أي اهتمام خاص . وقالت بصوت رزين إن صحة الكونتس في تحسن وإنها ستقابلني بعد نصف ساعة .

مثلما يأمل الغريق بالنجاة بعد يأس الموت إذ يرى نفسه آمناً على الشاطىء عقب أن تقاذفتهُ اللجج ، كذلك كان وقع هذه الكلمات في نفسي . ها أنذا أدنو إذن من حقيقة جديدة وما آلامي الماضية سوى أضغاث أحلام . قليلة هي هذه اللمحات ، لمحات الغبطة المتناهية ، في حياة الإنسان وألوف ألوفٍ من البشر لا يتذوّقون هناءها . إنما الأم التي تناغي رضيعها لأول مرّة ، والوالد الذي يذهب لاستقبال وحيده عائداً من الحرب وقد أثقلت جبهتهُ أكاليل المجد والنصر ، والشاعر الذي تعترف له أمتهُ بالعبقرية وتحييه بالهتاف والثناء ، والشاب الذي يشعر بأن يد فتاتهِ تسيل حباً في يده ، أولئك وحدهم يدركون لذة الأحلام إذا هي انقلبت حقائق .

مضى الوقت المعين فجاء الخادم وسار بي خلال غرفٍ كثيرة ثم فتح باباً فلمحتُ في نور الشفق الضئيل شبحاً أبيض أمام نافذةٍ عالية أطلّت على البحيرة والجبال المتلظية الساطعة .

ـ « ما أعجب تلاقي البشر بعد الفراق الطويل » ! سمعت صوتها العذب يلفظ هذه الكلمات فكانت كلٌّ منها برداً على قلبي وسلاماً .

فردّدتُ كلماتها قائلاً : « ما أعجب التلاقي وما أعجب الفراق » !

وأمسكتُ بيدها فأدركتُ أننا معاً وعلى مقربةٍ الواحد من الآخر .

فقالت : « إذا هم افترقوا فما الذنب إلّا ذنبهم » . قالت ذلك وصوتها المنسجم النبرات عادةً كموسيقى سماوية ، يتهدَّج قليلاً :

فأجبتُ : « صحيح . ولكن قولي لي أولاً كيف أنت ؟ هل نستطيع التكلم » ؟

فقالت باسمة : « يا صديقي العزيز ، أنت تعلم أن صحتي غير جيدة ؛ فإذا زعمتها متحسنة فعلتُ حباً بطبيبي الذي أنا مدينة لعلمه وعطفه بحياتي منذ حداثتي القصوى . وقد وقفت حركة قلبي في إحدى الليالي قبل مغادرتي المدينة فعانيت ألماً شديداً وحسبت تلك الحركة واقفة دواماً فراعهُ ذلك ولكنهُ أمر مضى فلماذا نذكره ؟ شيء واحد يؤلمني : كنت أرجو أن يعانقني الموت بلا وجع والآن أعلم أن الأوجاع ستعذبني ساعة الرحيل وتفعم تلك الساعة مرارة » . ثم وضعتْ يدها على قلبها ، وتابعتْ « ولكن ، قل أين هذه الغيبة الطويلة ؟ ولماذا قطعت عني أخبارك ؟ لقد أورد لي الطبيب جملة أسباب لسفرك الفجائي فصارحته القول إني لا أصدقه في واحد منها . فذكر لي أخيراً سبباً هو أدنى تلك الأسباب إلى الغرابة . أتعلم ما هو » ؟

فقاطعتُها خوفاً من اسمع كلمة تؤلمني وقلت : « قد يخال السبب وهمياً وهو ليس بوهميّ . وهذا مضى أيضاً فلماذا نذكره » ؟

قالت : « لماذا مضى يا صديقي ؟ عندما ذكر السبب الأخير قلت له إني لا أفهم ما تعنيان ؟ أنا فتاة عليلة بائسة وحياة جسدي موت بطيء ، وقد أرسلت لي السماء صديقين يرثيان لحالي أو يحبانني – على زعم الدكتور – فأي شيء في ذلك يقلق راحتي أو راحتهما ؟ كنت أقرأ قصائد شاعري المحبوب وردسورث قبيل محادثة الطبيب فقلت له : « يا طبيبي العزيز إن الأفكار كثيرة متنوعة والكلام المعبر عنها قليل فنُرغم على تصديق ما لا نقصد ولا يفهم

الآخرون ماذا نريد باستعمال كلمة واحدة فيؤلونها ما شاء الوهم والخيال. فلو سمع من يجهلنا أنني أحب صديقي الفتى وإنه هو الآخر يحبني لخالنا شبيهين بروميو وجولييت، ولو كان الأمر كذلك لوافقتك على وجوب ملاشاته. ولكن أليس انك تحبني أنت أيضاً يا طبيبي الشيخ كما أحبك؟ ولقد أحببتك أعواماً طوالاً ولا أدري هل بحت لك بذلك قبل الآن. فما أنا بيائسة ولا أنا بشقية. وأقول لك أنك خصّصتني بمودةٍ شديدة وإنك تغار من صديقي الفتى. ألا تأتيني كل صباح متفقداً حالي وأنت تعلم أنه لم يجدّ شيء؟ ألا تقدّم لي أجمل أزهار حديقتك؟ ألم تحملني على إهداء صورتي اليك؟ وهناك أمر آخر قد يحسن كتمانه، ألم تدخل عليَّ يوم الأحد الماضي فجلستَ قربي وأنتَ تحسبني مستغرقة في النوم، وحدّقت فيَّ طويلاً فكانت نظراتك كأشعة الشمس تلثم وجهي ثم بكيت وأخفيت وجهك براحتيك وقلت بصوت يقطعه الشهيق «ماري! ماري»! آه، يا طبيبي العزيز! صديقنا الفتى لم يأت أمراً كهذا فلماذا أقصيته عـني»؟ قلت ذلك بلهجة جمعت بين الجد والمزاح كما اعتدت مخاطبته فتورّد وجهه خجلاً وأسفت لإيلام عواطفه. ثم أخذت كتاب وردسورث وقلت «هذا رجل آخر أحبه بكل قلبي، أفهمه ويفهمني مع أني لم أره في حياتي. وأريد أن أتلو على مسامعك إحدى قصائده لتعلم كيف يحب البشر ويَحبون وإن الحب بركة إلهية ينزلها المحب على المحبوب فيفرش طريقهُ بالورد والرياحين». ثم قرأت له قصيدة «فتاة الجبال». والآن يا صديقي الصغير، ادن السراج واتلُ لي هذه القصيدة ذات المعاني المنعشة. إن روح الجمال الخفية تلامسها كما يلامس إحمرار الشفق رؤوس الجبال المكللة بالثلوج البيضاء».

تكلّمتْ فصارت عواطفي هادئة رضية جليلة. انتهت العاصفة وانعكس طيف البنية كصفحة البدر على بحيرة حبي، بل على بحر الحب الشامل الذي يدّعيه كلٌّ لنفسه بينا هو ينتشر في كل مكان لأن منه حياة بني الإنسان.

الحب بحر الحياة الهادىء الثائر معاً في كل قلب ، المفرِق بين القلوب والجامع بينها بعاطفة واحدة وولهٍ واحد . وددت أن ألزم الصمت كالطبيعة المنبسطة أمامنا . غير أن الكونتس دفعت إليَّ الكتاب فقرأت : ـ

فتاة الجبل

« يافتاة الجبال العذبة ، جمالك هو غناكِ الوحيد : أربعة عشر ربيعاً سكبتْ على وجهك بهاءها فحسبك هي ثروة وجاهاً..

« هذه الصخور الرمادية ، وتلك الأشجار الشبيهة بستار أسفر عن نصف وجه السماء ، وذياك الشلال المهمهم في أذن البحيرة المنصتة ، وذيالك الخليج الصغير ، وهذه الطريق الضيقة المؤدية إلى مسكنك ، جميعها تخال مرسومةً بخطوط الأحلام وألوانها . وأنا أباركك من أعماق قلبي ، يا فتاةً يبعث جمالها في هذا النور الأرضي نوراً سماوياً .

« ليكن الله عونك حتى اليوم الأخير ! أنا لا أعرفك ولا أعرف ذويك على أن العبرات تجول في عينيّ . سأذكرك في صلواتي بخشوع بعد ذهابي لأني لم أر حتى اليوم وجهاً كوجهك بدت فيه الرقة في حشمة واللطف في طهر تام .

« تعيشين هنا بعيداً عن البشر كبذرة قذفت بها يد الصدف ، فلا ترخين أجفانك خجلاً ولا ترتدي ملامحك إحمرار الحياء . على جبهتك تتجلّى حرية أهل الجبال وصراحتهم ، وفي ابتسامتك يبسم الجود والحنان ، وعطفك يتدفق تدفق خواطرك المنعتقة من ذهنك رغم قيود جهلك وعلى قلّة متاعك اللفظيّ . قيود تشعرين بها وتجاهدين في التغلب عليها فتجيء إشارتك مفعمة نشاطاً ولطفاً معاً . كذلك رأيت مرة أطياراً تصفق بأجنحتها لمكافحة العاصفة .

« كل يد تقطف لك الأزهار ، أيتها الحسناء ، فيا سعد من عاش قربك في وادٍ صغير كثيف الشجر كثير الزهر ، يلبس كملابسك ويرعى الأغنام مثلك ! وهناك أمنية خير من هذه : ولكن ـ

« أنت موجة من البحر الإنساني العجيب . ليت لي بعض السلطة عليك وليتني من جيرانك لأتمتع بصوتك وأهنأ بمرآك ! بل ليتني أخوك الأكبر أو أبوك أو أي واحد من أقاربك !

واني لأحمد السماء التي قادتني إلى هذا المكان المنفرد حيث عرفتُ السرور . سأذهب حاملاً معي الجزاء لأن للذاكرة ميزة كأنها ميزة النظر . فلماذا أكره الإبتعاد ؟

« وها أني أفرح وأتألم في آن واحد لفراقك ، يا فتاة الجبال الحلوة ! وسأحفظ أبداً في ذاكرتي هذه المشاهد البهية حية كما أراها الآن ، كوخك الحقير ، والبحيرة ، والخليج ، والشلال لا سيما أنت الروح المحيية جسم هذا الجمال » .

وكانت معاني القصيدة تهبط على روحي كقطرات الندى . وإذا بصوتها العذب يتصاعد كنغمة الأرغن تنبه المصلّي من تأملاته العميقة ، فقالت :

« هكذا أريد أن تحبني يا صديقي ، وهكذا يحبني الطبيب ، وعلينا أن يحبَّ بعضنا بعضاً هذا الحب وأن يثق الواحد بالآخر هذه الثقة . وعلى قلة اختباري أظن أن العالم لا يفهم هذا الحب فجعل بنو الإنسان هذه الأرض صحراء يقطنها القحط والكآبة . لا بدّ أن الحال كانت على غير ما هي في غابر العصور وإلّا لما حدَّثنا هوميروس عن نوزيكا ذات القلب الحساس . أحبت نوزيكا أوديسفس للنظرة الأولى فأسرّت إلى صويحباتها « حبذا الإقتران به ! وليت المقام بيننا يطيب له » ! ولكنها خجلت أن تسير مع غريب لهُ هذا الجمال الباهر لئلا يقال إنها بحثت عنهُ . فما أبسط هذه الحكاية

وأقربها إلى الواقع ! وعندما قيل لها بوجوب رجوعه إلى زوجته وولده لم تتذمَّر ولم تشكُ بل امتثلت واختفت ، ونحن القراء نشعر بأنها حملت أبداً في فؤادها صورة ذلك الغريب القويّ الجميل . لماذا يتجاهل شعراؤنا هذا الحب الصادق وهذا الفراق الهادىء ؟ أما الشاعر العصري فيخرج من نوزيكا حبيبةً لفرتر لأن الحب لم يعد سوى مقدمة لمأساة الزواج . أهذا هو الحب دون سواه ؟ هل جفّت ينابيع السعادة الطاهرة ؟ ألا يريد الناس أن يعرفوا من الحبّ غير الخمرة المسكرة ليتجاهلوا ينبوعه العذب الشافي الظمأ » ؟

فأردت تعزيز كلامها واستشهدتُ بالشاعر الإنجليزي القائل « ألا يحق لي أن أبكي لما فعل الإنسان بالإنسان » ؟

فقالت : « ما أسعد الشعراء ! كلماتهم تنطق العواطف الخرساء في في ألوف القلوب وتنشد الأصوات أناشيدهم لإظهار أسرار الجنان . فؤادهم يخفق في صدر الغني والفقير على السواء فيطرب معهم السعداء ويبكي التعساء لبكائهم . غير أن وردسورث أحبُّهم إليَّ : من أصدقائي من ينفي عنه الشاعرية . أما أنا فأحبُّ منهُ أعراضه عن الاستعارات العادية ، وتجنبه الغلوّ والمبالغة وما يسمونه « الطيرة الشعرية » . هو صادقٌ وأيّ ميزة توازي هذه ؟ هو يفتح عيوننا على الجمال المنثور تحت أقدامنا نثر زهرات الأقحوان في الرياض والمروج ، ويسمي الأشياء بأسمائها ، ولا يحاول إذهالنا وتغريرنا بل يرغب في اظهار الموجودات يزينها جمال الطبيعة قبل أن تشوهها يدُ الإنسان . أليست قطرة الندى على الحشيش الأخضر أتم بهاءً وأوفى ثناءً من لؤلؤة ثمينة صيغت في قالب الذهب ؟ أولـيس الينبوع المتدفق من صدر الأرض أجلّ وأبدع من مياه فرساي الاصطناعية على الإطلاق ؟ أليست قصيدة « فتاة الجبال » ألطف وأصدق من « هيلانة » جوتي و« هايدي » بيرون ؟ إني آسفة لعدم وجود من يماثل وردسورث في جلاء الفكر وسذاجة

التعبير بين شعرائنا . قد كان يشبههُ « شلر » لو أنهُ استوحى خفايا نفسهِ بمثلما استوحى تاريخ اليونان والرومان ؛ كذلك « روكرت » قد كان يدانيه لولا أنه آثر عيشة الرغد والرخاء بين ورود الشرق على سكنى وطننا الفقير . قلَّ الجريء من الشعراء الراضي بنفسه ، المقدم على إظهارها مجرَّدة من الزوائد : ووردسورث ذلك الشاعر . وكما نستمع برضىً إلى أعاظم النوابغ حتى عندما لا يكونون أعاظم أملاً في مشاركتهم في الشعاع الساطع المُنزل إليهم من شمس اللانهاية كما شاركناهم في أفكارهم العادية المألوفة ، كذلك أحبّ وردسورث ونَفْسَه حتى في القصائد التي لم تضمن فكرة مستحدثة . لا بدَّ لكبار الشعراء من نوبة راحةٍ يغيب فيها عنهم الوحي والبيان الخلّاب . فقد نقرأ عند هوميروس عشرات الأبيات لا تزينها لمحة جمال ؛ وكذلك دانتي . بينا بندرس الذي يستفزّ إعجابكم جميعاً يضعف احتمالي وينفد صبري بدوام ذهولهِ وافتتانهِ . إني لأضحّي أثمن ما لديَّ لأتمكن من الاصطياف على شاطىء البحيرات حيث يقيم وردسورث فأزور معه الأمكنة التي أحبّ ووصف ، وأحيّي الأشجار التي حماها من ضرب الفؤوس ، وأرقب قربهُ غياب الشمس الذي أبدع في تصويره بالألفاظ إبداع مصوّرنا « ترنر » في تمثيله بالألوان » .

لم يكن صوتها ليهبط شأن الأصوات الأخرى في نهاية الخطاب بل كان يرتفع ويقف على نبرة استفهام ، كأنها الطفل القائل « أليس كذلك ، يا أبي » ؟ كان ذلك الصوت يصعد نحو مخاطبها بدلاً من أن يهوي عليه ، تمازجه انه توَسُّلٍ تجعل مخالفتها أمراً عسيراً .

فقلت : « وردسورث عزيز عليَّ شاعراً وعزيز رجلاً . الأفكار في شعره آكام صغيرة نتسلقها بلا تعب بينا هي عند غيره جبال باذخة محفوفة بالصعاب والأخطار . لم أكن أكترث له في البداية حين كان يذهلني أن يعجب به أكبر عقول انجلترا الحديثة هذا الإعجاب العظيم ؛ ولكني اقتنعت

بالتالي أن شاعراً تنظر إليه امته نظرة الإكبار وتنزله من تقديرها تلك المكانة لجدير بأن يُدرس ويستقصى ، وإنما تجاهل وجوده خسران للمتجاهل . الإعجاب فنٌ لا يكتسب بلا دراسة وتمرين : فمن الألمان من لا يذوق راسين ، ومن الإنجليز من لا يفهم جوتي ، ومن الفرنسيين من لا يرى في شكسبير إلّا فلاحاً خشناً . وما مغزى ذلك ؟ مغزاه أن طفلاً غريراً يفضل موسيقى الرقص على إيقاعات (Symphonies) بتهوفن ذات الفخامة والجلال . فن الإعجاب الصميم قائم في اكتشاف أرواح الشعوب والتعمق في دراسة كتب تكبِّرها الأمم ، ومن بحثَ عن الجمال عثر عليه وعلم أن الشعوب لا تعظم من نوابغها إلّا من كان حقيقاً بالإعجاب ، وأن الفرْس لم يكونوا مخدوعين في حافظهم ، ولا الهنود في كاليدازا . لا يفهم الرجل العظيم من المجابهة الأولى ولا يوصلنا إلى اكتناهه غير المثابرة والنصَب والعمل . ومن الغريب أن ما يرضينا لأول نظرة لا يطول استحساننا له » .

فقالت : « ولكن هناك سراً يشترك في كتمانه وإذاعته معاً جميع الشعراء وجميع الفنانين وجميع أبطال العالم سواء أكانوا فرْساً أو هنوداً أو رومان أو ألمان وأكاد لا أدري كيف أصفه : هو فكرة اللانهاية المنبسطة أمامهم ونراها نحن خلال كلامهم وآثارهم . هم يقرأون ما لا نقرأ في كتاب الأبدية ويؤلهون الأشياء التي نزعمها صغيرة زائلةً . أما سمعت غوتي ذلك الوثني الصميم منشداً كيف يؤلّه « السلام العذب النازل من السماء » حيث يقول :

« انتشر السلام على الهضاب :
وبين رؤوس الأشجار الباسقات
لا أثر لهبوب النسيم .
وصغار الطير نائمة في الغاب

فانتظر قليلاً ، عما قريب
ترتاح أنت كذلك »

عندما نسمع أو نقرأ هذا ألا نرى أشجار الصنوبر ووراءها المسافة الفيحاء انتشرت فيها راحة لا تستطيع الأرض أن تنيلنا إياها ؟ فكرة اللانهاية تجدها أبداً في قصائد وردسورث ، وذلك السر الكامن وراء الألفاظ والاسجاع والأوزان هو هو الذي يحرك القلب دون غيره . من ذا الذي فهم الجمال الأرضي أكثر من ميكلانجلو الطلياني ؟ ولكنه فهمه لأنه علم أنه انعكاس الجمال السماوي . ألا تذكر موشحة لحبيبته فيتوريا كولونّا : ـ

« قوة الوجه الجميل تدفعني نحو السماء
ولا أرتاح على الأرض إلى وجه سواه ؛
وبه أحيا متعالياً بين الأرواح المصطفاة
وهي موهبة قلّ أن يتمتع بها الإنسان الفاني »

●

« ومع المبدع الذي أبدع صنعها ،
وبنعمته وبمساعدته أرفع إليه خواطري
وأوقع على إنسجام صنيعه أفكاري وأعمالي
لأحب بحرارةٍ امرأة مليحة

●

وإن قصرت دون تحويل نظري
عن عينيها الجميلتين المتألقتين
بنور يدلني إلى سبيل الله ؛
إن قصرت وأحرقني اللهيب علمتُ

ان تلك النار النبيلة المتأججة في قلبي
إنما هي انعكاس الشعاع السامي
الساطع أبداً في ديار المجد والخلود »

بدت عليها آثار التعب فأحجمتُ عن الكلام فاحترمتُ سكوتها. إن قلوب الناس تميل إلى الصمت بعد تبادل الأفكار القيّمة، ويخيل أن الملائكة ترفرف فوق رؤوسهم. نعم خيل إليَّ أن أجنحة ملائكة الحب والسلام تخيِّم في تلك الغرفة. نظرتُ إليها فبدتْ بثوبها الأبيض كالرؤيا تتجلى في الشفق العابس وإنما يدها المستسلمة في يدي أثبتت لي حضورها الحسي. وأرسل الغروب المودع على محياها شعاعاً باهتاً ففتحت عينيها وحدقت فيَّ مدهوشة مستفسرة. فسطع نور عينيها العجيبتين كبرق خاطف بين أجفانها الوطفاء. وإذا بالبدر صاعداً بين الجبلين المقابلين يسكب ابتساماته على القرية الصغيرة والبحيرة الهادئة. لم أر حياتي مساء أبهى من ذلك المساء ووجهاً أجمل من ذلك الوجه ـ وجه الحبيبة كما كان في تلك الساعة. فشعرتُ بموجة حب تطفو فوق قلبي فقلت ثملاً « ماري! دعيني أعترف لكِ بحبي أنا بهذا الفتون! ألا تشعرين معي بقربنا الآن من السماء؟ ألا فلتتحد نفسانا بقوة لا تسطو عليها قوة! دعيني أفضي اليك بحبي. إني أحبك يا ماري كائناً الحب ما كان، وأشعر بأنك لي لأني لكِ ».

جثوتُ قربها ولم أجرأ على النظر إلى عينيها. فسحبت يدها من يدي متمهلة مترددة في البدء وبالتالي مسرعة مصممة. فرفعتُ طرفي إلى وجهها فرأيت عليه أمارات الألم. وبعد سكوت طويل تململتْ وزفرتْ زفرة عميقة وقالت: « كفى، لقد آلمتَني، على أن الذنب ذنبي والتبعة عليَّ. أقفل النافذة لأني أحس ببرد قارس كأن يداً غريبة لمستني. ابق معي ـ لكن لا، أذهب. وداعاً، ونم نوماً هادئاً وابتهل إلى الله أن يشملنا برعايته. سنجتمع مساء غد، أليس كذلك؟ ».

أواه ، أين ذهب الهناء وكيف ولّت الطمأنينة ، خرجتُ من الغرفة وبعثتُ بالسيدة الانجليزية إليها وهمتُ في الظلام . مشيتُ طويلاً على شط البحيرة وعيناي يرقبان نافذة الغرفة التي ضمتني وإياها منذ حين . أخيراً خبتْ جميع أنوار القصر وتوسط القمر كبد السماء وسقطت أشعته عمودياً على الأرض فبدت خطوط الشرفات والجدران من ذلك القصر كأنها أُضيئت بفانوس سحري . وبقيتُ وحدي في الليل الأدهم : أفكاري موجعة ، وقلبي سقيم ، ونفسي منفردة لا يحبها ولا يريدها في العالم أحد . شمت الأرض نعشاً والسماء كفناً يدور حولي ولم أدر أحيٌّ أنا أم ميت قضى منذ زمن بعيد .

وإذ أطلتُ النظر إلى النجوم ذات المقل اللامعات ، وهي تتم دورتها بانتظام حسبتها منثورة في الفضاء لتنير القلوب المظلمة وتعزي النفوس الآيسة . إذ ذاك فكرتُ في نجمين سماويين أشرقا من عيني الكونتس ماري على أفقي الحالك السواد وسجدتْ في فؤادي عاطفة الشكر والحنان لفتاتي العذبة وملكي الحارس الأمين .

الذكرى الأخيرة

كانت الشمس مشرقة على رؤوس الجبال وقد دخلت أشعتها من النافذة ساعة استيقظتُ من رقادي . أهذه هي الشمس التي شيعتها البارحة بنظرات الرجاء والغرام عندما انبسط قرصها كيدِ صديقٍ يبارك إتحاد قلبينا ، ثم هبطتْ وتوارت كمضمحلّ الآمال ؟ ها هي الآن مشرقة تأتي إليَّ كطفل يهنئني بعيدٍ ميمون . لقد عادت إليَّ حيويتي المعتادة وتنبهت فيَّ الثقة بالله وبنفسي ، ترى أأنا هو ذاك الفتى الذي انطرح على الفراش منذ ساعات قلائل مضني الجسد خائر الروح ؟

ما حالنا لولا سنَة الكرى ؟ نحن نجهل إلى أي العوالم يمضي بنا هذا الرسول الليليّ حينما نستسلم له بعيون مغمضة وليس من يتكفل بفتحها في الغد ليعيدنا إلى يقظة العمر . لقد تعلق الإنسان بأهداب الشجاعة والإيمان يوم تلقّاه الصديق المجهول فنوّمه النومة الأولى ، ولولا ما فطرنا عليه من ثقةٍ وإمتثال لأبى الواحد منّا ، رغم التعب والنصَب ، أن يغمض عينيه بمحض إرادته ويدخل مملكة النوم . إنما هما الضعف والشقاء تشتد علينا وطأتهما فنلجأ إلى قوةٍ عليا ونرضخ للنظام البديع النافذ في جميع الكائنات ، فنسعد إبان الرقاد بحل الروابط التي تقيد ذاتنا الأبدية الخالدة بذاتنا الأرضية الزائلة .

كل ما جرى بالأمس وكان في ذهني مبهماً كضباب المساء أصبح الساعة جلياً . شعرت بتقاربنا الواحد من الآخر كأننا أخ وأخت ، أو أب وإبن ،

أو خاطب ومخطوبة ، وأننا لا يحول بيننا إنفصال . بحثت عن معنى ما يدعوه البشر « حباً » ووددت ، كالشاعر ، أن أكون أخاها أو أباها أو أي قريب لها . وددتُ أن أهتدي إلى اسمٍ يعرفني الناس به عندها لأن العالم ينكر من لم يحمل اسماً وكنيةً . هي قالت أنّها تحبني حباً طاهراً يكنهُ قلبها للنوع الإنسانيّ بأسره وهو مصدر كلّ صنوف الحب . غير أنها خافت وتألمت لسماع اعترافي ، وهذا الألم وذاك الخوف اللذان أتعساني البارحة هما اليوم في عينيَّ حجةٌ راسخة على عاطفة تخصني بها . لماذا نحن نسعى في تفهم نفوس الآخرين ونفوسنا مغلقة على بحثنا ؟ ولماذا يستأسرنا ما لا نحسن تمييزه في الطبيعة والأفراد والقلوب ؟ أما الأشخاص الذين نعرف منهم جميع الحركات النفسية والبواعث الفكرية فلا ننفعل بتأثيرهم ولا نعيرهم التفاتاً ، ولا شيء يكلح البهجة والرونق من محيًّا الحياة كزعم أولئك الماديين الذين يشرّحون المعاني ويحللونها تحليلاً علمياً لينفوا عجائب النفوس وأسرار الأفئدة . إن في كل كائنٍ غموضاً يستحيل إدراكهُ ويتعذر تعريفهُ : أهو إلهام ، أو قدَر ، أو خلق ؟ لا الفرد يعي معنى ذلك الغموض المستتر فيه ولا اهتدى الباحثون إلى تفسيرٍ مقنع مرضيّ . وهكذا كل ما حملني بالأمس على القنوط صار اليوم ينبوع أمل . وما زلتُ بقلبي أعللهُ حتى تبدَّدت الغيوم من جوّ مستقبلي السعيد .

خرجتُ إلى الهواء الطلق وإذا برسول يحمل من الكونتس كتاباً . عرفتُ خط يدها الجميل الرزين فرجوت في تلك اللحظة أعز ما يرجوه العاشق . ويا لسرعان ما خابت آمالي ! سألتني في الرسالة أن لا أزورها بعد الظهر لأنها تنتظر ضيوفاً من المدينة ، ولم تخط كلمة مودة أو كلمة تطمين ، وإنما أضافت حاشية معناها أن الطبيب يأتي غداً فاللقاء إلى بعد غدٍ .

يومان يمزقان من كتاب حياتي ! ويا ليتهما لم يكونا فلا احتملهما فوق رأسي كسقف سجن مظلم . عليَّ أن أصبر عليهما ولست مخيراً في

التصدّق بهما على ملك عوجل بالخلع عن عرشه ، أو في التبرّع بهما لمتسوّلٍ يدور حول أبواب المعابد . أطرقتُ وطال اطراقي ، فذكرتُ صلاة الصباح لأن اليأس أحوج ما يكون إلى الإيمان ، وكالفارس يرى الهوة أمامه فيُحكم شدَّ اللجام ، قلت « فليكن ما لا مناص منهُ ! ولأقبلنهُ طائعاً دون تذمّر فالله لم يخلقنا للغمّ والمراثي » .

ولماذا لا اتعزى بهذه السطور التي خطتّها يدها ؟ ولماذا لا أتعزى بأمل الإجتماع القريب ؟ سل من عالج السباحة يشرْ بوجوب رفع رأسك فوق الأمواج ، وإلا فاغطس ولا تدع من فمك وعينيك للماء سبيلاً . إن لم ترضنا الحياة كواجب فلنقبلها ونعالجها كفنٍّ . كلنا هنا أطفال ، ولكن ما أغباه طفلاً يستسلم للغضب أو يركن إلى العبوس كلما شعر بألمٍ أو حبط له مسعى ! وما أحبهُ طفلاً إن بكى ظلت شمس السرور مشرقة في عينيه شروق الزهرة الناضرة وراء غيث نيسان ، فلا يطول حتى تنفتح أوراقها ويفوح طيبها لأن حرارة الشمس تمتص عنها قطرات المطر .

وعادت إليَّ خاطرة فبدأت انفذها : ذاك أني طالما تمنيتُ تدوين كل كلمة سمعتها منها وإثبات ما ائتمنتني عليه من جميل الآراء . وها قد حان الوقت الملائم . فصرفت اليومين مستحضراً ساعات اللقاء محيياً آثارها . وكنت قريباً منها شاعراً بحبها كأني ممسك بيدها .

وما أغلى تلك الصفحات لديَّ ! كم من مرةٍ قرأتها وأعدتُ قراءتها ! هذه شهود سعادتي الغابرة ، يطلُّ من بين سطورها عليَّ وجهٌ معروف وينظر إليَّ صامتاً وسكوته أفصح من الفصاحة . يتلو عليَّ ذكريات الأسى والهناء فيرجعني إلى الماضي وانطرح على مجموعة حوادثه كالأم على ضريح ولدها الميت منذ أعوام ولا رجاء لها بضمةٍ إلى صدرها مرةً أخرى ، هذه العاطفة نسميها حزناً ، ولكنَّ في الحزن غبطةً يعرفها الذين أحبوا كثيراً وتألموا كثيراً .

سل الوالدة عمّا تشعر به عندما تسدل على وجه ابنتها العروس نقاباً لبسته يوم زواجها ، مفكرة في زوجها الذي أخذته المنية فحرمتها منه . سل الشاب عما يشعرُ به أزاء وردة ذابلة جاءته من حبيبته المتوفية وكان أهداها إليها قبل أن يفرق بينهما العالم . كلاهما يبكي وليست دموعها دموع فرح ولا دموع ترح ، بل هي دموع ضحية قدّمت آلامها إلى الله بخوراً بعد فناء الآمال ، وقنعت بالإيمان والثقة بحكمته غير المتناهية .

ولنعد إلى التذكارات التي تجعل الماضي حاضراً : انقضى اليومان وجوانحي تختلج حبوراً كلما ولّت ساعة فآذنت بقرب اللقاء . وقد كثرت المركبات في اليوم الأول وجاء الفرسان من المدينة فامتلأ القصر بالضيوف والزائرين وخفقت فوق قببه الألوية وصدحت الموسيقى في ساحاتهِ . وعندما أرخى الظلام سدوله أزدحمت الزوارق والقوارب في البحيرة وتردّدت على صفحة الماء أصداء الأناشيد والأغاني . فأطلتُ الإصغاء لعلمي أنها هي الأخرى مصغية من نافذتها . وظلت الحركة والجلبة في القصر إلى ما بعد ظهر اليوم التالي حيث عاد الضيوف أدراجهم ، وآخر مركبة عادت في المساء إلى المدينة كانت مركبة الطبيب .

عندئذٍ ضاق صبري وفكرت « ها هي وحدها ، أشعر انها تفكر فيَّ وتتمنى وجودي معها . أأترك ليلة أخرى تمرُّ دون أن ألمس يدها فرحاً بانتهاء الفراق وابتداء التلاقي الجديد؟ أرى في نافذتها نوراً فهل أدَعْها هناك بلا رفيق؟ ألا يصحّ أن أتمتع ولو هنيهة بحضورها العذب »؟ وجدتني فجأة أمام بابها وقد ارتفعتْ يدي لقرع الجرس . فتوقفتُ قائلاً « ألا سُحقاً للضعف والتبذّل ! إن أنا دخلت عليها الآن وقفت أمامها خجلاً كسارق يتوارى بالظلام . سآتي إليها صباح غدٍ ، سأعود إليها كبطل استحق أن تضفر لجبينهِ أكليل الحب .

جاء الصباح وذهبت إليها . أواه ! لا تقولوا ، أيها الروحيون ، ان

الروح تحيا بلا جسد ! الحياة الحقيقية والسعادة التامة لا يجتمعان إلّا حيث يتوحد الروح والجسد فيصيران روحاً جسديةً وجسداً روحياً . الروح بلا جسد شبح ، والجسد بلا روح جثة . وهل تخلو زهرة الحقل من الروح ؟ أليس إنها تبرز بقدرة الفكر الباري الذي ينيلها الحياة والجمال ؟ ذلك الفكر هو روحها ولكنهُ أبكم فيها بينا هو ناطق في الإنسان . الحياة الحقيقية حياة الروح والجسد معاً ، والإجتماع الحقيقي إجتماع الأرواح والأجساد جميعاً . أما العالم الذي عشت فيه سعيداً يومين كاملين فقد اضمحلَّ الآن كالخيال ، أو كتنهد العدم ، لأني الساعة أراها بالروح والجسد .

تمنيت أن أضع يدي على جبهتها وألمس أجفانها لأتثبت من وجودها بالذات وليس بالصورة الحائمة حول روحي ليل نهار ، بل كشخصٍ غير شخصي يحبني ويتوق إليَّ ، شخص أثق به ثقتي بنفسي ، بعيد عني إنما أقرب إليَّ من نفسي وبدونه ليست حياتي بالحياة ، ولا موتي بالموت ، وما أنا سوى لهاث ضائع في الفضاء غير المتناهي .

استقرّت عليها طويلاً أنظاري وأفكاري فشعرت بتكامل الحياة فيَّ ولم يعد يرهبني الموت لأنه لا يقوى على إفناء هذا الحب العظيم إنما هو يكسبهُ متانةً ونبلاً .

ما أعذب السكوت قربها وقد تجلت نفسها في وضع أعضائها ومجموع هيئتها وتتابعت السرائر في عينيها ! بقيتُ صامتاً وشيءٌ فيَّ يصغي كأني سمعتها تهمس في قلبها « انك تؤلمني » . ثم بعد هنيهة « هل اجتمعنا مرّة أخرى ؟ كن هادئاً ولا تيأس ، لا تسل ولا تستفهم ، إني أرحب بك فلا تسخط عليَّ » . كل هذا قرأته في عينيها ولكنها لم تتلفظ بكلمة منهُ . وفتحت شفتيها أخيراً وقالت بصوتٍ متهدج : « ألم يصلك كتاب من الطبيب » ؟

أجبت « كلا »

فقالت : « الأفضل إذن أن تسمع الخبر مني . أعلم يا صديقي أننا

نلتقي اليوم للمرّة الأخيرة . فلنفترق بلا تذمر . لقد أسأت اليك عن جهل إذ كيف أعلم أن للنسيم العليل من القوة ما يسقط عن الزهرة وريقاتها ! كنت قليلة الخبرة فلم أتوقع أن توحي إليك فتاة بائسة نظيري سوى عواطف الرحمة والإشفاق . ولقد أنزلتك على الرحب والسعة لأنك صديقي منذ أعوام طويلة ، وسعدتُ بلقياك ، لماذا أخفي الحقيقة ؟ لأني كنت أحبك . إنما المجتمع لا يفهم هذا الحب ولا يسمح به . لقد فتح الطبيب عينيَّ وأخبرني أن حكايتنا شائعة تتفكّه بتفاصيلها أندية المدينة ، وكتب إليَّ أخي الأمير يسألني أن أقطع كل علاقة بيني وبينك . إن أسفي لألمكَ شديد . ولكن قل إنك تعفو عني ، ولنفترق صديقين كما التقينا » .

قالت هذا وأسبلت أجفانها لتخفي عني دموعها . فأجبت : « لي يا ماري حياة واحدة وهي قربك ، وإرادة واحدة وهي إرادتك . أحبك بحرارة الحب وحرقته ، ولكني لست أهلاً لك . أنت أرفع مني مقاماً وشرفاً وطهراً فكيف أرجو أن أدعوك يوماً زوجتي ؟ وليس ثمة من وسيلة أخرى لنسير معاً في سبيل الحياة . ماري ، أنت حرة وأنا لا أريد أن تضحي لأجلي شيئاً ما . العالم واسع وإن أردت الفراق فلن نجتمع . ولكن إذا شعرت بحب لي وبأنك خاصتّي فاعرضي عن المجتمع وانسي أحكامه البلهاء ، ودعيني أحملك على ذراعي إلى الهيكل فأجثو هناك وأقسم أن أكون لك في الحياة والموت » .

فأجابت متمهلة : « تمني المستحيل حرام يا صديقي . لو شاء اللهُ أن يجمع بيننا لما بعث إليَّ بهذه الأوجاع التي تجعلني طفلة عاجزة بائسة . لا تنس أن ما ندعوه قضاءً وقدراً ، أو ظروفاً ، أو فروقاً اجتماعية إنما هو في الحقيقة إرادة الله ، ومن طمع في التغلب عليها فقد عصى الله وكان غراً داعياً إن لم يكن شاذاً أثيماً . إنما الناس على الأرض كالكواكب في عرض الفضاء يسلكون سبيلاً خطتها يد الله فإن تواجهَ فيها اثنان فذاك إلى حين ثم

يفترقان مسيّرين. وباطلاً يحتجان ويقاومان فنظام الكون باقٍ على ما هو إلى الأبد. أنا لا أرى موضع الخطأ في حبي لك. غير أن الآخرين يرونه فحسبي يا صديقي. ولنمتثل بتواضع وإيمان».

كان صوتها هادئاً يئن فيه الألم العميق، ولم أشأ أن أتخلى عن الجهاد منذ الخطوة الأولى، فضبطت إنفعالي ما أمكن لئلا أتهور مجازفاً بكلمة تزيد في المها وقلت «تقولين أن هذه مقابلتنا الأخيرة فدعيني أعلم لمن نضحي ذواتنا. لو خالف حبنا نظاماً علوياً لامتثلت معك بتواضع وإيمان. ولكن الحب هو إرادة الروح السامية وتسخير تلك الإرادة هو إنكار إرادة اللّٰه. طالما حاول الإنسان مخادعة اللّٰه كأن دهائه كفيل بتضليل الحكمة الربانية. وهذا محض جنون نصيب من اقتحمه نصيب قزم يبارز جباراً فليس أمامه من عاقبة سوى أن يسحق ويتلاشى. لا شيء يقوم في وجه حبنا غير التقول والافتراء، فما هو التقول والإفتراء؟ أنا أحترم أنظمة المجتمع، أحترمها حتى في تشعبها وارتباكها الحالي لأن الجسم العليل لا يشفى بغير العلاج المركب. وبدون الفروق الاجتماعية والاصطلاحات والعادات التي كثيراً ما نضحك منها يستحيل ترابط البشر فيما بينهم والتعاون لبلوغ غاية وجدنا على الأرض لننتهي إليها. فيتحتم إذاً تضحية الشيء الكثير لتلك الآلهة الكاذبة، وكأهل أثينا الذين كانوا يرسلون كل عام سفينة مشحونة بالشبان والفتيات يقدمونهم قرباناً، علينا أن ننحر الضحايا على هيكل الحيوان المسيطر على تركيب نظامنا الإجتماعي. ولكن ثقي أنه ليس من قلب حساس رقيق إلّا تعذب وتفطر، ولا من رجل ذي إدراك وشعور إلّا وأُرغم على أطباق جناحي حبه ليسجنه في القفص الإتفاقي الضيق وذلك حادث أبداً قديم جديد. أنتِ لا تعرفين المجتمع. ولكني لو قصرت الكلام على أصحابي لأسمعتك من المفجعات ما يملأ أسفاراً: أحب أحدهم فتاة فأحبته هي كذلك. ولكنه كان فقيراً وكانت هي غنية، فتخاصم الأهل والمعارف وتقاذفوا السباب

والشتائم وكانت النتيجة إنسحاق القلبين. لماذا؟ لان المجتمع يرى منتهى الحطة والذل في أن ترتدي السيدة ثوباً مصنوعاً من صوف النبات الأمريكي وليس من نسيج الدودة الصينية.

أحب آخر فتاةً فأحبته أيضاً. ولكنهُ كان بروتستانياً وكانت هي كاثوليكية فقامت عليهما قيامة الكهنة والأمهات. لماذا؟ لأنه حصلت مناورات سياسية بين تشارلس الخامس وفرنسيس الأول وهنري الثامن منذ ثلاثة قرون.

وأحب غيره فتاةً فأحبتهُ هي أيضاً. ولكنهُ كان شريفاً ولم تكن هي ذات حسب، فتصلَّبت كبرياء اخوته وألهبت الغيرة اخواتها وانسحق القلبان. لماذا؟ لأن جندياً قتل آخر كان يتهدد حياة الملك وعرشه منذ عشرات أو مئات الأعوام فأغدق عليه مولاه الألقاب والرتب، وها أن حفيده اليوم يكفّر عن ذلك الدم المسفوك بخلقٍ نخرهُ الفساد وصحة ترعى فيها العلل.

« يقول علماء الإحصاء إن عدد القلوب المتفطرة يوازي عدد الساعات. وأنا أميل إلى التصديق، لماذا؟ لأن المجتمع ينكر كلّ حبٍّ بين غريبين إن لم يرتبطا برباط الزواج. فإن أحبت فتاتان رجلاً ضحيت إحداهما، وإن أحبّ رجلان امرأة تحتم أن يضحي أحدهما أو أن يضحيا معاً. لماذا؟ لماذا يحظر على رجل حبَّ فتاةٍ ليس لهُ أن يقترن بها. أكلّ الحبّ في أن يهرب الرجل بالمرأة كأنها غنيمة حربية؟ أراكِ تغمضين عينيك فأدرك أني أطلت الكلام. لقد دنس المجتمع أقدس معاني الحياة، فاسمعي يا ماري. فلنستعمل لغة العالم عندما نكون فيه متكلمين ممثلين فاعلين. ولكن فلنحفظ بعيداً عنهُ محراباً طاهراً يختلي فيه قلبان صادقان ليتكلما بلغة الحبّ والاخلاص دون أن يتأثرا بغضبه أو يكترثا لصواعقه. والمجتمع يكبر هذه المقاومة العنيفة من قلب أدرك حقوقهُ وعرف عظمتهُ فآثر على الأحكام البلهاء. لا بأس بالاصطلاحات والعادات في حل اعتدالها لأنه حسن أن تعرش « اللبلابا » بألوف الأغصان والحبال على الجدار القوي. ولكن حذار من

الإفراط لئلا يجد النبتُ الطفيليُّ منفذاً إلى داخل البنيان فيفسد إحكام اجزائه ويهدم متانة أركانه . ان حبنا لا يضرُّ بشراً ولا يؤذي أحداً بل يسعد نفسينا ويرفعنا إلى عرش مبدعنا . فاتبعي مشورة قلبك واصغي إلى صوت ضميرك ثم أجيبي . ماري ، كوني لي ! اعلمي أن الكلمة المرتعشة الآن على شفتيك إنما هي حكم عليَّ وعليكِ بالسعادة أو بالشقاء » .

صمتُّ وضغطتُّ على يدها فضغطتْ على يدي بأنامل ملتهبة وقد بدا التأثر في وجهها وحركاتها . والسماء الزرقاء المنشورة فوق رأسي لم أرها حياتي على جمال ظهرت فيه الآن وقد هدَّدتها الزوبعة وأنفذت إليها الغيوم واحدةً بعد أخرى .

ثم قالت كمن يتعمدُ تأجيل القرار النهائي : « ولماذا تحبني » ؟

أجبت « بل سلي الطفل لماذا ولد ، والشجرة لماذا أزهرت ، وسلي الشمس لماذا بزغت فأنارت الكون ! لماذا أحبك يا بنية ، لأنه يجب أن احبك » . وإن شئت إسهاباً فدعي الكتاب الذي تحبين يتكلم لأجلي :

« أفضل الناس يجب أن يكون أعز الناس الينا دون أن نعبأ بما يلحقنا بسببه من ربح وخسارة ، أو مساعدة وإهمال ، أو شرف وذل ، أو ثناء ومذمة ، أو أي أمر من الأمور . أحسن الأشياء وأشرفها يجب أن يكون أعزها إلينا لا لسبب آخر سوى أنهُ الأحسن والاشرف . وعلى هذا المبدأ ينظم المرء حياته الداخلية والخارجية لأن بين الأشخاص تغايراً فيكون هذا خيراً من ذاك وفقاً لمقدار ما يظهر فيه من الخير الأسمى الذي يتجلى في أفراد أكثر منه في غيرها . والفرد الذي يكثر فيه تجلي الخير الأسمى هو الأحسن ، والذي يقل فيه ذلك التجلي هو الأقل حسناً . فعلينا أن ننتبه لهذا الاختلاف بين الناس حتى إذا اهتدينا إلى خيرهم أحببناه وأعززناه والتصقنا به طلباً للاتحاد الدائم » .

« وأنتِ ، يا ماري ، خير من عرفت لذلك أحبك وأنتِ عزيزة

عليَّ . وكلانا يحبُّ الآخر . فقولي الكلمة الواحدة التي تكبر وتحيا فيك ـ قولي انك لي ! لا تخوني قلبك ولا تخدعي عواطفك . أعطاك الله حياةً معذبة ثم أرسلني إليكِ لأخففها عنكِ ، فألمك ألمي ، وسنحمل هذه الآلام معاً بشجاعةٍ كما تخترق البحر السفينة العظيمة رغم عواطف الحياة وأعاصيرها حاملة الأثقال الباهظة وتوصلها إلى الشطّ الأمين . تكلمي يا بنية وضعي رأسك على ساعدي » .

فهدأ روعها وخضب الاحمرار وجنتيها كما تخضب حمرة الشفق رؤوس الجبال ، ثم فتحت عينيها البرّاقتين كشموس منيرة وقالت : « أنا لك . أنا خاصتك لأن تلك مشيئة الله . اقبلني كما أنا : فسأظل لك ما حييت وليجمعنا الله في حياة أبهج من هذه وليكافئك خير مكافأة » !

وضعتُ قلبي قرب قلبها ليخفقا سوية ، وأوقفت شفتاي الكلام على الشفتين اللتين نطقتا بدوام سعادتي كما أوقف الزمان دورته ، وتلاشى العالم حولنا ولم يمكث فيه غيرنا برهةً خلتها دهراً ـ دهر غرام وهناء . ثم زفرت زفرة عميقة هامسة « اغتفر لي يا ربي كل هذه السعادة ! والآن إذهب ودعني وحدي لعلنا نلتقي مرة أخرى ، يا صديقي ومحبوبي ومستودع غبطتي » !

●

هذه آخر كلمات سمعتها منها . عدت إلى غرفتي ونمت نوماً طويلاً مثقلاً بالأحلام المزعجة . وبعد انتصاف الليل دخل عليَّ الطبيب وقال : « لقد انتقلت ملكنا الطاهر إلى حضن خالقها وهذه وديعة منها اليك » .

فضَضْتُ الكتاب فوجدت فيه ذلك الخاتم المنقوش عليه « كما يشاء الله » وكانت أعطتنيه في طفولتي ثم رددته إليها ، وكان ملفوفاً بورقة كتبت عليها الكلمات التي فهمت بها ساعتئذ « كل ما لك هو لي ـ خاصتك ، ماري » .

جلست وجلسَ الطبيب وغرقنا في بحرانٍ عقليٍّ يعرفه كل من فوجىء بيأس لا رجاء بعده. أخيراً نهض الشيخ ومسك بيدي قائلاً - « نحن نلتقي اليوم للمرة الأخيرة: أما أنت فعليك أن تغادر المكان، وأما أنا فأيامي معدودة. غير أني أود أن أبوح لك بسر حملته دفيناً في صدري طول الحياة ولم أُطلع عليه أحداً، والآن بي حاجة ماسة إلى افشائه، فاصغ إليَّ. إن الروح التي فارقتنا روح شريفة طاهرة والقلب الذي غادرنا قلب صادق عميق. عرفت قلباً آخر كهذا وروحاً كهذه الروح - بل أبهى منها، هي روح والدتها. عرفت والدة هذه الفتاة قبل زواجها فأحببتها وأحبتني. كنا فقيرين فأنشأت أجد وأكدّ لأنتشلها من مخالب العوز والفاقة ولأصل إلى مكانة إجتماعية تليق بي وبها. وقبل أن أدرك غايتي اجتمع بها الأمير الشاب وأحبها. ولما رأيت أمير بلادي مولعاً بها يبذل ما في وسعه ليعلي شأنها ويرفعها، هي اليتيمة البائسة، إلى مرتبة الإمارة - شعرت بوجوب تضحية سعادتي لأجلها لأن حبي لها كان أقوى من حبي لنفسي. فغادرت البلدة وتركت لها خطاباً فيه حللتها من وعودها. ولم أرها بعد ذلك إلا وهي على فراش الموت عقب ولادة ابنتها هذه. يمكنك بعد هذا الإقرار أن تدرك مقدار حبي لحبيبتك وإني إنما كنت أحاول إطالة عمرها يوماً فيوماً لأنها كانت الشخص الوحيد الذي يربط قلبي بالأرض ».

« والآن! سر في طريقك يا بنيَّ واحتمل الحياة كما احتملتها، ولا تصرف يوماً واحداً في الغم العقيم. ساعد ما استطعت المحتاجين من إخوانك البشر، وأحببهم جميعاً، واشكر الله الذي أنعم عليك في هذه الحياة الجرداء بقلب كقلبها، وحب كحبها، وروح كروحها - وإن فقدتها »!

فقلت ممتثلاً: « كما يشاء الله ». وافترقنا افتراقاً لم يكن بعده من لقاء.

●

لقد مرت الأيام والأسابيع والشهور والأعوام سابحة في بحر الأبدية.

وطني صار لي أرضاً غريبة وبلاد الغرباء أصبحت وطني . لكن حب فتاتي لا يزال حياً فيَّ . وكما تسقط دمعة القلب على مياه البحار كذلك غرق حبي لها في بحر حبي للإنسانية بأسرها ـ حبي الذي يشمل ملايين من أولئك الغرباء الذين لا يعرفونني وقد شغفت بهم منذ حداثتي .

●

إنما في أيام الصيف الساكنة الحارة كهذا اليوم ، عندما أخلو بالغابة الخضراء في حضن أمي الطبيعة ، وتتوه بي أفكاري فلا أعود أدري ما إذا كان في العالم اناس غيري أم أنا وُجِدْتُ وحدي على الأرض ، اذ ذاك تحدث حركة في مقبرة حافظتي وتنهض الذكريات السحيقة من مدافنها وترجع قوَّة الحب القديم قابضةً على فؤادي بشدةٍ فأنادي تلك الفتاة الجميلة ، فتأتي إليَّ وتحدق فيَّ مرة أخرى بعينيها العميقتين اللتين لا قرار لهما . عندئذ يتجمع حبي للإنسانية ويتجسّم في حبي لشخصها ـ لشخص ملكي الحارس . فتخرس أفكاري وتجثو عواطفي أمام سر الأسرار الغامض ، سر الحب المتناهي وغير المتناهي .

رجوع الموجة

رواية

الفصل الأوّل

كان مساء ٨ اكتوبر بارداً والجو ملبداً بالغيوم . وعندما أقبل أول الليل أخذت مساكن شارع رامبران تتوارى عن النظر شيئاً فشيئاً وراء حجب أستار ذلك الظلام الحالك وكان الهدوء محيطاً بالمكان والسكينة محدقة بجهاته الأربع كأنه روضة في قفر .

وإذا بامرأة حديثة السن حسنة الهيئة جميلة المنظر ملتحفة برداء واسع تعبر تلك الطريق بسرعة وهي تذهب وتأتي وتصعد وتنزل ناحية الرصيف بين شارع لسبون وشارع كوسل الى أن وقفت أخيراً أمام أحد بيوت الشارع الثاني ونظرت ملياً واجهته المشرفة على السكة . لو صادفها أحد من المارين وقتئذ على تلك الحال لما شك في انها تنتظر شخصاً ما وان ذلك المكان هو موعد للقائهما . غير أنه لم يكن من سبب لمجيئها سوى مراقبة خيال .. خيال فتاة ولدت في ذلك البيت منذ احدى عشرة سنة إلا أنها كانت منذ حين رقدت رقادها الأبدي تحت المرمر المحاط بشجيرات الورد الأبيض .

هذا وقد هجم الظلام الحالك بخيله ورجله حتى ان كثرة المصابيح المتلألئة لم تكن تغني شيئاً . فجلست تلك المرأة بالقرب من باب إحدى الحدائق وغاصت في بحر من الأفكار المزعجة وبعد هنيهة بدأت دموعها الكثيرة تنهل على وجناتها وهي تتأوه وتصعد الزفرات من قلب مجروح . وفي غضون ذلك أرادت أن تترك تلك البقعة التي كثيراً ما تذكرتها أيام سعادتها .

وإذ عزمت على مفارقة ذلك المكان سمعت بغتة صوت مركبة في أول شارع كوسل فاستولى عليها رعب شديد واكتنفتها الحيرة من كل جانب وأخذت ترتجف وهي لا تدري ماذا تعمل من شدة انفعالها وأوشكت ان تقع على الحضيض لكن يدا قوية أمسكتها بغتة وهي مطبقة الجفنين كمغمى عليها واضعة رأسها على ذلك الكتف التي تسندها وفي أثناء ذلك سمعت صوتاً كان قد غاب عنها منذ خمس سنوات .

ـ مرغريت !

ففتحت عينيها ونظرت في وجه من ناداها ثم أطبقتهما وبعد لحظة سمع صوتاً من بين شفتيها المصفرتين :

ـ ألبير !

ـ مرغريت . مرغريت . أنت هنا ؟ ألم تزالي تتذكرين وقد أتيت الى هنا لتنظري البيت الذي ولدت فيه ؟ ثم جعل ألبير يضغط على ساعد مرغريت بشدة ولم تستطع الجواب بل كان يصعب عليها التنفس وبعد هنيهة أجابت بالجهد : نعم جئت ولكن لا تكلمني بل دعني وشأني .

فدنا منها وهو ممسك بيدها وهمس في اذنها : من احدى عشرة سنة يا مرغريت .. لو عاشت ابنتنا لكانت بلغت إلى هذا العمر . قال ذلك والزفير يقطع صوته وكاد يتقطع قلب تلك المسكينة التي بدأت عبراتها تجري على وجنتيها كسيل مدرار .

ـ ابكي يا مرغريت اندبي ابنتك واندبي حظ أبيها التعس . نعم أنا هو ذلك الأب السيئ الحظ والد إيفون أليف صباك وشريك حياتك سابقاً وقد نسيت ذلك .

فقاطعته بجرأة قائلة : لا أنا لم أنس . ثم ظهر على محياها انها تتذكر كل ما قاسته من العذاب مع ذلك الرجل في غابر الزمان . على أن ألبير تظاهر بأنه

لم يسمع كلامها ثم قال :

ـ تعالي نذهب الى الحديقة إذ أنها خـالية في مثل هذه الساعة ولنأخذ معنا كالسابق ابنتنا ايفون .

فأذعنت مرغريت طائعة لأنها كانت قد اعتادت الطاعة لهذا الصوت ولكن في الدقيقة عينها خطر لفكرها كوميض البرق انها زوجة رجل آخر بيد انها ظنت ذلك حلماً : نعم هذا هو الشارع : وهذا هو البيت بعينه وهذه الحديقة نفسها : وألبير بجانبها حسب سابق عهده .

ـ تلك كانت حياتها الماضية وهذا هو عين الحقيقة بل كيف تغير كل هذا يا ترى ؟ وكانا يسيران في طريقهما صامتين وهو يخالسها النظر من وقت الى آخر يمتع عينه بذلك الوجه الجميل المحبوب الذي يستره برقع شفاف فكان يخاطب نفسه قائلاً : ترى كيف نسيت زوجتي وعلق قلبي بحب امرأة أخرى نعم اني عشت عدة سنوات بعيداً عن تلك التي كنت أعبدها ثم أنه شعر بنار شوق تحرقه وأراد أن يضمها الى صدره مستغفراً إياها أما هي فكانت مضطربة قلقة (كريشة في مهب الريح) لا تعرف ماذا تفتكر وتقول وعندما وصلا الى باب الحديقة عادت الى الوراء وقالت :

ـ يجب أن أذهب وحدي أرجو أن تتركني وشأني .

ـ لا

فأطاعته ولم تخالف له أمراً وسارا معاً الى أن وصلا إلى بقعة كثيرة الأشجار خالية ثم ظهرت لهما عن بعد أرض مخصبة فيها أشجار عظيمة غير أنها مجردة من أوراقها وكان هذا المنظر مؤثراً جداً تحت جنح الظلام الحالك وإذا تأكدت مرغريت أن لا ثالث بينهما ولا رقيب على حركاتهما اطمأنت قليلاً وأمعنت النظر في وجه ألبير الذي إذ لحظ منها ذلك أطرق ولم ينبس ببنت شفة .

ـ كيف وجدتني أما ترين هيئتي متغيرة ؟

ـ نعم .

ـ هل تقدمت في السن ؟

ـ لا شك في ذلك .

ـ أرى أن الوقوف يتعبني فلنجلس هنا يا مرغريت .

فاتجها نحو مقعد كان قريباً منهما وجلسا عليه ثم شرعت مرغريت تحدق في ملامح ذلك الرجل الذي أحبته مدة طويلة فرأته شاحب اللون ضعيف الجسم منحط القوى وعند ذلك مالت إليه كل الميل وأحست بشفقة عظيمة عليه حتى أن قلبها كاد يذوب حناناً . لم يكن إلا القليل حتى تذكرت خداعه لها بعد موت ابنتها ايفون الوحيدة . نعم قد تمثلت لها تلك الخيانة الفظيعة التي تقشعر منها الأبدان كيف لا وهي انها عندما كانت تبكي وتنوح وفي حالة يرثى لها من الأحزان رأت بين ذراعي زوجها امرأة أخرى هي من أعز صديقاتها .. لعمري أنها لأفكار مؤلمة تأبى ألا أن تستقر في المخيلة لتعذب صاحبها تعذيباً وتكوي فؤاده حيناً بعد حين بتذكرات هي أحر من الجمر .

إذ رأى ألبير مرغريت صامتة أحس بما كان يدور في خلدها من الأفكار المزعجة والهواجس المؤلمة فدنا منها بكل هدوء وأسند رأسه المكشوف إلى كتفها المرتجف فنظرت إلى شعره الأسود الذي طالما سرحته بيديها ثم حدقت في صدغيه حيث كانت تظهر عروق زرقاء نحيفة .. فعند ذلك زاد اضطرابها وهاجت عواطفها . فلم يغب عن ألبير ما شعرت به لأنه كان عارفاً حق المعرفة بعظم حنوها وضعفها النسائي فقال لها بلين .

ـ مرغريت لا تخافي . نعم قد كنت زوجك في الماضي وهانذا لم أزل حتى الآن بل وما دمت حياً أرزق .

ـ لا لا .

ـ بل نعم نعم . ثم وقف وأمسك يديها وقال : ذهبت اليوم إلى مدفن ابنتي ايفون وأتيت بهذا الغصن الصغير من شجرة ورد أبيض بالقرب من ذلك المدفن وها هو.

فتناولته مرغريت من يده وقبلته بحرقة مراراً ولثمته تكراراً ثم استأنف كلامه قائلاً :

نعم ان ايفون كانت تحبنا حباً شديداً لا زيادة بعده لمستزيد . أما مرغريت فلم تستطع أن تجيبه بشيء لأن العبرات كانت تسيل بغزارة على وجنتيها والزفرات كادت تخنقها ثم تنفست الصعداء مراراً والعرق يتصبب من وجهها.

ـ آه يا مرغريت اني من حين فقدت أمي لم أجد أحداً يكلمني عن ايفون عزيزتي فهي ماثلة أمام عيني آناء الليل وأطراف النهار ولاتبرح من بالي لحظة واحدة .

ـ أين تركت صديقتك ؟

قالت هذا وهي تضطرب اضطراباً من شدة التأثر.

كنا نجوب البلاد سوية وننتقل من جهة إلى أخرى ثم افترقنا وذهب كل لشأنه .

ـ ترى أين ذهبت ؟

ـ إني لا أعلم من أمرها شيئاً فإن بلاد الله واسعة أرجاؤها . وأما أنا فقد عزمت على أن لا أعود إلى باريس حيث أرى آثار سعادتي الماضية وقد توفيت والدتي بعد ان استقدمتني إليها على أني أشكر الله شكراً جزيلاً يا مرغريت لأنه قيض لي مرآك .

ـ إني وحقك لم أجن ذنباً ولم أقترف إثماً ولم أفكر قط في الخيانة بل أراني لم أزل متسربلة بثوبي العفاف والأمانة . نعم إني كنت أحبك وأحافظ

غاية المحافظة على ذلك الحب بيد انك خنت وهدمت سعادتك بيدك .

فهز كتفيه وقال : كان يجب أن تسامحيني يا مرغريت ... لم لا تغفرين لي؟لم لا تسدلين ذيل العفو وتعودين زوجة لي كالأول ؟

فأطرقت مرغريت إلى الأرض صامتة لا تحير جواباً وجرت دموعها على خدها غير أن قلبها كان يخفق خفوق الغبطة وبعد هنيهة قالت :

ـ لقد سامحتك .

ـ لكن سماحك هذا لا يجدي نفعاً الآن ومنذ قليل قلت عندما زرت مدفنها يا بنيّتي الصغيرة الراقدة تحت الثرى : أتصدقين أن أمك قد تركتني فها أنذا أبكيك وحدي طالما بقيت حياً .

فتحركت الشفقة في قلبها ثانية وقالت : لا . بل ابكيها معي

ـ نعم الآن أبكيها معك ولكن غداً مع من يجب أن أبكيها ؟

أما مرغريت ففكرت بولدها الذي كان ينتظر رجوعها إلى البيت فإذا ذاك كفكفت دموعها بمنديل ونهضت ناظرة إلى الساعة ثم قالت لا أرى شيئاً .

فأخذ ألبير الساعة ونظر إليها وقال الوقت منتصف الساعة السابعة .

ـ فيجب عليّ الإنصراف إذاً .. فان ابني الصغير ..

أنا عارف بوجود ولد لك وأنا أحبه من كل قلبي كيف لا وهو أخو ايفون . إني أستودعك الله الآن فاذهبي يا مرغريت بحراسته تعالى ولكن أستحلفك بأن تعودي إليّ في الغد .

ـ أعدك بأني أعود .

ـ من كان يحبك منذ عشر سنوات ويبذل النفس والنفيس في سبيل رضاك ألست أنا ؟

ـ نعم أنت

ـ ألم تكوني زوجتي التي أحببتها قبل أن تعرفي رجلاً آخر ؟

ـ نعم .

ـ فلنعد إذاً يا عزيزتي إلى ما كنا عليه قبلاً من حسن الإتحاد والوئام لنقضي باقي العمر معاً في معترك هذه الحياة وانسي الماضي . ومن ذا الذي ما ساء قط ! أما أنا فاني أعتبرك قرينتي كالسابق ولا أريد أن أنفصل عنك ولا أن أعيش بدونك . فأناشدك الله أن تعودي إليّ فان العود أحمد أقسمي لي إذاً بحبك لإيفون بأن ترجعي بدون ابطاء .

أإلى هذا الحد تصل بالحاحك ؟

ـ نعم إذ لم يبق لي من طاقة على الاصطبار ولا أقدر على احتمال بعادك عني إلى أكثر من غد : نعم يا مرغريت وحقك إني أذوب ضجراً في وحدتي وقد سئمت نفسي العيشة في هذه الحياة الدنيا : عودي إليَّ ولا تخافي على ولدك فان والده يعتني به وأمك تعوله فلا بأس عليه أما أنا فإني أراني وحيداً في تعاستي في هذه الدنيا إذ لا معين لي ولا أنيس يسليني في وحدتي فاسرعي بالرجوع إن كنت تحبين ايفون وتعزيني (ثم حاول أن يأخذها بين ذراعيه) .

ـ ثق بكلامي وتيقن أني أرجع على شرط أن لا تتلفظ بشيء مما ذكرته الآن .

ـ سأطيعك بلا سؤال .

ـ وأنا سأرجع بدون ريب وأما الآن فلا بد من ذهابي على جناح السرعة لمشاهدة ابني الذي قد مل من الإنتظار .

ـ اذهبي الآن بحراسة الله وغداً تريني انتظرك وبعد غد وكل وقت في هذا المكان فإني لا أتعداه .

فتركته مرغريت وسارت في سبيلها وكل جوارحه أنظار تشيعها . أما هي فبعد أن ابتعدت عنه قليلاً التفتت فرأته لم يبرح مكانه وقد رفع يده مسلماً ثم ركبت أول عربة وجدتها وذهبت تنهب الأرض حتى توارت عن النظر .

الفصل الثاني

انتهت مرغريت إلى البيت وقرعت الجرس ففتح ورأت زوجها أمامها وهو طلق المحيا باسم الشفتين ولما رآها أسرع اليها وصافحها وأمارات الحب ظاهرة على وجهة ثم خاطبها بحنو قائلاً :

لقد تأخرت يا عزيزتي فماذا جرى لك اليوم ؟

فأجابته غير مكترثة به : لم يجر لي من شيء قالت هذا وإذا بصوت أمها يناديها : اسرعي يا ابنتي اسرعي فان صغيرك يبكي ولا يريد أن ينام بدونك : فقالت ها أنذا آتية . ثم هرولت إلى حجرتها وأشعلت فيها المصباح ثم وقفت جامدة حائرة في وسط الحجرة لا تعي على شيء مرتبطة اليدين حزينة النفس وكأني بها ترى ذاتها أنها غريبة في هذا البيت . وكان زوجها قد تبعها فلما رآها على هذه الحال دنا منها ومد يده إلى رأسها نازعاً الدبابيس من شعرها ثم رفع القبعة عنه وقال :

أسرعي إلى الصغير يا حبيبتي فإنه يبكي منذ وقت غير وجيز ؟

ـ ويلاه هل هو مريض ؟

ـ لا بل هو في غاية الصحة لكنه قد اعتاد أن يرى أمه كل يوم قبل هذا الوقت فخفي إليه وبعد أن تناغيه قليلاً ينام لا محالة فأسرعت مرغريت إلى حجرة ابنها واطفأ زوجها المصباح ثم دخل مكتبه وجعل يقرأ في كتاب كان قد طواه عند دخول مرغريت وبعد مضي نصف ساعة خرجت تتبعها أمها على الأثر فسألها زوجها :

هل نام الصغير ؟

فقالت والدتها نعم نام .

ـ فإذا يلزم أن نتناول طعام العشاء .

وإذ جلس الثلاثة على المائدة شعرت مرغريت ببعض التعزية عندما رأت زوجها الحقيقي تلقاءها وتذكرت ألبير ذلك الخداع الذي عذبها ونغص عيشها فقابلت بين الأول والثاني فرأت فرقاً عظيماً بين معاملة هذا وذاك فإن زوجها الثاني كثيراً ما أحبها في كل مرحلة من مراحل هذه الحياة وخصوصاً عندما كان يراها محتاجة فإنه مدَّ لها يد المساعدة واتخذها تحت ظل حمايته لكي ينسيها آلامها السالفة ويبدل غمومها وهمومها بالأفراح ولذلك شعرت بميل إليه فائق العادة ورأت أنها محتاجة إلى أن تخبره بواقعة الحال أي بما جرى لها في يومها غير أن وجود والدتها مدام موستل منعها عن الكلام فأبقت ذلك إلى أول فرصة تسنح لها إلا أنها لم تستطع كتمان عواطفها وإخفاء احساساتها ولم تمض سوى هنيهة حتى تفجرت ينابيع دموعها وسالت أنهار دموعها على خديها وشعرت بضيقِ صدر ضاغطٍ على مجرى النفَسِ كاد يخنقها وأخذت تئن أنين البائس الحزين . فحينئذ نهض روجر عن كرسيه مرتعباً مضطرباً وأوقفها في مكانها وأسندها على ذراعه ثم ذهب بها إلى حجرته حيث أجلسها على مقعد هناك وفي غضون ذلك هرولت مدام موستل والطعام في فيها وقالت : ما الخبر وأي خطب جرى ؟

ـ لا تخافي يا حماتي دعيني أعالجها وحدي أما أنتِ فاذهبي إلى مزاولة شؤونك .

ـ نعم في مثل هذا اليوم ولدت ابنتها ايفون فيظهر أنها تذكرت ذلك فما قدرت والحالة هذه على امتلاك عواطفها .

ـ لم يغرب عني ذلك وقد أدركت كل هذا من ملامح وجهها وظهر لي جلياً أنها تفتكر بابنتها ايفون . قال هذا وشرع يداوي امرأته هذه بعناية

كلية واعتناء لا زيادة بعده لمستزيد وهو ينشقها المنعشات على اختلاف أنواعها وضروبها وكان طبيباً ماهراً في صناعة الطب ولم يكن إلى بضع دقائق حتى عادت إليها قواها وفتحت عينيها كأنها قد انتبهت من سبات عميق وقالت : يا روجر إذهب وأتم طعامك وأنت يا والدتي اصحبيه إلى المائدة واستكملي غداءك فما من حاجة لي بكما بعد .

فأجابت والدتها : لا أستطيع أن آكل لقمة واحدة لأن معدتي في اضطراب شديد !

ـ تعالي يا حماتي معي إلى المائدة . وأنت يا عزيزتي مرغريت إذا شعرت بتعب جديد فما عليك إلا أن تقرعي جرس الاستدعاء لأحضر بسرعة .

ـ لا شك في ذلك .

فهدأ روع مرغريت وجمعت قواها لأن المكان خلا لها ثم بدأت ثانية تعيد في فكرها ذكر ماضيها وما حدث لها في أدوار حياتها ، وما هي إلا لحظة حتى أغمضت جفنيها فتمثل حينئذ شخص ألبير الحلو أمام ناظريها فأمعنت النظر طويلاً في صباحه ذلك الوجه المنير والجبهة العالية البيضاء كما أنها تأملت في ذلك القوام المعتدل الذي لا يضاهيه قوام فضلاً عن رنات صوته اللذيذة إلى غير ذلك من الصفات التي كانت تأخذ بمجامع القلوب . فعند ذلك عضت على أناملها ندماً وكادت تغيب عن الرشد ثم عادت إلى واجباتها وفكرت في شخص الدكتور روجر الذي كان قوي البنية عريض المنكبين اسمر اللون ذا لحية سوداء طويلة وعينين براقتين تلوح على محياه طهارة القلب وسلامة النية وحرية الضمير .

قد علم مما تقدم أن مرغريت تحب ابن عمها روجر لكن شتان ما بين الحبين الأول والثاني وقد قال الشاعر :

نزه فؤادك حيــث شئـت من الهــــوى
مـــا الحــب إلا للحبيـــــــب الأول

نعم ان حبها وعشقها وميلها وهواها وقلبها كل ذلك كانت قدمته إلى ألبير الذي عرفته أولاً ومعلوم أن الحب كلما عظم ازدادت الغيرة. على أن مرغريت عندما رأت ما كان من أمر زوجها ألبير مع صديقتها بلانش كبر عليها وصعب احتماله فأسرعت إلى أمها وقصت عليها الخبر مظهرة لها عظيم حزنها وشديد كدرها غير أن هذه لم تكن ذات عقل ورزانة وحكمة لتسكين جأشها وتهدئة روعها فهاجت وماجت لدى سماعها ذلك وانتفضت انتفاضاً وقالت تبا له من رجل دنيء، ووغد لئيم عادم الشرف فاقد الإحساسات الإنسانية أسألك رباه أن تخلص ابنتي من هذا الوحش الضاري!

ولم تكتف العجوز بهذا الكلام المهيج العواطف دفعة بل كانت تتلفظ به مراراً وتراجعه تكراراً أمام ابنتها مظهرة لها فظاعة عمل زوجها وخيانته التي لا يطاق احتمالها ولم تزل على هذا ومثله من اغتياب ألبير وتخطئته بأسمج الألفاظ والتعابير حتى بدأت مرغريت تشعر بأن مراحل العداوة والحقد تغلي في أحشائها وصارت تكره ألبير كرهاً عظيماً وشعرت بأنها لا تقدر أن تساكنه ولا أن تعيش معه. فعزمت على طلب الطلاق. على أنها عندما أعلنت ذلك لوالدتها قالت لها هذا الصواب بعينه كيف لا وأن الزوج هو سيء المبادىء فاسد السيرة فلا تطيب السكنى معه بوجه من الوجوه.

أما ألبير فإنه سمع في إحدى المرات الحديث الذي كان يدور بين الأم وابنتها بهذا الخصوص وعندما طرقت مسمعيه كلمة «طلاق» أسرع طالباً مواجهة مرغريت فأبت مقابلته كل الأباء ثم كتب لها بعد ذلك عدة رسائل غير أنها أعادتها إليه على الأثر مختومة كما كانت. فاستعان ببعض الأشخاص من ذوي الرزانة والرصانة والمعرفة التامة بحقائق الأمور ليحادثوها في الأمر فرفضت مقابلتهم وأبت أن تسمع كلام وسيط أو حديث رسول في هذا الشأن. وبعد أن استعمل كل الوسائط الفعالة لإصلاح ذات البين بينه وبينها ولم تفد شيئاً بل ذهبت أدراج الرياح لم يشأ أن يحتقرها ولا أن

يعاملها معاملة سوء فعزم أخيراً على أن لا يعود يفاتحها بهذا الأمر بل يدعها وشأنها تاركاً حبلها على غاربها .

هذا وبعد أن تم أمر الطلاق بين الزوجين شعرت مرغريت بوخز الضمير المتعب وضيق في صدرها وما ذلك إلا لأنها كانت تحب ألبير حباً لا زيادة بعده وكانت تبكي بكاء مراً وتندب حظها حينما كان يخطر في بالها أنها قد فارقته فراقاً لا إتحاد بعده ولم يجر ذلك إلا بمجرد ارادتها وقبولها التام . على أن والدتها كانت تبذل أقصى الجهد من جهة ثانية باقناعها بأن تتزوج ابن عمها روجر الذي كان يحبها حباً شديداً غير أن مرغريت لم تعبأ بهذا الكلام في أول الأمر وحسبته أمراً ساقطاً لا يلزم أن يذكر بشفة ولكن نظراً لما رأته من حنو ابن عمها روجر وحسن أمانته وشفقته أخذت تفكر في هذا الأمر من وقت إلى آخر إلى أن أضحى شغلاً لها صباح مساء وكثيراً ما كان هذا الفكر يقلقها في غدواتها وروحاتها وإذ لم تر مناصاً من هذه الأفكار المتعبة والهواجس المضنية اضطرت أن ترضى الاقتران بابن عمها روجر على أنها عزمت عزماً أكيداً ثابتاً على أن تمحو من فكرها اسم ألبير واسم كل شخص يذكرها به .

أما روجر فقصد اتخاذ كل الوسائط الفعالة لكي يجعلها سعيدة ذات عيش رغد وقلب مطمئن لتنسى ذكر تلك الآلام الماضية . وكان يقرأ غمومها وسائر أحزانها بل وأعماق أفكارها في عينيها وملامح محياها وكان يدل على كل هذا اشاراتها وحركاتها . وقد فهم روجر في ذلك المساء أن مرغريت تتعذب عذاباً مبرّحاً بتذكر أمر محزن .

كان يجري ذلك في مخيلة مرغريت وأخيراً طرق أذنيها صوت أمها تخاطب روجر في قاعة الطعام .

ـ اني في قلق شديد فدعني أذهب إليها .

ـ لا ضرورة لذهابك بل الزمي مكانك .

ـ إنها وحدها فلا شك أنها تضجر .

ـ دعيها منفردة إن الوحدة تفيدها في هذا الوقت

ـ على أنها عصبية المزاج .

ـ لا عجب في ذلك فإنها قد ذاقت من أنواع العذاب في ما مضى من حياتها ألواناً .

ـ تباً له من قاس !

فأنكر الدكتور روجر عليها ذلك وقال لها بلطف : أرجو يا حماتي أن لا تعودي إلى ذكره .

ـ أهلك الله ألبير الذي كان سبب شقائها وعذابها .

ـ بل الأولى بك السكوت لأنها إذا سمعت شيئاً من هذا فإنه يزيدها آلاماً .

ـ لا أستطيع أن أسكت .

ـ إن كان الأمر كما تقولين فأنا أشير عليك بالنوم العاجل كهذه .

فأطرقت مدام موستل ولم تجب بكلمة . ولم يكن إلا القليل حتى نهضا وذهبا إلى حجرة مرغريت ثم دنت منها والدتها وودعتها بقبلة في جبينها قبل أن تذهب إلى سريرها . أما مرغريت فأشارت عليها بالبقاء ففعلت . ثم سألها روجر قائلاً : كيف أنت الآن يا عزيزتي مرغريت ؟

ـ أحسن قليلاً وإني أشكرك شكراً جزيلاً ولم أزل أحس ببعض التعب .

ـ لا بأس عليك ، فالزمي سريرك وخففي عنك قلق الفكر واضطراب البال فإنهما يضنيان الجسم كما لا يخفى عليك .

ثم جلس واشتغل بمطالعة الجرائد وكان حيناً بعد حين يخالسها النظر وأما هي فكانت تتناوم وليست بنائمة .

الفصل الثالث

عند انبلاج صباح اليوم الثاني نهضت مرغريت من فراشها وسألت عن زوجها فأجيبت بأنه خرج منذ ساعتين فذهبت إلى غرفة طفلها وحملته على ذراعيها وأخذت تكثر من تقبيله وملاعبته وضمه إلى صدرها كأنها لم تره منذ أشهر طويلة . وكان وجود صغيرها مكسيم بين ذراعيها أحسن واسطة لأن تنسى ألبير وتسلوه وبينما هي تناغي صغيرها وتلثمه أقسمت له أنها قد محت من فكرها اسم ألبير فهي مزمعة أن لا تعود إلى تذكره في حال من الأحوال ولا يصعب عليها ذلك بل يكون سهلاً لديها بوجود طفلها المحبوب الذي تبذل دونه النفس والنفيس فهي مصممة أن لا تحب سوى طفلها هذا ووالده الدكتور روجر . وكان ذلك الطفل كحمامة وديعة حين تمس شفتاه ثغرها تشعر بلذة خارقة العادة وتحن إليه حناناً لا غاية بعده وهو يلغو تارة ويصرخ أخرى وحيناً يصفق وحيناً يبش في وجه أمه ثم يقرع أديم الأرض برجليه فرحاً .

ثم أتى الدكتور روجر فوجد زوجته وابنه على هذه الحالة من الإنشراح والسرور فوقف هنيهة عند باب الحجرة مراقباً متأملاً حركاتهما اللطيفة مصغياً إلى حديثهما الذي حسن وقعه في أذنيه ولم يكن قد شعر من قبل بمثل هذه اللذة . وكانت عيناه ترمقانهما بحنو لا يوصف وفؤاده يرقص من هزة الطرب على رخيم صوتهما وما عتم أن رمى بنفسه عليهما وتناول الطفل بذراعه وضم أمه بالأخرى سائلاً عن صحتها الغالية باهتمام عظيم ثم قال : أريد

أن أريك شيئاً جديداً أيتها العزيزة فاوجه إليه حسن التفاتك . وعلى أثر قوله هذا ضرب جرس الاستدعاء فدخل أحد الخدام فأشار إليه الدكتور بأن يأخذ الطفل مكسيم إلى مرضعه ثم خرج إلى صحن الدار وأتى بباقة أزهار بيضاء كبيرة ووضعها بين يدي مرغريت قائلاً : عزيزتي قد آليت على نفسي أن أزور مدفن ايفون في هذا اليوم لأضع عليه هذه الأزهار النقية وقد خطر لي هذا أمس وأرغب في أن تصحبيني في هذه الزيارة فماذا ترين ؟

فرمقته مرغريت بنظرة طويلة كانت تبدو في خلالها على صفحات محياها عبارات الشكر والامتنان لأن فكر روجر هذا قد سرها سروراً لا يوصف ووقع من نفسها أعذب موقع ثم أطرقت وعلامات الابتهاج وانشراح الصدر بادية على وجهها .

ـ ماذا ترين يا مهجتي ألم يحل ذلك في عينيك ؟ دعي عنك التأثر وأتركي الإنفعالات النفسانية الشديدة الأضرار بالصحة ولا شيء يحل محل الصحة كما لا يغرب عنك .

سارا في الشارع الموصل إلى المقبرة ويد مرغريت بيد زوجها ولم ينبسا ببنت شفة في أثناء سيرهما هذا ، وعندما قربا من المدفن أسرعت في مشيتها اشتياقاً وحنيناً للراقدة فيه وما وقع نظرها عليه حتى هرولت بسرعة شديدة وجثت على ركبتيها خائرة القوى منكسرة القلب حزينة النفس دامعة العين غارقة في بحر من الأحزان .

وبعد ذلك حانت التفاتة من روجر إلى ضريح ايفون فرآه مكسوا بأنواع الزهر المختلفة الألوان والأشكال فوضع باقته فوقها بوافر الاحترام ولحظ بين تلك الورود الذابلة أكليلاً وباقات منها خضراء حديثة الوضع فتأكد أن مرغريت هي التي أتت بها بالأمس فقال لها : لماذا لا تخبريني حينما تأتين إلى هنا ؟ نعم الآن فهمت جلياً سبب دموعك وقلق أفكارك مساء أمس !

أما مرغريت فكانت غائبة عن رشدها لا تسمع ولا تفهم ما يقال لها وهي ذارفة الدموع باكية نائحة راثية فلذة كبدها ايفون بألفاظ تفتت الأكباد وتلين الصخر الأصم مخاطبة ايفون كأنها في عالم الأحياء بين يديها ثم تنظر حيناً إلى الأزهار التي على المدفن وتلمسها بأناملها ثم تقبل بحرقة شديدة تلك التي أتى بها ألبير كأنها ذخيرة منه .

فعلى هذا الضريح تذكرت مرغريت في ذلك الوقت حبيبين لها تفديهما بروحها : ألبير وايفون . نعم إنها لم تحب أحداً في ماضي حياتها كما أحبتهما وقد بدا لها أن موت ألبير ولو كانت منفصلة عنه أشد عليها من موت ايفون .

فيا أيها الدهر الخؤون الغدار لم جمعت قواك وبذلت جهدك في تفريق شمل الأحباب وتشتيت الأصحاب لم هذا الجور أيها الزمان الظالم بل كيف يسوغ لك أيتها الطبيعة إصدار هذا الحكم المخالف كل عدالة على خط مستقيم بتشتيت هذه الأسرة الصغيرة ؟

وأما أنت أيها الحب القوي الجبار ترى بأي عبارات أكلمك وبأي لسان أخاطبك بل أي ألفاظ أسوقها إليك لعمري أنك لأنت الملك العظيم الاقتدار أنت المستبد بالحكم على شعبك الكثير لم أيها الحب لا تصد هجمات الكون عن عبادك وتمنع الإيذاء عن آلك والتابعين شرعك ومرادك ؟

لِمَ لم تدفع إليها الحب عن هؤلاء الثلاثة نقمات غضب العالم والدهر والزمان والسماء والأرض والعناصر ؟ مع أنك أيها الحب على كل شيء قادر . لعمري إنه لم يكن من العدل أن تسمح للطبيعة والأحوال أن تكدر صفاء عيش من اتبعوا شريعتك كيف يجوز أيها الحب أن تدع الموت والافتراق يدخلان بيوت من يعبدونك ويحافظون كل المحافظة على اتباع سننك ؟

ظلت مرغريت جاثية زمناً طويلاً وهي غائصة في بحر من التأملات المحزنة لكنها تصورت على حين بغتة شخص ايفون منتصباً أمامها فهتفت : ابنتي المحبوبة هلمي إلى داخل قلبي تعالي أقيمي في حضن أمك الحزينة التي

لا تنساك ولا يطيب لها عيش بعدك سلام عليك وألف تحية يا ابنتي التي أذوب حباً لدى ذكر اسمك العذب المستحب . سلام على عينيك المطبقتين حتى يوم النشور سلام على شفتيك الباردتين أين أنت الآن يا ولدي ايفون عند من تسكنين ومع مَنْ مِنْ الملائكة تلعبين ؟

بلا سلام على روحك الطاهرة التي لا شك أنها تتنعم بذلك الفرح الدائم ! لكن أنى لجسمك المتنعم أن يحتمل السكنى مع الديدان ويطيق ظلمة القبور ؟ نعم نعم قد تلاشى جمالك واضمحل حسنك وذبل ورد خديك واضحت أعضاؤك رمماً بالية وصرت أثراً بعد عين .. فوا لوعتاه ووا حسرتاه . لم لا تسرع أيها الموت وتأخذني إلى فلذة كبدي ايفون ؟ تعال ولا تبطىء .

وفي غضون ذلك نظر روجر إلى مرغريت فكاد قلبه يتمزق وخصوصاً عندما رأى جسمها ملقى على الحضيض جثة لا حراك بها فدنا منها ومسك يدها وأنهضها بحنو قائلاً لها : إنهضي أيتها الحبيبة الحزينة فقد آن لنا أن نذهب . فوقفت وقد أودعت ذلك المكان التنهدات والزفرات التي يرق لها الجلمود ثم سارت وهي مستندة إلى ذراعه أما هو فعندما رأى أن الحزن آخذ منها مأخذه شرع يعزيها ويقول لها : كفكفي دموعك وافتكري بمكسيم ولدك الجميل المحبوب تذكري كلماته اللطيفة افطني في تلك القبلات الحلوة اللذيذة فقالت بصوت خفي نعم ... نعم ... بعد ان كادت تخنقها العبرات ثم نشفت دموعها وهي صامتة . ذلك ولم يزل روجر يردد على مسامعها آيات حبه لها إلى غير ذلك من العبارات التي تجعلها تسلو ايفون ثم قال لها : إني أبذل النفس والنفيس في سبيل رضاك يا عزيزتي لأنسيك ذكر عذاباتك الماضية وما تقاسينه من فراق ايفون .

ـ لا أقدر أن أنساها .

ـ أعرف ذلك ولكن ما قولك إذا رزقت ايفون أخرى ؟

ـ فابتسمت عند ذكر ذلك على ما بها من الحزن والغم .

الفصل الرابع

وعندما وصلا إلى سانت اوغستان قالت له : اشكرك يا روجر شكراً جزيلاً .

ـ باذن الله سأشاهدك مساء في أتم صحة وأنعم بال .

قال هذا وذهب في طريق آخر لعيادة مرضاه وكان النهار صحواً مع أن السحب تحجب السماء وبينما كانت مرغريت سائرة تذكرت عندما سمعت الساعة تضرب إنها عاهدت ألبير بالمقابلة في مثل هذا الوقت بالحديقة المعلومة فوقفت تناجي نفسها وقد حارت في أمرها ولم تدر ما تعمل على أنها كانت متيقنة نيل عزاء عظيم بقربه لا سبيل للحصول عليه بسواه ، لأن الحديث بينهما سيكون في ايفون .. ثم قالت في نفسها لا مانع يصدني عن الذهاب إليه فهو وحيد في هذه الدنيا لا أنيس له ولا تعزية فلا يمكنني أن أخلف وعدي بل لا بد من الذهاب إليه الآن على جناح السرعة قالت هذا وسارت ووجهتها موعد اللقاء ولما بلغت باب الحديقة رجعت القهقرى كأنها ندمت مجيئها ولم تزل على هذه الحال مترددة ، تقدّم رجلاً وتؤخر أخرى إلى أن عزمت أخيراً على الدخول فتوغلت بين تلك الأشجار الملتفة بقدم ثابتة وعزم أكيد حتى انتهت إلى الموضع المقصود فوجدته جالساً ينتظرها على أحر من نار الغضا ، وعندما لاحت له خف لملاقاتها ثم صافحها وقبّل شعر رأسها فاضطربت وتملصت من يده فاعتذر وقال : لا بأس سامحيني يا مرغريت فإني تعيس !

ـ يظهر لي ذلك .

ثم ضغط على يدها بعد أن سكت طويلاً وقال : اني تعب في هذه الحياة الدنيا فلا يمكنني قط احتمال هذه المعيشة . نعم لن تكوني قرينة لي فيما بعد فان سعادتي قد انتهت كما يظهر لي ومالت شمس الهناء والصفاء إلى المغيب وأضحت التعاسة اليفي والشقاء سميري والعذاب المبرح ألزم إليَّ من ظلي وذلك من يوم انفصالك عني فمن كانت حالته هذه فموته خير له ؟ نعم يا مرغريت انك ستكونين نظيري في التعاسة جزاء عملك هذا ومن يعش يرَ .

ـ أنا لا أكون كذلك لأني لا استحق .

ـ كنت معي أسعد حظاً ولا يمكنك انكار هذا لأنك قد اقررت بما أقول مراراً عديدة ولا يقوم الانكار بعد الاقرار ..

نعم قد قضينا معاً أياماً ما كان أحلاها وأشهاها ولم يبق سوى أن نتمناها .

ـ أنا لا انكر ذلك انما كنت أرى اني سعيدة وانت تحبني .

ـ أنا وحقك قد أحببتك دائماً ولم أفتر عن حبك قط من عهد معرفتي بك فكوني إذاً على ثقة من هذا لأن صاحب البيت أدرى بالذي فيه .

ـ لو كنت تحبني لما مالت نفسك الى ارتكاب الخيانة ومخالفة شروط المحبة .

ـ رأيتك أليفة الأحزان والأشجان على فقد ايفون تنوحين وتعولين آناء الليل وأطراف النهار وهذا مخالف لطبيعة الرجل على خط مستقيم وقد سئمت نفسي طول البكاء والأنين فجرى ما جرى على غير ارادة تامة مني .

وفي غضون ذلك كانت مرغريت صامتة تفكر بمعاملة روجر لها وكيف أنه وقف حياته وأوقاته وأثمن ما بين يديه لأجل مرضاتها وسعادتها مع أن ألبير هذا قد ذاقت في ايامه كؤوس العذاب أشكالاً وألواناً ويصعب عليها أن تنسى كل ذلك ثم رفعت رأسها وقالت :

قد أتممت وعدي اليوم وأتيت الى هنا لأني أقسمت بأبنتي ايفون لكني لن أعود بالمستقبل الى ذلك وها أنذا استودعك الله قالت هذا وهمت بالانصراف .

ـ اعيريني أيضاً نظرة واحدة أما آخر كلامي معك فهو : اني كما قلت لك اذا شئت أن تريني فأنا في كل مساء هنا واذا أردت يوماً ما ان تري رسم .. ايفون .

ـ رسم ايفون ؟

ـ نعم .

ـ واين هذا الرسم ؟

ـ عندي وأما مكان سكناي فهو بيت والدتي القديم حيث لا يأتي إليَّ أحد ، فتعالي يا مرغريت هلمي وانظري صورة ابنتك ايفون ..

والآن استودعك الله ثم ذهب لايلوي على شيء . أما مرغريت فهمت أن تتبعه لكن قواها لم تطاوعها وجلست على مقعد هناك وأجهشت بالبكاء لائمة نفسها على قساوتها في معاملة ألبير بالماضي الى هذه الدرجة وكيف انها طلبت الطلاق واتخذت روجر قريناً لها فيما بعد ، كل ذلك كان يجول بفكرها ولو لم تكن مرتبطة بسنَّة الزواج ثانية ، لعادت إلى ألبير لتقضي معه باقي حياتها .

الفصل الخامس

ان مرغريت لم تفتكر منذ ذلك اليوم بألبير إلا نادراً وقليلاً ما كان يخطر في بالها وكانت تستخدم كل الوسائط لتسلوه ولا تبالي به وقد أخذت تزداد اهتماماً وتعتني بنوع خاص بارضاء زوجها الذي لم يأل جهداً في تكثير الأسباب لاسعادها في شؤون هذه الحياة وكانت تقضي اكثر أوقاتها في ملاعبة طفلها وملاحظة أمور بيتها.

وفي صباح أحد الأيام من شهر نوفمبر خرجت المرضع مع مكسيم حسب العادة للتنزه لكنها لم ترجع في الوقت المعين لرجوعها بل تأخرت نصف ساعة تقريباً فقلقت مرغريت من هذا التأخر واضطرب بالها وأخذت تحسب ألف حساب فقصد روجر أن يذهب بنفسه للبحث عنهما لأجل تسكين روعها لأنها كانت منحرفة الصحة منذ أيام وهي تتأثر من أقل انزعاج. وبينما هما يتجاذبان أطراف الحديث بهذا الموضوع إذا بالمرضع حاملة مكسيم على ذراعيها وهي تلهث تعباً لأنها كانت تمشي بسرعة فقالت لها مرغريت : قد قلت لك غير مرة أن لا تتأخري في الرجوع عن الوقت المعين لك ومع ذلك فقد تأخرت اليوم نصف ساعة فاشتغل بالنا فما سبب تأخرك هذا ؟

ـ نسيت ساعتي هنا يا سيدتي فأرجو منك المعذرة هذه المرة وفضلاً عن ذلك اني صادفت رجلاً في الطريق استوقفني بسبب ملاعبته مكسيم وقد

ظهر لي أنه يحب الأطفال كثيراً .

ـ ومن هو هذا الرجل ؟ وتبادر إلى ذهن مرغريت في الحال انه هو ألبير فاكفهرّ وجهها . فقال لها روجر : لا تعكري صفاء مزاجك يا عزيزتي ثم قال للمرضع وأنت من صادفك بالطريق ؟

ـ لقيت رجلاً لابساً ثياب حداد وهو كثيراً ما يلاعب الأولاد الصغار ويلاطفهم وقد سألني بنوع خصوصي عن عمر مكسيم وأحواله وأظن أنه فاقد ابناً له !

ـ مهما كانت حالته فلا يلزم أن تكلمي أحداً بالطريق من الآن فصاعداً لا سيما الذين لا تعرفينهم .

ـ أنا لا اكلم أحداً حتى الذي أعرفه ولكن هذا الرجل هو الذي استوقفني وتكلم معي وبدأ يلاعب الطفل مظهراً له سائر أنواع الملاطفة فأراني والحالة هذه لم أقترف إثماً ولم أجن ذنباً ثم خرجت مقطبة الوجه .

ـ لا أهمية لتأخرها هذا يا عزيزتي مرغريت وكثيراً ما يحدث ذلك في كل زمان ومكان ولا بد من أن يكون كلامها صحيحاً وإن ذلك الرجل توفي له حديثاً ولد من عمر مكسيم .

ـ أفهم كل هذا ولكن قصدي أن لا تكلم أحداً بالمستقبل لأن الآداب توجب على الانسان ولا سيما المرأة أن تكون في غاية الاحتشام كما لا يخفى عليك .

ـ لا فضَّ فوكَ ونعْم الرأي رأيك . ها أني أراك قد تعافيت من الزكام وملكت تمام الصحة التي هي أغلى من كنوز الأرض عندي فإذا كان الجو نهار غد صافياً فلا بد من الخروج للتنزه . وفي أثناء ذلك دخل الخادم وبيده رسالة برقية باسم روجر يطلب بها مرسلها من الدكتور روجر الاهتمام

ببعض الشؤون فخرج على الفور وعلى أثر ذلك دخلت المرضع إلى قاعة الطعام وهي لم تزل مقطبة الوجه متمتمة ، فأجلست الطفل بالقرب من أمه وأحضرت له الطعام قائلة في نفسها : يظهر أنه لا ثقة لهم بي فأي شيء ارتكبت من سوء الأدب يا ترى ؟

ـ صادفت رجلاً بالطريق فسألني باهتمام عن عمر الولد وبما أن الآداب تقضي عليّ بمجاوبته جاوبته ولا أراني مخطئة في ذلك .

ـ ما مضى قد مضى دعينا من هذه القصة . الآن اذهبي لإتمام شغلك كما كنت أفهمتك .

وكانت يد مرغريت تنتفض انتفاض العصفور بلله المطر عندما كانت تلقم الصغير لأنها فهمت من كلام المرضع ووصفها بأن الرجل هو ألبير بعينه فغلت مراجل الشوق والهيام في قلبها وتساقطت دموعها الغزيرة وحنت إلى ألبير حنين الظمآن إلى الماء والعليل إلى الشفاء ثم ضمت ولدها إلى صدرها وانهالت عليه باللثم والتقبيل أكثر من عادتها .

الفصل السادس

إن حال مرغريت قد تغيرت تغيراً كلياً مذ أخبرتها المرضع بأن رجلاً صادفها في الطريق وعادت لا تذوق الراحة ولا طعم الكرى لأن ذكر ألبير لازمها ملازمة الظل وفي أكثر الأيام كانت تخرج للتنزه مع المرضع ومكسيم على أمل أن تصادف بغيتها وغاية غاياتها غير أنها لم تجد له عيناً ولا أثراً مع أنها كانت تكثر من التر داد إلى الحديقة المذكورة . وفي ذات يوم خطر في بالها بعد أن عيل صبرها أن تسأل المرضع ألم تزل تصادف الرجل المذكور فأجابتها بأنفة :

ـ نعم أجده مراراً لكني كل مرة ألمحه عن بعد أسير في طريق آخر حتى لا ألتقي به ولولا ذلك لكنت حضرتك تقولين إني أنا التي أفتش عنه لأستميله إليَّ . قلت والشيء بالشيء يذكر إن اللواتي يرمن استمالته إليهن كثيرات من ذوات الجاه والوجاهة والجمال الرائع ولعمري أني لا أصلح أن أكون خادمة عندهن ويظهر لي أن الرجل جدير بالاعتبار حري بأن يكون من رجال الأعمال المهمة ولا يخطىء ظني لأنا نرى غالباً أن المنظر دليل على المخبر .. ولكن يا ليت صحته أحسن منها الآن فانه ضئيل الجسم نحيفه .

كانت تقول ذلك وهي تزعم بأنها تعرف الفراسة وقراءة الأفكار إذ إنها لم تصف الرجل وما هو مفطور عليه من وفرة ذكائها وحسن ادراكها وكانت تنتظر تعجباً وعلامة استحسان من سيدتها مرغريت لكن هذه ظلت

صامتة لا تنطق بكلمة ولا تبدي إشارة سلب ولا إيجاب على أن ما فاهت به المرضع كان يخرق فؤادها كسهام نارية وكادت تجهش بالبكاء لو لم تضبط نفسها بعد الجهد الجهيد .. ولما خرجت المرضع من الحجرة طفقت تفكر في هيجان بالها واضطراب بلبالها وما تلاقيه من العذابات المبرحة لدى تذكرها ألبير فوطدت النفس على أن تبحث عنه في كل ناحية وصوب لتراه ، إطفاءً لغليل أشواقها التي كادت تذهب بحياتها بيد أن عزيمتها فترت عندما تمثلت ناظريها أمانة روجر وحبه المفرط لها فصعب عليها إذاً أن تخون من يحافظ على الأمانة لها أشد المحافظة ولا يزال يبحث عن أسباب سعادتها ورفاهيتها .

إن مرغريت افترقت عن صديقاتها وانفصلت عن صواحبها من عهد زواجها بروجر ولهذا أخذت تشعر يوماً بعد آخر بضجر الوحدة وصعوبة الانفراد فملت هذه العيشة . مع أنها في مدة اقامتها مع ألبير كانت قد اعتادت على مبادلة الزيارات والإجتماعات البيتية والرغبة في اللبس والتبرج والتزين بأنواع الحلى الثمينة . ومنذ اقترنت بروجر رغبت عن كل ذلك واستقلت بذاتها استقلالاً تاماً اجتهدت أن لا تلتقي بمن يعرفنها خوفاً من تجديد جراحها العميقة وذكر الأيام الماضية .

أما الدكتور روجر فإنه كان ميالاً جداً إلى هذا الاستقلال ويستحسن جداً عشرة مرغريت ومحادثتها ولذا لم يكن يخالط أحداً من الناس غيرها إلا في النادر وعند الضرورة الماسة . وكان والداه وشقيقته المتزوجة بأحد ضباط العسكرية يقطنون في جهة بعيدة عنه وأخوه البكر كان مهندساً يسكن في ضواحي باريس مع زوجته وأولاده وبما أن المسافة بعيدة كانت المواصلات متعذرة إلا مرات قليلة في أثناء السنة .

لكن في إبّان الربيع كانوا يتزاورون على رغم البعد وكانت مرغريت تحب سلفتها وأولادها الثلاثة ، وهذه لم تكن بأقل محبة لها ولمكسيم الصغير

وكانتا تجلسان وتتجاذبان أطراف الحديث أوقاتاً طويلة تقضيانها بأرق المعاشرات وألطفها .

فعلى هذا الأسلوب كانت حياة مرغريت ، أيّ بين تدليل زوجها وعبادته لها وقبلاتها اللذيذة الحلوة لولدها مكسيم وبين حنو أسرة روجر عليها واحترامهم لها وملاطفتهم إياها إلى أن جمعها الاتفاق بألبير في ذلك المساء كما تقدم ذلك في حينه . وهي تهتز شوقاً وتحن حنيناً إلى ذكر أيام تقضت ما كان أحلاها وأشهاها .

وفي أحد الأيام عندما ضربت الساعة الخامسة هتفت بصوت عال من غير انتباه : لا بد لي من أن أراه ولي الاختيار العام بذلك أن روجر لا يسألني أبداً عن ذهابي وإيابي وألبير كان زوجي واني لأحبه حباً مفرطاً فما المانع لي ..

نهضت في الحال وذهبت مسرعة إلى المكان المعهود إذ لم تستطع أن تصبر أكثر من ذلك ولم يكن سوى القليل حتى وصلت إلى المعهد .

الفصل السابع

اعتادت مرغريت أن ترى ألبير من وقت لأخر ويكون موضوع الحديث معه ايفون وبما أنه كان منكسر القلب ملازم الوحدة والوحشة وتخفف أحزانه بعذوبة كلامها وحسن مسايرتها وأما ألبير فكان أطوع لها من بنانها لا يخالفها بشيء وينتظر أوامرها انتظار هلال العيد ، وجل القصد من معاملته هذه صيدها بحبائله واستجلابها إليه ثانية . وفي مساء إحدى ليالي ديسمبر الباردة قال لها وهما يتجاذبان أطراف الحديث بعد أن سعلت سعالاً شديداً : لا أريد أن تأتي إلى هنا فيما بعد فإن البرد قارس لا يحتمل ! فقالت باضطراب وكيف نلتقي ؟

فرمقها بنظرة معنوية لوحدثت في الأيام الأولى لألقت بنفسها بين ذراعيه وكانت تنتظر الجواب من فيه فخاب أملها !

ثم قال لها برزانة : هل لك بي من ثقة ؟ فلم تقدر أن تجيبه ولكنها أشارت برأسها : نعم .

ـ إن صورة ايفون عندي فيمكنك أن تأتي وتنظريها متى سنحت لك الفرصة .

فأطرقت طويلاً وأحاطت بها الهواجس والأفكار المزعجة إحاطة السوار بالمعصم ثم تأملت في أنه كيف يحسن أن تدخل ثانية تحت سقف بيت ألبير ولو دقائق يسيرة ؟

وعندما تيقنت ذلك وتصورت ابنتها في ذلك البيت اقشعر بدنها وشعرت بأن الأرض ترتج تحت قدميها وظهر لها أن الأشجار تجري وجميع النباتات تدور وكأنما الكون قد انقلب ومناظر الطبيعة تغيرت أمام ناظريها وبينما هي كذلك قالت على غير انتباه نعم سأذهب وأرى ايفون !

غير أنها بعد أن لفظت ذلك كنت تراها غارقة في بحر من الأفكار والهواجس المؤلمة ، وكانت كأمواج البحر يلاطم بعضها بعضاً ، وعيناها تمثلان أمامها صورة ذلك الوجه المحبوب الذي كان لها في الماضي وهو ليس لها الآن . ثم إنها ذكرت أنها أقسمت وابنها على ذراعيها على أن لا تعود إلى التفكير في ألبير ومع ذلك حنثت بيمينها .

فيا ترى ألم تكن تحب مكسيم ؟ نعم كانت تحبه حباً شديداً وقد كان يسهل عليها تضحية حياتها من أجله ولكن من جهة أخرى كانت تظن أن ألبير هو أكثر ضرورة لحياة قلبها من مكسيم ولدها . والحالة هذه ان كانت لا تخاف الموت حباً بمكسيم فإنها من جهة ثانية لا تطيق الحياة وهي بعيدة عن ألبير .

فمن يا ترى في هذه الحياة الدنيا يشفق على هذه النفس المسكينة ويساعدها كي تنتصر على حبها وتتخلص من هواجسها المضنية التي تحاربها ليلاً ونهاراً ! ! من هو الذي ينجيها من شعورها ويبعد عنها آلامها التي تعذبها كثيراً ! من ذا يضمد كلوم قلبها بتلك المراهم الشافية !

فتباً لك أيتها الدنيا الخادعة وتعساً لك أيها الدهر الخؤون بأهله !

بكت مرغريت بكاء مراً وتنفست الصعداء مراراً وألبير يطيب نفسها .

ولعمري انه الأولى بالتعزية والأجدر بالشفقة والمرحمة لأنه كان بحالة يرثى لها لا تنفع فيها تعزية فحري به أن يبكي وينوح على حياته التي كانت مفعمة من الصفاء والهناء فأضحت مقرونة بتراكم الحزن والعناء !

الفصل الثامن

في ذلك المساء أصيبت مرغريت بحمى شديدة وعسر تنفس كاد يذهبان بحياتها ولم تعلم والدتها بذلك إلا في صباح الغد فأسرعت هذه إلى حجرة ابنتها لتفتقدها وتعتني بتمريضها. وبعد أن عاهدت على نفسها أن تحمل أعباء ذلك أظهرت لصهرها كدرها العظيم وقالت على مسمع منها: إنها لعنيدة جداً. هي تعرف حق المعرفة أنها ضعيفة وصحتها منحرفة وأن مزاجها اللطيف لا يحتمل شدة البرد والحر ومع هذا وذاك فلا تبالي بل تخرج من المأوى زمن وقوع الثلوج والأمطار.

فقال روجر يعذرها: إن الزكام في هذا الفصل يحدث على رغم التحفظات والاحتياطات لأن حال الجو رديئة تصب الزكام وباقي العلل صباً.

ـ اني لا أعتقد صحة القول فعليك أن تأمرها بأن لا تخرج في مثل هذه الأوقات كما أن عليها الامتثال لأمرك. إنها توالي الخروج منذ أسبوع كامل!

ـ الآن يجب أن نهتم بمعالجتها وتمريضها لا لومها وتعنيفها. ثم دخلا معاً حجرة المريضة التي لم تبتسم لهما ولم تعرهما جانب الالتفات مع أنه خاطبها قليلاً فلم تجبه متظاهرة بأنها نائمة فلم يبطىء ان خرج لعيادة مرضاه بعد أن أوصى أمها بالتعليمات الضرورية أما هذه فسألته بعد أن رافقته إلى الباب: لا تكترث بنا كأننا مسسنا احساساتها بأمر ما.

ـ لا بأس بذلك فإن هذا من آثار الحمى وأنا سأعود بعد قليل .

إن الدكتور روجر لم يضطرب من مرض زوجته لأنها لم تزل في عنفوان صبائِها ، وهو ، هو نفسه يعالجها ومع ذلك كان يشعر بغصة في صدره فقد شعر بعدم اكتراث مرغريت به بعد كل ما أبداه لها من علامات الحب والاحترام كما أنه لسلامة قلبه نسب هذا الفتور إلى شدة الحمى مع أنه كان يشعر أثناء ذلك بغم داخلي ضاغط على قلبه وسائر أحشائه وكان يخشى أن ترغب عنه وتقرع سن الندم على قبولها إياه بعلا . ولو لم تحرضه وترغبه أمها لما أقدم على طلب يدها فإنه مع فرط حبه لها لم تكن مخلصة له في حبها كل الإخلاص وعندما كان يجالسها يشعر بنوع من الانقباض . كان فؤاده يتلهب حنيناً إليها لكنه لم يجسر قط أن يظهر لها جميع عواطفه . وكثيراً ما كاد يترجم عن إحساسات قلبه وما يكنه فؤاده من الولوع والوله بها لكنه يلجم لسانه عن التفوه ولو بكلمة واحدة أمامها نعم إن كل ما يفعله المحب لسعادته وهناء زوجته فعله روجر ، بل زاد عليه أضعافاً ومع ذلك لم يتمكن من التوصل إلى امتلاك قلبها .

نعم طالما خطر على باله ألبير زوجها الأول وكان يشعر بقرب وقوع الخطر . وسأل نفسه يوماً عما إذا تلاقيا اتفاقاً ماذا يصنعان هل يحوّل الواحد منهما وجهه عن الآخر غير مكترث بملاقاته ولا ذاكر تلك الأيام التي تقضّت .

إن روجر مع ما هو عليه من حدة الذكاء والفطنة لم يقدر أن يجيب على هذا السؤال ! لكنه من هذا وغيره علم بأن سعادته إن هي إلا وقتية سريعة الزوال وان بيته مبني على الرمل .

وإذ كان الدكتور روجر من ذوي الرزانة والعقل الراجح رام أن يشغل أفكاره بغير ذلك فذهب إلى عيادة مرضاه وكان يصغي إلى وصف

أعراض العلة منَ فم المريض بكل تأن وانتباه أكثر من العادة قاصداً بذلك ملاشاة همومه وإبعاد غمومه باشتغاله بأمراض غيره وكان في الساعة المعينة يرجع إلى مسكنه ماشياً بدلاً من أن يركب حسب عادته وذلك ليسرح نظره ببعض المناظر التي يصادفها في طريقه . وفي أحد الأيام رأى وهو سائر أمامه مركبة تجري بألبير وكان وقوع نظر الواحد منهما على الآخر كوميض البرق فتوقدت في قلب كل منهما نار محرقة دونها جمر الغضا . وإن هي إلا لحظة حتى قال روجر في نفسه : سأبذل نفسي في سبيل حفظها لي حتى آخر نسمة من الحياة .

أما ألبير وقد التهبت نار الغيرة في فؤاده أقسم في نفسه قائلاً : والله لأسترجعنها ولو كلفني ذلك فقدان حياتي .

الفصل التاسع

عندما شفيت مرغريت شرعت أمها تؤنبها على قلة مداراتها لصحتها وعدم الاعتناء بها وكانت تكرر ذلك كثيراً على مسامعها ومرغريت لا تصغي إليها شيئاً . وفي بعض الأحيان كان روجر داخلاً فسمع زوجته تقول : كفاني كفاني ما سمعت منها .

فبادرتها أمها بالدفاع عن نفسها مؤكدة لها أنها لا تقصد سوى خيرها لأن الحب الوالدي يدفعها إلى ذلك حباً براحتها الخ . لكن روجر غيَّر موضوع الحديث وقال . دعينا من هذا الجدال يا عمتي فإن مرغريت لم تزل ضعيفة ، قال هذا ودنا منها مستعلماً عن أحوال صحتها فلم تقابله بوجه باش ومع ذلك جلس بالقرب منها معتنياً بأمرها غاية الإعتناء وبعد أن جس نبضها قال مسروراً : لقد تعافيت وعادت صحتك إلى حالها الأول فالحمد لله على السلامة . فقالت أمها هامسة . قد حصل لها ضعف آخر .. فقال إن كان ذلك صحيحاً فهو من آثار الزكام . ثم قالت الأم لروجر بما أنك هنا يمكني أن أذهب لأغذي مكسيم .

ـ عودي إلى هنا يا والدتي .

ـ سأرجع بعد بضع دقائق .

ـ ويلاه إلى متى يجب أن أحبس هنا فقد ضاق صدري يا روجر .

ـ إن خروجك يا مرغريت يتعلق بجودة أحوال الجو لا بإرادتي كما لا

يخفى عليك وهل تعلمين بماذا افكر ؟

ـ لا أعلم قل لي إذا شئت .

ـ مرادي أن أمضي بك إلى جهة الجنوب .

ـ وماذا يا ترى أفعل في جهة الجنوب ! لا . لا بل أفضل البقاء معك هنا . إن مرغريت لم تتملق بقولها هذا إذ إنّها كانت تعلم حق العلم أن روجر هو سندها الوحيد .

ـ كوني على ثقة بأني ذاهب معك .

ـ ولمن تترك المرضى الذين تعالجهم .

ـ إني أوصي بهم أحد أصحابي الأطباء .

ـ لا بل أفضل البقاء في العاصمة باريس .

ـ عليك أن تطيعيني يا مرغريت بما أني أنا الآمر وصاحب البيت !

قال هذا باسماً . فصمتت وحدقت به طويلاً .

ـ والحالة هذه ينبغي أن تغادري العاصمة .

ـ إن كان ذلك كذلك فأنا مريضة جداً والسفر يتعبني .

ـ أما الآن فإنك تعافيت ولست مريضة . ولكن من الممكن أن تداهمك علة ما ، وذلك مما يكدر صفاء عيشي يا عزيزتي فأريد إذاً أن أتخذ كل الإحتياطات الواقية فكوني على ثقة من ذلك إذاً .

ـ إني لا أشك في حبك لي يا روجر ولكن لِمَ تكلمني بهذا اللحن والنغمة الجديدة .

ـ إن حياة الزوجين يجب أن تكون مرضية وسعيدة ذات صفاء وهناء لا يكدرها أقل شيء البتة ولعمري ، إن ذلك لا يتم إلا بمبادلة تمام الثقة

بينهما وينبغي على كل منهما من باب الوجوب أن يفتح قلبه لرفيق حياته هذا ويطلعه على ما يسره ضميره في السراء والضراء كاشفاً له أعماق قلبه ولو شعر على نوع ما بألم من هذا الإقرار .

عندما سمعت هذا الكلام حدثتها نفسها من أنه عارف بوجود ألبير في العاصمة ولهذا قالت : حتى الآن لم أفهم شيئاً فما معنى هذه الألغاز يا ترى !

ـ لقد تعذبتِ أيتها العزيزة في ما مضى وقد آليت على نفسي أن أبذل مجهودي في أن أنسيك ذلك وقد يعسر لسوء الحظ محو ذكر الأيام الماضية المحزنة في هذه الحياة الدنيا ثم أني لمتأكد أنك تنقبضين ولو قليلا متى علمت بوجود ألبير في العاصمة بل أنا قد رأيته رأي العين وبما أني شريكك في آلامك يجب أتجنب كل ما يسبب لنا انفعالاً .

وعند سمعها ذلك امتقع لون وجهها وأصفرت شفتاها وشعرت بضيق في صدرها بعد أن دمعت عيناها فدنا منها روجر وأخذ يديها الباردتين بين كفيه .

ـ لا يحق لي أن اتكدر من دموعك هذه عند ذكر ذلك الرجل ، المعروفة صفاته حق المعرفة وأنت أعلم بها مني أما رجوعك إلى الوراء فهو من رابع المستحيلات . نعم لقد أصبحت لي وخاصتي ونحن الإثنان لسنا سوى واحد وما ألبير إلا خيال نظرته في ماضي حياتك . كما أنك لا تستطيعين أن تنسي إليَّ القساوة والظلم وسوء المعاملة بهذا القول . فوحقك إن ذلك لا يصدر إلا عن حب مفرط لا نهاية له بلى وتربة ايفون ! ! فإذا لا سمح الله اقتضى يوما ما أن أعمل لك عميلة جراحية تقتضي استعمال آلات الجراحة لأجل تمزيق لحماتك فلا تحسبين ذلك قساوة مني بل تعرفين حق المعرفة بأني أتوجع في الوقت عينه . وفي غضون ذلك كانت دموعها تسيل من تحت جفنيها المغمضين .

ـ إني طبيب كما تعرفين وصناعتي قائمة في أن أوجع لكي أشفي لكني لا أرتضي بمعالجة جسم أزمنت علته إن لم تكن للعليل الثقة التامة بي . وعليه فإن كان ذلك كذلك يجب أن تخبريني بأوجاعك وتطلعيني على سائر آلامك لأداويها فإني أبذل حياتي دونك إذا اقتضى الأمر . لِمَ تبكين هذا البكاء أمامي ان مهجتي تذوب حناناً عليك عندما أرى دموعك .

إن مخاطبة مرغريت بهذه اللهجة التي ملؤها الحب وسائر أنواع الملاطفة والمجاملة عطف قلبها إليه وأثر فيها تأثيراً شديداً فحاولت أن تقول باسمة :

وماذا عليّ أن أقول :

ـ ربما ترغبين في الماضي ورجوع القديم إلى قدمه . فأنا أشير عليك بأن تميتي هذا الفكر ولا تدعي للتذكر به سبيلاً . نعم أنا لا استأهلك فإنك لأسمى مني وهذا لا يختلف فيه إثنان . وعندما تزوجتك عهدت على نفسي واجبات لن اهملها أبداً نعم سأدافع عنك حتى آخر نسمة من حياتي انظري إلي واجعليني دائماً نصب عينيك ولا تأملي العود إلى الماضي (هنا شعر بارتعاش يدها التي بين كفيه) قد قبلتني يا مرغريت بتمام إرادتك وكنت أحبك كما كنت أظنك تعيسة ..

ـ نعم كنت تعيسة .

ـ فلندع الماضي نسياً منسياً . إن ايفون توفيت فاعتبري أن ألبير مات أيضاً فتصوري أنك لن تجدي له أثراً ولا عيناً !

فأنت أنيناً يلين له الصخر الأصم لدى ذكر ذلك .

ـ واعلمي أن لك زوجاً حنوناً للغاية قد وقف حياته على رضاك وهو لا يحلم بسوى سعادتك ورفاهتك ونظرك أعظم برهان على ذلك لأنك ترين رأي العين ما أفعله استجلاباً لرضاك . إن لك ولداً تتسلين به فهل نشتت شملنا بيدنا من أجل من مات ؟

فهمت أن تقول بأعلى صوتها : لا لم يمت.الميت لا يتألم وألبير يتألم ! فأدرك روجر فكرها لذلك قال : لسنا بمسؤولين ان نشفق على من أساء إلينا وهدم أركان سعادته بيده . فانعطافنا عليه والحالة هذه يقع في غير محله . لم أرَ ألبير سوى لمحة بصر لكني متأكد أنه قد تغير كثيراً وأصبح شاحب اللون ممتقعه ..

فانتفض بدن مرغريت وقاطعته بقولها : نعم وقد رأيته . فسك روجر نفسه وملك عواطفه وقال : حقاً إنك لمسكينة أنت ولِمَ لمْ تخبريني بذلك ؟

ـ وكيف أخبرك ؟

ـ لأنه ما من ذنب لك إذا وجدته في طريقك كما وجدته أنا مثلاً . نعم أنا أعلم وأنت كذلك والناس أجمع يعلمون أن هذا الرجل هو سبب تعاستنا ومجلبة لتكدير صفاء عيشنا .

ـ قالت أنا محتاجة إلى الهواء وزفرت زفرة شديدة ثم ألقت رأسها إلى الهواء مغمى عليها . فخف روجر يرش وجهها بالماء البارد مع تنشيقها المنعشات وعندما فتحت عينيها أخذها إلى مكتبه لأنه أدفأ ووعدها بأن يسافرا معاً بأقرب وقت .

الفصل العاشر

كان الثلج يقع بكثرة من وقت إلى آخر حتى أن البرد أضحى قارساً لا يحتمل فلم يعجب ألبير من طول غياب مرغريت وهو لم يكن ينتظر رجوعها إلا بعد مضي عدة أيام وهو كان يعرف حق المعرفة ضعف طبعها وأنها تتألم كثيراً قبل أن تقرر أمر زيارتها له .

أما عيشته فكانت مملوءة كدرا وشقاء وهو أليف التعب سمير الضجر نديم الأفكار المزعجة وهواجسه لا تصور له سوى سعادته وتلك العيشة الرغيدة في ماضي الأيام بين الأحباب والأصحاب وحين يأخذ به كل ذلك مأخذه ينظر حوله نادباً حظه وتكاد تخنقه العبرات لسبب تلك الوحدة التي لم يألفها .

عندما جرى ما جرى بخصوص أمر بلانش وغادرت مرغريت بيته ظن أنها ذهبت إلى أمها لتقضي بضعة أيام ثم تسبل ذيل المعذرة عنه وتعود إليه . وكان يتذكر ما كانت تردده على مسامعه مراراً في أوقات إتحادهما وسعادتهما وهو أنها لا تقدر أن تحتمل منه خيانة ولو صغيرة . وإذا ظهر منه شيء من هذا أو نوع من الخداع فإنها تكرهه بقدر ما أحبته ثم أن حنوها يتحول إلى قساوة عظيمة !

على أنها حينما فاجأته وهو يلاطف بلانش بأرق الكلام استحوذ عليه الحياء والخجل وخشي عاقبة هذا الأمر ولم يأل جهداً في استعمال جميع الوسائط الممكنة لاسترجاعها ولم يصادف إلا الفشل وعاملته معاملة قاسية

حتى التزم أن يقطع كل أمل من جهة رجوعها . ولم يرَ من نفسه أن التذلل يليق بشخص نظيره بل شمخ بأنفه تاركاً حبلها على غاربها .

وكانت بلانش خفيفة الروح حسنة الوجه مستديرته لطيفة المعشر لكنها غير مستقيمة المبادىء ولا حاجة إلى إيضاح ذلك ..

مر أمام نظر القارىء أن مرغريت حزنت أشد الحزن بعد وفاة ابنتها ايفون فعادت لا تعتني بزوجها ألبير كما يقتضي بل أطلقت العنان لدموعها واستسلمت إلى الحزن المضني وهي تمضي أكثر أوقاتها بالبكاء والنحيب وكانت بلانش تكثر من زيارتها لها لتعزيها وتسلي ألبير وأما مرغريت الحسنة السيرة الطيبة السريرة ذات الضمير النقي فكانت تشكرها على حبها وتسألها بإلحاح أن تطيل الإقامة عندها . وفي أحد الأيام دعتها إلى الذهاب معها إلى المصيف فلبت هذه الدعوة شاكرة ولم تمض سوى أيام قليلة حتى صارت خليلة ألبير ومرغريت لا تدري من ذلك شيئاً .

وبعد أن افترق الزوجان ظلت بلانش تتردد إلى ألبير حيناً من الدهر وبعد ذلك اختلفا وتحول الحب إلى بغض وعلى أثر هذا انفصلا كل الإنفصال . ولم يكن إلا القليل حتى تذكر ألبير تلك السريرة الطيبة والقلب النقي والعفاف الذي لا عيب فيه والحب المخلص والأخلاق المرضية المتصفة بها مرغريت ورام في الوقت عينه من صميم فؤاده أن تعود إليه في الحين ، وأنه مستعد أن يكفر عن هفواته التي بدرت منه عن غير قصد تام وكان يخال هذا الأمر سهلاً لعلمه بحبها السابق وهو يناجي نفسه بقوله : إني مستعد لتحمل أعظم الأهوال إذا اقتضت الحال لإسترجاعها إليَّ .

وبعد مرور عشرة أيام من اجتماعهما الأخير صفا الجو وأشرقت الشمس وابتسمت الطبيعة وغردت الأطيار على غصون الأشجار ومرغريت لم تبد طلعتها فقلق من هذا الإبطاء فتناول القلم وكتب لها عدة رسائل ثم مزقها وضرب بها عرض الحائط وكان يكثر من الذهاب صباحاً إلى البستان الذي

تردد إليه المرضع ومكسيم ابن مرغريت باحثاً مفتشاً من كل ناحية وصوب فلم يقف لهما على أثر .

وفي ذات يوم رأى والدة مرغريت من غير أن تراه فتبعها عن بعد إلى أن دخلت البيت وكان عالماً بأنها تسكن في مسكن ابنتها في الطابق الأسفل ثم دخل بعدها ببضع دقائق وصعد درجات السلم إلى أن رأى باباً عليه اسم الدكتور روجر وبعد أن قرعه فتح له فقال : اين الدكتور روجر !

فأجابته الطباخة فاتحة الباب : هو غائب وأظن غيابه يطول مدة شهر على الأقل فإنه ذهب منذ ثمانية أيام مع زوجته . ولم يكد يسمع هذا حتى رجع القهقرى وهو يتلهب غيظاً وكدراً من هذا السفر غير المنتظر وأخذ يتنفس الصعداء حتى كادت روحه تبلغ التراقي .

الفصل الحادي عشر

عاد ألبير إلى مسكنه ودخل حجرته في حال يرثى لها ثم جلس وأسند رأسه بيده وجعل يفكر في أحواله المحزنة وتمثل في مخيلته مشهد اجتماعه الأخير بمرغريت وإذ تصور هزالها خصوصاً بكى بكاء مراً لأنه لم يظهر لها أفكاره حينئذ ، وندم على تركه إياها تذهب من غير أن يستوقفها ويصحبها معه إلى بيته الذي هو بيتها أيضاً .

أما أمر سفرها إلى الخارج فلم يكن يخطر على باله قط وقد ظنها قصدت بذلك قطع المواصلات بينها وبينه .

وعلى أثر الإنفصال الذي جرى منذ خمس سنوات ترك المسكن الذي أقاما به بعد زواجه وعاد إلى منزل والدته حيث اتخذ الحجرة التي كان يقطنها في مدة صباه وبعد وفاة أمه بقي في البيت نفسه لأنه كان جميلاً بعيداً عن الحركة وضوضاء الناس يكتنفه بستان صغير يحتوي على كثير من الأزهار المختلفة والرياحين المتنوعة وتكسو أرضه الخضرة النضرة والأشجار التي تغرد على أفنانها الأطيار . وكانت حجرته مطلقة الهواء تشرف نوافذها على البستان وعلى أرضه التي كانت تعلوها الخضرة في أكثر الفصول .

وكان قد شرع يهتم كل الاهتمام بتزيين هذه الغرفة وتحسينها من حين وعدته مرغريت بزيارتها وقد وضع فيها شيئاً من الأثاث والأدوات التي كانت عنده يوم كانا معاً لكي يحرك عواطفها ويحيي في قلبها ذكر أيام ما كان أحيلاها وعلق في الجدران صورة ايفون ومرغريت ووالدته .

وإذ رجع من بيت الدكتور روجر وأجال نظره طويلاً في جدران الحجرة الأربعة وتأمل في عظيم اهتمامه وشديد اعتنائه بالزخرفة التي تعب بها عبثاً زاد غمه وضاقت الدنيا في عينيه حتى كاد يفقد رشده . نعم قد اتهم بوصمة الخيانة وعلى أثرها انفصلت عنه زوجته متخذة آخر بدلاً منه وفقد ابنته ثم توفيت أمه ولا شقيق يحن عليه ولا خليل يميل إليه ولا صاحب يسكن لوعته ويخمد حرقته فتراه قد أصبح شريداً طريداً يندب سوء حظه ويبكي على أيامه الماضية .

وكان بعد أن اجتمع بها في المرة الأخيرة انتعش فؤاده وحييت آماله وشعر بأن لا طاقة له على العيشة بدونها ولا اصطبار على الافتراق عنها ، وعليه فلم يقنط من استرجاعها . وقد طالما قرع سن الندم على تركه إياها تقترن بروجر وكاد في بعض الأحيان يتميز من الغيظ والغيرة عندما يحصر أفكاره وتزيد هواجسه مفتكراً كيف أن مرغريت تقيم مع روجر وتسافر معه حيث اتجه وتسير مستندة على ذراعيه وهو ، هو زوجها الحقيقي لا روجر . الذي لا يقدر أن يكلمها كلمة واحدة ولا أن يكاتبها حتى لا يحق له أن يراها وهذا حال الزمان والدهر بالناس قلب .

نعم ان ألبير لو وجد روجر في البيت عندما ذهب إليه لهجم عليه وقبض بيده على عنقه وخنقه انتقاماً منه شافياً غليل غيرته .

الفصل الثاني عشر

إن مرغريت اشتهت ورغبت من صميم فؤادها بأن يكون روجر مانعاً حصيناً بينها وبين ألبير ولذا تراها أطاعته منقادة لمشوراته بكل هدوء وسكينة .

وقد أقاما بضعة أيام في مدينة كان الشهيرة بجمال سمائها وحسن هوائها ورونق مناظرها الطبيعية وأما صحة مرغريت فإنها قد تحسنت تحسناً بيِّناً . كيف لا وروجر قد جعلها موضوع أفكاره وقيد هواجسه يعتني بها اعتناء الأم الحنون برضيعها يعطف عليها ويميل إليها ويلاطفها غاية الملاطفة كأنها ابنة صغيرة وهذه المعاملة الفائقة الوصف أثرت في نفسها تأثيراً شديداً وكانت تشعر بامتنان فائق لا تستطيع أن تكافئه عليه ما دامت حية ولم يكن إلا القليل حتى فارقتها تلك الهموم والغموم ونسيت تلك الأحزان السالفة ولم يعد يزعجها بعد ذلك ألبير ، ولا كل ما يتعلق به ، ولم يحل لها سوى الإقامة بقرب زوجها روجر وطلب السعادة بمساكنته .

لم يخطر على بال روجر أنَّ زوجته هذه اقتربت من ألبير وكلمته وقد كان يظن أنها صادفته بغتة في الطريق نظيره ولأجل ذلك لم يخامره حقد أو غيظ منها نظراً لما أظهرته من التأثرات لدى ذكر ألبير بل ان ذلك الإنفعال الطبيعي دلالة صريحة على رقة شعورها وطيب قلبها ولما رأى أنها مالت إليه كل الميل سر غاية السرور وزاد اهتمامه وفاق ولوعه وهيامه بها حتى أنه جعل كل أوقاته وقفاً على خدمتها وملاطفتها .

أما مرغريت فإنها قدَّرت محبته حق قدرها وزادت ثقتها به ولهذا أرادت

أن تطلعه على مكنونات فؤادها وكل ما حدث لها مع ألبير . ففي إحدى المرات بينما كان الحديث جارياً بينهما والموضوع موافقاً وجدت فرصة ملائمة لإخباره فقالت : أريد الآن أن أخبرك ... عندما لفظت هذه الكلمات ظهر على وجهه اضطراب عظيم وارتجف بدنه ولم يقدر أن يضبط نفسه وقال بماذا تخبرينني : فعدلت عن عزمها الأول وغيرت معنى الجملة بشيء آخر ، وعلمت منذ تلك الساعة أنه يصعب عليها جداً أن تخبر روجر باجتماعاتها بألبير ، مع أنها كانت تود أن تكون له معرفة تامة بها ، لأنه أدرى منها بحل المشاكل وتذليل الصعوبات ، وكانت من حين زواجها به تشرح له أفكارها وسائر عواطفها إذ أنها كانت متحققة حبه الثابت الذي لا يتزعزع لكنها لم تجسر على التكلم في هذا الموضوع البتة .

إن روجر على أثر اقترانه بها لم يطلب منها حباً لأنه كان عالماً بهمومها وأحزانها فلا معنى لتكليفها الحب حينئذ لأن قلبها مشغول بغير شيء ، ولكن كان في أثناء السفر يجتهد غاية الإجتهاد في اكتساب قلبها بكليته واشتهى أن تحبه كما يحبها وخلع عنه ثوب الإرتباك وأظهر لها من الجرأة والقوة ما لم تكن تعهده فيه قبلاً فسلوكه هذا صدها عن المداخلة في مثل هذا الموضوع .

ان مرغريت كتبت مراراً إلى والدتها تخبرها بوفرة انشراحها وفرط سرورها وما هي عليه من حسن الحال وصفاء البال مادياً وأدبياً . وذلك مما لا جدال فيه فإن سرورها في تلك البقعة أنساها كل ما كان يزعجها ويقلقها ناهيك عن بقعة قد اشتهرت بمناظرها الطبيعية الفتانة فاعتدال الهواء وصفاء السماء وزرقتها ونقاءها وبهجتها وجمال الأفق الذي يسحر الألباب ويسبيها حيث تحته البحر المتوسط الذي تتكسر أمواجه على تلك الشواطىء التي تأخذ بالعقول كل مأخذ ، هذا فضلاً عن جمال مناظر ما يجاورها من الجبال والأكام الخضراء التي مجرد رؤيتها يحيي القلوب المنكسرة وكانت مرغريت تشعر بأن قلبها يتسع وينفتح رويداً رويداً حتى يكاد يحتضن الفضاء وزرقة

القبة الخضراء .

وكانت في صباح كل يوم تسير مع روجر على شاطىء البحر حيث تصادف بائعات الأزهار المختلفة الألوان والأشكال فتشتري منهن باقات ذات روائح عطرة تنعش القلب وبعد سير ساعة من الزمان تعود إلى الفندق مستندة على ذراع زوجها وكانت عندما يعرب لها عن شعائر حبه تصغي إلى كلامه باسمة وتميل بكليتها إليه ثم تشكره شكراً جزيلاً على هذه الإحساسات الشريفة .

وفي ذات يوم سمعت من بعض الجالسين نبأ المقامرة التي تجري في ملعب مونتي كارلو الشهير فقالت على الفور لروجر : وأنا أيضاً أرغب في الذهاب إلى هناك لأجل المقامرة . إذ إنها كانت تشعر من نفسها باحتياج إلى التنقل من مكان إلى آخر لتغيير المناظر الجديدة على توالي الأوقات وفي أثناء ذلك اليوم كانت تحدث روجر بالمقامرة ومونتي كارلو والذهاب بأقرب وقت والربح وما يتعلق بذلك والخلاصة لم يدر في خلدها ذلك اليوم سوى المقامرة ومكانها . أتظن أني أربح يا روجر .

ـ إذا كان الربح غاية متمناك فليكن لك ما تشتهين !

ـ لا أقول لك إن ذلك غاية مشتهاي لكني أسألك ماذا تظن بذلك لعلّي أكون صاحبة بخت فما هو اعتقادك .

ـ اعلمي يا عزيزتي أني لسوء الحظ لست موسى ولا حزقيا ولا إيليا فلا تكلفيني بأمر النبوءات فإني عاجز عنها .

ـ لكن يحلو لي أن أمتحن البخت والنصيب ألا يلذ لك ذلك ؟

ـ لا . إن ذلك ليس من رغبتي ولا يحلو لي .

ـ بالحقيقة يا روجر إن أخلاقك غريبة وطباعك عجيبة أقول لك بكل حرية أنك لست من أهل هذا العصر !

فامتعض روجر من هذا الكلام ولم يحر جواباً بل قال لها إنه آسف على هذه الأوقات العذبة التي بها لا يقدر أن يفارقها ولا دقيقة واحدة .

فأجابته مرغريت بمثل كلامه .

ـ أصحيح ما تقولين ؟

ـ وهل تستغرب ذلك أو تشك فيه !

فاعتقد روجر إذ ذاك أنها تبادله الحب .

الفصل الثالث عشر

في صباح سفرهما إلى مونتي كارلو لم يتكلم روجر سوى كلمات قليلة دون تبسم أما هي فكانت بعكس ذلك غير أنها انقبضت فيما بعد عندما رأته لا يشاطرها انبساطها وابتهاجها ولذلك فكرت في أثناء هذا السفر على رغمها في ألبير وهشاشته وبشاشته ومزاحه وعند بلوغهما المكان المقصود قالت له : ها قد افقت من نومك فالحمد لله !

فأراد روجر أن يضحك ليسرها . وبعد تناول الطعام صعدا على سطح عال يكشف على الجهات الأربع حيث تنجلي للناظر بهجة الطبيعة وجمالها فهتفت : أنظر ما أبدع هذه البقعة وما أجمل هذه المناظر .

وكانت تنظر إلى جميع المارين من الجنسين وتسر إذ تراهم سائرين أزواجاً إذ تعتقد أنهم أحباب وتقرأ في عيني كل شخص ما يجول بخاطره من حب المال .

ثم دخلا محل اللعب الرحب بهذا المقدار وجالا في جهاته الأربع ينظران إلى اللاعبين الكثيرين وبعد ذلك جلست مرغريت ووضعت قطعة ٥ فرنكات على ٤ أعداد فربحت وهكذا ظلت تلعب مدة ساعتين وروجر بالقرب منها لا يفارقها فربحت ربحاً وافراً دون خسارة فلس واحد . وقد سرت سروراً عظيماً ليس بالنظر إلى المال لأنها ذات غنى وافر وهي لا تحب الحصول عليه بهذه الطريقة بل لأنها قويت على البخت وغلبته . وبعد ذلك بمدة غير يسيرة قال لها : ألم تكتف يا مرغريت ؟

ـ نعم قد اكتفيت وها قد ربحت أيضاً مقداراً أكثر من الأول فخذ هذه الدراهم عني قالت هذا وهي تفتخر بحظها ونصيبها . ثم حانت منها التفاتة على حين غفلة فرأت صديقتها بلانش القديمة واقفة بالقرب منها ناظرة إليها وهي تبتسم فذكرت مرغريت ذلك الشقاء الذي سببته هذه المرأة لها وتأملت في ابتسامتها فإذا هي ابتسامة ازدراء ثم مرت أمامها واضعة يدها على خصرها وهي تجر ذيول التيه والإعجاب ولا تسل عن الروائح العطرية التي كانت تفوح منها قد ملأت المكان على رحبه وكان نظر مرغريت يتبعها مراقباً حركاتها وسكناتها وما هي عليه من التبرج المفرط . وإذ بلغت جهة مقابلة لمرغريت استوقفها أحد أصدقائها وبعد أن تبادلا الكلام وقتاً وجيزاً التفت هذا الشخص صديقها إلى جهة مرغريت ففهمت هذه بأن محور الحديث يدور عليها ، وبأسرع من لمح البرق مسكت بيد روجر قائلة :

إخرج بي حالاً من هنا دون ابطاء !

ـ الحمد لله على حسن النهاية فلنخرج ، أما مرغريت فإنها استشاطت غيظاً وغضباً وامتقع لونها ولم تقدر أن تملك كدرها وحينما وصلا إلى خارج المحل سألت روجر هل رأى تلك المرأة ؟

ـ وأي أمرأة تعنين أني لم أرَ امرأة فدعينا من كل هذا وتعالي نذهب إلى ذلك البستان الأخضر الذي نراه في تلك الجهة ونجلس تحت ظل أشجاره .

ـ نعم سر بي حالاً إلى هناك فإني أطوَع لك من بنانك فلا أقدر أن أبقى ولا دقيقة واحدة خوفاً من أن أرى تلك الملعونة مرة ثانية .

ـ كوني مطمئنة لن تريها بعد . وعندما انتهيا إلى البستان الذي يقصدانه جلسا حيث لا تراهما عين . ثم ما هي إلا هنيهة يسيرة حتى هطل الدمع من عينها بكثرة وجعلت تبكي متذكرة حياتها المرة نادبة سوء حظها وهي تتمثل عذاباتها وسائر آلامها أمام عينيها وعبراتها كسيل مدرار وروجر لا ينبس

ببنت شفة بل لزم السكوت لعلمه أن الكلام لا يجدي نفعاً في مثل هذا الوقت. وبغضون ذلك كان يرى أن الحيل قد ضاقت به وعيل صبره ولم يدع واسطة إلا استعملها اكتساباً لرضاها وجعلها سعيدة وذلك لكي يعيشا عيشاً هنيئاً ذا صفاء وهناء.

وبعد أن تعبت من البكاء وخارت قواها وضعف عزمها اسندت رأسها على ساعدة وجعلت تمسح دموعها الكثيرة وهو ساكت كالأول.

الفصل الرابع عشر

إن مرغريت كانت تعتبر أن سكناها مع رجل ووجودها تحت سقف بيته قبل أن يموت زوجها الأول هو من أشد العار وأقبح الهوان عليها أمام بلانش . وهذا الفكر أي أنها ذات زوجين كثيراً ما كان يعذبها ويكدر صفاء عيشها إذا وجد لديها فيه صفاء وهناء ويدع في قلبها جرحاً بليغاً بل جروحاً قتالة وقد أدرك روجر حق الإدراك جميع ذلك وجعل يراقب حركاتها وسكناتها ويقرأ أفكارها بسهولة إلى أن قال في نفسه آخر الأمر : إن السكوت لا يصلح إلا في بعض أوقات والصمت في غير وقته يكون ضرراً محضاً وهذا لا جدال فيه بل هو أمر لا يختلف فيه إثنان وحيث ذلك كذلك لا بد لي من أن احادثها بهذا الشأن . ففي مساء ذلك اليوم ابتدأ بالكلام في هذا الموضوع وجعل يلعن بلانش وينسب إليها الخفة والطياشة وان مبادئها غير حسنة إلى غير ذلك من الكلمات التي خففت عن مرغريت بعض التخفف إلى أن قالت : آه من هذه الشقية والخليقة الجهنمية لعمري ان الناظر إليها يدرك على الفور بمجرد رؤية عينيها أنها عادمة كل حياء فاقدة الشرف الذي هو حلية الإنسان في هذه الحياة الدنيا ولم يكفها هذا بل أنها تكذب على الله والناس بشعرها المصبوغ وحمرتها الصناعية فهي تريد أن تحسب في ريعان العمر على رغم سنيها الطويلة !

ـ وحقك اني بغضتها منذ أول ساعة عرفتها بها . كيف لا وهي تخاطب الرجال بوقاحة هذا مقدارها فضلاً عن الألفاظ المخالفة الآداب التي تتفوه

بها بجسارة كلية . نعم اني سمعت شيئاً عن قلة آدابها وعظم وقاحتها قبل أن أراها .

ـ ومن أخبرك بأخلاقها السيئة ورداءة آدابها ؟

ـ اطلعني على كل ذلك شخص يعرفها حق المعرفة .

ـ أظن هذا الشخص هو ألبير نفسه هو الذي انبأني بكل شيء وقد طالما حرضني على أن أكلفها بزيارتي وكثيراً ما كان يطنب في حسن اخلاقها وخفة روحها واصفاً ما هي عليه من لطافة المعشر .

ـ أما أنت يا مرغريت فاجتهدي في أن تنسي تلك الأيام السوداء المحزنة .

ـ وأنى يمكن ذلك وتذكرها ألزم لي من ظلي فهو يتبعني في كل زمان ومكان .

ـ أبعدي عنك هذا التذكر المضني ، وهل لها من يد يا ترى في حياتك الحاضرة ؟

ـ نعم تقدر تتكلم علي ولا شك أنها أخبرت بقصتي ذلك الرجل الذي استوقفها في محل المقامرة .

ـ دعي عنك هذه الوساوس الجارحة وكيف لا تقدرين على ذلك وأنت ذات إرادة حرة فاستعمليها إذاً لطرد ما يؤلمك ثم تناول كل منهما جريدة وبعد هنيهة قال : يلذ لي تدخين سيجارة في البستان قبل النوم أما أنت فاتبعي مشورتي وأريحي أفكارك وارقدي بسلام .

خرج روجر واضجعت هي على سريرها راغبة في النوم لكن عينيها كانتا تنفتحان على رغمها فلم تجد والحالة هذه إلى النوم سبيلاً بل شرعت تفتكر في كل ما جرى لها كالسابق ومن أنها ستعود قريباً إلى باريس وأما ابتعادها عن ألبير فهو من أصعب الأمور عليها ! بل كيف تتجلد عندما تراه شاحب اللون حزين النفس وكيف لا تذوب شغفاً عند سماع صوته الرخيم

الحلو . ومن جهة أخرى كانت تتألم كثيراً لأن اقتران روجر بها لم يكن كنائسياً وبلانش تعرف هذا . فصعد الدم إلى رأسها عند هذا الفكر وقالت : ربما تظنني نظيرها ثم عزمت على محادثة روجر بهذا راغبة في استدعاء أحد الكهنة ليبارك سر زواجهما في الكنيسة ولم تتصور قط أن روجر يغضب مـــن طلبها هذا بل ظنت عكسه وبعد نصف ساعة عاد من البستان ودنا من سريرها ناظراً في محياها فتناومت وبعد أن أطفأ النور ذهب إلى سريره . غير أنه لم يذق لذة النوم في تلك الليلة وفكر في أن رجوعه إلى باريس صار ضرورياً للغاية بعد غيبة هذا مقدارها وأن مرغريت تعبت من مشقة السفر فكفاها تبديل هواء ورؤية مناظر ، وها هي الآن تتوق إلى الراحة البيتية . عرفت قلبها حق المعرفة وعلى أي شيء ينطوي وزاد حبها لي أكثر من الماضي وذا يكفي بالوقت الحاضر إذ إن الود يزداد نمواً مع الأيام وليس بوسعي أن أمحو ذكر أيامها الماضية ولو كان بامكاني لفعلت من زمان طويل . أنا نفسي لم أعاملها بسوء قط . وما هو ذنبي يا ترى إن كانت الإساءة بدت من ألبير والخيانة من بلانش . فليس من مقدرتي أن أنتقم منهما . فإذا ما هي الجريرة التي ارتكبتها والجناية التي اقترفتها يا ترى وهل من العدل أن أعذب في تكفير الإثم عن غيري . لعمري أن في ذلك لعجباً . نعم إن ذنبي الوحيد هو أني أعبدها وأقف حياتي لها وهي تبتعد عني . أتوق إليها ولا أمل من مشاهدتها ولو جالستها كل أيام عمري أما هي فإن حضوري وغيابي لديها سيان واتيقن أنها تفضل غيابي وبعدي . أنا أسعى في أن انسيها أحزانها وأجعلها سعيدة وهي تقابلني بحرماني السعادة التي لم أذقها من دون كدر حتى الآن . (سمع في غضون ذلك تنهدها فعلم أنها تفكر نظيره) ترى في أي شيء تفكر في هذا الليل الدامس . إني أقسم بالسماء وعلى الأرض أن أحفظها لي ولو قاومني الكون بأسره .

بل سأعبدها عبادة ولو حاربتني نوائب الزمان وسأوفر لها أسباب السرور ما دمت حياً وعيناي تنظران شمس النهار ونجوم الليل .

الفصل الخامس عشر

عاد الأمل إلى قلب ألبير رويداً رويداً بعد أن سحقه اليأس وقتله الملل ، وقال إن مرغريت لا تقيم مدة طويلة خارج باريس لأن ذلك لا يوافق مهنة روجر فرجوعها قريب إذاً وبعد ذلك يشاهدها في حجرته المعدة لاستقبالها المزينة برسمها وذكرها . وكان يخرج غالباً من بيته للنزهة وحينما يصادف بعض أصدقائه القدماء يسلم على هذا ويضغط على يد ذاك ويبش في وجه الآخر ويسر خصوصاً بعشرة أولئك الذين عرفوا مرغريت عنده ويتعجب عندما لا يذكرها واحد منهم .

وفي أحد الأيام مساء ذهب إلى مكان عمومي حيث كان جمهور عظيم من الناس ليلهو عن أفكاره المحزنة ولم يكن يبالي بأنغام الموسيقى وأصوات المشخصين لأن قلبه كان يردد دائماً اسم مرغريت .. كما أنه لم يكن يعبأ بالسيدات الجالسات بقربه وبغضون ذلك قال بنفسه : نعم ملت إلى النساء بماضي الزمان وأما الآن فلا يسطو على قلبي سوى مرغريت . وعندما انتهى الفصل نهض عن كرسيه قاصداً الخروج فسمع صوتاً يناديه . فحول رأسه إلى جهة الصوت وإذا بسيدة هيفاء القد مليحة الوجه خفيفة الحركة تتبعها فتاة لطيفة المنظر لابسة ثوباً من الحرير .

ـ أأنت السيدة فارز ؟

ـ نعم أنا هي وصافحته بوداد باسمة ثم تقدمت ابنتها ومدت يدها لمصافحة ألبير .

ـ أكاد لا أعرف حضرة ابنتك العزيزة !

ـ نعم فإنها تغيرت كثيراً عن الماضي أما أنا فقد تقدمت بالسن ومنذ زمن طويل لم أرك مع أني أسر بمشاهدتك سروراً لا مزيد عليه لأنها تذكرني بتلك الأيام السعيدة ! ولا تبرح من فكري تلك الصداقة القديمة وهل يسوءك ذكر الماضي ؟

ـ بالعكس فإن ذلك يسرني .

ـ أخبرني ماذا تصنع وأين تسكن وكيف تعيش ولم لا تزورنا .

ـ أسكن باريس وأعيش وحدي في بيتي وفقدت والدتي منذ ٦ أشهر وأرى المصائب والأحزان من كل جهة ولا أريد أن أثقل على أحد .

ـ كيف تعيش وحدك ؟

ـ ولم لا أعيش وحدي !

ـ لم لا تزورنا ؟ إني أؤكد لك أن خبر انفصالك عن مرغريت قد غمنا جداً ... وكنت أحبها من كل قلبي .

ـ ذلك الحب مضى الآن .

ـ أراها الآن تبتعد عني ولا أزورها إلا مرة واحدة في السنة وأظن أنها تفضل قطع هذه الزيارة .

ـ وهل رأيتها من عهد قريب ؟

ـ لا . إني لم أرها من عدة أشهر لكني التقيت بوالدتها في الأسبوع الماضي فأخبرتني بأن ابنتها سافرت إلى الجنوب .

ـ قل لي صريحاً ألا يؤلمك ذكرها ؟

ـ لا وحقك .

ـ مسكينة مرغريت فإنها أحبتك كثيراً .

ـ والهفتاه على أيام مضت !

ـ نعم لقد أحبتك جداً وأنت جرحتها جرحاً بليغاً بسلوكك .. وأظنها الآن سعيدة راضية بعيشتها .. وفي أثناء كلامها هذا نظرت أمارات الألم على محياه فهتفت : آه ربما تتألم من كلامي هذا ! ثم مدت له يدها ثانية دلالة على ميلها إليه .

ـ هل تأذنين لي يا سيدتي بزيارتك .

ـ من كل بد اننا نستقبل الزائرين يومي الأربعاء والسبت وحينئذ تسمع عزف ابنتي هذه على البيانو لأنها ماهرة بفن الموسيقي . (عند ذلك توردت وجنتا ابنتها أودت وخفضت عينيها) لو لم تمت ايفون لكانت الآن صبية إذ إنها من عمر ابني جان .. ثم تنهدت طويلاً وقالت : أرى أن لا مجال للكلام هنا لكن زرنا بأول فرصة تسنح لك وحينئذ نتحدث عن جملة أشياء وإن كنت تأبى الزيارات الرسمية في الأيام المعينة للاستقبال فيمكنك الحضور نحو الساعة الثانية بعد الظهر أي يوم شئت وهل بلغك خبر ترمّلي ؟

ـ لا أعرف شيئاً عن هذا .

ـ نعم إن يد المنية قد اختطفت زوجي منذ سنتين .

ـ اقبلي فروض تعزيتي إذاً .

ـ اشكرك غاية الشكر وقد أسفت جداً وبكيت بكاء مراً لحلول هذه المصيبة وحزنت أياماً طويلة ورأيت أن ذلك لا يجدي نفعاً فالأولى أن أسلي نفسي وابنتي هذه لأن الحياة في هذه الدنيا قصيرة ونحن اللاحقون في سبيل الآخرة وهم السابقون عاجلاً كان ذلك أو آجلاً ، لا تنس أن تزورنا عن قريب . ثم ودعته وعادت إلى مكانها . جلس ألبير بعد أن أفعم قلبه سروراً لأنه وجد إحدى صديقات مرغريت وكان من وقت لآخر يلتفت

إلى حيث هي جالسة فرآها مرة تكلم امرأة على القرب منها فعلم أنه موضع حديثهما .

إن مدام فارز هذه عرفت مرغريت في المدرسة إذ كانتا تلميذتين ودامت تلك الصداقة المكينة بينهما إلى بعد زواجهما وبعد ذلك أضحت الألفة أشد من قبل وكانت الأسرتان تتبادلان الزيارات بتواتر وتذهبان إلى التنزه معاً وكانت على اتفاق تام في الأدب والذوق والمعشر وما شاكل هذا وكان ارتباطهما هذا ينمو مع مرور الأيام .

وإذ طرق مسامع السيدة فارز انفساخ ألبير عن مرغريت أسرعت إليها سعياً بالصلح بينها وبين زوجها غير أن مرغريت رفضت مقابلتها لأنها كانت تعرفت ببلانش قبلاً وفضلاً عن ذلك أنه تبادر إلى ذهنها أن ألبير نفسه ربما أحبها وهي لم تلاحظ هذا الأمر نظراً لما هي عليه من السذاجة والثقة الكبيرة وتعلقها الشديد به .

مما لا ريب فيه أن أوهام مرغريت هذه كانت تغاير الحقيقة على خط الإستقامة إذ لم يكن بينهما سوى صداقة خالية من كل عيب وغاية وألفة في منتهى السذاجة ولم تكن السيدة فارز من اللواتي يقبلن على أنفسهن كذا أمور مشينة وأميال معيبة . نعم انها كانت تلبس الملابس الثمينة الأنيقة وتتزين وتتبرج لتستلفت إليها الأنظار وتعجب الناظرين فهي كغيرها من جنس النساء لكنها كانت تهزأ وتزدري بالعشق والعاشقين والحب وذويه ولم تكن تبالي إلا بولديها اللذين كانا قيد اهتمامها وموضوع أفكارها وتدبير منزلها كما يقتضي فإنها كانت على جانب عظيم من حسن إدارة بيتها .

وكان زوجها فارز مهندساً ذا ثقة تامة بها وبحسن أمانتها وعفافها ولهذا جعلها مطلقة الحرية في شؤون إدارة البيت فهي تأمر وتنهي وتزور وتستقبل الزائرين والزائرات وتعمل المآدب الفاخرة حسبما يروق لها . ومن طبعها الميل إلى الإكثار من الإجتماعات العالمية التي تتلوها الزيارات وصنع المآدب

إلى غير ذلك مما لا غنى للسيدات عنه . وكانت تحب زوجها باخلاص وأمانة زائدين ولم يكن هذا الحب على سبيل العشق . وبعد وفاته تذكره غالباً وتدعوه بالصديق الأعظم وقد صبرت على فراقه الأبدي هذا كما لو كان مسافراً .

أما سرور مدام فارز بملاقاة ألبير فحدث عنه ولا حرج كيف لا وقد قضت بعشرته وعشرة زوجته الأيام الطويلة بدون أن يكدر صفوها شيء وقد أخبرت ابنتها أودت بكل ما جرى له مع زوجته من غير أن تضرب صفحاً عن بعض التفاصيل لأنها كانت تكلم ابنتها وتعاملها كأنها امرأة طاعنة في السن معتبرة أن الفتاة المدعوة إلى العيشة في الهيئة الاجتماعية تفتقر أن تعرف ما هو العالم وأي شيء يجري فيه من الخير والشر والحسنات والسيئات على أن هذه الفتاة تحب أن تكون حسنة التدبير في أساليب المعيشة واسعة العقل قادرة على تدبير نفسها بنفسها فهذا هو اعتقاد السيدة فارز ، وعلى هذا النوع والقياس ربت وثقفت ابنتها التي كانت تصغي بانتباه إلى أحاديث والدتها وتتأمل فيها طويلاً . وبعد أن روت لها حكاية ألبير ومرغريت سألتها : قولي يا والدتي : ترى هل أخطأت مرغريت باقترانها ثانية أو أصابت .

ـ لا شك يا ابنتي العزيزة أنها أخطأت كثيراً وهذا كان قول المرحوم والدك .

الفصل السادس عشر

بعد مضي يومين أتى ألبير وقرع باب بيت مدام فارز نحو الساعة الثانية بعد الظهر فسار به الخادم إلى قاعة الاستقبال فنظر إلى ما حوله فوجد كل شيء باقياً كما كان أولاً بدون أقل تغيير وقد تبادر إلى ذهنه فوراً زمان كان يأتي مع مرغريت ولهذا أخذ قلبه يخفق بسرعة عظيمة حتى كاد يشعر أن فؤاده يتقطع ، وترقرق الدمع في عينيه حين خطرت في باله سعادة الماضي وتعاسة الحاضر وظلام المستقبل . وبعد هنيهة حضرت مدام فارز وسلمت عليه قائلة : حقاً إن زيارتك هذه سرتني سروراً لا يوصف وإني أراك حزيناً كئيباً . قص عليّ همومك لعل في ذلك فرجاً لك .

ـ لقد صدقت يا سيدتي فإني حزين النفس كئيب تعس .

ـ أنا شعرت بكل هذا لمّا لمحتك حيث اجتمعنا ويلزم أن تعرف حق المعرفة بأنك أنت الملوم إذ أقدمت على عمل مناف لسنة الآداب فكانت النتيجة أن أزعجت زوجتك وأتعبت نفسك وخربت بيتك بيدك .

ـ خطئت يا سيدتي وخطيئتي عظيمة نعم كنت مجنوناً والجنون فنون وها أنذا تريني أُكفر عن خطيئتي بعيشة مملوءة من اليأس والقنوط والشقاء بل يا لها من عيشة مرة لا تطاق .. واني حتى هذه الساعة لا أزال أحب مرغريت وأميل بكليتي إليها أكثر من الأول . صرح بهذا وهو يشعر بتعزية عظيمة في قلبه . على أنه رأى بجانبها اللطف والجودة والإصغاء التام لحديثه فتسلى نوعاً وقال : ما أطيب قلبك أيتها الصديقة !

ـ إني لا أرى دواء لدائكما .

ـ نعم لا دواء لذلك .

قال هذا على غير ما في ضميره إذ لم يقطع الأمل من استرجاعها .

ـ إن الدواء الناجع الوحيد هو النسيان وترويض النفس بالتنقل والأسفار من جهة إلى أخرى ـ كنت فيما مضى أميل إلى السفر أما الآن فلا .

ـ ألم تزل تحب بلانش ؟

ـ اتبَّعت ذلك حيناً لكني لا أختارها زوجة لي ولو كانت ملكة جالسة على سرير الملك .

وهل تركتها من زمان طويل ؟

ـ منذ عشرة أشهر .

ـ تباً لهذه الدنيا ما أمر الحياة فيها ! أما الآن فقد مضى ما مضى ومتى أطلعت على مرهم شاف لجرحك فلا تتأخر عن المجيء إلى هنا ، فإني أساعدك بقدر إمكاني . إني أتذكر ايفون في مكان اصطيافنا الأخير وسأريك رسمها في حجرتي وكنت أحبها وأميل إلى أمها كثيراً .

ـ إني أعهد أن من طبعها الأمانة فلم تجافيك يا ترى ؟

ـ أظن أنها لا تريد أن ترى أحداً من الذين عرفوها قبلاً وسبب ذلك واضح كالشمس في رابعة نهارها . وربما الدكتور روجر لا يميل إلى معاشرة الناس ومرغريت لا تزور وتستقبل إلا في النادر وهل وجدتها سعيدة .

ـ أظن ذلك . لها ابن صغير جميل جداً وهي تحبه محبة عظيمة .

ـ ألم تنظرها من عهد الإنفساخ ؟

ـ صادفت مرة والدتها لكنها كانت وحدها .

ـ تجنب أن تراها ما استطعت لأنك ربما وجدتها كئيبة وهذا مما لا يسرك .

ـ ولماذا تكون كئيبة وأراني لا أخطر في بالها ولا علاقة لها بي الآن .

ـ ما هذا إلا كلام .. (إن هذه اللهجة أحيت الأمل في قلب ألبير إلا أنه كتم سره ولم يعرب عما في ضميره) .

ـ لا نتقابل كوني مطمئنة من هذه الجهة .

ـ هكذا آمل .

ـ إن لساني عاجز أيتها السيدة عن شرح عظم تأثري الذي شعرت به عند دخولي بيتك العامر فقد ضنكت من كثرة الهموم وأشعر بأني هرمت ولكن رأيتني ساعة زيارتك عاد إليَّ نشاط الشبيبة .

وفي أثناء ذلك دخلت أودت وهي تميل بقدها الأهيف وصافحته وجلست .

ـ إني ذكرت ابنتي هذه بأنك كنت محباً لها بالماضي وقد فطنت لعدة أشياء .

ـ أصحيح هذا أيتها الآنسة ؟

ـ نعم أتذكر جملة أشياء أذكر ايفون الصغيرة وكيف كانت لابسة ثوباً أزرق يعلوه تخريم أبيض وذلك في عيد الميلاد . إن كلمات أودت هذه خرقت قلب ألبير الذي لم تندمل جراحه بعد فرفع يده أمام عينه قاصداً إخفاء دموعه المتفجرة فلحظت ذلك أم أودت فقالت : لقد آلمته يا عزيزتي !

ـ لا لم تؤلمني بل سرتني كثيراً لما أبانت لي لون الثوب وشكل التخريم .

ـ تشجع أيها الصديق القديم إننا نذكر ايفون على مسامعك كي نسرك .

ـ أراني سعيداً بلقائكما أيتها السيدة الفاضلة !

ـ كان يجب أن تبحث عنا قبل اليوم مع ذلك نسامحك على هذه الهفوة

بل الذنب العظيم بشرط أن تتناول العشاء عندنا مساء الأربعاء القادم .

ـ أرجوك أن تعفيني من هذا .

ـ لا بد من مجيئك فإننا نتحدث ونمرح ونسر باجتماعنا إذ لا غريب بيننا البتة .

عاد ألبير إلى منزله في ذلك المساء منشرح الصدر خفيف الروح قرير العين ناعم البال وعندما فتح مكتبه وجد على مائدته علبة خشب ولما قرأ العنوان تحقق أنه كتابه مرغريت فاعترته نوبة عصبية زعزعت أركان قواه ثم رفع الغطاء بسرعة فوجد بطاقة بيضاء على ما هو أشبه بسرير من الورد فقرأ ما فيها وإذا بها هاتان الكلمتان : « إلى ايفون » عند ذلك أحس بأن موجة حب غمرت فؤاده وفتح ذراعيه منادياً زوجته المحبوبة بألطف الأسماء وأعذبها وأرقها ثم جلس يقبل تلك الورود العطرة .

الفصل السابع عشر

كان روجر جالساً في غرفة بهية مزينة بالأزهار على اختلاف أنواعها وأشكالها تفوح منها الروائح العطرية التي تملأ الفضاء وأمامه زوجته مستندة على مقعد وكانا صامتين لا ينطقان بكلمة والنهار قد شاخ وشمسه كادت تتوارى عن الأبصار ثم أخذ الفضاء يظلم شيئاً فشيئاً إلى أن أقبل الغسق بخيله ورجله باسطاً أجنحة هدوئه وسكينته على جميع الكائنات التي تحت الشمس .

أمام هذا المنظر الذي تتشنج به الأعصاب لا يتمالك القلب الحزين عن سكب العبرات وإصعاد الزفرات .

إنه إذ كانا يسيران على شاطىء البحر في صباح ذلك اليوم فاتحت مرغريت زوجها بالموضوع الذي أتعب فكرها تلك الليلة وحرمها لذة النوم فطلبت أولاً فسخ أكليلها مع ألبير ثانياً أن تكلل على روجر أكليلاً كنسياً شرعياً ولم يكن روجر يقاطعها في أثناء حديثها هذا وعندما أتمت قولها هذا بدت على وجهه سمات الرجولية المهيبة وقال لها : لا يا مرغريت فإن هذا لا يمكن .

ـ ولم يا روجر ؟

ـ هذا أمر مستحيل وأنا أرفض ذلك (قال بحماسة وقوة مقرونتين بدعة تامة ووضع يده على ساعدها مداعباً فتمتمت قائلة لا أفهم) .

ـ ألا تفهمين اعتقادي بتمام زواجنا وتريدين أن نطلب عتقاً وهمياً

ومن يعطي هذا ؟ .. لا أسمح لك بالرجوع إلى الماضي وقد قلت هذا مراراً على مسامعك ، ان الماضي قد انقضى وقد كان لك تمام الحريةحينما قبلتني زوجاً لك وتلك الحرية محدودة الآن .

ـ أنا غير آسفة على حريتي يا روجر لكن حباً بمكسيم .

فرفع روجر قبعته وأمرّ يده على جبهته يمسح عنها عرقاً كأنه يقطر من أحشائه . فظنت أن رضاه قريب لهذا مالت نحوه قائلة بصوت رخيم :

أريد ذلك من صميم القلب يا روجر .

فحملق في وجهها طويلاً ثم قال بحدة هذا حدها : انك توجعيني بهذا القول . نعم لو يوم طلبت أخذ يدك أبيت بداعي أن الشريعة الكنسية تحرّم ذلك لكنت امتثلت لاعتقادك هذا وعدت صامتاً . بل لم يخطر ببالك وقتئذ هذا الأمر . والآن بعد أن أصبحت زوجتي وأم ولدي أخذت تتشبثين بأمر الكنيسة ؟ لعمري أن في هذا لعجباً عجاباً .. ألا تعلمين أنك لي حتى الموت .. إلى الأبد ؟

ـ لم أقصد أن أجرحك يا روجر إنما أردت أن أفهمك هذا الفكر الذي يصعب علي .

ـ هذا الفكر .. وأي فكر ؟

ـ إن زواجي الأول لا يزال مقيداً في سجل الكنيسة ..

وبعد أن غشت وجهه صفرة أشبه بتلك التي على وجوه الموتى أمسك يديها بعنف وقال : دعينا من هذا الموضوع فلنعد إلى الفندق أو نذهب إلى حيث هو مكسيم . ثم سارا صامتين منخفضي الرأس إلى أن لمحا مكسيم عن بعد مع مرضعه فأسرعا في خطاهما ثم ساروا جميعاً . أما مرغريت فإنها استشاطت غيظاً لأنه رفض طلبها مع أن ذلك يعرب عن عاطفة شريفة ونفس عزيزة لا تقدر أن تحتمل سمة العار . وفي كل الأيام الماضية كان

روجر أطوع لها من بنانها ورهن إشارتها على أنها كانت متحققة أنه لا يبخل عليها بروحه إذا طلبتها لكنها لم تعلم أنه كان حليماً مطيعاً في الأشياء الثانوية فقط . مع انه في حقيقة الأمر كان صلب الرأي ثابت الكلمة قاسي الطبع لكنه طيب القلب . وعندما يستدعيه عليل ما لمعالجته كان يبذل الطاقة في شفائه إذا أطاعه العليل وإن لم يعمل بحسب مشوراته بل خالف منها حرفاً واحداً تركه وشأنه ولم يعد إليه ذلك لأنه كان يعتقد أن الدعوة نتيجة الثقة التامة والثقة تقتضي الطاعة الكاملة . ولما رضيت به مرغريت بعلا لها رأى في هذا الرضى برهاناً كبيراً على تمام ثقتها به وعندما عرف نفسه أهلاً لهذه الثقة قبل بسرور واجبات الزوجية . و في كل المعاني الثانوية لم تكن إرادته سوى صدى إرادتها لكنه لم يسمح لها بارتكاب خطأ فاضح كهذا ، بل كيف يدعها تتصور لحظة واحدة أن اقترانها غير تام . نعم انه جعل حبّه وقفاً لها لكن هذا الحب كان صادراً من آمر واجب الطاعة فلا غرو إن كانت ضعيفة فإنه قوي ثابت وإذا وقعت على الحضيض فعليه أن يقيل عثرتها ويحمل قلة صبرها وهو مكلف أن يحمل قلبه سائر همومها وأحزانها لأنه يحبها ويشفق على ضعفها غير أنه لا يريد أن يدعها تشك دقيقة واحدة في صحة اتحادهما .

لم يكن روجر يعتقد شيئاً مما يتعلق بالأديان ولذا كانت الكنائس والمعابد وخدمتها وكل ما له علاقة بهذه الأمور كلا شيء عنده وهذا كان عيبه الوحيد .

ثم جلس في ذلك المساء وراء مكتبه يقرأ الرسائل الواردة اليه في ذلك اليوم وغرقت مرغريت في بحر هواجس وتخيلات معذبة ولم يكن إلا القليل حتى سمعت في قلبها صوت ألبير ومرَّ بذهنها أن ايفون تناديها فانتفضت للحال وقالت لروجر : ها أنذا ذاهبة إلى بائع الأزهار وربما دخلت الكنيسة بعد ذلك .

ـ وأنا باق في مكتبي لانشغالي بكتابة جملة تحارير . فهم من لهجتها أنها تود الخروج وحدها وبعد أن توارت عنه لأنه كان يراها من نافذة غرفته تنفس الصعداء وأقسم بأنه سيدافع عنها حتى الموت وأما هي فترى قلبها مفعماً حباً وغماً معاً ـ ذهبت تبتاع أزهار لترسلها إلى ابنتها الراقدة في الرمس .

الفصل الثامن عشر

في يوم الأربعاء المعين وصل ألبير قبل سائر المدعوين فقالت مدام فارز وهي تصافح يده . أرى وجهك منيراً في هذا اليوم فالحمد لله على ذلك .

ـ نعم إن صحتي تحسنت وتريني مديوناً لمعروفك في كل حال فأشكرك ما حييت .

ـ إنك تسرني جداً بكلامك هذا تفضل إجلس وبعد قليل تأتي أودت .

ـ إني أخاف عليك من هذا الحب الوافر لابنتك .

ـ ولماذا ؟

ـ وماذا تفعلين فيما بعد حينما تتزوج .

ـ أحبها اليوم وغداً وأعزها في الحالتين وهي الآن صغيرة ولا تتزوج إلا بعد بضع سنين .

ـ كم سنها

ـ ١٦ سنة

ـ وحضرتك كم سنك ؟

ـ قد بلغت الرابعة والثلاثين .

ـ ألم تغيّري أفكارك السابقة .

ـ لا بل كل يوم أتمسك بها أكثر .

دخلت إذ ذاك أودت ابنتها ، صحبة جدها دسباس وكانت كأنها تمثال الشبيبة يجللها شعرها .

استقبل دسباس ألبير استقبالاً حسناً للغاية .

وكان دسباس هذا قد فقد امرأته منذ سنين طويلة يقضي أكثر أوقاته في الجولان والتنقل من محل لآخر ، قد رغبت مدام فارز أن يسكن أبوها معها بعد وفاة زوجها لأنها وحيدة ولا سند لها غيره ، غير أنه لم يقبل طلبها هذا بل فضل أن يبقى في بيته مطلق الحرية إلى أن يهرمه العمر وتذهب السنون بقواه فعند ذلك يسكن مع ابنته لأنها تعتني اعتناء تاماً بشيخوخته .

وما أتت الساعة السادسة ونصف حتى كمل عدد المدعوين ومن بينهم بلواي أحد الفلاسفة المدرسين في إحدى مدارس فرنسا الشهيرة ومعه قرينته التي تناهز الخمسين . أما صاحبة المنزل فإنها استقبلت الجميع بكل هشاشة وبشاشة وابنتها تحذو حذوها في الملاطفة والمجاملة وبعد أن عرَّفت مدام بلواي بألبير صافحت يده قائلة : إني أحب كل أصدقاء مدام فارز .

وهذا صديق حميم قديم جداً جفانا مدة خمس سنوات سافر في خلالها إلى مصر . انبيء مدام بلواي أيها الصديق بما عندك وكان من المدعوين الخواجة لسكال أحد المصورين المشهورين والدكتور توري طبيب الأسرة الخاص وبعد أن تجاذبوا أطراف الحديث برهة ذهب الجميع إلى المائدة وجلسوا حولها وأخذت الداعية محلاً قرب ألبير لتلاطفه بقدر إمكانها وتنسيه أحزانه أما المائدة فكانت مزينة بكل أنواع الزينة تحدق بها الأزهار المختلفة الألوان والأشكال والشموع الملونة والمنائر الساطعة بالأشعة تخطف الأبصار وفي وسطها تمثال طفل صغير هو رمز الحب ، وحوله الأدوات الفضية من ملاعق وشوك وسكاكين وغيرها والأنوار تنعكس على الكؤوس فتشع

كشموس صغيرة . قال دسباس : أظن أن ألبير لا يحب شرب الماء وحضرات الأطباء الذين منهم الدكتور توري يبذلون جهدهم في أن يبرهنوا لنا أن شرب الخمر مضر بلا جدال .

قال ألبير : نعم إذا كان حلواً .

دسباس : آه من الأطباء ومن أفكارهم القبيحة .

توري : انك مبتلى بداء الصرع يا صاح .

دسباس : مبتلى به وممتلىء البدن ثم ماذا ؟ عند موتي لا أتحسر على شيء وقد عشت عيشة راضية هنيئة أكثر منك أنت الرفيق النحيف كملازم في العسكرية ويكاد طولك ينقصف .

فنظر ألبير إلى هذا النحيف الذي يكاد ينقصف فرأى وجهاً بجبهة عالية وتحت شاربيه الأسودين شفتان تدلان على الدهاء وكان يحادث أودت التي كانت رفضت الحساء (الشوربة) .

مدام فارز : إن الدكتور يمنعها عن أكل الحساء .

دسباس : إن العالم على وشك الإنقضاء إذ إن أوامر حضرات الدكاترة تلاشي لذّات الموائد .

مدام بلواي : أما أنا فإني أعتبر أنه يجب علينا أن نقرن كل أعمالنا بشيء من السذاجة .

مدام فارز : هذا هو اعتقادي نفسه .

دسباس : نعم . ويجب أن نتناول الطعام كما لو كنا نبتلع دواء مراً . ألم يحب آباؤنا من قبلنا التوابل وزجاجات الخمر الجيد .

أوَلَمْ يكن شأنهم مع كل ذلك عظيماً ؟

مدام بلواي : مما لا جدال فيه إن شأنهم كان عظيماً جداً وعقلهم

أوسع من عقلنا وروحهم أخف وألطف ولم يكونوا يملون من الملاهي والمسرات .

توري : إني أوافقك في هذا يا سيدتي غاية الموافقة لكني لا أريد أن أشتري لي سوء الهضم مجاناً إن طعام مدام فارز اللذيذ إنما جعل لإقلال نظام الجهاز الهضمي بينما كانوا يخوضون في هذه الموضوع ، اغتنم ألبير الفرصة وكلم مدام فارز بصوت منخفض مادحاً سلامة ذوقها في تنظيم المائدة وتزيينها .

– إن هذه الأزهار أُهديت لنا في هذا الصباح وفي أيام الشتاء لا تحلو لي إلا أزهارالجنوب ويخال لي أن وردة كهذه ـ أخذت وردة وجعلت تقلبها بين أصابعها ـ تتدفق منها معان غزلية وتخيلات شعرية تبهج الناظر وتقر الخاطر حينئذ فكر ألبير في الوردة البيضاء التي في جيبه وكان أتى بها عن قبر ايفون ثم وجهت كلامها للفيلسوف قائلة : أسمعنا صوتك أيها الفيلسوف الفاضل لم لا تتكلم ؟ أبدِ لنا رأيك فيما يختص بطيبات المائدة .

بلواي ـ إن للمائدة شأناً كبيراً في الهيئة الإجتماعية كيف لا ، وهي مجلبة للألفة بين الناس .

توري ـ أمتأكد أنت أنها مجلبة للألفة بين الناس . أنا أعرف سيدة شريفة تكاد تكون حياتها نعيماً لو لم يفرض عليها مجالسة زوجها على المائدة وذلك لأنه يمسك الشوكة بنوع مضحك يثير غضبها .

دسباس ـ وحتى الآن لم تطلب الطلاق .

توري ـ إنها تفكر في طلبه .

مدام بلواي ـ ما أكثر الطلاق في أيامنا هذه وبالحقيقة إنه فرج للزوجين التعيسين .

توري ـ إن كلامك لفي غاية الصواب .

ـ إن مدام فارز شعرت بانقباض في أثناء هذا الحديث وودت الإنتقال إلى موضوع آخر خوفاً من ظن ألبير بأن محور الحديث يدور عليه .

مدام بلواي ـ إن شرائع الزواج كانت ولا تزال ممقوتة مكروهة .

دسباس ـ هذا صحيح .

مدام بلواي ـ إن الشرائع لم تسن لمن كان مثلك أو مثل زوجي لكن للاشرار الذين يكونون على شاكلتهم وفي حياتي قد رأيت فواحش وأهوالاً كثيرة .

توري ـ إني أكرر ما قلته لمدام فارز وهو أن هذا البيت هو مسكن الأوهام .

مدام فارز ـ لا بأس من هذا الوصف فإني أقبله بسرور وسأحافظ على أوهامي دائماً لأني أعبدها .

توري ـ مدام فارز تثبت أن عموم السيدات يحببن أولادهن وأنهن أمهات لا عيب فيهن ولا .. ولا .. ولا محل للانتقاد عليهن .

مدام فارز ـ ويحك ماذا تقول ؟

مدام بلواي ـ إن الوالدات الفاضلات اللواتي لا يشينهن عيب قليلات جداً وإننا نرى الأولاد نظراً لجهل والديهم وقلة أكتراثهم بهم أصبحوا ضحية الزمان أو ألعوبة بين أيدي الهموم والأحزان .

مدام فارز ـ ماذا تقولين لا أريد أن أسمع هذا الكلام .

أودت ـ لكن هذا هو عين الحقيقة يا والدتي .

دسباس ـ أخفتني يا أودت .

أودت ـ إن الحقيقة لا تخيف أحداً

مدام فارز ـ وأنت أيضاً ماذا تقولين . إن الحياة لا تحتمل بدون الكذب

والتخيلات والتصورات .

ألبير ـ إن التخيلات القديمة قد استولت على قلوب سلفائنا وهزت آمال سائر الشعوب .

فنظر حينئذ الدكتور توري إلى ألبير ولم يجبه بشيء بل قال لأودت :

نحن إذاً ندافع عن الحقيقة أيتها الآنسة أودت بدون شك .

وكانت مدام فارز تلاطف الجميع أجمل ملاطفة ثم قالت لأبيها : وماذا تتكلم مع مدام بلواي يا أبي .

دسباس ـ إن حضرة مدام بلواي تعرف بأني أعبدها ليس اليوم فقط بل منذ أيام طويلة أليس كذلك ؟

مدام بلواي ـ نعم .

دسباس ـ وتريدين حبي ؟

ـ نعم

ـ وتسرين به ؟

ـ نعم .

ـ وأنا أحبك إذاً على رغم الدكتور توري النحيف الجسم . واني أسر جداً عندما آكل بالقرب منه لأني أعلم حق العلم أن قابليتي الجيدة تجعله يقاسي عذاباً أليماً . ألا تقر يا حضرة الدكتور بأنك تحسدني على قابليتي ؟

توري ـ لا أحسدك عليها لأني عاقل .

دسباس ـ وماذا تعني بكلمة عاقل ؟

توري ـ هل تظن أن لي صبراً على شرح أمثولة مختصة بعلم النفس في هذه الساعة .

ـ أنا لا أكلمك في دروس علم النفس بل كل ما أطلبه منك هو أن

تعطيني برهاناً قاطعاً وحجة دامغة على أنك عاقل كما تقول .

توري ـ خفف كمية طعامك تصر عاقلاً من هذا القبيل . إن العقل يبين لي أن شرب المسكرات يحط من قدر الإنسان فأتجنبها ولا أكثر من شربها .

بعد ذلك دار الحديث على فنيّ الموسيقى والتصوير فارتاحت إلى سماع هذا الموضوع مدام فارز ، وسألت ألبير هل أزعجه هذا الحديث فأجاب : لم يزعجني قط كوني مطمئنة من هذا القبيل لله ما أطيب قلبك أيتها الصديقة .

ثم تبادلا نظرة وابتسامة لحظهما الدكتور توري الذي بعد برهة قرب من مدام فارز قائلاً : ما أخفك يا مدام !

ـ ولماذا ؟

ـ لأنك لا تعتنين إلا بالآني الجديد

ـ وهل ألبير جديد ؟ إنك تعنيه دون شك . إني أعرفه منذ ١٥ سنة وكانت زوجته صديقة حميمة لي .

ـ وهل ماتت زوجته ؟

ـ كلا بل مطلقة .

ـ أكانت تخدعه ؟

ـ بل كانت تعبده .

ـ إذاً هو الخائن ؟

ـ نعم .

ـ إن ذلك باد في محياه .. واين زوجته الآن ألا ترينها ؟

ـ اقترنت برجل آخر وهو الدكتور روجر .

ـ هذا كان تلميذاً لي وهل هو زوجها الآن ؟

ـ لا تلفظ هذا بصوت عال لئلا يسمعك .

ـ يظهر أن هذا المسيو يعجبك كثيراً .

ـ أيها الدكتور الفاضل اني أحب أصحابي وأرغب في تسليتهم بأيام حزنهم .

وكانت أودت واقفة عند مائدة صغيرة تخاطب لسكال المصور وتريه بعض الرسوم التي صورتها في خلال ذلك الأسبوع وهو ينتقد بعضها مبيناً لها مواضع الإصلاح وألبير يسمع وينظر متأملاً جمال هذه الإبنة الفتان ثم اقترب منها طالباً أن تريه التصاوير فقدمتها له الواحدة بعد الأخرى والإبتسام ملء شفتيها فقال المصور : أرى عند الآنسة أودت استعداداً عظيماً وميلاً شائقاً إلى العمل فإذا داومت على هذا فإنها لا شك تبرع في فن التصوير الجميل .

فأبرق محياها سروراً ثم أتت أمها وقالت لألبير : ألا ترى أن عندها إستعداداً كبيراً ؟

ـ نعم أرى ذلك وأهنئك .

دسباس : لا أنكر استعدادها ولكن لا لزوم لمثل هذه الأهلية عند النساء .

أمها : والدي يدعي أن سعادة المرأة تتعلق بالرجل ولكني أرى أن المرأة تحتاج أيضاً إلى الإستقلال نظير الرجل .

ـ ولماذا ؟

ـ كي تحيا حياتها هي أيضاً وذلك أن الإنسان لا يحيا الحياة الأدبية إلا متى تم له استقلاله وحريته .

ـ يا لها من غباوة ! وبعد أن تناول كأساً من الكونياك ذهب إلى مائدة اللعب داعياً بلواي إلى لعب الشطرنج . وكان ألبير جالساً بالقرب من مدام

بلواي والدكتور توري بجانب أودت التي أخذت تعزف على البيانو عزفاً يأخذ بالألباب كل مأخذ ، إنما توري لم يكن مصغياً إلا للحديث الدائر بين مدام فارز ومدام بلواي وألبير ، وأما المصور فشرع يرسم شخص أودت بكل اتقان وإحكام وهي تعزف على البيانو .

منذ أربع سنوات مرضت أودت فدعي الدكتور توري هذا لمعالجتها ومن ذلك الحين أضحى الصديق الصدوق والمسامر والأليف والجليس على مائدة طعام هذه الأسرة وكانت صاحبة المنزل تصغي إلى كلامه وتعمل بحسب مشوراته لأنها متأكدة أنه يحب أودت حباً أبوياً ويهتم بصالحها كاهتمامه بصالح ولده وكذا أودت فكانت تحذو حذو والدتها وهما تنظران إليه كفرد من أهل البيت وترتاحان إلى عشرته ومجالسته وتستدعيانه لمرافقتهما إلى الملاهي والمشاهد التي في باريس لتسلية الخواطر وتسريح النواظر . وكان توري يلبي الدعوة برضا وإرتياح ويظن أن معاملة مدام فارز هذه لم تكن ناجمة إلا عن حب انطوى عليه فؤادها ولهذا أخذ يفتكر في الأشهر الأخيرة بأن يتخذها زوجة وتراءى له أن حياته تكون سعيدة معها وهي تساعده في نجاحه الإجتماعي نظراً لما هي منطوية عليه من حسن الذوق ولطف المعشر وحلاوة اللسان الخ .

وهذه الأفكار لم تكن خافية عن والدها دسباس الذي رأى أن اقتران توري هذا بابنته هو في غاية الموافقة والصواب ولذا كان عندما يلمح له الطبيب توري بشيء من هذا يجيبه بعبارات تشف عن تمام الرضا والقبول .

ولذا امتعض توري من زيارة ألبير هذا البيت وحسب حساباً من مزاحمة في مسقبل الأيام لأن ألبير كان من أولئك الذين لم يخلقوا إلا لمطارحة الهوى ومغازلة النساء لأنه كان ذا سطوة ونفوذ في قلوبهن وأعظم شاهد على هذا هو أن مدام فارز لم تكن تعامل أحداً قط بتلك الملاطفة التي عاملت بها ألبير في ذلك اليوم فان الابتسام كان يبرق بين شفتيها كيفما نظرت وحيثما

التفتت وتنبعث من كلماتها حلاوة شديدة العذوبة والرقة بنوع لم يكن مألوفاً منها بالزمن السابق . لله ما أعظم الهشاسة والبشاشة اللتين كانت تظهرهما له .

وعندما انتهت أودت من عزف الموسيقى نهض توري وقبل يد مدام فارز معتذراً راغباً في الذهاب إلى ملهى التمثيل فلم تلح عليه بالبقاء عندها ، لأنها فكرت في نفسها بأنها تتكلم بحرية أكثر مع مدام بلواي وألبير .

قد طال الحديث واتسع نطاق الكلام في ذلك المساء ولم ينفرط عقد اجتماعهم إلا عند منتصف الليل وهم يدعون لمدام فارز بالعمر المديد والعيش الرغيد .

الفصل التاسع عشر

نعم إن مرغريت تألمت جداً من رفض روجر طلبها وعدم تتميمه مشتهاها وغاية متمناها وقد طالما اجتهدت في أن تنسى بلانش تلك المرأة التي صبت سماً زعافاً في كأس حياتها الصافي وتنزع من مخيلتها صورة ذينك الإزدراء والتعجرف الذين هما من أقل صفات بلانش وقد صممت النية وعزمت العزم الثابت على أن تجعل نصب عينيها وموضوع أفكارها آناء الليل وأطراف النهار ، ولدها مكسيم وزوجها روجر الحنون الذي كل كلمة منه بل وكل نظرة بل وغضبه ذاته كل ذلك كان شاهداً بيناً وبرهاناً قاطعاً وحجة دامغة على شديد حبه لها وولوعه بها .

وكان يثلج صدرها ويخفف تأثرها من قلق أفكارها عندما تتذكر أنه على جانب عظيم من معرفة هواجسها وما يدور في خلدها لكن لدى ذكر ألبير الحلو وتمثل صورته في فضاء ذهنها كانت تشعر بألم سري يخرق احشاءها ويمتد إلى سائر أعضاء جسدها ممتزجاً بدمها .. إذ تتمثل صورته تشاهد عينيه حيث يجول ماء الحنان الدائم وفي محياه علامات الألم الذي لا يشفى وتنظر شفتيه الباسمتين وقامته الممتازة وتسمع نغمة صوته الحزين فيذوب إذ ذاك قلبها حناناً وتسيل مهجتها شوقاً وهياماً .. وتحاول أن تقصي هذا المشهد من أمام عينيها فيذهب اجتهادها عبثاً ..

تاقت نفس مرغريت إلى العودة لبيتها وهي تظن متيقنة أن قلقها سيذهب أدراج الرياح إذ ليس لديها بعد الرجوع أوقات طويلة فارغة لتتمثل المخيلة

بعض الصور والتذكرات المهيجة وهذا ما كان يحلم به روجر أيضاً حيث كان له تمام الثقة بها متأكداً أنها لا تأتي أبداً بما يؤلمه ويجرح إحساساته وكان قد شرح لها كل عواطفه بأرق عبارات ، نقلها عن صفحات قلبه ورددها على مسامعها مراراً وارجعها بأوقات متباينة تكراراً في أنه لا يبتغي سوى سعادتها ! أو ليس هو القائل لها : أريد أن تكوني سعيدة فلا أحلم إلا بهذا ولا طمع لي بسواه فإن لم تكوني كذلك فإني أحسب ذاتي أتعس الناس .

ـ إني سعيدة يا روجر .

ـ هكذا أتأمل بل أوصيك ألا تسمحي لبعض الصور أن تجول بأفكارك لأنها تضع سماً ناقماً في كأس سعادتك والسموم أجناس وقطرة واحدة من بعضها كاف لإماتة شاربها . قاومي قلبك وتصورات مخيلتك وضعي في عقلك أن لا عضد لك غيري اقصديني دائماً في أبان همومك وأحزانك فإن حبي لن يتخلى عنك أبداً .

لدى سماع هذه الكلمات من فيه انطرحت بين يدي هذا الرجل الرحب الصدر الكريم الأخلاق الشريف العواطف فانهضها قائلاً : ها أنذا لك ما حييت . .

إن مدام موستل والدة مرغريت سرت سروراً لا مزيد عليه عندما رأت ابنتها في صحة تامة فضلاً عن اعتنائها واهتمامها بشؤون البيت حينئذ حمدت الله وشكرته شكراً جزيلاً أما مرغريت فإنها كانت تتجنب الذهاب إلى البستان المعلوم حيث الملتقى بألبير كما أنها أوصت المرضع بأن لا تذهب إليه البتة . وفي ذات يوم شرعت تقص على والدتها ما جرى لهما في أثناء السفر وما شاهداه من المناظر الجميلة والوجوه الغريبة وكيف ذهبا إلى مونتي كارلو ذلك المكان المشهور بالمقامرة ـ دون أن تذكر بلانش ـ وما شاكل ذلك قالت لها : نعم لقد تنزهت يا ابنتي وسرحت ناظريك في مناظر لم ترها عيناك قبلاً وهذا لعمري ما يتطلبه سنك بل إن الإنسان لا يستطيع في كل طور

من أطوار العمر أن يألف الوحدة والإنفراد وقد سمي إنساناً لأنه يتطلب ويستدعي من طبعه المؤانسة وألفة بني جنسه فهو يعيش بينهم ويتعاطى معهم أشغاله وأعماله ويشاركهم في أفكاره فتكون نتيجة هذا الاختلاط التفكه والتسلي فضلاً عن الإفادة والإستفادة ، أما أنا فإني ألوم روجر كل اللوم لأنه يبتعد عن معاشرة الناس كما أني ألومك ولا أعذرك لأنك لا تحرضينه على ذلك وها أن زوجك أحسن الرجال لكن فيه هذه الشائبة فقط فسبحان من تنزه عن النقصان . نعم إن روجر هو مخطىء بهذا المعنى فقط . ولم لا تزورون بعض الأصحاب والمعارف ثم تستقبلونهم نظير سائر الناس ؟ ترى ألا يوجد غير سلفتك وزوجها وأولادها على وجه البسيطة ؟ فحبذا الزواج وآله إنما التفنن في المعيشة أمر جوهري ولا غنى لأحد عنه مطلقاً وخصوصاً لمن كان مثلك .

بعد أن فاهت بهذه الكلمات رأت ابنتها إن كل ما قالته صواب وواقع في محله وقد تصورت أن كل ضجرها ناتج عن الإنفراد والوحدة ثم قالت بلطف : لقد صدقتِ بما نطقت يا أماه بل هذا هو عين الحقيقة لكن ... في حالتي الحاضرة قد يعسر الخروج بتواتر !

ـ وماذا تقولين يا مرغريت إن كل أحوالك لا لوم بها ولقد طويت أطوار حياتك حتى الآن بنوع لا يقبل الإنتقاد وأما زوجك فإنه رجل تفرد بالصدق والأمانة والإستقامة كما لا يخفى على كل من عرفه أو سمع به .

ـ نعم لكني .. مُطَلَّقة .. وعلاوة على ذلك إن اتحادي بروجر ليس كنسياً ..

ـ ابعدي عنك هذا الفكر المبين يا ولدي .. إتحادك بروجر ليس كنسياً ! هذا حديث خرافة . تعلمين أني لست بكافرة بل أحب الله وشريعته من كل قلبي . ليس إتحادك كنسياً ومع ذلك أراك أحسن بكثير من اللواتي تزوجن في الكنيسة وأهلاً لأن تحسدك النساء اللائي ليس لهن زوج كزوجك

صاحب الأخلاق الكريمة والأدب الرائع . فشكراً لذوي الذوق السليم الذين سنوا شريعة الطلاق إذ بها تتخلص المرأة الأمينة من رجلها الخائن . الحمد لله تعالى على انفصالك من ذلك الذي لا يليق بك . أما زوجك الحالي فهو والحق يقال كنز ثمين تحسدك عليه بنات جنسك .

فتنهدت مرغريت وقالت : وبعض الأمور لا يكون إلّا تعاسة .

ـ إني أُوافقك في هذا فقد تعذبت كثيراً في ماضي حياتك فعليك إذاً أن تستأصلي ذكر هاتيك العذابات من فكرك .

غيّري أسلوب معيشتك هذا ، إذهبي مثلاً لزيارة مدام فارز صديقتك القديمة . وقد سألتني عنك عندما التقيت بها في إبان غيابك عند بائع القبعات ، وهي تستقبل يومي الأربعاء والسبت ولا يخفى عليك أنه يزورها كثيرون من ذوي الأفكار السامية والآداب الفائقة والذكاء الرائع ، زوريها من وقت لآخر وانظري ما ألطف ابنتها أودت التي اشترت لها أمها قبعة من أجمل القبعات هناك ، تتعرفين ببعض السيدات النبيلات حيث تتوفر لديك أسباب اللهو والتسلي ولذة الإجتماعات العالمية التي تنبه الفكر من غفلته وتوسع دائرة العقل وتنعش القلب . هذا وقد ألحت عليَّ تلك السيدة النبيلة بأن أبلغك وافر أشواقها وتحياتها بعد أن سألتني عنك باهتمام كثير .

ـ لله درها ما ألطفها ، نعم ، كنت أحبها كثيراً في الماضي وسأفتكر في هذا الأمر وأطلب فيه رأي روجر .

ـ حسناً تفعلين . وإذا وجد مانع من جهة مكسيم فإني لا أُفارقه ولا دقيقة واحدة في غيابك وأبقى بقربه حتى رجوعك من زيارتك .

ـ أشكرك يا والدتي غاية الشكر .

ـ انك بكيت كثيراً بالماضي يا ابنتي وقد نظرت دموعك الجارية واطلعت على جميع أحزانك فدعيني أن أراك ضاحكة مسرورة القلب قريرة

العين قبل أن أموت .

إن كلمات مدام موستل هذه وقعت موقعاً حسناً في قلب ابنتها بل كانت كقطرات ندى على قلب يتلهب ظماء وبعد بضعة أيام عزمت مرغريت على أن تزور مدام فارز من غير أن تخبر روجر بذلك .

الفصل العشرون

لم ينفك ألبير عن التردد إلى بيت مدام فارز حيث كانت مرغريت موضع أحاديثه الطويلة ومدام فارز تسمع كلامه شاعرة بأن ناراً محرقة تلتهب في أحشائها فتصعد إلى ناظريها ووجنتيها وهي تعجب كثيراً من حنين ألبير إلى زوجته لأنها كانت تعتقد أن وداد الرجال لا يكون إلا كسحابة صيف ثم تنقشع . ومتى توارى عنهم من هو موضع حبهم أو التزموا أن يبتعدوا عنه لسبب من الأسباب أو غير ذلك خمدت تلك النار المحرقة وأصبحت آثار ذلك الحب هباء منثوراً .

وإذا كانت تسمع حديث ألبير المملوء من آيات الحنوّ والعواطف الغزلية الشريفة جعلت تلوم نفسها على اعتقادها ذلك في كل الرجال دون أن تفرق بينهم أو أن تعرف البعض منهم معرفة خاصة وكانت تأسف على ماضيها لأنها لم تحب فيه إذ كانت ترغب في الحب الحقيقي المخلص الدائم .

وكان ألبير لا يمل عن تعداد مزايا مرغريت وسجاياها ويثني على سلامة قلبها وأمانتها ويسأل مدام فارز متعجباً من أنها كيف أمكنها أن تبتعد عنه وترضى بالاقتران مرة ثانية . فتجيبه بأن غدر الرجل يفوق صبر المرأة واحتمالها ويصعب على الإنسان أن يثق بثبات حب شخص يخونه وعندما سمع هذا منها في إحدى المرات هتف قائلاً : هذا فكر نسائي بل جنون محض .

ـ هل تقدر أن تحب امرأة خدعتك وهل تعتقد صحة حبها لك ؟ .

ـ يوجد فرق بَين هذا وما نحن بصدده .

ـ فيما يتعلق بالإحساسات لا فرق بين هذه الحالة وتلك وعليه فإني أعذر مرغريت التي لم تكن تبتغي إلا أن تدوم على عهد الأمانة .. لكن دعك الآن من هذه الأفكار التي تحزنك وتقلق راحتك . أما اودت فكانت تسر كثيراً في عشرة ألبير وتباحثه مراراً في شؤون هذه الحياة ومشاكلها الصعبة وهو يكلمها عن الحب مبرهناً لها أنه موضع الحياة الدنيا ولولا الحب لما وجد الشعراء والمصورون والموسيقيون وغيرهم من ذوي الفنون وأصحاب الشهرة ، وكانت أودت تسمع هذا الكلام بغاية الإنتباه والإصغاء وتمعن التأمل فيه من غير أن تجيب بشيء أما مدام فارز فكانت تسخر بهما قائلة لألبير أنه غير خالٍ من الجنون ولو قليلاً ، وأن كيفية الحياة على غير ما يعهد ، نعم أنه يتألم لأنه لا يعرف كيف يحيا . وفي ذات يوم كانت تتحدث مع ابنتها أودت في شأن ألبير هذا فقالت أودت : يجب أن يتزوّج هذا الرجل يا أمي فإنه شاب .

ـ هو كهل فإنه يناهز الأربعين ، أمَا هذا تقدم في السن ؟

ـ لا . أنا لا أُبالي قطعياً بتقدم الرجل في العمر إذا كانت صفاته تعجب وترضي فلو خيرت بين ليوناردي فانشي البالغ عمره ٨٠ سنة وبين أجمل شاب من شبان عصرنا هذا لاخترت الأول بدون تردد . حينئذ ضمت ابنتها إلى صدرها وقبلتها .

أما البير فكان يغذي صبره بالآمال وينتظر انتظار هلال العيد انبثاق فجر الغد علَّه يرى ذلك الشخص الذي أحرمه لذة النوم في لياليه الطويلة ويعتاض برخيم ذلك الصوت عن كل ما يراه ويسمعه . نعم كان يقول مراراً : ستعود مرغريت وتدري بكل ما قاسيت واحتملت من جراء بعادها وإذ ذاك تشفق عليَّ وتعود إليَّ كالأول فحبذا تلك الأيام !

الفصل الحادي والعشرون

في ذات يوم من أيام شهر مارس البهيجة والساعة الرابعة بعد الظهر كانت مدام فارز تجامل زائريها وبينهم شقيقتان آنستان تسمى الكبيرة منهما ماسكا والصغيرة فدورا ولم تكونا جميلتي المنظر بل قبيحتي الشكل تجلل ملابسهما «التخاريم» والشرائط الكثيرة ولا تحلمان إلا بالزواج إذ كل واحدة منهما تتجاوز الثلاثين سناً . ومدام فارز تدعوهما غالباً لزيارتها وتستقبلهما بلطفها المعتاد وخصوصاً بما أن ماسكا كانت ذات صوت رخيم يخلب الألباب ويأخذ بها كل مأخذ وأودت كانت تقول لها كل مرة : لو كان صوتي نظير صوتك لكنت الأولى بين الممثلات في الأوبرا .

وبينما كان موضوع الحديث الأصوات الجميلة أخذت مدام فارز تطنب في مدح صوت الآنسة ماسكا وحذا حذوها مصدقاً هذا كاميل بليه فأبرقت اسِرّة وجه ماسكا الذابل وعرضت على الحاضرين أن تغني على مسامعهم بعض الألحان فأجابوها بالقبول بكل مسرة وارتياح وحينئذ جلست أودت حذاء البيانو ، وعزفت أولاً بقوة شديدة حتى دوت القاعة ثم خففت العزف شيئاً فشيئاً إلى أن ظهر صوت ماسكا الفتان المطرب وهكذا فإنه لم يزل يرتفع ويحوم ويدور في فضاء تلك القاعة حتى سكر السامعون من سماعه ومالت أعناقهم . على أن الذي كان يزيده بهاء هو أنها كانت تلفظ بتأنٍ الكلمات الغرامية والعبارات التي تدل على الحزن في ذلك اللحن الذي بدأت به . وكل ذلك كان يجري في قلوب السامعين كقوة مغنطيسية أو سوائل كهربائية فتشنجها ..

فأسند كاميل رأسه على يده وتراءى له كأنه غاب عن عالم الوجود وانتهى إلى جنة النعيم حيث يسمع أصوات الملائكة التي بلا شك تشبه هذا الصوت الرائع . أما مدام فارز فإنها أدارت رأسها إلى الوراء وأخذت تسيل دموعها بكثرة وكاد قلبها يتفتت لعظم وقع هذا الصوت وتأثير تلك المعاني فيه .

وبينما هم كذلك إذ قرع جرس الدخول فنظرت ماسكا إلى الباب وهي وجلة فلم تر أحداً وما انتهت من ترنيم ذلك اللحن الساحر إلا احتضنتها مدام فارز وأشارت إلى اودت بأن تحضر وشاحاً صغيراً من الصوف الناعم لتلف به عنقها فامتثلت لأمر والدتها وما كادت تصل إلى جهة الباب حتى رجعت القهقرى وهي تقول : يوجد زائر بقرب الباب فنظرت مدام فارز إلى ناحية المدخل وإذا بالسيدة مرغريت مدام روجر فنهضت وأسرعت إليها ضامة يديها بين كفيها وهي تقول : أهلاً وسهلاً ومرحباً بك أيتها الصديقة العزيزة .

ـ اعذريني يا لويزة لأني كنت قرعت الجرس ولم أدخل لئلا أقطع هذا الصوت الجميل ثم جلست بالقرب من مدام فارز بعد أن سلمت عليها أودت ثم قالت صاحبة المنزل : بالحقيقة يا مرغريت إن زيارتك هذه لقد سرتني جداً !

ـ لله ما أطيب قلبك يا مدام فارز حقاً اني لا أستحق صداقتك هذه بعد أن جافيتك كل هذه المدة . وقد أخبرتني والدتي أنك التقيت بها أثناء غيابي فسألتها عني وكل امارات المودة على محياك وها أنذا أتيت أشكرك « وبغضون ذلك كان قلب مدام فارز ينبض بسرعة لأنها كانت تخشى دخول البير في تلك الساعة » .

ـ نعم أرى من الواجب عليَّ أن أسأل عنك يا عزيزتي مرغريت ! وكيف حالك الآن ؟

ـ الحمد لله صحتي عادت إلى ما كانت عليه قبلاً وسفرنا كان جيداً للغاية .

ـ وكيف مكسيم نجلك المحبوب .

ـ هو في صحة تامة الحمد لله أني مسرورة جداً برؤيا ابنتك أودت وأراها تغيرت جداً عن السنة الماضية . ألا تزالون ترغبون في الموسيقى كالأول ؟

ـ أنا أعبد الموسيقى التي برعت فيها أودت براعة تامة فهي تعزف باتقان لا مزيد عليه . لكنها لا ترتل لسوء الحظ .

ـ ومن هي ذات الصوت الجميل التي كانت ترتل عند دخولي ؟

ـ هي آنسة روسية وأما التي ترى جالسة بقربها هي أختها . فهل تريدين أن اعرفها بك ؟

ـ لا بأس من ذلك بل أقبل هذا بغاية المسرة . وبعد التعارف شرعت مرغريت تقص عليهم ما شاهدت في سفرها وفي أثناء ذلك دخل للدكتور توري وحيًّا مدام فارز فسلمت عليه وعرفته بمرغريت وعرفتها به .

فابتسم توري وانحنى احتراماً لها وجلس يحادثها بينما نهضت مدام فارز لوداع تينك الآنستين وطال كلام الوداع عند الباب ـ كما هي عادة النساء في كل اين وآن . ثم قال توري بحلاوة هذا مقدارها كان بينه وبين مرغريت معرفة قديمة : إني أعرف زوجك حق المعرفة أيتها السيدة الفاضلة واني أعتبره اعتباراً عظيماً .

ـ إني أسر بكلامك غاية المسرة يا حضرة الدكتور .

ـ إن مهنتنا صعبة وتتطلب وقتاً طويلاً وأنا أشفق على كل طبيب عنده امرأة جميلة ولذا تريني أعزب . بعد هذا شرع يقص عليها بعض حكايات لها علاقة بحداثة روجر زوجها عندما كان تلميذه ويمدح ذكاءه وأمانته

ويطنب في وصف أخلاقه حتى أن مرغريت سرت سروراً لا مزيد عليه وشعرت من جديد بميل إلى روجر ولم يكن يخطر على بالها من قبل أن تفتخر بزوجها .

وقالت في نفسها . إن منزلته كبرى بين قومه ومعارفه والجميع يحبونه ويحترمونه فلماذا لا أحبه ؟

ثم في لمحة بصر خال لها أن ألبير ذكر فيما بين الواقفين بقرب الباب واعتقدت أنهم يذكرون ماضيها فاصفر وجهها وامتقع لونها وقد لحظ الدكتور توري هذا التأثير . ثم عادت مدام فارز وبرفقتها سيدتان أخريان فاستغنمت مرغريت هذه الفرصة ونهضت مستأذنة بالذهاب فحاولت مدام فارز أن تجلسها فادعت أن والدتها تنتظرها لتذهبا إلى مكان آخر .

ـ كدرتني يا مرغريت عديني بأن زيارتك تكون أطول بالمرة الآتية .

ـ نعم أعدك وأنتظرك مع أودت .

ـ لا شك بهذا نوبي عني بتقبيل خدَّيْ مكسيم مراراً .

وعندما مدت مرغريت يدها لتوري ضغط عليها قائلاً : أرجوك أن تبلغي حضرة الدكتور بأن معلمه لا ينساه واني أهنئه بزوجته الجميلة وأعتبر ذاتي سعيداً أيتها السيدة لتشرفي بمعرفة حضرتك .

خرجت من البيت وهي تفتكر في البير رغماً عنها وكادت تندم على هذه الزيارة .

الفصل الثاني والعشرون

قالت أودت لأمها لما خلا بهما المكان : كيف تصنعين بعد الآن باستقبال مدام روجر ؟

ـ الخواجا البير لا يزورنا في الأيام الرسمية ومرغريت كانت صديقتي الحميمة فليس بوسعي إلا أن أستقبلها نظير الماضي .

ـ نعم لكن يستحيل علينا استقبال الطرفين وهذا غير ممكن !

ـ لا أظن أن مرغريت تتكدر إذا علمت بأنّي أستقبل زوجها الأول لأنها كانت تحبه كثيراً .

ـ كانت تحبه أولاً في الماضي وهي الآن زوجة رجل آخر !

ـ لا أعلم كيف العمل ولكن على أي الأحوال انها لا تعود إلى هنا قبل أن نزورها وستفتكر في هذا الأمر إنما الخواجا دسباس والد مدام فارز استصوب رأي أودت مشيراً إلى ابنته بأن تخبر الطرفين بالواقع فانتفضت أودت قائلة : ليس من الإنسانية واللياقة أن تخبر البير إذ لا صديق له سوانا ولا تعزية له إلا بزيارتنا مع أن مدام روجر هي في غنى عنا والشاهد على هذا انها لا تزورنا إلا في النادر . فقال دسباس : ان الحق معك يا اوديت وهذا عين الصواب .

ـ أمي ليس عندها جراءة .

ـ نعم ولكن لا أقدر أن أمس احساسات أحد ويخال لي أن مرغريت

ليست راضية عن حالتها .

ـ كيفما كانت حالتها ان الذنب لا يقع إلا عليها ومن جهة الزيارة ليس لها إلا أن تلوم نفسها لأنها هي البادئة بها .

كان دسباس يستقبل زائريه في منزله يوم الأحد فحينئذ تذهب ابنته وأودت لتناول الطعام معه ثم تهتمان بمجاملة ضيوفه واكرامه . وفي الأحد التابع لزيارة مدام روجر كان دسباس يلعب مع اودت بالشطرنج ، وفي الساعة الرابعة بعد الظهر دخل الدكتور توري فهتف دسباس أهلاً وسهلاً بطبيبنا النطاسي العظيم !

فأجابه مازحاً : اجلس من غير قيام فإني لست غريباً هنا .

ـ دعنا نلعب وحدنا وتحدّث مع مدام فارز .

فقالت له هيا بنا إلى الصالون الصغير لأننا لا نقدر أن نتكلم هنا إلا بصوت منخفض ثم ذهبا إليه وجعلت تنظر إلى الصور المعلقة على الحائط وقالت : هل رأيت الصور الجديدة التي اشتراها أبي يا حضرة الدكتور ؟.

ـ لم أرها بعد .

ـ ها هي تعال وانظرها . فجعل ينظر الواحدة بعد الأخرى إلى أن قالت تعجبني هذه البنية الصغيرة وأما رؤية تلك فتحزنني .

ـ ولماذا تحزنك يا سيدة ؟

ـ يظهر أنها تندب حبيبها فأنا أتأثر من النظر إلى هذه الابنة المسكينة على رغم استخفافي بدموع المحبين .

ـ نعم واعتقادك بسنة الود غريب حسبما يبدو لي دعيني أولاً أن أهنئك بصداقتك لرجل وامرأة مطلقين وهل يعرف البير أنك تستقبلين زوجته .

ـ لا توجد أسرار بهذه الزيارة وما من سبب يدعوني لإخفاء ذلك .

ـ رأيك في محله .

ان توري كان يشتم من رائحة كلامه علامات الغيرة ظاناً بأنها تسر بذلك إذ تتخذه شاهد حب وميل إليها ولم يعلم أن مداخلته في ما لا يعنيه جعلته ثقيلاً غير محتمل ، بما أن صداقة مدام فارز له كانت ساذجة مجردة عن كل غاية وعندما سمعت كلامه هذا غشى الاصفرار وجهها واستشاطت غيظاً وكدراً وقالت له : أرجو منك أن لا تتداخل في أموري لأنها لا تعنيك .

ـ حسناً تقولين يا سيدتي . انما تعنين أن صداقتي تثقل عليك .

ـ لا أريد أن يتعرض أحد لأمر سيرتي وسلوكي فإني مطلقة الحرية في سائر شؤوني . نعم اني أزور وأستقبل وأود من أشاء . قالت هذا ودخلت غرفة اللاعبين دون أن تعبأ به وجلست ازاء والدها وابنتها وبعد برهة وجيزة نهضت اودت مسرورة وهي تقول : غلبت جدي فأنا غالبة وهو مغلوب . قال انها ابنة تخيف ثم سأل أمها عن توري . فأجابت في القاعة ينظر إلى الصور . فتبعه إلى حيث هو ثم اقتربت اودت من والدتها فشعرت بارتعاش يديها .

ـ ماذا جرى يا والدتي أرى يدك كقطعة ثلج !

ـ لم يحدث شيء . هل تحبينني يا اودت ؟

ـ وأعبدك عبادة أخبريني ماذا جرى ؟. ثم دخل دسباس وقال : ماذا حدث ، وأين ذهب توري يظهر لي انه قد انسل (على الموضة الانكليزية) ولم يزد على هذا شيئاً ، إذ لحظ اضطراب ابنته ففهم انه جرى لها ما يكدرها من جهة توري .

الفصل الثالث والعشرون

ان الدكتور توري ثاني يوم اجتماعه بمدام روجر ذهب إلى بيتها وسلم الخادم بطاقة لها فاستغنمت والدتها هذه الفرصة لإعداد مأدبة بليلة سرور وحظ في بيت ابنتها وأفهمتها أن تحث زوجها لأن يكون توري من المدعوين فراق هذا الفكر في عيني روجر مريداً أن يشكره على مدحه إياه أمام زوجته ولكنه لم يفطن بمن يدعوهم معه ، فقالت مدام موستل يمكنك أن تدعو أليس وزوجها وصديقنا القديم ـ لبران هاليه ـ الذي صادفته بطريقي في الأسبوع الماضي وقد سألني عنكما باهتمام والدكتور توري ويمكنك أن تجد مدعواً آخر من أعز أصحابك ونحن ثلاثة ولا ينقص سوى تعيين اليوم ومرغريت تكتب بطاقة تدعو بها توري فماذا تقولون ؟

فصادق روجر ومرغريت على هذا الرأي . ثم اختلت مدام موستل بابنتها وقالت كظافرة هل نظرت ما أطيب قلب زوجك . سري وابتهجي بعيشتك يا بنيتي وانزعي عن وجهك هذه الهيئة المحزنة . وماذا ينقصك يا ترى ؟

فتنهدت مرغريت قائلة لا ينقصني شيء .

ثم وصلت أليس وزوجها من فرساي قبل باقي المدعوين وتركت زوجها في منزل أخيها وذهبت تقضي بعض الشؤون في المدينة . أما زوجها القبطان (تورسي) فكان خفيف الروح حلو الحديث بهي الطلعة يعجب كثيراً بمرغريت كما أنها كانت هي أيضاً ترتاح إلى مجالسته ومحادثته

وكانت في ذلك اليوم متبرجة ومزدانة بأحسن زينة ، لابسة ثوباً رمادياً جميلاً للغاية وشعرها الذهبي يلمع فوق وجهها المنير الناصع البياض الممزوج باللون الوردي . فتأملها القبطان تورسي طويلاً ثم قال لها : يخال لي اليوم انك مرغريت الأولى نعم من حين دخولك بيت روجر هذا تهملين نفسك ولا تعتنين بملابسك كالأول .

خال لها أن القبطان عرف فكرها وما يختلج في أعماق صدرها وانها لم تتبرج إلا لأنها افتكرت بألبير ولهذا احمر وجهها ثم أجابت : لا تذكر الماضي يا هنري .

ـ ولماذا يا مرغريت . أنا متأكد كل التأكيد انك لم تذنبي في الماضي ولا محل للانتقاد عليك بالحاضر . وكانت حينئذ زوجته داخلة بالباب فسألته : ماذا كنت تقول ؟

ـ كنت أردد على مسامع السيدة مرغريت آيات حبي لها معرباً لها عن عواطفي .. وأنت تعلمين عظم مودتي لها .

ـ ان قولك هذا ينافي العقل والصواب على خط الاستقامة .

ان الدكتور توري قد أظهر من الهشاشة والبشاشة واللطف والدعة ما لم يكن يعهد فيه من قبل روجر وكثيراً ما بالغ في الاطراء على صفات روجر وحسن أخلاقه ، والخلاصة انه كان موضوع كلامه حتى ان مدام تورسي نظرت إلى أخيها نظرة المتعجب . وبعد تناول الطعام اتخذ مدام موستل موضوع اهتمامه واعتنائه فنهض وجلس بالقرب منها وهو يمدح ويثني على ذوق أو لطف ابنتها وذكاء وأمانة زوجها مؤكداً لها أنه سينجح نجاحاً عظيماً ويشتهر اسمه بين قومه فأجابته : ان ابنتي مرغريت قد سرت سروراً لا مزيد عليه بمعرفة حضرتك .. وأنا أتأمل أنها تذهب من وقت إلى آخر إلى مدام فارز صديقتها . فلله در هذه السيدة ما ألطفها وألذ عشرتها !

فصمت توري وأظهر ارتباكاً متلعثماً أو كان لا يدري بماذا يجيب ولكي يخفي ارتباكه هذا مكن نظّارتيه تحت عينيه فلاحظت ذلك مدام موستل .

ـ وهل حضرتك تزور مدام فارز يا دكتور ؟

ـ كنت أزورها في الماضي لكني أرى من الآن وصاعداً أن لا حاجة لها إلى أصدقائها القدماء .

ـ هل تسمح لي أن أسألك ما سبب ذلك ؟

ـ السبب في غاية السذاجة .. وهذا أمر لا يهمني كما أنه لا يهمكِ ..

ـ وما هو . ولم لا تصرح بكلامك ؟

ـ هو صهرك القديم ولا أذكر اسمه خوفاً من أن يردده الصدى . نعم هو يتردد دائماً إلى بيتها وهي تستقبله بكل حرية ولا تخفي هذا على أحد .

ـ وهل تظن أن صداقة ...

ـ نعم صداقتهما تنتهي بالزواج . وعندي شواهد تثبت هذا الظن .. لكن هذا لا يهمك .. وكل منهما طليق الحرية ..

ـ هذا صحيح ولا جدال فيه .

ـ لكن يخشى من زيارات مدام روجر وترددها إلى هناك .. فأنا أخبرتك بهذا الخطر الممكن وقوعه مراعاة لحقوق الصداقة . فهل أنا مخطىء في ذلك ؟

ـ كلا فإني أضحيت في غاية الامتنان لشعائر حبك ومن أعظم الشاكرات.

الفصل الرابع والعشرون

انصرف المدعوون الواحد بعد الآخر أما مدام موستل فظلت قلقة البال مضطربة البلبال لما انبأها به الدكتور توري أخيراً خرج روجر لعيادة المرضى وبقيت مرغريت وحدها في حجرتها حيث أضاءت النور الكهربائي ووقفت أمام المرآة ترى ذاتها فسمعت كلام هنري يرن في أذنيها وهو : يخال لي اليوم انك مرغريت الأولى ..

ثم نظرت إلى ذاتها مندهشة وقالت : وماذا تغيَّر فيَّ عن الماضي ؟ نعم انه مصيب في كلامه ان ماضيّ لا يهدم وما من قوة أرضية تقدر على هدمه لأنه حي في قلبي .. نعم ان ماضيَّ حي وسيحيا إلى الأبد .. ان مصارعتي لنفسي لا تجدي نفعاً .. وأراني أجتهد في محو رسم ألبير من مخيلتي غير أن شوقي يزداد إليه كل يوم وودي له ينمو في كل ساعة .

ترى هل نسيني بل لم لا يكتب لي ويسأل عني ؟ ومن يعلم ان لم يكن انشغل عني بغيري ؟ نعم طالما تمنيت الابتعاد عنه اتماماً لواجباتي . غير أني اصارع قلبي وفكري بدون فائدة على ما أرى .

ان واجباتي تنهاني عن البحث عنه والتوصل إليه والتمتع بحديثه الرائق ، لكن من جهة أخرى لي الحرية بأن أحبه وأميل إليه وأشتاقه .. بل وأبكيه كما لو كان تحت التراب .

ثم أجالت طرفها في ما حولها وهي مذعورة فشعرت بألم في قلبها وأغمضت عينيها ثم فتحتهما وصوبتهما نحو صورة وحيدها مكسيم عند

ذلك ابتسمت لهذا الوجه الصبوح الجميل وشعرت بقبلاته اللذيذة ودعته لمساعدتها ليحميها من ذكر البير .. وهيهات ذلك . وكان رسم ايفون معلقاً فوق صورة مكسيم .

عندما رأت رسم ايفون وهي مائتة تحدق بها الأزهار غلا دمها وجرى مسرعاً في عروقها ، ثم بسطت ذراعيها وهي لا تعي على شيء لكنها ترتعش شوقاً وحزناً ، ثم ضمتهما إلى صدرها وأغمضت مقلتيها ولفظت بصوت مرتفع تلك الكلمة المحرقة التي كانت ترفرف دائماً على شفتيها . ألا وهي : ألبير .

الفصل الخامس والعشرون

أتى جان فارز بيت والدته في عطلة عيد الفصح حيث قضى ٨ أيام بين حنان أمه ودلال شقيقته غير أن ألبير لم يأت في ذلك الأسبوع . وفي غد رجوع جان إلى المدرسة سألت أودت أمها . هل عندك من خبر عن ألبير ؟

ـ لا يا عزيزتي أجابت ذلك باضطراب فلاحظت أودت خطراً بها لذلك دنت منها قائلة : وهل كتبت له ؟

ـ لم أكتب ولا افتكرت فيه لأني انشغلت عنه بأخيك جان .

ـ أو لم ترسلي أحداً يسأل عنه ؟.

ـ لم أفكر فيه إلا الآن ولا علم لي بغيابه عنا كل هذه المدة .

ـ يناسب أن تكتبي له يا والدتي ان كنت ترومين .

ـ قصدي أن أكتب له وأرسل الرقيم مع الخادمة لتأتينا بالجواب المعجل .

ـ أكتبي حالاً بدون ابطاء . فجلست مدام فارز أمام مكتبها وبعد أن كتبت الرسالة أرسلتها مع الخادمة إليه ثم تابعت أودت حديثها وقالت : ان البير تعس يا أماه .

ـ نعم انه تعس جداً

ـ وأرى من الواجب علينا أن لا نهمله .

ـ ومن منا يهمله ؟

ـ اني أخشى عليه من صداقتك لمدام روجر . فإنها امرأة عديمة الشفقة !

فابتسمت مدام فارز وضغطت ابنتها على صدرها . بغضون ذلك عادت الخادمة حاملة جواباً من الخواجا البير ففضته وقرأت فيه ما يأتي :

سيدتي وصديقتي العزيزة

كنت مريضاً كل هذه المدة أما الآن فإني اتجهت إلى الصحة واني آمل أن يساعدني الحظ بزيارة حضرتك بأول فرصة تسنح حيث أتعزى باللطف عن الوحدة . وتفضلي أخيراً بقبول تحياتي الودادية . ثم دفعت الكتاب لأودت فقرأته وقالت لأمها : حسناً فعلت يا أماه بالكتابة لهذا الصديق المسكين .

في غضون ذلك وصلت إلى عند مدام فارز الآنستان ماسكا واختها وبعد التحية قالت ماسكا : قد كلفنا في هذا اليوم حضور حفلة موسيقية في الساعة الرابعة بعد الظهر ، فأتينا إلى حضرتك خصوصاً لتأذني لأودت بالذهاب معنا فإنها تسر كثيراً . فشكرتها مدام فارز وأثنت على احساساتهما النبيلة لأنهما تفتكران دائماً في بنتها . فأجابتا اننا نحبها كثيراً .

ثم خرجت أودت مع الآنستين بعد أن أذنت لها والدتها وعينت لها وقت الرجوع وصحبتهن إلى الباب الخارجي ثم عادت تمشي الهوينا حتى إذا وصلت إلى حجرتها ألقت بنفسها على مقعد هناك وقد انحطت قواها . بعد ذلك فكرت كيف أن ابنتها أسرعت بالذهاب غير مبالية بترك والدتها وحدها دون أن تعتذر من جهة خروجها .. رأت نفسها منفردة وحيدة .. ووحدة هـــذه الساعة جعلتها تفتكر في وحدتها في المستقبل .. قالت ان ابنتي أودت ستتزوج يوماً ما ، وكذلك أخوها جان فأصبح والحالة هذه وحيدة وكل من ولديَّ يكون ذا بيت هو موضوع أفكاره

واهتمامه وأنا المسكينة من يعتني بي يا ترى ؟ نعم ان الذي يحبني حباً عظيماً لكن هذا المستقبل .. وبعد أن خطر في فكرها البير تنهدت : آه لو كان لا يكفيني في أن يحبني هذا الشخص ! لله ما أنشف حياتي وأعمقها ! لعمري أني لم أذق في كل أيامي الماضية طعم الحب اللذيذ ، ولم تمس شفتاي كأسه المسكرة .. نعم لقد مضى شبابي دون أن أفكر في الحب أما الآن فلم يعد هذا بالإمكان فأنا أشعر والحالة هذه باحتياج إليه نعم أحتاج إلى حبه وميله !

ظلت وقتاً طويلاً بدون حراك وعيناها محدقة بالأرض متأملة بألبير المريض وكيف أنه وحده لا أحد يهتم به فهو يحيي ليله ساهراً يتقلب على فراش الحمى والآلام ثم استولت الشفقة على قلبها ودبت فيه حرارة جديدة وزفرت زفرة سداها الحزن ولحمتها عظم الاكتئاب ثم نهضت تمشي في الحجرة وهي عازمة على الإعتناء بألبير والاهتمام به .

الفصل السادس والعشرون

أشارت مدام فارز إلى والدها بأن يذهب لعيادة البير المريض وعند رجوعه بادرت أودت لسؤاله قائلة : كيف حاله ؟

ـ حاله سيئة على ما أظن .

ـ وماذا تعني بهذا القول ؟

فأسرعت مدام فارز من داخل وقالت : أنت يا أبتي تزيد في كلامك فتجعل الشيء الذي لا يذكر عظيما جسيما وتتصور أن صحة الجميع ضعيفة نظير صحتك .

ـ قولي مهما شئت وسترينه بعينك لأنه ألحَّ عليَّ بأمر ذهابك لعيادته .

ـ وهل تذهبين يا والدتي ؟

ـ بكل رضا .

قال دسباس : كاد قلبي يتفتت اشفاقاً عليه وقد سألته بأن أعوده بتواتر إذا شاء فرفض معتذراً بأن الزيارات تتعبه إنما طلب مني بلجاجة كلية بأن تذهبي إليه .

لم يمض سوى زمن وجيز حتى ذهبت مدام فارز لعيادة ألبير وعندما دخلت حجرته نبض قلبها سريعاً حينما رأته ملقى على سريره شاحب اللون منحط القوى فدنت منه ومسكت يده قائلة كيف حالك أيها الصديق الصدوق ؟

ـ ان حالي كما ترين أيتها السيدة النبيلة . قلبي ضعيف بطيء الحركة منذ سنين طويلة !

ـ وكيف لا يكون ذلك وأنت تفتكر دائماً في ما يؤلمك ويكدر صفاء معيشتك ! لله ما أطيب رائحة هذا النسيم المنعش الداخل من هذه النافذة!..

قالت هذا ، لأن النافذة التي تطل على البستان الصغير كانت مفتوحة والنسيم العليل يتلاعب بغصون أشجاره المختلفة وأوراق أزهاره ورياحينه المتنوعة ثم يهب في الفضاء حاملاً روائحها العطرية فينشرها في غرفة المريض الذي هو أليف الوحدة حليف الوحشة والانفراد في دنياه هذه !

نظر ألبير بعينين منخفضتين إلى الخارج ثم حوَّل نظره إلى رسم مرغريت وهو على القرب منه وقال : أريدها هي .. ومن صميم القلب أبتغي مرآها .

وضعت مدام فارز يدها على يده بلطف متأملة تلك اليد النحيلة فرفع بصره إليها قائلاً : لا رجاء لي إلا بك أنت .

ـ بي أنا ؟ وماذا أستطيع أن أعمل ؟

فسكت برهة وقال بحرقة لا مزيد عليها اذهبي قولي لها بأني مائت لا محالة واروم أن أودعها الوداع الأخير .

ـ ماذا تقول ؟ تبصر بأمرك ..؟

ـ تبصرت كثيراً وتصبَّرتُ زماناً طويلاً وأمعنت النظر في أموري ساعات متتالية إلى أن عيل صبري وضاقت حيلتي ففكري هو نديمي الوحيد ومرضي ناتج عن كثرة تفكري فيها وقلبي يحدثني بأن أراها لأنها زوجتي ومتى رأيتها شفيت لا محالة ! ولا أقدر أن أكتب لها رأساً بينما أن حضرتك صديقتها وتستطعين مقابلتها في كل وقت ، فاذهبي إذاً وتوسلي إليها بأن تشفق على صبري الواهي وجسمي السقيم وروحي الذائبة .. ألحي عليها بأن تشفق عليَّ وترق لحالتي هذه استحلفيها باسم ايفون ابنتي . آه لو علمت

ايفون بحالتي لظهرت لها في الحلم مشددة عليها بالاسراع إليَّ .. هل تفعلين معي هذا المعروف وترثين لحالتي هذه ؟ أجيبي بالايجاب أيتها الصديقة الفاضلة واني لأخالك فاعلة ذلك بالحال ؟!

ـ نعم رأيتها وكلمتها أيضاً !

ـ هي زارتني منذ أيام وظهر لي انها سيدة قريرة العين ، ناعمة البال . فلماذا تريد أن تقلق راحتها ؟ فإن كنت تحبها حقيقة دعها وشأنها وبعد هذا وذاك من يعلم ربما تغيَّر قلبها من جهتك كانت تحبك في الماضي .. أما الآن ..

ـ كانت تحبني ولم تزل حتى الآن بل زاد حبها على الأول !

ـ ومن أنبأك بهذا ؟

ـ اسمعي . لا أشك في أمانتك على حفظ السر .

ـ تكلم بحرية وكن على ثقة بكل أمورك .

ـ لله ما أطيب قلبك وأحسن أخلاقك يا ليت كل النساء نظيرك نعم قد حدثت نفسي مراراً كثيرة بأن لو كان باستطاعتي أن أحبك لعاد الهناء مالئاً حياتي سعادة وصفاء غير أني لا أقدر أن أحكم على ذاتي فأنا أحب مرغريت .

ـ ان المرء لا يحب ويميل إلى من يشاء ومع ذلك ثق بأمانتي وأنا مستعدة لمساعدتك بأمورك الصعبة بقدر استطاعتي .

فأثنى عليها كثيراً وقبل يديها الواحدة بعد الأخرى ثم قص على مسامعها تلك الاجتماعات التي جرت بينهما في البستان حيث كانا يتعاهدان بالملاقاة . وهل تظنين أنها لا تأتي بعد أن أفهمتك كل هذا وخصوصاً إذا علمت بأني ملقى على سرير الموت ؟

ـ أنت لا تموت الآن بل بعد عمر طويل .

ـ ربما إذا رأيتها تعود إليَّ الحياة ، وان لم يساعدني الحظ برؤيتها فإني أموت حزيناً . آه حقاً انه ليصعب عليَّ شرح ما بي من الآلام أن أفكاري تعذبني جداً . انها حيّة وتحبني وأحبها وهي زوجتي ومع ذلك نحن منفصلان الواحد عن الآخر وقبل أن ينهي كلماته هذه ضاق صدره وتنفس الصعداء ثم أغمض عينيه ملقياً رأسه إلى الوراء ، فتناولت حينئذ زجاجة صغيرة فيها رائحة منعشة كانت بالقرب منها وأخذت تنشقه منها حتى فتح مقلتيه ثم قالت له ها أنذا ذاهبة فكن مطمئناً .

ـ لا شك أنها تأتي وافرحتاه .

ـ خل عنك الانفعالات النفسانية فإنها تضر بصحتك .

ـ لا تذهبي الآن انتظري قليلاً .

ـ لا بأس . فإني لك معطية. تناولت مروحة وجعلت تروّح بها وجهه إلى أن ابتسم وأبرقت أسرته وامتلأ وجهه من سرور الأمل وظهرت عليه امارات النشاط والعافية .

الفصل السابع والعشرون

انطلقت مدام فارز من عند ألبير حزينة النفس قلقة البال مضطربة البلبال لا تعي على شيء لا تعلم ولا تدري كيف تذهب الى مرغريت ومتى تذهب إليها ماذا تقول لها وبأي عبارات تبلغ امرأة ذات زوج هذا الكلام وكيف يسوغ لها أن تحرضها وتستقدمها الى رجل كان زوجها في الماضي وانفصلت عنه برضاها وفيما هي سائرة صادفت مركبة فركبتها وأفهمت السائق بأنها تقصد شارع بروني متظاهرة بنسيان عدد المحل . قالت ذلك حتى اذا عدلت عن النزول أمام بيت مرغريت تعود بسهولة دون أن يعلم السائق شيئاً من تغيير عزمها . وفيما كانت كذلك نظرت الى ساعتها وقالت في نفسها : الساعة الآن ٥ وربما لا أجدها بالبيت في مثل هذه الساعة .. مع ذلك يجب أن أتم وعدي وأذهب دون تغيير وكانت العربة تسرع حتى اذا بلغت الى الشارع المعين منها أعلنت للسائق عدد المحل المقصود وعندما انتهت إليه أعطت الخادم بطاقة زيارتها فذهب وعاد بعد برهة يسيرة معتذراً عن سيدته من أنها تتهيأ للذهاب الى فرساي ولا تستطيع مقابلة أحد في هذا الوقت .

فلم تكتف بهذا الجواب بل تناولت قلماً وقرطاساً وكتبت بعض كلمات يسيرة أودعتها ضمن غلاف أرسلته ثانية مع الخادم فلم يبطىء ان عاد إليها يدعوها إلى حجرة مرغريت التي عندما رأتها حيتها بأرق الألفاظ معتذرة باستقبالها وهي تلبس ملابسها لأنها عما قليل تتوجه الى فرساي .

ـ يا سيدة مرغريت هل يسمعنا أحد ؟

ـ لا أحد يسمعنا تكلمي هل من خبر جديد .

ـ أريد أن أقول لك أمراً سرياً والأحرى ..

ـ قولي فاني أعرف كل شيء ..

ـ وكيف تعرفين ؟

ـ قلت لك أعرف وماذا يهمني ..

ـ نعم ولكن لا تفهمين غاية مجيئي الى هنا .. اني آتية من قبل ألبير ..

ـ لايعنيني أمره ولا علاقة له بي وليس له عندي رجاء البتة !

ـ انه مريض ولكن في حالة يرثى لها ويتوسل إليك أن تزوريه في هذه الحالة .

ـ وهل ألبير ذاته أرسلك لاقناعي بهذا ؟

ـ نعم هو استدعاني وكلمني بهذا الخصوص بكل إلحاح ولجاجة . وها أنذا آتية من عنده الآن .

قالت مرغريت في نفسها إن المسألة فيها نظر . وتذكرت ما حصل لها من الغيظ والغيرة عندما أخبرت بما قاله الدكتور توري بخصوص ألبير ومدام فارز هذه . وكذلك لما ابتدأت مدام فارز بمكالمتها في ذلك ، فلم يكن هذا إلا بقصد طلب رضاها للاقتران بألبير . قالت كيف يسوغ لهذه المرأة التي هي غريبة عن ألبير بالكلية أن تذهب إلى بيته وتحادثه وتجالسه بل وتمرضه بينما اني أنا زوجته ومع ذلك لا أتجاسر على ذلك حتى ولا أن افتكر فيه وكانت الغيرة في غضون ذلك تعظم في قلبها وتزداد في أفكارها حتى اضطربت كل أعضائها فأجابت بقساوة : جاوبيه بأن أمره لا يعنيني مهما كانت حالته ولن أذهب إلى بيته ما حييت .

ـ سأبلغه الكلمات عينها حرفياً لكن بقي عليَّ أن أقول لك كلمة كنت نسيتها وهي انه يستحلفك ويناشدك باسم ايفون بأن لا تخيبي أمله وهو على فراش الموت . قالت ذلك وخرجت لا تلوي على شيء .

الفصل الثامن والعشرون

ولما وصلت الى الشارع تنفست الصعداء إذ خال لها أنه سقط عن منكبيها حمل أثقل من الجبال الرواسي ثم أخذت تفكر في نتيجة هذه المقابلة العقيمة من كل فائدة وكيف أن مرغريت رفضت الذهاب إلى ألبير مع أنه هو ، هو زوجها الحقيقي أما روجر فانه زوج مجازي لا أكثر . أحبت البير بالماضي ولا يزال يعبدها حتى الآن وهي منفصلة عنه . وها هو طريح الفراش أرسل يتوسل إليها مستحلفاً إياها باسم ابنتها بأن تمنَّ عليه بزيارة في مرضه هذا ، فأبت بدلاً من أن تسرع إليه وتعتني به وتطيب قلبه ! لعمري ان العقول لعلى تباين عظيم في هذه الدنيا .

ثم بعد إمعان النظر وتردد الفكر في هذا الاستقبال الذي هو في غاية الفتور ، أدركت مدام فارزحق الادراك أن ذلك ناتج عن غيرة عرت مرغريت ، ولا بأس فانها معذورة بهذا المعنى لا بغيره .

ان مدام فارز كانت قد اضطرب بالها منذ اجتمعت بألبير أول مرة في العهد الأخير ولم تكن من قبل الا قريرة العين ناعمة البال وبعد تلك المقابلة مال فؤادها الى ذلك الذي تدمي حالته القلوب أما في المواجهة الأخيرة فكادت تبكي الدم لا الدمع على حالته التي ترق لها القلوب الصخرية ثم عزمت أن تبذل ما في وسعها لتخفيف آلامه وتسكين أحزانه .

عندما وصلت الى بيتها استقبلتها ابنتها بثغر باسم وهي تطوق عنقها

بيديها لاثمة بتواتر وجنتيها والأم تلتذ بهذه القبلات البنوية الحارة مصغية بحنو الى دقات قلب ابنتها . قالت أودت : اني استنشق بثيابك رائحة شيء ينعش القلب ويحييه .

ـ نعم وقد نشقت منه رائحة ذلك العليل الصديق .

ـ وماذا حصل له ؟

ـ عسر تنفس .

ـ وهل من خطر على حياته ؟

ـ لا أظن . نعم انه ضعيف القلب ولكن ذلك لا يميت حالاً .

فأطرقت أودت برهة ثم نظرت في وجه أمها فرأته شاحب اللون .

ـ هل تشعرين بتعب يا أمي ؟

ـ أحس ببعض التعب يا ابنتي .

ـ أرى وجهك ممتقعاً ولا قدرة لك على الوقوف فما هذا الضعف انك تعتنين بالآخرين ولا تلاحظين صحتك .

قالت هذا واجلستها على مقعد واضعة لها وسادة تحت رأسها وجعلت تنشقها الروائح والمنعشات الى أن شعرت براحة عظيمة فنهضت وقالت . أريد أن أغير ملابسي لأننا نتناول العشاء عند مدام بلواي هذا المساء .

ـ أنا لا أعرف ذلك يا أماه .

ـ اذهبي إذن والبسي وتهيئي واجتهدي لأن تكوني جميلة تستلفتين الأنظار .

ـ وهل تسرين اذا كنت موضوعاً لاستلفات الأنظار ؟

ـ لا شك في هذا .

ـ ستكونين مسرورة لكن أناشدك بحياتك أن تقولي لي الصحيح عن حاله الأكيد وهل هو في خطر ؟.

ـ ما من خطر عليه لكن مرضه في فكره وتعلمين أن صحته نحيفة جداً .

الفصل التاسع والعشرون

بعد أن خرجت مدام فارز من عند مرغريت بنصف ساعة تقريباً رجع الدكتور روجر إلى بيته وأخذ زوجته ليذهب بها الى فرساي حيث يتناولان العشاء تلبية لدعوة والديه . لكنه بهت إذ رآها جالسة ولم تزل بثوبها الاعتيادي كأنها لا علم لها بأمر السفر . فقال لها : كاد الوقت يفوتنا يا مرغريت تحضري بالسرعة قبل أن يسبقنا القطار .

ـ أنا لا أرغب في الذهاب الى فرساي اليوم .

ـ ولماذا . هل تشعرين بألم ؟

ـ لا أحس بشيء لكن لا أريد أن أذهب .

ـ يلزم أن تتشجعي واذا ما ذهبنا فاننا نسبب الكدر للذين كلفونا بالحضور .

ـ اكتب لهم بأنه حصل لي صداع منعني عن الذهاب واني أعدهم بالزيارة في يوم آخر .

ـ أنت لا تريدين أن تذهبي وأنا كذلك فلا بد لي اذن من أن أخبرهم بالتلفون بأن لا ينتظرونا .

ـ يمكنك أن تذهب إذ لا مانع يمنعك . ومن جهتي فاني أرغب في الاختلاء بنفسي بعض الأحيان !

ـ ها أنذا ذاهب وأتأمل أن أراك بأحسن حالة عند رجوعي .

ـ ان شاء الله .

ـ وها أنا مرسل لك والدتك .

ـ لا حول ولا .. قلت لك اني احب الاختلاء فدعني الآن وشأني وامض أنت والسلام .

ذهب روجر الى حجرة ابنه مكسيم وحمله بين ذراعيه وهو يلثمه واتى به الى أمه ووضعه على ركبتيها قائلاً : اني أترك الواحد بحراسة الآخر والله يحرس الاثنين معاً وخرج .

ان مرغريت عندما قالت : لن أذهب عند ألبير ما حييت ولا علاقة له معي الخ .. لم تكن تفتكر في ما تقول . لكن عند ما اختلت بنفسها بعد أن نام ابنها شعرت بنار شوق تحثها الى الاجتماع بمن كانت تميل إليه ثم نهضت من غير روية والتفّت برداء أسود وغطت رأسها « بشال » مخرم كانت تخصصه للذهاب الى المرسح وتناولت قفازيها ومفاتيحها وكيس دراهم صغير وخرجت من حجرتها إذ كان السكوت سائداً والظلام مرخياً سدوله وان هي إلا لمحة عين حتى صارت عند الباب الخارجي حيث استقر عزمها على الذهاب الى عند ألبير بدون ابطاء . فاستوقفت مركبة رأتها هنالك وسارت بها وكانت الساعة التاسعة من الليل ولما وصلت قرعت الباب ودخلت تقول للخادم : ان الخواجا ألبير ينتظرني .

ـ يا سيدتي ان الخواجا مريض جداً فأرجوك أن تخبريني عن اسمك .

ـ أنا زوجته . فانحنى الخادم احتراماً لها ومضى وما لبث أن عاد مشيراً إليها بالدخول الى غرفة سيده فدخلت وصافحته وهي تحدق به ولم تمض بضع دقائق حتى أغمي عليه لعظم الانفعال فألقى رأسه على وسادته وجعل يلهث بشدة . فارتشعت مرغريت وهمت باستدعاء الخادم لمساعدتها ولم يكن إلا القليل حتى فتح عينيه ناظراً الى محياها المبلل بالدموع وقال :

اني أراني الآن أسعد رجل في هذه الدنيا . وبأثناء ذلك أخذت زجاجة « كولونيا » وبدأت تفرك بمائها صدغي العليل ويديه فانتعش وابتسم وأبرق وجهه ثم رفع نظره إليها ثانية قائلاً بحلاوة لا توصف : مرغريت !

ـ لا تتكلم أكثر . أنا هنا .

نعم ان المحبين لا يحتاجون الى كثرة الكلام (وقد تنطق العينان والفم ساكت) ثم ضغط على يدها هنيهة وشرع يعرب عن حبه لها ويشكرها على اسراعها بالمجيء إليه ، وبأثناء ذلك يقول : يا زوجتي وهي تشعر بأن صوته هذا يخرق في أعماق قلبها ثم تنظر إليه وقلبها يرقص فرحاً لأنها اجتمعت بزوجها الحقيقي بعد الانفصال عنه مدة ليست يسيرة فمثلها مثل العليل الذي يجد الصحة بعد المرض المزمن أو الأعمى الذي يرى النور بعد الظلمة . وكانت عيناها تجولان في جدران الغرفة حيث الرسوم معلقة فرأت رسمه ورسم ايفون ورسمها مستندة على ذراعه . فحينئذ ترقرق الدمع من عينيها ثم أجهش الاثنان بالبكاء . أخيراً نشفت بمنديلها عينيه ووضعت يدها على جبهته ونظرت في مقلتيه باسمة وقالت : لا تبك سأرجع . وبعد نصف ساعة من وصولها نهضت تريد الرجوع ففهم ذلك ولم يعارضها أما هي فسألته . ومن يبقى عندك ؟

ـ ابقى وحدي . واذا احتجت الى شيء أدعو الخادم الذي ينام في الغرفة الثانية . فأطرقت برهة وهي تفكر في أنه هل يوافق أن تبقى أولاً فرأت الأوفق أن تذهب لتنظر ابنها النائم وكان ألبير يحدق بها قارئاً في ملامح وجهها ما يدور في خلدها ولولا القليل لصرخ بأعلى صوته من شدة الألم وهو يريد أن يرجوها لتبقى عنده ولا تتركه وحده لكنه تجلد وسألها بهدوء وهل تعودين ومتى ؟

ـ نعم أرجع بأسرع وقت ان قدرت أما الآن فلا بد من ذهابي كي لا أشغل بال من في البيت بأمر غيابي على حين غفلة وربما أعود غداً صباحاً .

فأجابها بلهجة مؤلمة . لا تذهبي . بل ابقي هنا . فلم تجبه سوى بكلمة واحدة وهي . ولدي . فهز رأسه خاضعاً إذ رأى أنه لا بد من رجوعها ثم أمسك يدها اليسرى ناظراً الى الأصبع الذي كان به خاتماً اتحادها الأول والثاني. فأشار الى خاتم اتحاده بها وقال لها بصوت منخفض . أشكرك . فخنقتها الدموع لكنها تجلدت وقالت . كن هادئاً مطمئناً يا ألبير وسأعود اليك غداً ان شاء الله وأبقى هنا حتى تتعافى بأقرب وقت وها أنذا استودعك الله وخرجت .

الفصل الثلاثون

عندما دخلت مرغريت الى حجرتها غيرت ثيابها وأسرعت الى حيث ابنها نائم فسمعته يبكي ويصرخ منادياً . يا أماه مع أن المرضع كانت تحمله على ذراعيها وتسير به في أرض الغرفة وهو لا يزداد إلا صياحاً وبكاء فسألت أمه عن سبب بكائه فأجيبت بأنه يتألم من إحدى أسنانه ولم يكف عن الصراخ حتى تناولته أمه وحملته على ذراعيها وهي تلاعبه وتغني له أغنية محزنة وفي أثناء ذلك عاد الدكتور روجر من غيابه وبمروره أمام غرفة ابنه سمع صوت مرغريت التي كانت تغني للطفل بلحن محزن فلبث برهة مصغياً ليفهم المعنى ثم فتح الباب ببطء واذا بمرغريت لابسة ثوباً أبيض بوجه شاحب صفراء اللون فدنا منها وقال بلطف . دعيني أحمل مكسيم.

ـ هو لا يبكي الآن .

ففهم من هذه الجملة أن دخوله هو في غير محله لأن الولد ساكت فذهب حينئذ واضجع على سريره . ومضى وقت طويل ولم تذهب الى سريرها فقام وحتم عليها بأن تنام فأطاعت لأنها شعرت باحتياج كلي الى الراحة .

ـ لا تدع الولد يبكِ فان صراخه يزعجني !.

ـ نامي بحراسة الله ولا تخافي .

عندما وضع الأب ابنه بين ذراعيه سكت سكوتاً تاماً فانطلقت أمه

الى غرفتها ونظر روجر يشيعها وحينما اضجعت نامت في الحال .

وقد رأت أحلاماً مزعجة في نومها هذا منها : انها كانت تمشي في أحد شوارع باريس حاملة ابنها على ذراعيها وكان يثقل شيئاً فشيئاً حتى اضطرت أن تجلس على الحضيض إذ لم يكن بوسعها أن تقوى على القيام والسير بعد .. أخيراً جمعت ما بقي لها من القوة ونهضت وإذا بهوة كبيرة أمامها فلم تلبث ان سقطت فيها وإذا بها منتبهة من نومها مذعورة مضطربة .

ثم استوت على فراشها جالسة وهي تعيد في مخيلتها كل ما كان جرى لها في نهارها على أنها تنتظر بفروغ صبر طلوع الفجر إذ ينشغل روجر بعيادة مرضاه وحينئذٍ تسنح لها الفرصة بالذهاب إلى ألبير .

الفصل الحادي والثلاثون

ثم خرج الدكتور روجر وهو مشغول البال مضطرب الخاطر سائلاً نفسه : ترى ماذا جرى لها نهار أمس وما هو سبب غضبها وأي شيء منعها عن أن تصحبني إلى فرساي حسب العادة . لعمري اني لم أقدر أن أعرف حتى الآن شيئاً ولو يسيراً بهذا الخصوص .

وفي ابان الساعة العاشرة رأى روجر أنه مضطر لرؤية زوجته فعاد إلى بيته محتجاً بأنه قد نسي شيئاً فدخل تواً إلى حجرته وأخذ بيده رزمة صغيرة ماراً أمام غرفة زوجته التي لم يرَ فيها أحداً سوى الخادمة فسألها عن مرغريت فأجابته بأنها خرجت .

ـ متى خرجت ؟

ـ باكراً يا سيدي .

ـ مع المرضع .

ـ كلا فان هذه ذهبت صحبة مكسيم منذ نصف ساعة تقريباً وأما سيدتي مرغريت فانها ذهبت وحدها . وكان الجو صافياً جميلاً جداً في ذلك الصباح وهي معتادة على الذهاب في صباح كل يوم كهذا اليوم وروجر يعلم ذلك . ومع هذا اضطرب على رغمه عند سماع كلام الخادمة فانقلب راجعاً الى حجرته وجلس يفكر سائلاً نفسه عن سبب هذا القلق والاضطراب ثم أخذ يشجع نفسه ويسكن فكره ووقف وهو ينظر الى ساعته فرأى ان الوقت يسمح له بعيادة بعض المرضى فخرج لشؤونه ولكن

اضطرابه لم يفارقه وخال له ان كل ساعة يكون بها بعيداً عن امرأته توازي الدهر كله .

وبعد ساعة من ظهر ذلك اليوم عاد ودخل حجرة المائدة حيث كانت مرغريت بانتظاره كل يوم في مثل هذه الساعة ولكن لسوء الحظ لم يجد أحداً فقرع الجرس ولما حضر الخادم سأله : أين سيدتك مرغريت ؟

ـ انها لم تعد الآن ! ان الطعام مهيأ ان كنت تريد .

ـ يلزم ان ننتظر مرغريت !

خرج الخادم عابس الوجه مقطب الحاجبين نظراً لتغيير أوقات الطعام وهذا يهمه أكثر من سائر الأمور التي لا يبالي بها . أما روجر فانه فتح نافذة مطلة على الشارع وجلس أمامها وهو ينظر كل عابري الطريق وقد ضاق صدره وعيل صبره فظهر له عن بعد شبح امرأة فظنها زوجته ولكن لم تكن اياها . وبعد هنيهة نظر مركبة آتية فقال ان مرغريت فيها لا شك فنهض لاستقبالها وقد عاد إليه بعض الرمق غير أن ظنه لم يصب أيضاً فقال : ويلاه! خاب الأمل وكيف العمل وهو قد مل الاصطبار وسئم من طول الانتظار وجعلت أفكاره تتلاطم كأمواج البحر والهواجس تتجاذبه والتخيلات تتقاذفه والظنون تذهب في كل شعب وواد .

وعندما رأى أنه أضحى هدفاً لهيجان أفكاره واضطرابها المتواصل مما كاد يخرجه عن دائرة الرشد ويجعله أشبه بالبهائم انحدر بسرعة البرق من أعلى السلم إلى حيث تسكن أمها مدام موستل وهو كمن مسه خبل ثم سأل الخادمة عنها فأجابته : ان مدام موستل تلبس ثيابها تفضل إلى الداخل وانتظر قليلاً . فزاده هذا الجواب ضغثاً على إبالة فالتزم أن ينتظر مهدئاً روعه وهو يضرب أخماساً بأسداس غير أنه سئم الانتظار فهجم على باب حجرتها وقرعه بشدة وهو يدعوها ولم تكد تخرج حتى صاح بها بصوت

دوت منه كل المساكن : أين هي .. وكيف لا تعلمين .. وهل هي في عالم الأحياء أو عالم الأموات .. قولي لي الصحيح .. ولماذا تخفين عني ..؟

ـ تمهل يا روجر لا تخف ولا تزعج نفسك ولا تلح عليَّ بكثرة الأسئلة بل دعني أفعل ما بدا لي .. فان سمعت كلامي تتم الأمور على أحسن ما يكون ..

ـ لكن ماذا جرى وأي شيء يوجد من جديد . اصدقيني الخبر لقد قتلني الاصطبار ترى إلى متى تدوم معاركة هذه الشؤون .

فتحت يدها اليمنى فرأى فيها ورقة صغيرة قد كتبت فيها مرغريت بعض كلمات فتناولها بيد مرتجفة واذا بها : يا أماه ان ألبير في حالة النزاع ولا أقدر على فراقه ثم أعاد القراءة ثانية وهو يفرك عينيه وارتبط لسانه وشخص نظره بوالدتها التي قالت ها أنذا ذاهبة الى حيث هي لأرى هذا الخطب الذي حل بنا على حين غفلة غير اني استحلفك باسم ولدك بأن لا تحرك ساكناً اترك الأمر على مسؤوليتي قال ولسانه يتلعثم هي عنده ؟

ـ نعم هي عنده !

زوجتي مرغريت .. عنده ..

ـ لا أفهم .. كيف ..

ـ لا بد لي أن أذهب لاحضارها !

ـ قلت لك دع ذلك في عهدتي أنا أعرفها حق المعرفة ذهابك لا يوافق البتة .

انه في حالة النزاع وهي لا تكذب . يلزم أن تشفق اليوم لتسعد غداً . يقتضي أن تكون حليما لتعود إليك ..

ـ انها تكرهني الآن بدون شك آه مرغريت .. مرغريت ! قال ذلك وهو يبكي بكاء مراً ودموعه تنهل بكثرة على خديه وأضحى منظره بهيئة يرثى لها .

الفصل الثاني والثلاثون

حدث بعد أن خرج روجر أن نهضت مرغريت وهي تقصد الذهاب إلى البير بعزم ثابت أكيد إذ لم يكن أن يشغلها عنه أعظم شاغل في هذه الحياة كما أنه لم يبق أن يهمها عذاب روجر وقلقه واضطرابه لأن قلبها قسا عليه حتى أضحى صخرياً صلداً . كيف لا ، وقد كان اقترن بها طلباً لسعادته لا لسعادتها وراحتها إذ لو كان حبَّه مجرداً عن الميل الذاتي لكان طيب خاطرها وساعدها على إحتمال المصائب دافعاً عنها جيوش الهموم من غير أن يقترن بها على هذه الصورة لأنه ابن عمها فهو والحالة هذه ملتزم بتفريج كروبها وتعزيتها في أحزانها لا أن يطلب زواجها به كما جرى حال كونها مقترنة برجل حي .

وبناء على ذلك ذهبت إلى غرفة ابنها وقبلته قبلات حارة في سريره بعد أن أفهمت المرضع بعض أشياء ثم خرجت إلى حيث مسكن البير لا تلوي على شيء . فهو ينتظرها ولكن بلا صبر . وقبل أن تدخل غرفة العليل فهمت من الخادم أن الطبيب عنده ففتحت الباب تواً ودخلت بدون استئذان . وعندما رآها الطبيب نهض عن كرسيه منذهلاً لدخول امرأة على هذه الصورة من غير تنبيه ثم دنت من العليل ناظرة في وجهه وقتاً غير يسير والتفتت إلى الطبيب بعد ذلك قائلة : هل عرفتني يا دكتور ؟ ففهم من هي من مجرد سؤالها هذا لذلك وقف وانحنى ثم جلس وظلت واقفة بقرب رأس البير ماسكة يده سائلة الطبيب : كيف تراه ؟

ـ أراه تعباً يحتاج إلى ممرض يعتني به الاعتناء التام .

ـ أنا أهتم بكل ما يلزم .

ـ يظهر أنه حصل له حركة في هذه الليلة مع أن الإنفعال والتأثر مضران به جداً . ثم نهض فرافقته إلى الباب الخارجي وقبل أن يخرج سألته : كيف تراه ؟ قل لي الحقيقة يا حضرة الطبيب .

ـ إن الحقيقة هي هذه لا أمل بنجاته .

ـ هل يطول مرضه هذا ؟

ـ لا أعلم بالتمام . من الممكن أن يموت في هذا اليوم أو أن يبقى حياً مدة ٤ أو ٥ أيام لا غير .

ـ يموت اليوم البير .. وامصيبتاه .

ـ أعذرني يا سيدتي أنت سألتني عن الحقيقة .

ـ أشكرك يا حضرة الطبيب وهل يتألم كثيراً ؟

ـ لا أعلم . سأعود في المساء وخرج فوقفت قليلاً أمام باب الغرفة لتخفي جزعها واضطرابها ثم دخلت باسمة وخلعت عنها رداءها ودنت من السرير . نعم إن هذا العليل المحبوب قد تغير تغيُّر كلياً منذ بضع ساعات .. فاصفر وجهه وامتقع لونه وخف نظره فرفع بصره إليها وقال بصوت ضعيف جداً تكاد تخنقه العبرات : لا تتركيني .

ـ اقسم لك بأني باقية عندك حتى تشفى ثم حوَّل النظر إلى رسم ايفون وقال بصوت فهمته بعد صعوبة كلية : لأجلها ابقي عندي .

ـ أنا لا أدعك وحدك منذ الآن وصاعداً لأجلك ولأجل حبك لا لأجلها .

ـ فإذاً لأجل الحب لا تتركيني أموت وحدي .

ـ بعد عمر طويل .

ثم صمتا وقتاً طويلاً كان فيه البير ضاغطاً على يدها وهي تحملق به .. إذا ما رحل عني فإنه يأخذ معه قلبي وشيئاً من حياتي .. بل يا ليتني أرحل معه ونتحد سوية في الأبدية بعد ان افترقنا في هذه الحياة ولم لا أدفن بقرب جثته يا ترى وهل من سرور بعده في هذه الحياة الدنيا لا لعمري لله ما أعذب الموت متحدين . نعم وقد تجاذبنا الحديث مراراً بهذا الموضوع قبل الإنفصال وهو أن نموت في ساعة واحدة ، إن حياتي بعده مُرَّة للغاية ولا بد من موتي في الغد وما هو الفرق بين اليوم والغد الفرق هو أن موتي معه اليوم أعذب من موتي في الغد ، فياليتني أموت معه اليوم لتطير روحي مع روح من أحب حيث تتماسان في الفضاء وتجتمعان من غير انفصال إلى الأبد .

فتح البير المنازع عينيه ناظراً إليها فخال لها أن ذلك البصر الذي أضحى بعيداً يشير إليها لتأتي إليه فابتسمت ونظرت في وجهه بحرقة هذا مقدارها مريدة أن تطبع صورته في ذهنها وتنقش أسرة وجهه على صفحات قلبها تصورت انه وحيد فريد في هذا الكون بل إنه هو ، هو العالم بأسره فإذا مات ماذا يبقى يا ترى ؟

وإذ كانت سابحة في فضاء هذه التصورات حصل لألبير اضطراب عظيم وعسر تنفس فظنت أن ساعته الرهيبة قد دنت فتقطع قلبها هلعاً وحزناً ونهضت مذعورة وهي ترتجف فدخل الخادم وجعل ينشق المنازع المنعشات النافعة راشاً على وجهه الماء البارد إلى أن انتعش نوعاً وخف ذلك البحران وعاد إلى سكونه الأول وهو خمود طويل ، سكوت هائل لاقتراب ساعة الموت .. فظنت أنه نائم وتنحت جانباً وسألت الخادم : كيف قضى ليلته الماضية .

ـ كتب عدة تحارير ثم أغمي عليه من شدة التعب . ثم سألها باحترام تى تريدين أن تفطري يا سيدتي ؟ .

ــ ومن له قابلية في هذه الحالة .

إنما سؤال الخادم هذا فكرها ان زوجها ينتظرها بدون شك كما أنه لا يعلم أين هي لأجل هذا كتبت تلك الكلمات الوجيزة وأشارت إلى الخادم أن يرسل ذلك إلى أمها في الحال . وبما أن مرغريت أرادت أن تحفظ قواها إلى النهاية أمرت الخادم بأن يهيىء لها شيئاً من الطعام لأنه يلذ لها أن تتناوله تحت سقف بيته في آخر ساعة من ساعات حياته .

الفصل الثالث والثلاثون

توسلت مدامموستل إلى مرغريت ابنتها من صميم قلبها بأن تعود بالعجل إلى .. زوجها فلم تعر كلامها جانب الإصغاء . وبعد أن ذكرت لها ابنها الصغير أجابت : اني أفكر فيه وفي نفسي أيضاً كما أنه ليس باستطاعة أحد أن يأخذ مني ولدي .. وسأدافع عن نفسي ما استطعت بدأت أمها تلح عليها متوسلة إليها بأن تعود إلى بيتها ٣ أو ٤ ساعات ثم ترجع وهي تقوم مقامها في خدمة البير وتمريضه . فلم تبال بهذا القول بل انقلبت راجعة إلى حجرة العليل وهي تقول لها : في الزمن الماضي كنت أعمل بموجب أمرك ونهيك أما الآن فلا . نعم قد تغيَّرت تغيُّراً كلياً . وذلك لأن ألبير هو زوجي الشرعي أمام الله والناس ونفسي . ولو كان في حالة النزاع ولا يكون مكاني إلا بالقرب منه في الحياة بل وفي الممات أيضاً .

ـ وابنك يا مرغريت ؟

ـ ابني لا يحتاج إليّ اليوم ولا غداً بل وفي الحالين لا أترك البير قد تركته مرة في الحياة وذلك لا يعني أني أتركه في ساعة الموت . قالت هذا وخنقتها الدموع فلم تدر أمها ماذا تقول ولا كيف تعمل وأين تتوجه ؟

ـ ياابنتي مرغريت قد تركت روجر كالمجنون .. فهل تسمحين لي أن أعود بعد ذهابي إلى هنا وأبقى معك إلى حين رجوعك إلى بيتك .

ـ نعم .

رفعت أمها يديها إلى السماء وجعلت تناجي ربها قائلة : آه يا لها من تعاسة !

لِـمَ لم تسمح يا الله بأن يقترن البير بمدام فارز بل كيف شاء العدل الإلهي أن يكون هذا الرجل سبب لتعاسة ابنتنا أولاً وثانياً مع ما هي عليه من التمسك بشرائعه والمحافظة على وصاياه ! ثم مضت وهي لا تعي على شيء ولا تدري بما تجيب ذلك الذي كان ينتظرها في حال يرثى لها ويرق الجلمود الأصم. وعندما وصلت أخبرته بما دار من الحديث بينهما وان العليل مطروح على فراش الموت يقاسي آلام النزاع وهو لا شك مائت . وكان روجر يسمع كلامها لكن لا يفهم معناه. قد بذلت مجهودي ترى ماذا يلزم أن أصنع أكثر وكنت قلت لها بأني أرجع إلى عندها لأكون بصحبتها وهذا الرأي هو في غاية الموافقة واللياقة . فهل من مانع عندك .

لم يجبها روجر على الفوربل فكر وقتاً طويلاً ثم قال : لا بأس من رجوعك إلى هنالك .

ـ لله درك يا روجر فقد خلصتنا بهذه الحيلة من ألسنتهم .

ـ لا يلزم أن تظهري اضطرابك هذا أمامهم وخذي كل ما تحتاج مرغريت إليه معك ..

حينئذ ترقرق الدمع في مقلتيها وقالت : لله ما أطيب قلبك وما أسلمه كيف لا تحبك يا أحسن الرجال وأسماهم بالفعال والأعمال .

ـ اذهبي حالاً فإني متكل عليك في مثل هذه الأحوال .

الفصل الرابع والثلاثون

وكان نور حياته ينطفيء شيئاً فشيئاً ومرغريت جاثية بقربه في هيئة تفتت الأكباد وماسكة يده بين كفيها وهي تردد على مسمعيه من وقت لآخر . أنا هنا وتبكي بكاء مراً ليس على ما تراه في الحال فقط بل على الماضي إذ انفصلت عنه بمجرد ارادتها وبذلك رفضت حبه وسعادتها معاً . وحينما عادت امها دخلت إلى الغرفة المجاورة لأن مرغريت تريد أن تكون منفردة في حجرة العليل . وبما أن النافذة بها تطل على البستان أجالت النظر في تلك الحديقة الغناء المحتوية على أنواع الأزهار والرياحين ثم حولت عينيها إلى جدران الغرفة حيث رسم مرغريت وايفون فتبادر إلى ذهنها حالاً أن ابنتها ذات زوجين فلو أن هذا المنازع يعود إلى الحياة ماذا يحدث يا ترى ؟ وهل تنفصل عنه مرغريت لتعود إلى روجر . إن الإمارات لا تدل على شيء من هذا ! وهي بدون شك تبقى عنده ، كيف لا وهو زوجها ولكن الحمد لله .. فإن الرجل مائت لا محالة .. وكانت الساعة تمر ببطء لدى مدام موستل هذه فضاق صدرها وعندما سألت عن حال المريض قيل لها إنه لا يزال على ما كان عليه من الضعف والإنحطاط وقد عاده الطبيب وخرج من غير أن يقول شيئاً فخابرت روجر بالآلة الناقلة الصوت « التلفون » وسألته عن حالة مكسيم فأجابها أنه يهتم به وألح عليها بألا تترك مرغريت .

في أول هجمات الليل ابتدأ النزاع فشعرت مرغريت إذ ذاك بخوف هذه الوحشة الهائلة وحدها وعند انتصاف الليل استدعت والدتها وأجلستها في ركن من الغرفة وبقيت هي بجانب السرير الذي كان لم يزل يحتوي

على آثار تلك الروح الراحلة إلى عالم الأبدية . ولم تكن تجد من تعزية وتسلية سوى البكاء والنحيب ثم جثت على ركبتيها ساكبة الدموع الحارة ـ دموع ندم وحب وحزن ـ .

ولم تكن الساعة الثانية بعد نصف الليل إلا سمعت مدام موستل صوتاً زعزع أركان ذلك البيت : وامصيبتاه والوعتاه لمن تتركني :

يا راحلا ودموع الحزن تصحبه   هل من سبيل إلى لقيـــاك يتفق

نعم مات ولم يبق لها أن تراه وعما قليل ينحل في قبره ويعود إلى التراب الذي أخذ منه الإنسان . كانت مرغريت تسمع كلام أمها وتفهمه ولا تستطيع أن تعمل بموجبه بل كانت تغمض عينيها وتأبى أن تجيب عليه بكلمة حتى حارت أمها في أمرها وفي غضون ذلك وصلت مدام فارز وهي مصفرة الوجه ممتقعة اللون خائرة القوى ، فنهضت للقائها مرغريت بسرعة وتعانقتا وهما تعولان وتنتحبان حتىجرت دموعها على الحضيض وما من معز يفثاء لوعتهما ولا تزدادان إلا صياحاً ونواحاً بنوع يرق له الصخر ، ثم سألتها مرغريت وكيف بلغك خبر نعيه ؟ أجابتها ، كان كتب لي ليلة مجيئك إلى هنا ، أشار أن يرسل لي كتابه بعد موته وهكذا وصلني في هذا الصباح . فتجدد بكاء مرغريت وقتاً طويلاً وهي تندبه وترثيه وتودعه الوداع الأخير بألفاظ تزحزح الجبال الرواسي ، ثم قالت لها مدام فارز . هل تريدين أن تأتي إليَّ حيث تبقين يوماً أو يومين ؟

ـ نعم بكل اختيار . قالت أمها : وزوجك يا مرغريت .. ؟

ـ لا أقدر أن أراه الآن .. فأنا أريد الذهاب معها لا محالة !

. . . .

جثت الإثنتان أمام جثة ألبير الهامدة زماناً غير يسير وهما تصليان وتضرعان إلى الله بأن يرحمه ويمتع تلك الروح براحة في فسيح جنانه ،

ثم زودتاه بنظرات الوداع الأخيرة وخرجتا وفي كل قلب جرح عميق .

نعم إن نيران الحزن المتقدة في الأحشاء تخمد شيئاً فشيئاً ثم يستدعي الصغير أمه فتعود هذه إليه بشوق وحنين والعود أحمد وذاك الذي كان حليماً غفوراً يصبح في آخر الأمر محبوباً أبد الدهر ...

فهرست
الأعمال الكاملة مي زياده
المجلد الثاني

الموضوع | الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة
رسالة الأديب إلى المجتمع العربي	٢٥٣
الإنسان كائن روحي	٢٦٣
حاجتنا إلى ثقافة اجتماعية	٢٧٠
تحية الربيع	٢٨١
ظلمات وأشعة	٢٨٥
من كوة الحياة	٢٨٧
أنا والطفل	٢٨٨
بين عامين	٢٩٢
نشيد نهر الصفا	٢٩٤
الساعة المفقودة	٢٩٩
يا سيدة البحار !	٣٠٢
بكاء الطفل	٣٠٥
دمعة على المغرّد الصامت	٣٠٧
نحو مرقص الحياة	٣١٢
نحو مرقص الحياة	٣١٣
الذكرى الجديدة	٣١٨
العيون	٣٢١
الحكيم ومطالب الحكمة	٣٢٤
ليلة عيد النصر	٣٢٦
الطبيعة المعمرة المدمرة	٣٣٢
يوم الموتى	٣٣٤
في مرقص الحياة	٣٤٠
كن سعيداً	٣٤٢
السهرات الراقصات	٣٤٨
الموضوع التائه	٣٥٣
أنت أيها الغريب	٣٥٨
قرب منعطف السبيل	٣٦١

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

مؤلفات مي زياده

أدب - قصة - نقد - اجتماع - تاريخ - عمران - فن - حضارة

باحثة البادية
وردة اليازجي
عائشة تيمور
بين الجزر والمد
المساواة
غاية الحياة
الحب في العذاب
كلمات وإشارات ج١
كلمات واشارات ج٢
ظلمات وأشعة
الصحائف
سوانح فتاة
ابتسامات ودموع
رجوع الموجة



هذا الكتاب

يسرّنا أن نقدّم إلى قرّاء العربيّة **مؤلفات ميّ زياده الكاملة** في مجلّدين. وقد أضيف إليها وللمرّة الأولى، الجزء الثاني من «كلمات وإشارات»، الذي عكفت على جمعه وتحقيقه، الأديبة الباحثة السيّدة سلمى الحفّار الكزبري، ورواية «الحب في العذاب».

«**المؤلفات الكاملة لمي زياده**» في حلّتها الجديدة، صفحات مشرقة من الأدب الرفيع، والفكر المبدع، والأسلوب الأنيق. وعندما تجتمع للأديب الثقافة العالية، إلى جانب الموهبة الأصيلة، تتوافر لآثاره أسباب الخلود، وتصبح منهلاً ثرّاً للقرّاء في كل زمان ومكان.